

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

نموذج رقم (١)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباح) : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن تسمى : المؤيد
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في اللغة العربية
عنوان الأطروحة : ((المدح النبوي في مقامات بلقيش بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي جهم)
القرن السادس الهجري

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه

أجمعين وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المختصة بالدراسة العلمية للأطروحة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤/١٠/١٤١٩ هـ. فبإجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة بالدرجة العلمية المذكورة أعلاه. والله الموفق.

أعضاء اللجنة

الناقد الخارجي

الناقد الداخلي

الشيخ

الاسم : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الاسم : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن
التوقيع : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التوقيع : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن

رئيس قسم الدراسات العليا

أحمد بن محمد بن عبد الرحمن
١٤١٩
١٤

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى / مكة المكرمة
كلية اللغة العربية
قسم الأدب



الاتجاه الإسلامي في المقامات المشرقية

من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري

((بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة))

إعداد الطالبة

ابتسام محمد سعيد باحمدان

إشراف الأستاذ الدكتور

إبراهيم الحارثو

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة الدكتوراة التي تحمل عنوان

الاتجاه الإسلامي في المقامات المشرقية من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري

والذي ظهر بوضوح تام عند الزمخشري، وابن الجوزي دون بقية المقاميين، هذا والبحث يتكون من مقدمة وتمهيد، وباين وخاتمة، تناولت في التمهيد تطور دلالة فن المقامة في الأدب العربي، والتأكيد على أن بادع الزمان الهمداني هو حامل لواء هذا الفن، أما الباب الأول والذي يحمل عنوان قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة، فيتكون من ستة فصول، كان الأول منها عن الأخلاق الإسلامية في المقامة تناولنا أبرزها والمتثلة في الزهد، والصبر، والشكر، والكرم، وحسن الصحبة، والوفاء، والشجاعة، والتي لم تكن عند المقاميين على وتيرة واحدة، وإن كان الزمخشري، وابن الجوزي يثان عليها أكثر من سواهم، أما الفصل الثاني فقد كان عن النقد الاجتماعي الذي ظهر واضحا في النزعة إلى الوعظ، ونقيض ذلك في مجالس اللهو والمجون، والكدية واستغلال المساجد لغير العبادة، وغير من ظهر ذلك في مقامته، البديع والحريري وابن نايقا، أما الصورة الصحيحة فقد حث عليها ابن الجوزي والزمخشري، وكذا الفصل الثالث الذي كان عن الحاكم فهو عندهما يحرص على البطانة الصالحة، وحضور مجالس الوعظ خلافاً لبقية المقاميين.

بينما الفصل الرابع كان يتناول الجهاد بأنواعه والذي لم يعطه المقاميون حقه رغم أنهم عاشوا كثيراً من الحروب وعلى رأسها الحروب الصليبية. أما الفصل الخامس فقد كان عن الحياة والموت حيث خرجت بأن المقاميين أشاروا إلى ذلك من أول نفخ الروح إلى دار القرار الأخير، وآخر فصل كان عن علوم اللغة العربية حيث تطرق المقاميون إلى بعض علومها من نحو، وعروض، وقافية باستعمال مصطلحاتها وخاصة الزمخشري الذي انطلق لوعظ نفسه قبل غيره بها.

وبالباب الثاني كان عن ملامح الفن الإسلامي في المقامة، وهو فصلان:

الفصل الأول: ويشمل: فن الوعظ، وفيه الرمز المعتمد على الكناية والذي استغله الزمخشري وابن الجوزي ليعظا به إضافة إلى أن الأول اتكأ على استدعاء الشخصيات القرآنية والتاريخية ليوظفها في وعظه؛ ليكون أذع للتأثير، وزاد عليه ابن الجوزي الذي رمز عن طريق قصص الحيوانات.

أما القصة فقد لجأ إليه المقاميون إلا أن ابن الجوزي والزمخشري اعتمدا على قصص الأنبياء؛ ليصلا إلى موطن العبرة والعظة منها أكثر من غيرهم، يلي ذلك الواقعية حيث تقصيت الواقعية الإسلامية فوجدتها تمثلت في الاستخارة، والدعاء، وحسن الجوار، وإقامة الدروس في المساجد، وإفشاء السلام، والصحبة الحسنة، وحب العلم والعلماء والحث على النكاح، والحج، والتوبة، والحجامة، ظهرت عند الحريري.

أما ابن الجوزي فظهرت الواقعية الإسلامية لديه من خلال الوعظ بالموت وإحياء الليل، والاعتكاف، والقناعة، والعزلة، والحرص على الصلاة والصوم ليتعظ من لم يجعل واقعه كواقع المسلم الحق.

والفصل الثاني عن الأسلوب فكان عن المعجم اللغوي الذي خرجت منه بأن لغة المقاميين كانت متينة أنيقة تارة، وغريبة ثقيلة أخرى يمثل الأولى الزمخشري، والثانية الحريري، أما الصياغة ممثلة في السجع، والجناس، والطباق والمقابلة، فقد كانت من الكثرة لتجعل القارئ يلجأ للمعجم لمعرفة معانيها، وفي الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم من الشعر والأمثال، عمد المقاميون فيه إلى النوع المقبول والمباح إلا ابن الجوزي فقد تجاوز أثر القرآن في مقاماته إلى الإفادة من منهج القرآن في الدعوة إلى الله تعالى.

أما الصورة الممثلة في التشبيه، والاستعارة، والمجاز، فلقد امتلأت مقامات المقاميين بها إلا أن أجملها تشبيهات ابن الجوزي لأنها من قصص القرآن.

وأخيراً الخاتمة التي دونت فيها نتائج البحث، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العميد
أ.د. صالح جمال بدوي

المشرف
أ.د. إبراهيم أحمد الحارثي

الطالبة
ابتسام محمد سعيد باحمدان
١٤١٩
١١/١٧



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، وخير الهدي هدى محمد ﷺ والذي ضمن الله لهما البقاء والحفظ في عقيدة أفرادهم، - صلى الله عليه وسلم - وشرائعهم، وحياتهم، وآدابهم.

ولذا فقد حث الإسلام على العلم من خلال الكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وانبرى لتطبيق ذلك فئة من الناس؛ فنهلوا من معين العلم، ومن ثم أخذ يظهر على ما ألفوه، فمنهم من كان نبراساً سطع ضوء ما تعلمه فيما كتبه، ومنهم من لم يكن كذلك، إلا أن من ينهل من معين الكتاب والسنة لا بد أن يبرز ما تعلمه؛ ليظهر فوق ماسطره اشعاعات نور، وهذا ما حدث من كتاب المقامات في القرن الرابع والخامس والسادس من القرون التي كان الأدب قد أخصب فيها، حيث ازدهر في الرابع منها وآتى ثماره في الخامس، وأما السادس فكان عصر المقامات.

أما لماذا المقامات؟

- فلأن المقامات فن تميز به أحد عصور الأدب المتعارف عليها عند الدارسين وهو العصر العباسي، وربما يقال: إن الدراسة حولها مستفيضة... فنقول: حول البديع ربما؛ لأنه مبتكر هذا الفن، ومثله الحريري أما بقية المقامات كمقامات ابن الجوزي، والزمخشري، والنعماني، والأسواني، والغزالي، وابن نباته، وابن ناقياء، فلا، اللهم كتب ثلاثة دارت حولهم، وأخرجت هذا من دائرة المقاميين كـ(الغزالي في دراسة د. عبد الملك مرتاض)⁽¹⁾، أو حذف ذلك بعد ذكر اسمه لعدم الوقوف على

(1) في كتابه: فن المقامات في الأدب العربي.



مقاماته كـ(ابن نباته السعدي عند د.حسن عباس)^(١)، أو لكونها مفقودة كـ(الخصيبي للأسواني عند د.يوسف نور عوض)^(٢).

- أضف إلى هذا أنه لم يتطرق أحدهم إلى الاتجاه الإسلامي بدراسة وافية، وإن أشاروا إلى الوعظ عند بعضهم.

والبحث لا يدعي كمال ذلك، وإنما عملت جهدي؛ لأخرج المضمون موافقاً للعنوان، وهو :

(الاتجاه الإسلامي في المقامات المشرقية من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري).

ولعل هذه الدراسة ترد على من وصف هذين القرنين - الخامس والسادس - بأنهما عصر غروب شمس الأدب العربي، أو العصر الفضي كما وصفه المستشرق جب حين قال عن القرن السادس والسابع: «إنه العصر الفضي؛ حيث كان العصر السابق هو العصر الذهبي، وأنه لم يكن يمتاز بالعبقرية والإبداع بقدر مامتاز به من براعة في الصنعة ومهارة في الصياغة الفنية»^(٣)، وتبعه في ذلك د.شوقي ضيف الذي قال عن القرون التالية للقرن الرابع: «لقد أجذب معين الحضارة العربية فلم يعد يظهر من جديد إلا هذه الضروب من التعقيد والتصعيب، وإن الإنسان يشعر كأن الحياة العربية قد أصيبت بعطل شديد وأنه عطل يتسع، فإذا مصانع النثر لاتستطيع أن تخرج ضرباً جديداً أو مذهباً حديثاً، إلا هذه الطرق المتتوية المحملة بالتصنع لمصطلحات العلوم والتكلف لأشياء شاذة كالأمثال، والإشارات التاريخية والأدبية ... وقد خمدت العصور التالية عند هذا الأسلوب»^(٤).

(١) في كتابه : فن المقامة في القرن السادس.

(٢) في كتابه : فن المقامات بين المغرب والمشرق.

(٣) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، ص ٢٠.

(٤) الفن ومذاهبه، ص ٣١٠.

ونظرة إلى الكتب التي تُعنى بتدوين كتب التراث في شتى العلوم التي ظهرت في ذينك القرنين ترد تلك المزاغم؛ أضف إلى ذلك ظهور نقاد ومؤلفين خدموا الأدب وأخصبوه. صحيح أن أغلب كتاب هذا العصر قد أغرقوا كتاباتهم بالحلية اللفظية على حساب الأفكار والعواطف، غير أنهم لم يكونوا بدعاً في ذلك، فكتاب القرن الرابع هم الذين أسسوا تلك الطريقة، واحتكموا إلى المحسنات البديعية، وصحيح أن نتاج هذا القرن - السادس - الأدبي والفكري لا يوازي نتاج القرن الرابع المصطلح عليه بالعصر الذهبي للأدب - لا من حيث الوفرة، ولا من حيث الجودة الفنية إلا أنه فرق لا يجعله كالفرق بين معدني الذهب والفضة، والذي أصبح أول انطباع يطلق على أدب هذه الفترة؛ مما يدعو الناشئين وعشاق الأدب ومحبي الثقافة إلى الزهد في كل نتاج هذا العصر قبل أن يطلعوا عليه. هذا مادعاني إلى اختيار تلك الحقبة من الزمن، لتقوم الدراسة عليها، أضف إلى ذلك أن هذه الفترة عاصرت الحروب الصليبية، سواء في مراحل الهزائم أم في أطوار الانتصارات التي فجرت ينابيع الشعر فعبّر عنها الشعراء، فأردت معرفة مدى تأثيرها على الكتاب المقامين، في محاولة لاستخراج نتاجها الحبيس في المكتبات، إذ ليس على الباحث إلا أن يدرس الأدب في فترة زمنية، - كما فعل هذا البحث - ويخرج منها بنتائج، ويلقي مزيداً من الضوء على نتاج تلك الفترة، ولا ينقص من عمله أو يقلل منه أن تكون تلك النتائج في غير صالح ذلك الأدب، أو أن أدب تلك الفترة أقل جودة من غيره، ولا يعني كونه أقل جودة من نتاج قرون أخرى أنه رديء أو لا يستحق البحث والدراسة.

هذا وقد كان منهجي في كتابة البحث على النحو التالي :

- عمدت إلى تعريف عناصر الموضوع في اللغة والأدب بعزوها إلى مصادرها الأصلية، ووجوه استعمالها فيها، ومن ثم ماظهر منها عند المقامين.
- كان أهم ما ارتكز عليه البحث : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في إظهار الاتجاه الإسلامي، فالآيات عزوتها إلى سورها، والأحاديث خرجتها من مصادرها الأصلية.

- جمعت عناصر موضوعاته من أصحاب المقامات، وإن كانت كثيرة ركزت على التوضيح في الأمثلة الأولى ثم أشرت إلى الأمثلة الأخرى فقط، ماعدا الواقعية فقد



مثلتها لدى المقامين كلهم في المثال الأول، ثم اخترت واحداً فقط يمثل أصحاب المقامات التي تقوم على الكدية، وآخر للتي تقوم على الوعظ.

- لجأت إلى التسلسل التاريخي أثناء عرض الأفكار، اللهم إلا في فصل أو فصلين أغفلت التسلسل التاريخي، وعولت على تقديم من ظهرت الفكرة واضحة لديه دون سواه؛ كما في فصل الأخلاق الإسلامية والواقعية.

- لم أقف طويلاً أمام من كان له السبق في إظهار هذا الفن بل كان جل تركيزي على بيان مدى وجود الاتجاه الإسلامي في تلك المقامات أو بعده؛ حيث قام البحث على عمل موازنة بين الكتاب المقامين في نهاية كل فصل بعد العرض، والتحليل لبعض مقاماتهم التي تسبق تلك الموازنة.

- استند البحث في بابه الثاني على الدراسات السابقة التي كان لمقامات البديع والحريري نصيب الأسد في معالجتها الفنية، أما بقية المقامات فلانكاد نجد إلا القليل من التنويه بها، فحاولت سد هذا الخلل وجعلتها متساوية في الدراسة قدر المستطاع إلا أصحاب المقامة الواحدة.

- أما مصادر الرسالة ومراجعها، فقد كانت كثيرة ومتنوعة، وأبرزها المخطوطات التي قام جزء من الرسالة عليها كمقامات ابن نباته، وابن نايقا، والأسواني. ومن المراجع التي اعتمدت عليها كثيراً في دراستي :

- فن المقامات في الأدب العربي للدكتور عبدالمملك مرتاض.

- فن المقامات بين المشرق والمغرب للدكتور يوسف نور عوض.

- فن المقامة في القرن السادس للدكتور حسن عباس .

إلا أن الكتب الثلاثة كان تركيزها على التأصيل لفن المقامة، ثم تتبع تطور المقامات، وأثرها على الآداب الأجنبية كما عند د. يوسف نور الذي أقام الباب الثالث بأكمله لاثبات ذلك أو نفيه، أو إدراج فن المقامة ضمن فن القصة كما عند د. عبدالمملك مرتاض الذي جعل الفصل الثالث من بابه الثالث لذلك، وإن كان كلاهما تناول الفن المقامي دون تحديد مدة زمنية محددة، لكن لهما فضل السبق وأنهما كما قال د. مرتاض: «وإني لسعيد أن أكون أول معالج لفن المقامات على هذه



الصورة العامة الشاملة، التي ستتيح للباحثين من بعدي أن يختصوا في عناصر خاصة من هذا الفن الغني الخصيب، كما ستتيح لهم أن يهتدوا ببعض ماتوصلت إليه من نتائج عامة خلال بحثي هذا الذي استغرق بضع سنين من الزمن»^(١).

والحق يقال لقد كان عمل د. مرتاض الضوء الذي كنت استرشد به في طريقي لإقامة هذا البحث، الذي تخصص في عناصر خاصة - كما قال - وهي إظهار الاتجاه الإسلامي في تلك المقامات، ومن ثم عمل د. حسن عباس.

وقد رتبت المصادر، والمراجع حسب الترتيب الهجائي لاسم الكتاب، ومن ثم أذكر المؤلف، ويتبعه بقية المعلومات الخاصة بفهرس المصادر والمراجع.

أما عن الصعوبات التي واجهتني فهي جمّة، إذ لا يخلو بحث من ذلك، إلا أن أصعبها الجهد المضني الذي بذلته للوصول إلى مقامي ابن نباته والغزالي من ألمانيا، ومقامة ابن نايقا من اسطنبول، فأما مقامتا ألمانيا فقد طرقت كل السبل للحصول عليهما منذ السنة الأولى لقيامي بهذا البحث بدءاً من الملحق الثقافي بالسفارة السعودية هناك، أو السفارة الألمانية بالرياض، مروراً بالاتصالات بجامعة الجزائر لأصل للدكتور عبدالملك مرتاض، وانتهاءً بالدكتور فؤاد سزكين الذي اعتذر عن مدّ يد المساعدة لي معللاً بأن هذا ليس مجال عمله هناك في ألمانيا، أضف إلى ذلك أنني لم أترك مركزاً للبحوث إلا وكان لي معه قصة بدءاً من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، ومروراً بمركز العلوم والتكنولوجيا بجده اللذين أحالاني إلى فؤاد سزكين بألمانيا فاعتذر الأخير، إلى أن قيض الله لي الدكتور وفاء قزمار التي أحضرت لي المخطوطتين من ألمانيا في رمضان العام الماضي. وأما مقامات ابن نايقا، رغم أنها مطبوعة كما أشار لذلك د. مرتاض، فإنّ جهوداً مضنية بذلت، ومع ذلك لم أحصل سوى على المخطوط قبل شهرين من تسليم البحث (والحمد لله)، ولولا ذلك لكان البحث أقيم على المقامين الآخرين دون هؤلاء الثلاثة.

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣.



هذا ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد وباين وخاتمة، تناولت في المقدمة أسباب اختياري لهذا الموضوع، والخطة التي سار عليها، والمنهج الذي اعتمده البحث. وكان التمهيد في لمحة دالة عن فن المقامة في الأدب العربي.

أما الباب الأول فكان عن : قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة، وفيه ستة فصول :

الفصل الأول منه : عن " الأخلاق الإسلامية في المقامة "، وشمل الزهد والصبر، والشكر، والكرم، وحسن الصحبة، والوفاء، والشجاعة.

والفصل الثاني: عن " النقد الاجتماعي في المقامة "، وشمل الحديث عن مجالس الوعظ، واللهو والمجون، وإبراز عقليتهم التي كانت تؤمن بالحرز، والعين، وبالشعوذة، وشياطين الشعر وبالتطير، ومن ثم الحديث عن الكدية، بطرق منها: بالتعامي، أو ادعاء عاهة أو القرّاد، أو الادعاء بتبدل الحال مع وجود العيال، ومن الصور: بيع العبيد والمرأة، واستغلال المساجد لغير العبادة، والطعام والمطاعم، ونقد بني زمانهم.

والفصل الثالث: عن " الحاكم في المقامة " الذي يمثل رؤية إسلامية والآخر الذي لايمثلها.

والفصل الرابع: عن " الجهاد في المقامة " إما بالسيف، وإما جهاد النفس، وإما المجتمع.

والفصل الخامس : عن « الحياة والموت في المقامة »، فأما الحياة فمثلة في نفخ الروح، وإحياء الموتى بعد خروج الأرواح، والهدى، والبقاء، وحياة الأرض بالنبات، وأما الموت فمثلته المقامات في زيارة القبور، ووضع الإنسان في قبره، وحاله بعد ذلك في الصراط، ثم دار القرار.

والفصل السادس: فكان عن علوم اللغة العربية في المقامة : ممثلة في علم النحو، والعروض، والقافية، والنقد الأدبي.

أما الباب الثاني : فعن: « ملامح الفن الإسلامي في المقامة »، « دراسة فنية » وهو فصلان:

الفصل الأول : عن " فن الوعظ "، ويشمل : الرمز ، والقص، والواقعية.



والفصل الثاني : " الأسلوب " ويشمل :

١- المعجم اللغوي .

٢- الصياغة .

٣- الصورة .

ثم الخاتمة التي كانت فيها نتائج البحث، تتبعها الفهارس.

هذا وأحمد الله على عونه ومدته لي بفيض من الصبر والعون والتميسير، وأسأله التوفيق والسداد لي ولوالدي ولزوجي، ولكل من أسدى لي يد العون؛ لإبراز هذه الرسالة إلى حيز الوجود.

ولما قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، ولما كان على المسلم الحق أن يكون شكوراً، معترفاً بالفضل لأهله، فقد خطت يدي هذا الشكر عرفاناً بالجميل لوالدي الكريمين - أطال الله في عمرهما - اللذين كان لهما فضل غرس حب العلم في نفسي، ومن ثم الشكر والامتنان لزوجي الذي كنت اقتطع الكثير من وقته لأنجز هذا البحث، وكان يحفزني ويحثني للانتهاء منه.

كما أتوجه بالشكر الجزيل كذلك إلى جامعتي؛ جامعة أم القرى التي أتاحت لي الفرصة؛ لأكمل دراستي في رحابها، وأخص بالشكر القائمين على كلية اللغة العربية، وقسم الدراسات العليا العربية.

وأتقدم بعظيم الشكر إلى المشرفين على هذه الرسالة أستاذي الدكتور مصطفى عليان، الذي رعى هذا البحث منذ أن كان فكرة، حتى أصبح حقيقة ماثلة للأعين، وأستاذي الدكتور إبراهيم الحارثي الذي أكمل الإشراف معي فأخرجت هذه الرسالة على هذا الوجه، فجزاهما الله عني خيراً الجزاء.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذين الفاضلين، عضوي لجنة المناقشة؛ لتكرمهما بقبول مناقشة هذه الرسالة، وعلى بذلهما الوقت والجهد في تقويمها، وأسأل الله أن ينفعني بتوجيهاتهما، والله ولي التوفيق.



هذا ويعلم الله أنني ما قصرت، وأنني بذلت أقصى ما في جهدي وطاقتي، فما كان في هذا البحث صواب، فهو من فضل الله وتوفيقه وكرمه، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، فأسأله العفو والمغفرة، وأن يتقبل هذا العمل مني، ويجعله في ميزان حسناتي، كما أسأله أن ينفعني وينفع به ... آمين .

تمهيد

**تطور دلالة فن المقامة
في الأدب العربي**



نشأة فن المقامة

لما كان البحث كله يدور حول «المقامات»، فمعرفة الأسباب التي أطلقت من أجلها هذه الكلمة أول ما حثنا على الكتابة عنها، ولعل «البديع* الذي سمي كتابه المعروف «كتاب المقامات» لم يترك لنا مقدمة يوضح فيها سبب هذه التسمية، ولعله فعل ولكن هذه المقدمة ضاعت مع ماضع من مقاماته»^(١).

ومن كتب عن مدلول لفظ «مقامة» في اللغة د. عبد الملك مرتاض^(٢)، و د. يوسف نور عوض^(٣)، و د. حسن عباس^(٤).

وقد كان د. عبد الملك مرتاض أكثر دقة في تقسيم تلك الدلالات، الذي ثنى بعدها بتعريف مدلولها القديم في الشعر، وثلاث بذكر دلالة «مقامة» في النثر العربي قبل ظهور المقامات الفنية.

وخرج بأن ابن قتيبة ت سنة ٢٧٦هـ من أوائل الكتاب الذين أطلقوا على الأحاديث الوعظية التي يقوم بها الخطباء أمام الخلفاء أو الأمراء لفظ «مقامات» في

(١) نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، ص ٩-٢٢، ط. دار المعارف، ١٩٨٦ م.

(٢) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٩-٢٥، ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠ م.

(٣) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ٩-١٤، ط ٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(٤) نشأة المقامة في الأدب العربي، ص ٩-٢٢.

(*) بديع الزمان الهمداني (٣٥٨-٣٩٨هـ): أبو الفضل أحمد بن الحسين، ولد في همدان، عاش

أربعين سنة فقط، كان يعتز بعروبه، أملى مقاماته التي كانت حدثاً فريداً في عالم الأدب.

انظر: بديع الزمان الهمداني، رائد القصة، د. مصطفى الشكعة، المقدمة، عالم الكتب ط ١،

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م. ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي، ١٦٢/٢، دار إحياء التراث العربي.

وفيات الأعيان، لابن خلكان، ١٢٧/١، دار صادر، بيروت. ويتيمة الدهر، للنعالي،

١٦٧/٤، المطبعة الحفنية.



كتابه «عيون الأحبار»^(١)، ومثله ابن عبدربه الأندلسي ت سنة ٣٢٨هـ، في كتابه «العقد الفريد»^(٢)، وكذا المسعودي (ت سنة ٣٤٦هـ) في كتابه «مروج الذهب»^(٣)، لكنها في مدلولها العام تدور بين الموعظة والخطبة.

أما أبو علي القالي ت سنة ٣٥٦هـ في كتابه «الأمالي»^(٤)، فشرح لفظ «مقامة» على أنها المجلس، إلى أن قال :

«وكذلك ظل لفظ (مقامة) حيث كان في الشعر الجاهلي، لم يكد ينفخ فيها شاعر إسلامي، ولا كاتب قبل البديع الهمداني، ... إلا ابن قتيبة الذي كان يثب به إلى مدلول جديد؛ وهو الوعظ الصرف، والترغيب عن الدنيا، إلى أن جاء زعيم فن المقامات بديع الزمان، فألبس المقامة حلة لم تلبسها من قبل ...، فقد أصبحت المقامة تعني منذ ظهور فن البديع الأقصوصة أو الحكاية أو النادرة المعنوية في ألفاظ أنيقة، وأسلوب مسجوع»^(٥).

وإلى مثل هذا أشار د. حسن عباس فقال :

«إن المقامات ... عند ابن قتيبة قد دونت في كتب تختص بها، أو ضمن كتب الخطب، ... أما المقامات الأدبية بالمعنى الذي نعرفه اليوم فلم تعرف حتى طلع بديع الزمان الهمداني، وبهذا وضع لكلمة المقامات معنى اصطلاحياً لم يستعمل من قبل»^(٦).

-
- (١) ٣٣٣/٢، دار الكتب، سلسلة تراثنا .
 - (٢) ١٥٨/٣-١٦٤، ت: د. عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
 - (٣) انظر: ٤١٣/٢، ٤١٤، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٦، ط ١٢٨٣هـ، مصر.
 - (٤) ٩٥/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
 - (٥) فن المقامات في الأدب العربي، د. عبدالمملك مرتاض، ص ٢٣.
 - (٦) نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، ص ١٤.



ولعل بروكلمان^(١) أول من حاول تتبع كلمة مقامة وتطورها ... لهذا عاد د.حسن عباس وقال :

((إن العرب أوسعوا في معنى الكلمة «مقامة») حتى سموا مايدور في هذه المجالس من خطب ومواعظ وغيرها مقامات، ومن ثم لانرى أن هناك هبوطاً أو ارتفاعاً في معنى الكلمة، وكل ماهنالك أن الكلمة أصبحت تدل دلالة اصطلاحية خاصة على نوع من النشاط الأدبي ... ولاشك عندي في أن الكلمة ظلت حية سواء بمعانيها القديمة أو بمعانيها الاصطلاحية الأخرى إلى جوار المعنى الاصطلاحى الأدبي الذي خلعه عليها البديع^(٢)).

وهذا الفهم لمعنى المقامة جعل د.عبدالرحمن ياغي^(٣)، و د.محمد رشدي حسن^(٤)، يضمنان إلى المقامات الأدبية مقامات الزهاد والوعاظ عند ابن قتيبة، وابن عدي، والغزالي* وتبعهما في ذلك د.يوسف نور عوض^(٥).

(١) انظر: تطور الأساليب الشعرية، أنيس المقدسي، ص ٣٦٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦، ١٩٧٩م.

(٢) نشأة المقامة في الأدب العربي، د.حسن عباس، ص ١٥.

(٣) رأي في المقامات، ص ٢٠، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩م.

(٤) تطور فن المقامة : ٢-٨، ١٠٢-١٠٤ (رسالة دكتوراه مخطوط بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٠م).

(٥) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ٧١.

(*) الغزالي(٤٥٠-٥٠٥هـ): أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي، خلف آثاراً علمية خالدة قيل إنها نحتت من (٢٢٨) مؤلفاً أكثرها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ، ومنها المقامات.

انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢/٧، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط (٥) ١٩٨٠م . البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٥/١٢، مكتبة المعارف، بيروت، ط (٢)، ١٩٧٧م. تاريخ الإسلام



وكما اختلف الباحثون في نشأة فن المقامة، اختلفوا في الرجل الذي إليه ينبغي أن ينسب قصب السبق، ويكاد بديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين ت ٣٩٨هـ يكون حامل لواء هذا الفن، الذي ثبت دعائمه، وأرسى أسسه، وجاء فيها بما لم يخاطر على ذهن أحد من سابقه يشهد له بذلك عدد لا يستهان به من جل العلماء السابقين، وأكثر الباحثين المحدثين، ولعل الإمام الحريري* صاحب المقامات المشهور من أوائل من شهد له بذلك في قوله في مقدمة مقاماته: ((فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركزت في هذا العصر ريجحه، وخبث مصايحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان - رحمه الله تعالى - وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف، فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم إلى أن أنشيء مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع))^(١).

- = السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن إبراهيم حسن، ٥٣٢/٤-٥٣٣، المكتب الإسلامي، ط (١) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥ م. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد، ٢م، ٤/١١-١٢، القاهرة، ١٣٥٠هـ. طبقات الشافعية، قاضي شهبة، ت: عبدالعليم خان، دار الندوة الجديدة، ط ١٤٠٨هـ، ٤/١٠١. سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٩/٣٢٢-٢٢٣، ت: شعيب الأرنؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣ م.
- (١) شرح مقامات الحريري، للشريشي، ١/٢١-٢٥، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الظالع: العرج، الضليع: العظيم الخلق الشديد. انظر اللسان، مادة: ظلع، ضلع.
- (* الحريري (٤٤٦-٥١٦هـ): هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري، حنبلي، كتب خمسين مقامة واتخذ له راوية هو الحارث بن همام والبطل وهو أبو زيد السروجي.
- انظر: انباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، ٣/٢٥، دار الكتب المصرية. بديع الزمان الهمذاني رائد القصة، د. مصطفى الشكعة، ص ٤٠٩. معاهد التنصيص، عبدالرحيم العباسي، ٣/٢٧١، عالم الكتب، بيروت. معجم الأدباء للحموي، ١٦/٢٦١. المقامة، د. شوقي ضيف،

وقوله «... مع اعترافي بأن البديع - رحمه الله - سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يعترف إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته. والله در القائل:

فلو قبل مبكاها بكيث صبايةً ** بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا ** بكاها فقلت: الفضل للمتقدم»^(١)

وشايع الحريري على نسبة اختراع هذا اللون من فنون النثر إلى البديع ابن خلكان ت سنة ٦٨١هـ فقال في ترجمة البديع: «... صاحب الرسائل الرائعة، والمقامات الفائقة، وعلى منواله نسج الحريري مقاماته، واحتذى حذوه، واقتفى أثره، واعترف في خطبته بفضله، وأنه الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج...»^(٢)، وابن حجة الحموي ت ٦٢٦هـ في سياق حديثه عن البديع، قال: «وهذا الإمام المتقدم الذي صلى الحريري خلفه، وأشار إليه بقوله في مقاماته:

فلو قبل مبكاها بكيث صبايةً ** بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا ** بكاها فقلت: الفضل للمتقدم

فإن البديع هو الذي سبق الحريري إلى نظم المقامات، وسبك العلوم في تلك القوالب الغريبة، وعلى منواله نسج الحريري...»^(٣)، والقلقشندي ت سنة ٨٢١هـ، وكان كلامه في ذلك واضحاً صريحاً، إذ قال «واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر، وإمام الأدب البديع الهمداني»^(٤).

= ص ٤٤، ط ٦، دار المعارف. وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٦٣/٤، ت: د. إحسان عباس، ط.

دارصادر بيروت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٣.

(٢) وفيات الأعيان، ١/١٢٧.

(٣) خزانة الأدب، ١/١٣٢، ط ١، القاهرة ١٣٠٤هـ، المطبعة الخيرية. صلى: جاء بعده، اللسان،

مادة: صلى.

(٤) صبح الأعشى، ١٤/١١٠، القاهرة ١٣٤٧هـ-١٩٧٥م، دار الكتب المصرية.



والشهاب الخفاجي ت سنة ١٠٦٩ هـ فقال: «وأول من اخترع هذا البديع الهمذاني، وتابعه الحريري، والزمخشري* والفضل للمتقدم»^(١). أما ابن نباته**، وابن نايقا***، والنعمانى****، فلم نجد لهم ذكراً؛ ربما لقلة عدد مقاماتهم.

- (١) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، ص ١٨٩، ط ١، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ.
- (*) الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨ هـ): جارا لله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ولد في خوارزم. انظر: تاج التراجم في طبقات الحنفية، زين الدين قام ابن قطلوبغا، ص ٧١-٧٢، بغداد ١٩٦٢ م. الفوائد البهية في تراجم الحنفية، أبو الحسنات اللكنوي، ص ٢٠٩-٢١٠، دار المعرفة، بيروت. معجم الأدباء، للحموي، ٨٦/٤، ١٣٢/١٩. مقدمة شرح مقامات الزمخشري يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط (٢). مقدمة الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب اللبناني، بيروت. وفيات الأعيان لابن خلكان، ١٧١/٥. يتيمة الدهر للثعالبي، ١٠١/٤.
- (**) ابن نباته (٣٢٧-٤٠٥ هـ): هو أبونصر عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن أحمد ابن نباته، له مجلس أدب يحضر فيه الأدباء والشعراء يتبادلون فيما بينهم الأشعار. انظر: ديوان ابن نباته، ٢٢/١-٨٠، دراسة وتحقيق: عبدالأمير مهدي حبيب الطائفي، دار الحرية، بغداد ١٩٧٧ م، تاريخ بغداد، ٤٦٦/١.
- (***) ابن نايقا (٤١٦-٤٨٥ هـ): هو أبو القاسم عبدا لله بن نايقا، وقيل عبدالباقي بن محمد ابن الحسين بن داود بن نايقا، ولد ونشأ في بغداد، وله ديوان شعر، وديوان رسائل، ومقاماته عددها عشر وليست سبع أو تسع كما قيل. انظر: انباه الرواة، للقفطي، ١٥١/١. بغية الوعاة، للسيوطي، ص ٢٩٢، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي، ط (١) ١٣٨٤ هـ-١٩٦٥ م. الجمان في تشبيهات القرآن، لابن نايقا، ت: د. مصطفى الصاوي الجويني، ص ١٠-٣٢. دائرة المعارف الإسلامية، ١٦١/٨. النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، دار الكتب المصرية، ط (١)، ١٣٤٨ هـ، ٦/٥. وفيات الأعيان لابن خلكان، ٩٨/٣. دار الثقافة.
- (****) النعماني: ت ٥٢٠ هـ، هو: أبو محمد طلحة بن أحمد بن طلحة بن الحسين النعماني، وقيل: طلحة بن محمد، من أهل النعمانية، كان فاضلاً عارفاً باللغة والأدب والشعر. وهو الذي ورد البصرة في زمان الحريري صاحب المقامات.



وتناقل عدد من الباحثين نصاً أورده الدكتور/ زكي مبارك عن «زهر الآداب» للحصري ت سنة ٤٥٣هـ، يقول فيه عن **البديع**: «وهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وكلام غضّ المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً. ولما رأى أبابكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينايع صدره، واستنتجها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض أعجمية، وألفاظ حوشية، فحاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبا الأسماع، وتوسع فيها؛ إذ صرف معانيها في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، وعارضها بأربعمائة مقامة في الكدية، تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً، لامناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى...»^(١).

وأسس الدكتور/ زكي مبارك على ذلك أن ابن دريد هو مخترع فن المقامات، فهو السابق إليه، وعلى نهجه سار **البديع**^(٢)، وقد أشكل على الدكتور/ زكي أمر «أحاديث ابن دريد» التي أشار إليها الحصري، وعزّ عليه أن يظل غيابها عقبة في سبيل ما يرى أنه إليه تنبه، فراح يلتمسها في الأخبار المنقولة عن ابن دريد في أمالي أبي علي القالي، وأخذ يحاول إقناع الباحثين أو إقناع نفسه «قبل أن يقنعنا بأنه وقف على أحاديث ابن دريد المفقودة في أمالي القالي، وحاول بكل طريق أن يخلع على هذه الصفات ما يوافق ماجاء في نص الحصري كما وقف عليه»^(٣)، وقد وقف الدكتور/ حسن عباس عند نص الحصري، وأبان في جلاء أن الدكتور/ مبارك ومن سار على

= انظر: انباه الرواة، للقفطي، ٩٣/٢. خريدة القصر، عماد الدين الأصبهاني الكاتب، القسم العراقي، ٣/٢، مطبعة الجمع العلمي العراقي، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م. فوات الوفيات، محمد بن شاعر الكتبي، ١٣٥/٢، ت: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م. معجم الأدباء للحموي، ١٢/٢٦.

- (١) زهر الآداب للحصري، تحقيق: زكي مبارك، ٣٠٥/١، ط٤، دار الجيل، بيروت ١٩٧٢م.
وانظر: الشر الفني في القرن الرابع، ٢٤٣/١، دار الكتاب العربي، القاهرة.
(٢) انظر: الشر الفني، ٢٤٤/١.
(٣) نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، ص ٢٩.



رأيه من الباحثين^(١) لم يوفقوا في فهم النص ذاكراً أن النص المذكور أدى فيما أدى إلى أن يدعى بعض الباحثين أن فن المقامة فن فارسي الأصول، أو مستمدة من أصول فارسية^(٢)، وقد استوقفت الدكتور حسن عباس عبارة الحصري: «(في معارض عجمية [كذا]، والفاظ حوشية)»، فذكر أن فيها تحريفاً، وأنها لا تستقيم إلا أن تكون «(في معارض حوشية، وألفاظ غنجية)»^(٣)، كما جاء في نص الكلاعي في إحكام صنعة الكلام^(٤)، والخطب في هذا أيسر مما شغل به الدكتور/ حسن عباس نفسه فليست «(معارض عجمية)» أو «(أعجمية)» التي جاءت في الطبعة المحققة من زهر الآداب والتي يناط بها سلب ابن دريد أثره في كونه مصدراً مهماً من مصادر البديع التي قام عليها ببيان الفن الشامخ «(المقامة)»، ولاهي مما يخول أحداً زعم أن تلك الأحاديث كانت فارسية اللحمية والسدى، ويبدو أن السبب الذي جعل الأمور تختلط في أذهان كثير

من الباحثين عدم التفريق بين شيئين مختلفين أشد ما يكون الاختلاف هما:

١- أحاديث ابن دريد التي أشار إليها الحصري بقوله: «(استنبطها من ينابيع صدره. واستنتجها من معادن فكره)».

٢- أمالي ابن دريد التي تدخل في جانب مروياته فهو فيها ناقل عن شيوخه، وعلى وجه الخصوص عن عبدالرحمن عن عمه الأصمعي^(٥)، وعلى الرغم من أن

(١) انظر: من هؤلاء: د. شوقي ضيف في كتابه (المقامة) ص ١٧، د. محمد رشدي حسن (تطور فن المقامة) ص ٢٠-٢١، ٣١، عبدالرحمن عبدالرؤف الخانجي (فن المقامة والرسالة الأدبية في الأندلس) ص ٦.

(٢) انظر: نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، ص ٣٢-٣٦.

(٣) انظر: نشأة المقامة، ص ٣٧، وذكر أنها في معجم الأدباء جاءت محرفة (.. وألفاظ عنجهية)، يراجع: معجم الأدباء، ١٦٩/٢، ط القاهرة - ١٩٣٨ م.

(٤) ص ١٢٠ ت: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٦ م. عن نشأة المقامة، د. حسن عباس، ص ٢٧ وهو كذلك.

(٥) انظر نشأة المقامة، د. حسن عباس، ص ٣٠-٣٢.

الدكتور/ عباس كان واضحاً في التفريق بين الأمرين، والرد على ماسببه الخلط بينهما عند عدد كثير من الباحثين جاروا د. زكي مبارك في رأيه، أو نقلوه دون تمحيص فإنه لم يتمكن من الإفلات من ذلك حين استشكل العبارة السابقة فقال: «ومع هذا فإن نص ياقوت لم يخل من تحريف، ولعل أصدق صورة لهذا النص هي التي نقلها لنا الكلاعي في إحكام صنعة الكلام حيث جاء: (في معارض حوشية، وألفاظ غنجية) هذا هو الوجه الذي يستقيم به الكلام لفظاً ومعنى، فوصف الألفاظ بأنها غنجية وصف يأباه الحس اللغوي لمن أدمنوا قراءة الكتب القديمة حيث العريية الناصعة، والبيان المشرق، ... فالعبارة لاتوحي بما ذهب إليه زكي مبارك ... من أن الصعوبة والإغراب [كذا] في اللفظ، بل توحي بأنها كانت في جملتها أحاديث ماجنة سيقت في ألفاظ خليعة ماجنة؛ لذا تنفر من تفاصيلها الطباع الكريمة، وتتقزز من ألفاظها الأسماع الشريفة ...»^(١)، وفات الدكتور/ حسن أن إحاء العبارة بأنها كانت «أحاديث ماجنة سيقت في ألفاظ خليعة» هو ذاته المراد من قول الحصري (معارض أعجمية)، فالمعارض بالأسلوب الصق، وعليه أدل، ولا يخفى أن ذلك كله قريب الصلة بما شهد عن ابن دريد - رحمه الله -، ويين أيضاً أن الحياة اللاهية العابثة دخيلة على الأمة التي كانت في جاهليتها وشيء من صدر إسلامها تعاني من شظف العيش، وضنك الحياة ماسطرته أمثالها وأشعارها، وأفاض فيه مؤرخوها، وأن الحضارة الفارسية جلبت فيما جلبت من أنواع الملاذ المتنوعة، ومارافقها من الجون، وتسرب من هذا شيء غير قليل، وكان شيوعه وانتشاره في المناطق الفارسية التي احتضنت ابن دريد فترة من حياته ظاهراً واضحاً، وكان الحريصون على هذه الحياة اللاهية العابثة يرون أن يندب لغوي ماهر - لوصف هذه المبادل أو تخيلها فوصفها ابن دريد نفسه - فيتفكهون بذلك في مجالس أنسهم، وهذا ضرب من الحياة مع شناعته ومخالفته للحياة التي ينبغي أن تحياها أمة اختارها الله لنشر شريعته موجود لا يستطيع أحد إنكار وجوده. كما أن حياة أخرى حافلة بالأتقياء البررة موجودة لا يستطيع أحد إنكارها

(١) نشأة المقامة، ص ٣٧.



أو إنكار وجودها في أكثر الأزمان ضياعاً وإغراقاً في الترف والملذات، ثم إن (حوشية) بالألفاظ ألصق، وبها أليق.

هذا، ومما يجدر ذكره أن د. زكي مبارك نفسه لم يستطع أن يطمئن كل الاطمئنان إلى صحة دعواه فعاد كالذي ينقض قوله، أو يحاول أن يحتفظ لنفسه بحق التراجع عن قضية خب في إثباتها ورخص من غير نص واضح دقيق يجلو غامضها، فقال: «ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات، فإن عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر، وطريقته في القصص تختلف عن طريقة ابن دريد، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في أذهانهم غير فن البديع، فهو بذلك منشيء هذا الفن في اللغة العربية، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد، وإنما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان»^(١).

وينتهي د. حسن عباس نقاشه بقوله :

«وخلاصة القول إننا نؤمن مع زكي مبارك بدور ابن دريد في نشأة المقامة العربية وأثره في عمل البديع ... وأخيراً نجد من الباحثين المحدثين من يشير إلى ابن فارس* اللغوي على أنه مبدع فن المقامات كجرجي زيدان^(٢) الذي انتهى إلى أن ابن فارس هو المبتكر الحقيقي لفن المقامات الأدبية ... وتناقله عدد من الباحثين كالدكتور جميل سلطان^(٣) الذي قرر أن لابن فارس مقامة من إنشائه، ويأتي بعده الدكتور

(١) النشر الفني، ٢٤٦/١-٢٤٧.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٣/٣١٠، ت: د. شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٧م.

(٣) فن القصة والمقامة، د. جميل سلطان، ص ١٧، مطبعة الترقى، دمشق ١٣٦٢هـ-١٩٤٣م.

(*) أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، ت ٣٩٥هـ.

انظر إنباه الرواة للقفطي، ٩٤/١. تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ٢/٢٦٨، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م. بغية الوعاة للسيوطي، ٥٢/١.



أحمد الحوفي^(١) ليجعلها مقامات لا مقامه ... ويلحق بهم باحث آخر هو الدكتور يوسف نور عوض^(٢) ((...))^(٣).

ومع هذا نجد في آخر المطاف يقول :

((اذن فلاعلينا إذا استبعدنا ابن فارس ذلك الاسم الكبير في ميدان اللغة والفقهاء من مضممار الفن المقامي))^(٤).

إلا أن الدكتور/هادي حسن حمودي أقام بحثاً بأكمله، ليصل بالقارئ من أول البحث لآخره إلى أن النشأة للمقامات قبل أن تستقر أصولها لدى التلميذ الذي هو الهمداني كانت لها جذور عند أستاذه ابن فارس فعرض لأقوال الحريري، والثعالبي، والحصري القيرواني، وبروكلمان، وزكي مبارك، ومرجوليوث، والسباعي بيومي، وجرجي زيدان، وعبدالمملك مرتاض، وناقش كل هذه الأقوال، وبين مواطن ضعفها، كما بين أن من هؤلاء الباحثين الأفاضل من ألح إلى الصواب مثل: السباعي بيومي الذي قال:

((إن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ... وأن البديع حين عارضه سمي أحاديثه مقامات. ولكننا نذكر أن الذي احتذاه أولاً، إنما هو أستاذ البديع أبوالحسين أحمد بن فارس لا البديع. فقد وضع مقامات اتبع الأدباء نسقه فيها، وكان أولهم اتباعاً لتلميذه البديع ...))^(٥)، وجرجي زيدان الذي قرر أن ابن فارس كتب رسائل

(١) تيارات ثقافية بين العرب والفرس: د. أحمد الحوفي، ص ٢٨١، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٢) فن المقامات بين المشرق والمغرب، د. يوسف نور عوض، ص ٦٧.

(٣) نشأة فن المقامة، د. حسن عباس، ص ٣٧-٤٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٥) تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، ١٩٧/٣-١٩٨، مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢، ١٣٧٦هـ-١٩٥٨م.



اقتبس منها العلماء نسقه^(١).

هذان الكاتبان مسا القضية مساً خفيفاً عابراً، ولم يقدموا من الأدلة مايقنع، وإنما هو كلام عام، واستخلاص لايفيء إلى مرتكز معقول، وقد رد عليهما الدكتور عبدالملك مرتاض^(٢) ورفض مازهدبا إليه^(٣).

وناقش د.هادي أدلته وردها قائلاً :

«والحق أن مرتكزات هذا الاعتراض أكثر ضعفاً مما حاول نقده، ومع أننا لاثمیل إلى ما مال إليه بيومي من أن ابن فارس قد قلد (مقامات) لابن دريد، ولاثمیل إلى ما مال إليه جرجي زيدان من أن لابن فارس رسائل هي التي أوحى بالمقامات كفتيا فقيه العرب، فإننا نأخذ على الدكتور مرتاض أدلته التي تجاوزت في ضعفها، هشاشة قولي بيومي، وزيدان^(٤).

ولما كان د.هادي قد عقد العزم على إثبات ماأقام البحث من أجله. -وهو إثبات نشأة المقامات لابن فارس - فقد أورد نصوصاً بدأها بنص للحريري، وثنى بنص للثعالبي^(٥) ت سنة ٤٣٠ هـ الذي قال :

«... ولما استقرت عزيمته - أي البديع - على قصد نيسابور أعانه على حركته، وأزاح علله في سفرته - يعني أبا سعد محمد بن منصور، شيخ جرجان - فوافها سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، ونشر بها بزّه، وأظهر طرزّه، وأملی أربعمائة مقامة نحلها أباالفتح الاسكندري في الكدية وغيرها...»^(٦)، وعلى الرغم من أن الثعالبي

(١) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٦١٩/٢.

(٢) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، ص ١٤١، ومابعدها.

(٣) المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمذاني، د.هادي حسن حمودي، ص ٢٦، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٥) انظر: ترجمته في وفيات الأعيان، ١٧٨/٣ - ٢٤٤.

(٦) يتيمة الدهر، ٢٥٦/٤.



لم يشر هنا إلى أوليات المقامات، فإنه قد ذكر في مكان آخر من يتيمته: أن البديع قد أخذ جميع ما عند ابن فارس، وأنه استنزف بحره^(١).

وللإشارة هذه أهميتها إذ لاتناقض النص المذكور أعلاه، فيمكن أخذها باطمئنان، ومناقشتها، لنصل لأوليات المقامات^(٢).

ولسنا بهذا نريد أن ننفي استفادة البديع من موروث ضخيم يشمل فيما شمل أقاصيص الأعراب وملحهم، ومواعظ الزهاد وأخبارهم، وحكايات الإخباريين، وآثاراً متفرقة من كتب الجاحظ، وابن دريد، وابن فارس، وحيل المكدين، واللصوص، والشطار، والعيارين...، وحكاية أبي القاسم البغدادي مما يطول الحديث لو أردنا تقصيه، لكن نود الإشارة إلى أن المقامة فن أدبي متميز السمات تشابكت في تشكيل صورته لدى فارسه الأول بديع الزمان الهمداني، تلك الموروثات مجتمعة حيناً، ومتفرقة أحياناً في ذهنية أديبة نافذة تلي حاجة مجتمع تضطرب فيه الاتجاهات، ويعاني من اختلال المعايير، وتفاوت الطبقات، واختلاف المشارب، وتباين الفرق مايدفع النابيين من حملة القلم لتسجيله وكشفه، وبيان صحيحه وجلائه، وهتك استار قبيحه، وبيان شاره، ولعل في تعرف أطوار حياته مايكشف في جلاء شيئاً من ذلك فقد تنقل كثيراً، ولم يطم له المقام مع الصاحب بن عباد الشيعي المتعصب لشيعيته، فينتقل إلى جرجان «ولايمكث في جرجان طويلاً، بل يتركها إلى نيسابور موطن أهل السنة، وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي...، فانتهاز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي، انتصروا فيها للبديع، فعلاصيته، وتألق نجمه...»^(٣).

(١) انظر: المصدر نفسه، ٢٥٧/٤.

(٢) انظر: المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمداني، د.هادي حسن حمودي، ص ٢٤-٢٥.

(٣) عصر الدول والامارات: الجزيرة العربية، العراق، إيران، د.شوقي ضيف، ص ٦٦٧.

الباب الأول

قضايا موضوعية في الإنسان والحياة

عند كتاب المقامة

وفيه فصول :

الفصل الأول : الأخلاق الإسلامية في المقامة.

الفصل الثاني : النقد الاجتماعي في المقامة.

الفصل الثالث : الحاكم في المقامة .

الفصل الرابع : الجهل في المقامة .

الفصل الخامس : الحياة والموت في المقامة .

الفصل السادس : علوم اللغة العربية في المقامة.

الفصل الأول

الأخلاق الإسلامية في المقامة



تعريف الخلق :

الخلق والخلق : السجية، والخلق : الطبيعة، وفي التنزيل : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

والخلق : المروءة، والخلق : بضم اللام وسكونها : هو الدين والطبع والسجية^(٢)، وقد جمعها صاحب القاموس المحيط فقال: (الخلق: السجية والطبع والدين والمروءة)^(٣).

والخلقة : الفطرة ، والخليقة والسليقة بمعنى واحد، والجمع: أخلاق.

قال صاحب اللسان: «إن حقيقة الخلق هو: صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، وبهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع، كما جاءت في ذم سوء الخلق أيضاً أحاديث كثيرة»^(٤).

ولقد كفل الإسلام للإنسان حقوقه كلها: حق الحياة في كرامة، وحق الشعور بهذه الكرامة، والتعبير عن هذا الشعور وفق ماعى من مصالح الفرد التي تنسجم في مصالح الجماعة ولا تؤدي إلى تعطيل شيء، ليتلاحم الكيان المسلم بالحرص على مخالقة الناس بالخلق الحسن، ومصداق ذلك قول المصطفى - ﷺ - : «ألا إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، الذين يألفون ويؤلفون»^(٥).

(١) سورة القلم، آية ٤ .

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ٨٦/١٠، ٨٧-٨٧، ٩١، ط دار صادر، بيروت.

(٣) الفيروزآبادي، ٢٢٩/٣، ط دار الفكر، بيروت.

(٤) ابن منظور، ٨٦/١٠-٨٧.

(٥) رواه الترمذي (٢٠١٨)، عن جابر - ﷺ - كتاب البر، باب ماجاء في معاني الأمور، ٣٧٠/٤.



وقال - عليه الصلاة والسلام - لأبي ذر - رضي الله عنه - : «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١).

وأبي بيان أنصح، وأي إرشاد أبلغ من قول الباري جل شأنه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

الذي يشيع التآلف في المجتمع المسلم بما يجعله مجتمعاً مخلص العبادة لله وحده داعياً إلى ذلك جهده، فيمكنه القيام بالدور المنوط به في هذه الحياة، وهو قيادة البشرية إلى طريق الحق والنور والهداية. إنه لن يصل إلى ذلك الرقي إلا حين يتخلق بأخلاق الإسلام الحميدة، ويتأدب بآدابه المشرقة.

وتصور المقامات شيئاً كبيراً من هذا عند البديع الهمداني والحريري، ومن حذا حذوهما وتظهر الرغبة في اتخاذ المقامة منبراً لتنبية الغافلين السادرين في غيهم في أكثر من صورة، فالزنجشري مثلاً يكتب خمسين موعظة يسمي كل واحدة بالمقامة، ويشرحها، ولئن كان الزنجشري لم يحافظ من الشكل الفني للمقامة إلا على الأسلوب المسجوع الذي يشاركه في المحافظة عليه كتاب الرسائل، فلقد أراد أن يرتفع بالمقامة عن الكدية والاستجداء، ووصف مبادئ الحياة التي كانت ظاهرة كل الظهور في مقامات البديع الهمداني، والحريري إلا على الراوية الذي سماه فيها أبا القاسم ويعني به نفسه، والبطل هو الهاتف الذي سمعه في بعض إغفاءات الفجر يقول له :

«يأبَا الْقَاسِمِ : أَجَلٌ مَكْتُوبٌ، وَأَمَلٌ مَكْذُوبٌ، فَهَبَّ مِنْ إِغْفَاءَاتِهِ تَلُوكَ مَشْخُوصاً بِهِ، مِمَّا هَالَهُ مِنْ ذَلِكَ وَرَوَّعَهُ، وَنَفَّرَ طَائِرَهُ وَفَزَعَهُ، وَضَمَّ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مَا ارْتَفَعَتْ بِهِ مَقَامَهُ، وَأَنْسَهَا بِأَخْوَاتٍ قَلَائِلٍ ثُمَّ قَطَعَ لِمَرَاجِعَةِ الْغَفْلَةِ عَنِ الْحَقَائِقِ، وَعَادَةَ الذُّهُولِ عَنِ الْجِدِّ بِالْهَزْلِ، فَلَمَّا أُصِيبَ فِي مُسْتَهْلٍ شَهْرِ اللَّهِ الْأَصَمِّ الْوَاقِعِ فِي سَنَةِ

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ١٥٣/٥. والترمذي (١٩٨٧). كتاب البر، باب ٥٥، ٣٥٥/٤،

ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٤.

ثني عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التي سماها المنذرة، كانت سبب انابته،
وتغير حاله وهيئته^(١).

فالمقامات الزمخشيرية على هذا ألفت في مرحلتين :

أولاهما: قبل المرض الشديد الذي ألم به في شهر رجب سنة ٥١٢ هـ وتضم اثنتي عشرة مقامة، وفي تلك المقامات ما يشعر أن الرجل يخاطب نفسه لها إلى ملاذ الدنيا ميل، وعلى الشهوات إقبال تحتاج إلى وعظ رادع، وإرشاد كابح^(٢).

وثانيتها: بعد المرضة الشديدة المذكورة، والتي مكنت في نفسه مفارقة الدنيا، ودنو الأجل فنراه يخاطب نفسه أثقلها المرض، فاستكانت وبدأت تنزقب حين الوداع في رضى بالقضاء، وشكر عليه، وندم على ما فرطت في جنب الله^(٣).

والذي يعيننا هنا هو ما تضمنته هذه المقامات من حرص على تأكيد الأخلاق

الإسلامية منتظمة في السياق التالي :

- ١- الزهد في الحياة .
- ٢- الصبر على المتاعب.
- ٣- الحث على الشكر، والكرم.
- ٤- تأكيد الوفاء بعهد الله.
- ٥- بيان مهمة المسلم في الحياة بدءاً من حسن الصحبة وانتهاءً بالوقوف أمام العقبات بشجاعة.

وهذه موضوعات متداخلة متناسقة حيناً، ومنفصلة في بعض جزئياتها حيناً
آخر ، وسنتناول ذلك ببعض التفصيل، وستكون البداية بمقامات أبي الفرج

(١) مقامات الزمخشيري، ٥-٩.

(٢) انظر: فن المقامة في القرن السادس، د. حسن عباس، ص ١٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٤.



ابن الجوزي الذي كانت مقاماته أدخل في فن المقامات من مقامات الزمخشري فقد كفل لها ذلك حذو ابن الجوزي للحريري فأسند بطولة مقاماته إلى من سماه أبا التقويم، وهو يقصد العقل، يقول في مفتتح مقاماته بعد تسويغ كتابتها: «وكنْتُ كثيراً ماأخلو بالعقلِ في بيتِ الفكرِ فأجري سُؤاله ويجيب، وَيَجْري لي وَلَهُ كُـلُّ عَجيب، والإخبار بتلك الأخبارِ على الحقيقة عني؛ لأنَّ منبعَ السؤالِ والجوابِ مني، فأحببتُ أنْ أؤلف لكلِّ فكرةٍ استطرف مقامه ليُعرَف شرفُ العقلِ ومقامه، وقد كنيته ليُعرَف أبا التقويم؛ لأنني رأيتُهُ قد تلطَّفَ مَنْ أبتى التقويم، فإنه يتفاوتُ في ضربِ الأمثالِ العالمون ﴿ومايعقلها إلا العالمون﴾...»^(١).

لهذا تجدنا أغفلنا التسلسل التاريخي لأصحاب المقامات، وبدأنا بمن وجدنا التطبيق لديه أوفى من غيره، كابن الجوزي، والزمخشري وهكذا سرنا، فمن وجدنا البدء به يخدم مانحن بصدده، كان التقديم له، والتأخير لسواه .

الزهد :

تعريفه :

«الزهد في الشيء في لغة العرب -التي هي لغة الإسلام- الانصراف عنه احتقاراً له، وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه، ولم يجيء في القرآن إلا في شأن الذين شروا يوسف : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(٢).

والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الإنسان في هذه الحياة، بما جعله بلاءً وعوناً للمهتدين على الإيمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقياً صالحاً للآخرة، وعوناً على الكفر والفسوق والعصيان، عند الغافلين الكافرين، الزهد في ذلك: إعراض عن نعم الله وتحقيرها وليس هذا من هدى رسول الله - ﷺ -، ولا هدى أصحابه، وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبها، والفرح بفضل الله

(١) مقامات ابن الجوزي، ص ٦.

(٢) سورة يوسف ، آية ٢٠.



عليهم بها، وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به»^(١).

وها هو ذا ابن الجوزي يحث على الزهد في المال في مقامته السادسة والأربعين

فيقول:

«غلبت على قلبي حب المال أجمعه، على يقين مني أنه يؤخذ يوم المآل أجمعه..
وإذا على المنير أبو التقويم... فقال: لاشك أن المال بالطبع محبوب، وأن تحصيل ذاته
للداته مطلوب، ولكن لا يبحث ما يفسد الأديان والقلوب، وإنما هو مخلوق لغرض
معرض ينوب، فهو ممدوح لكونه يقضي الحوائج، محمود لأنه مستعجل في المراد رائج،
ولعمري إنه ما تشبث هم إلا بالحاجة إليه، ولا وقع رياء إلا بالحيلة عليه، غير أنه
لا ينبغي أن يحرص على زيادته، إلا من البذل من عاداته، فإنه كالحية التي لا تطاق
ولا يصلح قربانها إلا لمن شرب الدرياق.. هل المال إذا تأملته ذو الحجي بمحجر
الحجر إلا حجر؟، فما باله على البال باللبال قد حجر؟... ويحك مالك بجمع مالك،
ومالك منه إلا ماتتلف، والزمان يثك للذهب وأنت للأذهب تؤلف. كما جاز
للقناطير غير جاز قنطرة الحساب، كم عريان للحرص اكتسى ذل الاكتساب.

يا جامعاً مانعاً والذهر يرمله ** مقدراً أي باب عنه يغلقه

جمعت مالا فقل لي: هل جمعت له؟ ** يا غافل القلب أياماً تنفقته؟

المال عندك مخزون لو ارثته ** ما المال مالك إلا يوم تنفقته»^(٢).

لعلك لحظت أنه حث على الزهد في إحدى ضروريات الحياة وهي ((سبعة:

المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه))^(٣).

(١) تهذيب مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ٤٥٢/١، هذبه/ عبد المنعم صالح العلي العربي،

مؤسسة الرسالة، دار المنطلق، دبي.

(٢) المقامة (٤٦): الزهد في المال، لابن الجوزي، ص ٣٧٦-٣٧٨.

(٣) مختصر منهاج القاصدين، للشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، ص ٣٢٦، مؤسسة

علوم القرآن، بيروت.



فالمذكور هنا هو المال فيبين أن أحدهم قد تعلق قلبه بحب جمع المال، ثم شاهد أبا التقويم، الذي بين أن جمع المال يمتدح لمن كان البذل والعطاء من عاداته، ثم ذم جامع المال، وحثه على إنفاقه في وجوه الخير، بدل أن يتركه بعد موته لورثته فقال: «وَيَجُكَّ مَالَكَ تَجْمَعُ مَالَكَ، وَمَالِكَ مِنْهُ إِلَّا مَا تُتْلِفُ، وَالزَّمَانَ يَحْشُكَ لِلذَّهَابِ وَأَنْتَ لِلذَّهَابِ تُؤَلِّفُ...»، والرسول - ﷺ - قال: «يقول العبد: مالي مالي إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفني، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»^(١).

والمال ضروري في المعيشة، لكن الزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٢).

ولقد حث ابن الجوزي على الزهد متمسكاً طريق رسول الله - ﷺ - الذي كان القدوة في الفعل قبل القول، فها هو ذا عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث أم المؤمنين - رضي الله عنهما - يقول: ماترك رسول الله - ﷺ -، عند موته درهماً ولاديناراً، ولاعبداً، ولاأمةً، ولاشيئاً إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة»^(٣).

أما أحاديثه عليه الصلاة والسلام في الحث على الزهد، وفي ذم جمع المال والحرص عليه فكثيرة منها قوله - ﷺ -: «مادئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها

(١) رواه مسلم بشرح النووي عن أبي هريرة - رضى الله عنه - في كتاب الزهد، ٩٤/١٨. ورواه

الترمذي، كتاب الزهد، باب رقم ٣١ بنحوه ٥٧٢/٤.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٣٦)، عن كعب بن عياض - رضى الله عنه - كتاب الزهد، باب (٢٦)، ٥٦٩/٤

وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الوصية، ترك الوصية لمن ليس له شيء، ٨٩/١١،

وصحيح البخاري مع الفتح الرباني، كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي - ﷺ - ((وصية

الرجل مكتوبة عنده)) ٣٥٦/٥، ورواه النسائي في سننه، شرح السيوطي، كتاب الأحباس،

٢٢٩/٦.



من حرص المرء على المال والشرف، لدينه»^(١).

و«قد تظن أن تارك المال زاهدٌ، وليتس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التَّخَشُّنِ، سَهْلٌ عَلَى مَنْ أَحَبَّ الْمَدْحَ بِالزَّهْدِ، فَكَمْ مِنْ رَاهِبٍ قَدْ لَازَمَ الدَّيْرَ، وَقَلَّ الْمَطْعَمَ، وَقَوَّاهُ عَلَى ذَلِكَ حَبَّ الْحَمْدَةِ وَالرَّيَاءِ»^(٢)، لذا مدح (ابن الجوزي) جمع المال لمن يبذله في الوصول إلى رضا الله فقال: «لاشك أن المال بالطبع محبوب، وأن تحصيل ذاته للذات مطلوب، فهو ممدوح لكونه يقضي الحوائج، محمود لأنه مستعجل في المراد رائج»، وليدلل على ذلك ذكر مجموعة من أخبار الكرام الذين بذلوا مالهم في سبيل الله فقال: «كان الكرام لأبي بكر الصديق عنه يلقى إلفاً، فأنفق في موجب التصديق أربعين ألفاً»^(٣).

وفي مقامة أخرى نرى ابن الجوزي يحث على الزهد حين أظهر لنا بطل مقاماته في صورة رجل زاهد فقال: «عِنْدَنَا فقيهُ البلدي، يقنعُ مِنَ التَّمْرِ بِالْحَشْفِ، وَمِنُ الْمَاءِ بِالنَّشْفِ وَيُؤَثِّرُ الزَّهْدَ وَالْقَشْفَ، وَإِذَا عَرَضَ لَنَا مُعَمَّى كَشَفٌ»^(٤).

فذكر هنا بعض مما زهد فيه أبوالتقويم، وأولاهها: المطعم، فقال: «يقنع من التمر بالحشف...»؛ لأن همة الزاهد من المطعم ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاز.

وقالت عائشة - رضي الله عنها - لعروة: «كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال فما يوقد في بيت رسول الله - ﷺ - نار، قال: قلت: ياخاله: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر»^(٥).

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦)، عن كعب بن مالك - ؓ - كتاب الزهد باب (٤٣)، ٥٨٨/٤

وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، للشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامه المقدسي، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٣) المقامة (٤٦) نفسها، ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٤) المقامة (٣٧): في العزلة، لابن الجوزي، ص ٢٩٧.

(٥) رواه مسلم بشرح النووي، كتاب الزهد، ١٠٧/١٧، ط ٣ (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).



والأحاديث في ذلك كثيرة ومشهورة.

ثم ذكر لنا ابن الجوزي الهيئة التي كان عليها هذا الزاهد، فقال: «فوصلنا إلى نجباء على ماءٍ سيح، فإذا شيخٌ عليه سيح، صبيحُ الوجه، مليحُ الشيبة... فقلتُ له: أما في هذا العالم من يبيِّن لك بيتاً فتأوي له؟...»^(١).

فبين لنا ابن الجوزي الملبس، والمسكن اللذين كان عليهما الزاهد، أما المسكن فقال: «فوصلنا إلى نجباءٍ على ماءٍ سيح».

فهو لم يطلب حجرة مبنية؛ لأنَّ من طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن، وقد توفي رسول الله - ﷺ - ولم يضع لبنة على لبنة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم، نلت السقف.

وفي الحديث: «إِنَّ الْمُسْلِمَ لِيُوجِرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَنْفِقُهُ إِلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التَّرَابِ»^(٢)، أو كما قال في البناء.

وأما الملبس فقال: «فإذا شيخٌ عليه سيح»، فالزاهد يقتصر في الملبس على ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرجته التقشف إلى الشهرة، وكان أكثر لباس السلف خشناً، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد روى عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة - رضي الله عنها - كساء ملبداً، وإزاراً غليظاً، وقالت: «قبض رسول الله - ﷺ - في هذين»^(٣).

= وانظر: صحيح البخاري شرح فتح الباري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي - ﷺ - وأصحابه، ٢٨٣/١١.

(١) المقامة نفسه، ص ٢٩٧-٢٩٨، سيح: مسح مخطط، تفسير غريب المقامة، ص ٣٠٣.

(٢) رواه ابن ماجه عن نخباب - ﷺ - تحت رقم (٤١٦٣) كتاب الزهد، باب في البناء والخراب، ١٣٩٤/٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب (٥)، ٤/٤٧، وفي كتاب اللباس، باب (١٩)، ٤١/٧.



ولما سئل بطل المقامة عن سبب عزله تلك، وزهده في مخالطة الناس قال: «ماتعربت ولا تعربت، وإنما هربت ممن جرت... قَدْ كُنْتُ فِي الْبَلَدِ أَعْقَدُ مَجْلِسَ الْمَنَاطِرَةِ، فَمَا بَقِيَ مَنْ أَعْقَدَ مَعَهُ لِلْمَحَاضِرَةِ، إِنَّهُمْ مَا يَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ، إِنَّمَا يَتَنَاصَوْنَ عَلَيَّ الْأَحَقِّ، أَشْكُو إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الْغَيْرِ زَمَنَ الزَّمَنِ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ السَّيْرِ عَلَيَّ غَيْرِ سَنَنِ السَّنَنِ».

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهَدْتَهُمْ ** وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ» (١)
ومن ضمن الناس الذين هرب منهم «جمهور المتزهدين إنما صوّفوا للتصنع ملبوسهم، وَنَكَّسُوا لِلتَّخَشُّعِ رُؤُوسَهُمْ، لِيُلَاحِظَهُمُ بِالزَّهْدِ مَنْ يَرَى، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ أَسَدٌ شَرِي» (٢).

أي أنهم يظهرون خلاف ما يظنون، فمظاهر الزهد من ملبس، وتصنع للخشوع بادية عليهم بينما هم بعيدون كل البعد عن الزهد، وأشار إلى ذلك بقوله «وهم في الباطن أسد شري».

فأين هؤلاء من قوله - ﷺ - : «من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة» (٣).

وفي مقامة أخرى أشار ابن الجوزي إلى السبب نفسه في اتخاذ أبي التقيوم العزلة على الاختلاط، فقال: «الكسادُ أفرَدَكَ فِي الْبَرِيَّةِ؟ فَقَالَ: لَا بَلْ فَسَادُ الْبَرِيَّةِ ثُمَّ أَنْشَدَ: أَوْصَاكَ رَبُّكَ بِالتَّقَى ** وَأَوْلُو النُّهَى أَوْصَوْا مَعَهُ»

(١) المقامة نفسها، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٠١.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ١٨٣/٥، ورواه الترمذي، حديث رقم (٢٤٦٥)، كتاب صفة

القيامة، باب (٣٠)، ٦٤٢/٤، ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، ١٣٧٥/٢.

فَاخْتَرَ لِنَفْسِكَ طُولَ دَهْرٍ * * * رَكَ مَسْجِدًا أَوْ صَوْمَعَةً (١).

ففي المقامة السابقة قال: «وهربت ممن جربت»، أي ممن جرب من الناس، ورؤيته لأحوالهم التي وصفها في بقية المقامة، والتي كانت على غير ما يجب المؤمن، وهاهنا، ذكر السبب نفسه فقال: «فساد البرية» أي فساد أهل زمانه، جعله عازفاً عن الدنيا وأهلها، لذا سأله السائل قائلاً: «صف لي أحوال الزهاد والمحبين، فإن الموصوف بالوصف يبين فقال:

شُمَّ الْعِرَانِينَ فِي آنَافِهِمْ أَنْفٌ * * * عَنِ الْقَبِيحِ وَفِي أَعْنَاقِهِمْ صَيْدٌ

قلت: زدني من شرح أحوالهم، وأفدني بذكر أعمالهم... زدني من أوصافهم، فقال: صاحبهم أوصافهم: تائبهم يقول: اعف عني وأقلني عثرتي، ومفترطهم يصوت: ماضع من أيامنا هل يُغرم، ومتعبدهم يتمثل:

* * * تُرِيدِينَ إِدْرَاكَ الْمَعَالِي رَحِيصَةً * * * وَخَائِفَهُمْ يَصِيحُ :

* * * عَلَّمْتَ يَا هَجْرُ جَنبِي هَجْرًا مُضْجِعِهِ... * * * (٢).

ولما سأله قائلاً: «كيف الطريق إلى هذه الطريق؟» (٣)، لم يجبه إلى كيفية الوصول إلى طريق الزهاد والمحبين بل أجابه بقوله: «يأطفلاً في حجر العادة محصوراً بقمط الهوى، مالك ومزاحمة الرجال يا مخنث العزيمة؟» (٤).

وأشار إلى الزهاد في المقامة الثانية والعشرين قائلاً: «كُلُّ الزَّهَادِ غَرَسُوا أَشْجَارَ الْمَعَامَلَةِ فِي بَسَاتِينِ الْمَعْرِفَةِ، فَلَمَّا ذَا عَلَا ذِكْرُ مَعْرُوفٍ، فَقَالَ: مَعْرُوفٌ رَكَّبَ، قَلْتُ: بَلَّغْتِي أَنَّهُ كَانَ لَا يَلْزَمُ لِلزُّهْدِ نَامُوسًا، قَالَ: فَهَذِهِ طَرِيقُ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى وَمُوسَى، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنْ رَمَى عَنْ رَأْسِهِ قَلَنْسُوءَ التَّعْظِيمِ تَوَاضَعًا رَدَّهَا الْقَدْرُ بِجَبَلٍ، مَنْ نَزَلَ فِي

(١) المقامة (٣٠): في المحبين، لابن الجوزي، ص ٢٣٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٣٩-٢٤٠، العرنين: أول كل شيء، والعرنين: ما صلب من عظم الأنف صيد: الذي يرفع رأسه كبراً، اللسان، مادة: عرن، صيد.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٤٣.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.



بئر الدالية صَعَدَ لَهُ الماء»^(١).

وقوله : «معروف* رَكَّب» : وهو أن ينحت مثل القلم من شجرة فيغرس في أخرى فيجيء الثمر جيداً^(٢).

وفي المقامة التاسعة عشرة، قال يوضح حقيقة الزهد، ويحث على السعي في طلب الرزق : «فإنَّ الكسبَ للعيالِ أشدَّ العبادتين، والرِّفقَ بالأطفالِ أقوى المجاهدتين، وَلَكُمْ بين مَنْ فَرَى أرضَ الفرائضِ، وبين مَنْ نَوَى فَعَلَ النوافلِ، أَتظنُّ الزَّاهدَ مَنْ بَنَى رِباطاً وتَأخَّرَ عَن كسبِ الدنيا وَتَباطاً، يَنْتَظِرُ فُتُوحاً مَاتَعَبَ في تحصيلِها، ويأخُذُ فُتُوحاً لا يَنْظُرُ في جَمَلِها وَتفصيلِها، أف لَطَبِعِ يَسْتَلِدُّ الوسخَ، كُما جُذِبَ إلى علوِّ الهمةِ رَسَخَ»^(٣).

إذن ليس الزاهد من بنى رباطاً - كما قال - وليس التارك للنكاح «اعلم أنَّ تَرَكَ النِّكاحِ رَهْبانية، وَالمُتزوجون في العلوِّ بِإبانية، فينبغي أَنْ تَحققَ القصدَ، وَلا تَأبى نيةً، وَأَنَّ التَّسبُّبَ في الأولادِ أقوى عِبادة. فإذا أُتيتَ بولدٍ كَثُرَتِ لَهِ عِبادَةٌ، وَإِذا لَاحَظتِ الأهلَ مِنْ خَيرِ الصَّلواتِ، كَأنَّ خَيراً مِنَ الصَّومِ وَالصَّلَاةِ. أما مَذَهَبُ أَحمدَ أَحمدُ مَذَهَبٌ، وَهُوَ إلى تَفْضيلِ النِّكاحِ عَلى التَّبَتُّلِ يَذَهَبُ. أما هَذا شَأْنُ النَبِيِّ وَأَصْحابِهِ، فَدَعَّ عَنكَ هَذا الوَسواسَ وَلا تَعَبُ بِهِ. إِنَّ ليلَةَ باتَ فيها أبو الشَّافعي مَعَ زوجته، وَوالد

(١) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمداراة، لابن الجوزي، ص ١٨٨-١٨٩، والدالية: الناعورة

يديرها الماء أو الحيوان. انظر: اللسان، مادة: دلى .

(٢) المقامة نفسها، ص ١٩٠.

(٣) المقامة (١٩): في الخلوة، ص ١٦٢. الفُتُوح: جمع فُتِح: أول مطر الوسمي، اللسان، مادة: فتح

(*) معروف بن واصل السعدي، وقيل معرف، كان ثقة.

انظر: طبقات ابن سعد، ١٠٠/٦، دار صادر، بيروت. ميزان الاعتدال، للذهبي، ١٤٣/٤،

ت: على محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط(١)، ١٣٨٢هـ. تهذيب التهذيب، ابن

حجر، ٢٢٩/١٠، حيدرآباد، ط(١) ١٣٢٥هـ.



أحمد مع امرأته، حتى حملتا من حمل ماحملاً من العلوم أفضل من تعبد عابد ألف سنة يصلي ويصوم»^(١).

أما لماذا حدد القائل بذكر الرسول - ﷺ -، وذكر علي - ﷺ -؛ فلأن الرسول - عليه السلام - كان له تسع نسوة، ومع هذا فهو من أزهد البشر على الإطلاق، وأما علي - ﷺ - فكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سرية، وهو من أزهد الصحابة.

وأما الزمخشري فقد حث على الزهد في الدنيا، فقال: «يا أبا القاسم مالك لا ترفض هذه الفانية رفضاً، ولا تنفض يدك عن طلبها نفصاً، ألم تر كيف أبغضها الله وأبغضها أنبيأؤه، ومقتها، ومقتها أوليأؤه، ولولا استيجابها أن تكون مرفوضة، لوزنت عند الله جناح بعوضة...»^(٢)، وأخذ يبين أن كل ما فيها من سرور، ومن أشياء جميلة، زائل، فليكن هذا الزوال هو الزاجر لكل عاقل لكي لا يلبي داعي الشهوة لديه، وأن يعتصم بحبل الله ويتمسك بعروته التي لا تنفصم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى...﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٤).

ويكفي تزهيد الرسول - عليه السلام - فيها بقوله الذي استشهد به الزمخشري: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ماسقى كافراً منها شربة ماء»^(٥).

(١) المقامة نفسها، ص ١٦٣.

(٢) المقامة (٦): الزهد، للزمخشري، ص ٤٤-٤٥.

(٣) سورة النساء، آية ٧٧.

(٤) سورة النحل، آية ٩٦.

(٥) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، عن سهل بن سعد الساعدي - ﷺ - كتاب الزهد، باب (١٣)،

٥٦٠/٤ وقال حديث حسن صحيح. ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا،

١٣٧٧-١٣٧٦/٢.



وفي المقامة الثامنة عشرة، حث أيضاً على الزهد في الدنيا بعد أن وجه حامل العلم والأدب كيف يستفيد بما يحمل فقال: «من حمل العلم والأدب لمثل هذه الثمار... مِنْ ثَمَرَاتِ النَّزْوَلِ عَلَى قَضِيَّاتِ الْحِكْمِ، وَرِيَاضَةِ صَعَابِ الشِّيمِ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ وَبَعْدِ الْهِمَمِ. وَعِزَّةِ النَّفْسِ: أَنْ لَا تَدْعَهَا تُلِيمٌ بِالْعَمَلِ السَّفْسَافِ. وَأَنْ تَسْفَى إِلَى الدَّنَاءَةِ بَعْضَ الْإِسْفَافِ. وَأَنْ تَطْلِفَهَا عَنِ الْمَطَامِعِ الدُّنْيَةِ لَا أَنْ تَعْلِفَهَا الْمَطَامِعَ الْهَيْئَةَ، وَبَعْدُ الْهِمَّةِ: أَنْ تُوجِّهَهَا إِلَى طَرِيقِ الْآخِرَةِ وَسُلُوكِهَا، وَالِاسْتِهَانَةَ بِالدُّنْيَا وَمُلُوكِهَا، وَأَنْ لَا تَلْتَفِتَ إِلَى مَا يَتَفَيَّوُونَ مِنَ الظَّلِّ الْوَارِفِ، وَيَعْلِقُونَ فِيهِ الْمَخَارِفَ، وَيَعْلِقُونَ بِهِ مِنَ الزَّيْنِ وَالزَّخَارِفِ...» (١).

إذن فبعد الهمة أن توجهها إلى طريق الآخرة وسلوكها، والاستهانة بالدنيا وملوكها، فقد قال النبي - ﷺ -: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ» (٢)، وقال - عليه السلام -: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ؟» (٣).

أما البديع فنراه يزهد في الدنيا في مقامتين، دون اللجوء إلى الحيلة للحصول على المال من وراء وعظه، وهاتان المقامتان هما: الأهوازية، والوعظية، ففي الأولى يقول حاثاً على الزهد في الدنيا وما فيها لقوم تطيروا من رؤية جنازة محمولة على الأعناق:

«وَإِنَّ أَمْرًا قَدْ سَارَ عِشْرِينَ حِجَّةً * * * إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لِقَرِيبٍ»

- (١) المقامة (١٨): الظلف، للزنجشري، ص ١٠٦-١٠٧، ت: يوسف بقاعي.
- (٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري - ﷺ -، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٨٩/٨. وفي صحيح البخاري بنحوه، كتاب الرقاق، باب ما يجذر من زهرة الدنيا والتناسف فيها، ٢٤٤/١١.
- (٣) رواه مسلم بشرح النووي، عن المستور بن شداد - ﷺ -، باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها، ٩٥/١٨، ورواه الترمذي (٢٣٢٢)، كتاب الزهد، باب (١٥)، ٥٦١/٤.



وَمِنْ فَوْقِكُمْ مَنْ يَعْلَمُ سُرَارَكُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَهْتَكِ أَسْتَارَكُمْ، يُعَامِلُكُمْ فِي الدُّنْيَا
بِحِلْمٍ، وَيَقْضِي عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِعِلْمٍ؛ فليَكُنِ الْمَوْتُ مِنْكُمْ عَلَى ذِكْرٍ، لِمَا تَأْتُوا
بِنُكْرٍ...» (١).

فأراد بالبيت أن الموت وما يتبعه هو مكان الورد وهو جمع مورد، وأنكم
سائرون في طريقكم إليه؛ لأن الدنيا مجاز الآخرة، وقطعتم في سيركم عشرين سنة هي
مقدار أعماركم، وأن الله يمد لكم في الدنيا، ويعاملكم بالحلم، مع علمه بما تفعلون،
ولو شاء لفضح أمركم، وأفشى سركم، وأذاع حديثكم، ولكنه سيحاسبكم في
الآخرة بمقتضى هذا العلم.

فلما طلبوا منه أن يلبوا له ما شاء من متاع الدنيا وزخرفها، قال: «لأحاجة لي
فيها، وإنما حاجتي بعد هذا أن تتخذوا أكثر من أن تعوا» (٢)، والمراد أنه يطلب منهم أن
يجدوا في السير في العمل؛ لأنه خير لهم من حفظ ما يقوله دون أن يعملوا به، وقد قال
رسول الله - ﷺ -: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله: فيرجع اثنان، ويبقى
واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله» (٣).

وأما في المقامة الوعظية فيقول مزهداً في الدنيا: «ألا وإن الدنيا دار جهاز،
وقنطرة جواز، من عبرها سلم، ومن عمرها ندم، ألا وقد نصبت لكم الفخ، ونشرت
لكم الحب؛ فمن يرتع، يقع، ومن يلقط يسقط، ألا وإن الفقر حلية نبيكم

(١) المقامة (١١)، ص ٦٨-٦٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦٩.

تخذوا: من وخذ يخذ وخذاً: أسرع في مشيه، ووعى، يعى: فطن، انظر: اللسان، مادة
(وخذ، وعى).

(٣) رواه البخاري مع فتح الباري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، ٣٦٢/١١، ومسلم شرح

النووي، عن أنس - ﷺ - باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقليل منها، ٩٥/١٨.

ورواه الترمذي (٢٣٧٩)، كتاب الزهد، باب (٤٦)، ٥٨٩/٤.



فاكتسوها...»^(١)، يريد أن هذه الحياة ليست إلا سوقاً تتجهزون منها لسفركم الطويل، وطريقاً تسلكونه إلى مقصدكم الذي تريدونه، فانتقوا من المتاع ماتعلمون أنه يعينكم في سفركم ولا يضركم، واسلكوا الطريق الي لايشوبها عوج ولا تنهشكم أسودها؛ لأن الدنيا كصياد ينصب حباله للطير، لا يريد بذلك منفعة الطسير، ولكنه يريد منفعة نفسه، فكل طائر يلقط الحب يقع في هذه الأحبولة، ولا تنفروا من الفقر والإملاق، فإنه يذكركم بالخالق دائماً، ويحثكم على طاعته وطلب رضوانه، ولقد خير النبي - عليه السلام - في أن يكون له مثل جبل أحد ذهباً فقال: «لو كان لي مثل أحد ذهباً، مايسرني أن لا تمر عليّ ثلاث ليالٍ، وعندي منه شيء إلا شيئاً أرصده لدين»^(٢).

ثم زاد في تزهيدهم بها فقال: «وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ كَانَ قَائِمًا يَعِظُ النَّاسَ وَيَقُولُ: يَا نَفْسُ حَتَّامَ إِلَى الْحَيَاةِ رَكُونِي، وَإِلَى الدُّنْيَا وَعِمَارَتَهَا سَكُونِي؟... كَمِ اخْتَلَسَتْ أَيْدِي الْمَنُونِ ...

وَأَنْتَ عَلَى الدُّنْيَا مُكَبُّ مُنَافِسٍ * * لُخْطًا بِهَا فِيهَا حَرِيصٌ مُكَائِرٌ
عَلَى خَطَرِ تَمْشِيٍّ وَتُصْبِحُ لَاهِيًا * * أَتَدْرِي بِمَاذَا لَوْ عَقَلْتَ تَخَاطِرُهُ
وَإِنْ أَمْرًا يَسْعَى لِدُنْيَاهُ جَاهِدًا * * وَيُدْهَلُ عَنْ أَخْرَاهِ لِاشْكَ خَاسِرُ

انظروا إلى الأمم الخالية، والملوك الفانية، كَيْفَ انْتَسَفَتْهُمُ الأَيَّامُ ...

وَخَلَّوْا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا بِهَا * * وَمَا فَازَ مِنْهُمْ غَيْرُ مَنْ هُوَ صَابِرٌ
وَخَلَّوْا بِدَارٍ لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ * * وَأَنْتَى لِسُكَّانِ القُبُورِ التَّزَاوَرُ؟

(١) المقامة (٢٦)، ص ١٦٩.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة - ؓ -، كتاب الرقاق، باب قول النبي - ﷺ - ((مايسرني أن

عندي مثل أحد هذا ذهباً))، ١١/٢٦٣-٢٦٤.



يَأْقُومُ الحَذَرَ الحَذَرَ، والبِدَارَ البِدَارَ، مِنَ الدُّنْيَا وَمَكَائِدِهَا، وَمَانَصَبَتْ لَكُمْ مِنْ مَصَائِدِهَا، وَتَجَلَّتْ لَكُمْ مِنْ زِينَتِهَا.

وَفِي دُونَ مَا عَانَيْتَ مِنْ فَجَعَاتِهَا * * إِلَى رَفْضِهَا دَاعٍ، وَبِالزُّهْدِ أَمْرٌ
فَجِدْ وَلَا تَغْفُلْ فَعَيْشُكَ بَائِدٌ * * وَأَنْتَ إِلَى دَارِ الْمُنِيَّةِ صَائِرٌ

وَكَيْفَ يَحْرَصُ عَلَيْهَا لَيْبٌ، أَوْ يُسَرُّ بِهَا أَرِيْبٌ، وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ فَنَائِهَا؟...

كَمْ غَرَّتْ الدُّنْيَا مِنْ مُخْلِذٍ إِلَيْهَا، وَصَرَعَتْ مِنْ مُكِبٍّ عَلَيْهَا؛ فَلَمْ تَنْعِشْهُ مِنْ عَثْرَتِهِ؟ وَلَمْ تُقْلَهُ مِنْ صَرَعَتِهِ، وَلَمْ تُدَاوِهِ مِنْ سَقَمِهِ، وَلَمْ تُشْفِهِ مِنْ أَلَمِهِ... بَكَى عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَطَايَاهُ، وَتَحَسَّرَ عَلَى مَا خَلَّفَ مِنْ دُنْيَاهُ، حَيْثُ لَمْ يَنْفَعُهُ الِاسْتِعْبَارُ، وَلَمْ يَنْجِهِ الِاعْتِدَارُ... (١).

أما الحريري فقد ذكر الزهد وحث عليه حين قيل له: «ماتقول في التهود؟ قال: هو مفتاح التزهد» (٢)، فجعل التوبة هي المفتاح لمن أراد أن يسلك طريق الزهد والتزهد، والتوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (٣).

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه، ويفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى فالتوبة منه الندم والاستغفار. والعزم على ألا يعود في المستقبل إلى تلك المعاصي والذنوب ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزمًا مؤكداً، ولن يستمر في التوبة إلا إذا عرف الداء، والداء المهلك هو حب الدنيا، فلو زهد فيها، وأقلع عن حبها وحب ما فيها من شهوات، لوصل إلى أرفع الغايات وهذا ما حدا بالحريري أن يقول «إن التوبة مفتاح التزهد».

(١) المقامة نفسها، ص ١٧١-١٧٨.

(٢) المقامة (٣٢): الطيبة، ٥٦/٤، التهود: التوبة. انظر: اللسان، مادة: هود.

(٣) سورة الأعراف، من الآية ١٥٦.



وفي مقامة أخرى قال الحريري ذاكراً ما تميز به أهل البصرة: «وَزَاهِدُكُمْ أَوْرَعُ الخَلِيقَةِ، وَأَحْسَنُهُمْ طَرِيقَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ»^(١)، فحين قال: «زاهدكم» لم يحدد أي وجه من وجوه الزهد.

بل أضاف إلى الزهد الورع حين قال: «وزاهدكم أروع الخليقة». قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة»^(٢).

وقد جمع النبي - ﷺ - الورع كله في كلمة واحدة، فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٣)، فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام والنظر والاستماع، والبطش، والمشى، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

«وقيل: الورع أول الزهد»^(٤).

وحيث قيل: أروع وهي على وزن «أفعل» من أساليب التفضيل يريد أن يصل إلى أن أهل البصرة أفضل الناس في الزهد - وكما سبق أن قلت - لم يحدد فيم زهدوا، لذا نستطيع أن نقول: ربما أنهم زهدوا في كلِّ، والله أعلم.

ونخلص إلى أن الزهد لم يكن عند المقاميين على وتيرة واحدة، فما نراه يبحث عليه هذا، لا يبحث عليه الآخر، بل يزهد في شيء آخر، فابن الجوزي بحث على الزهد في المال، وفي المطعم، وفي الملبس، والمسكن، وإن كان قد ذكر في مقامة أخرى أن الملبس ربما اتخذ بعض الناس مظهراً للزهد على الزهد بينما هم بعيدون عنه، وفي

(١) المقامة (٥): البصرية، ٣٤٦/٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، الزهد، م ١٠، ص ٦١٥، طبعة الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين.

(٣) رواه الترمذي (٢٣١٨)، كتاب الزهد، باب ١١، ٥٥٨/٤. وابن ماجه (٣٩٧٦)، كتاب

الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ١٣١٦/٢. ورواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٠١/١، عن

علي بن حسين عن أبيه - رضي الله عنهما - ورواه مالك في الموطأ، ٤٧٠/٢.

(٤) تهذيب مدارج السالكين، ٤٦٣/١.



ذلك تحذير من الانخداع بمظهر الزهاد الناشيء عن ملبسهم، وحذر في أكثر من مقامة من مغبة السير على طريق الزهاد الذين خرجوا على السنن الصحيح للزهد، وتصنعوا فيه، فردد: أن ذلك من فساد الرعية الذي أخرجه إلى البرية.

فنصل إلى أن ابن الجوزي هو الذي وضع طرق الزهد - أكثر من بقية المقاميين - فبين أنه ليس من الزهد ترك السعي في طلب الرزق للأهل والأولاد، وليس منه من اهتم ببناء رباط، وليس منه ترك النكاح.

أما الزمخشري، والبديع فقد حثا على الزهد في الدنيا.

وربما عن لأحدهم أن يسأل عن كيفية البحث عن الأخلاق الإسلامية عند البديع والحريري، بينما المقامات كلها تقوم أساساً على الكدية والسؤال، وهذا خلق مذموم في الإسلام، فكيف نوفق بين هذا، وذاك؟ فنقول: وإن كانت المقامة تقوم على خلق ذمه الإسلام عند بطل المقامات إلا أنك تلحظ أنه لن يتمكن من الحصول على ما يريد لو لم يكن أفراد المجتمع الذي يعيش فيه متحلين بأخلاق إسلامية؛ كالكرم الذي يدفعهم لإعطائه، وحب الخير الذي يعتمل في نفوسهم فيتعاطفون معه، في أي صورة من صور الاحتيال التي كان يلجأ إليها؛ ليحصل على المال.

لذا تجدنا نتلمس تلك الأخلاق الإسلامية، عند البطل، أو من معه، فالبطل وإن كان محتالاً فهو مثلاً، صابر، شاکر، يصير ليحصل على ما احتال بسببه على الناس، ويشكر من نقده المال، زاهد، أو حاث على الزهد كما في هاتين المقامتين عند البديع اللتين لم يلجأ فيهما إلى الحيلة مطلقاً، بل هو وعظ، ووعظ فقط.

أما الحريري فقد ذكر فقط مفتاح الزهد، وأشار مجرد إشارة إلى أن الزهد من مميزات أهل البصرة .



الصبر :

هو : «حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسهما عنه»^(١).

ولما كان ابن الجوزي على علم ودراية بفضيلة الصبر وتعدد مجالاته، وما ينتظر الصابرين من ثواب وما يناله الجزعون من عقاب، فقد حث في مقامته على التمثل بأدابه والاتصاف به.

ولهذا نجده في مقاماته قد حث على هذا الخلق، وحذر من ضده وهو: الجزع والهلع، «فالصبر لفظ عام ينتظم جملة فضائل، وقد يسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره، فالصبر في الحرب، يسمى شجاعة، والصبر في النوائب قد يسمى برحابة الصدر، وإن كان صبراً على شهوة البطن سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه، اختلفت أساميها عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى؛ ليسترسل في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشق الجيوب، وغيرها»^(٢).

وهذا صاحب مقاماتنا يصور لنا حالة رجل، فجح بفقد ابنه، فلم يحتمل ويصبر، بل أخذ يعدد متوجعاً لفراق ابنه فيقول :

« كُنْتَ السَّوَادَ لِنَاظِرِي * * * فَعَلَيْكَ يَبْكِي النَّازِرُ

مِنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمَتْ * * * فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ

ثم يعول ويقول :

فَإِنَّ يُطِيقُ الْمَوْتَ انْتِرَاعَكَ مِنْ يَدِي * * * فَلَنْ يُطِيقَ الْمَوْتَ انْتِرَاعَكَ مِنْ فِكْرِي

(١) المفردات، للأصفهاني، ص ٢٧٣، ت: د. محمد سيد كيلاني، دار المعارف، بيروت، لبنان.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ١/١٩٢-١٩٣، دار الرائد العربي، بيروت،

لبنان، ط ١، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

وإن تك ممحو المحاسن بالبلوى * * فإنك محفوظ المحاسن في صدري
فلا وصل إلا بين عيني والبكا * * ولا هجر إلا بين قلبي والصبر^(١).

فمصاب هذا الرجل يندرج تحت القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار كالمصائب مثل: موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض، وعمى العين، وفساد الأعضاء، وسائر أنواع البلاء، والرجل الذي أراد ابن الجوزي ضرب المثل به على الصبر قد أصيب بموت عزيز عليه؛ هو ابنه.

أما القسمان الآخران، اللذان ذكرت ثالثهما آنفاً فهما:

١- ما يرتبط باختياره .

٢- ما لا يدخل تحت حصر الاختيار^(٢).

فموت ابنه ليس له اختيار فيه، لكنه كان يستطيع أن ينال درجة الصبر بترك الجزع، لأن هذا داخل تحت اختياره، فيظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت، كما روى عن ((أم سليم)) * رحمها الله، قالت: ((توفي ابن لي وزوجي أبوظلحة غائب فقامت فسجته في ناحية البيت، فهيأت له إفطاره، فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ فقلت: بحمد الله لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية

(١) المقامة (٣١) : في التعازي، لابن الجوزي، ص ٢٤٥.

(٢) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال القاسمي، ص ٤١٦-٤١٧، ت: عاصم البيطار، دار النفائس، بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ - ١٩٨٤ م.

(*) أم سليم بنت ملحان الأنصارية، اختلف في اسمها، تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية فولدت أنس بن مالك الذي أصبح خادماً الرسول - ﷺ - بعد ذلك، أسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار فغضب زوجها وفارقها إلى الشام ومات فيها، فخطبها أبوظلحة، فاشترطت أن يكون مهرها دخوله في الإسلام، كانت مجاهدة، ت سنة ٣٠ هـ.

انظر: الإصابة، ابن حجر، ٤/٤٦١.



فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا، فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قبضه إليه، فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول الله - ﷺ - فأخبره فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما»^(١).

قال الراوي: «فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأوا القرآن».

ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب، ولا فيضان العين بالدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية، ولذلك لما مات «إبراهيم» ولد النبي - ﷺ - فاضت عيناه، فقيل له في ذلك، فقال: «هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢)، بل ذلك لا يخرج أيضاً من مقام الرضا.

فنعّم الرجل الذي قال :

* فَلَا وَصَلَ إِلَّا بَيْنَ عَيْنِيَّ وَالبِكَاءِ *

فالبكاء ، يفرج عن النفس، لكنه أخطأ بقوله :

* وَلا هَجَرَ إِلَّا بَيْنَ قَلْبِي وَالصَّبْرِ *

فالأولى أن يكون علاج دائه الصبر، لا أن يهجر الصبر وهذا هو العلاج الذي قدمه ونصحه به أبوالتقويم، لما رأى شدة جزعه قائلاً له: «إذا قيس الجزع بالصبر، فالصبر أولى، غير أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى، واتعظ بما قال المولى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾»^(٣).

(١) رواه البخاري من حديث أنس - ﷺ -، كتاب الجنائز، باب (٤٢): من لم يظهر جزعه عن المصيبة، ٨٤/٢، والمسند، ١٠٥/٣، ١٨١، ١٩٦، ٢٨٨.

(٢) رواه البخاري من حديث أسامة بن زيد - ﷺ -، كتاب الجنائز، باب (٣٣): قول النبي - ﷺ - «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه»، ٨٠/٢. ورواه الإمام أحمد: ٢٠٤/٥، ٢٠٦، ٢٠٧.

(٣) سورة الضحى، آية ٤ .



” إِذَا لَمْ يَبْكِ الْأَمْرُ ** فكَنْ بِالصَّبْرِ لَوَّازًا

وَالْأَقَاتَكَ الْأَجْرُ ** فَلَا هَذَا وَلَا هَذَا

الجزع لا يرد الغائب، ولكن يسر الشامت، ثم إنه زيادة في العذاب، لأنه مصاب يضاف إلى مصاب^(١).

ولذلك أمر الله تعالى رسوله بهذا اللون من الصبر، فقال له: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٢).

لكن ابن الجوزي ذكر أن المصاب في مقامه هذه قد جزع أيما جزع، فكلمه زاد أبوالتقويم في تعزيته وتسريته عن مصابه، زاد هو في بكائه ﴿ثُمَّ التَفَّتْ قَرَأَى بُكَاءَ الْمَصَابِ قَدْ تَشَدَّدَ فَنَادَاهُ رُوَيْدًا، ثُمَّ أَنْشَدَ:

قَدْ آنَ لِلصَّبْرِ أَنْ تَرْجَى مَثْوَبَتَهُ ** وَمَوْلَعٌ بِهُمُولِ الدَّمْعِ أَنْ يَدْعَا

وقال: في المصائب نعم، وإنما تخفى على النعم، توقظ الغافل للعب، وتنبه الراحل بمن غير، وتحصل الثواب لمن صبر^(٣).

فما هي مثوبة الصبر التي قال إنها قد آنت، وما هو الثواب الذي يحصله من صبر كما أسلف؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٤).

(١) المقامة نفسها، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) سورة المعارج، آية ٥.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٤٧.

(٤) سورة الرعد، آية ٢٢.



ويؤكد القرآن الكريم عظيم الثواب للصابرين وضمانه لهم، فيقول: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)، ويقول ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٢)، ويقول: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

وينتهي بنا القرآن الكريم في تكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله العظيم الذي لا حدود له، ولا قيود، فيقول: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤).

عندما ذكر أبوالتقويم الرجل المصاب بالثواب، عاد إلى رشده وقال: «لقد نفعني بما أسمعني، ولقد كنت في حضيض الجزع فرفعتني، فزدني من فصيح لفظك لأشتمل بصبح وعظك»^(٥).

عندها استحق صفة الصابر.

والمصاب هنا استمع لنصح أبي التقويم، وصبر ولم يكتف بذلك، بل إنه طلب المزيد من وعظه، الذي ركز فيه أبوالتقويم على التذكير بالآخرة، والوعظ بالموت، فالعمل.. العمل قبل الفوت «من لا ينسى إهلاك الموت، لا ينسى استدراك الفوت»^(٦).

أما الزمخشري، فقد حث على الصبر في أكثر من مقامة بذكر الثواب الذي يناله الصابر، مرة بالإشارة إليه والأخرى بذكره، فأما الإشارة ففي قوله:

«رُزءُ الفتنى بثوابه لفرائده * ينسى الشديد الصعب من أرزائه»

(١) سورة النحل، آية ٩٦.

(٢) سورة المؤمنون، آية ١١١.

(٣) سورة يوسف، آية ٩٠.

(٤) سورة الزمر، آية ١٠.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢٤٨.

(٦) المقامة نفسها، ص ٢٥٠.



لَيْسَ الْفَتَىٰ إِلَّا فَتَىٰ إِنْ نَابَهُ * * عَزَاءُ دَهْرٍ عَزَّ فِي عَزَائِهِ
وَالْعَزَّ أَنْ يَلُوي عَلَى الصَّبْرِ الَّذِي * * يَمْشِي ثَوَابُ اللَّهِ تَحْتَ لُؤَائِهِ» (١).

فها هنا حث الإنسان على الصبر على ما يلقاه من مصائب الدهر حباً في الحصول على الثواب من الله، فلم يذكر ماهو هذا المصاب، ولا التحديد للثواب.

وأما الذكر فقد بين لما قال: «النعيم الخالد في جنات عدن»، فذكر مبيناً حال المعاندين من الكفرة، وفي مقابلهم المؤمنون الذين تحملوا كل أذى وصبروا: «وماركب أعداء الله من أوليائه غير مكثرين لِعَتْوِهِمْ بِكِبْرِيائِهِ، رَدَعُوهُمْ عَنِ الْمُنَاكِبِ فَقَطَّعُوهُمْ بِالْمَنَاشِيرِ، وَدَعُوهُمْ إِلَى أَعْمَالِ الْأَبْرَارِ، فَعَرَضُوهُمْ عَلَى السَّيْفِ وَحَرَّقُوهُمْ بِالنَّارِ، ثُمَّ اصْطَبَرُوا لَوَجْهِ اللَّهِ وَثَبَتُوا، وَمَا اسْتَكَانُوا لَهُمْ، وَلَا أَحْبَبُوا، حَتَّى اشْتَرَوْا النِّعِيمَ الْخَالِدَ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ» (٢).

حث الصابرين على أن يجعلوا قدوتهم في الصبر، أنبياء الله، وما تحملوه من عذاب ومشاق في سبيل نشر الوحداية، فقال:

«وَاجْعَلْ مَرْمَى بَصْرِكَ الْغَايَةَ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا أَوْلُو الْعِزْمِ الصَّابِرُونَ، وَمَمْشَى قَدَمِكَ الطَّرِيقَةَ الَّتِي أَنْتَهَجَهَا الْغَابِرُونَ» (٣).

والزمنخشري يعرف مكانة الصبر، لذا جعله ضمن صفات الرجل الحر، فقال:

«وَالْحَرُّ عَزُوفٌ، عَرُوفٌ، لِمَوَارِدِ السُّوءِ عَيُوفٌ» (٤).

هذه بعض من صور الصبر التي حث عليها الزمنخشري، حيث بين أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال، والأفعال، حتى من اعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على وساوس الشيطان باطناً، فإن اختلاج الخواطر لا يسكن، ولا يزال في شغل دائم،

(١) المقامة (١٠): التسليم ص ٦٨-٦٩.

(٢) المقامة (٣٩): الفرقان ص، ٢٣١-٢٣٢.

(٣) المقامة (٤٤): العزم، للزمنخشري، ص ٢٥٣.

(٤) المقامة (١٥): الطيب، للزمنخشري، ص ٨٦.



بسببها يضيع به الزمان، وقد فطن الزمخشري لذلك فقال: «واصبرْ عَلَى مُعَانَاةِ الْوَحْدَةِ صَبْرًا»^(١).

في كل ماسلف حثنا الزمخشري على الصبر، ثم أخذ يبين لنا في مقامة أخرى كيفية تدريب النفس عليه فقال: «يَا أَبَا الْقَاسِمِ نَفْسُكَ إِلَى حَالِهَا الْأُولَى نَزَاةً. فَاغْزُهَا بِسَرِيَةٍ مِنَ الصَّبْرِ غَزَاةً لَعَلَّكَ تَفْلُ شَوْكَتِهَا وَتَكْسِرُهَا، وَتَجْبِرُهَا عَلَى الصَّلَاحِ وَتَقْسِرُهَا، فَإِنْ عَصَتْ ... وَعَلِمْتَ أَنَّ صَبْرَكَ وَحْدَهُ لَا يَقْوَمُ عِنَادَهَا فَاضْمُمْ إِلَى الصَّبْرِ مِنَ التَّصَبُّرِ مَدَدًا ... فَإِنْ رَأَيْتَ الصَّبْرَ وَالتَّصَبُّرَ لَا يَفِيَانِ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُمَا لَا يَكْفِيَانِ ... فَخَادِعَهَا ... جَرِّدْهَا عَنِ الْمَلْبَسِ الْبَهِيِّ، وَأَفْطِمِهَا عَنِ الْمَطْعَمِ الشَّهِيِّ ... وَجَافِهَا عَنِ الْفَرَاغِ الْمُوَرِثِ لِلْكَسْلِ ...»^(٢)، واستمر في بيان كيفية تدريب النفس على الصبر، بأن يلبسها الخشن من الثياب والنوم غير المتواصل، والشرب بدون ري، ومن ثم حث على الاقتداء بالصالحين وذلك: بإيلام النفس، والاعتزال بالماء البارد، وزيارة المقابر، وذكورها بما أعده الله لها من الوعد والوعيد، وقراءة الآيات الرادعة وأخيراً أن يشغلها بالعبادة ويستمع للمواعظ، فيصل بذلك إلى ما يريد: «فَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ اسْتَبَدَلْتَ مِنْ نَزْوَتِهَا سَكُونًا وَاعْتِاضَتْ، وَلَآنَتْ بَعْدَ جَمَاحِهَا وَارْتِاضَتْ، وَلَمْ تَأْبَ عَلَيْكَ خَيْرًا تَرِيدُهُ، وَلا عَمَلًا صَالِحًا تُبَدِّئُهُ وَتَعِيدُهُ، وَاحْتَفِظْ بِمَا أَلْقَى إِلَيْكَ مِنْ بَابِ الرِّيَاضَةِ مِنْ جَوْهَرَةِ ابْنِ عَبِيدٍ»^(٣)، وأراد بجوهرة ابن عبيد: كلمة عمرو بن عبيد التي قال فيها: «لقد رضت نفسي رياضة لو أردتها على ترك الماء لتركته»^(٤).

أما البديع فقد ظهر خلق الصبر جلياً في مقامته (٢٣)، حين كان الراوي عيسى ابن هشام يركب سفينة، وقال:

(١) المقامة (٤٣): الخمول، للزمخشري، ص ٢٤٩.

(٢) المقامة (٢٨): التصبر، ص ١٦٧-١٦٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٧٢.

(٤) شرح مقامات الزمخشري، يوسف بقاعي، هامش ص ١٧٢.



« غَشِيَتْنَا سَحَابَةٌ تَمُدُّ مِنَ الْأَمْطَارِ حَبَالًا، وَتَحْدُو مِنَ الْغَيْمِ حَبَالًا، بِرِيحٍ تُرْسِلُ الْأَمْوَاجَ أَرْوَاجًا، وَالْأَمْطَارَ أَفْوَاجًا... لِأَنَّكَ عُدَّةٌ غَيْرُ الدَّعَاءِ، وَلَا حِيلَةَ إِلَّا الْبُكَاءَ، وَلَا عِصْمَةَ غَيْرَ الرَّجَاءِ... وَأَصْبَحْنَا نَتَّبِعُكَ، وَنَتَشَاكِي، وَفِينَا رَجُلٌ لَا يُحْضِلُ جَفْنَهُ وَلَا تَبْتَلُ عَيْنُهُ، رَجِي الصِّدْرَ مُنْشِرِحُهُ، نَشِيطُ الْقَلْبِ فَرِيحُهُ...» (١).

وما هذا الرجل إلا أبو الفتح الإسكندري الذي كان ينتظر معهم الفرج، «ويعبر عن الانتظار بالصبر لما كان حق الانتظار أن لا ينفك عن الصبر، بل هو نوع من الصبر» (٢)، وهذا ما تسليح به الإسكندري بل هي صفة ملازمة له؛ ليصل إلى ما يريد في حيله، كما فعل في هذه المقامة، فقد تعرض لما تعرضوا له، فلجأوا للدعاء والتسبيح والاستغفار، والصبر لا بد له من قوة معنوية فكان لا بد من العمل على صفاء النفس بالاستغفار، والتسبيح؛ لأن في الاستغفار تخلية عن الأكدار النفسية، وفي التسبيح تخلياً بالكمالات النفسية التي يتم الشكر بها ظاهراً وباطناً، وفي كل منهما شد للعزيمة في المواجهة، ففي التسبيح والاستغفار يذكر المؤمن بالله، وبإيمانه به، وفي الصبر يتذكر أنه يعمل ابتغاء وجه الله، وهذا ما فعلوه فهم لا يملكون عدة غير عدة الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء، ولا عصمة غير الرجاء، فاستغل الإسكندري كل هذا واحتال عليهم، وباعهم رقاغ ادعى أن فيها حرزاً من الغرق، ولم يظهر عليه الجزع، بل كان رخي الصدر منشرحه، نشيط القلب فرخه، مما دعا عيسى بن هشام إلى التعجب لحاله، وقال له:

«كيف نصرك الصبر، وخذلنا، فأنشده يقول:

وَيْكَ لَوْلَا الصَّبْرُ مَا كُنْـُـهتْ مَلَأْتُ الْكَيْسَ تَبْرًا
لَنْ يَنَالَ الْمَجْدَ مَنْ ضَا * * قَيَّمَا يَغْشَاهُ صَدْرًا» (٣).

ففي قوله: * كيف نصرك الصبر وخذلنا؟*

(١) الحرزية، ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) المفردات، للأصفهاني، ص ٢٧٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٤٨، ما يغشاه: ما ينزل به من الحوادث، اللسان مادة: غشى.



شبه الصبر بإنسان يأخذ بيد بعض الناس فيعينها، ويترك بعضهم الآخر، وأسند إليه فعلاً من خواص المشبه به ترشيحاً.

ثم ذكر أنه لو لم يتذرع بالصبر، لما سألوه، وكشف لهم بعد ذلك المسألة، ونشأ عن ذلك أخذه المال منهم حتى امتلأ كيسه به.

فالصبر يتطلب القدرة على الاحتمال، وضبط النفس، ويتطلب ممارسةً وتدريباً في السيطرة على هوى النفس، وانفعالاتها، وعلى الرجوع إلى العقل والتروي في مواجهة الشدة، والأزمة.

ثم بين أن بلوغ المجد، والوصول إلى غاية الرفعة لا يكونان مع الجزع والخوف.

وقال واعظاً بالموت في مقامة أخرى :

«وَحَلُّوا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا بِهَا * * وَمَا فَازَ مِنْهُمْ غَيْرٌ مَنْ هُوَ صَابِرٌ» (١).

وفي مقامة أخرى قال: «خَرَجْتُ مِنَ الرِّصَافَةِ... فَلَمَّا نَصَفْتُ الطَّرِيقَ اشْتَدَّ الحَرُّ، وَأَعْوَزَنِي الصَّبْرُ» (٢): أي افتقرت إلى الصبر؛ لأنه ذهب مني كله.

إذن فالصبر مطلوب؛ لأنه عامل رئيسي في النجاح، ودفع الهزيمة في كل الأمور.

وهذا ابن نايقا يحث على صبر الغربة فيقول على لسان الراوي الذي سأله الرجل حين دخل المسجد متأففاً من غربته: «مَنْ لَكَ بِالوَطَنِ الحَاصِّ، وَجَامِعِ وَاوَدِ العَاصِ؟ ثُمَّ ذَكَرْتَ العُوطَةَ وَأَبْوَابَ جَيْرُونَ، وَحَنَنْتَ حَنِينَ مَيْسُونَ، فَرَفَعَ ذَلِكَ الشَّخْصَ رَأْسَهُ، وَصَاعَدَ أَنْفَاسَهُ، وَانْتَزَعَ زَفْرَةً مِنْ حِيْزِومِهِ إِلَى خَيْشُومِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَنْتَى لَكَ مَفْزُوعٌ وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ المَلْسُوعِ:

لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الغَضَا لَوْ دَنَا الغَضَا * * مَزَارٌ وَلَكِنَّ الغَضَا لَيْسَ دَانِيَا

(١) المقامة (٢٦): الوعظية، ص ١٧٤.

(٢) المقامة (٣٠): الرصافية، ص ٢١٥.



وجعل يغتص عبرته، ويبدى لوعته، ويندب غربته ويقول: واشوقاً إليكم أبداً،
وواحسرتاً على شربة من ماء بردى، ووصل تأسفه وتلهفه:

فراق لقيض السنِّ والصبر إنّه ** لكلِّ أناسٍ عثرةٌ وجبور) (١).

إن من أكثر ما يحتاجه المرء عند فراقه لأهله وداره؛ الصبر وإلا لما استطاع تحمل
ألم البعاد، ولوعة الفراق، ولولا الإيمان بطول الأمل بقرب اللقاء، ما استطاع المضي في
حياته، وقد كان لحسن خلق الراوي دور في تهدئة ما يعتمل في نفس المغترب حين
وعده، بل وبشره حين قال له: ((يَاهَذَا أَبَشْرٌ بِقَرَبِ الدَّارِ، والرِّفِيقِ السَّارِ، والعودِ مَعَنَا
إلى البلدِ، والاجتماعِ بالأهلِ وأولدي)) (٢).

أما الحريري فقد حث على الصبر في مقامته (٤٩) على لسان بطل مقاماته
أبوزيد السروجي، ينصح ابنه عند إحساسه بدنو أجله، قائلاً له:

((وعليكَ بِصَبْرٍ أُولِي العَزْمِ)) (٣)، و((صَبْرٍ أَبِي أَيُوبِ)) (٤).

ونخلص إلى أن خلق الصبر ورد في المقامات بدءاً من الصبر على فقد غزير
بالموت ومروراً بجعل صفة من صفات الرجل الحر والاستعانة به في المصائب والملمات
وانتهاءً بالصبر على معاناة الوحدة، كما وجدنا بعض المقاميين يذكرون عاقبته، ومن
ثم كيفية التحلي به، وتعويد النفس عليه حتى يصبح مؤمناً صابراً، وإذا كان الصبر
لأي إنسان من لوازم بقائه وسيره في الحياة، وبلوغ ما يريد فإن الصبر أشد ضرورة
للمسلم من غيره، لأن المسلم مطلوب منه أن يجس نفسه، ويكفها عن المعصية،
ويحثها على فعل الطاعة، فيحتاج إلى قدر كبير من ضبط النفس، والإرادة التي تمنعه من
مقارفة الخطيئة، ومفارقة الفضيلة، ثم يصبر على ما يقدره الله حفاظاً على الأجر
والثواب.

(١) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن نايقا، ص ٦، الحيزوم: وسط الصدر وما يُضَمّ

عليه الحزام، اللسان، مادة: حزم.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) الساسانية، ٣٣٩/٥.

(٤) المقامة نفسها والصفحة كذلك، وأبوأيوب: الجمل.

«ولعل القرآن الكريم لم يذكر خلق من أخلاقه كما فعل في شأن الصبر، حتى إنه ذكر في نحو تسعين موضعاً، وما من قرابة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، ومعية الله هنا معية محبة وتأيد، ونصر وتكريم، ومعونة، ومثوبة، ولذلك قال العلماء: إن الصبر واجب بإجماع الأمة، ولاعجب فهو نصف الإيمان، لأن الإيمان شطران، فنصفه صبر، ونصفه شكر^(٣).

الشكر:

هو : «تصور النعمة وإظهارها، وضده الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها»^(٤). وقد حث ابن الجوزي على الشكر في مقامته الثالثة والعشرين على لسان أبي التقيوم حين وجد بعض الاخوان يستمتعون بالربيع وخضرته، يقول واصفاً تلك النعم المصاحبة للربيع.

﴿فَلَمَّا هَبَّتْ عَلَى الْأَشْجَارِ نَسَائِمُ الرَّبِيعِ، وَعَرَضَتْ سَلْعُ الثَّمَارِ نَفُوسَهَا عَلَى السَّائِمِ عَرْضَ الْمَبِيعِ، وَنَجَمَتْ نَجُومُ الثَّرِيَّا خَالِصَةً مِنَ الْقِرَانِ وَالْتَرَبِيعِ، خَرَجَتْ فِي إِخْوَانٍ.... حَيْثُنَا أَرَايِحُ الرِّيحِ فِي بَعْضِ تَلَكِ الرِّيَاضِ، نَنْظُرُ إِلَى تَلَكِ الْغِيَاضِ، مُتَكَيِّينَ عَلَى خُمَائِلِ الْخُضْرَةِ، وَمَعْجِبِينَ بِمَا حَوَتْ تَلَكِ الْخُضْرَةَ، فَكُنَّا فِي بُسْتَانٍ كَأَنَّهُ مِنْ خَلَائِقِ الصَّبَاحِ خُلِقَ، وَ مِنْ شَمَائِلِ الْمَلَحِ سُرِقَ، نَسْمَعُ فِيهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ مَارِقٌ وَرَاقٌ، مِنْ قُمْرِيٍّ، وَهَدِيدٍ وَشِقْرَاقٍ...﴾^(٥).

- (١) سورة الزمر، آية ١٠.
- (٢) سورة البقرة، آية ١٥٣، وسورة الأنفال، آية ٤٦.
- (٣) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ١/١٩٥-١٩٦.
- (٤) وقيل: هو الامتلاء من ذكر المنعم، أو هو عرفان الاحسان ونشره وحمد موليه.
- انظر: موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ١/١١٢.
- (٥) المقامة (٢٣): في الربيع، لابن الجوزي، ص ١٩٠-١٩١، شقراق: طائر صغير قدر الهدهد مرقط بخضرة وحمرة وبياض، اللسان، مادة: شقرق.

نبه الشيخ ((ابوالتقويم)) الإخوان إلى التفكير في خالق تلك النعم وزادهم بذكر أخرى، كالأرض كيف تخضر بعد نزول المطر، وكيفية نزول المطر بعد امتلاء السحب بالماء، وسماع صوت الصواعق والرعد، فتسيل الأودية، وكيف يصفو الجو، ويهب نسيم الصبا، فتشاهد لون الورد الذي يحاكي لون الخجل، والطيور وهي تغني على الأغصان، ثم قال: «وَقَدْ ضَرَبَ الرَّبِّيعُ جَلَّ نَارُهُ فِي جُلْنَارِهِ، وَبَثَّ الْأَرَايِحُ أَسْرَارَهَا إِلَى النَّسِيمِ قَنَمٍ، فَاجْتَمَعَتْ فَنُونَ الْقِيَانِ، فَعَلَا كُلُّ ذِي فَنٍّ عَلَى فَنٍّ، فَتَطَارَحَتْ الْأَطْيَارُ مَنَاطِرَاتِ السَّجُوعِ، فَأَعْرَبَ كُلُّ بَلْغَتِهِ عَنِّ شَوْقِهِ إِلَى الْفِهِ، فَالْحَمَامُ يَهْدُرُ، وَالْبُلْبُلُ يَخْطُبُ، وَالْقُمْرِيُّ يَرْجِعُ، وَالْمَكَاءُ يَغْرُدُ، وَالْأَغْصَانُ تَتَمَائِلُ، كُلُّهَا تَشْكُرُ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّكَاحِ»^(١).

لأن الشكر نصف الإيمان، فقد ورد أنه شطران هما: الصبر، والشكر - كما أسلفنا-^(٢)، لذلك أمر الله به، ونهى عن ضده وهو الكفر. وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من اسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً ولقد نوه الحديث النبوي بهذه المكانة للشكر حين قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(٣).

وقد قطع الله تعالى بتحقيق المزيد من النعمة مع الشكر، ولم يستثن في ذلك، فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٤)، وقرن الشكر بالذكر في قوله تعالى:

-
- (١) المقامة نفسها، ص ١٩٣، المكاء: طائر صغير يألف الريف يجمع يديه ثم يصفرفيهما صغيراً حسناً، اللسان مادة: مكأ.
(٢) انظر: ص ٤٥ من البحث.
(٣) رواه الترمذي برقم (٢٤٨٦) في كتاب صفة القيامة، باب (٤٣)، ٦٥٣/٤. وابن ماجه في أبواب الصيام، ٢٧٥/١. وأحمد، ٢٨٣/٢، ٢٨٩ من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كما روى ابن ماجه، ٢٧٦/١. وأحمد، ٣٤٣/٤ نحوه من حديث سنان بن سنة السلمي -رضي الله عنه-.
(٤) سورة إبراهيم، آية ٧.



﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(١)، وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾^(٢).

والحق - جل جلاله - يذكر نعمه وآلاءه، ثم يعقب على ذلك بالتوجيه إلى الشكر، لكي يشعر المنعم عليهم بأن واجب التقدير للنعم في المعاملة أوفى، أو العدل في التصرف، يستلزم شكر النعمة وتقديرها، حتى يكون ذلك داعياً إلى استمرار المزيد منها، قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٥).

وابن الجوزي وعى ذلك كله، فحث على خلق الشكر، ودعا إليه، مع التنبيه على أنه مقتضى الإدراك الواعي، والتقدير البصير للأشياء، والإحساس بقيمة النعم والآلاء، كالقرآن الكريم الذي يعلمنا أن الرجل المتحلي بخلق الشكر؛ هو الإنسان المتدبر المعتبر الناظر إلى آلاء الله وآياته نظرة فاحصة عميقة مقدره، فيذكر قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلآيَاتِ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٦).

ويقول على لسان بطله: «هَلْ لَاحَظَ فِكْرَكُمْ هَذِهِ النَّعْمَ، أَوْ لَاحَظَ لَكُمْ مِنْهَا إِلَّا حَظَّ النَّعْمِ، هَلْ عَلَّقْتُمْ قُلُوبَكُمْ بِحُبِّ الصَّانِعِ، أَوْ مَا اشْتَقْتُمْ إِلَّا إِلَى الْحَبِّ الْيَانِعِ...»^(٧).

-
- (١) سورة البقرة، آية ١٥٢.
 (٢) سورة آل عمران، آية ١٤٥.
 (٣) سورة الأنفال، آية ٢٦.
 (٤) سورة النحل، آية ٧٨.
 (٥) سورة القصص، آية ٧٣.
 (٦) سورة إبراهيم، آية ٥.
 (٧) المقامة (٢٣) نفسها، ص ١٩٤.



يريد بذلك أنهم انصرفوا عن الشكر.

وهذا الزمخشري يبين أن على الإنسان أن يشكر الله على ما أولاه من نعم

فيقول:

« فَأَيُّ دِنَارٍ مِنْ صِحَّةِ الْيَقِينِ الْخَفِّكَ ... فِيمَا وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ رَحْمَتِهِ،
وَلَا يَعُدُّ وَلَا يَحْصِي مِنْ نِعْمَتِهِ. لَكِنَّ ظَلَلْتَ أَيَّامَ الْغَابِرِ مِنْ عَمْرِكَ صَائِماً، وَبَتَّ لِيَالِيَهُ قَائِماً
لِتَشْكُرَ مَا أَطْلَقَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ. وَخَوَّلَكَ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْخَضِرَاءِ؛ لَبَقِيَتْ
تَحْتَ قَطْرَةٍ مِنْ بَحْرٍهَا غَرِيقاً فِي الْتِيَّارِ، وَتَحْتَ حَصَاةٍ مِنْ طَوْدِهَا مَرَّضُوضَ الْفِقَاقِ»^(١).

وفي مقامة أخرى أخذ يعدد بعض نعم الله على الإنسان، من أفلاك،
وكواكب، وشمس وقمر، ومطر وأرض وجبال، وبحرين عذب ومالح، وحب ونوى،
وخلق الإنسان نفسه بعد أن كان نطفة وجعل له قلباً ولساناً وبصراً «مَا هَذِهِ إِلَّا دَلَالٌ
عَلَى أَنْ وَرَاءَهَا حَكِيماً قَدِيرًا، عَلِيماً خَبِيرًا، تَتَصَرَّفُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى قَضَائِهِ
وَمَشِيئَتِهِ، وَيَتَمَشَّى أَمْرُهَا عَلَى حَسَبِ إِمْضَائِهِ وَتَمَشِيَّتِهِ ... وَهَذِهِ كُلُّهَا مُحَدَّثَاتٌ عَنْ
عَدَمٍ، فَلَيْمَلاً الْيَقِينُ صَدْرَكَ بِإِلْمُخَالِجَةِ رَيْبٍ، وَلَا تَنْزِلَ عَنْ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَعَالِمِ
الْغَيْبِ، ... وَأَرْحَمَ نَفْسِكَ بِابْتِغَاءِ رَحْمَتِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهَا بِالشُّكْرِ عَلَى نِعْمَتِهِ، وَلِيَنْكَشِفَ
عَنْ بَصْرِكَ غِطَاؤُهُ. فَأَنْتَ وَجَمِيعُ مَا عِنْدَكَ عَطَاؤُهُ»^(٢).

لقد بين الزمخشري أن العبد لا يكون شاكراً لمولاه إلا إذا استعمل نعمته في
محبه، أي فيما أحبه لعبدته، لأنفسه، وأما إذا استعمل نعمته فيما كرهه فقد كفر
نعمته، كما إذا أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون الأول إلا أنه كفران للنعمة
بالتضييع، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلقه الله للعبد ليتوصل به إلى سعادته.

ثم إن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى وما يكرهه.

وهذا ما حث عليه الزمخشري في المقامة الثلاثين فطلب ترك قول الشعر من

(١) المقامة (١٣): المنذر، للزمخشري، ص ٨١.

(٢) المقامة (٢٦): التوحيد، للزمخشري، ص ١٦٠-١٦١.



تشبيب، ونسيب، وغزل للنساء، ومدح للسلطان؛ لطلب الأموال وقال: «اجعلُ ثَنَاءَكَ لِوَجْهِهِ خَالِصاً وَاسْأَلْهُ الطَّيِّبَ فِي جَمِيعِ مَا تَكْتَسِبُ، وَاتَّقِهِ يَرْزُقَكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ: أَثْنُ عَلَيَّ رَبِّ الْبَشَرِ ** عَلَيَّ الَّذِي أَعْطَى الشَّيْرَ»^(١).

وهو قد توجه بالشكر لك لأنه :

«أَعْطَى الَّذِي عَيَّ الْوَرَى ** يَحْصُرُهُ وَلَا حَصْرَ

حَسْبُكَ مَا أَوْلَاكَ مِنْ ** قَلْبٍ وَسَمْعٍ وَبَصَرٍ

وَمِنْ لِسَانٍ مُنْطَلَقِي ** لِلذِّكْرِ كَالسَّيْفِ الذَّاكِرِ

آيَاتُ صَدَقٍ وَعَيْبِهِ ** وَهَنَّ آلَاتُ الْعَيْبِ»^(٢).

وكذا في المقامة الرابعة والثلاثين بدأ بذكر نعم الله على عبده من بداية خلقه، منذ كان نطفة، مروراً بالرضاعة وطلوع الأسنان، وانتهاءً بالمكانة العالية التي أوصله إليها، ثم يقول :

«إِنَّمَا أَوْلَاكَ مَا أَوْلَاكَ لِتَنْظُرَ فِي وُجُوهِ تَعَمَّاتِهِ مُفَكِّراً»^(٣)، ومع هذا لا تشكر بل «تَسُدُّ مَسَامِعَكَ دُونَ أَنْ تَتَنَصَّحَ ... كَلَّمَا أَرْدَدْتَ بِلُؤْمِكَ غَمْصاً لِأَيْدِيهِ وَكُفْرَاناً، زَادَكَ بِكْرَمِهِ الْوَاسِعَ طَوْلاً وَإِحْسَاناً ... وَتَابِعَ عَلَيْكَ الْطَافَةَ الزَّائِدَةَ فِي إِيقَانِكَ...»^(٤).

وكانه يوبخه بإنهاء المقامة بهذا السؤال: «فَبِشُكْرِ أَيْةِ نِعْمَةٍ تَنْهَضُ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْعَاجِزُ؟ هَيْهَاتَ قَدْ حُجِرَتْ دُونَ ذَلِكَ الْحَوَاجِزِ»^(٥).

(١) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة للزخمشري، ص ١٨٥، الشير: العطية، يقال: شيره كذا، وأشيره؛ إذا أعطاه.

انظر: اللسان، مادة شير.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٦.

(٣) المقامة (٣٤): الشكر، ص ٢٠٥.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٠٩.



أما ابن نباته، فقد ذكر الشكر على لسان المتباري الرابع في مجلس المناظرة الذي يعقده شيخ من ذوي الأدب تنسل إليه الطلاب من كل حدب، فسار الراوي إليه ومعه رفاقه، وهناك أخذ كل منهم يقول شعراً في الربيع، والشيخ يرجح الحسن من القبيح، فقال: «فأشكر القوم إن رأوا التفصيل فيما قال، ومأقيل، وقالوا»^(١).

فتقدم بالشكر لهم إن فصلوا قوله، أو قول الشيخ الناقد، أو مأقيل ممن حضر المجلس، وهكذا يجب أن يكون المسلم شكاراً، فيشكر الله أن من عليه بنعمة العلم، ومن ثم يشكر من يدلّه على الصواب أثناء تحصيله العلمي، فينال هو الأجر، وكذلك من دله، لقوله - ﷺ - : «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»^(٢).

فهذا الشيخ يصحح لهم ما استقبح من قولهم، فله - إن شاء الله - أجر ذلك.

أما ابن ناقياً فلم يذكر من صور الشكر إلا ما أورده في المقامة الثالثة وهو: شكر الله على أن سلمهم من محتمل ادعى أنه غريب عن الأهل والدار، فدعوه إلى الطعام بعد أن وعدوه بقرب اللقاء بالأهل والعودة إلى الديار، فتمنع عن تلبية الدعوة للطعام، ومن ثم قبلها، وبانتهائه منه، انتهى الزاد لقضائه عليه، ثم هرب، يقول الراوي: «وَدَعَوْنَاهُ إِلَى الطَّعَامِ فَتثاقَلَ عَنِ المَقَامِ، حَتَّى اقسَمْنَا عَلَيْهِ... فَناولْنَاهُ ذَنوباً مِنَ الطَّعَامِ... ثُمَّ حَنَّا رَكْبِيهِ، وَحَرَوْنَا يَدَيْهِ، وَأَحْطَطَ عَيْنِيهِ، وَجَعَلَ يُوَفِّعُهُنَّ كَالْقَطِي، وَيَلْفَهُنَّ فِي لُظَى، وَاحْتَسَبَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَسَلَرَ أَرْضَهُ وَبَلَدَهُ... فَهَضَّ... وَمَانَلْنَا مِنَ الزَّادِ... فَعَجَبْنَا مِنْ هَرَبِهِ، وَهَمَّ القَوْمُ بِطَلْبِهِ، فَإِذَا هُوَ اليشكري، فَشَكَرْنَا اللهَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنْهُ»^(٣).

(١) مخطوط مقامة ابن نباته السعدي، ص ٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب الامارة، باب فضل اعانة الغازي في سبيل الله، ٤١/٦. ورواه أبو داود تحت رقم (٥١٣٩)، عن أبي مسعود الأنصاري - ﷺ -، كتاب الأدب، باب في الدال على الخير، ٣٣٣/٤-٣٣٤. والترمذي، كتاب العلم، باب الدال على الخير كفاعله، ٤١/٥. مسند أحمد، ١٢٠/٤، ٣٧٤/٥، ٣٥٧.

(٣) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقياً، ص ٧. ذنوب: الدلو العظيمة، حرون: قام ولم يبرح، وأصله في الخيل، سلا: نسي. انظر: اللسان مادة: ذنب، حرن، سلا.



وهذا الرجل بدل أن يشكرهم على ما فعلوه معه، ويمثل لقول رسول الله
 - ﷺ - : «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(١).

إذا به يهرب، وهم بدلاً منه يشكرون الله على أنه أنقذهم من حيله ومكره.
 أما الحريري فقد ذكر نوعي الشكر، شكر الله، ومن ثم شكر الناس، ومن
 قوله في شكر الله: «سَأَقِي إِلَيْكَ لُطْفَ الْقَضَاءِ، فَشُكْرًا لِيَدِهِ الْبَيْضَاءِ»^(٢).

فبين أن أول من يشكر : الله - جل جلاله - لأنه صاحب الفضل والنعمة
 والمنة، وصاحب اليد البيضاء، ولا منعم في الحقيقة سواه، ويعقب شكر الله، شكر
 الوالدين لقوله تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(٣)، وشكرهما يكون
 بطاعتها وتوقيرهما، والإحسان في الأعمال والأقوال إليهما، وعدم ايذاءهما، ولو
 بأقل لفظ، وخفض جناح الذل لهما تأدباً، ورحمتها، وهما كبيران، والدعاء لهما،
 وصلة رحمهما، وبر من يجبان، وهذا الشكر للوالدين ظهر جلياً في المقامة قبل الأخيرة
 عند الحريري حين أحضر أبوزيد السروجي ابنه، وعلمه كيف يتخذ من الكدية حرفة
 له، ويكون خير خلف له ثم قال: «يَا بَنِي قَدْ أَوْصَيْتُ، وَاسْتَقْصَيْتُ فَإِنْ اقْتَدَيْتَ فَوَاهَاً
 لَكَ، وَإِنْ اعْتَدَيْتَ فَأَهَا مِنْكَ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ، وَأَرْجُو أَنْ لَا تُخْلِفَ ظَنِّي فِيكَ، فَقَالَ
 لَهُ ابْنُهُ : يَا أَبَتِ لَا وُضِعَ عَرْشُكَ، وَلَا رُفِعَ نَعْشُكَ، فَلَقَدْ قَلَّتْ سَدَدًا...»^(٤).

فمن شكر الوالدين طاعتها، إلا أن المقامة السالفة كان الأحرى بالولد ألا
 يطيع أباه في اتخاذ التسول حرفة له؛ لأنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، وديننا
 الخفيف قد أوصانا أن نأكل من كدنا، وتعبنا، وألا نكون عالة على غيرنا..

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة - ﷺ - تحت رقم (١٩٥٤)، كتاب البر والصلة، باب ماجاء

في الشكر لمن أحسن إليك، وقال حديث حسن صحيح، ٣٣٩/٤. ورواه أبوداود، كتاب
 الأدب، باب في شكر المعروف، ٢٥٥/٤.

(٢) المقامة (١٥)/ الفرضية، ١٨١/٢-١٨٤.

(٣) سورة لقمان، آية ١٤.

(٤) المقامة (٤٩): الساسانية، للحريري، ص ٤١٢-٤١٣.



وفي المقامة نفسها حثه على شكر الناس قائلاً لابنه ضمن وصاياه له: «رُكُنْ يَا بُنَيَّ خَفِيفَ الْكَلِّ، قَلِيلَ الدَّلِيلِ، ... وَعَظْمَ وَقَعِ الْحَقِيرِ، وَاشْكُرْ عَلَيَّ النَّقِيرِ»^(١).

وفي مقامة أخرى أورد شكر الناس حين قال على لسان الراوي: «فَلَمَّا رَأَيْنَا الشُّبْلَ يُشْبِهُ الْأَسَدَ، أَرْحَلْنَا الْوَالِدَ وَزَوَّدْنَا الْوَلَدَ، فَقَابَلَا الصَّنْعَ بِشُكْرِ نَشْرِ أَرْذِيَّتِهِ، وَأَدْيَا بِهِ دَيْتَهُ»^(٢).

يقول: جعلنا شكرهما حقاً ليرنا ومكافأة لصلتنا، وكان المال الموهوب قد استهلكه الآخذ له، فإن شكر عليه فالشكر للواهب هو دية ماله الهالك، فقد قيل: إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر؛ وإنما أراد قول النبي -ﷺ- عن جابر -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «من أعطي عطاءً فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن، فإن من أنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور»^(٣).

وفي مقامته الخمسين أخذ يعدد محاسن أهل البصرة، ويمدحهم قائلاً: «دَهْمَاؤُكُمْ أَطْوَعُ رَعِيَّةٍ لِسُلْطَانٍ، وَاشْكُرْهُمْ لِأَحْسَانٍ»^(٤)، أي أن أكثر أهل البصرة يتصفون بخلق الشكر، فيشكرون من يحسن إليهم، «لأن القرآن الكريم يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾»^(٥).

وكذا السنة النبوية المطهرة عنيت بالحث على شكر الناس، فقال رسول الله -ﷺ-: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»^(٦).

- (١) المقامة نفسها (٤٩)، ص ٤١٠-٤١١.
- (٢) المقامة (١٤): المكية، للحريري، ١٤٣/٢.
- (٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في المتشيع بما لم يعطه، ٣٧٩/٤ حديث حسن غريب. ورواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، ٢٥٦/٤.
- (٤) المقامة (٥٠): البصرية، للحريري، ٣٤٦/٥، شرح الشريشي، دهماؤكم: جماعتكم. والدهماء: معظم الناس، انظر: اللسان، مادة دهم.
- (٥) سورة الرحمن، آية ٦٠.
- (٦) سبق تخريجه ص ٥١.



لأن الذي يقدر صنيع الجميل معه، ولا يشكر عليه يكون مقصراً في حق الله -عز وجل-، لأن الله تعالى لا يقبل شكر الإنسان على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم، لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

وكذلك جاء في الحديث: «من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء»^(١).

وهذا بالنسبة للعاجز غير القادر على الشكر المادي، وجملة «جزاك الله خيراً» فيها ثناء بليغ، لأن فيها معنى الاعتراف بالعجز عن الشكر، وقائلها قد دعا الله ورجاه بأن يثيب صاحب المعروف نيابة عنه، والله واسع الفضل والعطاء، فلو أخلص الإنسان في الدعاء لكان شاكراً عظيماً.

ونخلص إلى أن المقامين حثوا على هذا الخلق، ممثلاً في شكر الله، إلا أن ابن الجوزي، والزمخشري ركزا على أن العبد لا بد أن ينظر إلى النعم التي أنعم الله بها عليه؛ ليزداد شكره لمنعمها عليه، وزاد الزمخشري على ذلك بذكر الكيفية التي يشكر بها العبد مولاه؛ وذلك باستعمال نعمته في محبته؛ لأن من فهم حكمة الله في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر لله.

أما ابن نباته فقد أشار إلى شكر الله، ثم شكر الناس، وعلى النقيض منه ابن نايقا الذي مثل بصورتين، إحداهما: لرجل يحسن إليه ولا يشكر، والثانية: لأناس توجهوا بالشكر لله؛ لأنه خلصهم من كافر لصنيع المعروف.

أما الحريري فأضاف إلى ذكر شكر الله، ثم الناس: شكر الوالدين.

الكرم:

إن ابن الجوزي لا يترك مناسبة في مقاماته إلا ويشيد فيها بخلق من أخلاق القرآن، ويحث المسلم على التمسك بها إما من خلالها وإما بذكر ضدها، وذكر الضد

(١) رواه الترمذي تحت رقم (٢٠٣٥) عن أسامة بن زيد - رضي الله عنه -، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في المتشبع بما لم يعطه، ٤/٣٨٠.



وبيان مساوئه يكون تأثيره أفضل، وهذا مااحتذاه ابن الجوزي فهو يذكر الكرم ويحض عليه، ويذم البخل ويبين عيوبه كما نرى في مقامته ((في ذم الأكل في قوة العز)) حيث أورد فيها أنه دعا في بعض الأيام دعوة عامة، فكان من ضمن المدعوين فلاح ازدرى هيئته، فأحس بذلك الأعرابي فقال له: «يَا أَجُودَ مَنْ حَاتَمٍ، مَا يَلِغُ كَعْبُكَ فِي الْكِرْمِ كَعْبُكَ»، فندم على ازدرائه للأعرابي الذي قال: «أَيَّنَ طَيْبُ الْأُرُومَةِ، أَيَّنَ أَثْرُ الْأَكْرُومَةِ، أَفَّ لِثِيَابِ أَحْرَارٍ، عَمَلَى غَيْرِ أَحْرَارٍ :

رَبِّ قَوْمٍ فِي خَلَاتِقِهِمْ ** غُرُّ قَدْ صُيِّرُوا غَرًّا
سَتَرَ الْمَالَ الْعِيُوبَ لَهُمْ ** سَتَرَى إِنْ زَالَ مَاسَتَرًا

ثم قال :

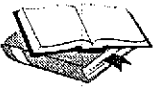
رَأَيْتُ خَيْمَةَ شَعْرٍ ** فَقُلْتُ : مَاذَا السَّوَادُ؟
فَقِيلَ : مَطْبَخُ قَوْمٍ ** فَقُلْتُ : أَيَّنَ الرَّمَادُ؟
فَقِيلَ لِي : فِيهِ بَيْنٌ ** وَكَامِخٌ وَجَرَادُ
وَلَيْسَ فِيهِ سِوَى ذَا ** وَلِلْجَمَالِ يُرَادُ
بِجَاهِيلٍ مَا فُطِنُوا بِالسَّمَاخِ ** وَلَا سَمِعُوا بِمُجْدِثِ الْقُرَى

.....

بَلَى عِنْدَ ضَيْفِهِمْ مَا يُرِيدُ ** وَلَكِنْ لِعَمْرِي إِذَا مَا اشْتَرَى
وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ ثَاوِيًا ** فَمَا تَتَعَذَّرُ دُورَ الْكِرَامِ (١).

(١) المقامة (١١) ((في ذم الأكل في قوة العز)) لابن الجوزي، ص ٨٧-٨٩.

البن: الطبقة من الشحم، اللسان، مادة: بن، والكامخ: ما يؤتدم به أو المحللات المشهية والجمع كوامخ، اللسان، مادة: كمخ.



وعلى النقيض منهم ما ذكرهم بعد ذلك الأعرابي حين قال: «لَقَدْ أَلْفَتْ صَحْبَةً قَوْمٌ كَانُوا آخَايِرَ الدَّخَايِرِ، وَبَشَائِرَ العَشَايِرِ، وَكُنْتُ إِذَا حَيَّتُ فِيهِمْ كِرَامًا، وَإِذَا حُيِّتُ فَبِأِكْرَامٍ»^(١)، ثم يتحسر على فراق مثل هؤلاء فيقول:

«لِلَّهِ أَقْوَامٌ فَقَدْتَهُمْ ** سَكَنُوا بُطُونَ الأَرْضِ وَالحَفَرَ
أَيْنَ السَّبِيلِ إِلَى لِقَائِهِمْ ** أَمْ مَنْ يُحَدِّثُ عَنْهُمْ نَجَرَ؟!
أَشَدُّ الوَعَا وَبِدورُ أُنْدِيَةِ ** تَهْوَى العيُونَ إِلَيْهِمُ النُّظْرَا
تَرَكَوا الزَّمَانَ مُرْقِعًا خَلَقَا ** وَالنَّاسَ لِأَحْيَا وَلا بَشْرَا»^(٢).

فهو حين وصفهم بتلك الصفات يريد أن يوقظ في نفس سامعه حب العطاء،

والإنفاق لأنه سأله: لمن وصفت؟ فقال لضدك، ثم قال:

«لَذَّةُ الدُّنْيَا إِذَا مَا حَضَّرُوا ** وَإِذَا غَابُوا فَشَغَلَ لِلْأَمَانِي
مَا طَمَأَنَّ الدَّهْرُ حَتَّى نَقَصُوا ** فَكَأَنِّي لِأَرَاهِمُ فِي مَكَانٍ»^(٣).

ثم ساحت دموعه من عينه، وأخذ ينعي عدم وجود الكرام:

«مَاتَ الكِرَامُ وَوَلُوا وَانْقَضُوا وَمَضُوا ** وَمَاتَ مِنْ بَعْدِهِمْ تِلْكَ الكِرَامَاتُ
وَخَلَّفُونِي فِي قَوْمٍ ذَوِي سَقَمِهِ ** لَوْ أَبْصَرُوا طَيْفَ ضَيْفٍ فِي الكَرَى مَاتُوا»^(٤).

وصف البخلاء بالسفه، ثم زاد في بيان شدة بخلهم فهم حين يبصرون طيف

الضيف في نومهم يموتون خوف تقديم الطعام لهم

(١) المقامة نفسها، ص ٨٩.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٩٠.



ومن ثم بدأ الأعرابي يحث على إطعام الطعام فيقول : «أَيُّ مَرْوَةٍ لِمَنْ لَا يَجْتَمِعُ
الْإِخْوَانُ عَلَى خِيَانِهِ، وَلَمْ تَقْعُ الْأَجْفَانُ عَلَى جِفَانِهِ غَيْرَ أَنَّ الْحُرَّ كَالْعَنْقَاءِ، مَعْدُومُ
اللِّقَاءِ، وَمِثْلُ الْمَائِلِ بَيْنَ الطَّعَامِ، وَطَاعِمِ الطَّعَامِ، مِثْلُ حُرُوفِ الْإِدْغَامِ»^(١).

نعم ، شتان بين البخلاء، والمنفقين، وقد أورد لهما رسول الله - ﷺ -

مثالين، في الحديث التالي :

عن أبي هريرة - ﷺ - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «مثل البخيل
والمنفق، كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق،
فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تخفي نباته، وتعفو أثره، وأما
البخيل، فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها
ولا تتسع»^(٢).

ولكن الرجل لم يكن من وراء حثه على إطعام الطعام يريد أن يلتهم، ويغوص
في ذلك الطعام، لأنه حين قدم إليه، تناول لقمات ثم كف، ولما سئل عن ذلك قال
كلاماً مأثوراً:

«إِنَّمَا يَرِيدُ الْعَاقِلُ أَنْ يَأْكُلَ لِيَحْيَا لَا أَنْ يَحْيَا لِيَأْكُلَ، إِنَّ خَيْرَ الْمَطَاعِمِ
مَا اسْتُخْدِمَتْ، وَإِنَّ شَرَّهَا مَا خُدِمَتْ، وَهَلْ عَالِجُ الْحِجَامَةِ وَفَصْدَ الْفِصَادِ، إِلَّا خَارِجٌ عَنْ
حَدِّ الْاِقْتِصَادِ»^(٣).

يريد بذلك ذم الأكل، ثم سئل: «أما تشتهي أن تشبع؟ قال: أشتهي وأمنع،
... ثُمَّ أَخَذَ يُدْرَسُ دَرْسًا قَدْ دَرَسَ، ثَلَاثًا لِلطَّعَامِ، وَثَلَاثًا لِلشَّرَابِ، وَثَلَاثًا لِلنَّفْسِ»^(٤).

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) رواه البخاري مع فتح الباري، كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل، ٣/٣٥.

الجنة: الدرع، اللسان، مادة: جن .

(٣) المقامة نفسها، ص ٩١ .

(٤) المقامة والصفحة نفسها.



فيكون بذلك امثـل لحديث رسول الله - ﷺ - حين قال: ((بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لامحالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه))^(١).

ونرى ابن الجوزي في مقامته (في ذم البخل) يشيد بالكرم ويذم في المقابل البخل، فها هو ذا يقول بعد أن كان النقاش على أشده مع شيخ ورجل جلف، فقطع الكلام فقير، قائلاً:

((يا قوم مالي فقير، أخرجني إلى سؤالكم الجوع، وإلى أمثالكم الرجوع، فقال الشيخ: ألعقر داء الكرم. فرحم الله من وأسى هذا الغلام، فبادروا الأرباح في هذه التجارة، فسكنوا كأنه كلم حجارة. فقال الشيخ:

أرى إخواننا أثروا ولكن
لأنهم يخافون المرجى
وإن قلنا أضيفوا الناس وأقرؤا
ثراؤهم على التحقيق فقر
كأنهم حبارى وهو صقر
ففي آذانهم من ذاك وقر

ثم بالغ في ذم البخلاء وأنشد:

خلقوا وما خلقوا لكرممة
رزقوا وما رزقوا سماح يد
فكأنهم خلقوا وما خلقوا
فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ثم قال لهم: هذا المسكين ماذاق الليلة لما جا، وكو علم مثله لما جا، إن البخل بالطعام، من أخلاق الطغام، وإن العقلاء وأسوا بقدر طاقتهم، ولم يتناسوا قرب فاقتهم... فقال الشيخ: لو كنتم بالخلف تصدقون، ما كنتم بالخلف تصدقون ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون))^(٢).

(١) رواه الترمذي، تحت رقم (٢٣٨٠)، كتاب الزهد، باب ماجاء في كراهية كثرة الأكل، ٥٩٠/٤. ورواه ابن ماجه (٣٣٤٩)، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، ١١١١/٢؛ بلفظ آخر.

(٢) المقامة (٢١)، لابن الجوزي، ص ١٧٤-١٧٦.



وقد أظهر هذا الوعظ في ذم البخل نتيجة الفورية، ولكن كل على طبيعته، فهذا رجل قد قدم حثالة من الحثالة، ومن ثم قام آخر أظهر صورة للكرم المطلوب من المسلم تجاه أخيه، يقول ابن الجوزي: «فأشرف جازاً للمسجدِ عَلَيْهِ، وضمنَ جميعَ المطلوبِ عَلَيْهِ، فَكَانَ بَيْنَ وَعَدِيهِ وَإِنْجَازِهِ لَأُمَّ عَلَيْهِمُ أَلِفٌ، فَأَلْفَيْنَا شَخْصاً لِمَعْرُوفٍ قَدْ أَلِفَ.. وَقَالَ لِغَلَامِهِ: كُلُّ لَهُ... فَهَالَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَيْدِ مَا هَالَ، فَزَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ السَّيِّدِ مَا هَالَ»^(١).

فأشاد ((أبوالتقويم)) الشيخ بكرمه فقال: «السَّلِيْقَةُ حَلِيْقَةٌ، وَهِيَ بِالْكَرَامَةِ حَلِيْقَةٌ، وَالنَّحِيْزَةُ غَرِيْزَةٌ، وَهِيَ فِي الْخَلْقِ غَرِيْزَةٌ، لَا يَقُولُ الْمَجْدُ وَاطْرَبَاهُ، حَتَّى يَصِيْحَ الْمَالُ: وَاحْرَبَاهُ هِيَهَاتَ أَنْ يَسْمَنَ الْمَدْحُ حَتَّى يَهْزَلَ الْكَيْسُ»^(٢).

ثم بين الكيفية التي يداوى بها البخل فقال: «فبماذا أداوي البخل؟ فقال: اعلم أن مالك ما أتلفت. ومالك ما خلقت، وتيقن أن البخيل فقير لا يؤجر على فقره.

يَفْنَى الْبَخِيلُ بِجَمْعِ الْمَالِ مَدَّتَهُ * * * وَ لِلْحَوَادِثِ وَالْوَرَاثِ مَا يَدْعُ
كَدُوْدِقِ الْقَرْمَاتِ بِنِيهِ يَهْدُمُهَا * * * وَغَيْرَهَا بِالذِي تَبْنِيهِ يَنْتَفِعُ»^(٣).

لما جا : لم يذق شيئاً.

لنقير: جذع ينقر ويجعل فيه كالمراقى يصعد عليه إلى الغرف، أو خشبة تنقر فيتخذ فيها نبيذ من الثمر ونحوه، اللسان، مادة: نقر، ملح.
الجبارة: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة، المفرد والجمع سواء، اللسان، مادة: حير. الخلف: العوض والبدل. الخلف: المحال الذي ينافي المنطق ويخالف المعقول. انظر: اللسان، مادة خلف.

(١) المقامة نفسها، ص ١٧٦ من كلام العرب قولهم: لم يكن إلا كلا و يريدون سرعة الانجاز، اللسان، مادة كلى .

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.



أما في المقامة الثانية والعشرين فنرى **ابن الجوزي** يبحث على إكرام الضيف، حين أظهر لنا بطل مقاماته في صورة زائر، وقد قام المضيف بإكرامه كما يجب على المسلم تجاه ضيفه فقال على لسان أبي التقويم :

«يَا زَوْلُ أَنَا زَوْلٌ ... فَأَفْرَدْتُهُ فِي صُفَّةٍ، وَأَبْرَدْتُهُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ ... فَصَحْتُ بِخَادِمِي: يَا كَافُورُ قَدِّمْ لَنَا قِدْرًا تَفُورٌ ... فَاسْتَسَعَدْتُ أَنَا بِخِدْمَةِ ضَيْفِي، وَأَعَدَدْتُ لِلْخَادِمِ سَوَاطِي وَسَيْفِي، ثُمَّ دَعَوْتُ جَمَاعَةً كَانُوا يُفْطِرُونَ عِنْدِي، فَأَسْنَيْتُ طَعَامَهُمْ وَنَسَيْتُ عَبْدِي ... فَلَمَّا أَكَلُوا تَنَاوَلُوا بِالْأَصَابِعِ ثُمَّ بِالرَّاحِ، وَشَغَلُوا جَمِيعَ الْمَسَامِعِ بِحَدِيثِ الْأَفْرَاحِ، فَنَاوَلَ الشَّيْخُ نَاقَةَ الْجُوعِ لِقَمَاتٍ ثُمَّ شَقَّ، وَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّرِّهِ وَالسَّنَقِ، فَقُلْتُ لَهُ: فَمَا الَّذِي تُؤَثِّرُ مِنَ الْحَلْوَى قَالَ: السَّلْوَى فَازْدَادَ مِنْهَا وَقَالَ: لَا بَاسَ فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً لِلنَّاسِ ... فَلَمَّا رَأَى الْآكِلِينَ قَدْ لَعِبُوا وَأَشْرُوا، قَالَ: فإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا...»^(١).

فمنذ بدء المقامة بين أول آداب الزائر أو المضيف أثناء دخوله على المزار، فاستأذن، وحين سئل عن الطارق قال: «يا زول أنا زور»، لأن للزيارة آدابها، بعضها في الدخول، وبعضها في تقديم الطعام، أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل، فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهى عنه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاهُ﴾^(٢)، يعني منتظرين حينه ونضجه.

ومن ثم انتقل لبيان مافعله المضيف مع ضيفه، حيث أجلسه في صفة، وعامله كأهل الصفة، ثم أخذ يستعد ليقوم بواجبه تجاه ضيوفه كإعداد للطعام.

كما أن المصنف في هذه المقامة حقق الكثير من آداب إحضار الطعام، ومنها: تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف ... وترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن

(١) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمدارة، لابن الجوزي، ص ١٨٢-١٨٤، زول: الحلو

الظريف، زور: أي زائر، السنق: التخممة، انظر: اللسان مادة: زول، زور، سنق.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٣ .



كانت فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وفي القرآن الكريم دليل على تقديم الفاكهة في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾^(١)، ثم قال: ﴿وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾^(٢).

ثم تقديم اللحم والثريد بعد الفاكهة، فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات، ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف ((إبراهيم))، إذ أحضر العجل الحنيد أي الحنوذ وهو الذي أجيد نضجه، وهو أحد معني الإكرام، أعني تقديم اللحم في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾^(٣).

وهذا مضيف ابي التقويم يقول له: ((فما الذي تؤثر من الحلوى قال: السلوى))، هذا بعد أن ((ناول الشيخ ناقة الجوع لقيمات)) ولم يسرف كالبقية في تناول الطعام امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٤).

وكذا أراد تنفيذ أوامر الله حين قال لهم: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، فالله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِذَا يُوذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٥).

كما نلاحظ أن أبا التقويم حقق أيضاً آداب الانصراف، وهي ثلاثة:

((الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف.

(١) سورة الواقعة ، آية ٢٠ .

(٢) سورة الواقعة ، آية ٢١ .

(٣) سورة هود، آية ٦٩ .

(٤) سورة الأعراف، آية ٣١ .

(٥) سورة الأحزاب، آية ٥٣ .



الثاني: أن ينصرف الضيف طيب النفس، وإن جرى في حقه تقصير.

الثالث: أن لا يخرج إلا برضاء صاحب المنزل وإذنه ... وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام فرمما يتبرم به، ويحتاج إلى إخراجهم، نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك»^(١).

وأبو التقيوم في هذه المقامة قد استأذن للانصراف، لكن مضيفه أبقى عليه ذلك.

يقول ابن الجوزي: «ثُمَّ آبَ لِيذْهَبَ، فَقُلْتُ: مَا فِيهَا مَذْهَبٌ، قَدْ عَرَضَ لِي أَنْ تَبِيَّتَ، فَقَالَ: لَا غَرَضَ لِي فِي الْمَبِيَّتِ، فَشَمَّرَ لِلرَّحِيلِ ذَيْلَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا هِيَ لَيْلَةٌ، فَقَالَ: إِنَّ شُكْرَ الْمَنَعِ مُسْتَحَقٌّ، وَلَكَ بِمَا فَعَلْتَ حَقٌّ»^(٢).

كما نلاحظ أن ابن الجوزي قد حث على الجود بالعلم وبذله وهي: «المرتبة الرابعة من مراتب الجود، ... وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم اشرف من المال، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به : أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

ومن الجود بالعلم : أن السائل إذا سألك عن مسألة، استقصيت له جوابها جواباً شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ماتدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا عليهما، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية إذا سئل عن مسألة حكيمة، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر، وما أخذ الخلاف، وترجيح القول.. وهذه فتاويه - رحمه الله - بين الناس، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك»^(٣).

(١) موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) المقامة (٢٢): نفسها، ص ١٨٤-١٨٥.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ٦٤٣/٢-٦٤٤.



وأبوالتقويم يظهره ابن الجوزي - في معظم مقاماته - وفي مقامته هذه يجود بالعلم حين سأله صاحب الدار قائلاً له : «عِنْدِي مَسَائِلٌ ، فَقَالَ : وَلَكَ عِنْدِي وَسَائِلٌ ، فَقُلْتُ : وَكَيْفَ أُرَوِّدُ عِلْمَكَ ، قَالَ : سَلْ وَأَحْضِرْ فَهَمَّكَ ، وَقُلْ مَا بَدَأَ لَكَ» (١).

ونلاحظ أن ابن الجوزي لم يترك فئة من الناس إلا وتطرق إليها، وبين كيفية التعامل معها، كما أظهر هنا فئة الخدم، وكيفية تسامح سيده - صاحب الدار - عنه حين أعرض عن طلبه، ولم يلبه حين قال له : «يَا كَافُورُ . قَدِّمْ لَنَا قِدْرًا تَقُورُ... ، فَقُلْتُ : وَيَحْكُ أَغْرِفُ . فَأَعْرَضَ عَنَّا وَأَبَى ، وَلَمْ يَعْرِفْ لَنَا ، فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ : اسْمِعْنِي ذِمَّهُ فَالْكَلَامُ يَشْفِي صَدْرِي ، فَقَدْ حَيَّرَنِي هَذَا الْغَلَامُ فِي أَمْرِي فَزَفَرَ الشَّيْخُ - لِمَا مَيَّزَ - زَفْرَةَ الْقَيْظِ . وَكَانَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، وَقَالَ : تَعَلَّمْ عَلَيَّ غُلَامِكَ كَطَمَّ الْغَيْظِ ، ثُمَّ بَادَاهُ فَنَادَاهُ :

أَكْفُورُ قُبِّحْتَ مِنْ خَادِمٍ * وَلَا قَتْنَاكَ مُسْرِعَةً جَائِحَةً

حَكَيْتَ سَمِيكَ فِي بُرْدِهِ * وَأَخْطَأَكَ اللَّوْنُ وَالرَّائِحَةَ

فاستعسدتُ أَنَا بِخِدْمَةِ ضَيْفِي ، وَأَعَدَدْتُ لِلْخَادِمِ سَوَاطِي وَسَيْفِي» (٢).

إلا أن ابن الجوزي عاد بعد ذلك، وأظهر لنا صاحب الدار، وقد حن قلبه على خادمه، وعفا وصفح عنه فقال :

«ثُمَّ حَنَّ قَلْبِي إِلَيْهِ فَصَالِحْتُهُ ، وَعَفَوْتُ عَنْ جِنَايَةِ يَدِيهِ وَسَامَحْتُهُ ، ... ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ : لَا بُاسَ بِمِدَارَةٍ مَنْ تَقَاسَيْبِهِ ، فَإِنَّ الْعَفْوَ يَلِينُ مِنْ قَاسِيهِ» (٣).

وهكذا حال المسلم مع خادمه، يصفح ويعفو عن زلاته، فقد جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يارسول الله كم تغفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه، فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: «أعفو عنه كل يوم سبعين مرة» (٤)، لأن العفو من شيم الكرام.

(١) المقامة (٢٢) نفسها، ص ١٨٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٣.

(٣) المقامة (٢٢) نفسها، ص ١٨٤.

(٤) رواه الترمذي تحت رقم (١٩٤٩) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - ، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في

وإلى مثل هذا أشار في مقامة أخرى حين قال : «أنت أكرم من جاد على الخدم وأولى، وأنشدوه بذلة العبيد عند المولى :

يَا مَنْ صَفَتْ أَخْلَاقَهُ وَاحْلَوْلَى * * * أَنْتَ الْكَرِيمُ لَيْسَ فِيهِ لَوْلَا (١)

ومن إكرام الخدم انتقل إلى نوع آخر من الكرم في مقامة أخرى قائلاً : «فاذكره لي من أخبار الكرام، ما يحدث على البعد عن اختيار اللئام، فقال: ربما قال البخيل هذا في المنام، كان الكرام لأبي بكر الصديق عنه يُلْفَى الْفَاءُ، فَأَنْفَقَ فِي مَوْجِبِ التَّصَدِيقِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ...

وَيَسْخُو بِمَا قَدْ حَوَتْ كَفُّهُ * * * وَلَا يَتَّبِعُ الْمَنْ مَاقَدَ وَهَبِ

وَكَمَ فِضَّةٍ فَضَّهَا فِي الْهَدَى * * * وَكَمْ ذَهَبٍ عِنْدَهُ قَدْ ذَهَبِ

عَايَنَ طَائِرُ الْفَاقَةِ بِحَوْمٍ حَوْلَ حَبِ الْإِيثَارِ، فَأَلْقَى إِلَيْهِ الْفَاءَ مِنْ قَدْ ذَرَى (٢).

وذكر من أخبار الكرام قوله : «وَهَبَ عَثْمَانُ لَطَلْحَةَ خَمْسِينَ أَلْفًا، وَقَالَ: اسْتَعْنِ بِهَا عَلَيَّ مُرْوَعَتِكَ، وَقَسَّمْ طَلْحَةَ فِي يَوْمٍ أَرْبَعَمِائَةَ أَلْفٍ، وَفَرَّقَتْ عَائِشَةُ سَبْعِينَ أَلْفًا، وَبَاتَتْ تَرْتَقِعُ دِرْعَهَا، وَاشْتَرَى ابْنُ عَامِرٍ * دَارًا بِسَبْعِينَ أَلْفًا، فَسَمِعَ أَنَّ أَهْلَ الدَّارِ يَبْكُونَ لِفِرَاقِهَا فَقَالَ: الْمَالُ وَالِدَارُ لَهُمْ (٣).

= العفو عن الخادم، ٣٣٦/٤ . ورواه أبو داود تحت رقم (٥١٦٤)، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، ٣٤١/٤.

(١) المقامة (٤٥): في الأحاجي والمكاتب والمواعظ، ص ٣٧١.

(٢) المقامة (٤٦): في الزهد في المال، ص ٣٧٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٧٩.

(*) عبد الله بن عامر الأموي (٤-٥٥٩هـ)، ولي البصرة زمن عثمان - ؓ - وافتتح بلاداً كثيرة في فارس، أثر عنه أنه كان يشتري الدور ثم يهدمها ويجعل منها شوارع. قال عنه علي - ؓ -: ابن عامر سيد فتيان قريش.

انظر: طبقات ابن سعد، ٣٠/٥-٣٥. الكامل لابن الأثير، ٢٠٦/٣.



وأجمل ماقاله عن الكرم أن الكرام إذا نزل غريب الحي تقارعوا لإكرامه رغم

فقرهم، فيقول :

﴿وَتَأْخِذُهُمْ فِي سَاعَةِ الْجُودِ هِزَّةٌ ** كَمَا تَأْخِذُ الْمِطْرَابُ مِنْ نِزْوَةِ الْخَمْرِ
فَتَحَسَبُهُمْ فِيهَا نَشَاوَى مِنَ الْغِنَى ** وَهُمْ فِي جَلَابِيبِ الْخِصَاصَةِ وَالْفَقْرِ
عَظِيمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَبْتَئُوا بِلَا يَدٍ ** وَهَيْنَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَبْتَئُوا بِلَا أَوْفَرٍ
إِذَا نَزَلَ الْحَيُّ الْغَرِيبُ تَقَارَعُوا ** عَلَيْهِ فَلَمْ يَدْرَ الْمَقْلُ مِنَ الْمَشْرِئِ﴾^(١).

ويتعجب **ابن الجوزي** قائلاً : «كيف انقلبت طباع الكرماء، فكان المال
عندهم كالماء ... لو تأمل البخيل فضل مطلوب الكرم لصبأ، ويحك إن أكبر شرف
الكرم رد لهف العديم، ثم قلت: لقد ذكرت من أحوال الكرماء ما فيه معتبر، فاذكره
من أحوال البخلاء ما فيه مزدرج، فقال سبحانه من خلق الأضداد، وفرق بين العباد،
أما البخيل بالذهب، فمات وذهب، وأما الكرم فعاش بعد الموت بما وهب»^(٢)، ثم
ذكر قصة ثعلبة الذي طلب من الرسول - ﷺ - أن يسأل الله أن يرزقه مالا، فلما
أعطاه، رفض إعطاء الزكاة، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ نَأْتِيَنَّهُمْ
مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

ثم قال : «كيف يحث على إعطاء جنسه من يبخل بالعطاء على نفسه؟ البخيل
يملاً الوجار، والجار جائع، ويحفظ العرض، والعرض ضائع. البخيل مع الوجدان ذو
عوز كلما برز له سائل أرز، مفتول الحاجبين أبداً وقد ضاع المفتاح، في أخلاقه
أخلاق ذنبة قباح، مجموعها عصارة لوم في قرارة خبث، فذاك ميت في حياته، فإذا
نشر كان الطيب أصلح له ... بشر مال البخيل بحادث أو وارث»^(٤).

(١) المقامة نفسها، ص ٣٨١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٨١.

(٣) سورة التوبة، آية ٧٥.

(٤) المقامة نفسها، ص ٣٨٢-٣٨٣، الوجار : البيت، أرز: انقبض وتجمع وثبت.

انظر: اللسان، مادة: وجر، ومادة: رزر.



فبعد أن ذكر أحوال الكرام انقلب إلى ضدهم وهم البخلاء؛ لأن ذكر الضد يحث على عمل نقيضه، فحين يذكر البخل، ويعدد عيوبه ومساوئه يحث بذلك على تركه، والعمل على تجنبه والسعي إلى ضده للوصول إلى المحاسن من الأخلاق، قال تعالى ذاماً البخلاء: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١). وقال - جل جلاله - : ﴿فَمَنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٢)، وقال : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣).

وقال - ﷺ - : «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم»^(٤)، وعنه - ﷺ - قال: «لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل»^(٥)، وقال: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»^(٦).

وقد ذم **ابن الجوزي** البخل حين جعله أحد أخلاق أبناء زمانه الذين ذمهم فقال: «والأغنياء أصدقاء البخل أعداء الحقوق... الفقير يتقلقل جوعاً والمال في

(١) سورة النساء، آية ٣٧ .

(٢) سورة محمد، آية ٣٨ .

(٣) سورة آل عمران، آية ١٨٠ .

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله - ﷺ - بلفظ آخر، كتاب البر والصلة والآداب، باب (١٥): تحريم الظلم، ٤/١٩٩٤ وكذلك في مسند الإمام أحمد، ٣/٣٢٣ و ٤٣١/٢ .

(٥) رواه الترمذي (١٩٦٣) من حديث أبي بكر الصديق - ﷺ -، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في البخيل، ٤/٣٤٣. ورواه الإمام أحمد، ٤/١ بلفظ مختلف.

(٦) رواه الترمذي (١٩٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري - ﷺ - في كتاب البر، باب ماجاء في البخيل، ٤/٣٤٣.



الصندوق»^(١)، فالأغنياء يملكون المال. ومع ذلك ييخلون به، مع أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء - عليهم السلام - وهو أصل من أصول النجاة، وقد روى عن النبي - ﷺ - فيه أحاديث كثيرة، منها: «إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، وإن البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل، وأدوأ الداء البخل»^(٢).

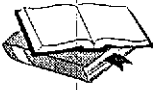
وها هو ذا في مقامة أخرى يذكر الكرم ويمدحه، وبالمقابل يذم البخل ولا يجذبه وذلك في مقامته «في ذم البخل ومدح الكرم» والتي تدور حول رجل أوصلته رحاله إلى جزيرة وهو في حالة يرثى لها، ثم سار إلى أن دخل مدينة ووجد على المنبر عالماً، ورئيس البلدة حاضر وطلب أن يسدوا جوعه، لكن لا يجيب، عندها عرض العالم بالبخل والبخلاء لعل أحدهم يخرج من تلك الدائرة:

«الأيامُ صحائفُ الأعمالِ، فَخَلَدُوهَا أَحْسَنَ الْأَعْمَالِ، الْفُرْصُ تَمَرٌّ مَرَّ السَّحَابِ، وَالْعَجْزُ عَنِ اسْتِدْرَاكِهَا شَأْنُ الْخَوَالِفِ ... وَلَكِنْ كَفَّ الْبَخِيلُ كَفَّكَ قَيْدُ، كُفَّتْ كَفَهُ، شَلَّتْ شَلًّا مَا يَنْفَتِقُ مِنْهُ غُرْزَةٌ، يَعْزِقُ جِسْمَهُ كُلَّهُ إِلَّا الْيَدَ ... ثُمَّ قَالَ: الْبَخِيلُ فَعْلٌ لَازِمٌ لَا يَتَعَدَى بِجَمْعِ الدَّرَاهِمِ جَمْعِ الثَّرِيَا، وَالْأَقْدَارُ تَفْرُقُهَا كِبَنَاتِ نَعَشٍ. وَمَنْ يَنْفِقَ الْأَعْمَارَ فِي جَمْعِ مَالِهِ * * * مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ»^(٣)

(١) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، لابن الجوزي، ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٢) رواه الترمذي (١٩٦١) من حديث أبي هريرة - ؓ -، كتاب البر والصلوة، باب ماجاء في السخاء، ٣٤٢/٤ دون قوله: ((وأدوأ الداء البخل))، وقال حديث غريب. ورواه الدارقطني بالزيادة الأخيرة.

(٣) ورد في مقامات ابن الجوزي، لعلي مهنا، ص ٤١٣: * من ينفق الساعات ... * وفي الهامش أورد أن البيت للمتنبي، وهو كذلك، انظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ناصيف اليازجي، ص ١٩٦، ط ٢.



ثم مال وقال :

مالُ البخيل أسيرٌ تحتَ حاتمِه * * فليس يُطلقُ إلا يومَ ماتمِه (١)

ثم وجه الخطاب للغني :

«أظاعنَ أنتَ أم مقيمٍ * * يأيُّهَا الموسر العَديمُ؟

أنتَ لعمرِي خراجُ قومٍ * * مسترقٌ من هجاءِ جيمٍ

ولما وجد الشيخ الرجل قد ندم على سؤاله، ولم يجد مجيباً يسد جوعه قال له: ويحك ماء الوجه في أي إناءٍ وضعتهُ أضعتهُ. فهلاً صرفتُهُ إلى مَنْ بالجود عرفته سرّ معي إلى المنزل أو أسكٍ ويكون رأسي حين أنزل مع رأسيك، ثم هم بالنزول عن المنبر غضباً على جماعتِهِ.

عندها رمى كُلُّ واحدٍ منهم إلى ثوباً من ساعته (٢).

وهذا الذي قام به أبوالتقويم تجاه الرجل الذي أخرجته الجوع والعري قد أسره، وفخ الفقر أسلمه، لم يكن ببعيد عما حدث على عهد رسول الله - ﷺ - في الحديث التالي مع اختلاف: عن أبي عمر وجريير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنهما - قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله - ﷺ - فجاءه قوم عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، مجلثهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله - ﷺ - لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٣)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُوا نَفْسًا مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٤).

(١) مقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم/ لابن الجوزي، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) سورة النساء، آية ١.

(٤) سورة الحشر، آية ١٨.



تصدق رجل من دينار، من درهم، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقِّ تمره.

قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت.

قال: ثم تابعوا، حتى رأيت وجه رسول الله - ﷺ - يتهلل كأنه مذهب، فقال رسول الله - ﷺ - : «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

أما الزمخشري فقد بدأ ذكر الكرم بقوله: «يأبى القاسم ضروب السخاء جمّة، ولاتكاد تُخصّصها كثرة، وليس السخاء كلّ السخاء»^(٢).

- أن يتلقى الضيف بكؤوس الشراب .

- ولا أن توقر الركائب يوم وصوله .

- ولا أن يكرم بتقديم الطعام في الجفنة البيضاء من كثرة الدسم والشحم.

- ولا أن تقدم الجوائز والهدايا كما حصل مع النابغة الذبياني الذي أجازته النعمان بمائة من عصفيره، أو كما يفعل بعض الملوك إذا أعجبهم بيت شاعر ملأوا فاه بالدرر.

كل هذا ليس سخاء عند الزمخشري، إنما السخي: «مَنْ أَنْزَلَتْ بِهِ

أَمَلَكُ، فَتَسَخَّى عَلَيْكَ بِمَا مَلَكَ، فَمَا تَرَكَ كَرَمًا إِلَّا أَدْرَكَهُ، وَلَا أَدْرَكَ لَوْمًا إِلَّا تَرَكَهُ»^(٣).

لأن للإيثار مراتب؛ ومنزلة السخاء أولها:

وهي: «أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه»^(٤).

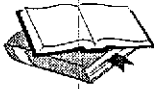
(١) رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة،

٦١/٨.

(٢) المقامة (٣٣): التصديق، للزمخشري، ص ١٩٥.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٩٧.

(٤) تهذيب مدارج السالكين، هذبه عبد المنعم العربي، ٦٤١/٢.



ثم ذكر **الزمخشري** قوله : «فَتَسَخَّى عَلَيْكَ بِمَا مَلَكَ ... وَإِنْ أَحْفَى عَوْرَتَكَ بِخُرَيْقَةٍ تَكْتَسِيهَا، أَوْ أَطْفَأَ سَوْرَتَكَ بِمُرَيْقَةٍ تَحْتَسِيهَا»^(١)، فهذا بداية الارتقاء في مدارج الإيثار وهي : «أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخرم عليك ديناً، ولا يقطع عليك طريقاً، ولا يفسد عليك وقتاً، وذلك بأن تقدمهم على نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجويع، وتكسوهم وتعري، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين، ومثل أن تؤثرهم بمالك وتقعده كلاً مضطراً، مستشرفاً للناس أو سائلاً»^(٢).

وبعد ذكر **الزمخشري** لبداية الارتقاء في مدارج الإيثار، عرج على ذكر المرتبة التاسعة من الجود، فقال : «فَإِنْ ضَاقَتْ عَنْ ذَلِكَ طَاقَتُهُ وَفَاقَتْ الْمَفَاقِرَ كُلَّهَا فَاقَتُهُ، فَتَلْقَاكَ بِبِشْرِ يُونُسَ، وَتَحْلُقُ يُونُقَ، وَتَحِيَّةٌ تَعْلُو، وَكَلِمَةٌ تَحْلُو»^(٣).

فهذه المرتبة هي : «الجود بالخلق والبشر والبسطة، ... وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، قال النبي - ﷺ - : «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه»^(٤).

وفي هذا الجود من المنافع، والمسار، وأنواع المصالح مافيه»^(٥).

ثم أخذ **الزمخشري** يحننا على الكرم، ويبين لنا الكيفية وذلك، بأن لانترك الصدقة تذهب من بالنا، وأن يكون للعطية حظ من مالنا فيقول: ولأن الله جعلك سيداً على مالك، فسق لهذا المال الصدقة أي الصداق، وصداق المال: الصدقة على

(١) المقامة نفسها، ص ١٩٧.

(٢) تهذيب مدارك السالكين، عبد المنعم العزبي، ٦٤٧/٢.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) رواه مسلم برقم (١٤٤) عن أبي ذر - ﷺ -، كتاب البر، باب (٤٣): استحباب طلاقة

الوجه عند اللقاء، ٢٠٢٦/٤، برواية : «(أن تلقى أخاك بوجه طلق)»، رواه أحمد في مسنده، ١٧٢/٥، عن جابر بن سليم، وهو حديث صحيح.

(٥) تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم العزبي، ٦٤٦/٢.



الفقراء فالله أعطاك هذا المال واستقرضك إياه من أجلهم لتتال فضلهم، ولا تنسى المتعفين، وهؤلاء جعلهم ابن قيم الجوزية أصحاب المرتبة العاشرة من الجود، فقال:

((العاشرة : الجود بتركه مافي أيدي الناس عليهم، فلا يتلفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه، فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فجد عليهم بزهدك في أموالهم، ومافي أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة))^(١).

وهذه الفئة من الناس هي من حث **الزمخشري** على عدم نسيانها بالكرم والعطايا فقال: ((وتعمد بها المتعفين))^(٢)، حتى وإن كان هذا العطاء قليلاً؛ مادام لوجه الله، فقال:

((وَلَا تَمْنَعْ خَيْرَكَ لِأَنَّهُ نَذْرٌ، ... وَرُبَّمَا رَضَخْتَ الْيَتِيمَ بِالْقَيْرَاطِ وَأَطْعَمْتَهُ الْفُدْرَةَ، وَأَنْتَ أَكْرَمُ مِمَّنْ عَقَرَ وَمِمَّنْ سَبَقَ الْبَدْرَةَ ... وَعَجَّلْ مَاتَهُبٌ فَإِنَّ مَاعَجَلْتَ وَإِنْ قَلَّ، خَيْرٌ مِمَّا أَجَلْتَ وَإِنْ جَلَّ))^(٣).

أما **بديع الزمان الهمداني** فيبين لنا صوراً عدة للكرم، كإكرام الضيف وإن كان في ختام المقامة يظهر بطلها أبو الفتح الإسكندري محتالاً على أهل الدار؛ ليحصل على المال أو الطعام، إلا أن هذا لا يمنعنا من إبراز صورة من الصور التي كان عليها مجتمع الهمداني، وهي هاهنا إكرام الضيف، فمثلاً في مقامته الكوفية يقول على لسان الراوي عيسى بن هشام الذي كان مع رفيق له قد استكنا في الليل، ففرع عليهما الباب: ((فقلنا: من القارع المنتاب؟ فقال: وفد الليل وبريدته، وفلّ الجوع وطريدته، وحرّ قاده الضرّ، والزمن المرّ، وضيّف وطؤه خفيف، وصالته رغيّف، وجار يستعدي على

(١) تهذيب مدارج السالكين، عبدالمنعم العربي، ٦٤٦/٢-٦٤٧.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٩٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٩٩-٢٠٠. الفدرة: القطعة من اللحم، اللسان، مادة: فدر. سبق

البدرة: يقال بينهم بدرة: إذا حصل بينهم سيف من غلب أخذها، اللسان، مادة: بدر.



الجوع، والجيب المرقوع، وغريب أوقدت النار على سفره...»^(١).

فهذا الضيف الذي طرق عليهم الباب وبين حاله لهم وأنه جمع إلى الجوع العري ولزمه ألم ظاهر الجسم، وألم بالأعضاء، ومع ذلك فهو لا يريد أن يجشمهم عظيماً، ولا يطلب منهم جسيماً، ولا يثقل كواهلهم، بل إنما يود أن يشبع بطنه فحسب، على الرغم من أنه لا أمل له في العودة إلى وطنه؛ وكعادة العرب التي أمّنت عليها الإسلام لم يرد الضيف خاوي الوفاض، بل قبض ابن هشام من كيسه قبضة الليث وبعثها إليه، وإنما قال: قبضة الليث ليكني عن الكثرة والنوال.

وهذا حال المسلم لا يترك ضيفه يغادر داره إلا وهو مسرور من إكرام مضيفه له

ويلحظ إكرام الضيف في المقامة السودية بصورة أوضح من سابقتها فهذا ابن هشام اتهم بمال أصابه، فهام على وجهه حتى وصل إلى البادية ورأى فتى يشد شعراً يوافق لجه مع أترابه، فسأله عن قائل الشعر ثم قال له: «يَافَتَى الْعَرَبِ أَدَّتْنِي إِلَيْكَ خِيْفَةً فَهَلْ عِنْدَكَ أَمْنٌ أَوْ قَرَى؟ قَالَ: بَيْتَ الْأَمْنِ نَزَلَتْ، وَأَرْضَ الْقَرَى حَلَلْتُ...»^(٢).

والمضيف هنا جمع بين كرمه وشجاعته، واقتزن الجود والإقدام بيده فصارا سحابين: أحدهما ينقع الغلة ويحي موات الأرض ويعشب جديها. وثانيهما ينزل كسفاً على قوم فيفنيهم ويستأصل شأفتهم وجاء هذا على لسان الفتاة التي قالت له: «اسْكُنْ يَا حَضْرِي» ثم بدأت تنشد الشعر لتبين حال المضيف، وتهداً من روع الضيف:

«أَيَا حَضْرِي اسْكُنْ وَلَا تَخْشَ خِيْفَةً * * فَأَنْتَ بَيْتِ الْأَسْوَدِ بْنِ قِنَانٍ
أَعَزَّ ابْنِ أَنْثَى مِنْ مَعَدٍّ وَيَعْرُب * * وَأَوْفَاهُمْ عَهْدًا بِكُلِّ مَكَانٍ
وَأَضْرَبَهُمْ بِالسَّيْفِ مِنْ دُونِ جَارِهِ * * وَأَطْعَمَهُمْ مِنْ دُونِهِ بِسِنَانٍ

(١) المقامة (٥): الكوفية، شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، ص ٣٢-٣٣، محمد مجي الدين عبد الحميد.

(٢) المقامة (٢٧): شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، ص ١٨٢، محمد مجي الدين عبد الحميد.



كَأَنَّ الْمَنِيَا وَالْعَطَايَا بِكَفِّهِ ** سَحَابَانِ مَقْرُونَانِ مُؤْتَلِفَانِ (١)

ودخل إلى البيت الذي أشارت إليه فإذا به سبعة نفر، من بينهم أبو الفتح الإسكندري، والذي أجاب حين سأله عن سبب وجوده بأنه مثله جاء الدار؛ مستأمناً فأنزله صاحب الدار في المكان الرحب، وخيره من أمواله فاختر أطيبها وأكرمها. ويظل بديع الزمان الهمذاني جاعلاً من بطل مقاماته مستغلاً لخلق الكرم، لينال ما يحتاجه من المال.

إلا أن هذا الكرم طُلب منه في مقامة أخرى، فإذا هو المضيف لكن بتست تلك الضيافة، فقد ظل يصف لهم ألوان الطعام، ثم يُثنيّ بعدم وجوده (٢).

وأما **ابن نباتة** فنراه يبحث على الكرم حين وجه السؤال إلى من ادعى معرفته بنقد الشعر، فقال :

« لَمَنْ جُودُهُ؟ أَنْ يَغْرِفَ الْمَالَ جُودَهُ ** فَمَعْرُوفُهُ يَأْذَا إِلَى كُلِّ سَائِلٍ

جَوَادٌ يَكَادُ الْجُودُ يَتْلَفُ مَالَهُ ** وَقَوْرٌ لَهُ سَمْعٌ إِلَى كُلِّ مَائِلٍ (٣)

فالممدوح في هذين البيتين بالكرم الذي عرف به؛ قد أصبح معروفاً إلى كل سائل، ومن شدة كرمه يكاد أن يتلف ماله، إلا أنه لا يبالي، فالمال وفير بدليل قوله «(يغرف)» وإلى مثل هذا حث الإسلام، فالجود صفة حميدة من صفات المسلمين، فالغني يجود بشيء مما أعطاه الله على الفقير، قال رسول الله - ﷺ - : «(يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى)» (٤).

(١) المقامة نفسها، ص ١٨٣.

(٢) انظر: المقامة (٣٤): النهيدية، ص ٢٤٤-٢٥٢.

(٣) مخطوط مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٩.

(٤) رواه الترمذي تحت رقم (٢٣٤٣)، عن أبي أمامة - ؓ -، كتاب الزهد، باب (٣٢)،



وهذا **ابن نايقا** يذكر صورة من صور الكرم الذي اعتاده العربي، فيدعو غيره إلى طعامه؛ ليشاركة إياه حتى وإن لم يكن يعرفه مسبقاً فيقول: «حَدَّثَنِي بَعْضُ الشَّامِيِّينَ قَالَ: يَمُتُ الْعِرَاقُ فِي بَعْضِ السَّنِينَ فَاَنْتَهِيَتْ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ... فَجَلْنَا فِي ضَمَائِرِ مَحَالِمِهَا وَأَسْوَاقِهَا حَتَّى كَشَفَتِ الظَّهِيرَةَ عَنْ سَاقِهَا... فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: آتِنَا غَدَاءَنَا... فَصَادَفَ شَخْصاً بِالفِنَاءِ عَارِياً... وَدَعَوْنَاهُ إِلَى الطَّعَامِ، فَشَاقَلَ عَنِ الْمَقَامِ، حَتَّى أَقْسَمْنَا عَلَيْهِ...»^(١).

فهذا الراوي لو لم يكن سخيّاً لما دعاه إلى الطعام، لأنه أراد تمثل قول رسول الله - ﷺ - : «السخي قريب من الله قريب من الجنة، قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار»^(٢).

إلا أن **ابن نايقا** أورد صورة مخالفة لهذه في المقامة التي تليها مباشرة، لولا أنه تدارك الأمر في آخر المقامة، وتزحزح عن شحه، بعد أن وجد الإلحاح في السؤال من السائل، وإصراره للحصول على ما تجود به نفسه وبالتالي يده، يقول الراوي: «فَاضْحَكَنِي قَوْلُهُ، وَرَجَعْتُ عَنْ مَكْرُوهُهُ، وَاسْتَدْعَيْتُ لَهُ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ، فَتَنَاوَلَهُ مِنْ الغُلَامِ»^(٣).

وهذه ليست من شيم العرب، فالعربي يبادر بإعطاء السائل الطعام وربما قبل أن يسأله، فما بالك بالمسلم الذي يحرص على مساعدة أخيه المسلم، وربما نجد له عذراً في كون السائل طارق ليل..

أما **الحريري** فنجده يبحث على الكرم في قول أحد المسافرين للآخر حين سأله الثاني عن كيفية تعامله مع الناس فرد: «وَاسْتَقَلَّ الْجَزَيْلَ، لِلنَّزِيلِ»^(٤)، أي أنه يقدم

(١) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن نايقا، ص ٣.

(٢) سبق تخريجه، ص ٦٦.

(٣) المقامة الرابعة، مخطوط المقامات الشعر، لابن نايقا، ص ١٠.

(٤) المقامة (٤): الدمياطية، للحريري، ١٦٥/١.



لضيفه الكثير، ومع ذلك يراه قليلاً ، فإكرام الضيف من طبيعته، وطبيعة كل مسلم، لأنه يمثل لقوله - ﷺ - : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(١)، وبلطف آخر، قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(٢)، وفي أثر آخر: «لا خير فيمن لا يضيف»^(٣).

وفي مقامة أخرى حث على هذا الخلق الإسلامي : إكرام الضيف والذي استغله بطل مقاماته كثيراً إلا في المقامة التاسعة عشرة، فقد كان أبو يزيد هو المضيف لصحبه الذين أتوا لزيارته بعد مرضه التي كان يظن أنه يودع فيها الدنيا، وقد أكرم ضيوفه أيما كرم وقدم لهم أنواع الطعام الذي أطلق على كل منه كنى لطيفة فقال بعد ماالتفت - أبو يزيد - إلى شبلة : «إِنِّي لِإِنْحَالِ أَبَاعْمَرَةَ قَدْ أَضْرَمَ فِي أَحْشَائِهِمُ الْجَمْرَةَ، فَاسْتَدْعَ أَبَا جَامِعٍ، فَإِنَّهُ بَشَرَى كُلِّ جَائِعٍ، وَأَرْدَفَهُ بِأَبِي نَعِيمٍ، الصَّابِرِ عَلَى كُلِّ ضَيْمٍ، ثُمَّ عَزَّزَ بِأَبِي حَيِّبِ الْمُحَبَّبِ إِلَى كُلِّ حَيِّبٍ...»^(٤).

ثم نبه ابنه ألا يحضر الطست والإبريق إلا بعد انتهاء الطعام وأطلق عليهما (المرجفين)، لأن لهما عند أخذهما صوتاً ينقر أحدهما في الآخر، فكأن ذلك الصوت يرجف ويخبر بتمام الطعام ويحث على القيام إلا أنه نخم واجبات إكرام الضيف بأن طيبهم بالبخور.

(١) رواه البخاري، عن أبي هريرة - ﷺ - كتاب الأدب، باب قول الرسول من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ١٣/٨.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة - ﷺ - كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا من الخير وكون ذلك كله من الإيمان، ٤٩/١.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عقبة بن عامر - ﷺ - ، ١٥٥/٤.

(٤) المقامة (١٩): النصيبية، للحريري، شرح الشريشي، ٣٨٠/٢، أبو جامع: الخوان، أبو نعيم:

الخبز، أبو حبيب: الجددي. انظر: اللسان، مادة: خون، خبز، جددي.



وأبوزيد السروجي في المقامة السالفة قد دعاهم للبقاء عنده حين أتوا لعيادته في مرضه، فلبوا، فأكرم وفادتهم.

أما لماذا أجابوا دعوته فلعل ذلك لمعرفة أن الإسلام حث عليها، واعتبر الممتنع عنها عاصياً، لقوله - ﷺ - : «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن شاء طعم وإن شاء ترك»^(١).

وعنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب: عرساً كان أو نحوه»^(٢).

وعنه ﷺ : «من دعي فلم يجب فقد عصى الله ورسوله، ومن دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مغيراً - أي مختطفاً»^(٣).

فقد لبوا الدعوة لأنهم يحذرون الوقوع في معصية الله لقوله - ﷺ - في الحديث السابق «فقد عصى الله ورسوله»، ولإدخال السرور على داعيهم - أبوزيد السروجي - وإكرامه بقبولهم لدعوته لقوله - ﷺ - السابق .

وهذا ما حدا **بالحريري** أن يذكر في مقامة أخرى صورة من صور إكرام الضيف، وتلبية الدعوة من قبل الراوي - الحارث بن همام - لمضيفه الذي اتخذ من داره مكاناً لاستضافة القوم، والتي من أول صورها - الضيافة - إيقاد النار، والتي كانت من فعل حاتم الطائي فقد كان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه، فأوقد ناراً في يفاع من الأرض، لينظر إليها من أضل الطريق ليلاً فيهتدي إليها، ومن باقيها

(١) رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله - ﷺ -، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة، ١٠٥٣/٢ . ورواه أبوداود (٣٧٤٠) كتاب الأطعمة، باب ماجاء في إجابة الدعوة، ٣٤١/٣.

(٢) رواه مسلم وغيره عن عبد الله بن عمر - ﷺ -، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة، ١٠٥٤/٢ . ورواه أبوداود (٣٧٣٨)، كتاب الأطعمة، باب ماجاء في إجابة الدعوة، ٣٤٠/٣.

(٣) رواه أبوداود - عن عبد الله بن عمر - ﷺ - تحت رقم (٣٧٤١)، كتاب الأطعمة، باب ماجاء في إجابة الدعوة، ٣٤١/٣.



قوله: «تَلَقَّانِي بِمُحِيَّا حَيٍّ، وَصَافِحِي بِرَاحَةٍ أُرِيحِي، وَأَقْتَادِنِي إِلَى بَيْتِ عِشَارِهِ تَخُورُ، وَأَعْشَارَهُ تَفُورُ، وَوَلَائِدُهُ تَمُورُ، وَمَوَائِدُهُ تَدُورُ، وَبَأْكُسَارِهِ أَضِيْفُ قَدْ جَلِبَهُمْ جَالِي، وَقَلْبُوا فِي قَالِي، وَهُمْ يَجْتَنُونَ فَآكِهَةَ الشَّتَاءِ، وَيَمْرَحُونَ مَرَحَ ذِي الْفَتَاءِ...» (١).

فالمضيف هنا عمل بكل واجبات الضيافة، فاستقبله بوجه حي، وصافحه بكف كريم يهتز للكرم، أما الدار فقد كانت معدة لاستقبال الضيوف من موائد وخدم تقوم على خدمة الأضياف، وقد وصف تلك الموائد بقوله: «وَلَمَّا أَنْ سَرَى الْحَصْرُ، وَأَسْرَى الْحَصْرَ أَتَيْنَا بِمَوَائِدِ كَالْمَهَالَاتِ دَوْرًا، وَالرَّوْضَاتِ نَوْرًا، وَقَدْ شُجِنَ بِأَطْعِمَةِ الْوَلَائِمِ، وَحَمِينِ مِنَ الْعَائِبِ وَاللَّائِمِ، فَرَفَضْنَا مَاقِيلَ فِي الْبِطْنَةِ، وَرَأَيْنَا الْإِمْعَانَ فِيهَا مِنَ الْفِطْنَةِ» (٢).

وكأنه وإياهم حين رأوا الطعام نسوا ما قيل في البطنة، ولبوا قضاء شهوة البطن، فخرجوا من كون تلبية الدعوة واجبة، ودخلوا بها ضمن ما يمتنع من الإجابة والتي منها «أن يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملاً في أبواب الدنيا، ولا تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ - في قوله: «لَوْ دَعَيْتَ إِلَى كِرَاعٍ لِأَجْبِتَ» (٣) (٤).

ونخلص إلى أن هذا الخلق - الكرم - حث عليه معظم المقاميين إلا أن ابن الجوزي يذكره - غالباً - مع ضده؛ ليكون أدعى للتأثير، وأول صورته إكرام الضيف، وإطعام الطعام لمن يعرف ومن لا يعرف، وإكرام السائل.

كما أظهرت - المقامات - معظم مراتب الجود: كالجود بالنفس، وبالرياسة، وبالراحة، وبالعلم، وبالنفع بالجاه، وبنفع البدن، وبالعرض، وبالصبر، وبالبشر

(١) المقامة (٤٤): الشتوية، للحريري، شرح الشريشي، ١٤٠/٥.

(٢) المقامة نفسها، ١٥٧/٥.

(٣) رواه مسلم عن ابن عمر - رضي الله عنهما -، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة برقم

(١٤٢٩) ١٠٥٢/٢ عن عبدالرحمن بن مهدي برقم (١٤٣٠) ١٠٥٤/٢.

(٤) حق المسلم على المسلم، طه عبداللّه العفيفي، ص ٨٠.



والبسطة، وبترك ما في أيدي الناس، وبينت آداب المضيف مع ضيفه، وإكرام الخادم، كما أعطت صوراً للكرم ممثلة في أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وطلحة - رضي الله عنهم -، ورغم أن **ابن الجوزي** عاب على بعض أهل زمانه بخلهم، إلا أنه شاد بالبعض الآخر الذين كانوا يقرعون إذا نزل غريب؛ لإكرامه، وهذا الإيثار أعلى مرتبة من الجود والسخاء اللذين حث عليهما كثيراً **الزمخشري**، وبين كيفية التي يكون بها الإنسان كريماً؛ وذلك بالصدقة على الفقراء؛ لأنها صدق المال.

حسن الصحبة أو المصاحبة :

التعريف بها :

«كلمة ((المصاحبة)) فيها معنى الملازمة، ولذلك تقول العرب: إِنَّ الصَّاحِبَ هُوَ: الملازم، سواء أكانت المصاحبة حسية بالبدن - وهو الأصل والأكثر - أم كانت معنوية بالاهتمام والعناية على حد قول القائل :

لئن غبتَ عَنْ عَيْني * * * لما غبتَ عَنْ قَلْبِي

والمصاحبة أبلغ من الاجتماع، لأن المصاحبة تقتضي طول اللبث أو الدوام، ولذلك يقال: كل مصاحبة يكون معها اجتماع، وليس كل اجتماع يكون مصاحبة، ومن هنا عبر القرآن الكريم عن المقيمين في النعيم بقوله: «أصحاب الجنة»، وعبر عن الباقيين الخالدين في العذاب بأنهم «أصحاب النار» أو «أصحاب الجحيم».

وقد تطلق كلمة ((المعاشرة)) على معنى ((المصاحبة)) ولذلك قالت العرب: صحب وصاحب بمعنى عاشر...

والمفهوم الأخلاقي لفضيلة ((المصاحبة بالمعروف)) أو ((المعاشرة بالمعروف)) هو أن يصحب الإنسان من يصحبه بحسن الفعال، وطيب الأقوال، ومحبوب الأحوال،



ومعاملة الصاحب بمثل ما نحب ونتمنى أن يعاملنا به، وهذه المعاملة فضيلة أخلاقية قرآنية كريمة، تحدث كتاب الله عنها وحث عليها^(١).

وتعرض **ابن الجوزي** للصحة في مقامته ((في حسن الصحبة والمداورة)) حين سأل ضيفه قائلاً: ((ما تقول في صحبة الإخوان؟ فقال: وهل بقي إلا خوّان. فعاشِر الناس بالظاهر والإعلان، ولا تطالبهم لخلوص السرائر والجثمان، فقد دخل المخلصون في خير كان.

هموم زماني في أمور كثيرة * * وهمي من الدنيا صديق مساعد

نصير كروح بين جسمين فرقاً * * فجسماهما جسمان والروح واحد

قلت: أو عاشِر من ذا وقته قال: نعم باشِر فماذا وقته. إنك إن طلبت الصحيح لم تجد، وإن طالبت الصحيح لم يجد... ويحك إن العاقل يداري كل شخص بما يصلح له، فإن صحبة العاقل للبهائم أحوجت الفصح أن يقول للذباب: كرش. ثم قال: كل صاحب يخالط فالواجب عليه أن ينزل الأصحاب بمنزلة الشعر: فإن منه ما يكرم ويخدم ولا ينحى كشعر الرأس ومنه ما يقص إذا طال كالشارب، والباقي يستأصل^(٢).

ثم أخذ يشبه الأصدقاء فقال: ((الصديق الصدوق لا يحتاج إلى مداورة، كحلوى السكر تحركها في فيك وقد عبرت، ومن العاشرين كلحم البقر يتعب الإنسان في مضغها والمعدة في هضمه، ومنهم كالفجل لا ينهضم أضلاً، وأنشد:

لا تركن إلى هذا الزمان ولا * * أبنايه ساعة واستعمل الخذرا

فإن أبيت فحرب من تعاشره * * حتى يقول لك التجريب: كيف ترى؟^(٣).

(١) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ٣/٧٠-٧١.

(٢) المقامة (٢٢)، ص ١٨٥-١٨٦، كش: صوت للزجر، ومنه كلمة كشيش: صوت الأفعى، والجمل أول هديره، انظر: اللسان، مادة: كشش.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٨٦.



ولما أراد أن يبين أثر الصاحب شبهه فقال : «الصاحب كالرقعة في الثوب إذا لم تُشَاكِلْهُ شَانَتْهُ، وأنشد :

أَرَى حُلَلًا تُصَانُ وَلَا تَهَانُ ** وَأَعْرَاضًا تَهَانُ وَلَا تُصَانُ
يقولون الزمانُ بهِ فَسَادٌ ** وَهُمْ فَسَدُوا وَمَافَسَدَ الزَّمَانُ»^(١).

وقد مثل صلوات الله وسلامه عليه لكل نوع من الأصدقاء فقال: عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»^(٢).

فابن الجوزي حث على الصحبة الحسنة بالتمثيل لمنزلة كل، وكذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - جاء الحث بالتمثيل لكل، وطبيعي أن المرء لا يجلب ويختار إلا ما ينفعه، فيصادق الصديق الصدوق الذي لا يحتاج إلى مداراة، والذي مثل له ابن الجوزي بأنه كحلوى السكر تحركها في فيك وقد عبرت، وتصادق الجليس الصالح الذي مثل له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحامل المسك.

لكن ابن الجوزي أراد أن يبين كل ما يتعرض له الفرد من أصدقائه فقال: «إِنَّ أَصْدِقَائِي يُطْرُونِي حَتَّى يُطْغُونِي، فَردَّ أبو التقيوم: مَنْ وَصَفَكَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ فَقَدْ هَجَاكَ، قُلْتُ: وَيَبْلُغُنِي عَنْهُمْ مَا لَا يَصْلِحُ، فقال: عورة الجاهل بين فكيه...»^(٣).

ثم أخذ ينعي عدم وجود الأصدقاء الأوفياء فقال :

«يَا مَنْ يَرُومُ صَدِيقَ صِدِّقٍ ** قِي بَعْدَ مَا فَسَدَ الْأَنَامُ

(١) المقامة نفسها، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢) [يحذيك : يعطيك]، انظر: اللسان، مادة: حذى، رواه مسلم، كتاب السير والصلة، باب

استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، ٣٧/٨-٣٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٨٧.

ذَهَبَ الصَّدِيقُ وَصَارَ حُلًّا ** مِمَّا مِثْلُ مَا ذَهَبَ الْكِرَامُ
فَتَعَزَّزَ عَمَّا قَاتَ مِنْهُ ** هُوَ فَلَيْسَ يُوَجِدُ وَالسَّلَامُ

ثم قال ويحك كان الناس أصدقاء فدخلوا في خبر كان ... ويحك الصديق الصدوق ثاني النفس، وثالث العين، لقاءه روح الحياة، وفراقه سم الحيات :

طَلَبْتُ صَدِيقًا فِي الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا ** فَأَعْيَا طِلَابِي أَنْ أُصِيبَ صَدِيقًا
بَلَى مِنْ تَسَمَّى بِالصَّدِيقِ عِبَارَةً ** وَ لَمْ يَكُ فِي مِعْنَى الْوِدَادِ صَدُوقًا
فَطَلَّقْتُ وَدَّ الْعَالَمِينَ صَرِيمَةً ** فَأَصْبَحْتُ مِنْ أَسْرِ الْوِدَادِ طَلِيقًا^(١)

وما زال مستمراً في إظهار المعاناة لمن يبحث عن صديق وفي، وأن عليه أن يتأكد، ولا يندفع بالمظاهر البراقة فقال :

«فَلَا تَغْشَّ وَلَا تَخْدَعْكَ بَارِقَةٌ» ** مِنْ ذِي خِدَاعٍ يُرَى بِشَرًّا وَأَلْطَافًا
فَلَوْ قَلَيْتُ جَمِيعَ النَّاسِ قَاطِبَةً ** وَسَرَتْ فِي الْأَرْضِ أَوْ سَاطَأَ وَأَطْرَافًا
لَمْ تَلَقَ فِيهَا صَدِيقًا صَادِقًا أَبَدًا ** وَلَا أَخَا يَبْذُلُ الْإِنْصَافَ إِنْ صَافَى^(٢)

وآخر ما حدث عليه **ابن الجوزي** الصديق تجاه صديقه هو: تقديم النصيحة له إذا مارأى منكراً منه فقال: «فَإِنْ رَأَيْتَ مِنْ إِخْوَانِي مُنْكَرًا، فَصَاحَ أَنْصَحَ إِنْ صَحَّ»^(٣).

نعم انصح، لأن رسول الله - ﷺ - قال في حديثه الشريف: «الدين النصيحة. قلنا لمن يارسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٤).

«وقد ذكر العلماء أن النصيحة لله: هي صحّة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله: هي التصديق به والعمل بما فيه،

(١) المقامة نفسها، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٨.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) رواه مسلم برقم (٩٥) عن تميم الداري - ﷺ - كتاب الإيمان، باب (٢٣): بيان أن الدين

النصيحة، ٧٤/١. ورواه أبو داود (٤٩٤٤)، كتاب الأدب، باب في النصيحة، ٢٨٦/٤.

والنصيحة للرسول: هي التصديق بنبوته ورسالته، والانقياد لما أمر به ونهى عنه، والنصيحة لعامة المسلمين: هي ارشادهم إلى مصالحهم. ونفهم من السنة المطهرة أن النصيحة تصبح واجبة إذا طلبها الأخ من أخيه في الله، ويدل على ذلك قول سيدنا رسول الله - ﷺ - : «إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه» (١) «(٢)».

وفي مقامة أخرى قال **ابن الجوزي** مبيناً صفة من صفات الأخ في الله وهي؛ إسداء النصيحة: «صحبت أبا التقويم وكان سيد العقلاء، فكنت أستشيرُهُ في المدائن وفي الفلا... فأخيتُ أن أعقد الأواخي بأن أواخي مَنْ لا أرى له مثلاً، ولا مثلاً، فعرضت مودته على قلبي فصاح ليّ حيّ هلاً.

إذا ماظفرت بودّ امرئ * * * قليل الخلافِ على صاحبه

فلا تعدلنّ به نعمة * * * وَعَلَّقَ يَمِينِكَ يَا صَاحِبِ» (٣)

فقد طلب وده، ومحبته، وكذا الانسان إن قيص له صحبة حسنة، فهي نعمة لاتعلها نعمة، لأن الرسول - ﷺ - قال: «من أراد الله به خيراً رزقه خيلاً صالحاً إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه» (٤).

وهذا الصاحب يحب، ويزار، بل إن مفارقتة لاتسعد القلب، لأن من يجالسه لايمل من الجلوس إليه، بل ينهل من معين علمه، ويستنير باستشارته، لأنه أهل لذلك بل هو أقرب إلى النفس من الأهل والولد. كما قال **ابن الجوزي**: «فقلتُ: وماشبت من الزاد بعد، فقال: كُلِّ عِلْمٍ تَطْلُبُهُ عَلَيَّ سَهْلٌ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ مِنَ الْأَهْلِ، فَقَدْ أَمَنْتَ مِنِّي الْفَوْتَ، إِلَّا أَنْ يَفْرَقَ بَيْنَنَا الْمَوْتُ، فَاسْتَغْنَيْتُ بِعِلْمِهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَاسْتَرْحَتْ أَنْ أُرْحَلَ لِطَلْبِهِ إِلَى بَلَدٍ، وَصِرْتُ سَلْمَانَ بَيْتِهِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ مَجْلِسِهِ، وَأَنْسَ

(١) رواه ابن ماجه، عن جابر - ﷺ - كتاب الآداب، باب المستشار مؤتمن، ١٢٣٣/٢.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن، للشرباصي، ١٣٦/٥.

(٣) المقامة (٥٠): في الأخ الصادق، ص ٤٠٩-٤١٠. الأواخي: جمع أخية، وهي عويذٌ يعرض في الحائط تشدُّ إليه الدابة، انظر: اللسان، مادة: أخي.

(٤) رواه الإمام أحمد عن عائشة - رضي الله عنها - بلفظ آخر ٧٠/٦.



خِدْمَتِهِ، وَحَسَنَ مَادِحَتِهِ، وَكَانَ سُرُورِي لَأَيْفِي بِنِدَامَتِي عَلَى تَرْكِهِ فِي عَهْدِي الْمَتَقَادِمِ،
ثُمَّ صَارَ يَخْصُّنِي بِأَسْرَارٍ لَا تَحْتَمِلُ الْإِظْهَارَ»^(١).

فهذا الصاحب هو الذي قال فيه رسول الله - ﷺ -: «المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(٢). وعنه - ﷺ - قال: «إن الله تعالى يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي»^(٣).

وذكر **ابن الجوزي** هنا أحد حقوق الصحبة فقال: «ثُمَّ صَارَ يَخْصُّنِي بِأَسْرَارٍ لَا تَحْتَمِلُ»، فللصاحب حق لأخيه في لسانه؛ «وذلك بالسكوت مرة وبالنطق أخرى. أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولايماريه ولا يناقشه، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، ... وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ولا يثنها إلى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع، وخبث الباطن»^(٤).

أما **الزمخشري** فيذكر صفات حجة للأصحاب الذين لا يجب مجالستهم، وفي هذا وعظ وحث على الجلوس مع أصدقاءهم، فذكر الضد يغري ويحث على البحث عن ضده، فها هو ذا يقول: «إِذَا فُوجِئْتَ بِمِثَاقِنَةِ بَعْضِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَخَذَكَ اللَّهُ بِبُغْضِهِمْ فَضَرْبَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ مَا كُنْتَ فِيهِ بِأَسْدَادٍ، وَرَمَاكَ بِأُمُورٍ مِنْ تِلْكَ الْأَوَّلِ بِأَسْدَادٍ، وَافْتَنَّ

(١) المقامة نفسها، ص ٤١٣.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ٤٠٠/٢، ٣٢٥/٥.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ (١٧٣٥) في كتاب الشعر، باب (١٦) عن معاذ بن جبل

- ﷺ - باختلاف يسير . ورواه الإمام أحمد بسنده ولفظ مختلف وزيادة من حديث عبادة بن الصامت - ﷺ - ، ٣٨٦/٤، ٢٢٩/٥، ٢٣٧/٥ .

(٤) موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ٢٠٤.

في الأحاديث كَحَاطِبِ اللَّيْلِ... مُلْقِيًا أَسْبَابَ الْفِتَنِ بَيْنَ يَدَيِ افْتِنَانِهِ مُخَلِّفًا لِلآدَابِ
وَالسُّنَنِ وَرَاءَ اسْتِنَانِهِ؛ لا يَدْفَعُ فِي صَدْرِهِ مِنْ حَيَاءٍ دَافِعٌ...»^(١).

وقد بين أن هذا الصاحب إن استمعت إليه «وَلَمْ تُقْبَلْ عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ وَصَفَّكَ
بِالْكِبْرِيَاءِ، وَإِنْ لَمْ تُرْعِهِ سَمِعَكَ نَسَبَكَ إِلَى الرَّيَاءِ...»^(٢).

وما إذا وافقته «فَكِلَاكُمَا وَالشَّيْطَانَ الْمُرِيدَ»^(٣).

وختم المقامة بأن وصف هذا الصاحب، ووجوده في حياته محنة، وفتنة فقال:
«فِيهَا مَخْنَةٌ مَا أَضْرَّهَا، وَيَالَهَا فِتْنَةً وَقَى اللَّهُ شَرَّهَا»^(٤).

وبعد أن ذكر بعض صفات الصاحب الذي تتجنبه، وتبعد عنه، نوه في مقامة
أخرى بأن هذا الصاحب يجب أن يذكرك دوماً بالموت، وسكراته، حتى لا تسدر في
غيك، وتجرفك الدنيا ومشاغلها عن الآخرة، والإعداد لها، فقال يعظ بأن يكون فكرك
مصاحباً لمآل كل انسان ألا وهو الموت: «دَوَامِ الْفِكْرِ فِي سَكْرَاتِ شَعُوبٍ، فَافْعَلْ
صَحْبِكَ التَّوْفِيقَ، وَنَعْمَ الصَّاحِبَ وَالرَّفِيقَ»^(٥).

فقد مدح هذه الصحبة، فقال: نعم الصاحب والرفيق تفكرك الدائم في الموت.

وفي المقامة الثالثة والأربعين حث الزمخشري الإنسان على مصاحبة أخ له
صفات بينها بقوله: «وَلَا تَنْشَطْ إِلَّا إِلَى زَائِرٍ إِنْ ضَلَلْتَ عَنِ الْمَحْجَّةِ أُرْشِدًا، وَإِنْ أَضَلَلْتَ
الْمَحْجَّةَ أَنْشُدْ، وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ الصَّوَابُ جَلِّ، وَإِنْ أَصَابَكَ هَمٌّ فِي دِينِكَ سَلِّ،
لَا يَزُورُكَ إِلَّا لِيُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَيُنْصَحَكَ، وَيَرَأْبَ ثَأْيِكَ وَيُصْلِحَكَ، وَيُعَايُنَكَ مِنْ

(١) المقامة (١٩): العزلة، للزمخشري، ص ١١٣، ت: يوسف بقاعي، مثافنة: مجالسة: ثافن: لازم.

انظر: اللسان، مادة: ثفن.

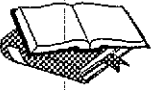
(٢) المقامة نفسها، ص ١١٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ١١٥.

(٤) المقامة نفسها، ص ١١٦.

(٥) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة، للزمخشري، ص ١٧٩، ت: يوسف بقاعي. شعوب: المنية

يقال لها شعوب، انظر: اللسان مادة شعب.



مَرْضِيكَ وَشَكَاتِكَ، بما يصفُ من أمرٍ مُبْكِيَاتِكَ، لا أمرٍ مُضْحَكَاتِكَ، ذَاكَ لا يَتَنَفَّسُ فِي جَنَابِكَ إِلا عَبَقَ نَسِيمُ الْفَرْكَدُوسِ بِثِيَابِكَ، ولا يَخْطُرُ فِي عَرَصَةِ دَارِكَ إِلا أَصْبَحَتْ مُبَارَكَةً، وَبَسَطَتْ أَجْنِحَتَهَا فِيهَا الْمَلَائِكَةُ، فَلا تَبِعْ بِهِ بَدَلًا وَإِنْ أَفَاءَ عَلَيْكَ بِيَضِّ النَّعْمِ، وَسَاقَ إِلَيْكَ حُمْرُ النَّعْمِ» (١).

لقد ذكر الزمخشري في المقامة السالفة الذكر الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته، لأنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، قال - ﷺ - : «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال» (٢).

ولابد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته، ذكر بعضاً منها الزمخشري في المقامة السابقة وهي في جملتها: أن يكون عاقلاً حسن الخلق، غير فاسق، ولا حريص على الدنيا، أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصل، فلا خير في صحبة الأحمق فالإي الرحشة والقطيعة ترجع عاقبتهما وإن طالت، وقد قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله. وأما حسن الخلق فلا بد منه، فإن من غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن وأطاع هواه فلا خير في صحبته. وأما الفاسق المصّر على فسقه فلا فائدة في صحبته، بل مشاهدته تهون أمر المعصية على النفس وتبطل نفرة القلب عنها، ولأن من لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصدافته بل يتغير بتغير الأعراس، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (٣).

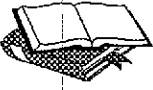
ولعلك لحظت تردد لفظ الأخوة بدل الصحبة، لأن أخوة الإسلام أعم وينطوي في معنى الأخوة: الصداقة والصحبة إلا أن لكل منها درجات، وللأخوة والصحبة حقوقاً: حقاً في المال، وفي الإعانة بالنفس، وفي اللسان والقلب، وفي العفو، وفي الدعاء، وفي الوفاء والإخلاص، وفي التخفيف، وفي ترك التكلف والتكليف.

(١) الخمول، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة - ﷺ -، كتاب الزهد، باب (٤٩)،

٥٨٩/٤.

(٣) سورة الكهف، آية ٢٨.



وهذا **البديع** يذكر الصحبة الحسنة في السفر قائلاً على لسان الراوي عيسى ابن هشام: «اتَّفَقْتُ لِي حَاجَةٌ بِمَحْصٍ، فَشَحَدْتُ إِلَيْهَا الْحِرْصَ، فِي صُحْبَةِ أَفْرَادٍ كَنَجُومِ اللَّيْلِ، أَحْلَاسٍ لظُهُورِ الْخَيْلِ»^(١).

فقوله في وصف رفاقه إنهم فرسان لا يغادرون متون الخيل، ولا يفترقون عن ركوبها، ذكَّرَ لِحَقِّ مَنْ حَقَّقَ الصَّحْبَةَ وَهُوَ: الإِعَانَةُ بِالنَّفْسِ، فَهَوْلَاءُ لَا يَفَارِقُونَ ظُهُورَ خَيْوَلِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى أَهْبَةِ الْأَسْتِعْدَادِ لِيُدْفَعُوا عَنْ بَعْضِهِمْ غَائِلَةَ الطَّرِيقِ.

وفي مقامة ثانية يصف مجموعة جمعتهم الأخوة فيقول: «كُنْتُ بِالْأَهْوَازِ فِي رُفْقَةٍ مَتَى مَاتَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِمْ تَسَهَّلَ، لَيْسَ فِينَا إِلَّا أَمْرُدُ بَكْرُ الْأَمَالِ، أَوْ مَخْطَطٌ حَسَنُ الْإِقْبَالِ، مَرْجُوُّ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ، فَأَفْضُنَا فِي الْعِشْرَةِ كَيْفَ نَضَعُ قَوَاعِدَهَا، وَالْأَخُوَّةَ كَيْفَ نُحْكِمُ مَعَاقِدَهَا، وَالسَّرُورَ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَقَاضَاهُ، وَالْأَنْسَ كَيْفَ نَتَهَادَاهُ، وَقَائِتِ الْحِظِّ كَيْفَ نَتَلَفَاهُ...»^(٢).

وقوله: «مَرْجُوُّ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ» يريد أن أفراد هذه الجماعة كلهم كانوا من الأحداث صغار السن، فإما أمرد لم ينبت شاربه، وإما فتى خط شاربه، ولكنه لا يزال غضاً في القوة، مفتول الساعد، نافعاً في الكروب، مأمولاً عند الشدائد.

وقوله: «السَّرُورَ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَقَاضَاهُ...» أي أنهم أرادوا أن ينظموا أوقات سمرهم، وَيُعَيِّنُوا سَاعَاتِ لَهْوِهِمْ، وَيَضَعُوا نَمُودَجَ الصَّدَاقَةِ وَالْمُؤَاخَاةِ، بِحَيْثُ تَكُونُ أَعْمَالُهُمْ جَارِيَةً عَلَى مَقْتَضَاهُ.

(١) المقامة (٦): الأسدية، لبديع الزمان الهمذاني، ص ٣٦، أحلاس: جمع جلس، وهم الذين يلازمون الشيء، ولا ينفكون عنه، اللسان، مادة: جلس.

(٢) المقامة (١١): الأهوازية، لبديع الزمان الهمذاني، ص ٦٦. شرح المقامات محمد محيي الدين عبد الحميد.



وفي المقامة التاسعة والأربعين بحث على اتخاذ الأصدقاء المخلصين، من خلال ذكر الراوي عيسى بن هشام لذلك قائلاً: «وَاتَّخَذْتُ إِخْوَانًا لِلْمَقَّةِ، وَآخَرِينَ لِلنَّفَقَةِ»^(١).

فإخوان المقمة : هم أصدقاء المحبة والوداد، وألف الإخلاص الذين يستنصر بهم، ويستصرخون في الشدة، إذا حزبه أمر أو نزلت به كارثة، والمعنى أنه جعل أخلاءه نوعين:

- نوع تجمعهم بهم المحبة الأكيدة والوداد المحض، وادخره للنوازل والخطوب.

- ونوع تدعوه إليهم مجالس الأُنس، وأوقات المسرة من أهل الظرف، والمروءة، ووداعة الأخلاق، ليتشاركوا في المأكل والمشرب ونحوهما من دواعي الطرب وبواعث الارتياح. إذن لا يصلح للصحة كل أحد، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها في صحبتها، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة، وهي: «إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة. وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يكدر القلب، ويصد عن العبادة، ومنها الاستعانة في المهمات، فتكون عدة في المصائب، وقوة في الأحوال»^(٢).

وهذا ما عناه **البديع** هنا، فكلما النوعين اتخذ: إخواناً للمقة وإخواناً للنفقة.

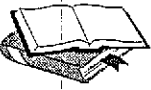
وهذا **ابن نباتة** يشير إلى ما يحدث بين الأصحاب فيقول: «إِنَّهُ الْعَجَبُ الْعَجِيبُ لَوْ أَنَّكَ بِغَيْرِ مَا أَجَابُوا جُيِبَ، وَبَعِيدٌ أَنْ تَخْتَلَفَ الْقُرْنَاءُ أَوْ تَرَى الْخِيَانَةَ الْأَمْنَاءُ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ، وَاسْتَدَارُوا حَوْلَهُ، وَقَالُوا: إِنَّكَ قَدْ أَبْتَ مَا لَا تَسْتَحِقُّهُ، وَبَيَّنَّا مِنْ الصَّحْبَةِ مَا قَدْ عَلِمَ حَقُّهُ، وَكُلٌّ مِنَّْا قَدْ بَدَّلَ جُهْدَهُ وَأَظْهَرَ مَا عِنْدَهُ»^(٣).

(١) المقامة الخمرية، ص ٤١٥، شرح مقامات البديع، محمد مجي الدين عبد الحميد، المقمة: المحبة،

وقد ومقه يمقه : أي أحبه فهو وامق، انظر: اللسان، مادة ومق.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، ص ٩٩.

(٣) مخطوط مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٧.



فالرواي يذكر أنه من العجيب أن أحدهم يجيب إجابة مختلفة عن قرنائه، فالصحبة التي بينهم تجعله يسير وفق ماساروا، ويجيب بمثل ماأجابوا، إلا أن الرفقاء استاءوا من الشيخ الذي رد على كل منهم قوله، وقد بذلوا جهدهم وأظهروا ما عندهم، وكان عليه حقوق للصحبة التي تجمعهم بهم فلا يبدى اللوم بهذا الذي عدل عن رفاقه في تشبيه الزهر، إلى ذكر وجه النهر، إلا أن الشيخ - حين ذكر بحق الصحبة - عمد إلى توضيح سبب لومه وهو: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَقْبَحُ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَى غَيْرِ الْإِكْتِسَابِ»^(١).

وهذا نعم الصاحب، فهو لم يرض أن يسكت عن الخطأ الذي وقع فيه صاحبه حتى وإن تعرض للوم، فكان عليه أن يعينه بتصحيح خطئه، لأن: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٢). وأشار بقوله: «أَوْ تَرَى الْخِيَانَةَ الْأَمْنَاءُ»، إلى أن الخيانة لا يجب أن تكون بين القرناء لقوله - ﷺ - : «من ضار ضار الله به، ومن شاق شاق الله عليه»^(٣).

وأما **ابن ناقتيا** فقد ذكر حسن الصحبة، وكأنه يشير من طرف خفي إلى الحث عليها حين قال على لسان الراوي: «فَقُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا أَبْشِرْ بِقُرْبِ الدَّارِ، وَالرَّفِيقِ السَّارِ»^(٤).

فهذا يعده بصحبة ورفقة تسره، لأن من حق المسلم على المسلم أن يفرج كربته أخيه، ويدخل السرور إلى قلبه، فالرواي حين وجد هذا الرجل يدعي أن الغربة تكاد

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ٢٠/٨. ورواه الترمذي تحت

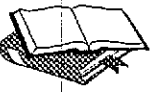
رقم (١٩٢٨)، عن أبي موسى الأشعري - ﷺ - ، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في شفقة

المسلم على المسلم، ٣٢٥/٤

(٣) رواه الترمذي تحت رقم (١٩٤٠)، عن أبي خزيمة - ﷺ - ، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في

الخيانة والغش، ٣٣٢/٤ .

(٤) المقامة الثالثة، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقتيا، ص ٧ .



تقضي عليه، وهو بعيد عن داره وأهله، سرى عنه، وأبعد الهم، وطرده الحزن؛ بوعدته إياه أن يكون نعم الرفيق له أثناء عودته للبلد، والاجتماع بالأهل والولد. فيكون بذلك المسلم الحق الذي تمثل قول الرسول - ﷺ - : «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». (١)

وفي مقامة أخرى يبين **ابن ناقتنا** صفة من صفات القرناء لكنها تنفر ممن يتصف بها، وأبان ذلك في قوله: «فَلَمْ نَزَلْ نُخْتَلِسُ الطَّرِيقَ إِلَى الْقَصْدِ وَنُحَازِرُ صُحْبَةَ قَرَيْنٍ وَغَدٍ» (٢)، إلا أن الذي خافوا منه وقعوا فيه، حين انضم إليهم (شخص من البشر كأنه قطعة حجر ثقيل الوطأة) جعلهم في نهاية المجلس ينهضون هرباً من المكان الذي هو فيه.

وقد روي أن رجلاً استأذن على النبي - ﷺ -، فقال: «بئس ابن العشيعة» أو «بئس رجل العشيعة»، ثم قال «إيذنوا له» فلما دخل ألان له القول، فقالت عائشة يارسول الله، ألفت له القول، وقد قلت له ماقلت، قال: «إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من ودعه، أو تركه الناس لا لقاء فحشه» (٣).

أما الحريري فيها هو ذا يقول في مقامته الرابعة: «وَأَحْتَمَلُ الْخَلِيطَ وَلَوْ أَبَدَى التَّخْلِيطَ، وَأَوْدَ الْحَمِيمَ، وَلَوْ جَرَعَنِي الْحَمِيمَ ... وَأُولَى مُرَافِقِي، مَرَافِقِي، وَأَلَيْنُ مَقَالِي، لِلْقَالِي، وَأُدِيمُ تَسَالِي، عَنِ السَّالِي» (٤).

(١) رواه الترمذي تحت رقم (٤٨٣٥)، عن أبي موسى - ؓ -، كتاب الأدب، باب في كراهية المرء، ٢٦٠/٤.

(٢) المقامة (٦)، مخطوط المقامات العشر، لابن ناقتنا، ص ١٦.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب مداراة من يتقى فحشه، ٢١/٨. ورواه الترمذي تحت رقم (٤٧٩١) عن عائشة - رضي الله عنها -، كتاب الأدب، باب في حسن العشيعة، ٢٥١/٤.

(٤) الدِّمِياطِيَّة، شرح الشريشي، ١/١٦٣، مرافقي: جمع مرفقة وهي المعونة، اللسان، مادة: رفق. والخليط: الصاحب، اللسان، مادة: خلط. الحميم: الأول بمعنى الصديق المقرب، والثاني: الماء الحار، انظر: اللسان، مادة: حمم، القالي: المبعض، اللسان، مادة: قلى. السالي: المداوم في السؤال، اللسان، مادة: سلا.



فالتودد للصاحب، والمعاشر مما حث عليه الإسلام، فهذا رسول الله ﷺ - يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

وفي قول **الحريري**: «وَلَا أَتَظَلَّمُ، حِينَ أُظْلَمَ، وَلَا أَنْقَمَ وَلَوْ لَدَغَنِي الْأَرْقَمَ»^(٢) حث على احتمال الأذى، وعدم التفكير في الانتقام ممن يظلمك ومثله الأعلى في ذلك رسول الله ﷺ -، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ - يحكي نبياً من الأنبياء، صلواته وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٣).

كل ماسبق سمعه الراوي الحارث بن همام من أحد الاثنين اللذين يتسامران وسنعرض للآخر الذي رد على الأول قوله: «وَيْكَ يَا بُنَيَّ! إِنَّمَا يُضَنُّ بِالضَّيِّنِّ، وَيُنَافَسُ فِي الثَّمِينِ؛ لَكِنَّا لَا آتِي، غَيْرَ الْمُوَاتِي، ... وَلَا أَصَابِي، مَنْ يَأْتِي إِنْصَابِي ... وَلَا أَصَفِّي نَيْتِي، لِمَنْ يَتَمَنَّى مَنِّي ... وَمَنْ حَكَمَ بَأْنَ أَبْدَلَ وَتَخَزَنَ، وَأَلِينِ وَتَحَشَّنَ، وَأَدُوبَ وَتَجْمُد ... وَكَيْفَ يُجْتَلَبُ إِنْصَافٌ بِضَيْمٍ، وَأَنْتَى تُشْرِقُ نَفْسُ مَعَ غَيْمٍ! وَمَتَى أَصْحَبَ وَدٌ بَعَسَفَ، وَأَيُّ حُرٍّ رَضِيَ بِحُطَّةٍ خَسَفَ ...»^(٤).

وللشعراء القدماء والمحدثين مذهبان في العفو أو الانتصاف، وهذان المذهبان اللذان ذكرهما **الحريري** على لسان السميع الأول، والثاني مبنيان على آيتين، من كتاب الله تعالى؛ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ

(١) رواه البخاري عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - كتاب الأدب، باب قول الرسول ﷺ - "رحمة الناس والبهائم" ١٢/٨، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم: ٢٠/٨.

(٢) شرح مقامات الحريري، للشريشي، ١٦٤/١.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (٣٧)، ١٤١٧/٣.

(٤) المقامة نفسها (٤): الدمياطية، للحريري، شرح الشريشي، ١٦٥/١-١٦٧.



صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ»^(١). والثانية قوله تعالى: «وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ»^(٢).

وهذا **الحريري** يحث على اختيار الصديق حتى تثمر الصحبة فيقول:

«أَسْ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا ** وَارِعَ إِذَا المرءَ أَسَا
أَسْنِدَ أَخًا نَبَاهَةً ** أَيْنَ إِحْيَاءَ دَنَسَا»^(٣)

فأراد: إن قصدك فقير فصله، وإن أخطأ عليك صاحب فلا تقطعه، وارع حق الصحبة، فإن من حقه عليك أن تتحملة عند ضيقه.

وفي البيت الثاني يريد أن يقول: صاحب من يشرفك بذكره الجميل، وباعد من يدنس عرضك، وتعب به، وقد قيل: صاحب رقعة الثوب، فلينظر الإنسان ما يرفع به ثوبه وفي حق الصحبة واختيار الصديق أحاديث منها: قول رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف»^(٤).

وفي حسن الصحبة قال **الحريري** أيضاً: «اسْتِعْمَالَ المَدَارَاةِ يُوجِبُ المَصَافَاةَ، وَعَقْدُ المَحَبَّةِ يَقْتَضِي النُّصْحَ ... وَتَتَّبِعُ العَثْرَاتِ يَدْخِضُ المَوَدَّاتِ، وَخُلُوصُ النِّيَّةِ، خُلَاصَةُ العَطِيَّةِ»^(٥).

(١) سورة النحل، آية ١٢٦ .

(٢) سورة الشورى، آية ٤١ .

(٣) المقامة (١٦): المغربية، للحريري، ٢/٢١١، أس: اعط. والأوس: العطية. انظر: اللسان، مادة:

أسس. أرملاً: فقيراً، اللسان، مادة: رمل. عرا: قصد، اللسان، مادة: عرا، أسا: أتى سوء، اللسان، مادة: أسا. ابن: باعد، اللسان، مادة: بون.

(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة، ٤١/٨ . ورواه ابن داود عن أبي

هريرة - رحمه الله -، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ٤/٢٦٠ .

(٥) المقامة (١٧): القهقرية، للحريري، ٢/٢٣٩ .



يريد أن يبحث عن عيوب صاحب يبطل مودته ومن يخلص لك النية، فكأنه أعطاك خالص ماله.

وقال **الحريري** حاثاً على حسن المعاملة مع صاحب :

«سَامِحٌ أَخَاكَ إِذَا خَلَطَ ** مِنْهُ الْإِسَاءَةُ بِالْغَلَطِ
وَتَجَافَى عَنْ تَعْنِيفِهِ ** إِنْ زَاغَ يَوْمًا أَوْ قَسَطَ
وَاحْفَظْ صَنِيعَكَ عِنْدَهُ ** شَكَرَ الصَّنِيعَةَ أَمْ غَمَطَ
وَاطَّعَهُ إِنْ عَاصَى وَهَنَّ ** إِنْ عَزَّ وَادْنُ إِذَا شَحَطَ»^(١)

وقال **الحريري** في مقامته الثامنة والأربعين على لسان بطل مقاماته الذي انبرى من الجماعة لما قضى الفرض : «يَا جِيزَتِي، الَّذِينَ اصْطَفَيْتَهُمْ عَلَيَّ أَغْصَانُ شَجَرَتِي ... أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ لِبُوسِ الصَّدِيقِ أَبْهَى الْمَلَابِيسِ الْفَائِخِرَةَ ... وَأَنَّ أَخَاكَ هُوَ الَّذِي عَذَّلَكَ، لَا الَّذِي عَذَرَكَ، وَصَدِيقُكَ مَنْ صَدَّقَكَ، لَا مَنْ صَدَّقَكَ»^(٢).

يريد أن أخاك هو الذي يلومك، ويقبح لك سوء فعلك، وأما من حسن عذرك في ذلك، فليس بصديق ولا أخ .

وقد ذكر هنا من حقوق الأخوة والصحة : اللسان، وذلك بالسكوت مرة، وبالنطق أخرى، وما ذكره **الحريري** هنا إذا وجب على صاحب النطق في أمر معروف أو نهي عن منكر، ولم يجد رخصة في السكوت، فإذا ذاك لا يبالي بكرهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق، وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

وقال في مقامته التاسعة والأربعين ينصح ابنه : «وَإِذَا أَرْمَعْتَ عَلَيَّ الْاِغْتِرَابَ، وَاعْدَدْتَ لَهُ الْعَصَا وَالْجِرَابَ، فَتَخَيَّرَ الرَّفِيقَ الْمُسْعِدَ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تُصْعِدَ، فَإِنَّ الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ، وَالرَّفِيقَ قَبْلَ الطَّرِيقِ»^(٣).

(١) المقامة نفسها، ١٥٨/٣ .

(٢) المقامة الحرامية، ٢٩٨/٥، ٣٠٢، عذلك: لامك، انظر: اللسان، مادة: عذل.

(٣) المقامة الساسانية، ٣٣٩/٥-٣٤٠، أرمعت : عزمت، اللسان، مادة: زمع، الجراب: الوعاء،

اللسان، مادة: جرب، المسعد: الموافق القليل الخلاف، اللسان، مادة: سعد.



يريد : لا تشتت داراً حتى تعلم من جيرانك، ولا تعزم على التجوال والغربة قبل أن تختار الرفيق الذي يرافقك في طريق سفرك وغربتك.

ونخلص إلى أن أصحاب المقامات حثوا على حسن الصحبة إما بمدحها، أو التنفير من ضدها، وفي كلِّ دلالة على العمل بمقتضاها على الوجه الصحيح، وهو التمسك بهذا الخلق الحسن وأن تجمع مابين المسلمين الصحبة الحسنة أو الأخوة، إلا أن الأخوة أعم من الصحبة، لأنه ينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة، غير أن لكل منها درجات، وابن الجوزي رغم أنه يعنى عدم وجود أخوة، وأصدقاء أوفياء، فإنه أشاد ببعض الحقوق التي يلتزم بها الصاحب تجاه صاحبه ومنها حق اللسان، فيسدي النصح له، ويذكره بالموت، وإلى هذا الحق أشار الزمخشري أيضاً والبديع والحريري، إلا أن البديع زاد فذكر كيفية اختيار صديق السفر، وأن لديه نوعي صحبة، صحبة دينية وأخرى دنيوية، وأما ابن نباته فقد أشار إلى اجتماع الأصحاب على كلمة واحدة ونادراً ماختلف، وابن نايقا يشيد بالصحبة الحسنة، وينفر من قرين السوء، أما الحريري فيحث بطريق غير مباشر إلى أن حق الصديق على صديقه بأن يحتمل منه ثلاثاً: ظلم الغضب، ظلم الدالة، ظلم الهفوة، وألا ينقب عن عيوبه، ويراعي حسن الصحبة، لأن من لم يراعها فقد كفرها .

الوفاء :

لقد حث ابن الجوزي على خلق الوفاء في عدة مقامات؛ ومنها قوله في قصة عيسى - عليه السلام-: «قَلَمًا عَلِمْتُ بِالْحَمْلِ اكْتَسَبَهَا السَّرُورَ وَلَهَا، فَوَهَبْتَهُ بِلِسَانِ النَّذِيرِ لِمَنْ وَهَبَهُ لَهَا، فَقَالَ الْقَدَرُ: يَا مَلِكِ التَّصْوِيرِ اجْعَلِ الْحَمْلَ أُثْمِي، لِيَبِينَ أَثَرُ الْكَرَمِ، فِي قَبُولِ النَّاقِصِ وَتَوْفَى النَّذُورِ، فَأَقْبَلْتِ بِهَا الْأُمَّ تَوْمً يَثَّ الْمَقْدِسِ»^(١).

(١) المقامة (٤): فيما سبق، ص ٤٢ .



قال تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، وقال : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾^(٢).

فالقرآن حدثنا بأن الوفاء صفة المؤمنين، الأخيار، الأبرار، كما أن هذه الآيات الكريمة ذكرت الوفاء بالعهد بمختلف أنواعه، الوفاء بين الناس، والوفاء بعهد الله تبارك وتعالى، والوفاء المذكور في هذه المقامة من نوع: الوفاء بالنذر الذي يشير إليه قوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(٣).

فهذه أم السيدة ((مريم)) من فرحها وسرورها بحملها نذرت أن تهيب ماتحمله في بطنها لواهبه، وقد وفّت بالنذر، فبعد أن وضعت وكان المولود أنثى وهي السيدة ((مريم)) ذهبت بها إلى بيت المقدس، وكفلها زكريا.

إذن فقد أعطانا **ابن الجوزي** مثلاً رائعاً من أمثلة الوفاء بالنذر الذي امتثلت فيه التي نذرت النذر؛ لأوامر الله حين قال : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾^(٤)، فكانت من النساء الصالحات اللواتي يفعلن ما يقبلنه، ويفين بما نذرته.

وفي المقامة التالية قال **ابن الجوزي** حاثاً على الوفاء بالوعد: ﴿اجْتَمَعَ وَجُوهَنَا لُوْعِدِ أَبِي التَّقْوِيمِ فَاحْتَبَسَ، فَأَنْحَدَتْ وَجُوهُنَا تَقْرَأُ سُورَةَ عَبَسَ، ... إِلَى أَنْ طَلَعَ طُلُوعَ الْهَيْلَالِ لَيْلَةَ الْعِيدِ، وَقَالَ: عَاقِبِي شُغْلًا، وَالطَّرِيقُ بَعِيدٌ، وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَعِدَّ وَأُخْلِفَ، وَسَأَعْرَمُ مَا فَاتَكُمْ وَأُخْلِفَ، إِنَّ خُلْفَ الْوَعْدِ خُلُقُ الْوَعْدِ﴾^(٥).

سبق أن ذكرنا أن الوفاء ألوان وأنواع، وهذا المذكور في هذه المقامة هو من نوع الوفاء بالوعد الذي يشير إليه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾^(٦).

(١) سورة آل عمران، آية ٧٦ .

(٢) سورة الرعد، آية ١٩-٢٠ .

(٣) سورة الإنسان، آية ٧ .

(٤) سورة الحج، آية ٢٩ .

(٥) المقامة (٥) : فيما سبق، ص ٤٦ .

(٦) سورة مريم، آية ٥٤ .



فقد وعد أبوالتقويم الوجوه بأن يحضر، ويكمل لهم قصص الأنبياء، والتي كان الجميع يتابعونها معه، لكنه تأخر عليهم، حتى ظنوا أنه لن يحضر، إلا أن أباالتقويم حضر، ونفى عن نفسه أن يكون ممن يعد ويخلف، بل إنه قال: «إن خلف الوعد خلق الوغد»، وهو ليس وغداً حتى يخلف وعده، بل إن هناك ما جعله يتأخر عن الموعد وقد قدم اعتذاره عن هذا التأخير، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم؛ إذا وعد وفي.

ويذكر **ابن الجوزي** نوعاً آخر من الوفاء، وهو الوفاء بالعهد الذي يقول الله عنه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾^(١)، وهنا يقول موجهاً الخطاب لله تعالى: «وَعَزَّتْكَ مَانَقَضَتْ عَهْدَكَ، وَلَا ضِعَّتْ وَدَكَ»^(٢).

فالعهد الذي ذكر أنه لم ينقضه هو العهد الفطري الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٣).

وقد أشار الله - جل جلاله - إلى جانب من مضمون هذا العهد الإلهي حين قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٤).

وهذا العهد هو الذي ذكره في مقامة أخرى قائلاً:

**	بك من كل أنيس	**	«أوحشتني خلواتي
**	تك بالغيب جليسي	**	وتفردت فعائني
**	حب أنفاس النفوس	**	وبدلي أن مهر الـ
**	حب على طرس الرسيس» ^(٥)	**	فكبت العهد للـ

(١) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٢) المقامة (١٥): في الخائفين، ص ١٢٣.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان ١٧٢-١٧٣.

(٤) سورة يس، الآيتان ٦٠، ٦١.

(٥) المقامة (١٩): في الخلوة، ص ١٦٠-١٦١، الرسيس: العاقل، طرس: الصحيفة. انظر:

اللسان، مادة: رسس، طرس.

فالعهد الذي كتبه على نفسه هو حب الله؛ لأن من أحب الله أطاع أوامره وانتهى عن نواهيه، وقبل كلِّ عبادته وحده لا شريك له ...

وفي المقامة السادسة والعشرين، يذكر **ابن الجوزي** مثلين للوفاء، يمثل الأول: وفاء اسماعيل، فيقول: «يَا خَلِيلُ أَمُدُّ يَدَكَ، فَادْبِخْ وَكَذَكَ، فَيَقُولُ لِلوَالِدِ: انظُرْ مَاذَا تَرَى؟. فيقول: الْحُكْمُ لِمَنْ يَرَى، أَنَا أَطْلُبُ الصَّبْرَ مِمَّنْ يُنْجِدُنِي سَتَجِدُنِي»^(١)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٢).

وإنما خصه بذكر صفة الوفاء له هنا، وصدقه في الوعد، لأنه كان مشهوراً بذلك، وكانت له في هذا الباب أشياء لم تعهد من غيره، وحسبنا أنه وعد بالصبر على الذبح، وقال لأبيه: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)، ووفى بعهده وصدق في وعده، فكان من المخلصين^(٤).

أما المثل الثاني في الوفاء ففي قوله: «وَزَلِيخًا تَهَيَّءْ مَجْلِسَ الْهُوَى لِيُوسِفَ وَتَعَبَّى، فيقول: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾^(٥)»^(٦)، ثم حين عاهد الله، ولم يرد أن ينكث بما عاهد عليه قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾^(٧).

أما في المقامة الحادية والثلاثين فقد ذكر **ابن الجوزي** الغدر، وهو ضد الوفاء فقال: «كَمْ أَعِدَ نَفْسِي بِتُوبَةٍ وَلَا أُنْفِي فَقَالَ: وَعَدُّكَ بِالتُّوبَةِ كَذِبُ الصَّنَاعِ.. فقام شابٌّ يبكي، فقال: الْعَمَلُ عَلَيَّ بِكَاءٍ قَلْبِكَ، فَإِنَّ إِخْوَةَ يُوسِفَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عَشَاءً يَتَكُونُ»^(٨).

(١) في ذم الدنيا ومدحها، ص ٢١٦.

(٢) سورة مريم، آية ٥٤.

(٣) سورة الصافات، آية ١٠٢.

(٤) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ١٩٦/٢.

(٥) سورة يوسف، آية ٢٣.

(٦) المقامة (٢٦) نفسها، ص ٢١٦.

(٧) سورة يوسف، آية ٢٣.

(٨) في التعازي، ص ٢٥١.



إذا كان القرآن الكريم والسنة المطهرة قد مجدا فضيلة الوفاء كل هذا التمجيد، فإنهما قد حملا حملة رادعة على الخيانة والغدر فقال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾^(٢)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(٣)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾^(٤)، وقال: ﴿وَلَاتَكُنَّ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾^(٥)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا ءَمَانَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٦).

وهذا الرجل قد عاهد الله على التوبة، ولكنه لم يف بالعهد فيقول: «كَمْ أَعِد نَفْسِي بِتُوبَةٍ وَلَا أَفِي» وأياً كان الذي عاهد نفسه على التوبة عنه، كان الأجدر به أن يفى به، وإن كان هذا العقد بينه وبين نفسه.

وفي مقامة أخرى قال **ابن الجوزي**: «سَعَى إِلَيْهِ سَاعِي الزَّكَاةِ، فَرَدَّ بَابَ الْعَطَاءِ بِيَدِ الْمُطَلِّ ... وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ»^(٧)، يشير إلى قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٨).

(١) سورة الأنفال، آية ٥٨.

(٢) سورة يوسف، آية ٥٢.

(٣) سورة الحج، آية ٣٨.

(٤) سورة النساء، آية ١٠٧.

(٥) سورة النساء، آية ١٠٥.

(٦) سورة الأنفال، آية ٢٧.

(٧) المقامة (٤٦): في الزهد في المال، ص ٣٨٢.

(٨) سورة التوبة، الآيات ٧٥-٧٨.



فالقرآن المجيد صور في هذه الآيات غدر بعض الناس الذين أخذوا على أنفسهم أغلظ العهود والمواثيق بالطاعة والشكر إن أعطاهم ربهم ما أرادوا، فلما حقق لهم ما طمعوا فيه كانوا من الجاحدين، الغادرين، وهذا ما أشارت إليه المقامة السابقة.

وفي المقامة التاسعة والأربعين أشار إلى الغدر في قوله: «فَأَخَذَ الشَّيْخُ يَدَ الإِخْوَانِ عَلَى عَادَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا وَجَدْنَا لَأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، قُلْتُ: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ»^(١).

يريد أنهم يعاهدون ولا يوفون بعهودهم، لذا ينبغي للإنسان أن يحتاط لأمره، فلا يعاهد إلا بما يقدر عليه. إلا إذا كان في نيته أن يفني ثم عجز لسبب خارج عن إرادته أو عن طاقته، لم يكن عليه إثم، لقول الرسول - ﷺ - : «إِذَا وَعَدَ الرَّجُلُ إِخْوَانَهُ، وَمِنْ نِيَّتِهِ أَنْ يَفِي فَلَمْ يَفِ (أَي لِعُذْرٍ) وَلَمْ يَجِيءَ لِلْمِيعَادِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»^(٢).

أما **الزَّمخَشَرِيُّ** فقد حث على فضيلة الوفاء حين ذكره ضمن صفات الذين يجب أن يكونوا أسوة لنا نسير على خطاهم، فقال: «يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ عِبَادُ رَهْنُوا بِحَقِّ اللَّهِ ذِمَّتَهُمْ ... يُثَقَّتْ لَاتَعْرِفُ النِّكَثَ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ»^(٣)، فمن العباد الذين نجعلهم أسوة لنا في الوفاء؛ الأنبياء، فقد نوه القرآن المجيد بسمو فضيلة الوفاء حين جعلها صفة لهم - أي الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - فقال: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٤)، وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٥)، وأولهم الرسول - ﷺ - الذي ضرب المثل الرائع في

(١) في ذم أبناء الدنيا، ص ٤٠٤.

(٢) رواه أبو داود تحت رقم (٤٩٩٥) عن زيد بن أرقم - ؓ -، كتاب الأدب، باب في العدة، ٢٩٩/٤.

(٣) المقامة (٣٥): في الأسوة، للزَّمخَشَرِيُّ، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٤) سورة النجم، آية ٣٧.

(٥) سورة مريم، آية ٥٤.



الوفاء، حينما حفظ عهد زوجته خديجة - رضي الله عنها - حفظه في حياتها، وبعد مماتها، ولم يشغله عن ذكرها شاغل، فكان يكثر من الحديث عنها والثناء عليها .

وهذا نموذج آخر على الوفاء بالوعد ذكره **الزمخشري** في مقامته الخامسة والأربعين قائلاً : «وَإِذَا عَقَدْتَ مِيثَاقًا فَاَوْفِ بِعَقْدِكَ، أَوْ وَعَدْتَ فَسَارِعْ إِلَىٰ إِنْجَازِ وَعْدِكَ، وَلَا يَكُونَنَّ مَوْعِدُكَ مِثْلَ لَمَعِ الْبُرُوقِ بِالذَّنْبِ، وَلَا مِثْلَ بَلْمَعِ الْبُرُوقِ الْخُلْبِ، ... وَكُنْ رَجُلًا قَدَّمَ عَطَاؤَهُ قَبْلَ وَعْدِهِ»^(١).

فحث على السرعة في إنجاز الوعد، وعدم المماطلة وأن تعد وأنت موفق بإعطاء ما وعدت به، دون اللجوء إلى التسوية.

وهذا **البديع** يذكر نوعين من أنواع الوفاء؛ الأول: الوفاء بالوعد. والآخر: الوفاء بالندر. وثمة نوع آخر، وهو الوفاء باللسان عن طريق الثناء لأنه لا يملك طريقاً سواه، وهذا ذكره في مقامته السادسة عشرة حين ادعى أبو الفتح أنه كيف، فرقت له القلوب، وأعطاه أحدهم قطعة فقال له:

« يَا ذَا الَّذِي يَعْنِيهِ ذَا الثَّنَاءِ * * مَا يَتَّقِضِي قَدْرَكَ الْإِطْرَاءُ »

امضِ إِلَى اللَّهِ لَكَ الْجَزَاءُ^(٢)

يريد أن يقول: إن قدره يعجز طوق المادحين، ويولد قرائحهم، فلا يستطيعون الوفاء له بحق الثناء.

أما الوفاء بالوعد فيظهر حين وفي جميع من في السفينة بوعدهم لأبي الفتح الإسكندري، وأعطوه ما وعدوه من نقود، مقابل إعطائه لكل واحد منهم رقعة فيها

(١) الصدق، للزمخشري، ص ٢٥٧-٢٥٨، البروق الأولى: الناقة التي تبرق بذنبها من غير لقاح.

انظر: اللسان، مادة: برق.

(٢) المكفوفية، لبديع الزمان الهمداني، ص ٩٣.



حرز يقيهم من الغرق، فأعطوه الدينار في الحال، والآخر بعد أن يسلموا من الغرق، ﴿فَلَمَّا سَلِمَتِ السَّفِينَةُ، وَأَخَلَّتْنَا الْمَدِينَةَ، اقْتَضَى النَّاسَ مَا وَعَدُوهُ، فَنَقَدُوهُ﴾^(١).

أما الوفاء بالنذر فذكره في مقامته الثالثة والأربعين حين قال: ﴿حَدَّثَنَا عَيْسَى ابْنُ هِشَامٍ قَالَ: اتَّفَقَ لِي نَذْرٌ نَذَرْتُهُ فِي دِينَارٍ أَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى أَشْحَذِ رَجُلٍ بِيَعْدَادَ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ ... فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ، لِأَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِ ... وَقَالَ آخِرُ مِنَ الْجَمَاعَةِ: لَا، بَلْ أَنَا. ثُمَّ تَنَاقَشَا وَتَهَارَشَا، حَتَّى قُلْتُ: لِيَشْتَمَ كُلُّ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ فَمَنْ غَلَبَ سَلَبَ ... فَتَرَكَتُهُمَا وَالذِّينَارَ مَشَاعً بَيْنَهُمَا، وَانصَرَفْتُ وَمَا أُذْرِي مَا صَنَعَ الذَّهْرُ بِهِمَا﴾^(٢).

أما **الحريري** فقد ذكر الوفاء من خلال ذكره للمثل: ﴿أَنْجَزَ حُرَّ مَا وَعَدَ﴾^(٣) أي لينجز حر ما وعد، وهو مثل قاله الحارث أكل المرار - جد امريء القيس - لصخر بن نهشل بن دارم^(٤).

وفي المقامة الرابعة يقول حاثاً على الوفاء: ﴿وَأَيُّ لِلْعَشِيرِ، وَإِنْ لَمْ يَكْفِيءِ بِالْعَشِيرِ﴾^(٥)، فهو يعامل الصاحب بالوفاء وإن لم يجازه بالعشر من أفعاله، امثالاً لقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾^(٦)، وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٧)، وإلا كان من

(١) المقامة (٢٣): الحزبية، لبديع الزمان الهمداني، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) الدينارية، لبديع الزمان الهمداني، ص ٣٧٤-٣٨٨.

(٣) المقامة (٣): الدينارية، للحريري، شرح الشريشي، ١/١٤٣.

(٤) انظر قصة المثل في جمهرة الأمثال، العسكري، ١/٣٠، ت: محمد أبو الفضل وزميله عبد المجيد

قطامش، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٥) الديمياطية، للحريري، شرح الشريشي، ١/١٦٣-١٦٤.

(٦) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٧) سورة الاسراء، آية ٣٤.



المنافقين لقوله - ﷺ - : «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١).

ونخلص إلى أن المقامين أشاروا إلى نوعين من الوفاء، الوفاء بالوعد، وبالعهد وحثوا عليهما، إلا أن ابن الجوزي، نقر من ضده وهو الغدر والخيانة، وشدد على عدم الوفاء بما عاهد العبد به ربه من طاعة وشكر، وكذا عدم الوفاء بالنذر، أما الزمخشري فقد زاد على ذلك بالحث على السرعة في إنجازها، أما البديع فقد ذكر الوفاء بالوعد والوفاء بالنذر وحث عليهما، وكذا الحريري.

الشجاعة :

هي : «مواجهة الألم أو الخطر عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس، فالذي يرى النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها في ثبات رجل شجاع، ومادام الإنسان يعمل في موقفه خير ما يعمل فهو شجاع»^(٢).

وقد وضح ابن الجوزي خلق الشجاعة أيما إيضاح حين لجأ إلى إبراز نقيضها، ففي المقامة الثانية عشرة يقول: « رأيت جماعة من الغزاة، وقد انتدبوا للغزاة، فتقت إلى فضل الشهادة، ووثقت بأنه أفضل الزهادة، فاخترت ذلة القتل بالثغور، على لذة التقييل للثغور»^(٣)، وترافق مع آخر ولكن بعد أن حمي الوطيس، ونظر إلى القتلى كما يقول: «فارتت الصناديد، ولحقت بما فارقت كل هيبان رعديد، فقال صاحبي: أو ما كنت قد عزمت؟ فما أسرعت ما أنهزمت، وهيهات أن يتشبه البرشاع بالشجاع...»^(٤) وهرب من ساحة القتال بينما رفيقه استمر إلى أن عاد وتقابلا، فندم

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة - ﷺ - كتاب الأدب، باب قول الرسول: آية المنافق ثلاث، ٣٠/٨.

(٢) الأخلاق، أحمد أمين، ص ٢٠٥، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ٣ ١٩٢٥ م.

(٣) في الغزاة، ص ٩٧-٩٨.

(٤) المقامة نفسها، ص ٩٨. البرشاع : الذي لاقوه له، انظر : اللسان، مادة: برشع.



على هروبه حين أيقن جزاء الشهداء فهم أحياء عند ربهم يرزقون؛ لذا عزم على العودة للقتال وقال: «وَالآن فَقَدْ صَاحَ بِي التَّقَى عُدُّ»^(١)، فالتقوى التي امتلأ بها قلبه والإيمان بالله وبمقاديره، والإيمان باليوم الآخر من أعظم الوسائل لاكتساب فضائل الأخلاق ومنها خلق الشجاعة، وذلك لأن الإيمان بالقدر خيره وشره من الله يورث القلوب طمأنينة تامة تجاه أشد المخاوف وأعتها.

إذن فالأول كان يملك الشجاعة، لذا أقدم ولم يتقهقر؛ وكذا الثاني الذي شاهد نتيجة خوضه غمار المعركة من قتلى وجرحى، وأقدم بعد ذلك فهو شجاع.

وفي مقامة أخرى يذكر **ابن الجوزي** مثلاً رائعاً للشجاعة فيقول: «لَا أَصِفُ لِحَسَانِ الْكَسَلِ، أَحْضِرُوا يَلَالَ الْعَزْمِ، كَانُوا يَتَزَكُونَ عَلَى صَدْرِ يَلَالَ الصَّخْرِ فِي الرَّمْضَاءِ وَلِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ: * لِعَيْنِكَ مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَالِقَى *»^(٢)

فعلى الرغم من أن الصخرة على صدر بلال، فإنه أصر بكل شجاعة على موقفه، معلناً عن إيمانه بصراحة مردداً ((أحد... أحد...))، لم يخف من بطش قريش وسطوتهم وسلطتهم، وفي ذلك يظهر الثبوت بالحق، وعدم التخلي عنه إرضاءً لأية قوة، أو هروباً من أي ضغط، وليس بعجيب أمر هذه الوقفة الشجاعة، فوراءها دفعة إيمانية تستمد قوتها من رصيد إيماني ضخم يشعل أواره في تلك النفس المطمئنة جذوتان: الإيمان بالله وبمقاديره وباليوم الآخر وتدابيره، واللذان يعدان من أعظم الوسائل لاكتساب فضائل الأخلاق، ومنها الشجاعة.

لأن الشجاعة تتمثل أساساً في ضبط النفس عند مواجهة الخطر في الظروف الأليمة، كما تقوم في مواجهة الظلم والشر بالقول والفعل وفي التغلب على الصعوبات والأخطار، والتي تتجاوز المعتاد، وفي احتمال أشد الآلام بصبر وثبات.

(١) المقامة نفسها، ص ١٠٢.

(٢) المقامة (٣٩): في الوعظ، ص ٣١٥. وقوله: *لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي* من بيت للمتنبى شطره الثاني: *وللحب ما لم يبق مني وما بقي*، انظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبى، ناصيف اليازجي، ص ٣٥٨.



وفي ضوء ذلك ندرك أن الشجاعة ليست مقصورة على حمل السلاح، وارتداد غمار الحروب، بل إن هناك من المواقف ما يحتاج إلى شجاعة أقوى من شجاعة المقاتل في ساحة الوغى ولا أدل على ذلك من بلال بن رباح. في تحمله الأذى من المشركين.

أما **الزمخشري** فقد حض على الشجاعة، ونفر من الذل داعياً إلى اجتناب الظلمة في مواضع كثيرة منها قوله في مقامة اجتناب الظلمة «وَلَا تَرَا جِعَ الرُّكُوعِ إِلَى أَهْلِ الْحَيْفِ، وَإِنْ عَرَّضُوكَ عَلَى غِرَارِ السَّيْفِ، وَأَجْرَ لِسَانِكَ أَنْ تَنْطِقَ بِشَاءٍ لَهُمْ وَامْتِدَّاحٍ ... وَتَرَبَّتْ يَدَاكَ مِنْ بَسَطِهِمَا إِلَى أُعْطِيَاتِهِمْ وَأَيَادِيهِمْ. مَنْ وَقَفَ وَقْفَةً لِأَحَدِهِمْ عَلَى رَبْعٍ. فَلْيَغْسِلْ قَدَمَيْهِ سَبْعِينَ فَضْلاً عَنْ سَبْعٍ، وَيْحَكَ لَا يُرَيْنَنَّ جِسْمَكَ فِي إِيْوَانِهِ، وَلَا يُجْرَيْنَنَّ اسْمَكَ فِي دِيْوَانِهِ، وَلَا يَخْطُونَنَّ قَدَمَكَ فِي إِيْوَانِهِ، وَطَيَّبْ نَفْسَكَ عَمَّا لَيْسَ بِطَيِّبٍ مِنْ أَرْزَاقِهِ، وَلَا تَلَوِّثْهَا بِالطَّمَعِ فِي إِرْفَادِهِ وَإِرْزَاقِهِ، وَإِيَّاتِكَ وَهَذِهِ الْمَرَامِيسِ الْمُسَمَّاةِ فَإِنَّهَا وَالْمَوَاسِمَ الْمُحَمَّاةِ...»^(١).

ففي قوله: «وَإِنْ عَرَّضُوكَ عَلَى غِرَارِ السَّيْفِ»: حث على الشجاعة والثبات، والصمود حتى لو تعرضت للقتل.

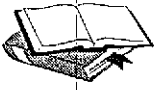
أما **البديع** فقد ذكر الشجاعة في مقامته السادسة حين طلع الأسد على عيسى ابن هشام ورفاقه، وهم متوجهون إلى حمص، فقال: «وَوَطَّارَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى سِلَاحِهِ، فَإِذَا السَّبْعُ فِي فَرَّوَةِ الْمَوْتِ، قَدْ طَلَعَ مِنْ غَايِهِ، ... وَتَبَادَرَ إِلَيْهِ مِنْ سُرْعَانِ الرَّفْقَةِ فَتَى:

أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ * يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ
بِقَلْبِ سَاقِهِ قَدْرٌ، وَسَيْفٍ كُلُّهُ أَثْرٌ...»^(٢).

حيث سارعوا جميعاً إلى قتال الأسد لمكانتهم في الشجاعة والإقدام، ولكن واحداً منهم بادر فوصل إليه قبلهم.

(١) المقامة (٣٠)، ص ١٨٣-١٨٥.

(٢) الأسدية، لبديع الزمان شرح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٣٧-٣٨.



وبعد القضاء على الأسد، طلع عليهم فارس، ادعى أنه سيكون عبداً لعيسى ابن هشام، وقد أعجبه وأعجب رفاقه لما تحلى به من صفات، فقال يصف شجاعته: «فَعَمَدَ إِلَى قَوْسٍ أَحَدِنَا فَأَوْتَرَهُ، وَفَوْقَ سَهْمًا فَرَمَاهُ فِي السَّمَاءِ، وَأَتْبَعَهُ بِأَخْرَ فَشَقَّهُ فِي الْهَوَاءِ، وَقَالَ: سَأُرِيكُمْ نَوْعًا آخَرَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى كِنَانَتِي فَأَخَذَهَا، وَإِلَى قَرْسِي فَعَلَاهُ، وَرَمَى أَحَدَنَا بِسَهْمٍ أَثْبَتُهُ فِي صَدْرِهِ، وَأَخْرَ طَيْرَهُ مِنْ ظَهْرِهِ... ثُمَّ دَنَا إِلَى لِينَزَعِ الْخُفِّ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَى سِكِّينٍ كَانَتْ مَعِي فِي الْخُفِّ وَهُوَ فِي شُغْلِهِ فَأَثْبَتَهُ فِي بَطْنِهِ، وَأَبْنَتْهُ مِنْ مَتْنِهِ، فَمَا زَادَ عَلَيَّ قَمٍ فَغَرَّهُ، وَالْقَمَّةَ حَجَرَهُ...»^(١).

والمعنى أنه امتطى فرسه بعد أن أخذ كنانته، ليتمكن من النجاة إذا أعوزته الحال، واضطر إليها، وكان منه أن رمى واحداً منهم بسهم بقي مرشوقاً في صدره، ورمى ثانياً بسهم نفذ من ظهره، ليريحهم قدرته على الرماية.

إذن فقد أظهر عيسى بن هشام شجاعة فاقت شجاعة ذلك الفتى، حباً في البقاء على حياته .

أما **الحريري** فقد حث بطل مقاماته ابنه على الشجاعة حين قال له: «وَعَلَيْكَ بِالْإِقْدَامِ، وَلَوْ عَلَى الضَّرْعَامِ، فَإِنَّ جَرَاءَةَ الْجِنَانِ، تُنْطِقُ اللِّسَانَ، وَتُطْلِقُ الْعِنَانَ، وَبِهَا تُدْرِكُ الْحُطُوةَ، وَتَمْلِكُ الثَّرْوَةَ، كَمَا أَنَّ الْخَوْرَ صِنُو الْكَسَلِ، وَسَبَبُ الْفِشْلِ، وَمَبْطَأَةٌ لِلْعَمَلِ، وَخَيْبَةٌ لِلْأَمَلِ، وَهَذَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ: مَنْ جَسَرَ، أَيْسَرَ، وَمَنْ هَابَ، خَابَ»^(٢).

يريد أن فزع النفس وضعفها يخيب الأمل والرجاء، وقد قال معاوية: الهيبة مقرون بها الخيبة^(٣).

(١) المقامة نفسها، ص ٤٣-٤٤. أوتر القوس: جعل لها وترًا، اللسان، مادة: وتر. فوق السهم:

سدده، اللسان، مادة: فوق. الكنانة: جعبة تجعل فيها السهام. اللسان، مادة: كنان.

(٢) المقامة (٤٩): الساسانية، للحريري، شرح الشريشي، ٣٣٤/٥.

(٣) المقامة نفسها، شرح مقامات الحريري، للشريشي، ٣٣٥/٥.



ونخلص إلى أن خلق الشجاعة الذي يقوم أساساً على ضبط النفس عند مواجهة الخطر في الظروف الأليمة قد وضحه ابن الجوزي، وحث عليه في غمار الحروب، وفي بعض المواقف التي تحتاج إلى شجاعة غير تلك التي يحتاج إليها من يدخل لساحات الوغى، إلا أن الزمخشري نوه بالشجاعة من طريق آخر، وهي الاستفادة منها في مرحلة الشباب وتوجيهها الوجهة الصحيحة في كل ما يقرب العبد من ربه، وحث على ما يمكن أن نطلق عليه الشجاعة الأدبية، أما البديع فلم يشر إلا للشجاعة التي تعتمد على القوة البدنية في مواجهة العدو، وكذلك الحريري.

الفصل الثاني

النقد الاجتماعي

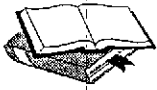


إن الأدب إلى جانب كونه غذاءً للروح ينعشها، وفناً للذوق يرهفه، ومنتعة للنفس يهيجها، قد يكون صورة تصور بعض جوانب المجتمع الذي وضعت فيه، والمجتمع الذي نحاول استخراج صورة له من خلال الأدب، هو المجتمع الذي عاش فيه أصحاب المقامات بداية من بديع الزمان المتوفى ٣٩٨هـ إلى ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ والأدب الذي سنظل من خلاله على ذلك المجتمع هو فن المقامات، ولنبدأ بالتسلسل التاريخي، فنرى أن بديع الزمان الهمداني وإن كانت مقاماته نابعة من أعماقه، ومتأثرة بأرائه وظروف حياته، فإنها أيضاً شملت نقداً لكثير من الأوضاع الاجتماعية السائدة، والعادات المعيبة، وجاءت المقامات صورة معبرة عن تلك الحياة، وجوانب مختلفة من المجتمع الذي أنشئت فيه، وتحديدًا من النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، الزمن الذي عاشه بديع الزمان الهمداني، ذلك القرن الذي كان العصر الذهبي للعقلية العربية، والذي كان إلى جانب ذلك، عصرًا عجيبيًا بما كان فيه من اضطراب في الحياة وعدم استقرار في الحكم، وليس عجيباً إذن أن تقدم المقامات تلك الصور عن بعض جوانب ذلك المجتمع الإسلامي، ولسنا نسميه بغير ذلك لأنه لم يكن عربياً خالصاً، وإنما كانت فيه أجناس وشعوب تلاقت تحت راية الإسلام.

كان هذا المجتمع في عصر الهمداني مجتمعاً فيه الكثير من المتناقضات، إلا أنه التناقض المنسجم مع طبيعة الحياة، وطريف أن يكون في التناقض انسجام. بمعنى أنه كان تناقضاً طبيعياً؛ كوجود الزهد والورع جنباً إلى جنب مع الخلاعة والمجون. إذ ليس من التناقض الطبيعي مثلاً أن يؤدي الإفراط في الأمر إلى عكسه؟ ألم يقولوا: إذا تجاوز الأمر حده يقلبه إلى ضده؟ وهذا ما وقع حين أدى الإفراط في الخلاعة والمجون عند طائفة من الناس إلى التمسك بالدين والزهد في متع الحياة عند طائفة أخرى^(١).

إذن فأبرز الصور الاجتماعية :

(١) انظر: مجتمع الهمداني من خلال مقامته، د. مازن المبارك، ص ٤٥، دار الفكر، دمشق، ط ٢،



إرشادهم إلى ذينك المطالبين فيأخذ المال، ويعددهم بأن يدلهم في اليوم الثاني ثم يذهب ولا يعود، ومن قوله في تلك المقامة: «صَه. لَقَدْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ عَدِمْتُمُوهُ ... وَحَدِّعْتُمْ عَنِ الْبَاقِي بِالْفَسَانِي، وَشَغَلْتُمْ عَنِ النَّائِي بِالذَّنَائِي ... هَلِ الدُّنْيَا إِلَّا مُنَاخٌ رَاكِبٍ، وَتَعَلَّةٌ ذَاهِبٍ؟ وَهَلِ الْمَالُ إِلَّا عَارِيَةٌ مَرْتَجَعَةٌ، وَوَدِيعَةٌ مُنْتَزَعَةٌ؟ ...»^(١).

نلاحظ مما سبق مدى انتشار الوعظ، حتى نزل إلى ميدان الكسب وتنافس فيه المخادعون، ووقع في شباكهم سدج القوم.

وقد كثر الوعظ في المقامات، وكثر اتخاذها وسيلة للكديبة أو الخداع، حتى أصبحنا نعجب إذا رأينا في مقامة من المقامات وعظاً صادقاً ليس للمقامة غرض آخر سواه، على غير ما عهدناه في جميع المقامات؛ وذلك هو الوعظ الذي نسمعه في المقامة الأهوازية، حيث نفاجاً بجواب الواعظ الذي سأله في آخر وعظه: ما حاجتك؟ فقال عن الدنيا: «... لا حاجة لي فيها، وإنما حاجتي بعد هذا أن تخدوا أكثر من أن تعوا»^(٢)، إنها فلتة من أبي الفتح الإسكندري الواعظ، ولكنها على كل حال ليست غريبة عن المجتمع الذي يصوره أدب الهمداني^(٣)، فقد كان فيه ورع وتقى، وانتشر فيه الزهد والتصوف، يقول آدم متز: «وكانت بغداد والبصرة مختلفتين في أمر التصوف، كما كانتا مختلفتين في مسائل اللغة وعلم الكلام؛ فكانت بغداد أكبر مدرسة للمتصوفين على حين كانت البصرة أكبر مركز للزهاد»^(٤).

أما ابن نباتة فلم يشر إلى هذه النزعة، ولو مجرد إشارة، وثلتمس له العذر، لكونها مقامة واحدة فلو كان قد أدلى بدلوه في هذا الفن بأكثر من مقامة، فلربما صور لنا نزعة أفراد مجتمعه وميلهم نحو الزهد، والوعظ، كبقية المقاميين؛ لأنه عاش حياته

(١) المقامة المطلية، ص ٤٣٩-٤٤١.

(٢) المقامة، ص ٦٩، الوحد: ضرب من السير السريع، انظر: اللسان، مادة: وخذ.

(٣) انظر: مجتمع الهمداني من خلال مقاماته، د. مازن المبارك، ص ٤٥-٤٩.

(٤) الحضارة الإسلامية، ١٦/٢.

استغلال الوعظ في مآرب شخصية :

حيث بين بديع الزمان الهمداني مدى انتشار الوعظ في الأسواق وتخلق الناس حولهم، فقال: «بينا أنا بالبصرة أميس، حتى أداني السير إلى فُرْضَةِ قَدْ كَثُرَ فِيهَا قَوْمٌ عَلَى قَائِمِ يَعْظُهُمْ...»^(١)، كما أنه أعطانا صورة أوضح مما أعطانا التاريخ عن نفاق سوق الوعظ حين ذكر لنا مدى انتشار الوعظ وإقبال العامة عليهم حتى لفت ذلك الإقبال أنظار الدجالين فتطفلوا على الوعظ، واتخذوه حرفة للكسب، ومطية لنيل المآرب؛ إنهم كانوا يتخذون من حث الناس على الزهد فخاً يسلبون من ورائه مايكرهون الناس به من متاع وأموال، وهذا واحد من هؤلاء الماكرين يروي لنا بديع الزمان قصته فيقول: إنه فقير محتاج فكر في أمر معاشه، فلم يجد خيراً من سبيل الوعظ فكان الوعظ مطية للكدية، وهو يقول: «وَنَفَرْتُ مَعَ ذَلِكَ نَفُورِ طَبَعِ الْكَرِيمِ عَن وَجْهِ اللَّقَامِ، وَنَبَوْتُ عَنِ الْمُخْزِيَاتِ نُبُوَ السَّمْعِ الشَّرِيفِ عَن شَنِيعِ الْكَلَامِ وَالْآنَ لَمَّا أَشْفَرَ صُبْحُ الْمَشِيبِ، وَعَلَّتْنِي أَبْهَةُ الْكِبَرِ عَمَدَتْ لِإِصْلَاحِ أَمْرِ الْمَعَادِ بِإِعْدَادِ الزَّادِ، فَلَمْ أَرَ طَرِيقاً أَهْدَى إِلَى الرَّشَادِ مِمَّا أَنَا سَالِكُهُ»^(٢).

وهو يعتقد أنه بوعظه هذا يؤدي أمانة في عنقه، فيقول: «دُفِعْتُ إِلَى مَكَارِهِ نَذَرْتُ أَلَّا أَدَّخَرَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَنَافِعَهَا، وَلَا بَدَّ لِي أَنْ أُخْلَعَ رِبْقَةَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ مِنْ عُنُقِي إِلَى أَعْنَاقِكُمْ، وَأَعْرَضَ دَوَائِي هَذَا فِي أَسْوَاقِكُمْ، فَلِيَشْتَرِ مِنِّي مَنْ لَا يَتَقَرَّرُ مِنْ مَوْقِفِ الْعَبِيدِ، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ»^(٣).

وذلك مخادع آخر يتظاهر بالورع والزهد، ويبطن الخداع والمكر، ويتخذ الوعظ والزهد وتكره الغنى إلى الأغنياء وسيلة للإيقاع بالسدج، ويزعم أنه يعرف موضع مطلبين عظيمين وكنزين ثمينين، فيقبل عليه الناس ويعطونه المال الوفير أملاً في

(١) المقامة الوعظية، ص ١٦٨، وانظر الفصل السابق فيه مبحث يتحدث بتمامه عن الزهد.

(٢) المقامة السجستانيّة، ص ٢٨-٢٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٠.



مايين الفترة التي عاشها البديع، وابن ناquia، وقد وجدنا أن كليهما قد صوراً نزعاً أفراد مجتمعهم إلى ذلك، والله أعلم.

وهذا ابن ناquia يظهر بطل مقاماته مرتدياً ثوب الواعظ بعد أن قام بفعل مشين، فنبش القبور حتى وقع على ضالته، فلما سمع حركة العسس والطواف «رَفَعَ عَقِيرَتَهُ فَذَكَرَ وَخَوَّفَ، وَوَعَّظَ وَاسْتَعْطَفَ، وَوَصَفَ الدُّنْيَا وَزَوَّالَهَا، وَالْقِيَامَةَ وَأَهْوَالَهَا، وَالنَّارَ وَعَذَابَهَا، وَالْجَنَّةَ وَأَكْوَابَهَا»^(١)، فلو لم يكن ذا علم بتأثير الوعظ؛ لما لجأ إليه بعد فعلته مع الموتى ونبشه لقبورهم، فأنقذ نفسه برفع صوته يزهّد في الدنيا، وكأن من رآه يحسبه حضر لتلك القبور، ليذكر نفسه بالمآل الذي ينتهي إليه كل حي، وهي تلك الحفرة التي يوضع فيها وليس معه إلا عمله يؤنسه في وحشته تلك، وابن ناquia وفق حين جعل من بطله يقوم بعملين متناقضين، لترى فظاعة وهول ما قام به، من نبش للقبور، ومن ثم واعظ يذكر، ويخوف، ويعظ، تخرج بعد قراءة المقامة مستعجباً من هذا الذي لم يطبق - ما وعظ به غيره - على نفسه، فيتعظ قبل أن يعظ، ويخاف قبل أن يخوف، فقد نهى الله عن إيذاء المسلم لأخيه المسلم وهو حي، فما بالك وهو ميت، وهو نبشه قبورهم وفي ذلك إيذاء لهم أيما إيذاء، قال تعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا»^(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٣)، وهذا لم يسلم المسلمون الموتى من يده التي نبشت قبورهم.

ولمكانة الوعظ، وتأثيره على الناس في أفراد ذلك المجتمع يصف ابن ناquia، أثر مقاله هذا المحتال على من سمعه، فيقول: «فَسَمِعْتُ بُكَاءَ الْقَوْمِ، وَكَأَنِّي أَرَى ذَلِكَ فِي

(١) المقامة الثانية، من مخطوط المقامات العشر لابن ناquia، ص ٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٨.

(٣) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص - ؓ - كتاب الإيمان، باب من سلم

المسلمون من لسانه ويده، ٩/١. ورواه الترمذي تحت رقم (٢٦٢٧) كتاب الإيمان، وباب

من سلم المسلمون من لسانه ويده، ١٧/٥.



النَّوْمِ، وَقَدْ هَزَّنِي مَقَالُهُ، وَهَالَنِي أَحْتِيَالُهُ»^(١)، لهذا تبعه الراوي، والذي كان يشاهد النقيضين من فعله فقال له : «ياعبدا لله، قد رأيت منك العجب، وأنت بهذا الأدب، فقال: لم يخف علي فضولك منذ الليلة، فما عليك من ذي العيلة، فإنها الغنيمة الباردة، وسيان من عرض مستقفا أو خرج محتفياً، وقد قال صاحب الشرعية: اطلُّبُوا فِي حَبَايَا الْأَرْضِ، فَقُلْتُ: وَيَحْكُ يَعْنِي: فِي اسْتِخْرَاجِ النَّبَاتِ، لِأَنِّي نَبَشِ الْأَمْوَاتِ، فَقَالَ: لَسْتَ بِالتَّأْوِيلِ أَوْلَى مِنِّي، أَنَا الْيَشْكُرِي وَسَمِعْتَ بِهِ»^(٢).

نعم العجب أن يكون ذا علم ومعرفة بأمور الدين، ومع ذلك يستخدمها لأغراضه الدنيوية ويؤولها التأويل الذي يخدم غرضه وهو مدع، مخادع، مصر على أن مافعله لا يضير في شيء بدليل تصريحه بالقول: «إنها الغنيمة الباردة، وسيان من عرض مستقفا أو خرج محتفياً»، وكأنه لم يسمع لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى يغار، وغيره الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه»^(٤).

وهذا الحريري ينحو منحى بديع الزمان فيتخذ من الوعظ، وتزهيد الناس في الدنيا مطية للوصول إلى مأربه، وهذا راويه الحارث بن همام يروي لنا كيف أنه وصل إلى سمرقند، وبعد أن استعد ذهب إلى مسجدها الجامع، واقترب ليسمع الخطبة، فبرز الخطيب في أهفته، وارتقى المنبر، وبعد الأذان، قام، وقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَمْدُوحِ الْأَسْمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ... أَرْسَلَ مُحَمَّدًا لِلْإِسْلَامِ مُمَهَّدًا ... وَصَلَ الْأَرْحَامَ، وَعَلَّمَ الْأَحْكَامَ ... اَعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ عَمَلَ الصَّالِحِينَ، وَاكْدَحُوا بِمَعَادِكُمْ كَدْحَ الْأَصْحَاءِ، وَارْدَعُوا أَهْوَاءَكُمْ رَدْعَ الْأَعْدَاءِ، وَأَعِدُّوا لِلرَّحْلَةِ إِعْدَادَ السُّعْدَاءِ، وَادْرِعُوا حُلَلَ الْوَرَعِ،

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) سورة النور، آية ٦٣ .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة - ؓ -، كتاب النكاح، باب الغيرة، ٤٤/٧ . ورواه مسلم

بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء، باب غيرة الله وتحريم الفواحش، ٧٧/١٧ .



وَدَاوُوا عِلَلِ الطَّمَعِ ... وَادْكُرُوا الْجِمَامَ وَسَكْرَةَ مَضْرَعِهِ، وَالرَّمْسَ وَهَوْلَ مُطْلَعِهِ،
وَاللُّحْدَ وَوَحْدَةَ مُودَعِهِ، وَالْمَلِكَ وَرَوْعَةَ سُؤَالِهِ وَمُطْلَعِهِ ... اللَّهُ اللَّهُ، رِعَاكُمْ اللَّهُ! الْإِمَامَ
مُدَاوِمَةَ اللَّهْوِ، وَمَوَاصِلَةَ السَّهْوِ، وَطُولَ الْإِصْرَارِ، وَتَحَمُّلَ الْآصَارِ، وَأَطْرَاحَ كَلَامِ
الْحُكَمَاءِ، وَمَعَاصَاةَ إِلَهِ السَّمَاءِ! ... أَلَا رَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا مَلِكَ هَوَاهُ، وَأُمَّ مَسَالِكِ هُدَاهُ،
وَأَحْكَمَ طَاعَةَ مَوْلَاهُ، وَكَدَّ وَكُدْحَ لِرُوحِ مَأْوَاهُ، وَعَمِلَ مَا دَامَ الْعُمُرُ مُطَاوِعًا، وَالذَّهْرُ
مُؤَادِعًا وَالصَّحَّةُ كَامِلَةً، وَالسَّلَامَةُ حَاصِلَةً، وَإِلَّا دَهَمَهُ عَدَمُ الْمَرَامِ، وَحَصَرَ الْكَلَامِ،
وَالْمَاءَ الْآلَامِ، وَحُمُومَ الْجِمَامِ، وَهُدُوَ الْحَوَاسِ، وَمَرَّاسَ الْأَزْمَاسِ، ... اَلْهَمُّكُمُ اللَّهُ أَحْمَدَ
الْإِلَهَامِ، وَرَدَّاكُمْ رِدَاءَ الْإِكْرَامِ، وَأَحَلَّكُمْ دَارَ السَّلَامِ، وَأَسْأَلُهُ الرَّحْمَةَ لَكُمْ وَلِأَهْلِ مِلَّةِ
الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَسْمَحُ الْكِرَامِ، وَالْمُسَلِّمُ وَالسَّلَامُ»^(١).

إذن لولا انتشار الوعظ، والتفات الناس إليه، لما اتخذه أهل هذا المجتمع الذي
عاشه الحريري وسيلة للكدية، وللخداع. ومابطل مقامات الحريري إلا صورة من هذا
المجتمع، الذي يصر على إظهاره في صورة واعظ زاهد في الدنيا، وهو خلاف ما يظهر
في أكثر من مقامه^(٢).

و«يلمس الوعظ الديني عند الحريري بوضوح منذ المقامة الأولى، حيث يجعل
أبازيد واعظاً، فقد جعله واعظاً في عشر من مقاماته هي: المقامة الصناعية،
والحلوانية، والسادية، والرازية، والكرجية، والتفليسية، والتنيسية، والحرامية، والبصرية.
ويلحظ أيضاً أن الحريري كان في كثير من مقاماته الأخرى يحض على الهدى،
ويحث على العمل الصالح، ويزري على الدنيا ومن يغرمون بها، ويذكر ثواب الآخرة،
وما ينتظر الناس»^(٣).

النزعة إلى الزهد والوعظ:

فالزَمْخَرِيُّ يَسِيرُ عَلَى نَفْسِ نَحْطَى سَابِقِيهِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَقَامَاتِ فَيَعِظُ

- (١) المقامة (٢٨): السمرقندية، للحريري، ٣/٣٣٠-٣٥٢. شرح الشريشي.
- (٢) انظر المقامة (٤١): التنيسية، للحريري، ٥/٣-٢٦.
- (٣) انظر: ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي جميل مهنا، ص ١٥٧، رسالة دكتوراه.

ويزهد في الدنيا قائلاً: «يأبَا القاسم اترك الدنيا قبل أن تتركك، وافركها قبل أن تفركك»^(١)، ولما أراد لوعظه الوصول إلى الغاية التي من أجلها لجأ إليه، جعل الدنيا تتحدث بلسان حالها قائلاً: «طلّق القائلة بملء فيها: أنا غدارة غرارة، ختالة ختارة وما الفائل رأيه إلا من رآني على الأخرى مختارة. لآتني أيامها ولياليها ينحن من أقطارك، فقصّ فيها أسرع ما تفضي أهم أوطارك، إن أهم أوطارك فيها تزودك منها، فالبدار اليدار قبل إشخاصك عنها... ألا إن النذير بمفاجأة رجلك، يصبح بك في بكرتك وأصيلك، فقل لي أين جهازك المعبأ، وأين زادك المهيأ»^(٢).

كما أنه يعظ ويزهد في مقاماته كلها، ومنها قوله: «يأبَا القاسم العمر قصير، وإلى الله المصير، فما هذا التقصير، إن زبرج الدنيا قد أضلك، وشيطان الشهوة قد استزلك، لو كنت كما تدعي من أهل اللب والحس، لأتيت بما هو أحرى بك وأحسب إلا إن الأحسب بك أن تلوذ بالركن الأقوى، ولازكن أقوى من ركن التقوى»^(٣).

ومن ذلك أيضاً قوله في مقامة أخرى: «يأبَا القاسم بتل إلى الله وحل ذكر الخصر الميتل، ورتل القرآن، وعد عن صفة الشعر المرتل، أدر عينك في وجوه الصلاح الملاح لتعلق أصلحها، لآفي وجوه الملاح لتعشق أصبَحها، وابك على مامضى في غير طاعة الله من شبائك، ودع البكاء على الظاعنين من أحبائك»^(٤).

فلعلك لحظت أن الزمخشري قد وعظ فيما سبق بطرق شتى، ففي المثال الأول، حين أراد التنفير من الدنيا، لجأ إلى ذكر أهم ما توصف به من أنها: غدارة.. غرارة.. ختالة.. ختارة.. وصاحب الرأي الضعيف هو الذي يختارها على الحياة الأخرى ويستكين إلى أيامها ولياليها، بينما الأجدر به أن يأخذ وطره منها؛ وهو

(١) المقامة (٥): الزاد، للزمخشري، ص ٤١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤١-٤٣. ختالة، ختله: خدعه عن غفلة، ختارة، الختر: أشد الغدر، انظر: اللسان، مادة: ختل، ختر.

(٣) المقامة (٢): التقوى، للزمخشري، ص ٣٠-٣١.

(٤) المقامة (١٢): الطاعة، للزمخشري، ص ٧٣، الميتل: الخصر الدقيق كأنه بتل لحمه حتى دق، انظر: اللسان، مادة: بتل.



التزود بالعمل الصالح لليوم الآخر، وأن لا يغيب عن باله أن رحيله عنها قد يكون في أية لحظة، فليكن على أتم استعداد، مزوداً بالزاد الذي ينفعه هناك، يوم لا ينفعه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وفي المثال الثاني سلك طريقاً آخر في وعظه، وذلك بالتركيز على أهم الطرق التي يرتكز عليها في حياته، ألا وهو طريق التقوى؛ لأن أصحاب العقول السليمة الراجحة، لا يركنون إلا له ولا يستندون إلا عليه، متبعدين عن ضلال الدنيا، وشيطان الشهوة، لكونهم يعلمون علم اليقين أن العمر قصير، وإلى الله المصير.

وفي المثال الثالث سار على نهج من يلجأون إلى المقابلة، فيعظ بشيء، ويأتي بضده ليكون التأثير أقوى، والوصول للغاية أقرب، فيقول: تبتل إلى الله، واترك ذكر النساء ذوات الخصر المبتل .

واقراً القرآن بتؤدة وترتيل، وعد عما يسمع من الثغر المفلج .

وركز عينيك في وجوه الصلاح لتصل وتتمسك بأصلحها، وأبعد عن التركيز في وجوه النساء الملاح لكي لاتقع في عشقهن .

ثم يأمر بالبكاء على مافات من عمرك الذي فرطت، وابتعدت فيه عن طاعة الله، ولا تبك على فراق أحبائك .

وهكذا فأسلوب المفارقة الذي لجأ إليه الزمخشري في وعظه وقع موقعه الأمثل، وكذا باقي وعظه الذي أقام عليه مقاماته كلها كما قال في مقدمته، فهو :
(«يعظُ فيها نفسه، وينهاها أن تركزَ إلى دِينِهَا الْأَوَّلِ، يفكرُ فيه وذكرُ له إلا على سبيل التَّندُمِ والتَّحَسُّسِ»^(١)).

وهذا الأسواني يحث على الزهد، وعدم الجري وراء الدنيا وشهواتها فقال:
(«كَلَّا وَاللَّهِ؛ حَتَّى يَهْجَرَ الدُّنْيَا وَيَوَدَّعَهَا، وَيُطَلِّقَ الدَّعَا وَيَدَّعَهَا، وَيَمِيتَ هَوَى النَّفْسِ، وَيُحْيِي لَيْلَتَهُ بِالدَّرْسِ، فَلَا يُتَّقَى عِلْمًا إِلَّا كَشَفَ قِنَاعَ سِرِّهِ، وَهَتَكَ حِجَابَ سِرِّهِ،

(١) مقدمة مقامات الزمخشري، ص ٢٢، ت. يوسف بقاعي.

وَهَيْهَاتِ وَاللَّهِ كَمَالُ الْمَعْرِفَةِ مِنْ لَيْسَتْ لَهُ هَذِهِ الصِّفَةُ، فَإِنَّ الْعُلُومَ بِمَنْزِلَةِ الْأَصَابِعِ لِلْيَدِ وَالْأَعْضَاءِ فِي الْجَسَدِ، وَلَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ هَذَا مَسَلِكٌ وَعَرٌّ، وَمَطْلَبٌ فِيهِ عُسْرٌ، أَجَلَ عَلَيَّ مَنْ اشْتَغَلَ بِحَبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ، وَأَهْمَلَ الْأَسْتَعْدَادَ لِلْمَالِ فَأَمَّا مَنْ صَفَتْ مِرَاةَ قَلْبِهِ، وَتَعَرَّضَ لِنَفَحَاتِ رَبِّهِ فَإِنَّهُ فِيهِ كَقَابِ قَوْسَيْنِ، لَا، بَلْ كَطَرْفَةِ عَيْنٍ»^(١)، فهو على يقين بأن الله يمتحن عبده المؤمن ويختبره، فجعل الدنيا للكافر يتمتع بزخارفها ونعيمها والآخرة للمؤمن، لقوله - ﷺ - : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٢). وقال - عليه السلام - حين سئل: من خير الناس؟ قال: «من طال عمره، وحسن عمله»، قال: فأبي الناس شر؟ قال: «من طال عمره، وساء عمله»^(٣).

وهذا ابن الجوزي الذي كانت مقاماته تدور في معظمها حول الوعظ، وإن تعرض من خلال الوعظ إلى موضوعات كثيرة؛ كقصص الأنبياء.

أما من حيث تصوير العصر ونقده الذي كتبت فيه المقامات فإن مقاماته لم تصور المجتمع الذي كتبت فيه تصويراً واضحاً، إلا من جانب واحد، وهو الجانب الديني، فقد وصف كثيراً من المجالس الوعظية، وما يدور فيها، ونقد كثيراً من أوجه الحياة في عصره، وستناول ذلك كلاً في حينه، أما هنا فسيكون الوعظ هو المتكأ الذي سنركز عليه.

فها هو ذا في مقامته السابعة عشرة، يذكر كيف أنه أراد أن يفرج عن نفسه الهم فلم يجد إلا مجلس الذكر وما يذكر فيه من وعظ وهو مفتاح لتفريج كرابته، وإبعاد همه وإزاحة غمه، فيقول: «تَعَشَّانِي غَمِّ اعْشَانِي، فَشَغَلَنِي وَكَفَّ شَانِي عَنْ شَانِي،

(١) مخطوط المقامة الحصيبة، للأسواني، ص ٧.

(٢) رواه الترمذي، عن أبي هريرة - ﷺ - (٢٣٢٤)، كتاب الزهد، باب (١٦) ٥٦٢/٤، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذي تحت رقم (٢٣٣٠) عن أبي بكر - ﷺ -، كتاب الزهد، باب (٢٢)، ٥٦٦/٤، وقال حديث حسن صحيح.



فَهَرَبْتُ مِنْ مَجْلِسِ الْفِكْرِ إِلَى مَجْلِسِ الذِّكْرِ»^(١)، ثم أخذ يصف كيف أن الناس في مجتمعه، يتزاحمون مثله على حضور تلك المجالس فقال: «فَمَنَعَ الزحامُ مِنْ قُرْبِ المنبرِ، فَلَمَّا تَوَرَّطْتُ تَوَسَّطْتُ المَعْبَرِ، فَإِذَا الكَلَامُ أَحَلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَذَكَى مِنَ العَنبرِ، وَإِذَا المتكلمُ ذُو هَيْئَةٍ وَهَيْبَةٍ، فَصِيحُ اللُّهجةِ، مَلِيحُ الشَّيْبَةِ، فَحَفِظْتُ مِمَّا يَقُولُ، وَقَدْ حَيَّرَ العقولُ: يَا أمراءَ الجَهِلِ فَكُّوا قِيودَكمُ بِالْعِلْمِ تَسَلَّمُوا، وَقَوُّوا أَنْفُسَكمُ الضِّعَافِ بِالتَّقْوَى تَقَوُّوا، وَاحذَرُوا الإغْرَاقَ فِي بَحْرِ المَعاصِي، فَإِنَّ ذُنُوباً مِنَ الذُّنُوبِ يُغْرَقُ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ حَيَاةَ الفَاجِرِ فَضِيحَةُ الدَّهْرِ، لِأَنَّ الدُّنْيَا هَمَّتُهُ، وَاللَّذَّةُ نَهَمَّتُهُ، يَبِيعُ الآجَلَ الآجَلَ، بِالعَاجِلِ الآقِلِ، يَلْبَسُ ثِيَابَ الحَرِّ عَلى جَسَدِ عَبْدٍ، قَدْ أَنْضَاهُ الحَرِصُ وَأَضْنَاهُ الطَّلَبُ»^(٢).

وإلى مثل هذا أشار في مقامة أخرى، حين ذكر أن أحدهم أخرجه الهم، وتعب القلب، فوجد آخر مثله، وأخذنا يجوبان ألف واد وواد، ويطوفان البلاد، لعلهما يقعان على المراد؛ وهو إزالة ماعلق بالفؤاد، إلا أن ذلك لم يتحقق إلا في مجلس ذكر، وعلى يدي واعظ وصفه، ووصف تزاحم الناس على مجلسه قائلاً: «إلى أَنْ دَخَلْنَا بِلْدَةً .. فَوَجَدْنَا مَسْجِداً مِنَ مَسَاجِدِهَا، وَسَأَلْنَا عَنْ عَالِمِهَا وَزَاهِدِهَا، فَقِيلَ لَنَا: عِنْدَنَا مَا تَطْلُبُونَهُ، مَذْكَرٌ قَدْ جَمَعَ الأَمْرَيْنِ، قُلْنَا: أَتُحِبُّونَهُ؟، قَالُوا: نَرَى بِهِ القَمَرَيْنِ، قُلْنَا: صِفُوا لَنَا وَانصِفُوا، قَالُوا: هَذَا أَنحَطَبُ مِنَ سَحْبَانِ، وَأَبْلَغُ مِنْ قُسِّ، بلفظِ أَرَقٍّ مِنَ التَّسِيمِ، فِي معانٍ أَدَقَّ مِنَ الشَّعْرِ، بِعَجَلَةٍ أَسْرَعُ مِنَ البَرَقِ، بِخَاطِرٍ أَجودُ مِنَ الرِّيحِ، بِحَسَنِ أَخْلَبِ مِنَ يوسُفَ، بِخُرُوجِ الكَلَامِ مِنْ فِيهِ خُرُوجَ العُروسِ مِنَ الخُدْرِ... وَيَلِينُ بِوَعظِهِ كُلَّ قَلْبٍ أَقْسَى مِنَ الصَّخْرِ»^(٣).

وأما أثر هذا المجلس على مستمعيه فهو: «تَرَى المتخَلِّفَ يَبْكِي عَلى المَهِجِرِ، بِكاءً أَمَرٌ مِنَ الصَّبْرِ، وَالعاصِي يبالِغُ فِي العَدْرِ عَنِ العَدْرِ، وَقَلْبُ النَّادِمِ أَحْرٌ مِنَ الجُمُرِ،

(١) المقامة (١٧): في المواعظ، لابن الجوزي، ص ١٣٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٣٥-١٣٦، ذنوباً: الأولى بمعنى الدلو، انظر: اللسان، مادة: ذنب.

(٣) في وصف واعظ، لابن الجوزي، ص ٢٧٥-٢٧٦.

فمجلسه عند الفطناء ألد من الغنى بعد الفقر، وأطيب من غناء العود والزمير، قلنا: فمتى مجلسه؟ قالوا: بعد العصر، وجمعه يزدهم قبل الظهر، ففرحنا بالمسابقة إلى المكان، فرح الحاج بمكة، وزحمننا حتى زحمننا، فظننا أننا بيكة»^(١).

وزيادة في وصف هذا الواعظ قال: «فأقبل شيخ سيماه يدل عليه، وهديه يهدي إليه... فارتقى المنبر فهلل وسبحل، وحمدل، ومر في الذكر كأنه يضرب بالمدل، ثم أخذ يفتي في الحرام والمباح والجائز، وقد صاحت فصاحت بالفصحاء: هل من مبارز، قرأته أمة في شخص، وعالماً في فرد.....

فيوجز لكنه لا يخلل * * * ويطنب لكنه لا يمل»^(٢).

وقال في مقامة أخرى مظهراً تأثير مجالس الوعظ في الناس، بعد أن وصف ازدحامها، وبراعة واعظها: «ثم دخلنا المدينة وإذا منادي الجمعة فأجبننا وتأهبننا وقربنا... علا على المنبر عالم ظريف الخلاق، وحف به عالم كثير من الخلائق، فولجنا فج زمرة، وقلنا: نردف الحج عمرة، فأنسنا من الكلام الحسن بعبارة أحلى من الشهيد، في ترفيق ألين من الزبد، بتخويف أفظع من الرعد، فإذا القلوب تتوجع من الوجد، وتبكي بكاءً أمر من الفقد، فعجبنا من أعمال تلك المواعظ، وكمال ذلك الواعظ»^(٣).

وفي مقامة ثانية تحمل العنوان نفسه، شرح لنا ابن الجوزي ما يحدث في مجالس الوعظ بدءاً من الأفراد الذين يبحثون عن تلك المجالس، ومروراً بنص مما يقال فيها، وانتهاءً بأثر الموعظة على مستمعيها قائلاً: «مازلت أعاهد على أن أتعاهد المواعظ، وأسعى بوسعي، حتى أملاً سمعي من كل واعظ، فخلت بلدتنا مع كثرة العالم، من واعظ ومن عالم، فبقيت فيها كالحوت في البر، أو كالضب في البحر، ثم سمعت أن عربياً غريباً قد قدم وجلس، فزاحت مزاحمة من صدم وصدم حتى جلس، فحمدل

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧٦.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) المقامة (٣٩): في الوعظ، لابن الجوزي، ص ٣١١.



وَحَسْبَلِ وَسَبْحَلِ وَهَلَّلِ وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: رَجِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ فَوَعَى»^(١)، وأما بعض مقاله فهو: «يا ابن آدم تفكر في أمرك، تعرّف قصر عمرك، وتلمح انقضاء قصرك، عند انقضاء عصرك، فكأنك بلسانك قد نودي راكب شئونك في أهلِكَ ومصرِكَ وأبرِكَ، وسَطَّ العَلَّ فانبَسَطَت انبساط الغلِّ من شئونك إلى ظفرك، فبأكثر مَرَضِكَ وَيَا قَلَّةَ صَبْرِكَ، ثُمَّ جَاءَ الْمَلِكُ فَرَاغَهَا فانتزَعَهَا مِنْ صَدْرِكَ، ثُمَّ أَلْفَيْتَ دَلِيلًا وَأَلْفَيْتَ فِي قَبْرِكَ، ورميت في قفرك، قد منيت بفقرِكَ، ثُمَّ تَقَوْمُ حَزِينًا يَوْمَ نَشْرِكَ لِحَشْرِكَ، وينصب لك ميزان ربحك وخسرك، وربما امتدت يد الفضيحة إلى هتك ستر سرك، ثُمَّ تَمْشِي قَدَمٌ وَتَأْتِي عَلَى جِسْرِكَ ... أَدْرِكَ وَاسْتَدْرِكَ، ويحك والله مأتساوي اللذات، أن يخاطر المخاطر فيها بالذات، وأي راحة في لُقمات، تكون عند الحسابِ نَقَمَاتٍ مُنْتَقَمَاتٍ، كم وقعت في مهواة شهوات؟ ثُمَّ فَارَقَتْ فَارَقَتْ، وَتَبَعَتْ تَبَعَاتٍ ... وَيَحْكُ إِنَّمَا هُوَ صَبْرٌ سَاعَةٌ عَنِ الْحَرَامِ أَوْ عَلَى الطَّاعَاتِ، فَازَ بِهِ الْمُتَيْقِظُونَ وَفَاتَ أَهْلَ الْغَفَلَاتِ...»^(٢).

أما عن أثر تلك الموعظة فقال " (فارتجز المجلس ثم ارتج) »^(٣).

وفي مقامة أخرى ذكر ابن الجوزي مثلاً آخر عن مجلس من مجالس الوعظ، حيث إن الواعظ لم يكن واعظاً من تلقاء نفسه، فالناس هم الذي استعطفوه وطالبوه، بل إنهم ألحوا على ذلك، فها هو ذا يوضح ذلك قائلاً: «فَلَمَّا أَصْبَحْنَا سَمِعَ بِهِ أَهْلُ الْبَلَدِ، فَاجْتَمَعُوا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَسَأَلُوهُ الْجُلُوسَ، وَجَعَلُوا يَفْدُونَهُ بِالْأَرْوَاحِ وَالنَّفُوسِ، فَقَالَ: قَدْ سَهَرْتُ لَيْلِي فِي وَعْظِ هَذَا الْغَلَامِ، فَقَالُوا: نَقْنَعُ بِيَسِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ، فَتَرَدَّدَ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، أَوْ لَا، فَقَالُوا: أَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ جَادَ عَلَى الْخَدَمِ وَأَوْلَى، وَأَنْشَدُوهُ، بِذِلَّةِ الْعَبِيدِ عِنْدَ الْمَوْلَى :

يَا مَنْ صَفَتْ أَخْلَاقُهُ وَأَحْلَوْلَى * أَنْتَ الْكَرِيمُ لَيْسَ فِيهِ لَوْلَا»^(٤).

(١) المقامة (٤٤): في الوعظ، لابن الجوزي، ص ٣٥٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٥٥-٣٥٦، الغل: الماء الذي يجري تحت الشجر، اللسان، مادة: غل.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٦١.

(٤) المقامة (٤٥): في الأحاجي والمكاتبة والمواعظ، ص ٣٧١.

ومن مواعظه التي قالها لهم : «إخواني البسوا للدنيا جبة الهجر، واسمعوا فيها من واعظ الزجر، واحسبوا يوماً صُمتموه للأجر، وصابروا ليل البلاء فما أسرع إتيان الفجر...»^(١).

ومن الصور الاجتماعية التي أبرزتها المقامات باعتبارها نقداً للمجتمع :

اللهو والمجون :

قدم لنا بديع الزمان الهمداني في مقاماته الجانب الزاهد في المجتمع، ثم حدثنا عن الجانب الآخر، جانب اللهو والمجون، ولم يغفل تصوير الحياة العابثة اللاهية، فأخذنا إلى بعض مجالس القوم، وأطلعنا على ما يدور فيها من أسباب اللهو والمتعة، وولج بنا إلى حاناتهم، ورفع لنا الستار عن اجتماعهم على الخمرة والوتر^(٢)، وكل ذلك كان وصفاً لمجتمعه آنذاك^(٣).

أما الزمخشري فقد ذكر أن هناك من عاش في مجتمعه على اللهو والمجون، وانغمس فيها حتى بلوغه سن الكهولة ولم يرعو، لذا نجده يحضه على ترك ذلك قائلاً: «أصبوةً وحقٌ مثلك أن يصحو، لا أن يصبو، أنزاعاً وقد حان لك أن تنزع لأن تنزع ما أقبح لمثلك الفكاهة والدعابة، وديدن الممزاح التلعابة، ياهذا الجد الجد، فقد بلغت الأشدّ وخلفت ثنية الأربعين، وهز القنير ليداتك أجمعين، أبعد ما عطلت شبيبتك في التغزل والتشبيب، وذهبت بصفوة عمرك في صفة الحب والحبيب، وأضلت حلمك في أودية الهوى، وعكفت همك على أبرق الحمى وسقط اللوى ... تريد - ويحك -

(١) المقامة نفسها، ص ٣٧٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : المقامة الخمرية .

(٣) مجتمع الهمداني، مازن المبارك، ص ٥١ .



أَنْ تُصِرَّ عَلَى مَا فَعَلْتَ وَأَنْ تُشِيعَ النَّارَ الَّتِي أَشْعَلْتَ ... أَنْبَ إِلَى اللَّهِ لَعَلَّ الْإِنَابَةَ تُمَحِّصُ، وَأَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ لَعَلَّ الْفَرْعَ يُخَلِّصُ ..» (١).

فأعطى صورة من صور مجتمعه تمثلت فيمن بلغ الأربعين، وهو مازال في لهوه ومجونه وتشبيبه وتغزله بالنساء، وكثرة المزاح واللعب، فيحثه على ترك ذلك قائلاً: «مَا أَقْبَحَ لِمِثْلِكَ الْفُكَاهَةُ وَالِدُّعَابَةُ وَدَيْدُنُ الْمِمْرَاحِ التَّلْعَابَةُ، يَا هَذَا الْجِدِّ الْجِدِّ».

كما أن الزمخشري رأى بعض الشباب وقد اتخذ لنفسه وسيلة للهو عن طريق التعلق بالنساء الحسان، أو بالأموال أو حب الملاهي التي تؤدي إلى المناهي، لهذا قال يحذر من ذلك: «وَإِيَّاكَ وَالْكَفَّ بِيضَاتِ الْخُدُورِ، وَقَسَمَاتِهِنَّ الْمَشْبَهَةَ بِالْبُذُورِ، وَأَنْ تَعَلَّقَ هِمَّتَكَ بِأَعْلَاقِ الْأَمْوَالِ، وَالِاسْتِثْقَاقِ مِنْهَا بِالْأَبْوَابِ وَالْأَقْفَالِ، وَاسْتَنْظَرَ نَفْسَكَ إِنْ تَقَاضَتْكَ إِيْثَارَ الْمَلَاهِي وَاسْتَمَّهَلَهَا إِنْ طَالَبَتْكَ بِارْتِكَابِ الْمَنَاهِي ...» (٢).

فقد حذر مما حذر منه رسول الله ﷺ - في قوله: «اتقوا الدنيا واتقوا النساء» (٣).

ثم بين حال هذا الإنسان الذي انحرف وراء لهوه، ومجونه وسار وراء شهواته وأهوائه، لو تعرض لمصاب ألم به، فكيف يكون حاله، فقال: «وَالَّذِي بَيْنَ دَفْيِهِ قَلْبٌ هَوَاءٌ قَدْ تَيَاسَرَتْهُ الشَّهَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ. لَا اسْتِبْصَارَ يَزَعُهُ، وَلَا رَوِيَّةَ تَرَدَّعُهُ، لَا يَعْرِفُ الْغَثَاثَةَ وَالسَّمْنَ إِلَّا فِي بَدَنِهِ وَمَاشِيَتِهِ، وَلَا يَفْطَنُ لِلْقَلْبَةِ وَالْكَثْرَةِ إِلَّا فِي ضَبْنَتِهِ وَحَاشِيَتِهِ لَا يَعْجَبُ بِدَيْنِهِ أَغْثٌ هُوَ أَمْ سَمِينٌ، بَلْ هُوَ بِالْغَثَاثَةِ قَمِيمٌ، وَلَا يَكْتَرُتُ بِخَيْرِهِ أَقْلِيلٌ هُوَ أَمْ كَثِيرٌ، بَلْ هُوَ بِالْقَلْبَةِ جَدِيدٌ، وَلَا يَرَى النُّقْصَانَ إِلَّا مَا وَقَعَ فِي مَالِهِ، وَلَا يُبَالِي بِهِ فِي سَيْرِهِ وَأَعْمَالِهِ، قَدْ

(١) المقامة (٧): الإنابة، للزمخشري، ص ٥١-٥٥، ت: يوسف بقاعي. التلعابة: الكثير اللعب.

اللسان، مادة: لعب. لداتك: اللدة: من ولد، قيل: لدة الرجل: لمن وافق ميلاده ميلاده، انظر: اللسان، مادة: لدد.

(٢) المقامة (٩): الاعتبار، للزمخشري، ص ٦٢-٦٣، ت: يوسف بقاعي. ببيضات الخدور: النساء

الحسان البيض. قسماتهن: أعلى الوجنة. أعلاق: العلق: النفيس الذي تعلق به النفس. تقاضتك: طلب الدين. انظر: اللسان، مادة: بيض، قسم، علق، قضى.

(٣) رواه مسلم بشرح النووي عن أبي سعيد الخدري - ﷺ - كتاب الذكر، ١٧/٢٤.



رَانَ عَلَى قَلْبِهِ حُبُّ الدُّنْيَا رَيْنًا، وَزَانَهُ الشَّيْطَانُ فِي عَيْنِهِ زَيْنًا، فَذَاكَ إِنْ نَزَلَ بِهِ بَعْضُ
اللَّأْوَاءِ رُزْيَاءٍ فِيهِ أَيْضًا بِمَثُوبَةِ الْعَزَاءِ وَلَا يَدْرِي أَنَّ الرُّزْءَ بِالثَّوَابِ أَطَمَّ وَإِنْ سَأَلَ بِهِ الْبَحْرُ
الْغَطْمَ»^(١).

إذن فحال هذا الذي انغمس في لهوه ومجونه لو نزلت به بعض الحزن رزيء:
أي أصيب بشدة، رغم أن مصابه قليل، إلا أن حب الدنيا وإنجرافه وراءها؛ جعله يرى
ذلك المصاب كبيراً، ولو أنه صبر لنال الثواب الأكبر، لكن هذا حال هذه الشريحة من
المجتمع في زمن الزمخشري، وفي أي زمان، فمن أحب اللهو والدنيا ران على قلبه.

وها هو ذا الزمخشري يذكر بعده عن اللهو والمجون، بتركه شرب الخمر
فقال: «يَا أَبَا الْقَاسِمِ زَعَمْتَ أَنَّكَ مَا أَلَمْتَ بِمُعَاطَاةِ كَأْسِ الْعُقَارِ لِأَنِّي أَوْقَاتِ الطَّيْشِ،
وَلَا إِذْ لَبِستَ ثَوْبَ الْوَقَارِ، وَإِنَّ حُمَيَّاهَا لَمْ تَطِرْ فِي هَامَتِكَ، وَلَا دَبَّتْ فِي مَقَاصِلِكَ، وَلَمْ
تَقِفْ عَلَى حَقِيقَةِ أَثَرِهَا وَعَمَلِهَا، وَلَا عَرَفْتَ مَا مَعْنَى نَشْوَتِهَا وَثَمَلِهَا، وَأَنَّكَ مِنَ الْمَصُونِينَ
عَمَّا يَدِينُهَا وَيُدْنِي مِنْهَا، وَالْأَمِينِينَ أَنْ تُسْأَلَ يَوْمَ الْعَرْضِ أَعْمَالَكَ عَنْهَا، وَإِنَّ
صَدَرْتَ زَعَمْتَكَ عَنْ مَضْدُوقَةٍ، وَكَانَتْ كَلِمَتُكَ مَحْضَةً غَيْرَ مَمْدُوقَةٍ، فَغَيْبَةُ الْأَخِ الْمُسْلِمِ
مَنْ تَعَاطَى الْكَأْسِ أَحْرَمٌ...»^(٢).

إذن فالزمخشري لا يظهر متعاطياً الخمر، بل إنه ينفي تعاطيه إياها، لافي أيام
الشباب ولا في المشيب، ولذا فهو لا يعرف حقيقة أثرها وعملها المؤدي للثمل والسكر،
الذي يؤدي بدوره إلى فقدان الشخص الشارب لاتزانه، فتصدر منه تصرفات مشينة
تذهب وقاره بعد ذهاب عقله، لكن الزمخشري أراد بهذا النفي أن يصل للتحذير من
الغيبة «فَغَيْبَةُ الْأَخِ الْمُسْلِمِ مَنْ تَعَاطَى الْكَأْسِ أَحْرَمٌ»، كما قال.

(١) المقامة (١٠): التسليم، للزمخشري، ص ٦٦-٦٨ ت: يوسف بقاعي. الغثاة: الضعف والهزال،

ضبنة: عياله، الأواء: المحنة. رُزْيء: أصيب بشدة، أطم: أغلب. الغطم: الكثير الماء. انظر:
اللسان، مادة: غطت، ضبن، لوأ، رزء، غطم.

(٢) المقامة (١١): الصمت، للزمخشري، ص ٦٩-٧١، يوسف بقاعي.



أما في مقامته العشرين فقد بين ماهية هذا اللهو الذي تنغمس فيه النفس بعد أن تطلبه فقال حاثاً لعدم الانصياع لها ((ياأبا القاسم بسأت نفسك بالشهوات فافطمها عن هذا البسوء، ولا تطعها إن النفس لأمارة بالسوء. تطلب منك أن يكون مسكنها داراً قوراء، وسكنها مهاة حوراء، تجر في عرصتها فضول مرطها، وتمس عقوتها بهداب ريطها، وترقرق المسك السحيق في ترابها. إذا لعبت فيها مع أترابها. تطلع إليك من جانب الخدر. كما انجابت السماء عن شقة البدر. وأن تكون سماء رواقها منمقة بالرقم الذريابي، وأرضها منجدة بالبسط والزرابي، وأنت متكئة فيه على الأريكة. مع تركية كالتريكة. وتقرح عليك وصيفاً موصوفاً بالجمال. واصفاً للغزاة والغزال. مقرطاً مخنق الخصر ينفث في عقد السحر... يقبل إليك بخوط البان، ويدبر عنك ببعض الكنبان، وتساءلك أن تلبس ما يدق ويرق من حر الملابس، وما يروق ويفوق من الحلل والنفائس. مستشعراً مالان من الحرير. متدثراً بما راق آمن الجير، مزواحاً في مصيفك ومشتاك بين اللاذ والردن، منتقياً منهما ما هو أخف وأدفاً للبدن. وتخدوك على ركوب أعتق المراكب وأروعها، وأسلسها قياداً وأطوعها، موثي بالآلات المزيئة، مغشي بالحلية الرزينة من الذهب الحمراء، والفضة البيضاء، كأنما يسبح في لجة من اللجين أو تسيح عليه عين من العين، وتدعوك إلى أكل الطيب الناعم من ألوان المطاعم^(١).

(١) العفة، للزخشري، ص ١١٨-١٢٢، ت: يوسف بقاعي، بسأت: اعتادت، داراً قوراء: واسعة، مهاة: بقرة الوحش، حوراء: شدة بياض البياض وشدة سواد السواد في العين، عرصتها: ساحة الدار، مرطها: الثوب الحريري، العقوة: ساحة الدار، هداب: الخيوط التي تبقى في طرفي الثوب، ريطها: ثوبها، ترقرق: تخلط، الذريابي: ماء الذهب، التريكة: بياض النعام، خوط بان: قده، اللاذ: الحرير الأحمر، الردن: الخمر، اللجين: الفضة، العين: الخالص من الذهب. اللسان، مادة: بسأ، قور، مهني، حور، عرص، مرط، عقو، هذب، ريط، رق، ذرب، ترك، بون، لاذ، رذن، لجن، عين.



وبعد أن ذكر كل هذه الألوان مما تلهو به النفس وتشتهيه طلب قائلاً: «وَيَحْكَ لَاتُجْبَهَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ طَلَبْتَهَا، وَأَرْجِعُهَا نَاكِصَةً عَلَى أَحْيَبِ نَحْيَتِهَا»^(١)، فهو يحذر من الانجراف في اللهو، لأنه أمر مطرد بالخسران المبين.

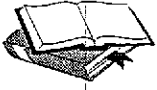
ومن اللهو الذي ذكره الزمخشري، وحذر منه التشبيب والنسيب والتغزل بالنساء قائلاً: «وَكَأَيْنَ لَكَ مِنْ تَشْيِيبٍ وَنَسِيبٍ وَتَخَلُّصٍ إِلَى امْتِدَاحِ دَخِيلٍ أَوْ نَسِيبٍ، وَمِنْ كَلِمَةٍ مُخْزِيَةٍ شَاعِرَةٍ وَقَافِيَةٍ طَنَّانَةٍ نَاعِرَةٍ وَمَطْلَعٍ كَمَا حَدَرَتِ الْحَسَنَاءُ مِنْ لثَامِهَا. وَمَقْطَعٍ كَمَا اسْتَلَدَّتِ الصَّهْبَاءُ بَطِيبِ حَتَامِهَا. أَيَّةُ نَارٍ شَبِيتَ عَلَى كَبْدِكَ إِذْ شَبِيتَ، وَإِلَى أَيِّ عَارٍ نَسَبْتَ نَفْسَكَ حِينَ نَسَبْتَ، ... إِنَّ صَاحِبَ الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ نَصِيبٍ، سُخْقًا لَمَّا يَجْرِي مِنَ الْقَوَافِي عَلَى أَلْسُنِ الْمُتَشِدِّينَ، وَمَرْحَبًا بِالنُّفُوسِ الْقَوَافِي فِي آثَارِ الْمُرْشِدِينَ. مِنْ أَيْنَ يُفَكَّرُ فِي الْاسْتِهْلَالِ وَالْمَطْلَعِ، مَنْ هُوَ مَنُوطُ الْفِكْرِ بِأَهْوَالِ الْمَطْلَعِ. وَكَيْفَ يَفْرُغُ لِلْإِغْرَابِ فِي التَّخْلِصِ إِلَى الْمَدْحِ. مَنْ هُوَ مِنْ طَلَبِ تَخْلِصِ آخِرِ فِي الْكَدِّ وَالْكَدْحِ. لَقَدْ أَضَلَّتْ هِمَّتَكَ فِي وَايِ الشُّعْرِ فَأَصِخْ لِمُنْشِدِهَا وَإِنْ أَنْشَدَتْ نَفَاثَاتِ الشُّعْرَاءِ فَلَاتُصِغِ إِلَى مُنْشِدِهَا. نَادِ أُمَّ الشُّعْرَاءِ يَا حَبَابِثَ، وَعَجِّلْ بَتَاتِهَا بِالثَّلَاثِ»^(٢).

فمن أنواع اللهو الانشغال بنظم الكلام، والتفكير في مطالع القصائد، والتغزل في النساء، وهؤلاء نصحهم الزمخشري بقوله: «نَادِ أُمَّ الشُّعْرَاءِ يَا حَبَابِثَ، وَعَجِّلْ بَتَاتِهَا بِالثَّلَاثِ».

أما الأسواني فقد ذكر اللهو بعد أن بدأ مقامته، بين جماعة يتحدثون عن التمييز بين القديم من العلوم والحديث، فبدأ النحوي مفضلاً النحو على سائر العلوم، ثم من فضل علم اللغة وتبعهما من فضل علم الشعر، ومن ثم صاحب علم العروض

(١) المقامة نفسها، ص ١٢٣.

(٢) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة، للزمخشري، ص ١٨٠-١٨٣، ت: يوسف بقاعي. ناعرة: صاحبة، النفوس القوافي: التوابع، نفاثات: مانفته من فيك من الشعر، بتاتها: قطعها وطلاقها، انظر: اللسان، مادة نعر، قفى، نفث، بت.



والقافية ولحق به من فضل صناعة النثر، إلا أن الأسواني بعد ذلك قال عنها كلها على لسان أحد أفراد تلك الجماعة إن هذا من اللهو: «لَقَدْ طَاشَتْ عَنِ الْغَرَضِ سِهَامُكُمْ وَكَثُرَ فِي الْهَذَرِ كَلَامُكُمْ، وَشَغَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِالزَّهَاتِ، وَضَيَعْتُمْ بِهِرْفِيمَا لَا يَنْفَعُ الْأَوْقَاتِ»^(١).

ففي قوله ترهات^(٢)، أظهر أن الانشغال بهذه العلوم باطل؛ ونوع من اللهو الذي يضيع الوقت فيما لانفع منه، ثم إنه ذكر ماالذي ينفع قائلاً: «أَيْنَ أَنْتُمْ مِنَ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمَسَائِلِ الْخِلَافِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْفِقْهِيَّةِ، وَقِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ، وَرَوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الَّتِي هِيَ قَوَاعِدُ الْإِسْلَامِ وَمَدَارِكُ الْعِلْمِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ...»^(٣).

وهذا الحكم الذي أطلقه الأسواني جائر، صحيح أن العلوم الدينية، كما ذكر، إلا أن العلوم الأخرى السابقة، والتي أطلق على من انشغل بها انشغل بالترهات، فيها من المنفعة التي تعود على الإسلام بالشيء الكثير، فمثلاً علم النحو، من لا يعرفه كيف يستطيع أن يقرأ كتاب الله الكريم والقرآن العظيم قراءة سليمة خالية من اللحن.

غير أنني معه في أن الانشغال بالغناء والموسيقى، هو بل مجنون، وعلم ماأنزل الله به من سلطان، وإن جاء على لسان من فضله من العلوم قائلاً: «أَعْفَلْتِ عَنِ الصَّنَاعَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ، وَبِهَا تَحْدُثُ الْحَرَكَاتُ النَّفْسَانِيَّةُ بِاتِّفَاقِ النَّسَبِ التَّأَلِيفِيَّةِ، وَالْإِيْقَاعَاتِ الصَّوْتِيَّةِ، وَلَوْلَاهَا لَمَا عَلِمْتَ أَسْبَابَ الْأَلْحَانِ الْمَشْجِيَّةِ الْمُبْكِيَّةِ وَالْأَنْعَامِ الْمَطْرَبَةِ الْمَلْهِيَّةِ»^(٤)، فقد صرح هاهنا بأنها «ملهية»، ومع هذا فقد ذكر أن لها قوماً يحرصون على تعلمها، ويشيدون بهذا العلم، بل ويفضلونه على سائر العلوم، وكانهم

(١) مخطوط المقامة الحصيبة، للأسواني، ص ٣.

(٢) تره، ترهأ؛ وقع في الترهات، والتره: الباطل، انظر: اللسان، مادة: تره.

(٣) مخطوط المقامة الحصيبة، للأسواني، ص ٣.

(٤) ص ٤ من المخطوط نفسه.



لم يسمعوا قول رسول الله - ﷺ - : «إن الله تعالى حرم على أمتي الخمر والميسر والكوبة والغبراء، وكل مسكر حرام»^(١).

أما ابن الجوزي، فقد أشار إلى اللهو المتمثل في الغناء والمعازف، لكنه وضح أنه بعيد عن هذه الملاهي، مشغول عنها بما هو أفضل منها قائلًا: «فقلتُ: ماتقولُ في سماعِ الأغاني، فقال: شُغِلْتُ عَنْهَا بِإيقاعِ المعاني»^(٢)، إذن فقد وجه إليه السؤال لمعرفة رأيه في هذا النوع من اللهو، فأجاب بما ينفي عدم تعلقه به، بل هو مشغول عنه بالتأمل في المعاني.

وفي مقامة أخرى أكد على عدم تعلقه بالغناء وما يصاحبه من موسيقى صادرة عن العود والزمير فقال: «فمجلسه عند الفطناء ألدُّ من الغنى بعد الفقر، وأطيب من غناء العود والزمير»^(٣)، ولعل هذين المثليين يؤكدان موقف ابن الجوزي من اللهو الذي اجتاح مجتمعه، المتمثل في الغناء وآلات الطرب، فهو لا يركن إلى الملاهي؛ لأنها تلهيه عن مجالس الذكر، بل إن تلك المجالس لديه ألد من الغني بعد الفقر، وأطيب من الغناء المصاحب بالعود والزمير.

ومن أنواع اللهو التي ألمح إليها ابن الجوزي وأسرف فيها أفراد مجتمعه «شرب الخمر»، ولكنه يحذر وينفر منه، فما هو ذا يوضح الفرق بين ما اشتهر به زاهد في الدنيا، وبين متكالب عليها، منغمس في شهواته، لاه عن الآخرة، عاكف على شرب

(١) صحيح أخرجه أحمد في مسنده ١٧١/٢ عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - وأبو داود

تحت رقم (٣٦٨٥) في كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، ٣/٣٢٨-٣٢٩.

فالكوبة: الطبل الصغير، وقيل هو البربط، وعلى كل حال فهو آلة من آلات الطرب، وقيل هي شراب يتخذ من الحبشة من الذرة، وكونها آلة من آلات الطرب، كالعود والطنبور أقرب، ووجهة دلالة الحديث على تحريم الغناء هي: أن الغناء هو وحرام، ولو لم يكن حراماً كيف تحرم آله؟.

انظر: الإعلام بأن العزف والغناء حرام، أبوبكر الجزائري، ص ٣٩.

(٢) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز لابن الجوزي، ص ٩٢.

(٣) المقامة (٣٥): في وصف واعظ لابن الجوزي، ص ٢٧٦.



الخمير فيقول: «كَمْ بَيْنَ مَعْرُوفٍ وَأَبِي نُؤاسٍ، هَذَا كَأْسٌ بِالزَّهْدِ، وَذَلِكَ شَأْنُهُ الْكَاسُ، ثُمَّ مَا لِمَنْ تَقَرَّقَفَ وَالْقَرَّقَفُ؟»^(١)، والبون شاسع، فالأول زاهد في الدنيا تفرقف، وأصابه البرد، وآلمه حتى اصطدمت ثناياه بعضها ببعض، والثاني يعب من الخمير، وكأس القرقف: الخمير لاتفارقه، فشتان بين الاثنين، وقد صرح أيضاً بموقفه من الخمير حين قال: «فقلتُ: لعلك ممن هوأه في السكر. فقال: أعودُ بالإلهِ مِنْ كَلِمَةِ النَّكْرِ، إِنَّ الشُّمُولَ تَبَدَّدَ شَمَلَ الدِّينِ، وَلَيْسَتْ مِنْ شَأْنِ الْفُطْنَاءِ وَلَا الْمُهْتَدِينَ»^(٢).

إذن فابن الجوزي يعلم يقيناً أن الشمول: الخمير، تبدد شمل الدين، ومن لديه فطنة، ويهتدي بهدى الإسلام، يعرف - كما عرف ابن الجوزي - أن الخمير حرام.

أما الحكمة في تحريم الخمير فقد بينها ابن الجوزي في مقامة أخرى قائلاً: «مَا الْحِكْمَةُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ؟ فَقَالَ: إِنَّهَا تَمِيتُ الْعَقْلَ، وَتَحْيِي النَّفْسَ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ»^(٣)، وقد ذكر ذلك أبو بكر الجزائري فقال: «الحكمة من تحريم الخمير المحافظة على سلامة دين المسلم وعقله وبدنه وماله»^(٤).

ومن الصور الاجتماعية أيضاً :-

عقلية العامة :

أما عقلية القوم من القرن الرابع الهجري إلى السادس الهجري، فقد حدثنا عنها التاريخ بما يرفع رأس أمتهم فخراً واعتزازاً؛ فقد كانت عقلية جبارة نشيطة مبدعة خاضت كل علم، وألفت في كل فن، واستوعبت ماورد إليها من قرائح العقليات الغربية عنها كالفارسية واليونانية والهندية ... وحسبنا أن نتذكر أعلام الفكر

(١) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمداراة، ص ١٨٤، تفرقف: أصابه البرد، القرقف: الخمير، اللسان، مادة: قرف.

(٢) المقامة نفسها وكذا الصفحة.

(٣) المقامة (٢٩): في ذم إبليس، لابن الجوزي، ص ٢٣٢.

(٤) منهاج المسلم، ص ٦٦٥ .



الإسلامي في تلك الحقبة لنعلم مدى ماوصلت إليه تلك العقلية من نضج ورقي. ولكن هل القوم كلهم علماء؟ وهل القوم كلهم ذوو عقليات راقية تسير الأغوار؟ لا بد من ترك العلماء جانباً للبحث عن الصفات العقلية للسواد الأعظم من الناس، والتي منها:^(١)

إيمانهم بالحرز:

لعل من أبرز خصائص «عقلية العامة» سرعة التصديق العجيبة لكل مايقال لهم، ولعل لنا في المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمداني مثلاً يبين ماكانت عليه العامة من سرعة الإيمان وسلامة الطوية، ومن أسرع إيماناً وأسلم طويةً ممن يعتقد أن حرزاً ينجي من الغرق؟ وليته كان حرزاً متصلاً بأسباب الدين، أو كان آيات من القرآن الكريم، إذن لكان للقوم عذرهم لما يوحى به الإيمان بالدين من الاطمئنان، ومايلقيه في النفس من السكينة، ولكنه حرز مصون بالديباج والعاج، يتلقاه القوم مؤمنين، قبل أن يعلموا حقيقة مايجتويه^(١).

وهذا عيسى بن هشام يروي كيف يحتال أبوالفتح الإسكندري على راكبي الفلك حيث تشتد الأمواج، وتهطل الأمطار، ويفزع الناس إلا أباالفتح الإسكندري، فيسألونه: «مالذي أمنتك من العطب؟ فيقول: حرزٌ لا يغرق صاحبه، ولو شئت أن أمتح كلاً منكم حرزاً لفعلت، فكل رغب إليه، وألح في المسألة عليه، فقال: لئن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن، ويعدني ديناراً إذا سلم، قال عيسى بن هشام: فنقدناه ماطلب، وواعدناه ماخطب، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج، فيها حقة عاج، قد صمّن صدرها رقاعاً، وحذف كل واحد منا بواحدة منها، فلمّا سلمت السفينة وأحلّتنا المدينة، اقتضى الناس ماواعدوه، فنقدوه»^(٢).

يقول د.مازن المبارك: «والطريف أن يستمر خداعه وأن ينقدوه ماواعدوه بعد سلامتهم من الغرق»^(٣).

(١) انظر: مجتمع الهمداني من خلال مقاماته، د. مازن المبارك، ص ٥٤-٥٥ بتصرف.

(٢) المقامة (٢٣): الحرزية، لبديع الزمان الهمداني، ص ١٤٦-١٤٨.



ولقد صور الحريري أيضاً إيمان الناس بالحرز في حل كثير من المشكلات في مجتمعه آنذاك، وذكر موقفين تحايل فيهما السروجي عن طريق الأحرار في المقامة العمانية، فعندما ركبوا السفينة أخبرهم أن معه عوذة مأخوذة عن الأنبياء ((صَاحَ صَيِّحَةَ الْمَبَاهِي وَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هِيَ! هِيَ وَاللَّهِ حِرْزُ السَّفَرِ، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فِي الْبَحْرِ، وَالْجَنَّةُ مِنَ الْغَمِّ، إِذَا جَاشَ مَوْجُ الْيَمِّ، وَبِهَا اسْتَعَصَمَ نُوْحٌ مِنَ الطُّوفَانِ، وَنَجَّى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْحَيَّوَانِ؛ عَلَى مَا صَدَعَتْ بِهِ آيَةُ الْقُرْآنِ، ثُمَّ قَرَأَ بَعْدَ أُسَاطِيرِ تَلَاهَا، وَزَخَارِفِ جِلَّالِهَا، وَقَالَ: ارْكَبُوا فِيهَا بِنِسْمِ اللَّهِ بِحِرَايَا وَمُرْسَاهَا، ثُمَّ تَنَفَّسَ تَنَفُّسَ الْمُعْزَمِينَ، أَوْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُكْرَمِينَ، وَقَالَ: أَمَا أَنَا فَقَدْ قَمْتُ فِيكُمْ مَقَامَ الْمُبَلِّغِينَ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ نَصْحَ الْمُبَلِّغِينَ، وَسَلَكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الرَّاشِدِينَ، فَاشْهَدِ اللَّهُمَّ وَأَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ))^(١).

فأبو زيد هنا اقنعهم بفائدة ما معه من حرز من باب أن الله سيأخذه إذا لم يخبرهم بما يعلمه، لأنه روى في الأخبار المنقولة عن الأبحار، أن الله تعالى ما أخذ على الجهال أن يتعلموا، حتى أخذ على العلماء أن يعلموا، وإن كان قد ذكر أساطير وأباطيل إلا أن تلك الآية التي ذكرها وردت في حديث رسول الله ﷺ، حين قال: ((أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٢)، و﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣))).^(٤)

أما الموقف الثاني فعندما نزلوا الجزيرة، ودخلوا قصرًا مشيداً يملكه قطب هذه البقعة، عرفوا أن زوجته متعسرة في الوضع والناس يجهشون بالبكاء، فقال أبو زيد بعد

(٣) مجتمع الهمداني، د. مازن المبارك، ص ٥٦ .

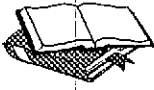
(١) المقامة (٣٩): العمانية، للحريري، ٢٩٣/٤ شرح الشريشي.

(٢) سورة الأنعام، آية ٩١ .

(٣) سورة هود، آية ٤١ .

(٤) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب الفتن، باب قوله - ﷺ - سألت ربي ثلاثاً فأعطاني

اثنتين...، ١٤/١٨ . وأحمد في مسنده، ١/١٧٥، ١٨٢ .



أن علم أنه الكمد لخلو صاحب القصر من الولد: «اسكنْ ياهذاً واستبشرْ، وأبشِرْ بالفرجِ وبشِرْ؛ فعندي عزيمةُ الطَّلْقِ، التي انتشرَ سَمْعُهَا فِي الخَلْقِ» (١).

والغريب أن يصدق ذلك من صورهِ الحريري من عليّة القوم - صاحب القصر - بعد رؤيته لما طلب وما فعل؛ فقد طلب قلماً مبرياً وحجراً بحرياً وزعفراناً مخلوطاً، فكتب على الزبد (الحجر) بالزعفران:

«أَيُّهَا الجَينُ إِنِّي نَصِيحٌ * * * لَكَ، والنَّصِيحُ مِنْ شُرُوطِ الدِّينِ
أَنْتَ مُسْتَعْصِمٌ بِرَكْنٍ كَنِينِ * * * وَقَرَّارٌ مِنَ السُّكُونِ مَكِينِ

.....

فَمَتَى بَرَزْتَ مِنْهُ تَحْوِيلٌ
ت إِلَى مَنْزِلِ الأَذَى وَالهُونِ

.....

فَاسْتَدِمَّ عَيْشَكَ الرَّغِيدَ وَحَادِرِ * * * أَنْ تَبِيَعَ المَحْقُوقَ بِالمُظَنُّونِ

... ثم إنه طمس المكتوب على غفلة، وتفل عليه مائة تفلة، وشد الزبد في خرقة حرير، بعدما ضمخها بعبير، وأمر بتعليقها على فخذ الماخض، وألا تعلق بها يد حائض» (٢).

وقد آمن الناس بفائدة الحرز، وخاصةً بعد أن وضعت مولودها «فَامْتَلَأَ القَصْرُ حَبُوراً، وَاسْتَطِيرَ عَمِيدُهُ وَعَبِيدُهُ سُوراً، وَأَحَاطَتِ الجَمَاعَةُ بِأَبِي زَيْدٍ تُثْنِي عَلَيْهِ، وَتُقَبِّلُ يَدَيْهِ، وَتَتَبَرَّكُ بِمَسَاسِ طِمْرِيهِ» (٣)، إنه لجهل ما بعده جهل، فكيف يؤمنون بأن ذلك الكلام المكتوب على الحجر بالزعفران والمطموس عليه، ثم يرونه يتفل عليه مائة تفلة ويعلق ذلك الحجر بخرقة الحرير في فخذها، ويصدقون أن ذلك هو الذي سهل عليها

(١) المقامة نفسها، ٣٠٣/٤.

(٢) المقامة نفسها، ٣٠٧/٤-٣٠٩.

(٣) المقامة نفسها، ٣٠٩/٤.



الولادة. وماذا لو علموا أن المكتوب آيات من الشعر ينصح الجنين بأن يظل في بطن أمه؛ لأنه آمن له من خروجه إلى الدنيا منزل الأذى والهون؟!!

إيمانهم بالعين :

وأما ابن الجوزي ، فقد أورد صورة موجودة في عصره؛ وهي الإيمان بالعين، كما تمثلها في مقامته المسماة: «(في ذم أبناء الدنيا)»، حيث جاء على لسانه يطلب من أبي التقويم أن ينزل من فوق المنبر بعد أن قال خطبة أبكت مستمعيه: «أَيُّهَا الْوَصَّافُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ أَنْزُلْ وَأَقْطَعْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَيْنَ، وَالْعَيْنُ تَقْلَعُ. فَنَزَلَ فَهَرَوَلَ»^(١).

فأبو التقويم يؤمن بالعين، وإلا لما امتثل ونزل مهرولاً والإيمان بالعين حق، فقد ورد عن رسول الله - ﷺ - قوله: «(العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين)»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَلَوْ لَدِ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَدَ قُوَّةٌ إِلَّ بِاللَّهِ﴾^(٣). وقال أبو سعيد - رضى الله عنه - : «(كان رسول الله - ﷺ - يتعوذ من الجن، وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذهما، وترك ماسواهما)»^(٤).

إيمانهم بالشعوذة:

وأما ابن نايقا فقد صور إيمان الناس بالشعوذة في مقامته الثامنة، ولجوءه إلى تلك الحيلة ليحصل على المال، فأوهم الناس أن بسلامه مساً من الجن وهو سيخرجه، فأخذ يتكلم «(وهرد بالاسم الأعظم، وقد راع الغلام ماسم، وسحل من انتضابه حتى ارعدت خصايه، ولانت مفاصله، فغمزه على أكحله فصرعته، وكاد يفيق فمنعه، ثم

(١) المقامة: ٤٩، ص ٤٠٩.

(٢) رواه مسلم برقم (٢١٨٨) في الطب، باب الطب والمرض والرقي، ٤/١٧١٩.

(٣) سورة الكهف، آية ٣٩.

(٤) رواه الترمذي (٢٠٥٩) في الطب، باب الرقية بالمعوذتين، وقال: حديث حسن، ٤/٣٩٣.

ورواه النسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من عين الجن، ٨/٢٧١. وابن ماجه تحت

رقم (٣٥١١) في الطب، باب من استرقى من العين، وإسناده صحيح، ٢/١١٦٠.

صَفَّرَ ... وجعل يسايلُ ويستنطقُ ويخترعُ الباطلَ ويحتلقُ، وَقَدْ أَجْهَشَ جَمَاعَةَ الْأَقْوَامِ، وَسَارَ بِالْغَلَامِ، فَقَالَ: مَا تَخْرُجُ الْمَلْعُونَةُ إِلَّا بِعَشْرَةٍ مُوزَوْنَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَعْطَاهُ، وَهُوَ يَقُولُ: بَقِيَ مِنَ الْمَبْلُغِ كَذَا، وَبَقِيَ كَذَا حَتَّى اجْتَذَبَ أضعافَ مَا طَلَبَ، ثُمَّ قَالَ: السَّاعَةَ السَّاعَةَ ... أَخْرَجَ لِأَمْنِ عَيْنِهِ، وَلِأَمْنِ أُذُنِهِ، وَلِأَمْنِ أَنْفِهِ، وَلِأَمْنِ فَمِهِ، بَلْ مِنْ دُبْرِهِ أَوْ ظَفْرِهِ، وَمَسَحَ جَبْهَةَ الْغَلَامِ وَقَدْ انْتَهَى شَرُّهُ، فَقَامَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ»^(١).

هل رأيت أغرب من ذلك، يوهم الناس بأنه يخرج جنأً سكن الغلام، والأغرب أنه يأمره بأن يخرج، ويحدد له من أين يخرج .. لامن عينه ولامن أذنه ولامن أنفه، ولامن فمه بل من دبره أو ظفره، والناس مجتمعة حوله تصدقه، بل وتعطيه المال فوق ما طلب، لإيمانها بصدق ماترى.

صحيح نحن نؤمن بوجود الجن، ونتعوذ منهم؛ لأن الرسول - ﷺ - «كان يتعوذ من الجن، وعين الإنسان، حتى نزلت الموعذتان فلما نزلتا أخذهما، وترك ماسواهما»^(٢) يتعوذ بهما الإنسان لطرد الشيطان، إلا أن الطريقة التي سلكها الإشكري بطل مقامات ابن ناقياً هو مانعترض عليه؛ لقيامها على الشعوذة.

إيمانهم بشياطين الشعر :

فبديع الزمان الهمداني يحدثنا عن إيمان بعض الناس بشياطين الشعر، والمقصود بهم: الذين يوحون إلى الشعراء بأشعارهم، وهي أسطورة جاهلية، ولا زالت عالقة في أذهان بعض أفراد المجتمع الذي عاشه الهمداني، لذا صور لنا ذلك في مقامته الابليسية^(٣)، فيروي عيسى بن هشام أن شيخاً رآه في وادٍ حين كان يبحث عن ابل ضالة له، فادعى الشيخ أن قصيدة جرير من شعره والتي منها :

(١) المقامات العشر لابن ناقياً، ص ١٩ (مخطوط).

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٩ .

(٣) لعل الهمداني تأثر في مقامته هذه برسالة التوابع والزوابع.



« بَانَ الْخَلِيْطُ وَلَوْ طَوَّعْتُ مَا بَانَ * * وَقَطَّعُوا مِنْ جِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا »^(١)

وتجري بينهما محاوره يتهم ابن هشام فيها الشيخ - الذي قال إن اسمه أبو ممره - بالانتحال، وقال له: ((يا شيخ هذه القصيدة لجرير قد حفظها الصبيان، وعرفها النسوان))^(٢).

فكشف أبو ممره عن شخصه وقال: ((كُنْتُ أَكْتُمُكَ حَدِيثِي، وَأَعِيشُ مَعَكَ فِي رَحَاءِ لَكْنِكَ أَيْتَ فَخَذِرِ الْآنَ. فَمَا أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ إِلَّا وَمَعَهُ مُعِينٌ مِنَّا، وَأَنَا أَمَلَيْتُ عَلَى جَرِيرٍ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ، وَأَنَا الشَّيْخُ أَبُو مَرَّةٍ))^(٣).

وقد تعجب ابن هشام من أبي الفتح الإسكندري وقال له: «يا أبا الفتح شحذت على إبليس؟ إنك لشحاذ»^(٤).

إيمانهم بالتطير أو زجر الطير:

وزجر الطير: التيامن بها، والتشاؤم، وكان العرب يؤمنون بذلك، فينظر الزاجر منهم للطائر، ولما يفعل، فيستقر من ذلك ما يتيامن به ويتشاءم منه، ومثال ذلك: «أن الرجل في الجاهلية إذا أراد الحاجة أتى الطائر في وكره فنفره، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته، وإن أخذ ذات الشمال رجع» وهذا تفسير الشافعي، لقول النبي - ﷺ - : «أقروا الطير على مكاناتها»^(٥) : أي لاتزجروها وأقروها على موضعها التي جعلها الله بها.

(١) المقامة (٣٥)، ص ٢٦٤.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٧١.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٧٦.

(٥) رواه أبو داود في كتاب الأضاحي، باب (٢) ٩٥/٤. ورواه أحمد في مسنده، ٦/٣٨١.



والحريري ذكر ذلك في مقامته؛ ليدلل على إيمان أفراد مجتمعه بذلك فقال على لسان راويه الحارث بن همام وهو يبحث عن أبي زيد السروجي: «فَلَمَّا تَطَوَّحْتُ إِلَى مَرَوْ، وَآغَرَوْ، بَشَّرَنِي بِمَلَقَاهُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالْفَأَلُ الَّذِي هُوَ بَرِيدُ الْخَيْرِ»^(١).

وزجر الطير، أو الطيرة نهي عنه رسول الله - ﷺ - فقال: «وَلَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ، وَأَصْدَقُهَا الْفَأَلُ، قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ يَسْمَعُهَا الرَّجُلُ»^(٢).

إذن فالرسول يكره الطيرة، ويعجبه الفأل الحسن، حتى في الأسماء، ومن ذلك أنه لما قدم المدينة في سفر الهجرة لقيهم رجل فقال: ما اسمك؟ قال: بريدة، فقال - ﷺ -: «بَرْدٌ أَمْرُنَا»^(٣).

ومن الصور الاجتماعية أيضاً :-

التكدي بطرق منها :

التعامي أو ادعاء عاهة:

وهي حيلة كان يكثر الساسانيون من استخدامها في إكدهم، ضمن تظاهر كثير بالمرض، فمنهم من يمثل دور المصاب المتبلى فيضمده ساقه، أو يشد يده إلى عنقه، أو يعصب رأسه، أو يعمد إلى الارتجاف كلما شعر بدنو أحد المارة منه، ومنهم من يتظاهر بالعمى كما ظهر أبو الفتح الإسكندري مدعي العمى في المقامة المكفوفية عند بديع الزمان الهمذاني؛ إذ روى عيسى بن هشام أنه بينما كان يجتاز بعض بلاد الأهواز أدى به السير إلى رقعة فسيحة من البلد، وجد فيها الناس ملتفين حول رجل ظن أنه أعمى في أول الأمر، لكنه سرعان ما عرف الدينار من لمسه مما يجعل ابن هشام يشك

(١) المقامة (٣٨): المروية، للحريري، ٢٥٦/٤. شرح الشريشي.

(٢) رواه البخاري في كتاب الطب، باب الفأل، ١٨١/١٠ و ٢٠٦. ورواه مسلم بنحوه برقم

(٢٢٢٤) من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك - رضي الله عنهما - في كتاب السلام باب

الطيرة والفأل: ٢١٨-٢١٩.

(٣) رواه البيهقي من حديث بريدة بن الحصيب - رضى الله عنه - في مجمع الزوائد، ٥٥/٦.



في أمره ويقول: «وتبعته، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَتَّعًا لِسُرْعَةِ مَاعَرَفِ الدِّينَارِ... أَفْتَحَ عَن تَوَامِي لَوْنٍ»^(١).

إن مافعله الإسكندري يدخل تحت نطاق الكذب؛ فقد أظهر نفسه خلاف ماهو عليه في الواقع، فهو واقع في دائرة الكذب، بعيد عن الصدق الذي كان يقصده لاما يحاول أن يوهم الناس به في إطار الصدق، لأن النبي - ﷺ - قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٢).

وقبلها قال الله تعالى يمدح صفة الصدق، ويقرر أنها صفة الأخيار من عباد الله الصالحين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٣)، وقال يمدح المؤمنين: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالْمُسْتَعْفِرِينَ بِالسَّحَابِ﴾^(٤).

ولما كان ادعاؤه للعمى يدخل تحت نطاق الكذب فهو بالتالي منافق؛ لقوله - ﷺ -: «أربع من كن فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٥).

(١) المقامة (١٦)، ص ٩٣.

(٢) رواه البخاري، عن ابن مسعود - ﷺ -، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن الكذب، ٣٠/٨.

ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب (٢٩) ٢٠١٣/٤. ورواه الترمذي

(١٩٧١)، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الصدق والكذب، ٣٤٧/٤.

(٣) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٧.

(٥) رواه الترمذي تحت رقم (٢٦٣٢) عن عبد الله بن عمر - ﷺ -، كتاب الإيمان، باب ماجاء

في علامة المنافق، ١٩/٥-٢٠. وقال حديث حسن صحيح.



وهذا ابن ناقياً يعمد بطل مقاماته إلى الحيلة نفسها، فيدعي العمى في مقامته الرابعة، ويطرق الباب ويسأل أهل الدار النوال، فلا يجيبونه فيلح في السؤال ذاكراً عاهته فيقول: «أعينوا السائل المبتلى، والزمن الأعمى ولو يتفرق الثمرة، ثم غصته العبرة...»^(١)، وحين خرج إليه صاحب الدار؛ ليعرف هذا الملحاح فإذا هو اليشكري وقال له: «قبحك الله تزعم أنك أعمى مبتلى، وأنت صحيح البدن من المرض، سليم البصر من الضر، فقال: حسبك بعمى جناني، وبلوى عجاني، فأضحكني قوله، ورجعت عن مكروهه، واشتدعت له شيئاً من الطعام، فتناوله من العلام، وإذا هو مستبطن سلاقاً كبطن الميتم أو كحشا المرزم، فأودعه ما دفع إليه وولى...»^(٢).

وادعاؤه العمى كذباً يشكك في صحة إيمانه لقوله - ﷺ - حين سئل: «أ يكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أ يكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل أ يكون كذاباً؟ قال: لا»^(٣). وقوله عليه السلام: «دع ما يريك إلى ما لا يريك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»^(٤).

وإلى الحيلة نفسها لجأ بطل مقامات الحريري، فتظاهر بالعمى وغطى عينيه، تقوده زوجته في المقامة البرقعيدية وحكى ذلك الحارث بن همام حين قال: «أزمتُ الشخصَ من برقعيد، وقد شمتُ برقَ عيد... اتبعتُ السنةَ في لبسِ الحديدِ، وبرزتُ مع مَنْ برزَ للتَّعيدِ، وحينَ التأمَ جمعُ المصلِّينَ وانتظَمَ، وأخذَ الرَّحامُ بالكظْمِ، طَلَعَ شَيْخٌ

(١) المقامة الرابعة من مخطوط المقامات العشر، لابن ناقياً، ص ٩، تفروق الثمرة: قمعها، انظر: اللسان، مادة: فرق.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٠، الزمن: المبتلى، العجان: بلغة أهل اليمن: العنق، اللسان، مادة زمن، عجن.

(٣) رواه مالك في الموطأ عن مالك عن صفوان بن سليم - ﷺ - تحت رقم (١٩)، كتاب الكلام، باب ماجاء في الصدق والكذب، ٩٩٠/٢.

(٤) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب تفسير المشبهات، ٧٠/٣. ورواه الترمذي برقم (٢٥١٨)، عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - كتاب صفة القيامة، باب (٦٠)، ٦٦٨/٤ وقال حديث صحيح.



في شملتين، محجوب المقلتين، وقد اعتضد شبه المخللة، واستقاد لعجوز كالسعلة، فوقف وقفة متهافت، وحياً تحية خافت، ولما فرغ من دعائه، أجال خمسه في وعائه، فأبرز منه رقاعاً قد كتبت بألوان الصباغ، في أوان الفراغ، فناوهن عجوزه الحيزبون، وأمرها بأن تنوسم الزبون...»^(١).

فهذا لجأ إلى حيلتين؛ ادعاء العمى، وتوزيع رقاع كتب فيها عن وجود عيال له، مما اضطره إلى اللجوء لسؤال الناس، فقال:

«فليت الدهر لما جا ** رَ أطفالي أطفالي
فلولا أن أشبالي ** أغلالي وأغلالي
لما جهزت أمالي ** إلى آل ولا والي»^(٢)

فهو يتمنى - لما ظلم الدهر أولاده، وجار عليهم - الموت؛ ليتخلص مما به، وأراد بالأغلال أولاده؛ لأنهم قيوده فلايسرح بسبيهم، وأراد بالأغلال أنهم قد تعلقوا به يطلبون ماعنده.

ولعلك لحظت أنه يتمنى الموت، وهذا مكروه شرعاً؛ لقوله - ﷺ - :
«لايتمن أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعيب»^(٣).

(١) المقامة (٧)، ٢٧٢/١، شرح الشريشي. الشخوص: الخروج، برقعيد: بلد بينه وبين الموصل

عشرون فرسخاً. انظر: معجم البلدان، الحموي، ٤٧٧/١، برق عيد: مقدماته، الكظم: تضيق النفس من شدة الزحام، اعتضد: علقها في عضده، السعلة: أنثى الغول، الحيزبون: المسنة القوية الخلق، انظر: اللسان، مادة: شخص، كظم، عضد، سعل، حزب.

(٢) المقامة نفسها، ٢٧٥/١، شرح الشريشي، جار: مال عن الحق، أطفأ: أمات، أطفالي: أولادي،

ومثله أشبالي، آل: قريب، وآل: أهل، أويكون أميراً وسائساً، انظر: اللسان، مادة: جار، طفا، آل.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة - ﷺ - باب ما يكره من التمني، ١٠٤/٩. ورواه أبو داود

(٣١٠٩) عن أنس، كتاب الجنائز، باب لا يتمن أحدكم الموت، ١٨٨/٣.



هذا مادعاؤه في المقامة السابقة من تعام، وفي مقامة أخرى تظاهر بأنه مصاب بالشلل وذلك في المقامة التفليسية وادعى ما يدعيه في معظم مقاماته بأن وراءه صبية يكون من الجوع، بعد أن كان يعيش في بُجوحة من العيش انقلب حاله، وإلا ما لجأ إلى السؤال، فقال موضحاً ذلك: «حكى الحارث بن همام ... اتَّفَقَ حِينَ دَخَلْتُ تَفْلَيْسَ ... بَرَزَ شَيْخُ بَادِي اللَّقْوَةِ، بِأَبِي الكُسْوَةِ والقُوَّةِ، فَقَالَ: ... وَلَقَدْ كُنْتُ وَاللَّهِ مِمَّنْ مَلَكَ وَمَالَ، وَوَلِيَّ وَآلٍ، وَرَفَدَ وَأَنَالَ، وَوَصَلَ وَصَالَ، فَلَمْ تَزَلْ الجَوَائِحُ تُسْحِتُ، وَالنَّوَائِبُ تُنْحِتُ، حَتَّى الوَكْرُ قَفَرٌ، ... والعَيْشُ مُرٌّ، والصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ مِنَ الطَّوَى...»^(١). وكسابقتها يتمنى الموت على الاستمرار في حاله تلك، التي يكسوها الفقر والعوز، قال في ذلك: «وَلَمْ أَقْمِ هَذَا المَقَامَ الشَّائِنَ، وَأَكْشِفَ لَكُمْ الدَّفَائِنَ، إِلَّا بَعْدَ مَا شَقِيتُ وَلَقِيتُ، وَشَبِثُ مِمَّا لَقِيتُ؛ فَلَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيتُ»^(٢).

ومن طرق التكندي كذلك :

القراد:

وهذه إحدى الحيل التي لجأ لها المكدون، وهي قراد يرقص قرده والناس يضحكون من حوله، وقد أبان الهمداني لنا ذلك في مقامته القرديّة، يقول عيسى بن هشام: «إِذِ انْتَهَيْتُ إِلَى حَلَقَةِ رِجَالٍ مُزْدَحْمِينَ، يَلُوي الطَّرْبُ أَعْنَاقَهُمْ، وَيَشُقُّ الضَّحِكُ أَشْدَاقَهُمْ، فَسَاقَنِي الحَرِصُ إِلَى مَسَاقِهِمْ ... فَإِذَا هُوَ قَرَادٌ يَرْقِصُ قِرْدَهُ، وَيُضْحِكُ مِنْ عِنْدِهِ»^(٣).

(١) المقامة (٣٣)، الحريري، ١١٠/٤-١٠٥، تفليس: مدينة بأرمينية. انظر: معجم البلدان،

الحموي، اللقوة: ضرب من الفالج يصيب الوجه، يتضاغون: يكون ويصيحون، الطوى: الجوع، انظر: اللسان، مادة: لقي، ضغى، طوى.

(٢) المقامة نفسها، ١١١/٤.

(٣) المقامة (٢٠) ص ١١١.



والإسكندري اكتفى في المقامة هذه بالحيلة وحدها ولم يستعن ببلاغته، «وما زال هذا المنظر إلى يومنا هذا، ومازلنا نرى السذج يجتذبهم منظر القرد فيلتفون حوله، والطرب يلوي أعناقهم كما يقول البديع، وكأنه يسخر من البسطاء الذين يضحكون لتوافه الأشياء، وبديع الزمان هنا صور لنا المشاعر إلى جانب تصوير المناظر»^(١)، أما د. عبد الملك مرتاض فقد حللها تحليلاً لا مكان للإضافة عليه فيقول: وقد اعتبرنا هذه المقامة تناولت في موضوعها النقد الاجتماعي، لبعض هذه العناصر التي وردت فيها، وأهمها: قوله: «يلوي الطرب أعناقهم»، فإن هذا القول ليس من باب القول المأثور: «كل مؤمن طروب»، بل ينطوي على نقد لاذع لطرب أولئك القوم مما لا يطرب منه، وهيجانهم مما لا يهتاج له، وأي شيء أدعى إلى النقد، بل إلى النعي من طرب قوم يعقلون من حركات تصدر عن قرد قرادٍ؟...، وأما قوله: «يشق الضحك أعناقهم»، ففيه نعي شديد أيضاً على هؤلاء الذين يضحكون مما لا يضحك منه، وما شأن الضحك من منظر القرد والقراد، وقد خلقهما الله كما خلقهم؟ فما القرد إلا حيوان جبل على إتيان حركات خاصة به، كحركات أي كائن حي آخر، بالرغم من غرابتها على نحو ما عند القرد، ولكن ألم يكن لأولئك المجتمعين هنالك عمل أجدى، ونزهة أرقى، وملهى أشرف وأجمل يقضون فيه فراغهم؟.

إن تكالب الناس على حلقة القراد دليل على شيء من انحطاط الذوق العام، وفساد في الأخلاق، وقلة في المعرفة والإدراك العميق، كما أن الضحك على تلك الصفة التي أشار إليها البديع هنا، لم يكن مما يحمد.

كما أن الناس التأموا حول هذا القراد، الذي لم يكن إلا الإسكندري طبعاً، التماماً جعل من العسير على الداخل أن يدخل، وعلى الخارج أن يخرج ثم إن قوله «حتى افترشت لحية رجلين»، يدل على أنه كان في هؤلاء المجتمعين من الكهول والشيوخ من كانت له لحي يمكن افتراشها، وحتى لو فرضنا أن هذين الرجلين لم يكونا شيخين هرمين، باعتبار أن الإبقاء على اللحية كان من العادات المتبعة بحيث

(١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص ٥٧.

يقي عليها الكهول والشيوخ جميعاً، فإن مثل هذا لا يغير من الموقف شيئاً؛ إذ إن في ذلك اعترافاً بالواقع المر؛ وهو أن الرجال الناضجين كانوا ممن يرتادون مثل هذه الحلقات السخيفة، ويقبلوا عليها إقبالاً فيه شيء كثير من الحماسة.

بقي لنا أن نتساءل: ولكن لم ذهب عيسى بن هشام أيضاً إلى هذه الحلقة؛ وأقام هنالك مع المجتمعين في الوقت الذي يسخر منهم، وينقدهم من طرف خفي؟.

يبدو أنه إنما أتى ذلك بحكم وظيفته داخل إطار المقامة، إذ كان هو الراوية لأحداثها، وقد استطاع أن يستكشف أمر الاسكندري في آخر المقامة كالعادة، كما أنه نقد حالة راهنة على ذلك العهد^(١).

ومنها أيضاً :-

الادعاء بتبدل الحال مع وجود العيال :

يستخدم الاسكندري هذه الحيلة في أكثر من مقامة، وقد يلجأ في بعضها إلى استدراج عطف الناس باصطحاب أطفاله معه فيكلمك بلسانهم، ويكلمك أطفاله بعيونهم، فإن لم تتأثر بلهجته فلن تقوى على صد نظراتهم الزائغة الضارعة، وربما لا يصطحبهم معه، بل يدعي وجودهم في انتظار عودته إليهم، ففي المقامة الجرجانية نجد عيسى بن هشام في مجمع من الناس يطل عليهم الاسكندري قائلاً: «يا قوم إني امرؤ من أهل الإسكندرية من الثغور الأموية، نمتني سليم، ورحبت بي عبس جبت الآفاق، وتقصيت العراق... ثم إن الدهر ياقوم قلب لي من بينهم ظهر الجن، فاعتضت بالنوم السهر، وبالإقامة السفر،... فطلعت من همدان طلوع الشارد، ونفرت نفار الأبد، أفري المسالك. وأقتفر المهالك، وأعاني المتالك، على أنني خلقت أم مشواي وزغلولا لي... وقد هبت بي إليكم ريح الاحتياج، ونسيم الإلجاج»^(٢)، وقد ذكر في المقامة نفسها اصطحاب أطفاله معه ليرق لحالم من يراهم فقال: «إذ وقف علينا رجلاً

(١) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣٢٢-٣٢٤.

(٢) المقامة (٩)، ص ٥٦-٥٧، ٥٩، ٦٠، الإلجاج: الاحتياج إلى غير الأهل، اللسان، مادة: لفتح.



... يتلوه صغاراً في أطمار^(١)، وفي مقامة أخرى يذكر هذا النوع من المكدين فيقول: «أخذت عياني رجلاً قد لف رأسه برقع حياءً، ونصب جسده، وبسط يده، واحتضن عياله، وتأبط أطفاله...»^(٢)، وفي مقامة ثانية يقدم طفلاً ويدفعه للكلام، ليكون ذلك أدعى للشفقة، وأنفذ في القلب، يحدث ابن هشام ماراه في جامع بخارى فيقول: «طلع إلينا ذو طمرين قد أرسل صواناً، واستلى طفلاً عرياناً، يضيق بالضر وسعته، ويأخذه القر ويدعه، لا يملك غير القشرة برودة، ولا يكتفي لحماية رعدة، فوقف الرجل وقال: لا ينظر لهذا الطفل إلا من الله طفله، ولا يرق لهذا الضر إلا من لا يامن مثله... فبادروا الخير ما أمكن، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن، فقد والله طعمنا السكباج، وركبنا الهملاج، وليسنا الديباج، وافترشنا الحشايا، بالعشايا، فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدره، وانقلاب المحن لظهره، فعاد الهملاج قطوفاً، وانقلب الديباج صوفاً، وهلم جراً إلى ما تشاهدون من حالي وزبي... ثم قعد مرتفقاً وقال للطفل: أنت وشأنك، فقال: ما عسى أن أقول وهذا الكلام لو لقي الشعر لقلقه، أو الصخر لقلقه، وإن قلباً لم ينضجه ما قلت لبيء، وقد سمعتم يا قوم، ما لم تسمعوا قبل اليوم، فليشغل كل منكم بالجود يده، وليذكر غده، وإقياً بي ولده، واذكروني أذكركم، وأعطوني أشكركم»^(٣).

وكانت هذه الصورة المؤثرة سبباً في إعطائه، وهكذا تتوالى حيله في المقامات المختلفة؛ لتعكس في النهاية صورة شاملة لما آل إليه أهل النبوغ من أمثال الإسكندري في ذلك المجتمع، والحقيقة أن الإسكندري كان يقوم بتلك الحيل بدافع الظرف؛ لكشف حقيقة المجتمع الذي يعيش فيه، وقد دفع إلى ذلك دفعاً، إذ نراه في المقامة الساسانية يحمل الزمان مسؤولية حاله:

(١) المقامة نفسها، ص ٥٦.

(٢) المقامة (٣): الأزاوية، ص ١٨-١٩.

(٣) المقامة (١٧): البخارية، للهمذاني، ص ٩٥-٩٧. القر: شدة البرد، السكباج: لحم يطبخ بالخل، الهملاج: الدابة السريعة في سيرها، الديباج: الحرير، الحشايا: الوسادة المحشوة للجلوس عليها، قطوف: الدابة البطيئة في سيرها. انظر: اللسان، مادة: قر، سكج، هملج، دبج، حشا، قطف.



« هذا الزمانُ مشومٌ ** كما تراه غشومٌ
الحمقُ فيه مَلِيحٌ ** والعقلُ عَيْبٌ ولومٌ
والمال طَيْفٌ ، ولكنَّ ** حَوْلَ اللَّئامِ يَحومُ» (١)

فهو هنا لا يرفض العقل، ولكنه يرى بضاعة العقل لا تسعف صاحبها في مجتمع انحلت فيه القيم، وأضحت السيادة فيه للئام، وهكذا نرى موقفه في المقامة القرديّة حيث يحمل الليالي الذنب كله :

«الذنبُ للأيامِ لا لي ** فاعتبْ على صَرفِ الليالي» (٢)(٣)

إلا أنه لا عذر للهمداني في سبه للزمان، ووصفه بأنه شوم في قوله :

* هذا الزمانُ مشومٌ *

ووصفه بالغدر في قوله السابق: «فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدره»، وكأنه لم يسمع لقوله - ﷺ - : «قال الله: يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار» (٤).

لما تنزل بالمرء حوادث، وتحل به كوارث، وتجري تصاريف القدر على غير ما يرغب يشدد همه، وتصبح الدنيا في وجهه ضيقة، فيسخط، ويتبرم، ويضطرب حتى يخرج عن جادة العقلاء، ويحيد عن سبيل الحازمين الحكماء، كأنما أخذ على الأيام عهداً ألا تجري ريجها له إلا رخاء حيث أصاب، وعقد بينه وبينها ميثاقاً أن تكون على ما يهوى في جميع الأوقات والأزمان.

فإذا لم تكن على ما يشتهي سب الزمان وتصاريفه، ولعن الأيام وما أحدثت، ومادري أن الأيام مسخرة ممن بيده تقليب الليل والنهار، وأنها تسير بقدر معلوم ليس

(١) المقامة (١٩)، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) المقامة (٢٠)، ص ١١٢.

(٣) انظر: فن المقامات بين المشرق والمغرب، د: يوسف نور عوض، ص ١٠٣-١٠٤.

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة - ﷺ - باب النهي عن سب الدهر، ٥١/٨. ورواه مسلم تحت

رقم (١)، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب (١) النهي عن سب الدهر، ١٧٦٢/٤.



له فيه اختيار. فالسخط عليها سخط على من يمينه زمامها؛ ولقدرته تصريفها لحكمة يريدتها ونظام وإيداع يجريه لاطاعة لمخلوق، ولاوقوفاً عند رغبة إنسان، فمن أملت به نازلة أو حلت به أذية فادحة فلايضيق بها صدره ولايكفر بجزيل نعم الله عليه، وليصبر فإن الأيام لاتبقى على حال، ولايدوم بؤس ولاحزن فإن مع العسر يسرا وبعد الضيق فرجا.

ومن الصور الاجتماعية :

بيم العبيد

وهذه إحدى ظواهر المجتمع الذي عاش فيه الحريري؛ لذا نراه يصوره لنا في مقامته الزبيدية حيث يبيع أبوزيد ابنه الحارث بن همام على أنه عبده، ثم يعلن الابن أنه حر، ويذهب إلى القاضي، ويحكم القاضي ببطلان البيع، وحرية الغلام منها وهاهو ذا الحارث بن همام يقول: «فَقَصَدْتُ مَنْ يَبِيعُ الْعَبِيدَ، بِسُوقِ زَيْدٍ ... فَإِنِّي لِأَسْتَعْرِضُ الْغُلَّامَانَ، وَأَسْتَعْرِفُ الْأَثْمَانَ، إِذْ عَارَضَنِي رَجُلٌ قَدْ اخْتَطَمَ بِلثَامٍ، وَقَبَضَ عَلَيَّ زَنْدَ غُلَّامٍ، وَقَالَ :

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي غُلَّامًا صَنَعًا * فِي خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ قَدْ بَرَعًا»^(١)

وقد نبه الغلام ابن همام بأنه حر لايباع، وذلك بالإشارة إلى بيع إخوة يوسف ليوسف فقال: أنا يوسف ... أنا يوسف، ولم يصغ ابن همام لهذا التحذير، لذا احتكما للقاضي الذي بين له : «أَنَّ هَذَا الْغُلَّامَ قَدْ نَبَّهَكَ فَمَا ارْعَوَيْتَ، وَنَصَحَ لَكَ فَمَا وَعَيْتَ، فَاسْتُرْ دَاءَ بَلِيْهِكَ وَاکْتُمْنَهُ، وَلَمْ نَفْسِكَ وَلَا تَلْمُنْهُ، وَحَذَارِ مِنْ اِعْتِلَاقِهِ، وَالطَّمْعِ فِي اسْتِرْقَاقِهِ، فَإِنَّهُ حُرٌّ الْأَدِيمِ، غَيْرٌ مُعَرَّضٍ لِلتَّقْوِيمِ»^(٢)، فحكم القاضي كان

(١) المقامة (٣٤): الزبيدية، للحريري، ١٢٥/٤-١٢٨، زيد: بلدة باليمن، انظر: معجم البلدان،

الحموي، ١٣١/٣، اختطم: جعل اللثام على طرف الأنف، اللثام: ما كان على الأنف من

النقاب، زند: طرف عظم الساعد، انظر: اللسان، مادة: خطم، لثم، زند.

(٢) المقامة نفسها، ١٥٤/٤، اعتلاقه: متعلق به، استرقاقه: تملكه وتعبده، الأديم: الجلد، للتقويم:

لمعرفة قيمته، انظر: اللسان، مادة: علق، بَق، آدم، قوم.

لصالح الغلام، أما الحارث بن همام فقد ودعه وهو يلبس ثوب الخجل والحزن من الغبن الذي لحقه ولقيه، لأنه لم يستمع لتحذير الغلام الذي لومه بعد ذلك قائلاً:

«وَيْتِكَ أَمَا نَاجَتِكَ هَاتِيكَ الْمَلْحُ * * بِأَنْبِي حُرٌّ وَيَبْعِي لَمْ يَبِيعْ *
* إِذْ كَانَ فِي يُوسُفَ مَعْنَى قَدْ وَصَحَ *» (١)

إذا بيع الحر غير مباح كما قال، أما العبيد فنعم، ومما سبق نستدل على أنهم كانوا ينادون على العبيد في الأسواق، ويؤلفون شعراً ونثراً للترويج لبيعهم، وبيع العبد أو الرقيق منتشر، في ذلك الزمان، وهو جائر لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (٢)، وقوله - ﷺ - : «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه» (٣).

إلا أن بطل مقامتنا باع ابنه الحر، وهذا ما لم يجزه الإسلام لقوله - ﷺ - : «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً، فاستوفى منه، ولم يعطه أجره» (٤).

أما المقامة المعرية فتكشف عن أن أفراد مجتمع الحريري يستخدمون الجوّاري مقابل مال يدفعونه أو بلامقابل، فيقول أبو زيد: «إِنَّ هَذَا الْفَتَى اسْتَحْدَمْتَهُ لِغَرَضٍ فَأَحْدَمْتَهُ إِيَّاهَا بِلَا عَوْضٍ» (٥) أشار بذلك إلى التسري، وهو جائز في الإسلام، فيجوز للسيد أن يتسرى بأمته، فإذا ولدت منه صارت أم ولد لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٦).

(١) المقامة نفسها، ١٥٣/٤. لم يبيح: أي لم يجعل مباحاً، انظر: اللسان، مادة: بوح.

(٢) سورة النساء، آية ٣٦. إن الإسلام قرّر العتق ولم يقرّر الرّق الذي كان قانوناً عالمياً آنذاك،

وإنما لم يجرّم الإسلام الرّق بصريح اللفظ لأن الخصوم كانوا يسترقون أسرى المسلمين. ومن حقّ الإمام أن يعامل الخصوم بالمثل؛ إن منّوا على أسرانا منّا على أسراهم وإن أخذوا الفداء أخذنا الفداء، وإن استرقوا أسرانا استرققنا أسراهم، وإن قتلوا أسرانا قتلنا أسراهم، والأفضل في الإسلام المنّ دون فداء، ثم أخذ الفداء على نحو ما بينت الآية الكريمة الرابعة من سورة محمد ﷺ.

(٣) رواه أبو داود (٥١٦٨)، عن ابن عمر ﷺ، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، ٣٤٢/٤.

(٤) رواه البخاري، عن أبي هريرة - ﷺ -، كتاب البيوع، باب اثم من باع حراً، ١٠٨/٣.

(٥) المقامة (٨)، ٣١٠/١.

(٦) سورة المعارج، آية ٢٩-٣٠.



وقد تسرى رسول الله - ﷺ - بمارية القبطية فولدت إبراهيم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أعتقها ولدها»^(١)، كما كانت هاجر - أم إسماعيل - سرية لإبراهيم فولدت له إسماعيل - عليهما السلام.

ومنها :-

المرأة :

هذا الزمخشري يذكر المرأة ويحذر من التعلق الشديد بجهها، وأبان صفة من صفات الجمال التي تجعل الرجل يتعلق بها، وهي في قوله : «وإيَّاكَ وَالكَلْفَ بِيضَاتِ الخُدُورِ، وَقَسَمَاتِهِنَّ المَشْبَهَةَ بالبُدُورِ»^(٢).

فهؤلاء النساء الحسان البيض يشبهن بيض النعام، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾^(٣)، ويقال: بيضات الخدور وأضافهن إلى الخدور للدلالة على أن المراد النساء. فهؤلاء يكلف الرجال بهن ويحبونهن حباً شديداً، لدرجة الولع، لهذا نجد، يحذرهم من الوقوع في ذلك .

وأبان أن نساء عصره يضعن اللثام على وجوههن فيقول: «حَدَرَتِ الحَسَنَاءُ مِنْ لِثَامِهِنَّ»^(٤)، وأولى أن يكن كالنساء على عهد رسول الله - ﷺ - فقد كن يختمرن، فعن عائشة - رضي الله عنها - قال: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله:

(١) رواه ابن ماجه عن ابن عباس - ؓ - (٢٥١٦)، كتاب العتق، باب أمهات الأولاد،

٨٤١/٢.

(٢) المقامة (٩): الاعتبار، للزمخشري، ص ٦٢-٦٣، ت: يوسف بقاعي.

(٣) سورة الصافات، آية ٤٩.

(٤) المقامة (٣٠): اجتناب الظلمة، للزمخشري، ص ١٨٠-١٨١.



﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾^(١) شققن أكنف، وقيل: أكشف مروطهن، فاختمن بها^(٢).

ويقول ابن الجوزي عن نساء عصره: «والتَّسَاءُ تَحْنُ الأزواج، فَكَلَّ مَا فِي الدَّارِ مَشْرُوقٌ، وَلَا يَعْرِفُنَّ قِبْلَةَ فِي الغُرُوبِ وَلَا فِي الشُّرُوقِ، يَتَبَرَّجْنَ إِذَا خَرَجْنَ فَكَمَّ أَرْعَجْنَ بِأَمْرٍ يَشُوقُ، وَيَرْمِينَ عَنِّ أَقْوَامِ العُيُونِ لَأَمِنَ فَوْقَ فُوقٍ، وَرَبَّمَا أَلْطَقْنَ حَمَلًا مِمَّنْ لَيْسَ مِنْهُ العُلُوقُ، فَإِنَّ مَاتَ مَيْتٌ فَالثَّوْبُ مَحْرَقٌ، وَالجَيْبُ مَفْتُوقٌ، وَهِنَّ لَأَطِمَّاتٌ كَاشِفَاتٌ فِي الثَّغُورِ وَالشَّعُورِ وَالسَّوْقِ، بَلَى، مِنْ عِلْمِهِنَّ المَحْفُوظِ عَنْهُمُ وَالمَنْطُوقِ: لَا تَكْسِرُ وَسَطَ الرَّغِيفِ وَالدَّيْكَ مَعْتُوقٌ، وَلَا تَكْنِسُ بِاللَّيْلِ إِلَّا وَرَأْسَ المَسْفَرَةِ مَحْرُوقٌ»^(٣).

هذه حال نساء ابتعدن عن الله، ولا يرضى عن خلقهن هذا، فأين هن من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾^(٤)، وأين هن من قوله - ﷺ - : «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(٥).

وكيف لا يعرفن قبله في الغروب ولا في الشروق والإنسان أول ما يحاسب عليه الصلاة، لقوله - ﷺ - : «(إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته)»^(٦).

(١) سورة النور، آية ٣١.

(٢) رواه أبو داود (٤١٠٢)، كتاب اللباس، باب في قوله: ((وليضربن بخمُرهن على جيوبهن)) ٦١/٤.

(٣) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، لابن الجوزي، ص ٤٠٣. الفوق: السهم، المسفرة: المكنتسة، والسفر الكنس. انظر: اللسان، مادة: فوق، سفر.

(٤) سورة النور، آية ٣١.

(٥) رواه البخاري (١٢٩٧)، كتاب الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب، ١٠٣/٢، بلفظ "من لطم الخدود..."، ورواه مسلم (١٠٣)، كتاب الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب، ٩٩/١.

(٦) رواه الترمذي (٤١٣)، كتاب الصلاة، باب (٣٠٥)، ٢٧٠/٢.

ومن الصور الإجتماعية :

استغلال المساجد لغير العبادة :

لقد ورد ذكر المساجد كثيراً في المقامات بدءاً من البديع ومروراً بالحريري وانتهاءً بابن الجوزي ، وهما هو ذا بديع الزمان الهمداني يطلعنا على ما يحدث في المسجد، ويسمعنا الأحاديث التي تدور في حلقات القوم، فقد كانوا يجتمعون في أفنية المساجد وتدور بينهم الأحاديث المختلفة، وقد يمر بهم المكدون، أو ينتظرون عند الباب فيعمدون إلى إبراز حيلهم فور انتهاء الصلاة، حيث تكون النفس مائلة نحو العمل الصالح، فينتهزون تلك اللحظات؛ ليصلوا لمرادهم؛ ألا وهو الحصول على العطاء.

كما أن الكثير من تلك المقامات كانت تعكس صورة لمجتمع يلي نداء ربه فور سماعه للداعي؛ ليكسب أجر الصلاة جماعة، يقول الراوي: «نُودِي لِلصَّلَاةِ نِدَاءً سَمِعْتُهُ، وَتَعَيَّنَ قَرَضُ الإِجَابَةِ فَأَنْسَلْتُ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ أَغْتَمُّ الْجَمَاعَةَ أُدْرِكُهَا»^(١)، وفي مقامة ثانية يقول: «ثَوَّبَ مُنَادِي الصُّبْحِ ... وَتَبَادَرْنَا إِلَى الدَّعْوَةِ وَقُمْنَا وَرَاءَ الإِمَامِ قِيَامَ البِرِّزَّةِ الكِرَامِ بوقارٍ وسكينةٍ، وَحَرَكَاتٍ مَوْزُونَةٍ»^(٢).

أما عن انتهاز المكدين للمصلين فحدث ولا حرج عن كثرة ذلك في المقامات، فها هو ذا الهمداني يقول على لسان الراوي عيسى بن هشام: «أَحَلَّنِي جَامِعُ بُخَارَى يَوْمَ وَقَدْ انْتَضَمْتُ مَعَ رَفِيقَةٍ فِي سَمَطِ الثَّرِيَا، وَحَيْثُ احْتَفَلَ الجَامِعُ بِأَهْلِهِ طَلَعَ عَلَيْنَا ذُو طَمْرِينَ قَدْ أَرْسَلَ صَوَانًا، وَاسْتَتَلَى طِفْلاً عَرِيَانًا ...»^(٣).

كما أن المساجد ربما تكون لغير الصلاة في كثير من الأوقات، وقد يعرج عليها مسافر، أو من ليس لديه دار، تخفيفاً لمشقة أو فراراً من قيظ الحر فيقول: «خَرَجْتُ مِنَ الرُّصَافَةِ أُرِيدُ دَارَ الخِلَافَةِ، وَحَمَارَةُ القِيظِ تَغْلِي بِصَدْرِ الغَيْظِ، فَلَمَّا

(١) المقامة (١٠): الأصفهانية، ص ٦١. شرح: محمد محي الدين عبد الحميد.

(٢) المقامة (٤٩): الخمرية، ص ٤١٩-٤٢٠، ثوب: الثوب: الاجتماع والجحى، اللسان، مادة: ثوب.

(٣) المقامة (١٧): البخارية، ص ٩٥، الصوان: وعاء الثياب، اللسان، مادة: صون.

نَصَفْتُ الطَّرِيقَ اشْتَدَّ الْحَرُّ وَأَعْوَزَنِي الصَّبْرُ، فَمَلَّتْ إِلَى مَسْجِدٍ قَدْ أَخَذَ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ سِرَّهُ، وَفِيهِ قَوْمٌ يَتَأَمَّلُونَ سُقُوفَهُ، وَيَتَذَكَّرُونَ وَقُوفَهُ...»^(١).

وقد أبان ذلك آدم متر في قوله : «وكانت المساجد تظل مفتوحة ليلاً ونهاراً في أحوال قليلة، وهي بحكم الشرع يجوز أن تكون مأوى لمن لا يجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبدين، وكان في هذا ما يخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها، ... ويندر أن تكون «بيوت الله» خالية أثناء النهار، وذلك في المدن على الأقل، وكانت أشبه بنوادٍ أو مجتمعات للناس، وخصوصاً المسجد الجامع، حيث كان القاضي يجلس في النهار للحكم بين الناس، حيث كان العلماء يعقدون حلقات التدريس، وكان موضع العالم يعرف بالسجادة التي يصلي عليها...»^(٢).

وهذا ابن ناقياً في إحدى مقاماته أبان أن المسجد قد يكون مأوى للمسافرين، يرتاحون فيه، ويتناولون طعامهم أيضاً؛ لأنه لا مكان لهم ينزلون فيه، فقال: «حَدَّثَنِي بَعْضُ الشَّامِيِّينَ قَالَ: يَمُتُ الْعِرَاقَ فِي بَعْضِ السَّنِينَ فَانْتَهَيْتُ إِلَى مَدِينَةِ السَّلْمِ وَالنَّفَقَةِ فِي صَحْبَةِ الْغَلَامِ فَجَلْنَا فِي ضَمَائِرِ مَحَالِهَا وَأَسْوَاقِهَا؛ حَتَّى كَشَفَتْ الظُّهَيْرَةَ عَنْ سَاقِهَا فَوَجَدْنَا ... إِلَى مَسْجِدٍ خَرَابٍ وَقَدْ بَرَحَ الطَّوِيُّ خَفَانًا، وَطَوَى طَيِّ السَّجْلِ إِمْعَانًا، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: آتِنَا غَدَانًا»^(٣). وعند وضع الطعام دخل عليهم بطل مقامات ابن ناقياً يشكو من الغربة ووعده بالأوبة، ودعوه إلى طعامهم، فأقبل يلتهم الطعام التهاماً، وحين أتى وقت الصلاة خرج هو من المسجد، فكأنه ما دخل إلا ليأكل ويخرج، أما الصلاة كأنها تقام لغيره، لا له، يقول الراوي: «ثُمَّ دَخَلَ الْإِمَامُ وَمَنْ مَعَهُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ فَنَهَضَ مُشْتَمِلًا رِدَاءَهُ ... وَقَدْ لَفَّ وَاشْتَفَّ فَمَا نَلْنَا مِنَ الزَّادِ إِلَّا عِشَاءً مَا هَجَى غَرثًا، فَعَجَبْنَا مِنْ هَرَبِهِ، وَهَمَّ الْقَوْمُ بَطْلِهِ، فَإِذَا هُوَ الْيَشْكُرِي»^(٤).

(١) المقامة (٣٠): الرصافية، ص ١١٥، حمارة القيظ: شدة الحر، اللسان، مادة: حمر.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ١٢٢٢/٢-١٢٢٣.

(٣) المقامة (٣): مخطوط المقامات العشر، لابن ناقياً، ص ٦.

(٤) المقامة نفسها، ص ٧، اشتف: الربح والزيادة، انظر: اللسان، مادة: شفف.



وفي مقامة أخرى أظهر لنا ابن ناquia أن المسجد قد يكون ملاذاً آمناً يبعد عن داخله الشك والريبة، فهذا اليشكري بطل مقامته بعد أن ينبش القبور ويسرق الأكفان، ويشعر بقرب العسس؛ يتسلل إلى معذنة أحد المساجد ويتحول إلى واعظ، فلا يرتاب فيه أحد، وما هو ذا الراوي يقول: «فإذا بركة العسس والطوافي فعدّل إلى معذنة فأناف، ثم رفع عقيرته فذكر وخوف، ووعظ واستعطف، ووصف الدنيا وزوالها... كل ذلك وأنا معه لأعلم مستقره ومستودعه فلما انحدر من قبة المسجد صحت إليه...»^(١).

كما أن الحريري ذكر أن المسجد قد يستغله المكدون فينتهزون وجود المصلين؛ ليحصلوا على العطايا من الناس، كما في المقامة الرقعيدية التي بين الراوي - ابن همام - أن أبازيد، ومعه عجوز اتخذها سنده؛ لادعائه العمى، ودخلا إلى المسجد في يوم العيد والناس، يستعدون للتعديد، ووزعا رقاعاً يشرحان فيها الحال المتدني اللذين يدعيانه شعراً؛ ليحصلوا على العطايا، وما تجود به الأيدي من مال، بعد أن مرت بها على كل صفوف المسلمين، يقول: «وبرزت مع من برز للتعديد، وحين التأم جمع المصلي، وانتظم... طلع شيخ في شملتين، محجوب المقلتين... واستقاد العجوز... فرصدتها وهي تستقري الصفوف صفاً صفاً، وتستوكف الأكف كفاً كفاً...»^(٢).

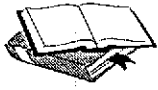
وفي مقامة أخرى أبان أن أبازيد لجأ إلى المسجد، وهو متنكر في زي امرأة عجوز بعد أن نال ما أراد من المال، وهناك خلع ملابسه التي تنكر فيها، ولانعلم أن للمسجد مخايباً يمكن أن يتوارى خلفها ليخلع تلك الثياب، وإن كان قد ذكر أنه خال حين قال: «ثم عاجت بخلو بال إلى مسجد خال، فأماطت الجلباب، ونضت النقاب، وأنا ألمها من تخصص الباب»^(٣).

أليس لهذا المسجد قيم حتى إن أبازيد يدخله ويغلق الباب خلفه؟ وألا يستحي

(١) المقامة (٢): مخطوط المقامات العشر، لابن ناquia، ص ٤.

(٢) المقامة (٧)، ص ٥٦-٥٨.

(٣) المقامة (١٣): البغدادية، للحريري، ص ١٠٤.



ابن همام، وهو ينظر من خصائص الباب، ليشبع فضوله في معرفة هذه العجوز؟، يقول رسول الله - ﷺ - في ذلك: «لَوْ أَنَّ أُمَّوًا اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَحَذَفْتَهُ بِعَصَاٍ فَفَقَاتَ عَيْنَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ»^(١).

وفي إحدى مقاماته يذكر الحريري أن المسجد قد يكون مكاناً، لتجمع الأصدقاء ومباحثاتهم فيما بينهم، فيقول في ذلك راوي مقاماته الحارث بن همام: «شَهِدْتُ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ فِي بَعْضِ مَسَاجِدِ الْمَغْرِبِ، فَلَمَّا أَدَيْتُهَا بِفَضْلِهَا وَشَفَعْتُهَا بِنَفْلِهَا، أَخَذَ طَرَفِي رِفْقَةً قَدْ انْتَبَدُوا نَاحِيَةً، وَامْتَازُوا صَفْوَةَ صَافِيَةٍ، وَهُمْ يَتَعَاطُونَ كَأْسَ الْمَنَافِثَةِ، وَيَقْتَدِحُونَ زِنَادَ الْمُبَاحِثَةِ، فَرَغِبْتُ فِي مُحَادِثَتِهِمْ لِكَلِمَةٍ تُسْتَفَادُ، أَوْ أَدَبٍ يُسْتَرَادُ...»^(٢).

كيف يتعاطون كأس الشراب في المسجد؟ ويقتدحون زناد المباحثة والمسجد ما جعل إلا للصلاة لا للغو، ألم يسمعوا لقوله - ﷺ - «(مَنْ قَالَ صَه، فَقَدْ لَغِيَ)»^(٣)، فهل بعد إلقاء الأحاجي والألغاز لغو؟!، بل إن أبازيد بعد أن جالسهم، وذهب عنهم قال عن مجلسهم ذلك: «قَلَّ لَهُمْ عَنِّي إِنْ السَّهْرَ فِي الْخُرَافَاتِ، لِمَنْ أَعْظَمَ الْآفَاتِ، وَلَسْتُ أَلِغِي حَوَاسِي، وَلَا أَجْلِبُ الْهُوسَ إِلَى رَاسِي»^(٤).

كما أن الأسواني رغم أن له مقامةً واحدةً فقد أبان لنا أن المسجد يمكن استخدامه للمبيت كما قال بطل مقامته، حين بدأ كل من كان يجالسه يستميله إلى داره، ويسأله أن يكون أبا مثواه: «كُنْتُ نَوَيْتُ أَنْ لَا يَأْوِينِي غَيْرَ الْمَسْجِدِ بَيْتٍ، فَنَزَلْنَا عَلَى حَكْمِ هَوَاهُ، وَأَنْزَلْنَاهُ مَسْجِدًا اخْتَرْنَاهُ، فَنَمَّا فِي النَّاسِ نَحْبَهُ، وَشَاعَ فِي الْبَلَدِ ذِكْرُهُ، حَتَّى طَرَقَهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، وَاكْتَفَى الْمَسْجِدُ بِالزَّحَامِ»^(٥).

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة - ﷺ - كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقوا عينه فلادية عليه، ١٣/٩.

(٢) المقامة (١٦): المغربية، للحريري، ص ١٢١.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب (٢٠٣)، ٦٥/٢. وأحمد في مسنده، ٤٧٤/٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٢٨.

(٥) مخطوط المقامة الحصبية، ص ١١.



إذن فالمسجد آنذاك يمكن للفرد منهم أن يتخذ بيته لمن لا بيت عنده، ويجتمع فيه بالناس، ويتداولون الحديث ويحضرون العطايا والأموال فهذا هوذا الأسواني يقول: «وجعلت التحف تنثال من كل وجه إليه، والأموال تلقى بين يديه، وهو يلحظها بنظره، ولا يميز بين الدرقة منها والبكرة، ولا يزيد على رجع السلام بالإشارة والهيمنة وبالتسبيح، والتلاوة إلى أن دجى الليل وأظلم وأخذ النعاس...»^(١)، وعند سماعهم لأذان الفجر خرجوا إلى المسجد يبحثون عنه، فلم يجدوه، فقد اتخذ الليل جملاً للذهاب، وكتب لهم على عضادة الباب بيتين من الشعر أبان فيهما أنه كالشمس ولا قرار لشمس بموضع .

ومن الصور الاجتماعية كذلك :

الطعام والمطاعم :

هذا ابن الجوزي يشير إلى بعض أنواع الطعام الموجودة في عصره، المعروفة بين أفراد مجتمعه، وذلك في المقامة التي سأل صاحب الدار فيها أبا التقيوم: «ألا تغسل يدك؟... قال: ما أكلت لحماً فأقول يدي غميرة، ولا شحماً فتكون زهيمه، ولا تناولت من اللبن والزبد فترى شيرة، ولا من الثريد فأراها مزرة، ولا من الفاكهة فيقال: لزجة، ولا من الدهن فتضحى ذلجة، ولا من الخل فتصبح خمطة، ولا من العسل فتوجد لزقة...»^(٢).

رغم وجود كل أنواع هذا الطعام إلا أنه كما قال: «سأقندي بأخلاق من عفا ومن سلف... فلمّا مدت الموائد أرز... ثم قرصم قرصاً وقصم له.. فتناول لقمات ثم كف الكف، وقال: أثقل الجماعة حِلماً من خف... وقال أفهم حكمة من أحيا.. إنما يريد العاقل أن يأكل ليحيا لا أن يحيا ليأكل، إن خير المطاعم ما استخدمت وإن

(١) المخطوط والصفحة نفسها .

(٢) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، لابن الجوزي، ص ٩١-٩٢. زهيمه : ربح نسة،

شيرة: القطعة أو الدواء، مزرة: قدرة، خمطة: أول ما تبندى الحموضة، انظر: ه/ص ٩١-٩٢.



شَرَّهَا مَا خَدَمَتْ ...، فَقُلْتُ : أَمَا تَشْتَهِي أَنْ تَشْبَعَ؟ قَالَ: أَشْتَهِي وَأَمْنَع، ثُمَّ يَدْرُسُ دَرْسًا قَدْ دَرَسَ «ثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفْسِ»^(١)، يشير بذلك لحديث رسول الله - ﷺ - : «بحسب ابن آدم أكالات يقمن أوده، فإن كان لا محالة فتلت لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٢).

وكذلك الزمخشري أشار إلى بعض أنواع الطعام التي كان يتناولها أفراد مجتمعه من الأغنياء فيقول: «وَتَدْعُوكَ إِلَى أَكْلِ الطَّيِّبِ النَّاعِمِ مِنْ أَلْوَانِ المَطَاعِمِ، الدَّجَاجِ المِسْمَنِ بِكُسْكَرٍ، وَالرَّجْرَاجِ بِالسَّمَنِ وَالسُّكْرِ...»^(٣).

أما طعام الفقراء فهو «قُرْصًا شَعِيرٍ فِي غَدَائِكَ وَعَشَائِكَ»^(٤).

وقد روى أن النبي - ﷺ - أكل الدجاج، فعن قتادة عن زهدم الجرمي، قال: دخلت على أبي موسى وهو يأكل دجاجة، فقال: ادن فكل فيني رأيت رسول الله - ﷺ - يأكله^(٥).

ومن الصور أيضاً:

نقد بني زمانهم :

ونرى الزمخشري ينقد بني زمانه نقداً شديداً، للحال الذي رأهم قد تردوا فيه فيقول: «يَأْبَا القَاسِمِ أزلُ نَفْسِكَ عَنْ صُحْبَةِ النَّاسِ وَأَعزُّهُمَا، وَأنتِ فَرَعَةٌ مِنْ فِرَاعِ

(١) المقامة نفسها، ص ٩٠-٩١.

(٢) سبق تخرجه في ص ٥٧.

(٣) المقامة (٢٠): العفة، للزمخشري، ص ١٢٢، كسكر: بلد بسواد العراق ينسب إليها الدجاج

الكسكري انظر: معجم البلدان، الحموي، ٤/ ٤٦٠، الرجراج: الفالودج الذي يتخرج،

انظر: اللسان، مادة: رج.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٢٥.

(٥) رواه الترمذي (١٨٢٦)، كتاب الأطعمة، باب (٢٥)، ٤/ ٢٧١.



الجبلِ فانزِلْهَا، وَلَدْ بِيْعُضِ الْكُهُوفِ وَالْغِيْرَانِ بَعِيْدًا مِّنَ الرَّفَقَاءِ وَالْجِيْرَانِ... وَلَا تَفْطَنْ لِعِيْبِ أَحَدٍ سِوَى عَيْبِكَ»^(١).

فماذا ينصح بالعزلة، وترك الرفقاء والجيران؟

لقد ذكر السبب وهو قوله: «قَاتِلِ اللّٰهُ بَنِي هَذِهِ الْاَيَّامِ فَاِنَّهُمْ طَلَّيْحُ الشُّرُوْرِ، وَالْاَثَامِ، لِقَاهُمْ لِقَاءً، وَحِوَارَهُمْ غَوَارًا، وَنِقَالَهُمْ نِقَارًا، وَوَفَاقَهُمْ نِفَاقًا، تَسْلُقُ بِاللَّسِنَتِهِمُ الْاَعْرَاضَ، كَمَا تُرْشِقُ بِسَهَامِهِمُ الْاَغْرَاضَ»^(٢).

لقد دعا عليهم بقوله: «قَاتِلِ اللّٰهُ بَنِي هَذِهِ الْاَيَّامِ»؛ ومن المآخذ التي تؤخذ عليهم: شرورهم وآثامهم، وأن لقاءهم كأنه لقاء عدو، وأما حوارهم فإطائل منه، وإذا ما أرادوا الانتقال دبّ بينهم النقار والشجار، وإذا رأيت الوفاق شملهم فاعلم أنهم ينافقون بعضهم، كما أنهم مغتابون فألسنتهم تسلق الأعراض، وعيونهم تصيب بالحسد فيرشقون بها الأعراض، مبتعدين عن ذكر اسم الله؛ لو أعجبهم شيء؛ ليدروا به ماتصبيه العين.

وأما الكبار فيجتمعون في الندوة أو النادي، ولا يتواصلون بالصبر بل يأخذ بعضهم بناصية بعض للوصول إلى صدر المجلس.

هؤلاء هم أفراد مجتمعه لذا يقول: «إِنَّ اَنْسُوكَ حَمَدَتِ الْوَحْشَةَ وَإِنْ جَالَسُوكَ وَدَدَتِ الْوَحْدَةَ»^(٣).

إن بعض أفراد مجتمعه يحملون تلك الصفات السيئة والتي بسببها دعا الزمخشري إلى العزلة، مضيفاً إليها صفات أخرى: كالكذب في قوله: «وَأَفْتَنَ فِي الْاَحَادِيْثِ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ، وَاسْتَنَّ فِي الْاَكَاذِيْبِ كَعَاثِرِ الْخِيْلِ»^(٤)، وعدم الحياء، فيقول في ذلك: «مُلَقِيًّا اَسْبَابَ الْفِتَنِ بَيْنَ يَدَيْ اِفْتِنَانِهِ، مُخَلِّفًا لِاِلَادَابِ وَالسُّنَنِ وَرَاءَ اسْتِنَانِهِ،

(١) المقامة (١٩): العزلة، للزمخشري، ص ١٠٨-١١٠.

(٢) المقامة نفسها، ص ١١٠-١١١.

(٣) المقامة نفسها، ص ١١٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ١١٣.



لَا يَدْفَعُ فِي صَدْرِهِ مِنْ حَيَاءٍ دَافِعٌ، وَلَا يَزَعُهُ مِنْ دِينٍ حَقٌّ وَازِعٌ، وَلَا يَنْزِعُهُ مِنْ عِرْقٍ صِدْقٍ نَازِعٍ»^(١). والغيبية، والتي قال فيها: «فَإِذَا أَنْشَأَ يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ بِالنَّقِیْصَةِ وَالثَّلْبِ، وَيَلْغُ فِي دَمِهِ الْحَرَامِ وَوُلُوعِ الْكَلْبِ، وَيَصَوَّبُ وَيَصْعَدُ فِي تَمْزِيقِ فَرْوَتِهِ، وَيَقُومُ وَيَقْعُدُ فِي قَرَعِ مِرْوَاتِهِ»^(٢). والاستهزاء، وفيه يقول: «وَيَخْلُطُ ذَلِكَ بِاسْتِهْزَاءٍ مُتَّابِعٍ، وَاسْتِغْرَابٍ مُتَدَافِعٍ»^(٣).

هذه الصفات القبيحة التي اتصف بها بعضهم، لو أن الآخرين ماجاوروهم فيها لوصفوهم بصفة الكبرياء، أو الرياء وإن سرت معهم في طريقهم، فذاك هو الهلاك والضلال، ثم يتعجب ويقول: «فِيَالهَا مَحَنَةٌ مَا أَضْرَّهَا، وَيَالهَا فِتْنَةٌ وَقَى اللَّهُ شَرَّهَا»^(٤).

وهذا ابن الجوزي يصور بعضاً من جوانب المجتمع الذي عاش فيه، فهذا هو ذا في المقامة المسماة «العزلة» يعرض لمجموعة كبيرة من شرائح مجتمعه، مبيناً الحال الذي آلوا إليه على لسان بطله أبي التقويم، الذي ظهر هنا معتزلاً العالم في خباء، ولما سأله الرجل - الذي أقبل إلى تلك البلدة - عن سبب عزلته علل ذلك؛ بأن من جالسهم بعيدون عن جادة الصواب فقال: «إِنَّمَا هَرَبْتُ مِنْ جَرَبْتُ ... قَدْ كُنْتُ فِي الْبَلَدِ أَعْقِدُ مَجْلِسَ الْمُنَازَرَةِ. فَمَا بَقِيَ مَنْ أَعْدُ مَعَهُ لِلْمَحَاضِرَةِ، إِنَّهُمْ مَا يَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ، إِنَّمَا يَتَنَاصَوْنَ عَلَيَّ الْأَحَقِّ. أَشْكُو إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الْغَيْرِ زَمَنِ الزَّمَنِ

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ * * وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ تَعْرِفُ»^(٥).

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة نفسها، ص ١١٤.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ١١٦.

(٥) المقامة (٣٧)، ص ٢٩٨-٢٩٩.



ثم طلب منه أن يصف أعمالهم فقال: «أَمَّا الْقَرَاءُ فَهَمَّتْهُمُ الشَّاذُّ ... وَأَمَّا
الْمُحَدِّثُونَ فَغَرَضُهُمْ مِنَ الْمُنْقُولِ عِلْوُ الْإِسْنَادِ لِإِيَّانِ الْقَوْلِ وَلَا فَهْمَ الْمُرَادِ ...»^(١).

ثم بين حال الفقهاء وهي حال لا تسر لانغماسهم في الدنيا فيقول عنهم: «أَمَّا
الْفُقَهَاءُ فَرِمَا اسْتَدَلُّوا بِأَحَادِيثَ لَا يَعْرِفُونَ طَيِّبَهَا مِنَ الْخَبِيثِ ... يَتَشَاغَلُونَ بِالْمَسَائِلِ
الطَّوَالِ لِأَنَّهُ يَكْثُرُ فِيهَا قِيلٌ وَقَالَ. يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّتَبِ وَالْمَجَالِسِ، فَيَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ سُوءَ
الْأَدَبِ الْمَجَالِسِ. فَيَجْرِي بَيْنَهُمْ مَجَالِدَةٌ لِأَجَادِلَةِ وَمَلَائِمَةٌ لِأَمْكَالَةِ، يَغْضَبُ أَحَدُهُمْ إِذَا لَمْ
يَلْقَبْ. وَيَنْتَظِرُ تَقْبِيلَ يَدِهِ وَيَتَرَقَّبُ، يَتَطَفَّلُونَ عَلَى صُنُوفِ الظُّلْمَةِ. وَلَا يَأْمُرُونَهِمْ مِنْ
الْمَعْرُوفِ بِكَلِمَةٍ، وَرَبَّمَا لَيْسُوا مِنَ الثِّيَابِ الْحَرِيرِ. وَأَنْسُوا بِالْكَذِبِ فِي ثَنَاءِ الْأَمِيرِ ...
وَمَا كَانَ السَّلْفُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ ... كَانَ الْقَوْمُ لَا يُوَثِّرُونَ التَّصَدَّرَ فِي الْمَسَائِدِ
لِلْمَسَائِلِ، وَبُودَهُمْ كَوْ أَجَابَ غَيْرُهُمُ السَّائِلِ»^(٢).

وانتقل إلى المذكرين وقال إنهم: «يُورِدُونَ الْأَخْبَارَ الْمَوْضُوعَةَ. وَيَتَخَاشَعُونَ
بِحَرَكَاتِ مَصْنُوعَةٍ وَيُنْشِدُونَ شِعْرَ لَيْلَى وَالْمَجْنُونِ ... هَمَّتْهُمُ اللَّقْطَةُ الْعَجِيبَةُ. لَا النَّهْيَ
عَنْ النُّظْرَةِ وَالْغَيْبَةِ، فَيَخْرُجُ الْغَيْبِيُّ وَمَأْمُرٌ بِالصَّلَاةِ، وَالْغَنِيُّ وَمَا حَتَّى عَلَى الزَّكَاةِ،
وَالْعَاصِي وَمَا يَعْرِفُ طَرِيقَ النَّجَاةِ»^(٣).

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر حال فئة أخرى من فئات مجتمعه وهم المتزهدون
فقال إنهم يظهرون خلاف ما يبطنون فهم: «إِنَّمَا صَوَّفُوا لِلتَّصَنُّعِ مَلْبُوسَهُمْ. وَنَكَّسُوا
لِلتَّخَشُّعِ رِعْوَسَهُمْ؛ لِيَلَاحِظَهُمُ بِالزُّهْدِ مَنْ يَرَى، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ أَسَدٌ شَرِيٌّ»^(٤).

ثم تحدث عن فئة ثالثة من فئات مجتمعه فقال: «أَمَّا التَّجَارُ فَالرَّبَّاءُ فِي تَبْصُرَاتِهِمْ
مِنْ أَفْبَحِ آفَاتِهِمْ. وَيَصَانِعُونَ بِيَعْضِ زَكَاتِهِمْ. فَيُقْبَى الْفُقَرَاءُ فِي شَكَاتِهِمْ»^(٥).

(١) المقامة نفسها، ص ٢٩٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٠٠.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٠١.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة والصفحة نفسها.



وفي آخر المطاف بين كيفية التخلص من هذا الزمان الظلم جهله، والظالم أهله؛ بقوله: «إن وجدت العالم ديناً عاقلاً. وإلا فاجعل نصيب العالم والعالم معاً قلبي»^(١).

وفي مقامة أخرى نرى ابن الجوزي يذكر لنا صورة من صور المجتمع ألا وهي حال المتصوفة في زمانه ذلك فقال في مقامته المسماة «في صوفية الزمان»: «غَالَطُونِي بِأَعْمَالِ الصَّلَاحِ. ثُمَّ نَخَالَطُونِي بِأَعْمَالِ قَبَاحٍ يُسَمَّوْنَ مَنَاخَ البَطَالَةِ الرِّبَاطِ. وَيَخَوِّضُونَ فِي الجَهَالَةِ إِلَى الآبَاطِ ... انقَطَعُوا عَنِ الجَمَاعَاتِ فِي المَسَاجِدِ وَجَرَوْا عَلَيَّ سَنَنَ مَخَالِفِ اللُّسَنِ مُعَانِدِ. طَهَّرَاتِهِمْ إِذَا تَأَمَّلْتُ وَسَوَّاسِ. الطَّهَّارَاتِ عِنْدَهُمْ كَالْأَنْجَاسِ، يَغْلَفُونَ الأَقْدَامَ لِلْمَشِيِّ عَلَيَّ القَطِيفَةَ. وَلَوْ قَطَعَ بِطَهَّارَتِهَا الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ»^(٢).

واستمر ابن الجوزي يعدد على لسان أبي التقويم حال المتصوفة فإذا هم يمنعون قراءة القرآن وسماع الحديث، وفي المقابل يستمعون إلى المغنى والوزير. فهم على الحقيقة ذئاب في ثياب، ستروا ظواهرهم بالرقاع وعيوب البواطن أكثر ... ومن ثم بدأ ينعى حال الصوفية الأوائل فيقول:

« أَهْلُ التَّصَوُّفِ قَدْ مَضَوْا	**	صَارَ التَّصَوُّفُ مَحْرَقَهُ
صَارَ التَّصَوُّفُ صِيحَةً	**	وَتَوَاجَدَا وَمُطَبَّعَهُ
كَذَبْتَكَ نَفْسُكَ كَيْسَ ذَا	**	سَنَنِ الطَّرِيقِ المَلْحَقَهُ
حَتَّى تَكُونَ بَعِينَ مَسْنُ	**	مِنْهُ العَيُونُ المُخَدِّقَهُ
تَجْرِي عَلَيْكَ صُرُوفُهُ	**	وَهُمُومِ سِرِّكَ مُطْرَقَهُ» ^(٣)

وهكذا نراه يبين لنا صورة من صور المجتمع آنذاك، وهي صورة المتصوفة والحال الذي هم عليه من شطط وبعد عن الطريق القويم.

(١) المقامة والصفحة نفسها، قلبي: الهجر والبغض، انظر: اللسان، مادة: قلبي .

(٢) المقامة (٤٠): لابن الجوزي، ص ٣٢٠.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٢٧-٣٢٨.



ويظل ابن الجوزي ينقل لنا في مقاماته صوراً أخرى كما في المقامة المسماة «في ذم أبناء الدنيا»، حيث يذكر حال أهل العلم وأكثرهم لا يحافظ على الحقوق، والمتكلمين يقولون بخلق القرآن، والجاهلين يفتوون بدون علم، والمذكورين جمهور كلاًهم في العاشق والمعشوق، والمتزهدين يبيعون زهدهم بسعر السوق، وأما الأغنياء فهم أصدقاء البخل أعداء الحقوق، ناهيك عن العوام فحدث ولا حرج فهم في الزلل والجهل غرقى وعن واجباتهم منشغلون، وصلاتهم يؤخرون، وان أدوها فبسرعة البرق، والزكاة يهملونها، والفقير منهم يتقلقل جوعاً، والمال في الصندوق ثم بين فأبرز أول ما أبرز أن الربا بينهم فاش، يقبلون على تعامل بعضهم مع بعض المنجمين مدبرين عن أمر المشرع الصادق الصدوق^(١).

(١) انظر: المقامة (٤٩): ص ٤٠٠-٤٠٩.

الفصل الثالث

الحاكم في المقامة



إن الذي يطبق نظام الإسلام، ويرعى عقيدته عملياً، هما شخصان في الدولة، الأول: القاضي الذي يفصل الخصومات بين الناس، ويخبر بالحكم على سبيل الإلزام. والثاني: الحاكم الذي يحكم الأمة سواء سمي هذا الحاكم أمير المؤمنين أو الإمام أو السلطان، لذا سيكون الحديث حول من يمثل الحكم قاضياً كان أو حاكماً.

وللحاكم في مقامات **بديع الزمان الهمذاني** صور متعددة، غير أنها تدور في فلك واحد من المعنى وهو: السخاء والعطاء، ولذلك قلب البديع هذا المعنى في صور مختلفة، وطاف ببطله في آفاق متعددة، ففي نيسابور نجد نموذج السخاء في الحاكم الذي شد الرحال إليه، وهو: ((خلف بن أحمد)* هرباً من قاضي نيسابور الذي ذكر له أبو الفتح الإسكندري مجموعة من الصفات أبرزها مايلي :

- مثل لخبث هذا القاضي ودنائه بقوله : عنه: فهو كالسوس يقع في الصوف وأراد به الأموال، فيأكله ويفسده، ولكنه لا يختار إلا صوف الأيتام وأموالهم؛ لأنه لا يوجد لليتيم من يدافع عنه ويحاسب له، وهو في أكله الأموال وإهلاكها؛ كالجراد الذي ينزل بالزرع فلا يترك فيه ثمرة نافعة، ثم إنه لا ينزل بالزرع المباح، بل يختص الحرام منه، وفي هذا زيادة في تشنيع حاله، وهذا الرجل - القاضي - يشبه اللص في أخذه أموال الناس واختلاسها، ولكنه لا يسطو إلا على ما اشتد الحظر عليه، وزادت حرمة انتهابه، كأموال الأوقاف المرصودة للمنافع عامة، وهو في نهبه الضعاف والعجزة الذين لا يقدرون على مغالبتهم، ولا يجسرون على مجالدته يشبه الأكراد؛ وهم جيل من الناس عرف في طبعهم النذالة ودناءة النفس، فهم أشد الناس ميلاً إلى النهب وسلب الأموال.

وشُبه بالذئب في خبثه إذ يتظاهر بالصلاح والتقوى والخشية من الله، والخوف من عذابه، غير أنه يعمل عمل الذين ليس في قلوبهم شيء من الشفقة، ولاتداخلهم الرحمة بعباده فهو يسطو على الناس وهم ركوع وسجود، واحتياله على الناس بصور

(* خلف بن أحمد (٣٢٦-٣٩٩هـ): من بني يعقوب بن الليث الصفار، أمير سجستان، تفقه

وروى الحديث، جمع كبار العلماء في بلاده فصنفوا معه "تفسيراً" للقرآن الكريم. انظر:

الأعلام، الزركلي، ٣٠٩/٢.



خداعة يوهمهم أنها شرعية؛ ليقتنص أموالهم ويستفيدوا لنفسه، والحقيقة أن هذه الأشياء متصنعة صورية لا تتفق مع حقيقة الشرع في شيء، ومن تلك الصور الخداعة التي أبرزها لنا بطرق عدة:

أنه ارتدى رداء رجال الدين، ولبس لبوسهم، وتزيا بزيتهم، ولكنه قد ترك حقيقة صفاتهم، ونبذ صالح أعمالهم التي لا يلائمها ما يفعله من ابتزاز الأموال ونهبها، ((وسوى، وحرّف، وقصّر...)) ليزداد في إظهار بشاعة ما يفعله تجاه إخوانه المسلمين، فهو قد يلبس لبس الخواص من النساك، وحدد يده ولسانه كناية عن تهيه، واستعداده للاختلاس وإيقاع الناس في شباكه.

وأظهر ذرابة لسانه وفصاحة منطقته وقوة بيانه؛ ليستجلب الناس فيلتفوا حوله؛ ليوهمهم أنه حق وصواب وهو على خلافهما، معينه في ذلك بياض لحيته من طول ما عاش، لكنه رغم إظهار تعففه عن الدنيا وميله إلى ثواب الآخرة؛ إلا أنه لم يعمل عملاً صالحاً في حياته كلها، بل كل أعماله شريرة، فاسدة، فهو قد لوث صحيفة ذكراه، وتسويدها كناية عن سوء عمله وغرضه الخبيث.

إن الهمداني حين وصف لنا كل تلك الصفات في قاضي نيسابور، أعطانا صورة لشريحة من شرائح المجتمع المتطفلة التي تعيش كالعلقة في جسم المجتمع، وسجل ظاهرة اجتماعية واضحة، فقال عنه:

((هذا سوسٌ لا يَقعُ إلا في صُوفِ الأيتامِ، وجرادٌ لا يسقط إلا على الزرعِ الحرامِ، ولبصٌ لا ينقبُ إلا بخزانة الأوقافِ، وكودي لا يغيرُ إلا على الضعافِ، وذئبٌ لا يفترسُ عبداً لله إلا بينَ الركوعِ والسُّجودِ، ومخارِبٌ لا ينهبُ مالَ الله إلا بينَ العهودِ والشُّهودِ، وقد ليسَ دنيتهُ وخلعَ دينيتهُ، وسوى طيلسانه، وحرّفَ يدهُ ولسانه، وقصّرَ سبّاله، وأطالَ جباله، وأبدي شقاشقه، وغطّى مخارقه، وبَيضَ لحيتهُ، وسودَّ صِحيفتهُ، وأظَهَرَ ورَعَهُ وسَتَرَ طَمَعَهُ))^(١).

(١) المقامة (٣٩) : النيسابورية، للهمداني، ص ٣٠٥-٣٠٨.



لكن مسؤولية تولي القضاء لقاض كهذا تقع على الحاكم، الذي كان عليه أن يتحرى عنه قبل أن يوليه، فما هو إلا ممثل للحاكم في إحقاق العدل، ولعل هذا ما حدا بأبي الفتح الإسكندري أن يخرج من نيسابور متوجهاً لحاكم نعته بصفات حسنة، أولها السخاء حين سأله الرجل بعد أن لعن القاضي ذا الصفات السيئة السابقة: من أنت؟ وبعد أن أجابه لجأ الرجل إلى أسلوب الاستدراج^(١) حين لجأ لاستمالة إلى الجملة الدعائية: «سَقَى اللهُ أَرْضاً أَنْبَتَ هَذَا الْفَضْلَ، وَأَباً خَلَّفَ هَذَا النَّسْلَ»^(٢). ثم وجه إليه سؤالاً: أين تريد؟ فأتى رد أبي الفتح بكلمة واحدة هي: «الكعبة» جعلت السامع يتشوق للرفقة، ومن هنا كان الأخذ والرد بين السائل والمجيب، السائل الذي أثارته الكلمة، وبعثت في نفسه التساؤل، فجاء الجواب الذي لم يطفئ ظمأ تشوقه لمعرفة صاحب هذه الصفات، والنعم التي ينعم بها عليهم الممدوح، عن طريق تعدادها والتي هي في نفس الوقت آيات بينات، ودلالات واضحة على عظم فضل الممدوح فأراد بذلك توجيه أنظار السامع إليه، وتقريره لصفاته، مادفع الجالس أمامه للتساؤل عن صاحبها الذي قال فيه:

«أُرِيدُ كَعْبَةَ الْمُحْتَاجِ، لَا كَعْبَةَ الْحُجَّاجِ، وَمَشَعَرَ الْكَرَمِ، لَا مَشَعَرَ الْحَرَمِ، وَبَيْتَ السَّبِيِّ، لَا بَيْتَ الْهُدَى، وَقِبْلَةَ الصَّلَاةِ لَا قِبْلَةَ الصَّلَاةِ، وَمِنَى الضَّيْفِ لَا مِنَى الْخَيْفِ»^(٣)، ولما كانت هذه الأخبار مترتبة بطريقة الترتيبي جاء الخبر الأخير كالنتيجة لها، وهو ذكر اسم الممدوح: نخل بن أحمد، ويتكفي البديع هنا على عاطفة إنسانية يثيرها؛ لتدفع صاحبها عن طريق الإعجاب حيناً والاعتراف بالجميل حيناً آخر لهذا الحاكم الذي يغدق عليه بسخاء، ويعرف قيمة الأدب والأدباء، الإعجاب بتلك الصفات التي

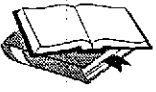
(١) الاستدراج: هو استمالة المخاطب بما يؤثر فيه ويأنس إليه أو بما يرغبه قبل أن يفاجئه بما يطلب

منه. الأقصى القريب، للتونخي، ص ١٠٣، مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٣٢٧هـ، الطراز، يحيى

ابن حمزة العلوي اليمني، ٢/٢٨١، ط بيروت، لبنان ١٤٠٠-١٩٨٠م.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٠٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٠٩-٣١٠.



خلعها على ممدوحه، خلف بن أحمد، الذي يمثل الحاكم الحق في نظره، لأنه: كعبة المحتاج، فيلجأ إليه ذوو الحاجة والمعوزون، وطلاب المكارم، ورائدو الجود. ومشعر الكرم؛ وموضع البذل والسخاء، وإسداء المعروف وحسن العطاء. وأما بيته فإنه بيت سبي: فتساق السبايا إليه. وقبله الصلات: فلاتظن أنني متوجه إلى المكان الذي يتوجه نحوه المصلي حين صلاته، إنما أنا سائر إلى المكان الذي تكون فيه الهبات والعطايا. ومنى الضيف: فإني لأقصد أني آخذ في طريقي إلى منى التي يسير إليها من يقضي فريضة الحج، ولكن أردت منى التي يذهب إليها الضيفان ويسرون نحوها، وأضاف منى إلى الضيف إشارة إلى كثرة عدد الواردين على حضرته، ثم بعد أن استنفد صبر السامع إليه، اتحفه بذكره في البيتين التاليين:

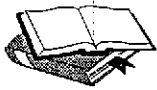
« بَحِيثُ الدِّينِ وَالْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ * * * وَخَدُّ الْمَكْرَمَاتِ بِهِ مُورَدٌ
بَأَرْضٍ تَنْبَتُ الْأَمَالَ فِيهَا * * * لِأَنَّ سَحَابَهَا خَلَفَ بِنُ أَحْمَدٍ »^(١)

فشبه المكرمات بإنسان يتزرقق في وجهه ماء السحاب، وتجري فيه الصحة والعافية، ويتقلب في أعطاف النعمة والرفاهية وكنى بتورد خده عن ذلك كله، وجعل سبب التورد في خد المكرمات: ممدوحه المقصود بالتوجه إليه، فكأنه يقول: إنه حلية المكارم وزينتها، وإن بقاءها ودوامها بوجوده وبقائه، والأرض التي أكرمها منبت الآمال، ومغرس الأمانى؛ لأن الذي يتعهد لها هو: خلف بن أحمد الذي لا يخيب عنده قاصد، ولا يضل بساحته مالك، ولا يضيع لديه رجاء.

وحق لحاكم كخلف بن أحمد له كل تلك الصفات السابقة، أن يكون محط إعجاب الهمداني، الذي نجده يذكر في مقامة أخرى أنه يلقي كرم الوفادة من الجميع، إلا أن كرم الأمير خلف بن أحمد لا يوازيه - في نظره - كرم وجود وسخاء وعطاء، وقد قيل له:

«لَوْ أَقَمْتَ بِهَذَا الْمَكَانِ لِقَاسِمْنَاكَ الْعُمَرَ فَمَا دُونَهُ، وَاصَادَفْتَ مِنَ الْأَمْطَارِ

(١) المقامة نفسها، ص ٣١٠-٣١١.



مَائِزْرَعٌ، وَمِنْ الْأَنْوَاءِ مَا يُكْرَعُ، قَالَ: مَا اخْتَارَ عَلَيْكُمْ صَحْبًا، وَلَقَدْ وَجَدْتُ فَنَاءَكُمْ رَحْبًا، وَلَكِنَّ أَمْطَارَكُمْ مَاءً، وَالْمَاءُ لَا يُرْوِي الْعِطَاشَ، قُلْنَا: فَأَيُّ الْأَمْطَارِ يُرْوِيكَ؟ قَالَ: مَطَرٌ خَلْفِي^(١) أي خلف بن أحمد .

وبعد خروجه عاد بعد مدة، وسأله ما وراءه، فقال: ((جمال موقرة وبغال مثقلة، وحفائب مقفلة، وأنشأ يقول :

مَوْلَايَ أَيُّ رَذِيلَةٍ لَمْ يَأْبَهَا * * * خَلْفٌ؟ وَأَيُّ فَضِيلَةٍ لَمْ يَأْتِهَا؟
مَا يُسْمِعُ الْعَافِينَ إِلَّا هَاكَهَا * * * لَفْظًا، وَلَيْسَ يُجَابُ إِلَّا هَاتِهَا
إِنَّ الْمَكَارِمَ أَسْفَرَتْ عَنْ أَوْجِهِ * * * بِيضٍ، وَكَانَ الْخَالُ فِي وَجَنَاتِهَا
بِأَبَى شَمَائِلُهُ الَّتِي تَجَلُّو الْعُلَا * * * وَيَدًّا تَرَى الْبَرَكَاتِ فِي حَرَكَاتِهَا
مَنْ عَدَّهَا حَسَنَاتٍ دَهْرٍ إِنِّي * * * رَمَسَنْ يَعُدُّ الدَّهْرَ مِنْ حَسَنَاتِهَا

... وَأَقَامَ النَّاجِمُ أَيَّامًا مُقْتَصِرًا مِنْ لِسَانِهِ، عَلَى شُكْرِ إِحْسَانِهِ، وَلَا يَتَّصِرُ مِنْ كَلَامِهِ، إِلَّا فِي مَدْحِ أَيَّامِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِإِنجَامِهِ^(٢).

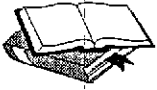
فهذا الحاكم إذا كان لإنسان أن يعتبر فضائله حسنة من حسنات الدهر، فالهمداني يقول: إن الدهر نفسه - وهو الذي يجود بالحسنات - حسنة من حسنات الأمير، وذلك نهاية المبالغة في الإطراء .

وها هو ذا بطل الهمداني في البصرة حيث يعرض على حاكمها أن يتخذه صنيعاً فكان رد الحاكم: ((بَلْ أَنْحَدِمُكَ خِدْمَةَ الرَّفِيقِ، وَأَشَارِكُكَ فِي السَّعَةِ وَالضُّيُوقِ^(٣)))، وبعد أيام أخذ الحاكم يفتش فيها عن الإسكندري إلى أن وجدته، وسأله

(١) المقامة (٣٧) : الناجمية للهمداني، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٩٥-٢٩٧.

(٣) المقامة (٣٨) : الخلفية، ص ٢٩٩.



عن سبب غيابه، فيبين أن سوء معاملة خدامه جعله يتعد عنه قائلاً: «وَأَنْتَ ... لَا اشْتَرَيْتَنِي لِتَبِيعَنِي خُدَّامَكَ، وَالْمَرْءُ مِنْ غِلْمَانِهِ، كَالكِتَابِ مِنْ عُنْوَانِهِ»^(١).

يريد أن نخدم الإنسان ينبئون عن أخلاقه، ويدلون على طيبه، كالكتاب يدل عليه عنوانه، وهذا ضد الذي يقوله بعض الناس: «إذا حسنت أخلاق السيد ساءت أخلاق المسود».

وأخذ يعطي صورة للحاكم الذي لا يعلم ما يحدث من أمور في دائرة حكمه، ويتعجب من ذلك فيقول: «فَإِنْ كَانَ جَفَاؤُهُمْ شَيْئاً أَمَرْتِ بِهِ فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ؟ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَلِمْتِ بِهِ كَانَ أَعْجَبَ»^(٢).

وكان عليه أن يكون رسول الله - ﷺ - قدوته في محاسبته لعماله، «فعن أبي حميد الساعدي - ﷺ - أن النبي - ﷺ - استعمل ابن الأثبية على صدقات بني سليم، فلما جاء إلى رسول الله - ﷺ - وحاسبه قال هذا الذي لكم، وهذه هدية أهديت لي، فقال رسول الله - ﷺ - فهلا جلست في بيت أهلك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً...»^(٣).

وهذا سبب من الأسباب التي جعلته لا ينسى حاكم سجستان: خلف بن أحمد، فبالعشرة مع سواه وجد أنه لا مثيل له، لذا قال:

«ظَفَرْتُ يَدَا خَلْفِ بْنِ أَحْمَدَ، إِنَّهُ * سَهْلُ الْفِنَاءِ مُؤَدَّبُ الْخُدَّامِ
أَوْ مَا رَأَيْتَ الْجُودَ يَجْتَازُ الْوَرَى * وَيَجِلُّ مِنْ يَدِهِ بِدَارِ مَقَامِ»^(٤)

فيدعو هنا لخلف بالخصب والنماء والقوة، لأنه كريم، حسن الوفادة، كثير الزوار، مع هذا تجد خدمه مؤدبين لا يسيئون إلى أحد، ولا يعمل منهم طارق، وفيه تعريض بحاكم البصرة الذي ذكر في أول هذه المقامة.

(١) المقامة نفسها، ص ٣٠٢.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب محاسبة الإمام عماله، ٩/٩٥.

(٤) المقامة نفسها، ص ٣٠٣.



ويعايش بطلنا نموذج آخر من الحكام يمثله حاكم سارية : وهي إحدى بلاد طبرستان الذي يقدر الأدب، ويحترم الأدباء، وإن كانت صور التقدير هناك - في المقامات السابقة - تمثلها العطايا والهبات، أما صورة التقدير هنا فيعبر عنها الاحترام الشديد لشخص البطل الأديب، والمتمثل في العذر الذي ساقه الحاكم للإسكندري قائلاً له : «مَعَاذَ اللَّهِ، وَلَكِنْ عَاقِبِي عَنِ بُلُوغِهِ عُدْرًا لَا يُمْكِنُ شَرْحُهُ، وَلَا يُؤَسِّى جَرْحُهُ، فَقَالَ :.... يَا هَذَا قَدْ طَالَ مِطَالُ هَذَا الْوَعْدِ، فَمَا أَجِدُ غَدَكَ فِيهِ إِلَّا كَيَوْمِكَ، وَلَا يَوْمَكَ فِيهِ إِلَّا كَأَمْسِكَ، فَمَا أُشَبِّهُكَ فِي الْإِخْلَافِ، إِلَّا بِشَجَرِ الْخِلَافِ، زَهْرُهُ يَمْلَأُ الْعَيْنَ، وَالْأَثْمَرَ فِي الْيَمِينِ»^(١).

فقد أعطى الهمداني هنا صورة للوالي أو الحاكم الذي يعد ولا يفي بوعدده، وشبهه بشجر الخلاف وهو شجر الصفصاف، أو هو نوع منه وبه يضرب المثل في حسن الظاهر، من غير أن يكون وراءه جدوى ولا نفع، وهذا هو وجه التماثل بين الوالي وشجر الخلاف: فإنه يخدعك منظره وتغرك رؤيته، ولكنك إذا فتشت في أثنائه وجهدت نفسك أن تجد ثمرة فلن تجد السبيل إلى ذلك .

وانطلق من عند هذا الحاكم بعد رفضه لعذره إلى الأمير خلف بن أحمد الذي

قال فيه :

«لَا دَرُّ دَرُّ الْفَقْرِ فَهِيَ ————— وَ طَرِيدُهُ وَبِهِ رُزِيَّتُهُ

لَأَسْلَطَنَّ عَلَيْهِ مِنْ * * * خَلْفِ بْنِ أَحْمَدَ مَنْ يَمِينُهُ»^(٢)

ويدخل الهمداني بطله على أحد ولادة الشام فيقدره حق قدره، ويقعده من المجلس في صدره، ويسأله عن أمره وحاله، «فَنظَرَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الْيَسَارِ، فَقَالَ: بَيْنَ الْخُسْرَانِ وَالْخُسَارِ، وَالذُّلِّ وَالصَّغَارِ، وَقَوْمِ كَرَوَثِ الْجِمَارِ، يَشْمُهُمُ الْإِقْبَالُ وَهُمْ مُتَتِنُونَ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ فَلَا يُحْسِنُونَ...»^(٣).

(١) المقامة (٤٧) : السارية، للهمداني، ص ٤٠٣-٤٠٤ .

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٠٦ .

(٣) المقامة (٤٨) : التميمية، للهمداني، ص ٤١٣ .

إنما التفت يميناً وشمالاً ليرى هل يحس به أحد، وهل هناك من يسمع كلامه فيتحاشى أن يذكر عيباً أو يخبر عنهم بقبيح. وقد أعطى بذلك صورة حسنة للوالي الذي قدره، وفي المقابل صورة سيئة لتلك البطانة التي تجلس معه فهم «كروث الحمام» فالسعد يأتيهم واليمن ينزل بساحتهم، والثراء والجاه يلزمانهم، في حين أنهم لا يستحقون من ذلك كله شيئاً. أما أفعالهم ونحلقتهم فهي بعيدة جداً عن أفعال الإنسان وأخلاقه، ثم أخذ يذكر بعد ذلك سجستان، ولم يعد خافياً أن بديع الزمان الهمذاني إذا ذكرها فهو يعني قاطنها فهذه البلدة هي خير البلاد، وأطيب الأماكن، وإن الملك الذي بها هو أكرم من فوق التراب، ولذلك تمنى أن تكون بلاد الدنيا كلها فداء لسجستان، وجميع العباد فداء لذلك الملك الكريم المقيم بها، كما ذكر ذلك في المقامة نفسها فقال:

«فِدَى لَكَ يَا سَجِسْتَانَ الْبِلَادِ * * وَلِلْمَلِكِ الْكَرِيمِ بِكَ الْعِبَادِ
هَبْ الْأَيَّامَ تَسْعِدْنِي وَهَبْنِي * * تَبْلَغِينِي رَاحِلَةَ وَزَادِ
فَمَنْ لِي بِالَّذِي قَدْ مَاتَ مِنْهُ * * وَبِالْعَمْرِ الَّذِي لَا يُسْتَعَادُ؟»^(١)

والقاريء للمقامة الملوكية يمر بذهنه خاطراً قول القائل :

إِذَا الْفِتْنَةُ اضْطَرَمَّتْ فِي الْبِلَادِ * * وَرُمْتَ النَّجَاةَ فَكُنْ إِمْعَاهُ

لأن البديع ممثلاً في الراوي يجمع على مدح جميع الملوك والثناء عليهم وهو بهذا يتكيء على نقطتين :

- اختيار جانب السلامة في وقت عمت فيه الفتن .

- طمعه بما في يد الجميع .

إلا أنه عاد إلى سيرته الأولى ونخص بالذكر ملكاً من دون الملوك قال عنه:

(١) المقامة نفسها، ص ٤١٤ .



«ومتى كان ملك يأنف الأكارم، إن بعثت بالدرّاهم والذهب، أيسر ما يهب، والألف لا يعمه إلا الخلف...»

فليت شعري من هذي مآثره * فما الذي يبلوغ النجم ينتظر؟! (١)

نعم، إن الأمر غريب جداً؛ لأن من كانت تلك سجايها، وهذه أوصافه ونوعته فأى شيء يرتجى من وصوله إلى النجم، وارتقائه فوق مناط الثريا؟.

إنه بذلك قد بلغ الكمال الذي لا يمكن المزيد عليه قط، وما ذلكم إلا خلف بن أحمد، لكن لماذا التأكيد على تثبيت شخصيته وتحديدتها دون بقية الحكام والأمراء؟.

سيزول الاستفهام، ويذهب التعجب بعد استقراءنا لكتب التاريخ؛ لنجد أن هذا الأمير جمع إلى بسط ذات اليد حبه للعلم عامة، وتشجيعه إياه، وهذا أطمع هؤلاء الناس - من أدباء وسواهم - للوقوف على بابه، والأخذ من نواله، فقد وجد البديع عنده الفيء الذي يتظلل به، فمن الطبيعي أن يشاق إليه كلما ابتعد عنه، ويفتقده في تطوافه بين البلاد؛ إذ لم يجد له نظيراً في كرمه وحبده عليه، وإكرامه له بإجراء العطايا عليه.

ولما كان الهمداني على علم بأن تطبيق نظام الإسلام، ومن يرعى عقيدته عملياً، هما القاضي، والحاكم، لذا أعطانا صورة للثنتين، إلا أن صورة القاضي لم تكن صورة للقاضي المسلم الحق، وكذا الحاكم إلا حاكم سجستان الذي كان قريباً من صورة الحاكم المسلم.

وأما ابن نباتة فقد أعطانا صورة للحاكم القدوة؛ حيث لم يترك صفة حسنة إلا وكان له نصيب منها، وذلك حين سأل راوي المقامة ومن معه بطل المقامة أن يهديهم إلى من يستضيئون بنوره بعد أفوله : «(الآن طلبتم الحكمة من أربابها، وأنتم البيوت من أبوابها، فعليكم بسحر الجود والعلم، وطود المجد والحكم، وكريم الفرع والأصل... إمام المصيرين، وفريد العصرين، علم الأعلام، وسنين شريعة الإسلام، فارس فرسان الكلام، وعين أعيان الأيام، صدر صدور العلماء، عهدا وسمى الكرماء،

(١) المقامة (٤٥) : الملوكية ، ص ٣٩٩-٤٠٠.



غَيْثُ الْمَحَلِّ الْهَامِلِ، وَلَيْثُ الْحَقِّ الْبَاسِلِ، سَيْدُ الْحُكَامِ، الْمَثْبُتُ الْأَدَائِ وَالْإِحْكَامِ، قَاضِي الْقَضَاةِ وَمَوْئِلُ الْعَفَاةِ، لِسَانَ الْحَقِيقَةِ وَيَدِيهَا، شَهَابُ الشَّرِيعَةِ وَمَحْمَدُهَا الشَّهَابُ الْمُسْتَنْبِرُ، شَمْسُ الْعَلَا عَلَى شَمْسِ السَّمَاءِ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْخَلِيقُ بِالْصَدُوقِ لِلْقُلُوبِ، مِنَ الْمَجَالِسِ وَالْمَوَاقِبِ فِي النُّزُولِ وَالرُّكُوبِ، الْمُسْتَضَاءُ بِهِ الْمَغْرِبُ وَالْمَشْرِقُ ...

فَاعِلُ الْخَيْرِ مَا نُسِبَ الْفِعْلُ إِلَى الْفَاعِلِ، وَظَهَرَ فِي الْمَعْمُولِ تَأْثِيرُ الْعَامِلِ، الْمَعْرُفُ بِالتَّصْرِيفِ، وَالْمَلْحَقُ بِأَوَائِلِ أَعْمَالِهِ، مَا يَتَعَدَى بِهِ مِنَ التَّضْعِيفِ، كَامِلُ الْمُنَاقِبِ، وَوَافِرُهَا بَسِيطُ الْأَيْدِي مَزُودُهَا، لَا يَتَحَقَّقُ مِنْهُ أَوْلَاهَا وَآخِرُهَا ...

الصَّادِرُ عَنِ أَكْرَمِ جُحْرُثُومَةٍ، وَأَطْهَرِ نَجَادٍ، وَأَطْيَبِ أَرْوَمَةٍ ... إِنَّ نَوْجِي أَجَابَ وَإِنْ حُوجِي أَصَابَ، الْبَصِيرُ بِحُلِّ مَشْكَلاتِ الْلفْظِ وَالْحِظِّ، الْجَدِيرُ لِذِي الْمَعْضَلَاتِ بِالرَّفْعِ وَالْحِطِّ ...»^(١).

لقد خلع الشيخ على هذا الحاكم كل تلك الصفات السابقة، مما دعا سائليه أن يتعجبوا، ويقولوا: «لقد أتيت جنادر عظيم، وهديتها إلى صراطٍ مستقيم، لكنك قد أحلتنا على أمرٍ أقرب منه ردّ الأُمس، ولمس جرم الشمس ...»^(٢).

إلا أن الشيخ أصر على موقفه من هذا الحاكم، وأزال كل تعجب أو لبس قد يرد على خاطر سامعيه فقال:

«إِنَّهُ كَمَا عَلِمْتُمْ، وَخِلَافَ مَا ظَنَنْتُمْ، فَهُوَ الْعَالِمُ وَالْعَامِلُ، وَالغَيْثُ الْهَامِلُ، وَالْحَبِيرُ وَالْعَابِدُ، وَالْخَيْرُ الْعَايِدُ، أَمِينُ الْجَانِبِ، وَمُدْنِي الْجَانِبِ، لَمْ يَزَلْ بَيْنَ رَاهِبٍ وَرَاغِبٍ، وَقَاصِدٍ وَطَالِبٍ، السَّيِّدُ الْمَتَوَاضِعُ، وَالْفَرِيدُ الْجَامِعُ، إِنْ تَكَلَّمَ فَالْفَرَائِدُ وَالْفَوَائِدُ، وَإِنْ أَشَارَ فَتَسَهَّلَ الْمَقَاصِدُ، مِنْهُلُ اللَّابِدِ، وَلَهْفُ الْعَايِدِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ سَمْتُهُ، وَيَمْتَلَأُ الْعَيُونَ وَالْقُلُوبَ صَمْتُهُ»

قَاضٍ بِنَصْرِ اللَّهِ مُسْتَعَصِمٌ * وَوَاتِقٌ بِالنَّاصِرِ الْقَادِرِ

(١) مقامة ابن نباتة السعدي (مخطوط)، ص ١٠-١١.

(٢) المقامة نفسها، ص ١١.



مَعْرُوفُهُ الْمَعْرُوفَ عَنِ نَافِعٍ ** وَجُودُهُ الْمَوْجُودَ عَنِ جَابِرٍ
بَسِيطُ بَجْدٍ كَامِلٌ سُودِدَا ** لَا يَنْشَى عَنِ بَرِّهِ الْوَافِرِ
أَدَامَ رَبُّ الْعَرْشِ أَيَّامَهُ ** سَعَدَا دَوَامَ الْفَلَكَ الْدَائِرِ

فإذا وصلتكم حماه، ووجدتم من نوره وهداه، فبشراكم ((...))^(١).

أما الحريري فقد صور لنا الحاكم في صور عدة منها مانراه في مقامته الإسكندرانية، والتي بدأها الراوي في كيفية استمالة الحكام، ليأمن جورهم، فقال:

« كُنْتُ لِقِفْتُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعُلَمَاءِ، وَثِقْتُ مِنْ وَصَايَا الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ يَلْزَمُ الْأَدِيبُ الْأَرِيبَ إِذَا دَخَلَ الْبَلَدَ الْغَرِيبَ، أَنْ يَسْتَمِيلَ قَاضِيَهُ، وَيَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ؛ لِيَسْتَدَّ ظَهْرَهُ عِنْدَ الْخِصَامِ، وَيَأْمَنُ فِي الْغُرْبَةِ جَوْرَ الْحُكَّامِ. فَاتَّخَذْتُ هَذَا الْأَدَبَ إِمَامًا، وَجَعَلْتُهُ لِمَصَالِحِي زِمَامًا، فَمَا دَخَلْتُ مَدِينَةً، وَلَا وُلِجْتُ عَرَبِيَّةً إِلَّا وَامْتَرَجْتُ بِحُكَايِمِهَا امْتِرَاجَ الْمَاءِ بِالرَّاحِ، وَتَقَوَّيْتُ بِعِنَايَتِهِ تَقْوَى الْأَجْسَادِ بِالْأَرْوَاحِ، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ حَاكِمِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ... »^(٢) أتى رجل وزوجه التي اشتكتها لهذا الحاكم، وروت له قصتها، فطلب الحاكم من الزوج أن يرد ويبين مدى صحة قول الزوجة^(٣).

وقد استطاع أبو القاسم الحريري أن يمس في مقامته بعض القضايا الجوهرية في صورة الحاكم في زمانه، من ذلك البطانة السيئة التي يمثلها الراوي، ومظهر السوء فيها يكمن في سبب تقربه منه «لِيَسْتَدَّ ظَهْرَهُ عِنْدَ الْخِصَامِ، وَيَأْمَنُ فِي الْغُرْبَةِ جَوْرَ الْحُكَّامِ»، ثم هو بعد أن عرف المتخاصم مع زوجته، ورغم علمه باحتياله إلا أنه لم يخبر الحاكم بذلك، فأين هو من قوله - ﷺ - : «مابعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة،

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) المقامة (٩)، ص ٦٨-٦٩، ت: يوسف بقاعي .

(٣) انظر: المقامة والصفحة نفسها.



إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله^(١).

فهو وإن لم يحضه على الشر إلا إنه من البطانة السيئة؛ لأنه سكت عن احتياهما على الحاكم، والساكت عن الحق شيطان أحرص، وبسكوته أعانهما على إتمام حيلتهما والظفر بالغنيمة. ويكشف حديث السائلة بإفاضة واسترسال عن رحابة صدر الحاكم، وسعة حلمه في إعجام شكوى المرأة، والسماع عموماً لرعيته إلا إذا كان الكلام هذراً لا طائل تحته، وقد عكست هذه المقامة حال الأدباء مع حكام ذلك العصر، فتشجيع الحكام لهم ينعكس عليهم بالعطايا والهبات، والعكس يجعلهم لا يجدون قوت يومهم كالسائل الذي بين أيدينا في هذه المقامة، والذي قال:

((فاليومَ مَنْ يَعلَقُ الرَّجَاءَ بِهِ * * أكسَدُ شَيْءٍ فِي سُوْقِهِ الأَدَبُ))^(٢)

وظهر الحاكم في صورة من لا يتوخون الحذر من مثل هؤلاء الناس الذين يلجأون إلى الأساليب التأثيرية، مثل: براعة المحتال في حبكة قصته حتى اقتنع بها الحاكم فد(فَرَضَ لَهُمَا فِي الصَّدَقَاتِ حِصَّةً، وَنَاوَلَهُمَا مِنْ دَرَاهِمِهَا قَبْصَةً)^(٣)، وبلاغته في إنشاد الشعر جعلت الحاكم يشغف بالأبيات، ويقول: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ ثَبَّتَ عِنْدَ جَمِيعِ الحُكَّامِ، وَوَلَاةِ الأَحْكَامِ انْقِرَاضُ جِيلِ الكِرَامِ وَمَيْلُ الأَيَّامِ إِلَى اللُّثَامِ))^(٤)، وربما لسطحية الحاكم الذي كان من المفترض أن يتصف ببعده النظر وعمق التجربة - دور في خروج الشيخ من عنده وهو يصفق بيديه، ويخالف بين رجليه بعد أن حصل على ما يريد، ولكن ما بال هذا الحاكم يضحك حتى هوت دنيته، وذوت سكينته، رغم معرفته بعد

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة - ؓ -، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته،

.٩٥/٩

(٢) المقامة نفسها، ص ٧٢.

(٣) المقامة نفسها، ص ٧٤.

(٤) المقامة نفسها، ص ٧٣.



ذلك باحتيال هذا الأديب عليه، فإذا به يقول : «اللَّهُمَّ بِحُرْمَةِ عِبَادِكَ الْمُقْرَبِينَ، حَرِّمْ حَبْسِي عَلَى الْمُتَأَدِّينَ»^(١).

وكان الأولى به أن يطأطيء الرأس خجلاً؛ لاحتيال الرجل عليه، وأخذ المال منه بدون وجه حق .

إذن فالحريري كان على صلة بالحكام لالينصحهم إذا أخطأوا، أو يذكرهم بالله إذا حادوا عن جادة الصواب، بل للاستفادة منهم إذا وقع في ضائقة أياً كانت تلك الضائقة، وربما كان لصلته «باعت آخر كالشوق كما بين في بعض مطالع مقاماته، حيث يبرز على لسان الحارث الباعث النفسي للرحلة كقوله: «... هَتَفَ بِي دَاعِي الشَّوْقِ إِلَى رَحْبَةِ مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ، فَلَبَّيْتُهُ مُمْتَطِياً شِمْلَةً، وَمُنْتَضِياً عَزْمَةً مُشْمَعِلَةً...»^(٢). وقد يكون «الباعث» عقلياً عملياً، لا يعتمد على الشوق العابر، والرغبة الطارئة...»^(٣).

ولعل تلك الصلات المختلفة هي التي جعلت الحريري يصور لأصناف الحكام في عصره، فهذا أحدهم مثلته المقامة العاشرة التي تلقى ظلالاً ثقيلة تغلب فيها قبضة الطين على نفخة الروح، وذلك حين يخلد الإنسان إلى شهواته، وتغلب العتمة على النور في نفسه، ولا أدل على تلك العتمة من ولع حاكم بحب الفتيان فدفعه لإعطاء بطل المقامة مبلغاً من المال ليحصل على فتاه ويتركه معه إلى الصباح^(٤).

ويعتبر هذا منعطفاً خطيراً في حياة المجتمع الإسلامي، بل هو منعطف غريب على المجتمعات الإسلامية، والأغرب أن يكون على الملأ، وهذا مظهر من مظاهر الانحطاط يؤذن بالسقوط.

(١) المقامة نفسها، ص ٧٥.

(٢) المقامة (١٠): الرحبية، للحريري، ص ٧٦، ص ٧٦، شملة : الناقة السريعة، اللسان، مادة: شمل، منتضياً: مجرداً، اللسان، مادة: نضى، مشمعة: سريعة حادة، اللسان: مادة اشعل.

(٣) انظر: التقليديّة والدرامية في مقامات الحريري، د. جابر قميحة، ص ٥١-٥٢، دار المعارف، القاهرة.

(٤) المقامة نفسها، ص ٧٦-٨٢.



فكم من المراحل مرت على هذا المجتمع ليصل لهذه المرحلة؟ لا بد أن تكون بعد تعبئة نفسية طويلة ومتدرجة حتى نرى الحاكم يمارسها، وبطل مقاماتنا يتندر بها، والبطانة تؤمن عليها ويكاد الإنسان المسلم لشدة غرابتها على المجتمع المسلم يستنكر، أو يشك في مصداقيتها، لكن - وللأسف - نجد لها إثباتاً تاريخياً فقد قيل: «(في سنة ٣٥٠هـ، ٩٦١م تقلد أبو العباس بن أبي الشوارب قضاء بغداد، بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معز الدولة مائتي ألف درهم في كل سنة. وكان هذا القاضي مع قبح فعله قبيح الصورة مشوها، وقد اتهم بالغلman والشهوات والخمور...»^(١).

وهذا صاحب اليتيمة يقول: «(وكان الولع بالغلman من رذائل القضاة المعروفة)»^(٢).

وقيل: واقتدى المعتصم بالمأمون في الولوع بالغلman، وإتيانهم حتى اشتهر بهم، وملك ثمانية آلاف منهم، وكان عند المعتمد بدر الجنار الذي يحبه ويؤثره، والمعتز يحب يونس بن بغا فلا يفارقه ولا يصبر عنه، وله فيه أشعار كثيرة، وكان يأمر له بكل جليل من الخزائن، وماندري سبب هذا التحول عن النساء إلى الولدان، ولعل هذا الشذوذ الجنسي آتٍ عن كثرة النساء في القصور، فملهن الخلفاء ومالوا إلى الولدان، أو كان ذلك بتأثير الفرس، فقد كانوا مولعين بذلك^(٣).

فلو كانت صحبة «المردان» المذكورة خالية عن الفعل المحرم، فهي مظنة لذلك، وسبب له؛ ولهذا كان المشايخ العارفون بطريق الله يحذرون من ذلك...»^(٤).

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متر، ٤١٠/١-٤١١.

(٢) يتيمة الدهر، للثعالبي، ٢٨٨/٢، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ.

(٣) انظر: بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي، د. صلاح الدين المنجد، ص ٥٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠م.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، كتاب التصوف، م ١١، ص ٥٤٢-٥٤٥.



لا بد أن مجتمع الحريري تجاوز مرحلة تعقبها مراحل طويلة سريعة، ليصل إلى هذه الهوة التي استغلها بطل المقامة فأعطى صورة سيئة للحاكم، والبطانة، والرعية.

ويعرض الحريري لصورة أخرى مغايرة للصورة السابقة فهذا حاكم يقبل على مجالس الوعظ والواعظين، ففي إحدى مقاماته أظهر لنا هذا النوع من الحاكم فقال: «عُنَيْتُ مَذَّ أَحْكَمْتُ تَدْبِيرِي، وَعَرَفْتُ قَبِيلِي مِنْ دَبِيرِي، يَا أَنْ أَصْغِي إِلَى الْعِظَاتِ... حَتَّى أَفْضِينَا إِلَى نَادِ جَمْعِ الْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ... وَوَسْطِ أَهْلِيهِ شَيْخٌ قَدْ تَقَوَّسَ... وَهُوَ يَصْدَعُ بَوَعْظٍ يَشْفِي الصُّدُورَ، وَيَلِينُ الصُّخُورَ... فَظَلَّ الْقَوْمُ بَيْنَ عِبْرَةٍ يُذَرُّونَهَا، وَتَوْبَةٍ يُظْهِرُونَهَا حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَزُولُ... اسْتَصْرَخَ مُسْتَصْرِخٌ بِالْأَمِيرِ الْحَاضِرِ، وَجَعَلَ يَجَارُ إِلَيْهِ مِنْ عَامِلِهِ الْجَائِرِ، وَالْأَمِيرُ صَاغَ إِلَى تَخْصِمِهِ، لَأِهِ عَنْ كَشْفِ ظُلْمِهِ، فَلَمَّا يَمْسُ مِنْ رَوْحِهِ، اسْتَنْهَضَ الْوَاعِظَ لِنُصْحِهِ، فَنَهَضَ نَهْضَةَ الشَّمِيرِ، وَأَنْشَدَ مُعْرَضاً بِالْأَمِيرِ:

عَجَباً لِرَاجِ أَنْ يَنَالَ وِلَايَةً * حَتَّى إِذَا مَانَالَ بُغَيْتَهُ بَغِي»^(١).

نلاحظ أن بطل الحريري يلبس في هذه المقامة ثوباً جديداً، ومغايراً، وينتهج منهجاً غير مباشر، فقد طرق كل السبل للوصول إلى المال، لكن مع ذكاء في الطلب، وبراعة في المقدمة والتي استهلها بموعظة غلفها ببطانة من التزلف، فهي تزلف في ثوب وعظ كرهه، ودعمه بالشعر ثم بالنثر ليصل لمبتغاه: «قال: أَيُّهَا الْمُتَوَشِّخُ بِالْوِلَايَةِ، الْمُتَرَشِّحُ لِلرِّعَايَةِ، دَعِ الْإِدْلَالَ يَدْوَلِيكَ وَالْأَغْزَارَ بَصُولِيكَ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ رِيحُ قَلْبٍ، وَالْإِمْرَةَ بَرْقُ نَحْلٍ، وَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ... فَلَاتُكُ مِمَّنْ يَذَرُ الْآخِرَةَ وَيُلْبِغِيهَا، وَبِحُبِّ الْعَاجِلَةِ وَيَتَّبِعِيهَا، وَيُظْلِمُ الرِّعِيَّةَ وَيُؤْذِيهَا، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا، فَوَاللَّهِ مَا يَغْفُلُ الدِّيَانَ، وَلَا تُهْمَلُ يَا إِنْسَانَ، وَلَا تُلْغَى الْإِسَاءَةُ وَالْإِحْسَانُ، بَلْ سَيُوضَعُ لَكَ الْمِيزَانُ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانَ»^(٢)، وقد آتت الموعظة ثمرتها، ووصل البطل إلى بغيته وأخذ يتهدى بين رفقته، ويتباهى بفوز صفقته التي ماترك وسيلة من وسائل التأثير إلا وغرف منها، وأدلى بدلوه ليس بعيداً عنها.

(١) المقامة (٢١): الرازية، للحريري، ص ١٥٥-١٥٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٦٠.



فالحاكم هنا عمل بما جاء في الموعدة التي وعظه إياها، وتأثر أيما تأثر، وأراد أن يكون من أسعد الرعاة فتسعد رعيته به، لقوله - ﷺ -: «من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وقره يوم القيامة»^(١).

لهذا نجد الراوي يقول: «فَوَجَمَ الْوَالِي لِمَا سَمِعَ، وَأَمْتَقَ لَوْنَهُ وَأَنْتَقَعَ وَجَعَلَهُ يَتَأَفَّفُ مِنَ الْإِمْرَةِ، وَيُرْدِفُ الزُّفْرَةَ بِالزُّفْرَةِ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الشَّاكِي فَأَشْكَاهُ، وَإِلَى الْمَشْكُومِ مِنْهُ فَأَشْجَاهُ، وَالطَّفَّ الْوَاعِظَ وَحَبَاهُ، وَأَسْتَدْعَى مِنْهُ أَنْ يَغْشَاهُ»^(٢).

وما وصل الواعظ هنا لهذه النتيجة إلا لأنه حاول التركيز على ربط القلوب بخالقها، وإن كانت العبارات خالية من حرارة الإخلاص، أبرزتها لنا الخاتمة التي وضحت الهدف من هذه العظة، والتي وإن ظهر فيها بوادر دفاء لكنه ناتج من إخلاصه لحاجته أكثر من إخلاصه لحاكمه.

غير أن صورة الحاكم هنا، هي الصورة الصحيحة للحاكم الذي من واجبه البحث عن العلماء، والوعاظ لكي يستنبط منهم، فهم خير عون له في إدارة الأمانة التي وضعها الله في عنقه، فيكونون خير معين له.

أما مقامته المسماة بالرقطاء ففيها مثال لأحد الولاة الذين يشجعون ويحبون أهل العلم والأدب، وهو والي الجرائم الذي فضل الذهاب إليه بطل مقاماتنا أبو زيد على الذهاب إلى حاكم المظالم، بعد إصرار أحد الدائنين على اقتياده إلى القاضي؛ ليستزد ماله؛ لأن صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي، ومن جملة الفروق بينهما:

«أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاة بكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة

(١) رواه أبو داود تحت رقم (٢٩٤٨) عن أبي مريم الأزدي قاله لمعاوية - ﷺ -، كتاب الخراج

والإمارة والفيء باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية، ١٣٥/٣.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.



الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة المحق من المبطل، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء، ليفصلوا النزاع بينهم صلحاً عن تراضٍ، وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك، وأنه يجوز له أن يتدبّر باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم؛ وعادة القضاة تكليف المدعي إحضار بيعة، ولا يسمعون البيعة إلا بعد سؤاله^(١).

فقال يشرح حاله تلك لراويها «الحارث بن همام»: «فَلَمَّا رَأَيْتَ اخْتِدَادَ لَدَيْهِ، وَأَنَّ لَامَنَاصَ لِي مِنْ يَدِهِ، شَاغَبْتَهُ، ثُمَّ وَاثَبْتُهُ، لَسِيرَافِعِي إِلَى وَائِي الْجَرَائِمِ، لَا إِلَى الْحَاكِمِ فِي الْمَظَالِمِ، لِمَا كَانَ بَلَّغَنِي مِنْ إِفْضَالِ الرَّوَالِي وَفَضْلِهِ، وَتَشَدُّدِ الْقَاضِي وَبُخْلِهِ»^(٢).
عندها كتب رسالة الرقطاء، فأعجبت ذاك الوالي فقضى ديونه، وجعله من خاصته، وليث عنده بضع سنين.

وهذا حال بطل مقامات الحريري مع الحكام والولاة الذين يذهب إليهم؛ ليحصل على عطاياهم إما برواية قصة عن حاله مع دائنيه كما ذكرنا آنفاً، وإما بالشكوى من عقوق ابنه لوال له صفات ذكرها «الحارث بن همام»: «فَنُعِيتَ لِي قَاضٍ رَاحِيْبُ الْبَاعِ، حَاصِيْبُ الرَّبَاعِ، تَمِيْمِي النَّسَبِ وَالطَّبَّاعِ»^(٣).

لكن هذا العقوق قد نفاه ابنه الذي وضح أن والده يريد أن يستجدي المال، وكل يؤيد مقولته بالشعر، إلى أن وقف القاضي مع الشيخ، وأجزل له العطاء: «فَلَمَّا أَنْ رَأَى الْقَاضِي تَنَافِي قَوْلِ الْفَتَى وَفِعْلِهِ، وَتَحْلِيَهُ بِمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِيهِ، نَظَرَ إِلَيْهِ بَعِيْنٍ غَضْبِي، فَقَالَ الْغُلَامُ وَالَّذِي جَعَلَكَ مِفْتَاحاً لِلْحَقِّ، وَفَتَّاحاً بَيْنَ الْخَلْقِ، لَقَدْ أَنْسَيْتُ مَذَّةَ أَسِيْتِ، وَصَدِيءَ ذَهْبِي مَذَّةَ صَدِيْتِ،... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلشَّيْخِ أَنَّ الْقَاضِي... سَيَنْصُرُ

-
- (١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متر، ٤٣٢/١-٤٣٣ منقولاً عن الأحكام السلطانية للماوردي، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ١٤١-١٤٢.
- (٢) المقامة (٢٦)، ص ١٩٧.
- (٣) انظر المقامة (٣٧): الصعدية، ص ٢٨٥.



كَلِمَتِهِ... أَنشَأَ يَقُولُ :

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي عِلْمُهُ ** وَحِلْمُهُ أَرْسَخَ مِنْ رَضْوَى
قَدِ ادَّعَى هَذَا عَلَى جَهْلِهِ ** أَنْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَخُو جَدْوَى
وَمَا دَرَى أَنَّكَ مِنْ مَعْشَرٍ ** عَطَاؤُهُمْ كَالْمِنْ وَالسَّلْوَى
فَجُدِّمًا يَنْبِيهِ مَسْتَحْزِيًا ** مِمَّا افْتَرَى مِنْ كَذِبِ الدَّعْوَى
وَأُنْتَبِي جَدْلَانِ أُتْبِي بِمَا ** أَوْلَيْتَ مِنْ جَدْوَى وَمِنْ عَدْوَى

فَهَشَّ الْقَاضِي لِقَوْلِهِ، وَأَجْزَلَ لَهُ مِنْ طَوْلِهِ...»^(١).

وفعل ذلك أيضاً مع قاضٍ آخر ففي المقامة التبريزية^(٢) حضر السروجي ومعه
زوجه إلى القاضي، وأخذوا في السباب على بعضهما «وَهُوَ يَفْتَعِلُ الْخِلَافَ الْحَادَّ مَعَ
زَوْجَتِهِ أَمَامَ الْقَاضِي إِلَى أَنْ يُخْرَجَا مِنْهُ بَعْدَ أَنْ خَدَعَاهُ بِدِينَارَيْنِ»^(٣).

وإن لم يفتعل حدثاً ما، فقد استجدى من الحكام، والولادة مباشرة، ولكن
بأسلوب شيق كما حدث مع والي مرو في المقامة المروية^(٤) واسمعه شعراً أعجب الوالي
فقربه منه وأجزل له العطاء.

«ومثل ذلك يقال عن كثير من القضاة... ونجد له بصمات وأصداء في
شخصية أبي زيد السروجي في حالين متناقضين تكرر امرات ومرات وهما: حاله
واعظماً يستدر العبرات، وينثر العظات والكلمات الطيبات، وحاله بعدها حين يخلو
لنفسه أو براويته الحارث بن همام»^(٥)، كما في المقامة التنيسية^(٦).

(١) المقامة نفسها، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) انظر: المقامة (٤٠)، ص ٣٠٣-٣١٠.

(٣) التقليدية والدرامية في مقامات الحريري. د. جابر قميحة، ص ٤٢.

(٤) انظر: المقامة (٣٨)، ص ٢٩١-٢٩٦.

(٥) التقليدية والدرامية، ص ٤١.

(٦) المقامة (٤١)، ص ٣١٤-٣١٨.



ولعلنا نخلص أن الحاكم أو الحكام الذين ورد ذكرهم في مقامات الحريري، هم صورة من حكام عصره، ولم لا والحريري كان على صلة بهم في حياته، فانعكس ذلك على نفسيته، فصوره لنا بتلك الأنماط المختلفة: فنراه مرة حاكماً عادلاً، وأخرى محباً للعلم والعلماء مشجعاً لهم، وثالثة ينفّر منهم ولا يجزل لهم العطاء، ورابعة نجد الهوى يباعد بينه وبين العدل .

ولاعجب فأدينا الحريري له صلة بالحكام والأدلة التاريخية تدعم ذلك، بل إن الحريري نفسه ذكر ذلك في مقدمة مقاماته أثناء ذكره للشخصية التي شجعتة على إضافة مقامات أخرى إلى المقامة الأولى التي كتبها :

«من أجل ذلك كنا نذهب^(١) إلى مارواه الشريشي في تعليقه على العبارة السابقة إذ روى عن بعض أساتذته: أن الذي أشار إليه الحريري في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) وكان له حظ في الأدب وعناية بأهل العلم، فقصده الحريري، وما زال يبعثه على صنع المقامات حتى أتمها ورفعها إليه، فبلغ عنده أسنى المراتب، وخلفه المسترشد فاتصل الحريري بكبار رجال الدولة لعهد، ومن هنا تأتي صلته بابن صدقة وزيره، وربما اتصل بأنو شروان كما اتصل بغيره من البارزين وقدم لهم نسخاً^(٢) .

أما أبو محمد طلحة بن أحمد بن طلحة بن الحسين النعماني فقد ذكر الحاكم في مقامته ممثلاً في شخص «قاضي القضاة عماد الدين أباً محمد طاهر بن محمد الفزاري، - كان الرجاء ومقصد الفضلاء، ومطلع السُّعود، ومنبع الجود- الذي أتى إليه أدينا سنة ٥٠٩، مادحاً، وفي مقامته ذاكراً إياه بعد أن اختار بطل مقامته مدينة (شيراز) دون سواها من المدن ليقصدها مع راويه :

(١) الكلام للدكتور شوقي ضيف، المقامة، ص ٤٤-٤٥ .

(٢) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص ١٢١، ط ١،



- وَشِمُّ بَرُوقِ الْجُودِ مِنْ فَارِسٍ ** ففارسٌ مُرْتَبَعٌ الْفَخْرِ
بِيضْتُهُمَا (شِيرَاز) فَاعْمِدْ لَهَا ** فَإِنَّهَا طَارِدَةُ الْفَقْرِ
بِهَا (عَمَادُ الدِّينِ) خَيْرُ الْوَرَى ** رَبُّ النَّدَى ذُو الْمَنَنِ الْغُرِّ
قَاضِي الْقَضَاةِ الْعَلَمُ الْمُرْتَجَى ** مَبْشَرُ الْأَمَالِ بِالْبِشْرِ^(١).

لكن لم تظهر في المقامة أية مواقف لهذا القاضي لتصنيفه لكن الأبيات تدل على أنه من الأخيار، ومجبي العلم، وكثيري العطاء، ولما كان ذكره في المقامة موضحاً بالاسم فهو يدل على أنه الأتمودج الحسن من القضاة في عصر كاتب هذه المقامة، وإلا ما امتدحه، بل وأطنب في مديحه، ولم لا، ونحن شاهدنا عند الحريري مثل هذا الصنف من الحكام، وطلحة النعماني ((ومن ورد البصرة في زمن الحريري صاحب المقامات فكتب إليه رسالته الشينية نظماً ونثراً))^(٢)، وها هو ذا يقول في مقامته نفسها مشيداً بعطاء (عماد الدين):

- ((وَلَوْلَا أَيَادِي (طاهر بن محمد) ** لَمَا حَلَمْتُ بِي قَطُّ فِي النَّوْمِ (شِيرَاز)
وَلَا حَتَّ بِي لَوْلَاهُ فِي الْبِرِّ سَابِحٌ ** وَلَا رَنَحْتِي فِي قَرَا الْكُورِ أَغْرَازِ
ولكن حداني نحوها جود كفه ** ففزت كما قبلي به معشر فازوا))^(٣)
ويقول أيضاً :

- ((مَنْ الْقَوْمِ بِالْبَيْضِ الْمَوَاضِي وَبِالْقَنَا ** وَبِالْحَيْلِ وَالزَّغْفِ النَّدَى وَالْعَلَى حَازُوا
حَوَّوْا بـ(عَمَادِ الدِّينِ) بَجْدًا مُؤَثَّلًا ** وَنَالُوا الْمَنَى، بَلْ فَوْقَ غَايَتِهَا جَازُوا
بِمَا شِئْتَ فَأَمْرٌ، فَالْقَضَاءُ مَتَابَعٌ ** يَضْرِفُهُ أَمْرٌ عَالَاكَ وَإِعَانُ))^(٤)

(١) خريدة القصر وخريدة العصر، عماد الدين الأصبهاني، ص ٣-٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣-٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٣ من الخريدة.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٥.



ويقول مؤلف الخريدة معلقاً على البيت الأخير: «البيت في لفظه ومعناه منسوج على منوال بيت محمد بن هانيء الأندلسي في مدح المعز الفاطمي:

مَا شِئْتَ لِمَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ!!! * فَاحْكُمْ، فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ!!

وهذا المذهب من الغلو في المدح والإفراط المفضي إلى الكفر... قد نهجه بعض ضعاف النفوس ومدخولي العقيدة من شعراء العربية، وشجع عليه الحكام الناقصون ليسدوا به الخلة ويوهموا شعوبهم قوة سلطانهم، وجلال شأنهم، وهيئات: وما كان أغنى هؤلاء المادحين عن صوغ مثل هذا اللغو، وأغنى هؤلاء المدوحين عن سماعه وقبوله»^(١)، وكأنهم لم يسمعوا حديثه - ﷺ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أمرنا رسول الله - ﷺ - : «أن نحثوا في أفواه المادحين التراب»^(٢).

أما الزمخشري فقد وضع نصب عينيه أن النصيحة واجبة على كل مسلم ومسلمة، قادر عليها، عارف بطرق تأديتها، قوله - ﷺ - : «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣).

وهو يعلم أن الرعية قد أدت هذا الحق للإمام في عهد رسول الله - ﷺ - وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده. وكان الحكام يشجعون الناس على قول الحق بتقبله منهم حتى قال قائلهم: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها»، هذه الممارسة الدعوية لا تؤدي دورها الحقيقي إلا حينما تتكئ على قضية أساسية مهمة وهي: ربط القلوب بخالقها حتى ترتقي وتشعر بالعزة، فلا عز لها إلا بلها لربها.

وهذه الملامح هي التي كانت تميز الأوائل، والتي على رأسها: حسن الصلة بالله، الذي يعطي قوة معنوية لا يقدرها إلا الذين يعيشون في هذا المجال الرباني الكريم.

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٤)، كتاب الزهد، باب (٥٤)، ٦٠٠/٤.

(٣) سبق تخريجه في ص ٨٠.



هذا ما حدا بالزمخشري أن يذكر في إحدى مقاماته حال أحد الحكام الذي حاد عن الطريق السوي الذي سلكه الأوائل، فيحبذ من يتدلل له، ويخضع نفسه لطاعته، فيقول:

« يا أبا القاسم ... أَلَا أُخْبِرُكَ بِكُلِّ مُهَانَ مُمْتَهَنٍ، فِي قَبْضَةِ الذُّلِ مُرْتَهَنٍ، كُلُّ مُتَهَالِكٍ عَلَى حَبِّ هَذِهِ اَهْلُوكِ، مَنْقَطِعٍ إِلَى أَحَدٍ هَوْلَاءِ الْمُلُوكِ، يَدِينُ لَهُ وَيَخْضَعُ، وَيُحِبُّ فِي طَاعَتِهِ وَيَضَعُ، لَا يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ، وَلَا تَهْدَأُ قَدَمُهُ، وَلَا يَنْحَرِفُ عَنِّ نِجْمَتِهِ هَمُّهُ وَلَا سَدَمُهُ يَنْتَصِبُ قُدَامَهُ انْتِصَابَ الْجَذَلِ، وَهُوَ مَلَانٌ مِنَ الْجَذَلِ، يَعْزِضُ بِحَسَبِهِ مَصُونًا وَمُهَوً كَمُنْدِيلِ الْغَمْرِ مُبْتَدَلٍ، لَهُ رُكُوعٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَتَكْفِيرٌ، وَخُرُورٌ عَلَى ذَقِيهِ وَتَعْفِيرٌ، وَاجْمًا لِاخْتِرَازِهِ مِنْ سَخَطَةِ الْمَلِكِ وَاحْتِرَاسِهِ...»^(١).

ونسى هذا الحاكم أن رسول الله - ﷺ -، قال: « إذا أراد الله بالأمر خيرًا، جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»^(٢).

هذه صورة لهذا الذي إن نسي الأمير لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه، يؤكدها حديث رسول الله - ﷺ - لذا لم يوجه الزمخشري الخطاب هنا للحاكم، بل توجه ليعظ ذلك الذي وافق أن يجعل من نفسه ذليلاً لغير الله، فذكره أن العزة الحقيقية هي في الاتصال بالله لا بأحد من عباده، ولجأ إلى المقابلة بين صورتين؛ الأولى: هي الصورة السابقة لذلك الإنسان الذليل بعبوديته لغيره من البشر. والثانية: الصورة المقابلة لإنسان عز بعبوديته لله، مستعيذاً به، مقتدياً برسوله، ناصباً قدميه في محرابه، وأظهر في المقابلة الأخرى عنصر الترغيب في العز الذي سيناله مستقبلاً... لأن الذل اليوم لا بد أن يقابله عز غداً، والتعب اليوم لا بد أن يقابله راحة غداً.

(١) مقامة (٢٧): العبادة، للزمخشري، ص ١٣١

(٢) رواه أبو داود تحت رقم (٢٩٣٢) بإسناد جيد على شرط مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - باب حث السلطان والقاضي وغيرهما ١٣١/٣.



ولعل هذه المقامة رد فعل للمرحلة الثانية من مراحل حياته*، والتي توفي فيها والده في سجن المؤيد، فكان له التأثير الكبير على نفسيته لبعده عنه، وكذلك لفقره، وانقطاع المعونة عنه، أدى ذلك لمدح عدد من الملوك والوزراء طمعاً في نيل منصب أو حظوة^(١)، ويقابلها المرحلة الأخيرة من حياته حين كان بمكة وعمره خمسة وأربعون عاماً وأصابه مرض تسبب في انقطاعه عن المجتمع الذي كان يعيشه، وآثر العزلة (فلما أصيب من سنة ثني عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التي سماها المنذرة وكانت سبب إنايته وفيئته وتغير حاله وهيئته)^(٢)، ندم على ما بدر منه من مطامع للوصول إلى المناصب، وما صدر منه من مدائح الملوك والسلاطين في سبيل ذلك، وعاهد الله إن من عليه ألا يظأ بأخصه عتبه سلطان، ولا يتصل بخدمتهم ويربأ بنفسه عن مدحهم، وأن يعكف على العلم: تعليماً وتعلماً وتأليفاً^(٣).

فصورة الإنسان المتذلل بعبوديته لغيره من البشر تمثلها المرحلة الثانية من حياة الزمخشري، ووقوفه أمام أبواب الحكام لينال الحظوة منهم في مقابل ذلك صورة إنسان آخر عز بعبوديته لله تمثلها المرحلة الأخيرة من حياته حين جاور بيت الله الحرام، وهي مرحلة عطاء، وإنتاج تمخضت عما كابده في سنوات التحصيل والطلب، حيث

(١) يتيمة الدهر، للثعالبي، ١٠١/٤. ت: محمد يحيى الدين.

(٢) انظر: مقدمة مقامات الزمخشري، ص ١١، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٣) انظر: مقدمة المقامات نفسها، ص ٧، وكذا الصفحة (١١).

(*) مرت حياة الزمخشري بثلاث مراحل؛ الأولى: نشأته في قريته (زمخشري) حيث حفظ القرآن،

وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد والده الذي كان إماماً بقريته، ورحل إلى بخارى لطلب

العلم وفي هذه المرحلة قطعت رجله وهو في سن الصبا، الثانية: طلب العلم حيث خرج من

زمخشري إلى خوارزم وفي هذه المرحلة بدأ نشاطه ورحلاته وهي أهم مراحل حياته العلمية

لنضوج عقله، الثالثة: تكامل شخصيته العلمية، فتطورت صلاته الإجتماعية وكثر اتصاله بأهل

العلم وجاور بيت الله الحرام سنة ٥٠٢هـ ولقب نفسه بحمار الله.. انظر: الزمخشري لغويًا

ومفسراً، ص ٩٧-٩٨، وطبقات المفسرين للسيوطي، ت: علي محمد عمر، ص ٤١، مكتبة

وهبه، القاهرة، ط (١) ١٣٩٦هـ، ومعجم الأدباء، الحموي، ٨٦/١٤، ويتيمة الدهر للثعالبي،



ألف أشهر مؤلفاته وأنفعها في هذه الفترة، وقد وجد من رعاية ومحبة الشريف علي بن حمزة بن دهاس الدافع الكبير لهذا العطاء الزاخر^(١).

لكن لماذا خصص الملوك من دون بقية العباد؟

ربما لكونهم أفضل شريحة في المجتمع تملك الحل والربط ... والتقديم والتأخير، ومع ذلك لاتعني من الله شيئاً ... بل نجد محاولة من الزمخشري وهو ينفر من التذلل للحكام بعرض صورة الإنسان الذي يقف على أبوابهم في حالات مزرية كريهة، فيقول: «هُوَ كَمَنْدِيلِ الْغَمْرِ، مُبْتَدَلٌ، ... خَرُورٌ عَلَى ذَفْنِهِ وَتَعْفِيرٌ، وَاجْمًا لِاحْتِرَازِهِ مِنْ سَخَطِ الْمَلِكِ ...»^(٢)، فاكتملت بذلك الصورة عند الزمخشري في الابتعاد عن أبواب الملوك.

وهذا الأسواني لا يبرز الحاكم إلا من صورة واحدة؛ هي كونه محباً للعلم وأهله، مما جعل داره مورداً للأدب والأدباء، ومحط رحال العلم والعلماء، ومثل للحاكم عنده «آل المهلب» فقال واصفاً نفسه أولاً ليعلي من شأن من سيقدرون هذا العلم والعلماء: «كُنْتُ فِي عَنفَوَانِ عُمَيْرِي وَرَيْعَانِهِ ... اشْتَأَقُ إِلَى الْاِغْتِرَابِ ... حَتَّى قَلَوْتُ الْفَلَوَاتُ تَشْرِيقًا وَتَغْرِيًا ... لَا أَحِطُّ بِوَادٍ وَلَا أَنْزَلُ بِحَضْرٍ وَلَا بِوَادٍ إِلَّا صِرْتُ عَٰلِمًا لِعِلْمَائِهِمْ وَفَضْلَائِهِمْ، وَمَعْلَمًا لِأَدْبَائِهِمْ، وَأَلْبَائِهِمْ، فَلَمَّا نَزَلْتُ بِالْحَصِيْبِ ... أَلْفَيْتُ بِهَا مِنْ وَجْهِ الْأَدَبِ وَعَيْونِهِ، وَبِنَابِيعِ الْعِلْمِ وَعَيْونِهِ مَا أَظْفَرَنِي قِصْوَى الطَّلَبِ، وَنَزَلْتُ مِنْهُ عَلَى آلِ الْمَهْلَبِ، وَأَذْهَلَنِي عَنِ الرَّحْلِ وَالْوَجْنَاءِ ...»^(٣).

إذن فال المهلب من الحكام أو الوزراء الذين يشجعون أهل الأدب، حتى إن صاحب مقامتنا يروي على لسان بطله أنه ألقى ببلدتهم وجوه الأدب وعيونه، وبنابيع العلم وعيونه، فلو لم يكن آل المهلب ممن يقدرونهم حق قدرهم لرحلوا إلى من يعرف للعلم مكانته وللأدب فضله.

(١) انظر: مقدمة تفسير الكشاف، للزمخشري، ٣/١.

(٢) المقامة نفسها (٢٧)، ص ١٣٢.

(٣) المقامة الحصيبية، للأسواني، ص ١.



وللحاكم صور أخرى عند ابن الجوزي، فهذا أحد الحكام يذهب بنفسه إلى أماكن الوعظ ليستمتع للوعاظ، وربما هي وصف لمجلس من مجالسه - ابن الجوزي - التي حضرها الخليفة المستضيء^(١)، فيقول: «كَانَ بَعْضُ السَّلَاطِينِ يَنْتَقِلُ مِنْ سَهْوَةٍ سَهْوٍ، إِلَى بَهْوٍ لَهْوٍ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَعْجَبٌ بِعَجْبِهِ قَدْ زَهَا عَلَى الرَّهْوِ، وَالْمَلَاهِي قَرِيْبَةً مِنْهُ، وَالْمَنَاهِي بَعِيدَةً عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَاهُنَا مَذَكَّرٌ بِجَلِيْسِهِ فُرْجَةَ، فَأَحْضَرَهُ وَأَحْضَرَ فِي مِيدَانِ الْحُجَّةِ، فَصَادَفَ قَوْلَاذَا يَنْفَعُهُ الصَّقْلُ، وَمُمِيزًا يَعْرِفُ خِيسَةَ الْهَوَى مِنْ شَرَفِ الْعَقْلِ»^(٢).

ثم يبرز لنا صورة هذا الواعظ وقد ارتدى حلة الشجاعة والجرأة حين شاهد السلطان فانبرى يعظه حتى ((جاز الحد في الوعظ))، فقال: أَيُّهَا السُّلْطَانُ إِنَّ تَكَلَّمْتُ خِيفْتُ مِنْكَ، وَإِنْ سَكَتُ خِيفْتُ عَلَيْكَ، وَأَنَا أَقْدَمُ خَوْفِي عَلَيْكَ لِحُبَّتِي لَكَ، عَلَيَّ خَوْفِي مِنْكَ»^(٣). فها هنا براعة في الاستهلال بهذه التوطئة النفسية حتى يصل للكلام الذي سيقوله.

ثم المعالجة الدعوية وذلك بالدعاء للحاكم: «اسألِ الذي وَاكَّ أَنْ يَتَوَلَّاكَ»^(٤)، ومن ثم التأكيد على جوانب الضعف في حياة الحكام عامة فجعله في مقابلة مع نفسه، ولجأ إلى ذلك بأسلوب غير مباشر، وذكره بأن هناك من هو أعلى منه ((إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَجْعَلْ أَحَدًا فَوْقَكَ، فَلَا تَرْضَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَطْوَعُ مِنْكَ))^(٥)، وهو بهذا يربطه بأهم مبدأ عقدي وهو مراقبة الله - سبحانه وتعالى - وهي الخلاصة التي يريد أن يصل إليها من هذا الوعظ كله.

ولأسلوبه المؤثر طلب منه الاستزادة في النصح .

(١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ٢٩/١٣، وتذكرة الحفاظ، للذهبي، ١٣٥/٤، دار إحياء

التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢) المقامة (٣٤): في وعظ السلطان، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٦٨.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة والصفحة نفسها.



ولما كان الموضوع حيويًا ومهماً أفصح عنه ابن الجوزي كل الإفصاح وأبدى فيه وأعاد، وضرب لذلك أمثلة محسوسة يعيشها المخاطب ويتعامل معها العقل والوجدان.

فجاءت الأخبار مترتبة بطريقة الترقى ثم جاء الخبر الأخير كالنتيجة لها، وهو عدم التعلق بالدنيا، ومن هنا فرع عليه، فاستخدم أسلوباً غير مباشر فعرض صوراً ونماذج واقعية من حياة الحكام «الخلفاء الراشدين»، تكاد تكون مثالية؛ أملاً أن يقتفي الحاكم الخطأ، ولماذا نذهب بعيداً وتاريخ الحكام مليء بالصور المشرقة التي كانت تقوى وعدلاً يمشي على الأرض... فأين هو من أبي بكر والعمرين: «عمر بن الخطاب، وعمر بن عبدالعزيز»، ثم يختار مقولة عمر بن الخطاب التي ترسم العدل والأمانة في لوحة الحياة واقعاً ينظر له التاريخ من خلف الأزمنة: «قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لو هلكت سحلة بشطّ الفرات، خفت أن أسأل عنها، وأبما عامل بلغني ظلمه، ولم أعيره فأنا ظلمت»^(١).

لكن لماذا هذا التركيز من قبل ابن الجوزي في الوعظ على التزهّد في الدنيا؟ ربما لأن التعلق بالدنيا هو رأس كل خطيئة، لكنها في حق الحاكم أكد؛ لأنه يملك حقيقة متعها، ومن هذا المنطلق وجد ابن الجوزي أنه موضوع يحتاج إلى قرار وتمكين في نفس السامع، وتثبيتته في قلبه، وخاصة أن ما يتعلق به - الدنيا - هو موضع إنكار فجاء التوكيد بالترار هنا قوياً تنبيهاً للنفس لترى ماموقعها، ولم كانت بعد أن تمادت في التعلق بها منصرفه عن التفكير المستقيم المؤدي إلى التعلق بالله، فكانت هذه الغفلة تشغلهم عن التفكير؛ لذا هاجم ابن الجوزي الدنيا بكل قوة عن طريق مناقشة العقل والوجدان معاً ليصلا إلى الحق بأنفسهما ويلزمهما الحجّة، ويقودهما إلى الصواب، قال: «فتحكم سلطان الوعظ في ذلك السلطان، أما في الباطن فبكأء إنسان ذلك الإنسان، وأمّا في الظاهر إفاضة البرّ والإحسان»^(٢).

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٧٤.



كما نجد ابن الجوزي حين يعظ الحاكم يتحدث من منطلق أقوى للتأثير، وأعم وأدعى حين يذكر بالموت والآخرة من منطلق القائل: «إنها لو دامت لغيرك ما وصلت إليك»، فلتكن على يقين أن هذا الذي أنت فيه تكليف وليس تشريفاً، وأنها أمانة ستحاسب عليها، فقال: «أَيُّهَا الْعَبْدُ لَا تَشْتَغَلْ بِالْدُّنْيَا عَنْ الْمَوْلَى فَهُوَ غَيُورٌ، وَكَيْفَ تَغْتَرَّ بِغَيْرِ هَوَى يُغْرِي وَيَغُورُ، وَكَمْ عَدَلَتْ عَنْ الْعَدْلِ وَحَاضَرَتْ الْمَحْظُورَ، أَتَنْظُرُ الْبَقَاءَ، وَقَلَّ تَدْرِي الْفِرَاقَ كَالْأَطْوَاقِ فِي النَّحُورِ، أَمَا تَعْتَبِرُ بِأَقْرَانٍ قُرِنُوا بِقِرَائِنِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْقُبُورِ»^(١).

وقد أحسن ابن الجوزي في هذا الاختيار؛ لأنه لا واعظ كالموت فهو الضابط في حياة الفرد سواء نسيه أم تناساه؟ فجاء ابن الجوزي ليضع الحاكم في موقف مقابل تماماً للموت، وأنه لانجاة له إلا بتقوى الله المتمثلة في عدالة الحاكم مع نفسه أولاً، ثم مع رعيته وكأني بابن الجوزي في ذلك يتمثل بقول رسول الله - ﷺ -: «مامن عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة»^(٢).

وفي رواية لمسلم: «مامن أمير يلي أمور المسلمين، ثم لا يجهد لهم، وينصح لهم، إلا لم يدخل معهم الجنة»^(٣).

ويكفي بهذه الأمثلة موعظة، فهي تعطي عزة للحاكم المؤمن هذه العزة التي ناقشها الزمخشري في مقامته^(٤) وهو يعظ الحاكم بالموت، إلا أننا نجد قد بدأ من النهاية، وبدأ ابن الجوزي من البداية فكانت بدايته أوقع وأقوى، فالتذكير بالموت يدخل في القلب الرهبة، فتنبه بقية الحواس، وتصيخ الأذان استعداداً لما يقال. إلا أن ابن الجوزي بعد ذلك يرسم صورتين تكادان تكونان متشابهتين إلا من زوايا مخبوءة

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧٢.

(٢) رواه البخاري عن معقل بن يسار - ﷺ - كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، ٨٠/٩.

(٣) عن معقل بن يسار - ﷺ - كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ١٤٦٠/٣.

(٤) المقامة (٢٧): العبادة، للزمخشري، ص ١٣١.



تكنم في أعماق كل فرد تترجمها تصرفاته وهي تبرز في الدافع الذي جعل الحاكم يذهب بنفسه إلى مجلس الوعظ، وهذا هو وجه الاختلاف في صورته الجزئية عن الحاكم في المقامات الأخرى لابن الجوزي والتي منها :

«مقامة العزلة»، فقد بين سبب عزلته الكامن في شر الناس، ثم أخذ يوضح مكنم الشر عند كل صنف من أولئك الناس، وذكر ضمن هؤلاء الحكام، فقال:

«وأما الحكامُ فلهم أحكامٌ ولأطيلُ، من أقلها قبول البراطيل، يستشهدون الجاهل والغرّ، والشهودُ يشهدون وماعرفوا المقرّ، وقضاهُ على النفوسِ قضاةٌ، وعدولٌ عن الصوابِ عدولٌ»^(١).

وكان عليه أن يتحرى العدل ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ف قضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»^(٢).

وأما قوله : «قضاة على النفوس قضاة، وعدول عن الصواب عدول». فهذه صور مغايرة تماماً عن صورة الحاكم السابقة، فهم يصدرن أحكاماً بعيدة عن الدين، وابن الجوزي لا يريد أن يطيل في ذكرها لكثرتها وأما الشهود الذين يعتمدون عليهم في إصدار أحكامهم فهم شهود زور فسيكون الحكم الصادر بالتالي جائراً وكأنهم لم يسمعوا لقوله - عليه الصلاة والسلام - : « عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله » ثلاث مرات^(٣).

حتى القضاة الذين يتولون القضاء بين الناس، لم يتحر الحاكم أثناء اختياره

(١) المقامة (٣٧): في العزلة، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٢) رواه أبوداود عن ابن بريده - صلى الله عليه وسلم - تحت رقم (٣٥٧٣)، كتاب الأفضية، باب في القاضي يخطيء، ٢٩٩/٣.

(٣) رواه أبوداود، تحت رقم (٣٥٩٩)، كتاب الأفضية، باب في شهادة الزور، ٣٠٥/٣.



لهم؛ لأنه وصفهم بقوله: «عُدُولٌ عَنِ الصَّوَابِ عِدُولٌ»: أي بعيدون عن جادة الصواب في إصدار أحكامهم.

فلما كانت هذه صورة حاكمهم وقضاتهم أثر ابن الجوزي العزلة في هذه المقامة، وفي مقامة أخرى، بين سبب مرضه الكامن في قبح سيرة المسلمين في عصره آنذاك، وأخذ يعددهم كالمقامة السابقة، ويذكر مكان القبح عند كل منهم فالعلماء لا يحافظون على الحقوق، والمذكورون يزينون الباطل، والمتزهدون يتصنعونه، ثم زاد على ذلك بقوله:

«وَالْحُكَّامُ فِي أَحْكَامٍ وَفِي دِينِ الشُّهُودِ خُرُوقٌ ۖ وَالْأَمْرَاءُ فِي صَبَوحٍ مِنَ الْمَعَاصِي وَغَبُوقٌ»^(١)

هذه صورة لحاكم وأمير بعيدين كل البعد عن طريق الحق المستقيم، فالأول يخرق أمور الدين بالأحكام التي يصدرها، والثاني غارق في المعاصي ليل نهار، فكيف يرعى أحوال رعيته وهو على تلك الحالة؟!.

ونخلص إلى أن صورة الحاكم في المقامات هي امتداد لصورته من نهاية العصر الأموي إلى الفترة التي قام البحث بتدوينها، وتناوله الأدباء برؤية إسلامية، وأخرى غير إسلامية، حيث عرف الضرب على أبواب الحكام عن طريق الثناء والمديح سواء كان شعراً أم نثراً، وتبذل من أجله العطايا والهبات بشكل مبالغ فيه، ولعل لذلك أسباباً سياسية واجتماعية، يركز فيها الحاكم على ثناء المداحين فيطير ذكره في الآفاق، ويهابه الخاصة والعامة، والقاصي والداني. وكأنه في هذا يقنع الشعب بصلاح الحاكم فتظل الصورة المشرقة التي يريدتها أمام الرعية ظاهرة للعيان، والصورة الأخرى مخبوءة، ومع هذا يجب على الرعية السمع والطاعة لهذا الحاكم حتى وإن كان فيه ما يكره، لقوله - ﷺ - : «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»^(٢).

(١) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، مقامات ابن الجوزي، ص ٤٠٢.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس - رضيهما -، كتاب الإحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٧٨/٩.

الفصل الرابع

الجهاد في المقامة



إن المؤمن حين يجعله إيمانه يتفاعل مع وحي الله تعالى من كتاب وسنة تفاعلاً حقيقياً حياً بحيث يكون موقناً برقابة الله عليه، وموقناً بأن الله تعالى أرحم به من أبيه وأمه، فإنه يحيا تحت جناحي خوفه من الله تعالى ووجه له، فيمنعه الخوف من التحالف مع الشيطان والتبعية له، ويدفعه الحب إلى عبادة الرحمن والتمتع بالخضوع لأمره ونهيه، وعندما يصير كذلك فإنه يصبح صاحب رسالة، له غاية يسعى إليها وهي: رضا الله تعالى وشكره وحسن عبادته.

وله وسيلة محددة توصل إلى هذه الغاية، وهي: السير على النهج الرباني، والشريعة الإلهية التي اختارها الله تعالى لتكون وسيلة إلى الغاية المرجوة، وخلاصة الغاية والوسيلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١).

فالغاية أن يكون الإنسان خير خلق الله، وأن يرضى عنه ويرضى هو بعباء الله تعالى.

والوسيلة إيمان وعمل، وكل من الغاية والوسيلة أمر صعب المنال على البشرية في مجموعها حيث يحتاج إلى أمور ثلاثة، كل منها شاق وصعب، وكل منها يحتاج صبراً ومصابرة، وثباتاً وتضحية، وبذلاً من النفس والمال والوقت والتفكير، والجهد، والعلم، والعمل، وكل شيء يملكه الإنسان، أو يتحكم فيه وهي:

١- جهاد النفس .

٢- جهاد المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣- جهاد العدو بالسيف والمدفع [السلاح].

وهذا بديع الزمان الهمداني يذكر الجهاد بالسيف في المقامة القزوينية، وحدد

(١) سورة البينة، الآيات ٧-٨.



البلد والعام، فإذا البلد قزوين وهي إحدى بلاد الديلم، والعام سنة خمس وسبعين، وبدأ بعد ذلك يبين ماتعرضوا له في الطريق ليصلوا إلى العدو، فإذا الطريق مابين أرض مرتفعة وغلظة، وأخرى سهلة منخفضة، يعلون تارة ويسفلون أخرى، ويرتفعون أحياناً وينخفضون أخرى؛ لكون الطريق غير ممهدة ولا معبدة بل كثيرة المنخفضات والمرتفعات.

أما شدة الحر وخاصة وقت انتصاف النهار، جعلتهم يعزمون على أن يستظلوا؛ ليتقوا حر الهاجرة، وقد وجدوا مأغراهم على ذلك من شجرة عالية وريفة الظل، وعين ماء صافٍ براق كلسان الشمعة في ضوئها، تسيل مأوها على الأرض الرضراض: ذات الحجارة الصغيرة والحصى، وتتلوى فوقها كما تتلوى الحية.

لذا توقف الجميع لينالوا كفايتهم من الطعام والقيلولة، فإذا بهم يسمعون جلبة منعت النوم من عيونهم، ومن عيني الراوي الذي لم ير صاحب الصوت؛ لأن الأشجار حالت دون ذلك، لكنه سمعه على إيقاع الطبول يدعو لدين الله؛ لأنه الموصل إلى الجنة، وهي الجهة المتسعة والمربع الخصب، فهل يتبعني أحد منكم؟
كما وصف تلك الجنة التي يدعو إليها بأنها كثيرة الثمار.

وأخذ يبين بأنه رجل راجع من بلد الكفر، ويصف حاله في الكفر بأنه جحد وأنكر ربه ولم يؤمن به، ويأتي بالأعمال المريية، ويأكل لحم الخنزير، ويشرب المسكر، وبعد أن هداه الله؛ وخرج من ذل الكفر أخفى اعترافه بربوبية الله الذي يعبده عن العدى، وظل يعبد اللات جهراً، ولا يتوجه إلى القبلة؛ خشية الرقباء من قومه وعشيرته وجعلهم عدى؛ لمعاداتهم في الدين، ولهذا يسأل الله ويدعوه - في الليل الذي يستره ويخفيه عن العيون بعد يوم وصفه بأنه عصب - أن ينجيه منهم ويتم نعمته عليه، التي أولها إنقاذه من دينهم ووصف نفسه بأنه (غريب) فيهم، لذا سار ليلاً تاركاً إياهم بعزم، وقد استعار لعزمه الجنيب^(١) دلالة على أنه كان دائم العزيمة ثابتها، ويكفيك ليلة من الليالي التي سارها، والتي دلت على هولها بأن رأس الطفل يكاد يشيب منها.

(١) وهي الناقة التي يأخذها المسافر جوار ناقته ليركبها إذا تعبت الأولى. انظر: اللسان، مادة: جنب.



لكن كل ذلك زال بعد أن اجتاز بلاد الأعداء ووصل ديار الإسلام، ووصف دقّ القلب بأنه وجيب من كثرة خفقانه واضطراب دقاته؛ من جراء الخوف والفرع. ونفضه: طرحه كأنه شيء يلفظ ويرمى به وذلك تمثيل لشدته وهوله حتى إنه ليكاد يكون كذلك، لكن (نصر من الله وفتح قريب) تعبير عن وصوله لديار الهدى ..

ثم بدأ يوضح لهم لماذا وطىء دارهم؟

وطئها لا بدافع العشق ولا رغبة في الغنى؛ لأنه ترك خلفه حدائق وأعشاباً وجواري وخيولاً، وقناطير مقنطرة، وعدة وعديداً، ومراكب وعبيداً. وشبه خروجه من بيته، بخروج الحية من جحرها، والظائر من وكرة أي حين اللزوم لذلك. وهو خرج؛ لأنه آثر دينه على دنياه، وجماع يمتناه إلى يسراه ليدل على فقره، وواصل السير ليل نهار طلباً للفرار، ومبادرة إلى الهرب والنجاة منهم .

ثم هو يطلب منهم أن يمتنوه من غزو بلاد الروم فكأنهم حين يساعدونه على ذلك قد دفعوا النار بشرارها، وهي من جنس النار، يقول: «ورميتُم الروم بجِجَارِهَا»^(١): بمعنى من هو على شاكلتها، والطريق إلى ذلك كله إعطائي المال كل على قدر طاقته فهو يقبل البدرة والذرة: أي النملة الصغيرة أو الجزء من الهباء والتي يضرب بها المثل في الحقارة والقلة أي تعليل القليل والكثير، وفي مقابل ذلك ستلقون مني سهمين: سهم احده وافوقه وأعدده للرمي للقاء غزو الروم، وسهم أوشق به أبواب السماء بالدعاء في ظلمة الليل: أي من أعانني بما طلبت أكافئه بأن أقوم له بالاستعداد؛ لنصرته على عدوه فأنفعه عاجلاً، وبأن أدعو له الله فأنفعه آجلاً.

فلما سمع كل ذلك الراوي (عيسى بن هشام) استهواه عجب ألفاظه فخلع جلباب النوم وأسرع إلى القوم فإذا بالرجل أبو الفتح الإسكندري، وقد شهر سيفه، وأخفى نفسه تحت زي لا يعرفه فيه أحد، ولكنه أشار إليه إشارة خفيفة ليتستر عليه ولا يظهر أمره وقال: رَجِمَ اللهُ من أعاننا بِفَاضِلِ ذِيْلِهِ،

(١) انظر: المقامة (١٨): القزوينية، مقامات بديع الزمان الهمداني، ص ١٠٣-١٠٤.



وَقَسَمَ لَنَا مِنْ تَيْلِهِ ثُمَّ أَخَذَ مَا أَخَذَ (١).

بقي سؤال : هل ظهر لنا في هذه المقامة ما يبيء عن الجهاد؟

ماهي إلا لمحات نحاطفات ظهرت في الاستعداد للغزو، ومن ثم ملاقوه من عنت الطريق ووعورته وشدة حرارته ..

كما أنه يمكن أن نعتبر تلك الظلال الوارفة والعين السائرة والتي مثل لها بالحياة التي تتلوى .. من المغريات التي تشبط عزيمة الجندي فيقارن بين ما هو فيه، وما هو آيل له؛ ما فيه: من النعيم والراحة والهدوء والسكينة، وما يؤول إليه: من عقبات لاتعد ولا تحصى، وضجة مردها ضرب الرماح وصلصلة السيوف، وصهيل الخيول أثناء المعارك .. والخاتمة التي يعرفها مسبقاً، وهو أنه ربما لا يعود إلى أهله وينتقل إلى جنان ربه .. ومع ذلك يقدم ولا يحجم؛ لأن رسول الله - ﷺ - قال: ((يقول الله - عز وجل - : المجاهد في سبيل الله هو علي ضامن، إن قبضته أورثته الجنة، وإن رجعت رجعت بأجر أو غنيمة)) (٢).

وهذا ابن القيم يقول : ((ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي - ﷺ - : «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»)) (٣).

كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له فإنه مالم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج)) (٤).

(١) انظر: المقامة والصفحة نفسها.

(٢) رواه الترمذي عن أنس - ﷺ - كتاب فضائل الجهاد، ١٦٤/٤ - ١٦٥، وقال هو صحيح غريب.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ٢٠/٦، ٢٢ .

(٤) زاد المعاد، ٦/٣ .



وإلى مثل ذلك أشار حسن البنا^(١)، والعلوياني^(٢).

أما ابن نايقا فقد أشار إلى جهاد النفس حين ذكر في إحدى مقاماته أن الراوي جلس فإذا بطل مقاماته «اليشكري» قد وصف الخمر وأخذ يحتسيها، وزاد بل أن عرض عليه أن يشرب معه، إلا أن راوي المقامة كان قد جاهد نفسه جهاداً صحيحاً، وملك قيادها ولم ينصاع لشهواتها، فرد عليه بملء فيه، معلناً موقفه من شرب الخمر، قائلاً له: «أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكَلَامِ، وَمَنْ لَهُ نَظَرٌ فِي الدِّينِ، وَقَدْ حَظَرَ عَلَيْنَا هَذَا الشَّرَابِ»^(٣)، ولعل الشيطان سول له أن يزيد في إغراء صاحب هذا المبدأ بينما قد تمكن من اليشكري وأصبح من أعوانه، فأخذ يسأل الراوي «فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذِهِ الْكَأْسِ»^(٤)، إمعاناً من إبليس ومعاونه في تزيين شرب الخمر قال: «ثُمَّ لَمْ يَقْنَعْ بِالْكِتَابَةِ وَالْإِلْبَاسِ حَتَّى أَنْشَدَ قَوْلَ أَبِي نُوَّاسٍ...»^(٥)، لكن الراوي كان يملك زمام نفسه، ويكبح جماحها، ويعرف كيف يسوسها ويبيدها عن مهاوي الهلاك، والسقوط في درك الشقاء من جراء شرب المسكر، فقال على لسانه: «فَرَأَعَنِي مَا أَتَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ مَذْهَبِهِ، وَشَانِي مَا زَانَتْ مِنْ سُوءِ مَنْقَلَبِهِ، وَقَدْ اسْتَوْلَتْ مِنْهُ الْخَمْرُ عَلَى الْعَقْلِ...»^(٦).

أما الحريري فلم نجد في مقاماته ما يدل على ذكره للجهاد ضد العدو اللهم إلا إشارة عابرة في مقامته «الحرامية»، حيث بدأ «(أبوزيد السروجي)» يرقق قلوب مستمعيه فذكر غزو الروم لبلاد «(سروج)»، وسببهم للنساء والتي كانت ابنته من بينهن، وهو يحاول فك أسرها بدفع الفدية، ويطلب مد يد المساعدة من الحاضرين:

(١) الجهاد في سبيل الله، ص ٨٠.

(٢) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، ص ١٢١.

(٣) المقامة السادسة، المقامات العشر، لابن نايقا (مخطوط) ص ١٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٣.

(٥) المقامة نفسها، ص ١٤.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.



الذين تزهّدوا؛ لتقبل إنابتهم. والذين اعتدوا كفارة لزيغهم، والذين تمرّدوا، فتمحى آثامهم، ولن يستطيعوا تحقيق ذلك إلا بعد منحهم إياه ما تجود به نفوسهم فقال:

« وَأَعْيَى عَلَيَّ فَكَأَ ** كِ ابْنَتِي مِنْ يَدِ الْعِدَا
فَبِذَا تَنَمَّحِي الْمَا ** ثُمَّ عَمَّنْ تَمَرَّدَا
وَبِيهِ تُقَبَّلُ الْإِنَا ** بَاةٌ مِمَّنْ تَزَهَّدَا
وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِمَنْ ** زَاغَ مِنْ بَعْدِ مَا هَتَدَى^(١)»

وحين ذكر الروم بين النفسية التي كان عليها الروم قبل الغزو، والدافع الذي جعلهم يطأون أرضهم ألا وهو: الحقد، فقال:

« بَوَّأَ الرُّومَ أَرْضَنَا ** بَعْدَ ضَغْنِ تَوْلَدَا^(٢)»

وماتخلفه الحروب من مصائب وبلايا؛ أولها: سبي النساء، فقال:

« فَاسْتَبَاحُوا حَرِيمَ مَنْ ** صَادَفُوهُ مَوْجِدَا^(٣)»

لكن الحريري لم يذكر كيف كان اللقاء، وموقفه منه، وهل ثبت أم فر؟ أمّا نتائجه فقد ظهرت والتي منها؛ استيلاء العدو على مالديهم من غنائم، وتشرد بطلنا.

أما في مقامته البصرية^(٤) فنجد في ختامها أن أبا زيد السروجي قد جاهد نفسه فغلبها، وأصبح من الزهاد يقول الراوي بعد أن سأل عن أخبار أبي زيد فكان الرد أنهم: «رَأَوْا أَبَا زَيْدَهَا الْمَعْرُوفَ قَدْ لَبَسَ الصُّوفَ، وَأُمَّ الصُّفُوفَ، وَصَارَ بِهَا الزَّاهِدَ»

(١) المقامة (٤٨)، للحريري، ص ٤٠٣، ت: يوسف بقاعي .

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٠٢ .

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٠٣ .

(٤) المقامة (٥٠) للحريري، ص ٤١٣-٤٢٧ .

الموصوف فقلتُ أتعنونَ ذا المقامات، فقالوا إنه الآن ذو الكرامات»^(١) ولكن الراوي أراد أن يتأكد من ذلك وألا تكون هذه إحدى حيله فشد الرحال إليه فوجده كذلك وقد سمعه يردد :

«واخضع خضوع المغترف * * * ولذ ملاذ المقترف

واعص هواك وانحرف * * * عنه انحراف المقلع

.....

.....

ويحك يأنفس احرصي * * * على ارتياد المخلص

وطاوعى واخلصي * * * واستمعي النصح ووعي»^(٢)

ولعل الحريري أراد بذلك أن يظهر لقاريء مقاماته أن بطله أبا زيد ظل في جهاد مع نفسه جميع المقامات الخمسين إلا أن نفسه الأمانة بالسوء كانت تغلبه إلى أن غلبها في ختام مقاماته وهي المقامة الأخيرة المسماة البصرية وإن كان في بدايتها متتهجاً المنهج القديم نفسه في ارتياد كل السبل، ليحتال على مستمعيه لينال ما يريد، ولأن المسلم كان يؤمن يقيناً أن الحق هو المنتصر في النهاية، جعل الحريري لبطله تلك النهاية، وأحسن بها من نهاية، جاهد نفسه فغلبها.

أما الزمخشري فتدور معظم مقاماته حول الحث على جهاد النفس وأراد أن يبدأ الإنسان بمجاهدة دواخل نفسه، ليتمكن بعد ذلك من مقاتلة عدوه فيها هو ذا في مقامة المرشد يحث نفسه على فعل الخير وترك الشر، لأن خصال الخير كتفاح لبنان، وخصال الشر كحسك السعدان، فالأولى كيفما قلبتها دعتك إلى نفسها، والثانية أنى

(١) المقامة نفسها، ص ٤٢١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢٤.



وجهتها نهتك عن مسها، وقال: «إِنَّ أَرَدْتَ الرَّفُولَ فِي مَطَارِفِ الْعِرِّ الْأَقْعَسِ»^(١) مرغباً في الوصول إلى ذلك بعمل الخير، ومحذراً من الشر؛ لأن صاحبه ملتف في أطمار الأذل الأتعس.

كأنه تمثل قول الرسول - ﷺ - حين سأله رجل: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»، قال: ثم من؟ قال: «مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره»^(٢).

فالذي يعبد الله في شعب من الشعاب، ويتعد عن الشر هو مجاهد لنفسه، وقد ذكره الرسول الكريم قسيماً للمجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

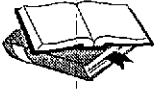
كما أخذ الزمخشري يحث نفسه على جهادها؛ وذلك بالنظر في العواقب، ومراقبة الله والحذر من الوقوع فيما يغضبه، ودفع النفس إلى الهدى والرشاد بالعمل الصالح والكلم الصاعد أي الطيب، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣).

ثم أخذ يحثنا قائلاً: واجعل المتقين هم خلصاءك، وامش مع الهادين، وحاسب نفسك وعاتبها قبل أن تحاسب وتعب .. واترك طرق الضالين؛ لأن الحامل على الضلال كالحية لاتنفع معها الرقية إلا إذا كانت تلك الرقية هي التقى، أما قوله: «وَيُحِثُّكَ أَخْلَطَ نَفْسِكَ بِغِمَارِهِمْ، وَأَحْمَلَهَا عَلَى شَقِّ غُبَارِهِمْ فَعَسَيْتَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَنْجُو»

(١) المقامة (١): المرشد، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٧ ت: يوسف بقاعي. الرفول: التبخر، مطارف: البعد عن الشره. الأفعس: خروج الصدر للكبر. انظر: اللسان، مادة: رفل، طرف، قعس.

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري - ﷺ - ، كتاب الجهاد، ١٨/٤. ورواه أبو داود (٢٤٨٥)، كتاب الجهاد، باب في ثواب الجهاد، ٥/٣. ورواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ماجاء أي الناس أفضل، ١٨٧/٤.

(٣) سورة فاطر، آية ١٠.



وَتَفُوزُ بِيَعْضِ مَاتَرَجُوجٍ^(١)، فهو ترغيب ليدفع بنفسه لمخالطة الناس، ويحملها على شق غبارهم؛ لعله ينجو ويفوز ببعض مايرجو.

وهانحن أولاء نجد الزمخشري يبحث في مقامة أخرى على جهاد النفس أيضاً يقول: «ياأبا القاسم شهوتك يقظي فأمنها، وشبابك فرصة فآغتنمها»^(٢) فجاهد نفسك ضد الشهوة وخاصة في مرحلة الشباب؛ لأن الشيطان يسول لك أن تركز إلى الطاعة عند كبر السن، لذا كان الزمخشري يركز على هذه المرحلة - الشباب - ففيها النشاط كعيدان تحفوق، وأخذ يصف الإنسان في فترة الشباب فهو كالغصن الأخضر، واستعار له أوصافه من مثل قوله: عودك الريان، وظلك الفينان، وقد يهتز لينا وحلاوة، وقوتك كقوة وشجاعة عمرو بن معد يكرب الذي كان يعدل ألف فارس، لهذا عليك أن تغتنم فترة الشباب قبل أن يشيب الرأس، وتكف عن الخبث والخلاعة، وأن تحذر الشيطان بعدم الركون إليه واتباع خطواته، والبعد عن تخييلاته التي منها؛ ترك التعبد والطاعة والانقياد لله في الصغر ففي الكبر متسع لذلك، ولجأ إلى أسلوب المفارقة فبعد أن وصف الشباب، أتى لكبر السن بأوصاف منها: «حَتَّى يَنْجِنِي غُضْنُ الْقَامَةِ، وَيَبْرِقَ ضِلْعُ الْهَامَةِ، وَتَرَى التَّنُومَةَ ثَغَامَةً»^(٣) أي أبيض الشعر الفاحم وحين قال: «فَإِنْ صَاحَ بِكَ وَأَعْظُ فَلَا أَسْمَعُ»^(٤) فهو دعاء من إبليس على الواعظ، وينهي مقامته بتعجبه من تلك النفس التي تستلذ الوقوع في حيل ومكائد الشيطان.

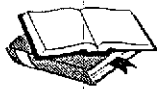
وهذا مؤلف «تلبيس إبليس» يحذر من إبليس وتسويفه للمرء، فيقول: «وكم قد خطر على قلب العاصي أن يتوب فلا يزال إبليس يثبطه ويقول: لاتعجل وتمهل في النظر، فيسوفه فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة، كما قال الشاعر:

(١) المقامة نفسها، ص ٢٩-٣٠.

(٢) المقامة (٤): الارعواء، مقامات الزمخشري، ص ٣٧.

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٠، التنومة: نبات أسود، ثغامة: نبات أبيض. انظر: اللسان، مادة: تنم، ثغم.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.



لا تعجل الذنب لما تشتهي ** وتأمل التوبة من قابل^(١)

والزمنخشري يحذر منه ويحض على مجاهدته، لذا أظهر لجهاد النفس في مقاماته صوراً شتى، وليبيانها أساليب متعددة، قصد إلى التنوع في تناولها، وبسط أفكارها ومعانيها، وذلك لتبصير من له بصر سليم وإضاءة الطريق لكل من عشى عن الطريق، فها هو ذا في مقامته الثامنة يدعو كل نفس تواقه إلى حب الدنيا والانغماس فيها إلى الحذر منها والبعد عنها، فهي كالجمرة إن تعلقت بالأطراف أحرقتها وكقطرة الماء المغلي إن أصابت من الجسد موضعاً أصابته، فمن ذا الذي يقوى على الاحتمال أو يستكين إلى قسوة الألم، هذا أمر الدنيا، والآخرة إلى جوارها لا تقاس ولا توصف، فلاتلتفت - يرحمك الله - إلى الدنيا التافئة راغب، «فَنَارَ اللَّهِ حَسْبُكَ مَا سَمِعْتَ مِنْ فِطَاةٍ وَصِفِهَا وَهَوْلِهِ، وَكَفَاكَ فِيهَا مَقَالَهُ الصَّادِقِ الْمُصَدِّقِ فِي قَوْلِهِ»^(٢)، وما تحذيره منها، ودعوته لمجاهدة النفس للابتعاد عنها إلا لأن «عَذَابُهَا أَبَدٌ سَرْمَدٌ، لَيْسَ لَهُ مَتْنَهَى وَلَا أَمَدٌ»^(٣).

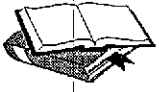
وفي مقامة أخرى حث الزمنخشري على أن يجاهد نفسه بالليل والنهار، وركز هنا على الليل، فيعودها على السهر في جنب الله فيقول: «وَوَحَلَّهَا وَالْبُكَاءَ وَإِنْ قَرِحَتْ مَاقِيهَا، وَأَبُكٍ عَلَى مَا حَمَلَتْ مِنْ أَوْزَارِكَ وَخَطَايَاكَ، وَمَا رَحَلَتْ مَعَ أَشْيَاعِ الْجَهْلِ مِنْ مَطَايَاكَ»^(٤)، فأراد أن لا يترك عضواً من أعضائه، إلا ويسخره في جهاده مع نفسه فالعين هنا تسهر وتبكي على ما فرطت النفس في جنب الله، فتعين تلك النفس على الوصول لمبتغاها في طاعة الله واجتناب نواهيها.

(١) ابن الجوزي، ص ٤٠٤، دار الكتب، بيروت، لبنان.

(٢) مقامة الحذر، شرح مقامات الزمنخشري، ص ٥٨، ت: يوسف بقاعي.

(٣) المقامة نفسها، ص ٥٨-٥٩.

(٤) المقامة (٣١): التهجد، شرح مقامات الزمنخشري، ص ١٨٩.



وها هو ذا في مقامة ثانية يذكر أن الإنسان يحمل نفسه فوق طاقتها من الذنوب والآثام، بدل أن يجاهدها على ترك تلك الأوزار والخطايا فيقول: «لَوْ تَأَمَّلْتَ حَقَّ تَأَمَّلٍ لَقَلَّ تَأَمِيلُكَ، وَلَمْ يَكْثُرْ تَحَامُلُكَ عَلَى نَفْسِكَ وَتَحْمِيلُكَ، لَاتَزَالَ تَتَحَامَلُ عَلَيْهَا وَتَحْمَلُهَا يُقَالُ خَطِئْتُ وَالْأَوْزَارَ، إِلَّا أَنْكَ إِذَا اسْتَحَمَلْتَ الطَّاعَةَ قُلْتَ ضَعِيفٌ لَا يَقْوَى عَلَى هَذِهِ الْأَوْقَارِ»^(١)، فلجأ إلى أسلوب المفارقة ليبين كيف أن الإنسان يحمل نفسه من المعاصي ما لا تتحمله، وأما في الطاعات فيركن إلى ترديد «أَنَّهَا ضَعِيفَةٌ، لَا تَقْوَى عَلَى ذَلِكَ».

أما في مقامة «المراقبة» فأبان أن عليه أن يتعهد نفسه ويجاهدها عن الوقوع في المعاصي، بتذكيره أن الله يراقبه في كل أعماله، وأن هناك ملكين يكتبان كل صغيرة وكبيرة فيقول: «ثُمَّ لَا تَرَأَى اللَّهُ وَمُعَقَّبَاتُهُ، وَمَا أَعَدَّ لِلْمُجْرِمِينَ مِنْ مَعَابِقَاتِهِ، أَلَيْسَ الْمَلِكُ الْحَافِظُ أَحَقَّ بِتَحْفُظِكَ، وَالْمَلِكَانِ الْحَفِيزَانِ لِنَفْسِكَ وَتَلْفِظِكَ، وَهَبْ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ لَا يَرَاكَ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ غَطَّكَ مِنْهُمْ بَسِطْرَهُ وَوَارَاكَ. أَلَيْسَ هُوَ وَخَدَهُ أَجَلٌ مِنَ الْخَلَائِقِ وَأَعْلَى»^(٢).

وها هو ذا الزمخشري في مقامته المسماة: «النهي عن الهوى» يشير إلى ذلك ويبين أن الإنسان إذا عرض له أمر يتنازعه قبل اتخاذ قرار الخير أو الشر؛ الخير: ممثلاً في العقل، والشر: يمثله الميل لهوى النفس، هذه النفس التي تجذب غالباً أن يكون القرار إلى جوارها، لكن ليس كل ماتتوقه النفس يكون على صواب ويكون الرشد دليلها إلى تنفيذها، بل ربما الغي هو المصاحب له، لهذا عقد الزمخشري هاهنا موازنة بينهما وهي إحدى الأساليب المقنعة لتسير في طرق الحق، والهدى، لأنك حين توازن بين الحق والباطل، والرشد والضلال، والخير والشر، عندها - ومن منطلق محبة الإنسان لنفسه - ستختار ما ينفعك، وتبتعد عما يضرك ... وهذا ما نخلص إليه حين نقرأ هذه المقامة والتي بينت النتيجة التي ستعود عليك إذا ماركت إلى هوى النفس ... فيقول: «وَإِنْ»

(١) المقامة (٣٦): النصح، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) المقامة (٣٧)، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢١٩.



كَانَ الْهَوَى فِيفَرَّ مِنْهُ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ، وَأَحْذَرَهُ حِذَارَكَ مِنَ الْأَسْوَدِ»^(١)، ولن تصل لتلك النتيجة ما لم تجاهد نفسك جهاداً مضمياً؛ لتصل بها إلى بر الأمان، لأنها مجبولة على حب الدنيا وما فيها.

لعلك لحظت أن الزمخشري كان جل تركيزه على جهاد النفس، إلا أنه أشار إلى جهاد العدو بالسيف فقال: «كُنْ فِي حِمَايَةِ حَقِيقَةِ دِينِكَ، وَالذَّبِّ عَنْهَا بِسَيْفِكَ وَيَمِينِكَ، أَحْمَى مِنْ رَبِيعَةَ بْنِ مُكْدَمٍ أَحْيَى بَنِي فِرَاسٍ. ذَاكَ اللَّيْثُ الْمَهْرَامُ الْغَرَّاسُ حَمَى الطَّعَّائِنَ وَهُوَ طَعِينُ الْيَمَنِ فِي مَا بِيضِهِ مَشْغُولُ الْكَسْفِ عَنِ السَّيْفِ وَمَقْبِضُهُ، حَمَاهَا وَطَعْنَتُهُ رَشَاشَةٌ وَبَعْدَ أَنْ لَمْ تَبْقَ لَهُ حَشَاشَةٌ إِلَى أَنْ بَلَغَتِ الْمَأْمَنَ وَنَجَحَتْ، وَلَمْ تَنْلِ مِنْهَا بَنُو سُلَيْمٍ مَارَجَتْ»^(٢). فقد حث هنا على الجهاد من أجل حماية الدين، والذب عنه بالعدة والعتاد، فقال: وكن في حمايتك له أحمى من ربيعة بن مكدم، وقصة ذلك أنه كان بين بني سليم ابن منصور وبني فراس بن مالك بن كنانة تدارؤ؛ قتل بنو فراس من بني سليم رجلين وودوهما، ثم خرج بعد ذلك نبيشة بن حبيب في ركب من قومه يطلبون دماءهم، فلقوا نفرًا من بني فراس فيهم ربيعة بن مكدم ومعهم طعن لهم، فطعنه نبيشة في مابض يده، فلاحق بالطعن وهو يستدمي، فقال: أوضعن ركابكن حتى تنتهين إلى أدنى الحي، فإنني لمكاني وسوف أقف دونكن ولن يقدموا عليك لمكاني، فاعتمد في رحمة وهو واقف على متن فرسه حتى بلغن مأمهن، ولقد مات وما يقدم عليه فما علم أحد حمى حقيقته ميتاً غيره وهو غلام له ذؤابة ضرب المثل «أحمى من ربيعة بن مكدم»، فأراد الزمخشري بذكر هذه القصة أن يحث على أن يجاهد المسلم دون عرضه وماله لقوله - ﷺ - : «من ردّ من عرضه أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»^(٣)، وإن كان قد صرح قبلاً بالحث على حماية الدين والجهاد

(١) المقامة (٤٠)، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٣٧، ت: يوسف بقاعي .

(٢) المقامة (٥٠): أيام العرب، شرح مقامات الزمخشري، ص ٣١٢-٣١٤.

(٣) رواه الترمذي عن أبي الدرداء - ﷺ - ، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الذب عن عرض

المسلم، ٣٢٧/٤، وقال حديث حسن .



دون مساسه بأذى.

ولما لجهاد النفس من أثر، حث عليه كثير من الكتاب والدعاة، وهذا أحدهم يقول: «بدون الجهاد الذي يصقل النفس، ويصفي الروح، ويغير كل شيء في حياة الإنسان المؤمن، ويجعل المسلم متبوعاً لاتباعاً، ورأساً لا ذليلاً، ومغيراً لا متغيراً حسب الأهواء والشهوات، بدون هذا النوع من الجهاد يسمى الإنسان مسلماً فقط وليس مؤمناً، ويعتبر اسماً لا مسمى له، ولا فنة لا تعبر عن حقيقة، وصورة لا روح لها ولا جوهر»^(١).

وهذا ابن الجوزي قد وعى هذه الحقيقة لذا نراه تمثلها في إحدى مقاماته^(٢) فيبين كيف أن الإنسان إذا لم يجاهد نفسه قبلاً وواجه العدو فالهروب من لقاء العدو هو النتيجة الحتمية لذلك .

فها هو ذا راويه يرى أن يذهب إلى القتال، وفضله على القعود، ووجد رفيقاً له، وأعطانا بذلك مثلين: الأول: للمقاتل، والثاني: للهارب، اللذين توجهوا إلى الكتيبة التي بدأ بوصفها قائلاً:

أخلاط كلهم يحمل السيف والرمح وليس معهم من لاسيف ولا ترس معه،
وجمهور القوم من الشباب، ورحل المقاتل والهارب ضمن من رحل .
ثم انطلق يصف لنا المعركة واشتباك القوم فيها، وكان الجمع في مقام من يهرب من كل شيء.

أما الآلات المستخدمة في الحرب فكان لها نصيب من الذكر، فهذه المناجل^(٣) تحصد الرءوس وانيات والكبداء^(٤) تكابد منها الأكباد والكبد.

(١) انظر: الجهاد والفدائية في الإسلام، د. حسن أيوب، ص ٢٧-٣٣، ط ٢، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٢) مقامة (١٢): الغزاة، مقامات ابن الجوزي، ص ٩٨.

(٣) الفؤوس، انظر: اللسان، مادة: نجل .

(٤) القوس . انظر: اللسان، مادة: كبد .



ولما كان غير مجاهد لنفسه دخلته الرعدة، ومن فزعه صار يمشي كالأعرج، ومن الخوف صار كمن لاسلاح معه، فعاد ليصاحب الضعاف والجنباء وفارق الصناديد، فأنبه رفيقه وأخذ بيكته، ويقول له هناك فرق بين الذي يتشبه بمن لا قوة له بالشجاع، فرد عليه معللاً لسبب هروبه : لا يقوى ذو الهيبة اليوم على العبوس، ولا يحمل السيف المقيد ... ووثب على فرسه وعاد هارباً، وكأنه لم يسمع لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهْمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئسَ المَصِيرُ﴾ (١).

أما الآخر الذي ذكر في المقاومة فقد وعى تلك العواقب (٢) فلم يعد إلا بعد انتهاء الحرب التي أخذ يصفها للهارب .

صيح : يا خيل الله اركبي، فاستمروا في القتال فلا تسمع إلا صوت الطعن، وضرب السيف، والخيل تدور والضجيج يشتد وكذا الشخير والكرير، ولما بدأوا الطعن إذا به نافذ، أما السيوف فكانها أيدٍ تصافحت، والشهادة كأنها إنسان يهتف، والسهم ألبت، وشبه الموت بالإنسان «فَفَعَّرَتِ المَنَايَا أَفْوَاهُهَا» (٣)، وشبه مفارقة الروح من البدن بالديار التي يفارقها أهلها «فَإِذَا ديارُ الأبدانِ مِنَ الأرواحِ قَدْ فرغت» (٤).

ولما كان ابن الجوزي يود إظهار أهمية الجهاد، ويظهر الندم على تركه، بدأ يصف أعضاء الأموات كيف كانت قبلاً، وما آلت إليه عقب المعركة فقال الراوي لرفيقه الهارب :

(١) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

(٢) عواقب التولى يوم الزحف، والتي عدّها الذهبي الكبيرة الحادية عشرة من الكبائر، انظر: كتاب

الكبائر وتبيين المحازم، ت: يحيى الدين مستور، ص ٦٤، والزواجر عند اقتزاف الكبائر، الهيثمي،

١٦٣/٢ .

(٣) المقاومة نفسها، ص ٩٩ .

(٤) المقاومة نفسها، ص ٩٩-١٠٠ .



خضبت الدماء الوجوه التي صبرت على برد الماء وقت الإسباغ للوضوء، والرؤوس طارت التي طالما أطرقت وقت الأسحار، والرجل التي قامت للصلاة فصلت من مكانها، واليد التي رفعت بالدعاء وقعت، والبطن الذي تحمل مشقة الصيام شق، والكبد التي تكبدت ظمأ المهجير فريت، والعين التي تساعد الحزين أخذها طائر في منقاره، أما الخيول فقد عادت بدون أصحابها بل وطئتهم تحت جوافرها بعد أن كانوا على ظهورها، ولحومهم تقاسمها عقبان السماء، وسباع الأرض، أثر كل هذا الوصف في نفس الهارب وقال له : أبكيت بما وصفت العيون، فروح قلبي، يذهب كربي، فقال أخبار الروح :

أرواح الأخيار في دار السلام آمنين، يشربون بكأس شراب المنى، ثم يشير إلى ما ينتظر الشهداء عند الله فهم أحياء عند ربهم يرزقون أما حالهم بعد موتهم فمنازلهم أحسن منزل، ولونهم لون الدم، وريحهم ريح المسك. وقد بين الله للناس أنهم شهداء في كتابه العزيز وهم مسرورون باتصال ماله انفصال، وفرحهم بجمع الوصال، ووقوفهم حول العرش بالسلام مفتخرين بعملهم الصالح، وبأنهم بذلوا المال والنفس في سبيل إعلاء راية الحق، ولهذا فنهايتهم الخلود في النعيم؛ لأنه لا يستوي القاعد بالقائم، فيقال لهم :

﴿ قَدْ بَدَلْتُمُ النَّفُوسَ وَهِيَ الْعَاقِبَةُ، فَاتَّخِذُوا فِي نَعِيمٍ مَّالَهُ نِهَآيَةٌ ﴾^(١) .

لذا فالجزاء كبير تنقطع أكباد الذين لا يخوضون غماره حسرة على عدم الذهاب. وهذا ما حدث لمرافقة الذي قال : ﴿ قَدْ عَمِلَ فِي هَذَا الْكَلَامِ وَلَا عَمَلَ الْكَلَامِ، وَلَقَدْ نَدَمْنِي عَلَى مَا نَدَّ مَنِي مِنَ التَّقَاعِدِ ﴾^(٢) .

فوصل بذلك أبوالتقويم إلى ما يريده من إقناعه بالعودة إلى القتال وهو لو لم يصلح له نفسه لما عاد، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾^(٣) .

(١) المقامة نفسها، ص ١٠١ .

(٢) المقامة نفسها، ص ١٠٢ .

(٣) سورة فصلت، آية ٤٦ .



وفي آخر المقامة سأله الرفيق : جاهدت فأين الغنيمة؟

فرد عليه : يكفي أنني سلمت من هزيمة.

ثم استشهد بيبي شعر لقيس بن الملوح تدلل على أنه يغشى الوغا ويعف عند المغنم .. ثم سأله قائلاً: ما الحكمة في أن الشهداء لا يغسلون ولا يصلى عليهم؟

فأتى الرد بالدليل العقلي كعادة أبي التقويم : «إِنَّمَا يُغَسَّلُ الْوَسَخُ لَا الطَّيِّبُ وَالرِّيْحُ رِيْحُ الْمَسْكِ، وَإِنَّمَا يُشَفَّعُ فِي الْمَذْنِبِ لِيَجَارَ مِنَ الْعَذَابِ. وَالْقَوْمُ عَلَّقُوا نُشَابَ الشَّهَادَةِ عَلَى دُورِ الْأَبْدَانِ، فَلَمْ يَقْرَبُهَا يَوْمئِذٍ حَسَابٌ وَلَا عِقَابٌ»^(١).

وصدق الرسول الكريم حين قال : «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر»^(٢). وقال أيضاً: «مامن مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة، وكلمه يدمي: اللون لوم دم، والريح ريح مسك»^(٣).

أما في المقامة المسماة : «ذم الدنيا ومدحها»^(٤)، فترى ابن الجوزي يذكر حال كل من يجاهد بالسيف، وفي الوقت نفسه يذكر جهاد النفس، فإذا راويه ضل الطريق ووجد ومن معه عابداً أنقذهم مما هم فيه وسمعه يذم الدنيا، فانبرى يرد عليه ويوضح له أنها قرى للضيف إلى أن يصل إلى دار القرار، ويبدأ باعطاء صور ممن على الدنيا؛ كـ«الشَّهِيدُ يَبْدُلُ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ»^(٥)، ذاكراً قصص بعض الأنبياء؛ إبراهيم، يوسف،

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) رواه الترمذي برقم (١٦٢١) عن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه -، كتاب فضائل الجهاد باب ماجاء في فضل من مات مرابطاً، ١٦٥/٤ وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، كتاب الجهاد، باب من يخرج في سبيل الله، ٢٣/٤.

(٤) المقامة (٢٦) لابن الجوزي، ص ٢١٢-٢١٨.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢١٥.



أيوب، عيسى، يحيى ... ((محمد - ﷺ - يشدُّ الحجرَ مِنَ الجوعِ وَأَصْحَابَهُ يَهْجُرُونَ بِاللَّيْلِ الهَجُوعَ، يبدلونَ أَنفُسَهُمْ فِي الجهادِ للسيوفِ، ويتسابقون إلى التلِفِ والختوفِ، وكم فيهم من صائمٍ قَدْ أَضْنَاهُ الصَّوْمُ ...))^(١).

فقد بين كيف جاهد كل من أولئك الأنبياء وآخرهم سيدنا محمد ﷺ؛ لإعلاء كلمة لا إله إلا الله، وأصحابه جاهدوا بأنفسهم وأموالهم حيث وضع جهاد النفس الذي هو الخطوة الأولى لجهاد العدو: ففي السلم: الصيام، والقيام، وترك ما يشتهون رغبة بما عند الله ((وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ صَائِمٍ قَدْ أَضْنَاهُ الصَّوْمَ، وَقَائِمٍ قَدْ أَضْنَاهُ تَرْكُ النَّوْمِ. ينهضُ مِنْ فِرَاشِهِ إِلَى المَاءِ البَارِدِ وَيَبَادِرُ، وَيَهْجُرُ لَدَيْدِ المَشْتَهَى مِنَ الهوى فِي الهَوَاجِرِ، وَيُؤَثِّرُ بِمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، وَيَقْلِقُهُ خَوْفُهُ وَلَا خَوْفَ عَلَيْهِ، تعرضَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا حَلَالًا فيخافُ عَلَى عَزْمِهِ انْخِلَالَ فيقولُ لِدَاعِي الهوى: لا . لا .))^(٢).

وابن الجوزي حين ذكر ((الشَّهِيدَ الَّذِي يَبْذُلُ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ)) لعله تمثل قوله - ﷺ - حين أتاه رجل وسأله: أي الناس أفضل؟ فقال: ((مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله))^(٣).

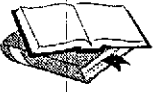
أما جهاد النفس فقد كان له النصيب الأكبر عند ابن الجوزي، فقد حض عليه في أكثر من مقامة، فما هو ذا يقول في إحداها: ((خَلَوْتُ بِنَفْسِي فِي بعضِ الأَيَّامِ، فعاتبتُها على النقصِ والإبرامِ؛ ولمتُّها على إثثارِ النَّقْصِ عَلَى التَّمامِ، وقلتُ: لماذا أذهبتِ الأَيَّامَ فِي الآثامِ، وماتحيتِ إِحْرَامَ الإِحْرَامِ، إقدامُكَ فِي الإقدامِ عَلَى المعاصي قَدْ دَامَ... فَمَا أَعَارَتْنِي السَّمْعَ وَلَا الطَّرْفَ، وكأنتَ ماقبلَ مَّا قُلْتُ حَرْفَ، فاستعديتُ بالعقلِ عَلَيْهَا...))^(٤).

(١) المقامة نفسها، ص ٢١٦.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) سبق تخرجه في ص ١٩٤.

(٤) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، مقامات ابن الجوزي، ص ٧٧.



ثم بين السبب للحاكم (العقل) لماذا هو يشكوها إليه؟ موضحاً الأعمال التي تميل النفس إليها فقال: «تدنسُ بالزَّلَلِ بُردي، وتحملي عَلى ما يُردي ... إن أيقظتها تناعستُ، وإن قدمتها تقاعستُ، وإن عاهدتها غدرتُ، وإن أضعدتُ بها انحدرتُ... تَسعى فيما يوجب زَمَنها مما لا يروق ...، لو بدت لها عجوزُ جَحْمِرشِ لهامتُ، ولو رأيتُ ليلةَ القدرِ تجوزُ لَنامتُ، تختارُ لذةَ ساعةٍ وإن أثمرتُ لها شناعة... أَكَلَةٌ، شُرْبَةٌ ... سُهْرَةٌ في الهوى ... ضَجَعَةٌ، ضَحْكَةٌ، قُعدةٌ عَن الخيرِ... هُمزَةٌ للناسِ، لُمزَةٌ... يَنْقضي زمانها وَلَا تستعيدُ إلاَّ لهواً أو دُعايةً...»^(١).

«ثُمَّ احتدَّ الحِجاجُ، وامتدَّ اللَّجَاجُ فقالَ العقلُ: اسمعاً معاً فإِشارُ اللَّفْظِ غلطٌ، أنتِ أَيُّها النفسُ المعاتبَةُ المَلُومة، بل أنتِ المعاقبةُ المذمومة، إذ لَا تتحركُ جارحةٌ إلاَّ بإنهاضِكِ، ولا تتوركُ بارحةٌ إلاَّ بأغراضِكِ ... وكفُّكِ يمشي على قدرِ إطلاقِكِ، فكفك أنتِ ملاحُ المركبِ لِأَمَنٍ يركبُ ... فَلاتلومي رَاكباً خافَ الغرقَ مِن تفریطكِ... فَلَمَّا نكتَ قلبها بهذه النكتِ بكتُ، فقالَ لها: هَكَذا فكوني، أَطلقني حَبِيسِ الدَّمعِ وَلَا تصُوني...»^(٢).

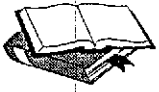
وزاد في لومها وأبان الطريق الصحيح لها، فرغب، ورهب إلى أن قالت النفس: «أَعَلِمَني بملءِ الأوبة، وَعَلَمَني شُرُوطَ التَّوبَةِ»^(٣) فكان أن حثها على ترك الصحبة الضالة والاستعانة بالعزم والإنابة.

لقد أشار ابن الجوزي فيما سبق إلى بعض ما يعين النفس على مجاهدتها إلا أن هناك بحثاً كاملاً عن كيفية مجاهدة النفس وتقويمها، تقول صاحبتة: «إن مجاهدة النفس وإخضاعها للسير إلى الله، وكبح جماح شهواتها، وملذاتها وركونها إلى الدنيا، واجتذابها إلى طريق الله - عز وجل - وإلى بذلها لكسب رضا الخالق سبحانه، واجتناب سخطه، وغضبه، أمر عسير على النفس، لما جبلت عليه من حب الانطلاق

(١) المقامة نفسها، ص ٧٨-٧٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٨٣-٨٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ٨٦.



والسير وراء ما تمليه عليه غرائزها وشهواتها وأهوائها من الميل إلى متع الحياة الدنيا الفانية كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾^(١).

وإن علاج النفس من هذه الأدوار الفتاكة لا يتم إلا عن طريق اتباعها ما أنزل الله إليها من الإيمان بالله، والشعور بالمسؤولية أمام الله، وإدامة التفكير في خلق الله، والتمسك بالدين والاعتزاز به، والصبر على تنفيذ كل ذلك حتى تتحقق لها السعادة الدنيوية والأخروية وتحظى برضوان الله ونعيمه وجناته^(٢).

وإلى مثل هذا يشير في مقامة أخرى فنرى ابن الجوزي يوضح أن النفس جوهدت فكفت عن اتباع الهوى، وأما السبب فهو رؤيتها للشيب وقد كسى رأسها، فأخذ الهوى يذكرها عقود العهود، فقالت النفس: «قَأْتَتْ تَأْسَفُ إِذْ فَارَقْتِكِ، وَأَنَا آسَى إِذْ وَافَقْتِكِ، كَمْ قَدْ تَبَعْتِكِ إِلَى زَلَّةٍ فَقَدْتِنِي، وَمَا فَقَدْتِنِي ... فَقَالَ الْهَوَى: ... قَدْ كُنَّا بِقَدَمٍ وَاحِدَةٍ نَسْعَى، وَبَعَيْنٍ وَاحِدَةٍ نَرَى، فَمَا هَذَا الصَّبْرُ الَّذِي عَنَّا وَعَرَى»^(٣).
إلا أن النفس قد اتعظت وخافت حين رأت الشيب، فكانت كمن كان في إغفاءة ثم أفاق، والذي جعلها تستيقظ هو مقاله:

* حط المشيب رجله في شعري *

لذا أعلنت التوبة ثم «انفجرت عيون عيونها، ... خَرَّ وَاللَّهُ سُلْطَانُ اللَّهْوِ...، وَحَسُنَ الْعَيْشُ اللَّذِيذُ، ... وَفَرَعَ إِنَاءُ اللَّذَّةِ...»^(٤).

(١) سورة آل عمران، آية ١٤.

(٢) انظر: جهاد النفس وثمراته في ضوء الكتاب والسنة، فائزة أحمد سالم يافرج، بإشراف

د. الشريف منصور بن عون العبدلي، ١/٢٣٥-٢٣٦، مخطوط مقدم لنيل درجة الماجستير إلى

جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، الكتاب والسنة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٣) المقامة (١٤): في الشيب، مقامات ابن الجوزي، ص ١١١.

(٤) المقامة نفسها، ص ١١٢.



وحين احتكما (النفس والهوى) إلى شيخ، (قَالَ: أَمَا أَنْتِ أَيُّهَا الْهَوَى فَقَدْ أَحْرَجَكَ فَقَدْ اللَّذَاتِ، وَأَمَا أَنْتِ أَيُّهَا النَّفْسُ فَقَدْ أَرْعَجَكَ نَحْرَابُ اللَّذَاتِ، أَيُّهَا الْهَوَى وَكَمْ جَنِيَتْ مِنْ جَنَائِهِ؟ وَكَمْ نَقَلَتْ قَبِيحَكَ إِلَى الْغَوَايَةِ فِي الرَّوَايَةِ؟ فَأَبِكَ عَلَيَّ تَفْرِيطِكَ فِي أَمْرِكَ، بَاقِي عَمْرِكَ لَعَلَّكَ تَسْتَدْرِكُ. وَأَنْتِ أَيُّهَا النَّفْسُ فِي نَدْبِكَ الطَّلَلِ، عِلَّةٌ عَجِيْبَةٌ مِنَ الْعِلَلِ، وَنِعْمَ مَا ذَكَرْتَ مِنْ قُرْبِ الْأَجَلِ، وَلَكِنْ فِي الْقَصْدِ خَلَلٌ، ... وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِكَأَوَكٍ لِمُوَافَقَةِ الطَّبْعِ فِي مَخَالَفَةِ الشَّرْعِ، وَلِتَبْدِيدِ الْبَدْرِ فِي زَمَنِ الزَّرْعِ...»^(١).

نعم فلتبك النفس؛ لأنها أطاعت الهوى، فضاع شباب العمر في ارتكاب المعاصي، والعودة بعد انقضاء زمن القوة في عمر الإنسان - الشباب - إلى جادة الحق، وقد أبان ابن الجوزي ذلك بقوله: «ولكن في القصد خلل» لأن مجاهدة النفس للهوى فقط أثناء رؤية الشيب، فيه خلل، وكان الأولى مجاهدتها في سن الشباب، ولأنه خالف الشرع حين وافق هواه وانقاد للهوى.

وفي مقامة ثانية نرى ابن الجوزي يجعل النفس هي الملك في البدن، ووزيرها العقل، ثم يذكر أن النفس مشغولة باللهو لاتلقي للعقل بالاً، فيقول عن النفس بعد أن طاف داخلها: «فَنظَرْتُ إِلَى الْقَلْبِ فَإِذَا هُوَ مُنْقَلِبٌ، فَتَأَمَّلْتُ مَسْكَنَهُ فَإِذَا هُوَ بِالْقَلْبِ قَدْ نَحَرِبٌ، فَقُلْتُ: لَأَلَاتِ الْحَسِّ لَوْ عَرَفْتَ الْحُرَّاسَ لِمَا عَوَّقَ الْأَسَاسَ»^(٢).

ثم انطلق بنا إلى العقل الذي اعتزل ونأى عنهم لأنهم كما قال: «يَعْرِفُونَ قَدْرِي، وَلَا يَمْتَثِلُونَ أَمْرِي»^(٣)، ويمثل العقل أبوالتقويم كسائر مقاماته الذي رد حين سئل كيف يقهره عدوه (الهوى) فقال: «جُنْدُهُ أَكْثَرُ، قُلْتُ: مَنْ جُنْدُهُ؟ قَالَ: الْخَوَاصُّ كُلُّهَا»^(٤).

(١) المقامة نفسها، ص ١١٦-١١٧.

(٢) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٢٩.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٣٠.

ولما سئل: «فَلِمَ جندُ الهوى أكثر؟ قال: «لأنَّ جامكيتَه للعسكر نَقْد، وجامكيتي حَوالة، والنَّفْس مولعةٌ بحبِّ العاجل، ثُمَّ قَالَ: هُوَ لَا يَرَى إِلَّا الحَالَةَ الحَاضِرَةَ وَلَا يَتَأَمَّلُ عَاقِبَةَ الآخِرَةِ، وَخَوْفِي أَنَا فِي العَوَاقِبِ مِنَ الذُّلِّ، قِيدٌ لِي عَنِ الانبِساطِ وَغُلٍّ...»^(١).

ثم وضح لنا كيف نجاهد نفساً كهذه، ران الهوى على قلبها فبدأ لذلك بالقلب وقال: «فَصِيحَتْ بِالقَلْبِ فَنهَضَ، وَوَجَّهَتْ فَامْتَعَضَ»^(٢).

وتعاون العقل والقلب على تمرد النفس واستعدا لحربها بالطعن والضرب واستحضر العزم فحضر وتبعه الجزم فانتصر، وسجنت النفس وقيدت فقال العزم: «لَا بَدَّ مِنَ الرِّفْقِ وَالْحَلْمِ. فَقَالَ: مَا تَعْدِي فَتَوَى العِلْمَ، أَنزَلَهَا فِي مَطْمُورَةٍ التَّوَاضُعِ، وَقَيَّدَ جَوَازِحَهَا بِقِيُودِ الكِفِّ، وَأَضْرَبَهَا بِسِيَاطِ الجُوعِ، فَفَعَلَ بِهَا ذَلِكَ فَلَانَ جَنْبُهَا»^(٣).

إذن فقد أعطى ابن الجوزي الطريقة التي يمكن أن نسوس بها النفس ونخضعها، فلا يترك لها الحبل على الغارب، فتنصاع وتطأطيء للعقل.

وفي مقامة أخرى يجعل ابن الجوزي الخصومة قائمة بين العقل والهوى أما النفس فهي الحكم، وأما سبب الخصومة؛ فهي أن العقل يقف بالمرصاد للهوى ولا ينفق له، فهذه صورة صحيحة لمن جاهد نفسه حق جهادها، وسار بها إلى الطريق القويم، وبعد بها عن زلل الشيطان غير المستقيم، ومع ذلك فإن ابن الجوزي أراد أن يظهر لنا أن النفس وإن تغلبت على هواها، فإنها تظل تنازعك دوماً وأبداً فكن من الميل إلى الهوى على حذر، لأنها لاتأنس أن تكون كما جاء علي لسان الهوى في شكواه للنفس ضد العقل: «قَدْ حَرَفَ مِرَاجِي بِمَا يَحْمِينِي... وَإِنْ لَدِّي طَعَامٌ، قَالَ: أَمْسِكْ، وَإِنْ لَاحَتْ نَظْرَةٌ، قَالَ: اغْضُضْ، وَإِنْ عَرَضَتْ كَلِمَةٌ، قَالَ: اسْكُتْ، وَإِنْ

(١) المقامة نفسها، ص ١٣١، الجامكة: رواتب خدام الدولة، تعريب جامكي وهي مركبة من

جامة أي قيمة، ومن كي وهي أداة النسبة. انظر: لسان المعجم الذهبي، محمد التونسي،

ص ١٩٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٣٣.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٣٤.



أردت حركة، قال: اسكني كَلِّمَا عَلَقْتُ يَدِي بِمَحْبُوبٍ جَذَبَهُ مِنِّي، وَكُلَّمَا رَكَنْتُ إِلَى مَطْلُوبٍ أَخَذَهُ عَنِّي...»^(١).

كما أنه أبان أن العقل الراجح هو الذي يسير النفس، ويطغى على الهوى فقال يشيد بذلك على لسان العقل نفسه: «أَيْشُكُ فِي قَدْرِي مَنْ يَدْرِي؟، أَنَا أَبُو التَّقْوِيمِ، وَمَنِي يَصْدُرُ التَّعْلِيمُ... أَنَا الَّذِي أَخْرَجْتُ الْحُكَمَاءَ وَالْعُلَمَاءَ إِلَى فِضَاءِ الْفَضَائِلِ... ذَنبِي إِلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا انْتَصَبْتَ لَهُ شَهْوَةٌ أَوْ سَهْوَةٌ مِنَ الْفَانِي الْفَانِي قَدْ نَصَبْتُ لَهَا مِيزَانِي وَوَزَنْتُ عَاجِلَ مَسْرَتَهُمَا بِأَجَلٍ مَضَرَّتَهُمَا...»^(٢).

وكمعتاد أبي التقويم يقدم الحجة العقلية، فيتغلب في نقاشه على مناقشه، لذا انصاع الهوى، «وَقَالَ: أَيَّتَهَا النَّفْسُ الَّتِي وَكَلَّهَا فِي الْخِصْمَةِ وَوَلَّى أَبَانْتَ حُجَّتِي، قَالَتْ: نَعَمْ، فَوَلَّى»^(٣).

وفي مقامة أخرى أبان ابن الجوزي أن عمره فنى وهو يجاهد نفسه بالعلم والعمل وكان عدته في ذلك الصبر، ومعينه الأول العقل؛ لذا قال العقل للنفس حين اشتطت في ذكر مناقبها التي حباها الله إياها: «وَيَحْكُ إِنَّمَا تَنَالِينَ هَذِهِ الْمَنَاقِبَ بَعْدَ الرِّيَاضَةِ، وَفِي آخِرِ مَرَاتِبِ الصَّبْرِ عَلَى الرَّاضَةِ، وَكَوَلَا تَقْوِيمُ التَّعْلِيمِ لَكُنْتُ كَالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ، تَأْتِي لَوْلَا التَّثْقِيفُ مَامَهْرٌ مُهْرٌ، وَكَوَلَا الصَّبْرُ عَلَى التَّضْمِيرِ مَاتُوهُ لِلْغَرَابِ ذِكْرٌ»^(٤).

ولما وجدت النفس في كلامه الصدق، طلبت منه النصح لتخرج من دائرة اللهو فقال لها: «انزعي عن أحوال المخرنشم، وأنزعي ثياب المخرنطم، ودعي طبعك البليد، وأردعي خلقك اللحز، ودعي توانيك المقعنسس، وأسرع إسراع مستعلاج مستعجل، وأشرعي في الاعتذار إلى ربك عن شغلك عنه بك»^(٥).

(١) المقامة (٢٨): في ذم الهوى، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٢٤.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٣٠.

(٤) المقامة (٤٣): في مخاطبة العقل للنفس، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٥٠.

(٥) المقامة نفسها، ص ٣٥٣، المخرنشم: المتكبر، المخرنطم: الغضبان المتكبر، اللحز: الضيق

والبخل، المقعنسس: المتأخر، انظر: اللسان، مادة: خرشم، خرطم، لحز، قعس.



هذه نفس وضح لها الطريق الصحيح فامتثلت، وسارت فيه فكان أول ذلك السير القويم بتوجيهها إلى العبادات فما هي ذي : « نهضت لامتثال أمر الأمر على قدم الجدد، وتطهرت بماء الذل من درن الكبر، واستقبلت قبلة القصد إلى صلاح الأمر، ووضعت جبهة التواضع في مسجل الانكسار، وتلت في صلاة وصلها وإن كنا لحاطين ثم تلتها إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»^(١).

وهذه نفس ثابت ورجعت إلى الله، فلن يكون لها، ولا لغيرها من النفوس العائدة إلى الله إلا قوله : ﴿ لَتَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ لِلَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٢).

ونخلص إلى أن الجهاد قد ظهر في المقامات بأنواعه، جهاد ضد الأعداء بالسيف، وجهاد النفس وكيفية الوصول إليه، وجهاد المجتمع إلا أن الجهاد في ساحات الوغى لا يقارن إذا ما قيس مع جهاد النفس فكل أصحاب المقامات أخذ منهم جهاد النفس نصيب الأسد، أما الآخر فإن لم تكن مقامة واحدة فقط، كانت تشير إليه إشارة عابرة ليس إلا؛ كإشارة الحريري في مقامته (الحرامية)، والزمخشري في مقامته (أيام العرب)، إلا ابن الجوزي فهو الذي أفرد مقامته المسماة (الغزاة) في جهاد الأعداء من بين سائر كتاب المقامة الذين تناولهم البحث. ونضيف إليه البديع إن أردنا ألا نهضمه حقه في مقامته (القزوينية) إلا أن البديع لم يذكر أنه لقي أعداءه الروم وحاربهم، وإنما طلب أن يمد مستمعوه له يد المساعدة بالمال؛ ليحصل على العدة والعتاد، ويلتقي بعدها بأعدائه، وأعداء الإسلام وهم : الروم .

إلا أنه لا بد من التنويه إلى أن أصحاب المقامات - هنا - لم يعطوا الجهاد حقه من الذكر، فقد كانت البلاد تموج وتضطرب وكانت الحروب وعلى رأسها الحروب الصليبية مما عاصروه، ولكن لا نجد شيئاً يذكر عنها، وكأنها لم تعكس بظلالها السوداء على المجتمع الذي يمثله هؤلاء المقاميون فيسطروه لنا ضمن ماسطروا في هذه المقامات.

(١) المقامة نفسها، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٥٤، سورة يوسف، آية : ٩٢.

الفصل الخامس

الموت والحياة في المقامة



الحياة :

تعلق الروح بالبدن واتصاله به، أو هي الصفة التي يكون الموصوف بها ذا علم وقدرة، وهي الأصل في النعم إذ لولاها لم يتنعم أحد في الدنيا، ولم يكن ثواب ولا عقاب في الآخرة، فإن الله تعالى جعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء^(١).

أما الموت :

فقد جاء في السفينة الماخرة : «إن حقيقة الموت كما قال العلماء -رحمهم الله تعالى- أخذاً من النصوص الشرعية، والبراهين العقلية هو أنه ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهراً وباطناً ومفارقة، وحيلولة بينهما، وتبدل من حال إلى حال، وانتقال من دار إلى دار»^(٢).

وأصحاب المقامات أبانوا كلاً من الحياة والموت في مقاماتهم، وقد ذكر البديع في مقامته الأهوازية صورتين أو قل مشهدين للإنسان؛ الأول الانغماس في الدنيا: مشهد الرفقة مع الراوي عيسى بن هشام الذي قال: «فَأَفْضَنَّا فِي الْعِشْرَةِ كَيْفَ نَضَعُ قَوَاعِدَهَا. وَالْأُخُوَّةَ كَيْفَ نُحْكِمُ مَعَاقِدَهَا وَالشُّرُورَ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَقَاصَاهُ وَالشُّرْبَ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَعَاطَاهُ. وَالْأَنْسَ كَيْفَ نَتَهَادَاهُ وَفَائِتِ الْحِظِّ كَيْفَ نَتَلَفَاهُ وَالشُّرَابَ مِنْ أَيْنَ نُحْصِلُهُ وَالْمَجْلِسَ كَيْفَ نُزِينُهُ»^(٣).

واستعدوا للذهاب لينتقلوا من الشراب إليه ... فهذا أحد مشاهد الإنسان في دنياه الذي لا يتمنى أن تنقضى الساعة التي يعيشها أو ينغصها عليه منغص كما حدث لهذه الرفقة التي جاءها : «رَجُلٌ فِي طِمْرَيْنِ فِي يَمْنَاهُ عَمَّازَةٌ. وَعَلَى كَتِفَيْهِ جِنَازَةٌ»

(١) انظر: السفينة الماخرة إلى البرزخ والدار الآخرة، حامد بن محمد العبادي، ص ١١-١٢، مطابع الصفا، ط(٣).

(٢) رده صاحب السفينة الماخرة، ص ١٥، إلى بشرى الكتيب، السيوطي، ص ٢٢، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، وهو كذلك.

(٣) المقامة (١١): الأهوازية، لبديع الزمان الهمداني، ص ٦٦، ت: محمد يحيى الدين عبد الحميد.



فطَيَّرْنَا لِمَا رَأَيْنَا الْجَنَازَةَ، وَأَعْرَضْنَا عَنْهَا صَفْحًا، وَطَوَيْنَا دُونَهَا كَشْحًا»^(١).

أما المشهد الثاني فهو على النقيض من الأول: مشهد الإنسان بعد أن أصبح لاحول له ولا قوة، محمولاً على الأكتاف، موضوعاً على تلکم العيدان (النعش)، منقولاً إلى تلکم الوهاد (المقابر).

وهذه خاتمة المطاف لخلق الله: الموت، لكن لما كان استقبال تلك الرفقة للجنائز بالنفور، تحول الرجل إليهم بعد أن صاح بهم صيحة كادت الأرض تنفطر، والنجوم تنكدر وقال: «لَتَرَوْنَهَا صُغْرًا، وَلَتَرَكِبْنَهَا كَرْهًا وَقَسْرًا. مَا لَكُمْ تَطَّيَّرُونَ مِنْ مَطِيَّةٍ رَكِبَهَا أَشْلَافُكُمْ، وَسَيَّرَكِبَهَا أَخْلَافُكُمْ، وَتَتَقَدَّرُونَ سَرِيرًا وَطِيَّةً أَبَاؤُكُمْ، وَسَيَطُوهُ أَبْنَاؤُكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَتُحْمَلَنَّ عَلَى هَذِهِ الْعِيدَانِ، إِلَى تِلْكَمُ الدَّيْدَانِ، وَكُنْتُمْ بِهَذِهِ الْجِيَادِ، إِلَى تِلْكَمُ الْوَهَادِ، وَيُحْكَمُ تَطَّيَّرُونَ، كَأَنْكُمْ مَخِيَّرُونَ وَتَتَكْرَهُونَ، كَأَنْكُمْ مَنْرَهُونَ، هَلْ تَنْفَعُ هَذِهِ الطَّيْرَةُ، يَا فَجْرَةَ؟»^(٢).

لماذا كرهوا ذكر الموت وتطيروا حين رأوا تلکم الجنائز، أما سمعوا قول النبي ﷺ -: «يكره ابن آدم الموت، والموت خير له من الفتنة»^(٣)، وأي فتنة أعظم من فتنة الدنيا لاسيما في زمن كثرت فيه الفتن والملهيات وعمت فلا فرار ولا نجاة منها إلا بالموت الذي هو راحة له من مصائب الدنيا وهمومها. فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: مر على النبي ﷺ - بجنائز فقال: «مستريح ومستراح منه» فقالوا يارسول الله: ما المستريح وما المستراح منه؟ فقال: «العبد المؤمن يستريح من تعب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والشجر والدواب»^(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مامن بر ولا فاجر إلا والموت خير له من الحياة إن

(١) المقامة نفسها، ص ٦٧.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦٧-٦٨.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٤٢٧/٥.

(٤) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الجنائز، باب ماجاء في مستريح ومستراح منه،

٢٠/٧ بنحوه، والنسائي (١٩٣٠)، كتاب الجنائز، باب ٤٨، استراحة المؤمن بالموت،

٤٨/٤.



كان براً فقد قال تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(١)، وإن كان فاجراً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

نعم، تطيروا لكن بعد ذلك اتعظوا بمقولة الرجل عن الموت، بل عشقوا لفظه، وشاءوا الزيادة فقال لهم: «إِنَّ وِرَاءَكُمْ مَوَارِدَ أَنْتُمْ وَارِدُوهَا، وَقَدْ سَرَّيْتُمْ إِلَيْهَا عِشْرِينَ حِجَّةً... وَمِنْ فَوْقِكُمْ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَهَتَكَ أَسْتَارَكُمْ، يُعَامِلُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِحِلْمٍ، وَيَقْضِي عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِعِلْمٍ، فليكن الموتُ مِنْكُمْ عَلَى ذِكْرٍ، لئَلَّا تَأْتُوا بِنُكْرٍ، فَإِنَّكُمْ إِذَا اسْتَشَعَرْتُمُوهُ لَمْ تَحْمَحُوا، وَمَتَى ذَكَرْتُمُوهُ لَمْ تَمْرَحُوا، وَإِنْ نَسِيتُمُوهُ فَهُوَ ذَاكِرُكُمْ، وَإِنْ نَمِيتُمْ عَنْهُ فَهُوَ نَائِرُكُمْ، وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ فَهُوَ زَائِرُكُمْ»^(٣).

وقد علل البديع طلبه منهم: «فليكن الموتُ مِنْكُمْ عَلَى ذِكْرٍ؛ لئَلَّا تَأْتُوا بِنُكْرٍ...»^(٤).

وقيل في كتاب مختصر منهاج القاصدين: «كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعداً وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً فعلام تفرحون؟ وما عسيتم تنتظرون؟»

الموت: فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير أو بشر في اخواته سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً»^(٥).

وقد ذكر بديع الزمان الهمداني في مقامته «الموصلية» صورة من الصور التي نهى عنها الإسلام من قبل أهل الميت وهي: شق الجيوب ولطم الخدود... قال على لسان الراوي عيسى بن هشام حين وصل معه أبو الفتح الإسكندري للموصل «دَفَعْنَا إِلَى دَارٍ قَدْ مَاتَ صَاحِبُهَا، وَقَامَتِ نَوَادِرُ بِهَا، وَاحْتَفَلَتْ بِقَوْمٍ قَدْ كَوَى الْجَزَعُ قُلُوبَهُمْ، وَشَقَّتِ الْفَجِيعَةُ جِوْبَهُمْ.. وَنِسَاءً قَدْ نَشَرْنَ شَعُورَهُنَّ، يَضْرِبْنَ صُدُورَهُنَّ، وَشَدَدْنَ

(١) سورة آل عمران، آية ١٩٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٧٨.

(٣) المقامة نفسها (١١) الأهوازية، للبديع، ص ٦٨-٦٩.

(٤) المقامة نفسها، ص ٦٨-٦٩.

(٥) للشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، ص ٣٨٤.



مُعَوَّدَهُنَّ، يَلْطِمُنَّ خُدُودَهُنَّ»^(١).

وهذا ماكن يفعله النساء إذا مات لهن ميت في الجاهلية، وحين جاء الإسلام حث على الصبر لمن مات له ميت، وحذر من الجزع عليه فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، ومن قوله تعالى في الحث على الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «يقول الله - تعالى - : مال عبدي المؤمن عندي جزاء: إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه - إلا الجنة»^(٤).

أما في الترهيب من الجزع على الميت: فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوة الجاهلية»^(٥).

أما في مقامة ثانية فقد ذكر بعض ما يحدث للإنسان بعد موته، وأولها وضعه في القبر فقال: «إِنَّ بَعْدَ الْحَدَثِ جَدَثًا»^(٦)، وبين كيف أنهم بعد أن كانوا فوق الأرض أصبحوا في بطنها، وكيف أنهم كانوا يعيشون في دور واسعة وأصبحوا في حفر تضمهم تحت التراب قائلاً في ذلك:

«فَهُمْ فِي بَطُونِ الْأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِهَا * * * مُحَاسِنُهُمْ فِيهَا بَوَالٍ دَوَائِرُ

(١) المقامة (٢١)، ص ١٦٨، ت: فاروق سعد، ص ١١٣-١١٤، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) سورة البقرة، آية ١٥٥.

(٣) سورة الزمر، آية ١٠.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٤٢٤)، كتاب الرقاق، باب (٦): العمل الذي يتغنى به وجه الله، ٢٤١/١١. ورواه أحمد في مسنده، ٤١٧/٢.

(٥) رواه البخاري (١٢٩٧)، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، ١٠٣/٢ بلفظ "من لطم الخدود..."، ورواه مسلم (١٠٣)، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب، ٩٩/١.

(٦) المقامة (٢٦): الوعظية، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٧٠.



خَلَّتْ دُورَهُمْ مِنْهُمْ وَأَقْوَتْ عِرَاصَهُمْ * * وَسَاقَتْهُمْ نَحْوَ الْمَنِيَا الْمَقَادِرُ
وَنَحَلُوا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا لَهَا * * وَضَمَّتْهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ الْحَفَائِرِ»^(١).

كما ذكر بالوحشة التي ستنتابهم في القبر من جراء العزلة فقال :

« وَحَلُّوا بِدَارٍ لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ * * وَأَنْتَى لِسُكَّانِ الْقُبُورِ التَّزَاوُرُ »^(٢)

كما أشار إلى البعث بعد الموت فقال :

« كَأَنَّا نَرَى أَنَّهُ لَا نُشُورُ، وَأَنَّنَا * * سُدِّي، مَا لَنَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مَصَائِرُ »^(٣)

فأراد أن هذا الذي يتكالب على الدنيا ويحرص عليها، ويعتقد أنه وجد في هذه الحياة بلا راعٍ يكفيه، وأنه لن يصير إليه فيحاسبه، فهذا كأنه لا يدين بالبعث ولا يؤمن به.

ثم يتعجب ممن يخشى الموت فيقول: « أَلَا تَعْجِبُونَ مِمَّنْ يَنَامُ وَهُوَ يَخْشَى الْمَوْتَ، وَلَا يَرْجُو الْفُوتَ »^(٤)، وكأنه لم يسمع لقوله - ﷺ -: « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ».

وقال ابن عمر: « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرُ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرُ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صَحْتِكَ لِمَرْضِكَ وَمِنْ قُوَّتِكَ لضعفك »^(٥).

أما ابن نايقا فقد أعطانا صورة من أقبح الصور التي قد يتعرض لها الميت ألا

(١) المقامة نفسها، ص ١٧٢، بوال: جمع بال وهو الخلق الرث، الدوائر: الهوالك، أقوت: خلت

وأقوت، العراض: المنازل الضيقة الصغيرة، انظر: اللسان، مادة: بول، دار، قوت، عرض.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٧٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٧٧.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٧٦.

(٥) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٤١٦) عن عبد الله بن عمر - ﷺ - في كتاب

الرقائق، باب (٣): قول النبي - ﷺ -: « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ »،

٢٣٣/١١، وابن ماجه تحت رقم (١٤١٤) في كتاب الزهد، باب (٣): مثل الأنبياء،

١٣٧٨/٢، بنحوه، والإمام أحمد - ﷺ - في مسنده، ٢/٢٤، ٤١، ١٣١.



وهي نبش قبره، فما هو ذا بطل مقاماته، يقوم بهذا الفعل الشنيع، وما ذلك إلا ليسلبيهم أكفانهم فيقول على لسان الراوي: «تَبَعْتُهُ عَلَى الْأَثْرِ وَإِذَا بِهِ قَدْ اقْتَحَمَ مَنَازِلَ أَهْلِ الْبَلَى وَسُكَّانَ الثَّرَى لَا يَرْقُبُ فِيهِمْ ذِمَّةً وَلَا يَرْحَمُ لَهُمْ رُمَّةً، فَجَعَلَ يَطَأُ الْأَجْدَاثَ وَيَجْرِقُهَا، وَيَسْتَامُهَا وَيَنْتَشِقُهَا، حَتَّى وَقَعَ عَلَى ضَالَّتِهِ وَأَذْرَكَ دَفِينِ لَيْتِهِ، فَرَأَيْتُ مِنْهُ الْعَجَبَ الْعَجَابَ فِي سَفِيِّ تِلْكَ الْأَحْجَارِ وَالْتَرَابِ؛ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْبَائِسِ، فِي ذَلِكَ الْقَعْرِ الدَّامِسِ، فَخَرَّجَهُ مِنْ صَبْرِيحِهِ، وَنَبَذَهُ عَلَى صَفْحِهِ، فَسَلَبَ أَكْفَانَهُ، وَحَطَّمَ أُرْدَانَهُ، ثُمَّ عَادَ فَكَرَّبَسَهُ وَتَنَاوَلَ حَجْرًا فَرَسَهُ، وَهَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّرَابُ وَالْأَحْجَارُ وَوَلَى...»^(١).

هذا رجل بدأ بفعل قبيح اتبعه أفعالاً أحر أقبح، فأولها بدأ بنبش القبر، ثم سرق الكفن، ومن ثم حطم أردانه، وأعادته إلى قبره وكأنه لم يفعل شيئاً، بل ولم يؤنبه ضميره، ولا ارتاعت نفسه من سوء فعله، فإذا به يرد على الراوي متولاً على الله حين لامه على فعله فقال: «قَدْ قَالَ صَاحِبُ الشَّرْعِيَةِ أَطْلُبُوا فِي خَبَايَا الْأَرْضِ»^(٢) فقال الراوي راداً باستغراب واستهجان: «وَيَحْكُ يَعْنِي فِي اسْتِخْرَاجِ النَّبَاتِ لِأَنِّي نَبَشِ الْأَمْوَاتِ، فَقَالَ: لَسْتُ بِالتَّأْوِيلِ أَوْلَى مِنِّي أَنَا الشُّكْرِيُّ...»^(٣)، وكان على الشاهد لهذه المناظر أن يشكوه ليقام عليه الحد، وهو قطع اليد لقوله - ﷺ - لأبي ذر: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَصَابَ النَّاسَ مَوْتَ يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْوَصِيفِ» يعني القبر، قلت: الله ورسوله أعلم أو ماخار الله ورسوله، قال: «(عليك بالصبر) أو قال (تصبر)» قال أبو داود: قال حماد بن سليمان بقطع النباش؛ لأنه دخل على الميت بيته»^(٤)، وفي حديث آخر ذكر اللعن بدل القطع، لقول عمرة بنت عبد الرحمن: «لعن رسول الله - ﷺ - المختفي والمختفية. يعني نباش القبور»^(٥).

أما الحريري فقد أورد ذكر الموت والحياة معاً في الغالب، لكن ترغيب عن الدنيا وترهيب بذكر الموت، ففي المقامة الصنعانية نجد الحريري يذكر على لسان

(١) المقامة (٢) من المقامات العشر لابن ناقياء، ص ٣-٤ من المخطوط.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) رواه أبو داود (٤٤٠٩)، كتاب الحدود، باب في قطع النباش، ١٤٢/٤.

(٥) رواه مالك بن أنس - ﷺ - في الموطأ، (٤٤)، كتاب الجنائز، باب (١٥)، ٢٣٨/١.



الراوي الحارث بن همام أنه دخل نادياً رحيباً، والناس مجتمعون حول رجل يعظ مذكراً بالموت وأن مآل الإنسان إليه، ويرغبهم بالبعد عن الدنيا الفانية فيقول :

« أَتَظُنُّ أَنْ سَتَنْفَعَكَ حَالُكَ إِذَا آنَ ارْتِحَالُكَ، أَوْ يَنْقُذُكَ مَالُكَ حِينَ تُوْبِقُكَ أَعْمَالُكَ، أَوْ يُغْنِي عَنْكَ نَدْمُكَ، إِذَا زَلَّتْ قَدَمُكَ أَوْ يَعْطِفُ عَلَيْكَ مَعْشَرُكَ، يَوْمَ يَضُمُّكَ مَحْشَرُكَ... أَمَّا الْحِمَامُ مِيعَادُكَ فَمَا إِعْدَادُكَ، وَبِالْمَشِيبِ أَنْذَارُكَ، فَمَا أَعْدَارُكَ، وَفِي اللَّحْدِ مَقِيلُكَ فَمَا قِيلُكَ، ... طَالَمَا أَيَقْظُكَ الدَّهْرُ فَتَنَاعَسْتَ، وَجَذَبَكَ الوَعْظُ فَتَقَاعَسْتَ... وَأَذَكَكَ المَوْتُ فَتَنَاسَيْتَ، وَأَمَكَّنَكَ أَنْ تُوَاسِيَ فَمَا آسَيْتَ...»^(١).

فقد حذر من الوقوع في المعاصي عن طريق التذكير بالموت، وعذاب القبر، فالموت هو الميعاد الذي ينتهي إليه الناس، والعمل الذي أعدوه هو مقياس نعيمهم أو شقائهم، فمن سار في دنياه لاهياً عن العمل الصالح بالدنيا وشهواتها، فلا أقل من أن يكون كبر السن هو المنذر له للعودة إلى جادة الصواب، وعبر عنه بانتشار الشيب في رأسه؛ وليصل إلى تأثير أكبر في موعظته أضاف إلى ذلك بذكر اللحد الذي سيكون أول دار ينزله الميت بعد موته، والمقر الأخير للإنسان، « فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ جَعَلَ الدَّوْرَ ثَلَاثًا : دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ البَرزَخِ، وَدَارَ القَرَارِ، وَالبَرزَخُ هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٢)، أي أمامهم حاجز بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث وهو في اللغة الحاجز بين الشيئين من وقت الموت إلى يوم القيامة ومن مات دخله»^(٣).

وفي مقامته الساوية يحث الحريري على زيارة القبور، لأن ذلك يزيل ماران على القلوب من قسوة فقال: « أَنْسْتُ مِنْ قَلْبِي القَسَاوَةَ حِينَ حَلَلْتُ سَاوَةَ، فَأَخَذْتُ بِالخَبْرِ المَأْثُورِ فِي مَدَاوِئِهَا بِزِيَارَةِ القُبُورِ»^(٤)، والخبر المأثور قوله -ﷺ-: «نهيتمكم عن

(١) المقامة (١)، شرح مقامات الحريري، ٢٠-٢١، ت: يوسف بقاعي .

(٢) سورة المؤمنون، آية ١٠٠.

(٣) السفينة الماخرة إلى البرزخ والدار الآخرة، حامد العبادي، ص ٥٩، وأرجعه لتفسير ابن كثير،

٢٥٦/٣، طبعة مصطفى الحلبي وهو كذلك، ولسان العرب، لابن منظور، والقاموس،

للفيروزآبادي، مادة: برزخ.

(٤) المقامة (١١)، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٨٣.



زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرة»^(١).

ثم أبان أنهم يعمدون أثناء حفر القبر إلى اللحد تأسيًا برسول الله - ﷺ - الذي قال: «اللحد لنا والشق لغيرنا»^(٢).

أما الحريري فقال: «فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ، وَكِفَاتِ الرُّفَاتِ، رَأَيْتُ جَمْعًا عَلَى قَبْرِ يُحْفَرُ، وَجَنْوَزٍ يُقْبَرُ، فَانْحَزْتُ إِلَيْهِمْ مَتَفَكِّرًا فِي الْمَالِ مُتَذَكِّرًا مَنْ دَرَجَ مِنْ الْأَلِّ، فَلَمَّا أَحْدَوْا الْمَيْتَ ...»^(٣).

ثم أخذ يصف حال أولئك الناس الذين لا يزالون بمن دفن تحت التراب، ولا يتفكرون بحالهم قبل أن يكون القبر مأواهم الأخير عندها سيندمون ولات ساعة مندم، فقال: «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ، فَادْكُرُوا أَيُّهَا الْعَافِلُونَ، وَشَمِّرُوا أَيُّهَا الْمُقَصِّرُونَ ... مَا لَكُمْ لَا يَخْزُنُكُمْ دَفْنُ الْأَتْرَابِ، وَلَا يَهْوُلُكُمْ هَيْلُ التُّرَابِ، وَلَا تَعْبَأُونَ بِنَوَازِلِ الْأَحْدَاثِ، وَلَا تَسْتَعِدُّونَ لِنَوَازِلِ الْأَجْدَاثِ، وَلَا تَسْتَعْبِرُونَ لِعَيْنِ تَذْمَعُ، وَلَا تَعْتَبِرُونَ بِنَعْيِ يُسْمَعُ، وَلَا تَرْتَاعُونَ لِإِلْفٍ يُفْقَدُ، وَلَا تَلْتَأَعُونَ لِإِنَاحَةِ تُعْقَدُ ...»^(٤).

إن كل هذه الأفعال تصدر من أهل الميت فعيونهم تذرف العبرات، والنساء ينعين، ومن لوعتهن ينحن على موتاهن، إلا أن البكاء بدون صوت هو الجائز، لما أثار عن الرسول - ﷺ - أنه أخذ بيد عبدالرحمن بن عوف، فانطلق به إلى ابنه إبراهيم، فوجدوه يجود بنفسه، فأخذه النبي - ﷺ - فوضعه في حجره فبكى فقال له عبدالرحمن: أتبكي؟ أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا. «ولكن نهيت عن صوتين

(١) رواه أبوداود - عن ابن بريدة - ﷺ - (٣٢٣٥)، كتاب الجنائز، باب في زيارة القبور، ٢١٨/٣.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس - ﷺ - (١٠٤٥)، كتاب الجنائز، باب (٥٣)، ٣٦٣/٣. ورواه أبوداود (٣٢٠٨)، كتاب الجنائز، باب في اللحد، ٢١٣/٣.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٨٣-٨٤.



أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة، حمش وجوه وشق جيوب ورنه شيطان»^(١)، أما النعي والمناحة اللذان ذكرهما الحريري فهما مكروهان لقوله - ﷺ -: «من نيح عليه عذب بما نيح عليه»^(٢).

وفي النعي أن «حذيفة بن اليمان - ﷺ - قال: إذا مت فلاتؤذنوا بي، إني أخاف أن يكون نعيًا، فإني سمعت رسول الله - ﷺ - ينهى عن النعي»^(٣).

ونعود إلى الحريري فإذا بطل مقاماته يبين حال أهل الدنيا مع الميت فيقول: «يَشِيْعُ أَحَدَكُمْ نَعَشَ الْمَيِّتِ، وَقَلْبُهُ تَلْقَاءَ الْمَيِّتِ، وَيَشْهَدُ مُوَارَاةَ نَسِيْبِهِ وَفِكْرَهُ فِي اسْتِخْلَاصِ نَصِيْبِهِ وَيُخَلِّي بَيْنَ وَدُوْدِهِ وَدُوْدِهِ ثُمَّ يَخْلُو بِمِزْمَارِهِ وَعَوْدِهِ ... وَضِحِكْتُمْ عِنْدَ الدَّفْنِ ... وَتَبَخَّرْتُمْ خَلْفَ الْجَنَائِزِ ... وَأَعْرَضْتُمْ عَن تَعْدِيدِ النُّوَادِبِ، إِلَى عِدَادِ الْمَادِبِ، وَعَن تَحْرِقِ الثَّوَاكِلِ إِلَى التَّائِقِ فِي الْمَاكِلِ ... حَتَّى كَأَنَّكُمْ قَدْ عَلِقْتُمْ مِنَ الْجِمَامِ بِذِمَامٍ أَوْ حَصَلْتُمْ مِنَ الزَّمَانِ عَلَى أَمَانٍ ... أَوْ تَحَقَّقْتُمْ مُسَالْمَةَ هَاذِمِ اللَّذَاتِ ...»^(٤).

ومن ثم قال أبياتاً من الشعر ذكر في بعضها حال الإنسان حين يوضع في قبره:

«كَأَنِّي بِكَ تَنْحَطُّ * إِلَى اللَّحْدِ وَتَنْغَطُّ * وَقَدْ أَسْلَمَكَ الرَّهْطُ

إِلَى أَضْيِقٍ مِنْ سَمٍّ

هَناكَ الْجِسْمُ مَمْدُودٌ * لَيْسْتَ أَكِلَةَ الدُّوْدِ * إِلَى أَنْ يَنْخَرِ الْعُودُ

وَيُمْسِي الْعَظْمُ قَدْرَمٍّ

(١) رواه الترمذي (١٠٠٥) عن جابر بن عبد الله - ﷺ -، كتاب الجنائز، باب (٢٥)، ٣/٣٢٨ وقال حديث حسن .

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت، ١٠٢/٢. ورواه الترمذي تحت رقم (١٠٠٠) عن المغيرة بن شعبة - ﷺ - كتاب الجنائز، باب (٢٣)، ٣/٣٢٥.

(٣) رواه الترمذي (٩٨٩)، كتاب الجنائز، باب (١١): ماجاء في كراهية النعي، ٥٨/٤. ورواه ابن ماجه (١٤٧٦)، كتاب الجنائز، باب (١٤): ماجاء في النهي عن النعي، ٤٧٤/٢، بلفظه.

(٤) المقامة نفسها، ص ٨٤.

وَمِنْ بَعْدُ فَلَا بُدَّ * مِنَ الْعَرَضِ إِذَا اعْتَدَّ * صِرَاطُ جِسْرِهِ مَدَّ
عَلَى النَّارِ لِمَنْ آمَنَ^(١)

وفي هذا إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ - صلى رسول الله ﷺ - حين دخل مصلاه فرأى أناساً كأنهم يكتشرون، قال: «أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى الموت، فأكثروا من ذكر هادم اللذات الموت. فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربية، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود، فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم وصرت إلي فسترى صنيعي بك، قال: فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة. وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لامرحباً ولا أهلاً أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم وصرت إلي فسترى صنيعي بك قال: فيلتئم عليه حتى تلتقي عليه وتختلف أضلاعه، قال: قال رسول الله ﷺ - بأصابه، فأدخل بعضها في جوف بعض. قال: ويقيض الله له سبعين تيناً لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئاً ما بقيت الدنيا فينهشنه ويخدشنه حتى يفضي به الحساب، قال: قال رسول الله ﷺ - : «إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»^(٢).

وأما في قول الحريري : * صِرَاطُ جِسْرِهِ مَدَّ * :

فيشير بذلك إلى الصراط المنصوب على متن جهنم، ورد في وصفه أنه أدق من الشعر وأحد من السيف^(٣).

(١) القامة نفسها، ص ٨٦.

(٢) رواه الترمذي عن أبي سعيد - ﷺ - (٢٤٦٠)، كتاب صفة القيامة، باب (٢٦)، ٦٤٠-٦٣٩/٤.

(٣) الصراط : أصله الطريق الواسع وسمي بذلك لأنه يسترط السابلة أي يتلعمهم إذا سلكوه. وشرعاً: جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون. انظر: شرح العقيدة الوسطية، د. محمد خليل هراس، ص ١٢٦، مراجعة: عبدالرزاق عفيفي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط ٣.



وفي مقامة ثانية أشار بأبيات من الشعر إلى رجل قد مات بعد أن مرض،
ويحتاج إلى من يعينه؛ لتكفين هذا الميت فقال:

((وَهَآ هُوَ الْيَوْمَ مُسْحَى فَمَنْ * * يَرِغَبُ فِي تَكْفِينِ مَيِّتٍ غَرِيبٍ

ثُمَّ إِنَّهُ أَعْلَنَ بِالتَّحِيْبِ، وَبَكَى بُكَاءَ الْحَيِّبِ عَلَى الْحَيِّبِ وَلَمَّا رَقَاتِ دَمْعُهُ،
وَانْفَثَاتِ لَوْعَتِهِ، .. فَطَفِقَ الْقَوْمُ يَأْتِمِرُونَ فِيمَا يَأْمُرُونَ .. فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ يَتِمَّ الْأَوْنَ عَلَى
صَرْفِهِ بِحَرْمَانَ ... فَفَرَطَ مِنْهُ أَنْ قَالَ ... مَا هَذَا الْارْتِيَاءُ، الَّذِي يَأْبَاهُ الْحَيَاءُ، حَتَّى
كَأَنَّكُمْ كَلَفْتُمْ مَشَقَّةَ لاشَقَّةِ، أَوْ اسْتَوْهَيْتُمْ بَلْدَةَ لَابُرْدَةَ، أَوْ هَزَزْتُمْ لِكِسْوَةِ الْبَيْتِ لَا
لِتَكْفِينِ الْمَيِّتِ ...))^(١)، فكان لابد أن يعينوه على تكفين هذا الميت، لأن النبي - ﷺ -
قال: ((إِذَا كَفَنَ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ فَلِيَحْسُنْ كَفْنَهُ))^(٢).

فالمراد بالتحسين بياضه ونظافته وسبوغه وكثافته لا كونه ثميناً^(٣)، أما كون
الكفن أبيض لقوله - ﷺ -: ((البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم،
وكفنوا فيها موتاكم))^(٤).

كما نهى - عليه الصلاة والسلام - عن المغالات في الكفن؛ لأن علي بن أبي
طالب قال لعامر لاتغال لي في كفن، فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: ((لاتغالوا
في الكفن فإنه يسلبه سلباً سريعاً))^(٥).

(١) المقامة (٢٠): الفارقة، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ١٥٢-١٥٣. رفأت
دمعته: انقطعت، انفثأت لوعته: سكنت حرقة، الشقة: الثوب غير المخيط، انظر: اللسان،
مادة: رفاً، فتأ، شق.

(٢) رواه أبو داود (٣١٤٨) عن جابر بن عبد الله - ﷺ - كتاب الجنائز، باب في الكفن،
١٩٨/٣. ورواه النسائي في كتاب الجنائز، باب الأمر بتحسين الكفن، ٣٣/٤.

(٣) شرح الحافظ جلال الدين السيوطي على سنن النسائي: ٣٣/٤-٣٤.

(٤) رواه الترمذي (٩٩٤) عن ابن عباس - ﷺ -، كتاب الجنائز، باب (١٨)، ٣٢٠/٣. ورواه

النسائي بلفظ: ((البسوا ... فإنها أطهر وأطيب))، عن أبي المهلب سمرة - ﷺ -، كتاب
الجنائز، باب أي الكفن خير، ٣٤/٤.

(٥) رواه أبو داود (٣١٥٤)، كتاب الجنائز، باب كراهية المغالات في الكفن، ١٩٩/٣.



وفي مقامته الأخيرة نجد بطل الحريري يذكر حياته وكيف عاشها، ويرجو العون من أهل البصرة ليغيرها، ويستعد للحياة الآخرة فيقول مصوراً مافعله طوال أيامه بعد أن مدح أهل البصرة :

«أنا الذي أنجد وأنهم، وأيمن وأشأم، وأصحّر وأبجر، وأذلج، وأسحر، نشأت
بِسْرُوجٍ، وَرَبِيْتُ عَلَى السَّرُوجِ، ثُمَّ وَجَلْتُ الْمَضَائِقَ، وَفَتَحْتُ الْمَغَالِقَ، وَشَهِدْتُ
الْمَعَارِكَ، وَأَلَنْتُ الْعِرَائِكَ وَأَقْتَدْتُ الشَّوَامِسَ وَأَرَعَمْتُ الْمَعَاطِسَ وَأَذْبَتُ الْجَوَامِيدَ ...
سَلُّوا عَنِّي الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ ... وَاسْتَوْضِحُونِي مِنْ نَقَلَةِ الْأَخْبَارِ، وَرُؤَاةِ الْأَسْمَارِ،
وَحُدَاةِ الرُّكْبَانَ، وَحَذَاقِ الْكُهَّانِ لِتَعْلَمُوا كَمْ فَجَّ سَلَكْتُ، وَحِجَابِ هَتَكْتُ، وَمَهْلَكَةِ
اِقْتَحَمْتُ، وَمَلْحَمَةِ الْحَمْتِ، وَكَمْ أَلْبَابٍ خَدَعْتُ، وَبَدَعَ ابْتَدَعْتُ، وَفُرْصِ اِخْتَلَسْتُ،
... وَكَايَمِنِ اسْتَخْرَجْتُهُ بِالرَّقِيِّ وَحَجَرَ شَحَذْتُهُ حَتَّى انْصَدَعَ، وَاسْتَنْبَطْتُ زَلَالَهُ
بِالْخُدَعِ، وَلَكِنْ فَرَطَ مَافَرَطَ وَالْغُصْنَ تَطَيَّبُ ... فَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ اسْتَشَنُّ الْإِدِيمَ ...
فَلَيْسَ إِلَّا النَّدْمُ إِنْ نَفَعُ»^(١).

فهذه حياة إنسان منذ ولد في سروج وتربى على سروج الخيول وسافر كثيراً، فلم يترك مكاناً إلا وقد وطأه قدمه، فذهب لنجد وتهامة واليمن والشام عبر الصحراء والبحار في دلجة الليل وسحر الصباح، ويعرف من العلوم الكثير فهو خبير في نقل الأخبار وراوٍ للسمار، وحاد للركبان، وحذق كالكهان؛ إلا أن ذلك كله وظفه للشر؛ فهو قد هتك الحجب وخدع ذوي الألباب، وابتدع البدع، واختلس الفرص بطرق غير شرعية منها: الرقى، والخدع ... هذه الحياة التي عاشها هذا الرجل بصورة مغايرة لما استخلفه الله لها، «فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: صلى بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً صلاة العصر بنهارٍ ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فإظروا كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ... فكان فيما قال: ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته، ... ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من

(١) المقامة (٥٠): البصرية، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٤١٧-٤١٨.



يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ... ألا وإن الغضب جرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليصق بالأرض، قال : وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء؟ فقال رسول الله - ﷺ -: ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»^(١).

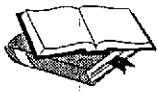
ولكن الندم على ما فرط في جنب الله جعله يطلب منهم أن يدعوا له فقال: «وَلَسْتُ أَبْغِي أَعْطِيَتِكُمْ، بَلْ اسْتَدْعِي أَدْعِيَتِكُمْ ... فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى يَتَوَفِّيَنِي لِلْمَتَابِ، وَالْإِعْدَادِ لِلْمَأْبِ، فَإِنَّهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ مُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، ثُمَّ أَنْشُد :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبٍ * * * أَفْرَطْتُ فِيهِنَّ وَاعْتَدَيْتُ
كَمْ خُضْتُ بِحَرِّ الضَّلَالِ جَهْلًا * * * وَرُحْتُ فِي الْغَىِّ وَاعْتَدَيْتُ
فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا * * * نِسِيًّا وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ
فَالْمَوْتُ لِلْمُجْرِمِينَ خَيْرٌ * * * مِنَ الْمَسَاعِيِ الَّتِي سَعَيْتُ
يَا رَبِّ عَفُوا فَإِنَّتْ أَهْلٌ * * * لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ»^(٢)

واستجاب الله لدعائه، وأصبح أبو يزيد المعروف، وقد لبس الصوف، ونبد صحبة الأصحاب، وانتصب في المحراب، وألقى ممن سيماهم في وجوههم من أثر السجود، يجتهد في التقرب إلى الله بالأوراد، ويظل في قنوت وخشوع، وسجود وركوع، وإخبات وخضوع، ويقوم ليله متهجداً إلى الفجر، ويتوجه إلى الله تسييحاً،

(١) رواه مسلم (١٤٦٧)، كتاب الرضاع، باب (١٧): خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ١٠٩٠/٢، ورواه الترمذي (٢١٩١)، كتاب الفتن، باب (٢٦)، ٤٨٣/٤-٤٨٤. حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (٤٠٠٠)، كتاب الفتن، باب (١٩): فتنة النساء، ١٣٢٤/٢، بلفظه، وأحمد في مسنده، ٦١/١٩/٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤١٩-٤٢٠.



طالباً الاستغفار بصوت نادم رقيق، مستعيناً بدموع تلاها بكاء ولا بكاء يعقوب جاعلاً الموت نصب عينيه، كما نصح الحارث حين عزم على مفارقه فقال: «وَقَلْتُ أَوْصِنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ، فَقَالَ: اجْعَلِ الْمَوْتَ نُصَبَ عَيْنِكَ، وَهَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ»^(١)؛ لأن من يجعل الموت أمام ناظره، يتذكر أن هذه الحياة الدنيا، ما وجد فيها إلا لتكون قنطرة يجتازها بالعمل الصالح إلى الحياة الآخرة التي هي مشواه الأخير، جنة كانت أو ناراً، مروراً بضمة القبر والعرض الذي قال فيه :

«وَيُحِكُ يَأْنَفْسُ احْرِصِي ** عَلَى ارْتِيَادِ الْمُخْلِصِ

**

وَأَنَّ مَثْوَاكَ غَدَاً ** فِي قَعْرِ حُجْدٍ بَلَقَمِ

أَهْأَلَهُ يَبْتَ الْبَلَى ** وَالْمُنْزِلَ الْقَفَرَ الْخَلَا

وَمَـؤُودَ السَّـفْرِ الْأَى ** وَاللَّاحِقِ الْمُتَّبِعِ

يَبْتُ يُرَى مَنْ أُودِعَهُ ** قَدْ ضَمَّهُ وَأَسْتُودِعَهُ

بَعْدَ الْفَضَاءِ وَالسَّعَةِ ** قِيدُ ثَلَاثِ أَذْرَعِ

**

وَبَعْدَهُ الْعَرْضُ السَّـذِي ** يَحْوِي الْحَيَّيَّ وَالْبَيْدِي»^(٢)

أما الزمخشري فغالباً ما نراه في مقاماته يحث على ترك الحياة الدنيا وزينتها، ويلجأ إلى ذلك عن طريق المقابلة بينها وبين الحياة الآخرة، ومآل الإنسان - إذا ما انساق إلى الأولى وترك التفكير في الثانية - إلى الخسران، والعاقبة الوخيمة، كما نراه في مقامته المسماة «الزاد» يحث على التزود من الدنيا بالعمل الصالح استعداداً ليوم القيامة وإلا سيندم حين لا ينفعه الندم فسيقول حينئذ : «فِيَا حَسْرَتَا لَوْ أَنَّ يَاحْسِرَتَا

(١) المقامة نفسها، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢٤ - ٤٢٥.



تُعني، وَيَأْسَفَا كَوَّ أَنْ يَاْسَفَا مُجْدِي»^(١).

وقد أطلق في مقامته هذه عدة صفات للدنيا، فقال: إنها: غدارة، وغرارة، ختالة، وختارة، ثم قال: «قَضَّ فِيهَا أَسْرَعَ مَا تَقْضِي أَهَمَّ أَوْ طَارِكَ. إِنَّ أَهَمَّ أَوْ طَارِكَ فِيهَا تَزْوَدُكَ مِنْهَا»^(٢). وبعد ذلك بين ان الإنسان في هذه الدنيا كالمسافر عليه أن يستعد قبل الرحيل، وإلا أصابه الجوع والظمأ، وكذا الإنسان الذي لا يتزود بالصالح من الأعمال سيكون حاله كهذا الجائع، الظمآن، ولعله هنا تمثل قول الرسول -ﷺ-: «مأنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة»^(٣).

وسار على نفس الخطى في مقامة «الزهد» فنراه يبحث على رفض الدنيا، وليزيد في الاقناع بين أن الله قد أبغضها ومقتها، ولما كان المسلم الحق حريص على أن ينال رضا الله سار على النهج نفسه ممثلاً في أنبيائه وأوليائه في البغض والمقت لها، وكذا كل مسلم .. ثم بدأ يدلل على طلبه لها بالرفض بأن الله لم تزن عنده جناح بعوضة، مشيراً إلى قوله -ﷺ-: «والذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله -عز وجل-، من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ماسقى كافراً منها شربة»^(٤).

أما قوله -ﷺ-: «(من هذه) يقصد شاة شائلة»^(٥) برجلها، حين مر - عليه السلام - فقال من معه: نعم، فقال الحديث السابق: «والذي نفسي ...».

ثم بدأ الزمخشري يزهد في الدنيا بأن أطلق عليها «الفانية» وأخذ يصفها وصفاً دقيقاً، ويبين كيفية الخلاص من مغرياتنا والذي لا يكون إلا المعتصم بالله، فمن وصفه قوله:

(١) المقامة (٥)، شرح مقامات الزمخشري، ص ٤٤، ت: يوسف بقاعي.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢، ت: يوسف بقاعي.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ٣٩١/١ - ٤٤١.

(٤) سبق تخريجه في ص ٢٨.

(٥) الشائلة من الإبل: التي أتى عليها من حملها، أو وضعها سبعة اشهر فحفت لبنها، أما قوله:

شائلة برجلها: أي رافعة رجلها من الانتفاخ. انظر: اللسان، مادة: شأل.



« إِنَّ رَأَقَكَ رَوَاؤَهَا الْجَمِيل ، فَمَا وَرَاءَهُ مُشْوَةٌ ، مَا هِيَ إِلَّا سَمٌّ دَعَا فِى الْعَسَلِ بِمَمَّوْهِ ، مَنَعَصَةُ الْمَسَارِّ لَمْ تَخُلْ مِنْ أَدَى ، مَطْرُوقَةُ الْمَشَارِبِ لَمْ تَصْفُ مِنْ قَدَى ، مَعَ كُلِّ اسْتِقَامَةٍ فِيهَا اعْوِجَاجٌ . وَفِي كُلِّ دَعَاٍ مِنَ الْمَشَقَّةِ مِزَاجٌ »^(١) .

وإن كنت تريد الحصول على طبياتها ف: «شَهِدَهَا مَشْفُوعٌ بِإِبْرِ النَّخْلِ ، رُطِبَهَا مَصْحُوبٌ بِسَلَاءِ النَّخْلِ ، أَمَامَ الظَّفْرِ يَغْنِيْمَتِهَا الْأَصْطِلَاءُ بِنَارِ الْحَرْبِ . قَبْلَ اعْتِنَاقِ سَيِّهَا مُعَانَقَةُ ابْنَاءِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ »^(٢) .

وبعد ذلك بدأ يضع الفروض التي ربما ترد إلى ذهنك فقال : « هَبْهَا مَرُوقَةٌ الْمَشَارِبِ . مُصَفَّقَةٌ مِنَ الشَّوَابِ . قَدْ صَفَتْ لِصَاحِبِهَا كُلِّ لَذَّةٍ . وَأَظْلَمَتْ سَحَابَةُ اللَّهْوِ هَاطِلَةٌ مُرْدَّةٌ »^(٣) .

وعلى فرض أنها هكذا فيكفي أن «تَيْقَنَّ الْمَسْرُورِ بِزَوَالِ مَا هُوَ فِيهِ مَنَعَصًا لِسِرُورِهَا . وَزَاجِرًا لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلُويَ عَلَيَّ غُرُورِهَا »^(٤) .

ويستمر الزمخشري في هذه المقامة مبيناً أن الدنيا لاتزال بزخرفها تدعو للانغماس، والانجراف تجاهها، واللييب هو الذي لايلبى داعي الشهوة، بينما مدعى الهوى يجيب، وانطلق بعد ذلك يمدح من اعتصم بجبل الله وسار على الصراط القويم فهذا رغم أنه رث اللباس، وغير مشتهر في الدنيا فإنه معروف في السماء، وكأنه تمثل لقول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : « كونوا جدد القلوب، خلقان الثياب، تخفون في الأرض، تعرفون في السماء ». ويقول عنه :

« إِذَا الْعَيُونُ اجْتَلَّتْهُ فِي بَدَاذَتِهِ * * تَعْلُو نَوَاطِرُهَا عَنْهُ وَتَقْتَحِمُهُ
مَازَالَ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا بِهَمَّتِهِ * * حَتَّى تَرَقَّتْ إِلَى الْأُخْرَى بِهِ هَمُّهُ »

(١) المقامة (٦)، شرح مقامات الزمخشري، ص ٤٥-٤٦، ت: يوسف بقاعي .

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٦، ت: يوسف بقاعي، السلاء: شوك النخل، والواحدة سلاءة، انظر: اللسان مادة: سلا

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٧، ت: يوسف بقاعي، مردة: التي أتت بالرداذ، وهو الضعيف من المطر، انظر: اللسان، مادة: رد .

(٤) المقامة نفسها، ص ٤٨، ت: يوسف بقاعي .

فَدَاكَ أَعْظَمُ مِنْ ذِي النَّجِجِ مَتَكِيماً ** عَلَى النَّمَارِقِ مُحْتَفِئاً بِهِ حَشْمُهُ»^(١)

فوضح في هذه الآيات أن عيون الناس تتجاوز مثل هذا الرجل لأنه؛ باذ الهيئة كأنهم لم يسمعوا حديث رسول الله - ﷺ -: «البذاذة من الإيمان»^(٢).

وفي حديث آخر : أنه دخل على رسول الله - ﷺ - رجل باذ الهيئة تعلق عنه العيون فضرب بيده على كتفه وقال : « هذا خير من الدنيا وما فيها»^(٣).

في مقامته (٢٦) أخذ يعدد نعم الله على عبده في هذه الدنيا فمنها: الأفلاك المسخرة، والكواكب المسيرة، والقمر، والشمس، والسحاب والأرض المذللة لراكبها، ساكنة لتصلح للمشى في مناكبها، ممهدة، موطدة عليها الجبال الراسيات، وبحران أحدهما عذب والآخر أجاج، وحب، ونوى، وأخيراً أشار إلى قصة خلق الإنسان، فقال: « وَنُطْفَةٌ هِيَ بَعْدُ تَسْعَةُ إِنْسَانٍ، لَهُ قَلْبٌ وَبَصَرٌ وَلِسَانٌ، فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُ غَرَائِبُ حِكْمٍ يَعْجِزُ اللِّسَانُ الذَّلِيلُ أَنْ يَحْصَرَهَا وَيُحْصِيَهَا، وَيَعَزُّ عَلَى الْفَهْمِ الدَّقِيقِ أَنْ يَبْلُغَ كُنْهَهَا وَيَسْتَقْصِيَهَا»^(٤).

وما عدد كل هذه النعم إلا ليدلل على أن وراءها حكيم قدير، عليم خبير و«تتصرف هذه الأشياء على قضائهم ومشيئته، ويتمشى أمرها على حسب إمضائهم وتمشيته. وهي منقادة مدعنة لتقديره وتكوينه... وهذه كلها محدثات عن عدم»^(٥).

وبعد هذا عليك ألا تنساق وراء الشيطان، فيستهويك ويستغويك فأنت أيها الإنسان وجميع ما عندك عطاؤه أي الله تعالى.

(١) المقامة نفسها، ص ٤٩، ت: يوسف بقاعي.

البذاذة: ترك التكلف في اللبس والمطعم، تعلق: علت عنه العين: إذا نبت عنه، متكماً: إشارة إلى قوله تعالى: «متكئين على سرر مصفوفة». (الطور ٢٠)، النمارق: الوسائد الصغيرة يتكأ عليها، انظر: اللسان، مادة: بذ، علا، مرق.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١١٨) في كتاب الزهد، باب (٤): من لا يؤبه له، ١٣٧٩/٢ بلفظه.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٦٨/٦.

(٤) التوحيد، شرح مقامات الزمخشري، ص ١٥٩-١٦٠، ت: يوسف بقاعي.

(٥) المقامة نفسها، ص ١٦٠، ت: يوسف بقاعي.



وسار الزمخشري في مقامة ثانية على نفس الخطى التي بدأها في المقامة السابقة «التوحيد»، لكنه ركز فيها على نعمة من نعم الله على الإنسان في هذه الحياة الدنيا ألا وهي (خلقه) : منذ أن وضع في «صَلْبِ طَاهِرٍ، وَتَرَائِبِ أُمَّ لَمْ تَكُنْ بِعَاهِرٍ، ثُمَّ حَطَّكَ إِلَى رَحْمِ نَقِيَّةٍ، وَأَجَنَّكَ فِي بَطْنِ أُمَّ تَقِيَّةٍ. ثُمَّ أَطْلَعَكَ حَيَوَاناً سَوِيَّ الْأَطْرَافِ. وَإِنْسَاناً سَلِيمَ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْطَافِ»^(١).

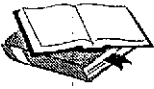
ثم بدأ يعدد نعم الله على الإنسان ليكتمل ويصبح سوياً فرزقه السمع، والبصر، والفؤاد، وقبل ذلك أنزله للدنيا الفسيحة بعد الضيق الذي كان في بطن أمه، وبين كيفية رعاية الأم لطفلها العاجز عن النهوض لصغر سنه، فتحتضنه وترعاه وترحمه، وتحرص على راحته ..

انتقل بعد ذلك للفترة التي تلي السابقة لخلق الإنسان، وهي تتمثل في قوله: «جَعَلَ أَسْنَانَكَ فِي مَغَارِزِهَا مَرْكَبَةً، وَصَيَّرَهَا عَلَى مَرَاتِبِ الْحِكْمَةِ مُرْتَبَةً وَدَبَّرَ فِي فَيْكَ لِلْأَصْوَاتِ مَدَارِجَ. وَلِلْحُرُوفِ الْمَبْسُوطَةِ مَخَارِجَ، وَأَطْلَقَ لِسَانَكَ فَتَكَلَّمْتَ، وَعَلَّمَكِ طُرُقَ الْبَيَانَ فَتَعَلَّمْتَ . وَلَقَّنَكَ الشَّهَادَتَيْنِ وَحَفَظَكَ مَا بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ، وَهَذَاكَ النَّجْدَيْنِ»^(٢).

وأكمل لك بعض نعمه - عز وجل - عليك فبين الحق من الباطل لتسير في ركاب الأول وتبتعد عن الثاني، «ثُمَّ خَوَّلَكَ مِنْ جَزَالَةِ الْفَضْلِ مَا حَلَقَ أَعْلَى هَامِ أَمَانِيكَ. وَلَمْ تَطْمَحْ إِلَيْهِ ظُنُونُ عَشِيرَتِكَ وَأَدَانِيكَ وَرَفَعَ لَكَ فِي ذَلِكَ صَيْتاً صَيِّتاً. وَحَسُنَ ذِكْرُ يَضْمَنِ لَكَ الْحَيَاةَ مَيْتاً»^(٣)، وأنعم عليك بالعيش الواسع والبال الفارغ، والمشرب الرافه، والمركب الفاره ...

بعدها علل الزمخشري سبب عطاء الله للإنسان كل تلك النعم في الدنيا فقال: «إِنَّمَا أَوْلَاكَ مَا أَوْلَاكَ لِتَنْظُرَ فِي وَجْهِهِ نِعْمَائِهِ مُفَكِّراً. وَتَتَوَفَّرَ عَلَى مَحَامِدِهِ مُتَشَكِّراً»^(٤).

- (١) المقامة (٣٤): الشكر، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٠١، ت: يوسف بقاعي .
 (٢) المقامة نفسها، ص ٢٠٣-٢٠٤، ت: يوسف بقاعي، الدفتين: المصحف، النجدين: الخير والشر، انظر: اللسان، مادة: دقف، نجد.
 (٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٤-٢٠٥، ت: يوسف بقاعي .
 (٤) المقامة نفسها، ص ٢٠٥، ت: يوسف بقاعي .



حقاً هل فكر في تلك النعم وشكر المنعم؟

لا ... بل نخلد إلى الشيطان ونزغاته، وأوغل في التصابي ونشواته، يسد مسامعه عن النصيحة، ويزداد في شروره، والله مطلع على ذلك كله ويستره له ولا يفضحه أمام الناس بل يزيده من كرمه الواسع عليه. فعلى الإنسان أن يرى ربه في نعمه التي لا تحصر ولا تحصى مهما دقت: من صرخة الوضع إلى أنة النزاع.. عمر طويل طويل، قصير قصير، نقطة المراجعة فيه هي الأربعين فهي من أواخر الإنذارات التي توصل إلى أنة النزاع كما بين ذلك الزمخشري فقال: « هَذَا إِلَى أَنْ بَلَغْتَ الْأَرْبَعِينَ أَوْ نَيْفَتَ عَلَيْهَا وَهِيَ الثَّنِيَّةُ الَّتِي عَلَى الْأَرَبِيِّ الْعَاقِلِ إِذَا شَارَفَهَا أَنْ يَرَعُوِي. وَعَلَى اللَّيِّبِ الْفَاضِلِ إِذَا أَنْفَ عَلَيْهَا أَنْ يَسْتَوِي»^(١).

ولعل للإنسان جواذب كثيرة قبل الأربعين يلهيه فيها الأمل والرجاء لكن بعد الأربعين إذا لم يغلب خيره شره فلارجاء فيه لأنها فرصة إمهال مابعلها فرصة، ومع هذا فالله «شَاءَ أَنْ يَسُوقَ نَحْوَكَ النِّعْمَةَ بِكَمَالِهَا وَتَمَامِهَا، وَأَنْ يَحْدُوكَ وَيَهْدِيهَا إِلَيْكَ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا فَأَذَاقَكَ مِنْ بَلَائِهِ مَسَّةً خَفِيفَةً»^(٢)، فوقع ولم تصمد أمام هذا البلاء الذي كان بمثابة زجرة لتستيقظ من رقاد غفلتك فكانت لك أنجع موعظة «وَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَعُوذَ بِمُحَقْوِي الْإِنَابَةِ وَالْأَرْعَوَاءِ ... فَاسْفَرْغْ عَلَيْكَ ذُنُوباً مِنْ رَحْمَتِهِ ... وَأَخَذَ إِلَى الْمَرِاشِدِ بِيَدِكَ ... وَتَابَعَ عَلَيْكَ أَلطَافَهُ الزَّائِدَةَ فِي إِيقَانِكَ ... فَبَشِّرْ أَيْةَ نِعْمَةٍ تَنْهَضُ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْعَاجِزُ؟»^(٣).

حقاً إن الأمر يستحق الشكر، بل قدرة العبد على الشكر تستحق شكراً آخر أن مكنه الله من الشكر .

وقد بين الزمخشري في مقامة أخرى نوع البلاء ليقف الإنسان عند لحظة من لحظات ذلك البلاء عندما حرم من نعمة الصحة والحركة والرؤية قائلاً:

(١) المقامة نفسها مقامة (٣٤) الشكر، ص ٢٠٧، ت: يوسف بقاعي .

(٢) المقامة والصفحة نفسها .

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٨-٢٠٩ .



« ... فَرَمَاكَ عَرْنُ قَدْرَتِهِ بِسَهْمٍ مِنْ سِهَامِهِ لِيَقْفِكَ، وَعَضَّكَ بِمِعْمَزٍ مِنْ بَلَائِهِ لِيَنْقِفَكَ، وَمَسَّكَ بِضُرٍّ أَنْ عَرَى عِظَامَكَ وَأُنْحَفَكَ، فَأَيُّ دِنَارٍ مِنْ صِحَّةِ الْيَقِينِ أَلْفِكَ، كَذَلِكَ الدَّوَاءُ الإِلَهِيُّ النَّافِعُ وَالشِّقَاءُ السَّمَاوِيُّ النَّاجِعُ فِيمَا وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَلَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى مِنْ نِعْمَتِهِ، لَكُنْ ظَلَلْتَ أَيَّامَ الْغَابِرِ مِنْ عُمُرِكَ صَائِمًا، وَبَتَّ لِيَالِيهِ قَائِمًا؛ لِتَشْكُرَ مَا أَطْلَقَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَتَحْوَلَكَ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْخَضْرَاءِ، لَبَقِيَتْ تَحْتَ قَطْرَةٍ مِنْ بَحْرِهَا غَرِيقًا فِي التِّيَّارِ. وَتَحْتَ حَصَاةٍ مِنْ طَوْدِهَا مَرُضُوسٌ الْفِقَّانُ^(١) .

وقد أشار - عليه السلام - إلى ذلك كله فقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصق يوماً في كفه فوضع عليها اصبعه ثم قال : «قال الله تعالى : يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك. فمشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي، قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة؟»^(٢) .

وانتقل الزمخشري في مقامة أخرى ليين حال الإنسان في الدنيا لو اصابه ألم ما، وكيفية تصرفه إزاء ما حوله من جراء انشغاله، فلا يعود يفكر في خطب مهم، ولا يرفع رأساً لحبيب ملم، أو يلقي سمعاً إلى ما تنهاوى إليه الأسماع، وتتقاذف نحوه القلوب والطباع، يتساوى في هذا الانشغال الناس جميعاً حتى لو كان ممن يعطف الأعنة باصبع، ويتبسط في مهاب الرياح الأربع؛ لشغله التألم عن كبرياء السلطان، ولقد بين نوع الألم هنا فقال : « احزُرْ نَفْسَكَ إِنْ تَعَلَّقَتْ بِبَعْضِ أَطْرَافِهَا جَمْرَةً. أَوْ أَصَابَتْهُ مِنَ الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ قَطْرَةٌ ... كِلْتَاهُمَا هَنَةٌ تَسِيرَةٌ وَمُدَّةٌ إِبْلَامِهَا سَاعَةٌ قَصِيرَةٌ^(٣) .

هذه الجمرة في الدنيا لاتساوي مثقال ذرة من نار الله التي عذابها سرمد في الحياة الآخرة بعد الممات، فلو تبصر المؤمن واحتكم إلى تلك اللحظة التي أصابته فيها

(١) المقامة (١٣): المنذرة، ص ٨٠-٨١، ت: يوسف بقاعي.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ٦/٣، ٦٠٦، وئيد: صوت شدة الوطاء على الأرض، التراقي : عظام بين ثغر النحر والعاتق، انظر: اللسان، مادة: وأد، رقى.

(٣) المقامة (٨): الحذر شرح مقامات الزمخشري، ص ٥٦-٥٨، ت: يوسف بقاعي، الهن والهنه كنايةان عن المذكر والمؤنث من الأجناس، انظر: اللسان، مادة: هنن.



الجمرة أو القطرة، وجعل النار ممثلة قدام ناظره كأنه يشاهد عينها، وكأنه لابرزخ بينه وبينها أما النتيجة التي ستصل إليها، والتي أراد الزمخشري أن تصلنا هي : «لَاتَلْتَفِتْ إِلَى الدُّنْيَا التَّفَاتَةَ رَاغِبًا، وَلَا تَرْتَاحَ لِأَجْلِ مَا تُعْطِيكَ مِنْ عَجَالَةِ الرَّكْبِ، وَلَا تَفْطَنَ لِكِرَاتِهَا وَدَوْلِهَا أَسَاءَتْ أُمَّ سَرَّتْ. وَلَا لِأَيَّامِهَا وَلِيَالِهَا أَعَقَّتْ أُمَّ بَرَّتْ»^(١).

ولماذا طلب عدم الالتفات إلى الدنيا؟ لأنها كما قال - عليه السلام -: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٢).

أي أن كل مؤمن مسجون، ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة، والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإتما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته، وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد. قاله النووي^(٣).

واستمر الزمخشري في مقاماته على التنفير من الدنيا، وعدم التشبث بها، وهذا ما حده في المقامة التاسعة: أن يذكر الإنسان بما يحدث له بعد مماته فقال : «يأبأ بالقاسم قَدْ رَأَيْتَ الْعَصْرَيْنِ : (الليل والنهار) كَيْفَ يَقْرِيضَانِ الْأَعْمَارَ. وَيَهْدِيَانِ الْعِمَارَةَ وَالْعَمَّارَ وَيُسْكِنَانِ الدِّيَارَ غَيْرَ بُنَاتِهَا. وَيُورِثَانِ الْأَشْجَارَ جُنَاةً بَعْدَ جُنَاتِهَا. وَيُمْلِكَانِ صَاحِبَةَ الْغَيْرَانِ غَيْرَهُ. بَعْدَ مَا كَانَ يَتَهَالِكُ عَلَيْهَا غَيْرَهُ. وَيَقْسِمَانِ مَادُوخَ فِي اكْتِسَابِهِ الْقُرَى وَالْمَدَائِنَ. وَأَقْفَلَ عَلَيْهِ الْمَخَابِيءَ وَالْمَخَايِزَ»^(٤).

(١) المقامة نفسها، ص ٥٩-٦٠.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٩٥٦) عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، كتاب الزهد والرفائق، ٤/٢٢٧٢، وأحمد في مسنده، ٢/٣٢٣، ٣٨٩، ٤٨٥. والترمذي برقم (٢٣٢٤)، كتاب الزهد، باب (١٦): ماجاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ٤/٥٦٢. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠/٢٨٩.

(٣) انظر: ذم الدنيا، للحافظ بن أبي الدنيا، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص ١٤.

(٤) المقامة، الاعتبار، شرح مقامات الزمخشري، ص ٦٠-٦١. ت: يوسف بقاعي.



ولما كان هذا هو مال الإنسان في خاتمة حياته فلماذا يتكالب على الدنيا وينغمس في ملاحيتها؟ لذا نجده قد حض قائلاً: «فروئيدك بعض هذا الحرص الشديد على تشييد البناء الجديد... وإيّاك والكلف بيضات الخدور وقسماتهن المشبهة بالبدور. وأن تعلق همّتك بأعلاق الأموال... واستنظر نفسك إن تقاضتك إشار الملاهي. واستمهلها إن طالتك بارتكاب المناهي، إلى أن يتفضل عليك ذو الطول والمنّة بالوصول إلى دار الجنة»^(١) فقد حذر أكثر ما حذر في الدنيا من النساء، وجمع الأموال، فالزمنخشري حذر مما حذر عليه الصلاة والسلام، روى أبو سعيد قائلاً: صلى بنا رسول الله - ﷺ - العصر، ثم قام فخطبنا فقال في خطبته: «ألا إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»^(٢).

أما ابن الجوزي لا يذكر الحياة الدنيا إلا محذراً منها، وذاماً لها فهي هو ذا في المقامة (٢٦) يذمها ويمدحها، فأما الظم فجاء على لسان أحد المسافرين الذين أرهاقهم السفر، ولم يجدوا إلا أبا التقويم ينقدهم بعد الله مما هم فيه فقال:

«بئس نصيب من قنع من النصيب بهذه الدار. أوليس النصيب قد انتصب حولها ودار. إنها لطلال سرور مدت على ظلال غرور. تمامها ناقص. ودوامها واقص، وسماؤها وامض، وبلاؤها غامض، كم قد درست حسناً. وأخرست لسناء، ونكست ذقناً، وبلدت لقناً. كم عقدت عقداً وأحلت حلها، وكم نقدت نقداً فاستلبت من حلها. كادت تغنى ثم كادت، وعادت تصبى ثم عادت، وتظهر المحبة وقد عادت. إن أضحكت في أفراحها شهراً. أبكت في أتراجها دهنراً. تعطي تفاريق وتسترّج جملاً. وترضع أفويق وتقطع عجللاً. يواتي خيرها إن واتي لمعاً. ثم يأتي شرها ضحى أو بياتاً دفعا. عيونها بابلية. كم تفتح باب بلية ولا حيلة كحيلة من عين كحيلة.

خطبت يا خاطب الدنيا مشمراً* في ذبح أزواجها الصيد الغرائيق

(١) المقامة نفسها، ص ٦١-٦٣.

(٢) سبق تخريجه، ص ٢٩.



كَمْ مِنْ ذَبِيحٍ لَهَا مِنْ تَحْتِ لَيْلَةٍ أَنْ * * زُفْتُ إِلَيْهِ بِمَعْرَافٍ وَتَصْنِيفٍ
 كَمْ أَفْرَدْتُ . مَنْ أَرَفَدْتُ . كَمْ أَحْمَدْتُ مَنْ أَحْدَمْتُ . كَمْ أَفْقَرْتُ مَنْ أَرَفَقْتُ .
 كَمْ فَارَقْتُ مَنْ رَافَقْتُ . كَمْ سَاعٍ إِلَيْهَا سَعَى الرَّخُ رَدْتَهُ مَعَكُوساً رَدَّ الْفَرَّازِينَ أَفْعُ
 لِعَاشِقِهَا مَعَ شِدَّةِ مَرَاشِقِهَا . إِنَّهَا لِأَقْبَحُ مِنْ مَزْبَلَةِ قَمَامٍ . وَأَعْذُرُ مَنْ تَأَى تَمْتَامُ :

مَيِّزَتْ بَيْنَ جَمَاهَا وَفَعَالِهَا * * فَإِذَا الْمَلَاةُ بِالْقَبَاحَةِ لَا تَقْبِي
 حَلَفْتُ لَنَا أَلَّا نَخُونَ عُهُودَنَا * * فَكَأَنَّهَا حَلَفَتْ لَنَا أَلَّا تَقْبِي (١)

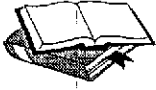
لكن أبا التقويم اعترض على ذمهم للدنيا وقال إنما الذم للذات فما هي إلا:
 «مِهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَشَمْسٌ وَقَمَرٌ وَزُرُوعٌ، وَثَمَرٌ وَمِيَاهٌ تَجْرِي وَرَكَائِبُ
 تَسْرِي، وَمَطَاعِمٌ تَحْفَظُ الْأَبْدَانَ وَمَعَادِنُ الْحَاجَاتِ السَّكَّانِ. زَادَ يَبْلُغُ فِي أَسْفَارِ الْأَعْمَارِ.
 وَقَرَى لِلضَّيْفِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ. وَطَهْرَةٌ تَرْحُضُ بِالرِّيَاضَةِ الْعَيْبِ، وَدَلِيلٌ
 يَدُلُّ حَاضِرَهُ عَلَى الْغَيْبِ. حُكَّتْ فِيهَا جَوَاهِرُ الْفَضْلَاءِ فَبَانَتْ، وَظَهَرَتْ بِهَا فَضَائِلُ
 الْعُلَمَاءِ فَرَانَتْ. لَيْلُهَا يَصْلِحُ لِمَاجَاةِ الْقَوْمِ. وَنَهَارُهَا لِلتَّعَبِ وَالصَّوْمِ، وَالْعِلْمُ مِثْوَةٌ يَدُلُّ
 الْمُهْتَدِينَ وَيُؤَاصِلُ الْحَاجَاتِ لِإِيثارِ الْمَسَاكِينِ ... وَمُحَمَّدٌ - ﷺ - يَشُدُّ الْحَجَرَ مِنَ الْجُوعِ
 وَأَصْحَابُهُ يَهْجُرُونَ بِاللَّيْلِ الْهَجُوعَ ... وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ صَائِمٍ قَدْ أَضْنَاهُ الصَّوْمُ ...
 تَعْرُضُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا حَلَالاً فَيُخَافُ عَلَى عَزْمِهِ انْخِلَالَاً، فَيَقُولُ لِدَاعِي الْهَوَى : لا . لا . أَيْ
 هَذَا شَيْءٌ يُوجِبُ الذَّمَّ ... وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ مِنَ الدُّنْيَا فِعْلُ الْجَاهِلِ، وَالذَّنْبُ فِي الشَّرْقِ لَا
 لِلْمَاءِ بَلٌّ لِلنَّاهِلِ . يَجْمَعُ إِبِلَ الْأَمْوَالِ مِنْهَا وَيَلْزِمُهَا وَيَتْرُكُهَا لِغَيْرِهِ هَنِئِئاً وَقَدْ التَزَمَهَا، فَإِذَا
 نُودِيَ بِالرَّحِيلِ ذَمَّ الْمَنَاخَ وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ التَّاهُبُّ مِنْذُ أَنْأَخَ، وَقَدْ ضُرِبَتْ لَهُ الْأَمْثَالُ ...
 فَهَلْ غَرَّتِ الدُّنْيَا سَاكِنَهَا، وَقَدْ خَرَّبَتْ مَسَاكِنَهَا، وَلَقَدْ وَعَظَتْ قَاطِنَهَا . إِذْ فَرَّغَتْ
 مَعَاظِنَهَا . فَأَيُّ لَوْمٍ لِمَنْ خَوْفٌ وَحَذَرٌ تَأَلَّفَ لَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ. (٢)

وها هو ذا في مقامة أخرى يقول على لسان أبي التقويم : «بَادِرٌ بِالْعَافِيَةِ
 الْعَافِيَةَ، وَاعْتَنَمَ فِي الْعَيْشَةِ الصَّافِيَةَ، الْعَطِيَّةَ الصَّافِيَةَ، فَسْتَسْفَى عَلَى قَبْرِكَ سَافِيَةَ، وَتُنْصَبُ
 مَوَازِينُكَ نَاقِصَةً أَوْ وَافِيَةَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (٣)

(١) في ذم الدنيا ومدحها، ص ٢١٣-٢١٤ .

(٢) المقامة نفسها ، ص ٢١٤-٢١٧ .

(٣) سورة الحاقة ، آية ١٨ .



فقال السائل: قد تملكني عشق الدنيا فأذلي، فقال:

وَكُنَّا نَعشَقُ الدُّنْيَا قَدِيمًا * وَلَكِنْ لَأَسْبِيلَ إِلَى الوَصَالِ

ويحك تعز عن الدنيا تعز، أنت تحزن إذا فقدتها ومايساوي الميت البكاء، إذا بقي لك من الدنيا مايقوت، فلا تيأس على مايقوت... ويحك إنه من طلق الدنيا بصدق عزم كرهت الآخرة أن يبيت عزباً فعجلت الخطبة، فقال: كم أطلقها وأطلقها وتعود إلى البيت؟ قال: علمت منك السر يحيية فوكل العزم وقد بيت أنت مشغولاً عن عالم القلب بعالم النفس، وعن مطلوبات الروح بشهوات الحس. إنما هممتك بيت قد شيد، أو بيت من نشيد تعجب برده، وتحجب برده، وتستوطيء موطيء الكسل، وإبر النحل دون العسل^(١).

وابن الجوزي يقرن الدنيا بالآخرة، ويذكر أن الأولى هي الفانية، وأنها موضع العمل، وأنها جواز المرور للآخرة، وأنها محفوفة بالشهوات والميل للهوى، فيقول: «من عرف تصرف الأيام، لم يغفل عن الاستعداد للحمام، إن قرب المنية ليضحك من بعد الأمنية، ماجرى عبد في عنان أملة، إلا عثر بأجله»^(٢).

وأشار إلى أن الصبر هو عدته ليكبح نفسه ضد هواه، فقال: «الهوى والصبر ضربتان، فاختر أحسن الصبرتين، فمأهكن الجمع، ومن دام به الخمار في ديار الهوى، لم تصح عينه إلا في منازل البلى... يامقيماً على الهوى وليس بمقيم، يامبذراً في بضاعة العمير متى يؤنس منك رشد، يأكمه البصيرة... ياطويل الرقاد، ولأنوم أهل الكهف...»^(٣).

فهذه حال إنسان جرفته الدنيا، ونسي الآخرة، ومثله من عاش عيشة بعيدة عن الله، ثم أدرك نفسه وبدأ يبحث عن الطريق السوي؛ لتعود حياته أدرجها إلى الحق إلا أن توبته غير نصوح، فيعود سيرته الأولى فيها هو ذا يقول: «مكروب تضايقت حاله، ومخزون تقطعت جباله، سيرت في تضييع البطالة عمري، وقد تحيرت

(١) المقامة (٢١): في ذم البخل، مقامات ابن الجوزي، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، مقامات ابن الجوزي، ص ٩٣.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.



في جميع أمري، لا أنا من الصادقين في طلب الأخرى، وفقد القلب مصيبة أخرى، مرّ في إبدال سعودي بالشرزمي، وأمر منه قعودي عن الخير وزممي، كلما بنيت قاعدة توبة هدمت، وكلما وجدت عزيمة أوية عذمت^(١).

إلا أن أبا التقويم بين له أن الطريق التي سلكها في تقويم حياته الدنيوية لم تكن قائمة على أساس متين، فقال له: «لو صحّ منك الهوى أرشدت للحيل، ثم أنت ترفع البناء بلا أساس، وتملأ الإناء ثم تُبدد الكأس»^(٢).

لكن الإنسان إن عرف علته، سهل عليه الوصول إلى العلاج، وتعلم نبذ حسب الدنيا، و«قال الحسن: لو لم تكن لنا ذنوب إلا حب الدنيا خشينا أن يعذبنا الله، وقال رجل لإخوانه: تعالوا حتى نستغفر الله من شيء لا يستغفر الناس منه، حب الدنيا»^(٣). لذا عرف الراوي من أبي التقويم كيفية العلاج؛ وهو نبذ الدنيا وحب الآخرة والعمل بكل ما يوصل إليها فقال: «فإن هذه الساعة التي أبصرت فيها أمري، هي التي أحسبها من عمري»^(٤).

وها هو ذا يجذر في مقامة ثانية من جعل حياته للهو فيقول: «اعلموا أن حياة الفاجر فضيحة الدهر، لأن الدنيا همته، واللذة نهمته، يبيع الآجل الأجل بالعاجل الأقل. يلبس ثياب الحرّ على جسد عبد، قد أنضاه الحرص وأضناه الطلب... يسافر إذا عامل إلى بلاد الغش ولا ينزل إلا خان من خان... تجود بالعمر في اللهو جود حاتم، وتبخل بفعل الطاعة بخل الخبايب، وتمشي بالكبر أزهى من طاووس، وتلج في غرضك لجاح الخنفساء،... وتعدّ بالتوبة وعدّ عرقوب، والزمان يأكل عمرك أكل السوس، وكأنك بالموت أسرع من طرف يستلبك وأنت أحيب من القابض على الماء، فيحلك قبرا أو حش من بومة تلقى فيه، أذل من نعل، فتندم على التفريط ندامة الكسبي ثم ترجع يوم حشرك يخفي حنين»^(٥)، فهذا حال إنسان عاش حياته الدنيوية

(١) المقامة (١٥): في الخائفين، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٠.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) دم الدنيا، لابن أبي الدنيا، ص ١٣٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٢٦.

(٥) المقامة (١٧): في المواعظ، مقامات ابن الجوزي، ص ١٣٦-١٣٧.



بتلك الصورة، فحياته في الآخرة لن تكون إلا كمن رجع بخفي حنين، وقد قال - عليه السلام -: «من كانت الدنيا همه جعل الله فقره في قلبه، وشتت عليه أمره، ولم يأتها فيها إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١).

ولما كانت «الحياة: معنى يفيد الحيوان والحس والتحرك، وتستعار الحياة في مواضع تدل عليها القرينة، وذكر أهل التفسير أن الحياة في القرآن على خمسة أوجه:

الخامس منها: حياة الأرض بالنبات، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾^{(٢)(٣)}.

فقد أشار ابن الجوزي إلى هذا الوجه في إحدى مقاماته حين أشاد به بطل مقاماته لجمع كان يجلس في بستان يستمتع بمنظر الرياض الغناء، ويتكوى على حمائل الخضرة، يسمعون فيه من الأصوات مارق وراق: من قمري وهدهد وشقرقي، فقال أبو التقيوم لهم: «أرأكم قد افترشتم بساط الراحة في هذه الساحة... وما نقبتم عن المبتدأ والمنتهى... تفكروا في الأرض إذا تأيمت من زوج القطر، ووجدت لفقدان إنفاقه مس الجذب، كيف تحدد في ثياب ترى الأرض خاشعة... مدت أكف الطلب تستعطي زكاة السحاب، فهبت الجنوب من جناب اللطف، فسحبت ذيل النسيم على صحاح الصحارى، فتحرك جوامد الجلامد، وأنتبه وشنان العيدان لقبول تلقيح اللقاح، فلبس الجو مطرفة الأذكن، وأرسل خيالة القطر شاهرة أسياف البرق، فينذر بالقادم صوت الرعد، ويقوم فراش الهواء فيرش جيش النسيم، فيستعير والسحاب جفون العشاق وأكف الأجواد فتملئ الأودية أنهاراً، كلما مستها أكف النسمة حكى سلساها سلاسل الفضة... ثم لا يزال السحاب يسقي ذر البدر... هل لاحظ

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٥) عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه -، كتاب الزهد، باب (٢): اهم بالدنيا،

١٣٧٥/٢، بنحوه. ورواه الترمذي (٢٤٦٥) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٣٠)، ٦٤٢/٤. وقال حديث حسن.

(٢) سورة فاطر، آية ٩.

(٣) انظر: نزهة العين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، ت: محمد عبدالكريم

كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.



فِكْرُكُمْ هَذِهِ النَّعْمَ ... هَلْ عَلَّقْتُمْ قُلُوبَكُمْ بِحُبِّ الصَّانِعِ ... وَيَحْكُمُ إِذَا رَأَيْتُمْ مَيِّتَ
الزَّرْعِ قَدْ عَاشَ بِالْقَطْرِ، فابْكُوا عَلَى قُلُوبِكُمْ المَيِّتَةَ، لِمَا وَجَدَ الغَيْثُ الزَّرْعَ قَابِلًا للحَيَاةِ
أَعَاشَهُ زَمَانًا، وَمَا وَجَدَتْ المَوَاعِظُ قُلُوبَكُمْ قَابِلَةً لِلنَّصِيحِ، فَلِهَذَا تَأَخَّرَ البَعْثُ، لَوْ تَدَبَّرْتُمْ
الغِصْنَ اليَابِسَ كَيْفَ عَاشَ؟ لِحَارِ الذَّهْنِ لِدَلِكِ وَطَاشِ، غَيْرَ أَنَّكُمْ ... تَرُونَ الثَّمَرَ
وَسِيمًا، مَلِيحَ الصُّورَةِ وَالسِّيْمَا، وَتَنسُونَ أَنَّهُ يَصِيرُ هَشِيمًا، فَلَوْ تَلَمَّحْتُمْ العَوَاقِبَ تَلَمَّحْ
مَرَاقِبُ ... فَاعْبُرُوا فِي مَعْبَرِ الاعْتِبَارِ فَلَسْتُمْ بِسُكَّانِ، وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ»^(١).

ومع أن ابن الجوزي ذكر الوجه الخامس للحياة؛ وهو حياة الأرض بالنبات، فإنه جعل من تلك الحياة مثالاً لحياة الإنسان على وجه تلك الأرض، فقد جعل على سطحها ليزرع أعمالاً صالحة ثم يحصد مازرعه، حين ينتقل للحياة الأخرى؛ لأنها حياة ما بعدها حياة، ودار استقرار إما إلى جنة وإما إلى نار.

وأشار ابن الجوزي إلى الوجه الأول من الحياة وهو «نفخ الروح» في المقامة الثالثة والأربعين فقال: «أما بدايتك فَنَطْفَةُ مَذْرَةِ»^(٢) ثم ذكر أن كل الموجودات في الحياة سخرت للإنسان فقال على لسان النفس: «كُلُّ مَخْلُوقٍ فِي الدُّنْيَا وَمَوْجُودٌ، لِأَجْلِ سَمْتِ السَّمَاءِ، وَمِنْ جِرَايِ جَرَى المَاءِ، وَلتَمْهِيدِ مَوْضِعِي وَضَعْتُ الأَرْضُ، وَلِعَرَضِي مَدَّ طُولَهَا وَالْعَرَضُ، وَ... لِمَقَاصِدِي خُلِقَتِ النَّيِّرَانُ، وَلِمَنَافِعِي أَشْرَقَ النَّيِّرَانُ، وَلِمَصَالِحِي دَارَ الْفَلَكَ، وَلَمَّا عَانَدَنِي إبْلِيسُ هَلَكُ...»^(٣).

وبهذا نخلص أن المقامين ذكروا الحياة بوجوهها الخمسة التي ذكرت في القرآن، من نفخ الروح بالخلق الأول، ومن إحياء الموتى بعد خروج الأرواح، وبمعنى الهدى وبمعنى البقاء، وأخيراً حياة الأرض بالنبات، واعظين بذلك الإنسان؛ ليجعل من الحياة دار قنطرة إلى الدر الآخرة بعد الموت الذي أوضح صورته كتاب المقامات من بداية وضع الإنسان في القبر وضمه إياه، ثم مروره على الصراط، وأخيراً قراره في دار نعيم أو عذاب يمثلهما: الجنة والنار. وأيضاً كان الوعظ هو منطلقهم لتوضيح ذلك لأنه لا واعظ كالموت.

(١) انظر: المقامة (٢٣): في الربيع، مقامات ابن الجوزي، ص ١٩١-١٩٤.

(٢) في مخاطبة العقل للنفس، ص ٣٤٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٤٩-٣٥٠.

الفصل السادس

علوم اللغة العربية في المقامة



إن للغة العربية أهميتها منذ أن جعلها الله لسان العرب الذي تتحدث به فيما بينها؛ وذلك لأن الله قد هيأها لتكون اللغة التي نزل بها آخر الكتب السماوية، ألا وهو كتاب الله الكريم ذلكم القرآن العظيم، فخلدت بخلوده، وأصبحت الناطق الرسمي لكل من أراد أن يتلو القرآن، حتى لمن لا يستطيع التحدث بها، فحفظت - هذه اللغة العربية - من الضياع، بل ازدادت انتشاراً بين العالم أجمع؛ بانتشار الإسلام منذ ظهوره إلى يومنا هذا .

وقد قيل عن اللغة العربية: الإنسان يمتاز، وإنما العلم بالتعلم، والتعلم باللغة، واللغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول، وأدعى إلى التأثير، وفي صورتها وأجراس كلمها بعذوبة النطق، وسهولة اللفظ والإلقاء، والخفة على السمع. وإن للغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح، والجواد القارح، يعرف ذلك من أخذها بحق، وجرى فيها على عرق، فكان من مفرداتها على علم، وضرب في أساليبها بسهم، وحملت إلى الأمم التي كان للغاتها في العلوم قدم، ولم يملوهم عليها بالإلزام، ولا بالتعليم العام وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغات أخرى في زمن قريب لم يعرف في التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم، وتعميمها بالتعليم العام، وضروب الترغيب والترهيب، كانت لغة أميين وثنيين جاهليين، فظهر فيها أكمل الأديان، فكانت له أكمل مظهر، وتجلي لها العلم فكانت له خير مجلس، وصارت بذلك لغة الدين والشريعة، وعلوم العقل والطبيعة^(١).

ولأن جل كتاب المقامة - إن لم يكن كلهم - على معرفة تامة بأهمية هذه اللغة - اللغة العربية -، وعلى دراية بعلومها، وفنونها؛ انطلقوا ليعبروا بها، ناقدين مرة، وواعظين مرات، مستخدمين في ذلك الشعر، والنثر، ومتعمقين في مصطلحات لا يعرفها إلا علماء النحو والصرف، والقافية، والعروض، ومن له باع في علوم البلاغة: من بيان ومعانٍ وبديع، وعلى هذا فسأقسم حديثي عن المقامات كالتالي :

(١) انظر: أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح السيد محمد رشيد رضا،

ص و - ز، طبعة دار المعرفة بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

النحو:

ولنبداً بعلم النحو ، والذي قعد وقن بالقرآن، يقول في ذلك د. أحمد مكي الأنصاري: «القرآن الكريم هو الحجة البالغة، وهو أوثق مصدر في الوجود، ولهذا كان لزاماً على النحويين واللغويين، وعلى العالم أجمع، أن يعدلوا قواعدهم، وينسقوها مع منهج القرآن الكريم ... ويجب أن يكون القرآن هو المصدر الأول في كل تععيد أو تقنن ... سواء أكانت هذه القوانين علمية، أم دينية، أم اجتماعية بوجه عام، فالقرآن دستورنا الخالد، وهو صالح لكل زمان ومكان ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١)،^(٢).

وها هو ذا الحريري في مقامته القطيعة يورد مسائل في النحو، جاء فيها أن الحارث بن هشام كان يجلس مع جماعة يتسامرون، ودخل عليهم أبو يزيد فأنشد أحدهم:

« فَإِنْ وَصَلًا أَلِدْ بِهِ فَوْصَلٌ * * وَإِنْ صَرَمًا فَصَرَمٌ كَالطَّلَاقِ »^(٣)

وتساءل الجماعة : لم نصب الوصل الأول، ورفع الثاني؟

فأقسم بترية أبويه أنه نطق بما اختاره سيويه، ويختلفون، ويجب أبو يزيد: «إنه ليجوز رفع الوصلين ونصبهما، والمغايرة في الإعراب بينهما، وذلك بسبب اختلاف الإضمار، وتقدير المحذوف في هذا المضمأن»^(٤)، وجوز سيويه الأوجه الأربعة، واختار نصب الأول ورفع الثاني على تقدير «إن كان عمله خيراً فجزاؤه خير». فتنصب الأولى على أنها خير كان، وترفع الثانية على أنها خير مبتدأ محذوف»^(٥).

ويلقي أبو يزيد أسئلة على الجماعة، وتبلغ هذه الأسئلة اثني عشر سؤالاً تدور كلها حول مسائل نحوية، وجاء من هذه الأسئلة: «رَمَّا كَلِمَةٌ هِيَ إِنْ شِئْتُمْ حَرْفٌ

(١) سورة الأنعام، آية ٣٨.

(٢) نظرية النحو القرآني، ص ١٠، مطابع أبو الفتوح، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط ١،

١٤٠٥هـ

(٣) المقامة (٢٤)، مقامات الحريري، ص ١٨١.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٨١-١٨٢.

(٥) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٥.



محبوب، أو اسم لما فيه حرف حلوب؟^(١).

وجوابها الذي ورد بعد انتهاء المقامة: لفظة نعم، فقد تأتي حرف جواب وقد تأتي اسماً، والنعم تطلق على الإبل ومنها الحرف وهي الناقة الضامرة^(٢).

والسؤال الثاني: «أي اسم يتردد بين فردٍ حازم وجمع ملازم؟»^(٣).

وجوابه: سراويل، قال بعضهم: هو واحد وجمعه سراويلات، وقال آخرون: هو جمع واحده سروال^(٤).

وأما السؤال الثالث: «أية هاءٍ إذا التحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل؟»^(٥).

وجوابه: الهاء اللاحقة بالجمع في مثل: صيارفة وصياقلة، فينصرف عند التحاق الهاء به لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية^(٦).

وهكذا يستمر في الأسئلة التي يكشف في النهاية عن معمياتها بعد أن ينال العطايا، يقول د. يوسف نور: «هذه إحدى طرق التعليم، والتي رأينا فيها الحريري يسير في بلاغته على نهج المحدثين الذي آثروا الصنعة واستخدام البديع، ولكنه ذو طابع خاص في إحكامه لصنعتة، وكفى أن مقاماته فد أخلت ماعداها من أساليب البيان، واعتبرت نموذجاً عالياً في هذا الباب يدلنا عليه كثرة الشراح، والدارسين لتونها»^(٧).

أما الزمخشري فنراه في مقامته (٣٩) يوصي بالعودة إلى منابع الإسلام الصافية والتي تتركز في كتاب الله الذي راعى الطبيعة البشرية، وما جبلت عليه من ميول، والذي يحرص أن يصل إلى النفس من منافذ التأثير فيها، ومن هنا يستفيد صاحب المقامة من كل ذلك فيتجه إلى الوجدان باعتباره وعاء الشعور الإنساني، وجمع

(١) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٢.

(٢) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٦.

(٣) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٢.

(٤) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٦.

(٥) انظر: المقامة نفسها، ص ١٨٢.

(٦) انظر: المقامة نفسها، القطعية، ص ١٨٦.

(٧) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٨٤.

غرائزه؛ لثبته فيه حب القرآن مع عرض نماذج لما سبقت على الاستجابة وعدم الاستجابة؛ ليصل بالسامع إلى حالة التوازن المطلوب فيجعل منها نماء في إيمانهم، وهو في هذه المقامة يعمد إلى جملة من أساليب التأثير حتى يصل هداها إلى أعماق النفوس، منها:

- صور التشبيه الكثيرة فهو جبل الله ... وهو سيف سقاط ... وهو جبل عاصم.. وهو بحر لحي .. فيقول: «وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَبِينِ...»^(١).

وهو في هذا يستقي من القرآن الكريم، فقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢)، أو قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾^(٣).

وفي قول الزمخشري: «جَبَلٌ يَعَصِمُ مِنْ اعْتَصَمَ بِمَعَاقِلِهِ»^(٤)، فهذا التشبيه للقرآن قد وجد في كتاب الله، لكنه جاء على لسان ولد سيدنا نوح حين أراد أن ينجو بمن معه من الطوفان فقال: ﴿سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(٥).

وقال - ﷺ -: «كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم.. وهو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم...»^(٦).

ومنها: قوافي السجع البسيط البعيد عن التكلف والتي تعرض كتاب الله في مشاهد زاخرة بالحركة موحية للنفوس بالانفعالات والمشاعر؛ لتصل إلى النفس البشرية فتزيل عن بصيرتها ما يدفعها إلى نور الحقيقة.

كما أن تصدير المقامة بهذا الأمر يخلق جواً من الجدية والاهتمام «اجْعَلْ كِتَابَ اللَّهِ يُنَجِّيكَ»^(٧) ليتلقى بعد ذلك مجموعة الآداب المتعلقة بتلاوة القرآن والعمل به.

(١) مقامة الفرقان، شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٢٧ .

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٣ .

(٣) سورة آل عمران، آية ١١٢ .

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٢٧ .

(٥) سورة هود، آية ٤٣ .

(٦) رواه الترمذي (٢٩٠٦)، كتاب فضائل القرآن، باب ١٤، ١٧٢/٥ - ١٧٣ .

(٧) المقامة نفسها، ص ٢٢٦ .



وماذلك إلا لأن الخيرية في تعلمه، لقوله - عليه السلام -: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١).

ثم أثار الانتباه وركز على بلاغة القرآن فقال: «إِنْ عَدَّتْ عَجَائِبُ الْبِحَارِ لَمْ تَعُدَّ عَجَائِبُهُ ... كُلَّمَا ذَهَبَتْ بِفِكْرِكَ فِي بَلَاغَتِهِ الَّتِي حَيَّرَتْ دُونَهَا الْبُلْغَاءُ حَتَّى سَيَّرَتْ مِنْ فَصَاحَتِهِمُ الْبِغَاءُ. وَنَظَّرَتْ فِي سَلَامَةِ سَبْكِهِ الْمُسْتَعْرَبِ. وَسَلَاةِ مَائِهِ الْمُسْتَعَذِبِ. وَرِصَانَةِ نَظْمِهِ الْمُرْصَفِ. وَمَتَانَةِ نَسْجِهِ الْمَفُوفِ، وَغَرَابَةِ كِنَايَتِهِ وَمَجَازِهِ. وَنُدْرَةِ إِشْبَاعِهِ وَإِيْجَازِهِ. وَرَوْعَةِ إِظْهَارِهِ وَإِضْمَارِهِ. وَبَهْجَةِ حَذْفِهِ وَتَبْكَرَارِهِ. وَإِصَابَةِ تَعْرِيفِهِ وَتَنْكِيرِهِ. وَإِفَادَةِ تَقْدِيمِهِ وَتَأْخِيرِهِ. وَدَلَالَةِ إِضْطِحَاحِهِ وَتَضْرِيحِهِ. وَدِقَّةِ تَعْرِيفِهِ وَأَصُولِهِ. وَطَلَاوَةِ مَبَادِيهِ وَمَقَاطِعِهِ وَفُصُولِهِ وَوُصُولِهِ. وَمَاتَنَاصِرِ فِيهِ مِنْ فُرُوعِ الْبَيَانِ وَأَصُولِهِ. ارْتَدَّ فَهْمُكَ وَغَرَارُهُ كَهَامٍ وَمُدْرَارُهُ جَهَامٍ. حَيْرَةٌ فِي أُسْلُوبِهِ الِذِي يَكَادُ يَسْلُبُ بِحُسْنِهِ الْعَاقِلَ فِطْنَتَهُ وَهُوَ يَزِيدُهُ فِطْنَةً»^(٢).

ومنها: الترغيب في الوصول إلى أعلى المراتب بتعهد القرآن وتفهم معانيه، وفيه إشارة إلى البعد عن اللحن في القول فيقول:

«فَحَادِثُ لِسَانِكَ بِدِرَاسَتِهِ حَتَّى تَرِقَّ عَذْبَتُهُ وَمَرْنُهُ عَلَى تِلَاوَتِهِ حَتَّى لَا تَطْوَعَ لِغَيْرِهِ أَسْلَتُهُ. وَتَعَمَّدَهُ بِمِثْلُوهِ مِنَ اللَّسِينِ مَا سَاعَدَتْكَ عَلَيْهِ الْمِكْنَةُ، وَتَرَفَّعَ لَهُ بِمَخَارِجِ الْحُرُوفِ عَنِ ارْتِضَاحِ اللَّكْنَةِ. وَاقْرَأَهُ مُرْتَلًّا كَالْتَرْتِيلِ فِي بَعْضِ الْأَسْنَانِ وَالتَّفْلِيحِ فِي نُورِ الْأَقْحُوَانِ. وَاجْتَنِبْ مَا لَا يُؤْمَنُ فِي الْهَذِّ وَالْهَذْرَمَةِ مِنَ اللَّحْنِ وَالْحَضْرَمَةِ. وَاجْتَهِدْ أَنْ لَا تَقْرَأَ إِلَّا وَضَمِيرُكَ مَقَاوِدَ لِلْسَانَكَ. وَتَبَيَّنْكَ مَسَاقِقَ لِبَيَانِكَ. لَا تَمْرَعُ عَلَى جُمْلَةٍ إِلَّا عَاقِدًا

(١) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥٠٢٧) عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في كتاب

فضائل القرآن، باب (٢١): خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ٧٤/٩ بلفظه. ورواه الترمذي

تحت رقم (٢٩٠٧)، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تحت

رقم (٢٩٠٩)، كتاب فضائل القرآن، باب (١٥): ماجاء في تعليم القرآن، ١٧٣/٥-١٧٥.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٢٨-٢٣١.



بِعِنَاهَا تَأْمَلُكَ وَتَفَكِّرُكَ. عَاكِفًا عَلَى مُؤَدَّاهَا تَفْهَمُكَ وَتَبْصُرُكَ. مُجِيلًا فِي حَقِيقَتِهَا بَصِيرَتِكَ وَنَظْرَتِكَ. مِمْتَا حَا مِنْهَا مَوَاعِظُكَ وَعِبرَتِكَ»^(١).

وما ذلك إلا لأن القرآن وتعلمه، يجعل من قارئه ذا معرفة ودراية بأمور الدين؛ لاشتماله على كل ما أمر به الإسلام إجمالاً بعضه وتفصيلاً بعضه الآخر، فيصل الخير إلى قارئه، ومعلمه؛ لأنه أصبح فقيهاً في الدين، يقول - عليه السلام - : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢).

أما في مقامته التي تحمل اسم (النحو)، ففيها حث للنفس مستعملاً ألفاظاً نحوية مثلاً:

- يتهمها بالعجز أن تكون كهزمة الاستفهام الذي ذكر من صفاتها (الضعف) ومع ذلك تنصدر الكلام، وضعف همزة الاستفهام لأنه لا عمل لها لكونها دخلت على الاسم والفعل وأخذت صدر الكلام لأنها تدخل على الجمل لتعطي معناها فيها وتنقلها من الأخبار إلى الاستفهام. لذا وجب وقوع حروف الاستفهام قبل الجملة المستفهم عنها، فيقول : «لَيْتَكَ أَشْبَهْتَهَا مُتَقَدِّمًا فِي الْخَيْرِ مَعَ الْمُتَقَدِّمِينَ. وَلَمْ تُشْبِهْ تَأَخَّرِكَ حَرْفَ التَّأْنِيثِ وَالتَّنْوِينِ»^(٣).

إذن هو حث على أن تكون (النفس) في المقدمة كهزمة الاستفهام، ويظهر أثر القرآن واضحاً في ذلك ، فقد قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(٤)، وقال أيضاً : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٥). وفي ذلك أيضاً قال - ﷺ - : «(اليد العليا خير من اليد السفلى)»^(٦).

(١) القامة نفسها، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤٥)، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، كتاب العلم، باب (١)، ٢٨/٥.

(٣) القامة (٤٦)، ص ٢٥٨-٢٥٩، شرح مقامات الزمخشري.

(٤) سورة المؤمنون، آية ٦١.

(٥) سورة الواقعة، آية ١٠.

(٦) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥٣٥٥) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - كتاب النفقات،

باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، وبداية الحديث: «(أفضل الصدقة ماترك غني، واليد

العليا...» ٥٠٠/٩.



ولاتأخر كحرف التأنيث، والتنوين لأن «المتقدم في الخير خَظَرُهُ أُمَّمٌ، وديَدَنُ العربِ تَقْدِيمُهُ ما هوَ أَهَمُّ»^(١).

وماتأخر حروف التأنيث والتنوين إلا لأنها دلائل على أحوال الكلم.

- يستحث على أن يضارع «الأبرارُ يَعْمَلُ التَّوَابِ الأَوَابِ، فَالْفِعْلُ لِضَارِعَتِهِ الاسمَ فَازَ بِالْإِعْرَابِ»^(٢).

وفي ذلك يقول تعالى حاثاً على التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٣).

- يود أن يكون عمله للخير في الخفاء كإخفاء الضمير المستكن (المستتر)؛ لأن العمل في الخفاء يجمع:
* النجاة .

* الاستعصام كما استعصمت الواو من القلب بالإدغام، وإن قيل: من أين كان الإدغام مؤثراً في ترك القلب؟

قلت: لأن الإدغام يذهب بالمدّة التي في الواو والياء حتى لا يبقى فرق بينهما مدغمتين وبين الحروف الصحاح.

ويقول تعالى في الحث على إخفاء الصدقة: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَبِعَمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٤).

كما أن الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - يحث على إخفاء الصدقة حتى إذا تصدق بيمينه يخفيها من شماله^(٥).

(١) المقامة (٤٦): ص ٢٥٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٢٢.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٧١.

(٥) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب (٣) ومن سورة البقرة، ٢٠٥/٥.



وحدث على التفكير في أمور الدين مستعملاً لذلك الفعل المضارع (يكون) مسبقاً بلا الناهية ومتصلاً بنون التوكيد الثقيلة، للدلالة على أهمية الأمر المطلوب فزاد توكيده بتلك النون فقال: «وَلَا يَكُونَنَّ ضَمِيرُكَ عَنِّ الْهَمِّ الدِّينِيِّ سَالِيًا كَمَا لَا يَكُونُ أَفْعَلٌ مِّنَ الضَّمِيرِ خَالِيًا، وَعَوَّضُهُ مِّنَ تِلْكَ السَّلْوَةِ ذَلِكَ الْهَمُّ كَمَا عَوَّضْتَ الْمَيْمُ مِنْ حَرْفِ النَّدَاءِ فِي اللَّهْمِ»^(١).

وفي عدم الإهتمام بالدنيا، يقول الرسول - ﷺ -: «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غَنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَآتَتْهُ الدُّنْيَا، وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَدَّرَ لَهُ»^(٢).
ويقول تعالى في ذلك الحث: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

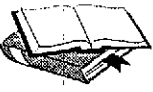
فقد استعمل في هذه الموعظة:

- (أفعل) لا يخلو قط من ضمير منوي فيه، ولا ينفك عن استناده إليه.
- (اللهم) فالميم هنا عوض عن حرف النداء (يا)، فمعنى العوض أن يقع نقصان في الكلمة فيجبر بزيادة.
- يبحث على الاستمرار في العمل الصعب؛ مرضاة الله كما تقف بنو تميم على التشديد كقولهم في فرج وخالد وعمر: فرج وخالد وعمر.
- الثبات على الدين الحق كثبات الحركة البنائية، وهي على ضربين: ضرب لازم كحركة أين وكيف وهؤلاء، وعارضة كحركة من عل؛ لأنك تقول: من عل ويارجل لأنك تقول: يارجلأخذ بيدي، فإنما قال: التي لاتزول إرادة للبنائية اللازمة دون العارضة ليجعل الثبات أصيلاً.

(١) المقامة نفسها، ص ٢٦١، شرح مقامات الزمخشري، يوسف بقاعي.

(٢) سبق تخريجه، ص ٢٣٦.

(٣) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.



ويقول سبحانه وتعالى في الثبات على الدين الحق : ﴿فَلَتَمُوتُنَّ إِيَّاهُ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

- شبه المتأرجح بين مذهبين كالهزمة الواقعة بين بين، ثم وجه نظره إلى الأيام والليالي كيف تعتقب على ماتحت السماء؛ كاعتقاب العوامل المختلفة على السماء فهي عرضة للخوافض والروافع والنواصب، كذا حوادث الدهر ونوائبه لا تترك شيئاً إلا استهدفته.

يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(٢).

- وعليك بالصبر فيما عزمت عليه وصممت، ولا تتشصر عما في الفم من جلادة ميمه، والفم: أصله فوه بفتح الواو فحذفت لامه فبقيت الواو متعقباً لحركات الإعراب، فأبدلوا من الواو حرفاً أجلد منها وهي : الميم واختاروها لمقاربتها لها في المخرج.

وفي الحث على الصبر قال تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣).

إلا أن الزمخشري حين لجأ إلى هذا الأسلوب في وعظه عمد إلى نهج مغاير لنهج الوعاظ؛ الذين يقصدون به العامة قبل الخاصة، بأسلوب بسيط، بينما الأسلوب الذي انتهجه الزمخشري هنا صعب مغلق لن يفهمه إلا فئة معينة من العلماء، وربما نجد له العذر في كونه يخاطب نفسه في كل المقامات بقوله ((يا أبا القاسم))؛ لذا خرج هذا الوعظ بصورة لا يفهمها إلا من كان في مستوى الزمخشري ذاته، وبذلك فقدت المقامة جزءاً من أهميتها الوعظية، فالوعظ للعامة لا لخاصة الخاصة، وقد نلتمس له العذر

(١) سورة البقرة ، آية ١٣٢ .

(٢) سورة الحج، آية ١١ .

(٣) سورة الشورى، آية ٤٣ .



فربما أخرج هذه المقامات لنفسه؛ تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١).

والتزاماً بمبدأ المحاسبة المتمثل في قول عمر: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا»^(٢)، فأعطانا بذلك صورة واضحة، عالية المستوى حين خص نفسه بالوعظ في خمسين مقامة، فحقق الصورة التي أرادها الإسلام من المسلم في أنه يعظ نفسه كما يعظ غيره فطبق مبدأ القدوة.

أما الأسواني فقد ذكر بعض علوم العربية، وأبان فضلها وفوائدها من خلال المناظرة التي قامت بين أصحاب العلوم المختلفة، والذي كان من بينهم عالم باللغة، وآخر بالنحو، وثالث بالفرائض، ورابع بالبديع، وخامس بالشعر، وسادس بالهندسة،... والجبر،... والموسيقى،... الخ. وهذا النحو يقول:

«النَّحْوُ أَعْلَى الْعُلُومِ مَنْزِلَةً، وَأَعْجَلُهَا مَنْفَعَةً، وَكَوْلَاهُ مَاعَرَفَ الْخَطَأِ مِنَ الصَّوَابِ فِي الْكَلَامِ، وَهُوَ مِنَ الْعُلُومِ بِمَنْزِلَةِ الْمَلْحِ مِنَ الطَّعَامِ، بِهِ يَتَوَصَّلُ إِلَى كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَخْبَارِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَمَنْ جَهَلَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ لَا يَأْمَنُ أَنْ يَأْتِيَهُ فِي فِتَاوِيهِ وَيَلْحَنَ فِيمَا يَرُوِيهِ»^(٣).

غير أن العالم بالشعر لا يستكين لما يسمع دون أن يفصح عن نفسه، بعد أن سمع الثاني يؤيده، ولكنه يستدرك بأن منزلة النحو من علم اللغة كمنزلة الأعراض من الذوات فيقول:

«أَرَأَيْتُمْ مَا ضَرَبْتُمْ عَنْ عِلْمِ الشُّعْرِ صَفْحًا، وَطَوَيْتُمْ دُونَهُ كَشْحَاءً وَهُوَ مِيدَانُ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُ الْمَنْبَهُ عَلَى حِكْمَتِهَا وَلِسَانِ الْفَصَاحَةِ وَتَرْجُمَانِهَا، وَعِلْمُ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ لَهُ خَادِمَانِ، وَبَعْدَهُ حَاذِيَانِ وَقَدْ فَضَّلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قَدَمًا بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الشُّعْرَ لِحِكْمَاءَ وَأَهْلَهُ أَقْلُ النَّاسِ هَمًّا، وَأَنْفَذُهُمْ حِكْمًا، لِأَقْوَالِهِمْ مَقْبُولَةٌ، وَمُؤَنَّهُمْ مَحْمُولَةٌ،

(١) سورة الشمس، آية ٩ .

(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني، ٥٢/١، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م، وصفة

الصفوة، لأبي الجوزي، ٢٨٦/١.

(٣) مخطوط المقامة ص ١.



تَرَهَّبُ مِنْهُمْ الْمَحَالُ، وَلَا يَسْتَحْسِنُ مِنْهُمْ إِلَّا الْمَحَالُ، وَلَا يَخْفَوْنَ سَطْوَةَ قَادِرٍ، وَلَا يَخْشَوْنَ مِنْ بَرٍّ وَلَا فَاجِرٍ، إِنْ مَدَحُوا الْكَلْبَ أَلْبَسُوهُ فَخْرًا، أَوْ هَجَّوْا الْمَسْكَ صَيَّرُوهُ شَرًّا^(١).

إذن فالأسواني أكد حقيقة مهمة بينت الفائدة من علم النحو، فبدونه لن يعرف الخطأ من الصواب في الكلام، ولن يهجر لسانه اللحن في القول أثناء قراءته لكتاب الله وسنة نبيه - ﷺ -.

أما ابن الجوزي فقد أراد في مقامته (٢٤) أن يبين ولعه بإعراب النحو، فأطلق على هذه المقامة عنوان «(في شيء من اللغة)»، وأبان الكثير فيها، ولم يلجأ إلى استعمال الألفاظ النحوية بطريقة الزمخشري؛ بل جعل لمقامته قصة دارت حول رجل نزل في ضيافة شيخ له ولدان، وكلهم ذوو معرفة باللغة، ودراية بالإعراب، وظهر ذلك متمثلاً في اختصاص الولدين لوالدهما، كل واحد يشكو من الآخر بفصاحة لسان، ولما بين الضيف أنه طالب علم؛ قدم ولديه فبدأ الأول بذكر الكثير من معارف اللغة وأبدع، وأكمل الثاني وأبدع، وعرف الرجل الضيف أن الشيخ هو: أبوالتقويم العالم بكل علم متين^(٢).

وقد أظهر ابن الجوزي هنا لوناً من ألوان الوعظ يحث فيه على ضرورة الرجوع إلى اللغة العربية والبعد عن اللحن، لأن اللحن مما تنكره العرب، وتعيبه من أهله، فهذا عمر بن الخطاب أتى على قوم يرمون رشقاً لهم، فأساءوا الرمي، فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن قوم متعلمين، فقال عمر: لإساءتكم في لحنكم شر من إساءتكم في رشقكم أو رميكم، رحم الله أمراً أصلح من لسانه، وقال عمر أيضاً: «تعلموا العربية، فإنها تضثبت العقل».

وقد قيل للحسن: إن لنا إماماً يلحن، فقال: أخروه.

وقال الأصمعي: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي - ﷺ -: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من

(١) مخطوط المقامة ص ٢.

(٢) انظر: ص ١٩٨ من مقامات ابن الجوزي.



النار»^(١)؛ لأنه لم يكن يلحن فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه، فهؤلاء الصحابة والتابعون ومن بعدهم من أعلام الحديث وحفاظ الأثر، كل منهم يحض على تقويم اللسان وإعراب الكلام، ويذم اللحن، ويهجن أهله، وعلى هذا مضى من لم نذكره منهم، حيث كانوا في كل عصر وزمان^(٢).

كما أن الخطابي جعل العلم بالإعراب أحد الأبواب الثلاثة التي لامندوحة لطالب العلم من معرفتها، فيقول: «وملاك الأمر فيما تمس بهم إليه الحاجة منها معرفة أبواب ثلاثة: وهي أمثلة الأسماء، وأبنية الأفعال، وجهات الإعراب، فإن من لم يحكم هذه الأصول لم يكمل لأن يكون واعياً لعلم، أو راوياً له، وبالحرى أن يكون مايفسده منه أكثر مما يصلحه...»^(٣).

أما أبرز ماظهر في هذه المقامة السالفة الذكر من المعارف اللغوية فتتلخص فيما يلي:-

ذكر أصوات الحيوانات من مثل قوله: «إِذَا رَعَا الْبَعِيرُ، وَصَهَلَ الْفَرَسُ، وَشَحَجَ الْبَعْلُ، وَنَاجَتِ النَّعْبَةُ، وَثَغَتِ الشَّاةُ، وَهَدَرَ الْحَمَامُ، وَزَقَا الدَّيْكُ»^(٤).

كما أشار إلى فصاحة الأعشى والكميت فقال: «وَأَنَا مِنَ الْحَرِّ وَالْجُوعِ كَمَيْتٍ، فَأَنْسَانِي الْمُضِيفُ بِفَصَاحَتِهِ الْأَعْشَى وَالْكَمَيْتُ»^(٥).

بين متى تقال الكلمة، وذلك بوضعها في مكانها الصحيح فيقول: «لايقولُ العربُ مائدةً إلا إذا كانَ عليها طعامٌ وإلاَّ فهَي خِوَانٌ. ولايقالُ للعَظْمِ عَرَقٌ إلا إذا كانَ عليه لحمٌ، ولاكأسٌ إلا إذا كانَ فيها حمْرٌ، وإلاَّ فهَي زُجَاجَةٌ. ولاكُوبٌ إلا إذا كانتَ له عُرْوَةٌ وإلاَّ فهو كُوزٌ. ولارُضَابٌ إلا إذا كانَ في الفمِ. ولا أريكةٌ إلا للسريرِ

(١) رواه البخاري (٢٩١)، كتاب الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت، ١٠٢/٢، ورواه مسلم (٤) عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - في المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله، بلفظ متعمداً، ١٠/١.

(٢) انظر: غريب الحديث، للخطابي، تحقيق عبدالكريم العزباوي، ١/٦٠-٦٤، ط ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٣.

(٤) المقامة نفسها، والصفحة نفسها.

(٥) المقامة نفسها، ص ١٩٨.



عليه قَبَّةٌ . وَلَا رَيْطَةٌ إِلَّا إِذَا كَانَتْ بِلَا لَفْقَيْنٍ، وَلَا نَحْدَرُ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهِ امْرَأَةٌ، وَلَا لِلْمَرْأَةِ ظَعِينَةٌ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي الْهُودِجِ، وَلَا قَلَمٌ إِلَّا إِذَا كَانَ مَبْرِيئًا، وَلَا عَهْنٌ إِلَّا إِذَا كَانَ مَصْبُوغًا، وَلَا رَكِيَّةٌ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ، وَلَا خَاتَمٌ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَيْهِ فَصٌّ، وَلَا رُمَحٌ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ رُجٌّ وَسِنَانٌ، وَلَا لَطِيمَةٌ إِلَّا لِلْإِبِلِ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا الطَّيْبَ وَالْبَزَّ، وَلَا بَدَنَةٌ إِلَّا لِلَّتِي تَجْعَلُ لِلنَّحْسِ^(١).

ثم سأل الضيف أحد الولدين عن بعض تصرف العرب، فذكر منها:

« نَأْتِي إِلَى اللَّفْظَةِ فَنُغَيِّرُ حَرَكَتَهَا تَارَةً فَيُخْتَلَفُ مَعْنَاهَا كَالْحِمْلِ وَالْحُمْلِ وَالرُّوحِ وَالرَّوْحِ.

وتارةً نُوَقِّعُ التَّغْيِيرَ بِالْإِعْجَامِ؛ كَالنَّضْحِ وَالنَّضْحِ، وَالْقُبْضَةِ وَالْقُبْضَةِ، وَالْمُضْمَضَةِ وَالْمُضْمَضَةِ.

وتارةً نَقْلِبُ حَرْفًا مِنْ الْكَلِمَةِ وَلَا يَتَغَيَّرُ مَعْنَاهُ فَنَقُولُ: أُنْبِضَ فِي الْقَوْسِ وَأُنْضَبَ، وَاضْمَحَلَّ وَامْضَحَلَّ، وَمَا طَيَّبَهُ وَأَيْطَبَهُ، وَبَطِيخٌ وَطَيِّخٌ، وَجَبَذَ وَجَذَبَ، وَخَزَنَ اللَّحْمَ وَخَنَزَ، وَدَقَمَ فَاهُ بِالْحَجَرِ وَدَمَقَهُ...

وتارةً نَضَعُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ أَسْمَاءَ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ يَعْتَرِيهِ، فَنَقُولُ: السَّيْفُ وَالْمِهْنَدُ وَالصَّارِمُ^(٢).

« وَنُغَيِّرُ الْأِسْمَ بِتَغْيِيرٍ يَعْتَرِي فَنَقُولُ لِمَنْ نَزَلَ فِي الرَّيِّ يَمْلَأُ الدَّلْوُ: مَايِحُ، وَلِلْمُسْتَقِيِّ مِنْ أَعْلَاهَا: مَا تَحَّ^(٣).

« وَنَضَعُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ أَسْمَاءً يُخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ مَحَالِهِ، فَنَقُولُ لِمَنْ انْحَسَرَ الشَّعْرُ عَنْ جَانِبِي جِبْهَتِهِ: أَنْزَعُ، فَإِذَا زَادَ قَلِيلًا قُلْنَا: أَجْلَحُ، فَإِذَا بَلَغَ الْإِنْحِسَارُ نِصْفَ رَأْسِهِ قُلْنَا: أَجْلَى وَأَجْلَهُ، فَإِذَا زَادَ قَلِيلًا: أَصْلَعُ، فَإِذَا ذَهَبَ الشَّعْرُ كُلُّهُ قُلْنَا: أَجْصُ^(٤).

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠١.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٠١-٢٠٢.



« ونقولُ : صدرُ الإنسانِ ونُسميه من البعيرِ الكركرة، ومن الأسدِ الزور، ومن الشاةِ القَصَّ، ومن الطائرِ الجوجو، ومن الجرادِ الجوشن»^(١).

« ونفرقُ في الشهواتِ فنقولُ : جائعٌ إلى الخبزِ، وقَرِمٌ إلى اللحمِ، وعَطشانٌ إلى الماءِ، وعَيِّمانٌ إلى اللبنِ، وقَرِدٌ إلى التمرِ، وجَعَمٌ إلى الفاكهةِ، وشَبِقٌ إلى النكاحِ»^(٢).

أما الصبي الآخِر فقد أكمل مابداه أخوه فقال : «إننا لنفرقُ في نظرِ الإنسانِ إلى الشيءِ، فإذا نظرَ بمجامعِ عينيه، قلنا: رَمَقَهُ. فإذا نظرَ إليه من جانبِ أذنيه، قلنا: لَحَظَهُ، فإذا نظرَ إليه بعجلٍ، قلنا: لَحَهُ، فإذا رَمَاهُ ببصره مع حدةٍ، قلنا: حَدَجَهُ، فإن نظرَ إليه نظرَ المعجبِ أو الكارهِ، قلنا: شَفَنَهُ. فإن أعادَ لحظَ العداوةِ قلنا: نظرَ شَزْرًا، فإن كانتَ نظرةً محبةً، قلنا: نظرَ نظرةً ذي عُلُقٍ، فإن كَسَرَ عينه في النظرِ، قلنا: دَنَفَشَ، فإن فتحَ عينيه وجعلَ لا يظرف قلنا: شَخَصَ، فإن أدامَ النظرَ مع سُكُونٍ قلنا: أَسَجَدَ»^(٣).

« ونفرقُ في أسماءِ الجماعاتِ فنقولُ : كوكبةٌ من الفرسانِ، وكَبْكَبَةٌ من الرجالِ، وجوقةٌ من الغلمانِ، وئلةٌ من النساءِ ورَعِيْلٌ من الخيلِ، وصِرْمَةٌ من الإبلِ، وقَطِيعٌ من الغنمِ، وسِرْبٌ من الطيِّاءِ، وعِرْجَلَةٌ من السباعِ، وعصابةٌ من الطيورِ، ورجلٌ من الجرادِ، ونَحْشَرَمٌ من النحلِ»^(٤).

« ونفرقُ من اسمِ اللينِ فنقولُ : ثوبٌ لينٌ، ورُمَحٌ لَدُنْ، ولحمٌ رَحِصٌ، وريحٌ رَحَاءٌ، وفراشٌ وثيرٌ، وأرضٌ دَمِثَةٌ»^(٥).

« ونقولُ في الأمرِ : وهنٌ، وفي الثوبِ : وهىٌ، وفي الحسابِ : غَلَتُ، وفي غيره غَلَطَ، ومن الطعامِ بَشَمٌ، ومن الماءِ يَغْرُ»^(٦).

(١) المقامة نفسها، ص ٢٠٢.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٢.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢٠٣.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.



«ونفرق في المنازل فنقول للمنزل من المدر: بيت، ومن الوبر: بجاد، ومن الصوف: خباء، ومن الشعر: فسطاط، ومن الغزل: خيمة، ومن الجلود: قشع، ونقول: وطن الإنسان، وعطن البعير، وعرين الأسد، وجار الذئب، وكناس الظبي، وعش الطائر، وقرية النمل، وكور الزنابير، وناقض اليربوع»^(١).

«ونقول لما يصنع الطائر على الشجر: وكر، فإن كان على جبل أو جدار فوكن، وإن كان في كن، فعش، وإن كان على وجه الأرض فأفحوص، والأدحى للنعام خاصة»^(٢).

وعند الفراق والوداع بين له الشيخ الفروق في الأطفال: «كل ولد سبع جرو، وولد ذي الريش: فرخ، وولد كل وحشية: طفل، وولد الفرس: مهر وفلوس، وولد الحمار: جحش، وعقر، وولد البقرة: عجل، وولد الظبية: خشف، وولد الضب: جسل، وولد الأرنب: خرنق، وولد النعام: رأل، وولد الناقة: حوار، وولد الثعلب: هجرس، وولد الدب: الديسم، وولد الخنزير: خنوص، وولد اليربوع والفارة: درص، وولد الحية: حريش، وولد الأسد: شبل»^(٣).

ونخلص إلى أن هذا الضيف حين سأل الصبيين لم يكتما علمهما، بل انبرى كل واحد منهما يفرغ ما في جعبته من علم، دلل على سعة معرفتهما، يقول رسول الله - ﷺ -: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(٤).

كما أن ابن الجوزي حين ذكر لنا تلك العلوم على لسان الفتى الأول والثاني، كأنه يحثنا على طلب العلم، الذي حث عليه قبله رسول الله - ﷺ - فقال: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في

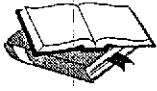
(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٠٤.

(٤) رواه أبو داود (٣٦٥٨) عن أبي هريرة - ﷺ - كتاب العلم، باب كراهية منع العلم،

٣٢١/٣. والتزمذي (٢٦٤٩)، كتاب العلم، باب ٣، ٢٩/٥.



الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر^(١).

العروض:

هو «ميزان الشعر، وهي ترجمة عن ذوق الطباع السليمة، وفوائدها ثلاث: إحداها: أنه يستعين بها من خازنه الذوق، وثانيتها: أنه يعرف بها مفارقة القرآن للشعر ومعانيه له، وثالثتها: أنه يعلم بها ما يجوز في الشعر مما لا يجوز فيه»^(٢).

ولم يتعرض أحد من المقاميين لهذا العلم سوى الزمخشري الذي عتق إحدى مقاماته به، لكنه استعمل مصطلحاته ليس للحث على تعلمه وإنما ليعظ نفسه. ولذا قال: «إِنَّ الْهَدَى فِي عُرُوضٍ سِوَى عِلْمِ الْعُرُوضِ فِي الْعَمَلِ وَالسُّنَنِ وَالْفُرُوضِ»^(٣).

فبين كيف يبلغ أسباب الهدى وذلك: بالعلم، وبالعمل بالسنن والفروض.

ثم أخذ يبحث على الإعراض عن الشعر، إذا كان يبغى صنوف الخير وضروبه، وأن ينطق بكلمة تفصل بين الحق والباطل بدل النطق بقريض الشعر، يقول في ذلك: «مَا أَحْوَجَ مِثْلَكَ إِلَى الشُّغْلِ بِتَعْدِيلِ أَفَاعِيلِهِ، عَنْ تَعْدِيلِ وَزَنِ الشَّعْرِ بِتَفَاعِيلِهِ، مَنْ تَعَرَّضَ لِابْتِغَاءِ صُنُوفِ الْخَيْرِ وَضُرُوبِهِ، أَعْرَضَ عَنْ أَعَارِيضِ^(٤) الشَّعْرِ، وَأَضْرَبَ سَكَنَ ضُرُوبِهِ،

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) عن أبي الدرداء - رضي الله عنه -، كتاب العلم، باب الحث على طلب

العلم، ٣/٣١٧. والترمذي (٢٦٨٢)، كتاب العلم، باب ١٩، ٥/٤٨-٤٩.

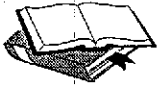
(٢) عروض الورقة، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ص ٥٤، تحقيق: د. صالح جمال بدوي،

مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.

(٣) المقامة (٤٧): شرح العروض، مقامات الزمخشري، ص ٢٦٦، ت: يوسف بقاعي.

(٤) الأعاريض: جمع العروض الذي هو آخر المصراع الأول على غير قياس، ويحتمل أن يكون

جمع أعروضة، انظر: اللسان، مادة: عرض.



ماتصنَعُ بِالضُّرُوبِ^(١) وَالْأَعَارِيضِ فِي الْكَلَامِ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ فِي صِنَاعَةِ الْقَرِيضِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ حَيْلُوكَةُ الْجَرِيضِ، لِأَنَّ تَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ فَاضِلَةٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَاصِلَةً، خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقِكَ فِي بَيَانِ الْفَاضِلَةِ وَالْفَاصِلَةِ^(٢) (٣).

وأكمل الزمخشري وعظه مستعملاً المصطلحات العروضية فحث على تقوى الله ومراقبته، والخوف من عقابه، وترك المعاقبة^(٤) المعروفة في علم العروض، فقال: «عليك بتقوى الله ومراقبته، ولتُرْعَدَ فرائصُكَ خَوْفَ مُعَاقِبَتِهِ، وَدَعْ مَا يَجْرِي مِنَ الْمُعَاقِبَةِ وَالْمَرَاقِبَةِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ، وَعَدِّ عَنِ الصَّدْرِ وَالْعِجْزِ وَالطَّرْفَيْنِ، مَا ضَرَّكَ إِذَا تَمَّ وَوَفَّرَ دِينُكَ وَسَلِمَ^(٥) وَصَحَّ^(٦) يَقِينُكَ، وَاتَّصَفَا بِالْوُفُورِ^(٧) وَالْإِعْتِدَالِ^(٨)، وَتَخَلَّصَا عَنِ الْإِنْتِقَاصِ^(٩) وَالْإِعْتِلَالِ^(١٠)»، فيريد من نفسه قبل القاريء لمقاماته أن يتمم دينه، ويصح يقينه، ويتصف بالاعتدال، ويتعد عن النقص والإعلال، وإن كنت حريصاً على أن

- (١) الضرب: مصراع العروض الثاني كالعروض لأول، وقيل سمي بالضرب الذي هو أسفل الخباء أو رفره الذي تضربه الريح. انظر: اللسان، مادة: ضرب.
- (٢) الفاصلة: اسم لشئيين: ثقيل وخفيف نحو ضرباً ومثاله: متفا من متفاعن أو علتن من مفاعلتن، والفاصلة: اسم لسبب ثقيل ووتد مجموع نحو ضربتا ومثاله: فعلتن، وهو من فروع مستفعلن، ويقال للفاصلة: الفاصلة الصغرى، وللفاصلة: الفاصلة الكبرى، وقيل سميتا بذلك لأنهما فصل بين السبب والوتد بالحركة التي في آخر السبب الثقيل، انظر: اللسان، مادة: فصل.
- (٣) المقامة نفسها، ص ٢٦٦-٢٦٧.
- (٤) المعاقبة بين ساكني السببين المتجاورين أن يثبت أحدهما أو كلاهما ولا يذهباً معاً، انظر: اللسان، مادة: عقب.
- (٥) السالم: الجزء الذي خلا من الزحاف، انظر: اللسان، مادة: سلم.
- (٦) الصحيح: العروض أو الضرب الذي سلم من الانتقاص. انظر: اللسان، مادة: صحح.
- (٧) الوافر: البحر الذي كرر فيه مفاعلتن ست مرات، سمي بوفور حركاتها. انظر: اللسان، مادة: وفر.
- (٨) الاعتدال: أن يستوي المصراعان من خلف بين أجزاءهما، انظر: اللسان، مادة: عدل.
- (٩) الانتقاص: الحذف اللازم، انظر: اللسان، مادة: نقص.
- (١٠) الاعتلال: أن يخالف العروض والضرب الحشو بسلامة أو بزخارف، انظر: اللسان، مادة: علل.
- (١١) المقامة نفسها، ص ٢٦٧-٢٦٩.



تكون من أهل الفضل والحزم فعليك ألا تهتم ، ولاتفكر في مصطلحات العروض التي أورد معظمها إن لم تكن كلها من مثل : الحزم^(١) والحزم^(٢).... الخ.

القافية :

وهذه لم يتناولها أحد من المقامين عدا الزمخشري الذي اتخذ مقامته الثامنة والأربعين والتي تحمل اسم «القوافي» مرتعاً لإظهار معرفته بمصطلحات هذا العلم، إلا أنه كدأبه في بقية مقاماته، جعل منها منطلقاً لوعظ نفسه، والآخريين، فقال: «استغن بكلمات الله الشافية، عن التكلم في حدود القافية ... وأذهل عن المتكاوس^(٣) منها والمتدارك^(٤)، يتكاوس دُنُوبِكَ ...»^(٥).

وبعد ذكره للكثير من مفردات هذا العلم الذي سخره لوعظه كما فعل في المقامة السابقة، أكد أن هذا العلم لا ينفع صاحبه عند الله، يقول في ذلك: «ولا تحسب أن من لا يعرف نفاذاً^(٦) ولا توجيهاً^(٧)، لم يكن عند الله وحيها»^(٨).

- (١) الحزم: نقصان حرف من الوجد المجموع الواقع في الصدر، انظر: اللسان، مادة: حزم
- (٢) الحزم: نقيض الحزم وهو زيادة في الصدر خاصة حرف أو حرفان أو ثلاثة أو أربعة، شبه بحزم أنف البعير، وهو أن تزداد الحلقة التي تسمى الحزامة. انظر: اللسان، مادة: حزم.
- (٣) المتماوس: كل قافية توالى فيها أربع متحركات بين ساكنين، وذلك نحو فعلن. انظر: اللسان، مادة: موس.
- (٤) المتدارك: كل قافية توالى فيها متحركان بين ساكنين نحو متفاعلن. انظر: اللسان، مادة: درك.
- (٥) شرح مقامات الزمخشري، ص ٢٨٣-٢٨٥، ت: يوسف بقاعي .
- (٦) النفاذ: حركة هاء الوصل التي للإضمار، لأن نفاذ الخروج ومضاره بهذه الحركة. انظر: اللسان، مادة: نفذ.
- (٧) التوجيه: حركة الحرف الذي إلى جنب الروي المقيد. انظر: اللسان، مادة: وجه .
- (٨) المقامة نفسها، ص ٢٨٦.



النقد :

لما كانت معظم المقامات قد تناولت الكثير من موضوعات فنون الآداب العربية المتمثلة في ؛ فني الشعر والنثر، فقد عمدنا إلى إضافة النقد إليهما، وأول ما يصادفنا أثناء قراءة مقامات **بديع الزمان الهمداني** نقده الجريء لأدباء آخرين؛ نقده للجاحظ، وهذا ما لفت أنظار دارسين آخرين لهذا الفن - فن المقامات -، كالدكتور/يوسف نور الذي قال: «لم يكن بديع الزمان مجرد نائر اجتماعي، بل كان إلى جانب ذلك ممثلاً لمدرسة أدبية جديدة عقد لها لواء الانتصار في القرن الرابع على وجه الخصوص، تلك هي المدرسة التي نادى أبوتمام بمبادئها الأولى في القرن الثاني، ومنذ ذلك العهد وهي تعاني من عنت الخصوم الذين اعتبروها خطراً على طريقة العرب. وما كان لتلك الطريقة أن تنتصر انتصاراً ساحقاً في القرن الثاني، بل كان لابد لها من أن تسلك طريقها الوعر وتقاوم في إصرار، حتى يكتب لها الانتصار.

وهاهي المقامات الأدبية تعتبر النموذج الكلاسيكي الذي تبلور فيه هذا الإتجاه، الذي غدا رمزاً لأساليب المجددين، لقد ذهب بعض الكتاب إلى القول بأن انتصار الصنعة في القرن الرابع كان بسبب جهل الحكام الأعاجم بأساليب الكتابة واكتفائهم بما يحدث في داخل الأساليب من إيقاعات، وهذا رأي غير صحيح؛ لأن انتصار هذا المذهب كان نتيجة طبيعية للصراع بين المقلدين والمجددين، والذي يجسم في كل الظروف لصالح المجددين. وعليه، فقد كان لامفر لبديع الزمان من أن يدافع عن هذا الانتصار في مقاماته، وذلك ما فعله من خلال النقد المرير الذي وجهه إلى الجاحظ على لسان بطله أبي الفتح الاسكندري^(١)، وقد بدأ هذا القول الدكتور/ أحمد أمين مصطفى حين قال عن البديع الهمداني: «عبر في هذه المقامة عن رأيه في النثر ومذهبه في النثر، وهو رأي مطابق لخصائصه الفنية في جميع كتاباته، وهو هنا ينقد الجاحظ، ويعيب طريقته، ويشيد بالطريقة الجديدة، ومذهب التصنع وفي هذه المقامة يظهر أيضاً إقبال الناس على الأدب، واهتمامهم بنقده حيث تعقد المجالس الأدبية، ويدلي كل أديب بدلوه فيها، ويبدأ النقد بالإشادة بالجاحظ في قضايا عامة كما هو الشائع بين

(١) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٠٤-١٠٥.

الناس»^(١)، حيث يقول: «فَأَخَذْنَا فِي وَصْفِ الْجَاحِظِ وَلِسْنِهِ، وَحَسَنَ سَنَنِهِ فِي الْفَصَاحَةِ وَسَنَنِهِ»^(٢)، ثم يبدأ بديع الزمان في الطعن على الجاحظ - على لسان أبي الفتح الاسكندري - حيث يقول: «ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم»^(٣) ثم يفصل المآخذ التي يجدها على الجاحظ، وتتلخص في أنه يكتب النثر ولا ينشيء الشعر، وهذا في رأيه تقصير في مجال الأدب، والأديب الكامل من يجمع بينهما، ثم يعيب على الجاحظ أنه قليل الاستعارات قريب المآخذ لايهتم بالبديع ولا يتأنق في أسلوبه، وفي ذلك يقول:

«إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً؟ قلنا؟ لا، قال: فهل مآخذ الكلام يستعمله، نفور من معناه يهمله، فهل سمعتم له لفظةً مصنوعةً، أو كلمة غير مسموعة؟ قلنا: لا»^(٤)، ويعلق د. يوسف نور على ذلك بقوله: «وكما نرى فإنه يعيب على الجاحظ نفوره من التصنيع والتصنع، وجنوحه إلى الاسترسال والسهولة، غير أن اختيار بديع الزمان للجاحظ كنموذج ينقد من خلاله أساليب القدماء لم يحالفه التوفيق؛ لأن الجاحظ قمة في ذاته، وهو نسيج وحده، وأسلوبه لا يعتبر ممثلاً لطرائق القدماء. لقد جنح الجاحظ إلى أسلوب الاسترسال؛ لأن عمق القضايا التي تناولها وكثرتها لا يسمحان له بصرف ذهنه وإعماله في الصنعة والتصنيع، وانتصار مذهب الصنعة في القرن الرابع لا يعني نهاية مذهب الجاحظ؛ لأنه انتصار وقتي جنح إليه المجددون، ولكنهم سرعان ما ارتدوا مرة أخرى لطريقة الجاحظ الملائمة لأساليب الكتابة النثرية أكثر من غيرها من أساليب الصنعة. وقد استمرت طريقة الجاحظ إلى عصرنا الحديث حيث طورها الكتاب في ألوان الكتابة المعاصرة»^(٥)، إلا أن د. أحمد أمين مصطفى كان رده وتعليقه أقرب إلى الصواب حيث قال:

(١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، ص ٧٢-٧٣.

(٢) المقامة (١٥): الجاحظية، مقامات بديع الزمان الهمداني، ص ٨٦.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٨٧-٨٨، معناه: بديعة، انظر: اللسان، مادة: عوص.

(٥) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٠٥.



« وآراء بديع الزمان هنا فيها كثير من المحافة للحقيقة، فليس من الضروري للأديب أن يجمع بين الشعر والنثر، ولا يغض من شأن الجاحظ أنه لم يقل شعراً رائعاً، ثم إن الأسلوب المرسل الذي نراه عند الجاحظ لا يقلل من قيمته الفنية أنه لا يهتم بالاستعارات ولا يتكلف السجع والمحسنات، فالأديب ابن عصره، ولم يكن هذا التكلف للسجع والمحسنات قد شاع بين الأدباء في عهد الجاحظ، وليس هذا التكلف للمحسنات مما يوضع في الميزان عند النقد فقد يرجح الأسلوب المرسل على الأسلوب المسجوع، ولكن بديع الزمان يزن الأمور بميزانه، ويصدر الأحكام التابعة من معتقداته»^(١).

وأما الدكتور/ عبدالمملك مرتاض فقد حدد الهدف من هذه المقامة بقوله : «الطعن في الأدباء، والغض من مكانتهم في الأدب العربي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه أيضاً «النقد الهدام»؛ وتجده متجلياً في المقامة الجاحظية، فلم يكن البديع يرمي إلى نقد الجاحظ نقداً موضوعياً خالياً من الأنانية والهوى. فقد جرد الجاحظ من أن يكون بليغاً، وأديباً يستحق تلك السمعة الخارقة التي لا يزال يستبد بها في النوادي الأدبية ... ونحن زعمنا أن الهدف من هذه المقامة لم يكن نقداً، وإنما كان طعناً وثلباً وهدماً؛ لأن البديع كان يريد أن يجرد الجاحظ من كل فضل، ويهدم سمعته الأدبية في حين أن الحق هو غير ذلك»^(٢)، وقد علق في الهامش بقوله: «نعم الباحثون جميعاً على البديع رأيه هذا، وثاروا عليه»^(٣).

« غير أننا - والكلام للدكتور/ يوسف نور عوض - مع ذلك نقف مع بديع الزمان في نقده لطريقة الجاحظ الاستطرادية في المقامة المضيرية، فهو وإن لم يصرح فيها بنقده المباشر للجاحظ فإن القاريء يدرك أن المقصود من ورائها طريقة الجاحظ الاستطرادية، والمقامة لا تتعرض للمسائل الأدبية ولكنها تتعلق بدعوة وجهت لعيسى

(١) فن المقامة بين البديع والحري والسبوطي، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) فن المقامات في الأدب العربي، ص ١٨٠-١٨١.

(٣) المرجع والصفحة نفسها، وقد أحال د/مرتاض إلى كتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي

لشوقي ضيف، ط ٥، ص ٢٥٢-٢٥٣، وشرح مقامات البديع لمحمد عبده، ذيل ص ٧٦

(بيروت)، بديع الزمان الهمداني، لمارون عبود، ص ٣٤، وهي كذلك.

ابن هشام وجمع من الناس قدمت فيها وجبة المضيرة، فإذا بالاسكندري يقف ويذم تلك الوجبة ويلعنها، وسببه في ذلك أنه لبي من قبل دعوة أحد التجار لوجبة المضيرة وفي الطريق أخذ التاجر يحدثه عن زوجته وأصلها وطبائعها ثم استطرد الحديث عن متجره ثم منزله ومافيه من طاق وباب وأوانٍ وظل يخرج من موضوع إلى موضوع فيما هو صارف النظر عن الوجبة فما كان من الاسكندري إلا أن التمس الفرار والرجل يصيح من ورائه: «ياأبا الفتح المضيرة» فتعلق الصبيان به ظناً منهم أن المضيرة لقب له، فرمى أحدهم بحجر كان سبباً في إدخاله السجن عامين فأقسم ألا يأكل المضيرة.

والمقامة تروي حالة الملل والضجر التي تعزي الإنسان من عدم التركيز على الموضوع الأصلي، والانشغال بما دونه من الجزئيات غير المطلوبة، وتلك هنة حفل بها الأسلوب الجاحظي، وسببها في الواقع عدم معرفة الكتاب الأقدمين بمن فيهم الجاحظ «بوحدة الموضوع» في المقالة أو البحث الأدبي وقد حرص الهمداني على التزام وحدة الموضوع في مقاماته»^(١).

وفي مقامة ثانية نرى البديع ينقد آخرين غير الجاحظ، وكان للدكتور/ أحمد أمين مصطفى رأى في ذلك النقد فقال :

«ناقشت المقامات بعض القضايا الأدبية التي كانت مطروحة آنذاك، وأبدت فيها آراء، غير أن هذه الآراء لم تكن دائماً على درجة من الوضوح والتعليل، فقد تأتي بجملة وأحكاماً عامة، وقد تأتي أحكاماً مفصلة وعلى وجه من النقد الموضوعي كما نرى في المقامة القريضية، وفيها يقول على لسان عيسى بن هشام : «فَجَلَسْنَا يَوْمًا نَتَذَكَّرُ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ، وَتَلَقَّاءَنَا شَابٌّ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنصِتُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ، وَيَسْكُتُ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ... فَدَنَا وَقَالَ: سَلُونِي أُجِبْكُمْ، وَاسْمَعُوا أَعْجِبْكُمْ، فَقُلْنَا: مَا تَقُولُ فِي امْرِئِ الْقَيْسِ؟...»^(٢).

ويستمر هذا الحوار حول طرفة وجريير والفرزدق، ثم ينتهي حول المحدثين من

(١) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٠٦.

(٢) المقامة (١): القريضية، مقامات بديع الزمان الهمداني، ص ١٠-١٢.



الشعراء والمتقدمين منهم، ويقول هذا الأديب أو أبو الفتح الإسكندري : «المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر من المعاني حظاً، والمتأخرون ألطف صنعا وأرق نسجاً»^(١).

وهذه آراء صائبة سواء مادار منها حول الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين ولكننا مع ذلك لانرى تطبيقاً لهذا النقد على نتاج الشعراء، ولا عيب في ذلك فليس المقام مقام نقد أدبي مفصل، وإنما هي لمحات عامة بيديها بديع الزمان على لسان أبي الفتح، ولانستطيع أن نقول: إن بديع الزمان كان ناقداً أديباً كالأمدي والجرجاني مثلاً، وإنما هو أديب مرهف الحسن نافذ البصيرة له رأيه الأدبي الذي يعبر عنه، وأهم مانراه في هذا النقد الأدبي أنه يهتدي لصدق العاطفة وأثرها في جودة الشعر؛ فهو يقول عن النابغة: «ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب»^(٢) فهو يقول عن إحساس صادق، ولذلك فهو يجيد في هذه المجالات لأنه صادق العاطفة»^(٣).

لكن للدكتور/ عبد الملك مرتاض رأي آخر، فهو يجد أن الهمداني، لم يأت في نقده لأولئك الشعراء - في مقاماته - بجديد، فيقول عن ذلك :

« ويردد أحكاماً كانت قيلت قبله في هؤلاء الشعراء ... ولو أراد إلى النقد الحق، أو الطعن أو الغض من أقدار هؤلاء الشعراء، لما عدمه الكلام الذي يقول، فقد كان لاذع اللسان، مر القلم حين يصرف همه إلى شيء لا يجبه، أو حين ينصب العداة لأديب من الأدباء، بسبب أو بدون سبب. ومناظرته الخوارزمي وإهاتته إياه في عقر داره أحد البراهين على مانزعم.

وقد قارنا بين ماجاء في القريضية بما ورد في طبقات الشعراء لابن سلام، والشعر والشعراء لابن قتيبة، فلم نجد فرقاً كبيراً يذكر.

يقول البديع مثلاً في امرئ القيس : « هو أول من وقف بالديار وعرضاتها ، واغتدى والطير في وكنايتها، ووصف الخيل بصقاتها»^(٤).

(١) المقامة نفسها، ص ١٥ .

(٢) المقامة نفسها، ص ١٣ .

(٣) فن المقامة بين البديع والحري والسيوطي، ص ٦٩-٧٠ .

(٤) المقامة (١) القريضية، مقامات بديع الزمان الهمداني، ص ١٢ .

ويقول في هذا الشاعر نفسه ابن سلام: «سبق العرب إلى أشياء ابتدعتها، منها استيقاف صحبه، والبكاء على الديار ... وشبه الخيل بالعقبان والعصي»^(١).

والشبهه ظاهر بين القولين . وشبيهه بذلك ما قاله ابن قتيبة حول امرئ القيس أيضاً: «أنه أول من فتح الشعر واستوقف، وبكى في الدمن ... وهو أول من شبه الخيل بالعصا. فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف»^(٢).

وإذن فالبديع لم يزد على أن ردد أحكاماً نقدية كانت معروفة عند النقاد، ففهمنا من ذلك أنه أراد أن يجمع طائفة من هذه الأحكام ويضمونها مقامته القريضية لغاية تعليمية، إلا إذا قال قائل: إنما أراد البديع إظهار المامه بالأحكام النقدية وإظهار براعته في شمول الإطلاع على جميع الأساليب الشعرية وما اعتورها من تطور عند فحول الشعراء، فإن ذلك لا يمتنع عقلاً^(٣).

وأشار إلى مثل هذا د/ يوسف نور عن المقامة القريضية، فقال: «وللهمذاني لون آخر من النقد الأدبي لا نشك في غايته التعليمية فهو لا يأتي فيه بشيء جديد، بل يكتفي بتدوين الآراء النقدية، والأدبية المتداولة لدى جمهرة النقاد والأدباء وقد أورد هذه الطريقة في مقامته القريضية»^(٤).

ولابن الجوزي رأي في النقد، لكنه ليس بجديد فقد ردد ما هو مقول في عصره كقوله:

«أشعر الناس امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب،
والأعشى إذا طرب»^(٥).

(١) طبقات فحول الشعراء، ص ٤٦، طبعة دار المعارف بمصر .

(٢) الشعر والشعراء، ٦٨/١ .

(٣) فن المقامات في الأدب العربي، ص ١٨٢-١٨٣ .

(٤) فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ١٠٦ .

(٥) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٥٨ .

الباب الثاني
ملاحم الفن الإسلامي في المقامة
"دراسة فنية"

الفصل الأول : فن الوعظ.

الفصل الثاني : الأسلوب.

الفصل الأول

فن الوعظ

ويشتمل :

- الرمزية .
- القصص .
- الواقعية .



إن الوعظ من أخص خصائص المقامات، وهو من الأفكار التي اهتم بها كتاب المقامة، ولا سيما أولئك الذين جاءوا بعد البديع الذي لم يكتب سوى مقامتين اثنتين موضوعهما الوعظ، ولكنهما ذوات أهداف سلبية في بعض جوانبهما لما يمكن أن ينشأ عنهما من تواكل في المجتمع؛ لأنها كانتا تدعوان في معظم الحالات إلى نبذ الدنيا، وعدم السعي من أجل الحصول على المال، والتحذير من الموات الذي قد يفاجئهم في أية لحظة، بينما الوعظ يجب أن يذكر بالآخرة، ويحث على الصدق، وحب الخير للناس، والتحذير من الشر وما ينشأ عنه.

إذن فوعظه كان يدعو غالباً إلى نبذ الدنيا نبذاً تاماً، وفي ذلك تهرب من الحياة الذي ينشأ عنه تأخر الأمة، واضطراب أحوالها، وفساد أمرها، وضعف كيانها... ثم بين أن هؤلاء الواعظين أنفسهم لم يكونوا يسعون سعياً مشروعاً للحصول على أرزاقهم، والأسوأ منه أنهم ربما دعو الناس إلى التحلي بالفقر وعدم السعي والكد من أجل حياة كريمة رغيدة كما فعل البديع في مقامته الوعظية: «ألا وإن الدنيا دار جهاز، وقنطرة جواز... فلا تلبسوها»^(١).

فهو يدعو هنا إلى الفقر، وينهي عن الغنى؛ لأن الفقر كان حلية الرسول ﷺ، مع أن النبي كان شديد السعي كثير الكد، ونسي أن فقر النبي ﷺ كان فخراً له، لأنه لو شاء لكان أغنى الناس^(٢).

وأتى الحريري وعالج نحو ست مقامات في الوعظ أو أكثر، وقد سار على خطى البديع نفسه.

ولكن ما إن جاء الرمخشري حتى خص مقاماته الخمسين كلها بالوعظ.

وكذلك فعل ابن الجوزي. وكان لوعظهما طرق شتى منها اللجوء إلى

الرمزية؛ لتحقيق الهدف من وراء ذلك الوعظ.

(١) ص ١٦٩، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، عبد الملك مرتاض، ص ٣١٩، ٣٢١.



الرمزية :

الرمز عند العلماء علامة تدل على شيء له وجود قائم بذاته. وقد استخدم الرمز في كثير من المجالات رغبة في الإيجاز.

أما الرمز عند الأدباء والنقاد فهو وسيلة للتعبير عن التجارب الأدبية المختلفة بوساطة الرمز.

وقد دعي هذا الاتجاه بالمدرسة الرمزية؛ وذلك لأن هذه الحركة الأدبية اتخذت من الإشارة واللمح أداة للتعبير عن الانطباعات النفسية، وأحلتها محل الأسلوب الحقيقي المباشر الذي يستعمله الأدباء.

وقيل : إن الرمزية هي : «اتجاه غيبي خاص بطريقة إدراك العالم الخارجي، وبالوجود الذهني الذي ينحصر فيه الوجود الفعلي، واتجاه باطني وهو السعي إلى اكتشاف العقل الباطن وعالم اللاوعي، واتجاه لغوي خاص بالبحث في وظيفة اللغة وإمكانياتها ومدى تقيدها لعمل الحواس وتبادل تلك الحواس...»^(١).

ونحن نلاحظ أن الرمز لم يتخذ معنى اصطلاحياً إلا منذ العصر العباسي: عصر التحول الظاهري في الحياة العربية الاجتماعية والعقلية، وعصر النهضة العلمية الأدبية، وقد جنحت الحياة في العصر إلى صور من التعقيد، وتعرضت لألوان من الكبت والضغط^(٢).

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، د. نجيب الكيلاني، ص ١١٣-١١٤، مؤسسة الرسالة، بيروت،

ط ٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) انظر: الرمز والرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، ص ٤٣، دار نهضة مصر للطباعة

والنشر، القاهرة .

بدء الرمزية في المقامات :

لما كان تردي الأحوال الاقتصادية سبباً في كثرة المستجدين ولاسيما في بلاد فارس، ذلك بأن النزعة الكسروية الطاغية القديمة ظلت مسيطرة إلى حد كبير على مشاعر العلية من القوم هناك، والفوارق الإجتماعية كانت أكبر ظهوراً وتمكناً في هذه البيئة منها في أي بيئة أخرى من بيئات العالم الإسلامي، ولاسيما بعد أن حكم في بلاد فارس البويهيون.

فقد أوحى هذه الحالة إلى بديع الزمان الهمداني بذلك اللون من القصص المعروف بالمقامات^(١)، وهي كما نعرف تدور حول الكدية والاستجداء غالباً، وقد تبعه الحريري في ذلك الفن.

ويظهر أن بديع الزمان قد جعل بطله أباالفتح الاسكندري رمزاً للرجل العالم الفاضل الذي تقسو عليه ظروف الحياة فتضطره إلى الإنحدار في هذه الكدية اضطراراً^(٢)، ولا بد من التنويه إلى أن الرمزية التي اتكأ عليها هذا البحث، هي الرمزية التي تقوم على الكناية، لا الرمزية كما هي في المصطلحات الغربية .

فمن تلك الرمزية عند الهمداني نجده رمز إلى الدينار دون أن يصرح به كما في مقامته " البلخية " يذكره على لسان البطل (أبوالفتح الاسكندري) ويطلبه من الراوية عيسى بن هشام ويصفه قائلاً: « إِذَا أَرَجَعَكَ اللَّهُ سَالِمًا مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ، فَاسْتَصْحِبْ لِي عَدُوًّا فِي بُرْدَةِ صَدِيقٍ، مِنْ نَحَارِ الصُّفْرِ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ، كَدَارَةِ الْعَيْنِ، يَحْطُّ ثِقَلَ الدِّينِ، وَيُنَافِقُ بَوَجْهَيْنِ»^(٣).

فوصفه للدينار بأنه عدو في ثياب صديق كون ظاهره يخدع ويأخذ بالألباب، فإذا اغتر به المرء قلب له ظهر الجحش، أما قوله: يدعو إلى الكفر: لأن من تعامل بالدينار في غير وجوه الحل ربما انحدر إلى الكفر، ويرقص على الظفر: لأن عادة النقاد من

(١) انظر: الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، ص ٣١٦. عن الأدب في ظل بني بويه، ص ٢١٥، محمود غناوي الزهيري، مطبعة الأمانة بمصر، ١٩٤٩م، وهو كذلك.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١٧، عن الأدب في ظل بني بويه، ص ٢٣٤.

(٣) المقامة الثالثة، ص ٢٢، شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، محمد محيي الدين عبدالحميد.

الصيارفة أن يجعلوا الدينار فوق أظفر إبهامهم ويضربون بتأن لينكشف لهم حاله، وهو مستدير كدارة العين، وينافق بوجهين : لأن على كل من وجهيه نقوشاً ليست على الوجه الآخر، فهو يشبه المنافق الذي يلقاك بوجه ويلقى عدوك بوجه، وفي هذا إشارة إلى صنف من الناس قد ذكرهم رسول الله - ﷺ - بأنهم شر الناس، عن أبي هريرة - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - : «شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»^(١).

إذن فقد وعظ البديع عن طريق الرمز، فقلوه: «ينافق بوجهين» رمز إلى مايفعله المال بالناس.

وفي مقامة أخرى وعظ رمز إليه بقوله على لسان بطله: «يا قوم ما منكم إلا من يَلْحَظُنِي شَرًّا ... قَدْ وَطَأَ لِي الْفَضْلُ كَنَفَهُ، وَرَحَّبَ بِي عَيْشٌ وَمَنْمَانِي بَيْتٍ، ثُمَّ جَعَجَعَ بِي الدَّهْرُ عَنْ ثَمَّةٍ وَرَمَّةٍ ... وَنَشَرْتُ عَلَيْنَا الْبَيْضَ وَشَمَسْتُ مِنَّا الصُّفْرَ، وَأَكَلْنَا السُّودَ وَحَطَّمْنَا الْحُمْرَ، وَأَتَابْنَا أَبُو مَالِكٍ مِمَّا يَلْقَانَا أَبُو جَابِرٍ إِلَّا مَنَ عَفْرَةٍ وَهَذِهِ الْبَصْرَةُ مَاؤَهَا هَضُومٌ وَفَقِيرُهَا مَهْضُومٌ وَالْمَرْءُ مِنْ ضَرْسِيهِ فِي شُغْلٍ وَمِنْ نَفْسِيهِ فِي كُلِّ فَكَيْفٍ مَنَ:

يُطَوِّفُ مَا يُطَوِّفُ ثُمَّ يَاوِي ** إِلَى زُغْبٍ مُحَدَّذَةِ الْعُيُونِ

كَسَاهُنَّ الْبَلَى شَعْنًا فُتْمُسِي ** جِيَاعَ النَّابِ ضَامِرَةَ الْبُطُونِ

وَلَقَدْ أَصْبَحَنَ الْيَوْمَ وَسَرَحَنَ الطَّرْفَ فِي حَيِّ كَمَيْتٍ، وَبَيْتٍ كَلَايَيْتٍ، وَقَلْبَنَ الْأُكْفَ عَلَى كَيْتٍ، فَفَضَّضَنَ عَقَدَ الضُّلُوعِ، وَأَفْضَنَ مَاءَ الدَّمُوعِ...»^(٢).

(١) رواه البخاري في فتح الباري (٦٠٥٨) في كتاب الأدب، باب (٥٢): ما قيل في ذي الوجهين، ٤٧٤/١٠ بنحوه. ومسلم (٢٥٢٦) في كتاب البر، باب (٢٦): ذم ذي الوجهين وتحريم فعله، ٢٠١١/٤ بلفظه. والترمذي عن أبي هريرة - ﷺ - في كتاب البر، باب (٧٨)، ٣٧٤/٤، وقال حديث حسن صحيح.

(٢) المقامة (١٣): البصرية، لبديع الزمان الهمذاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٧٥-٧٦، ثم ورمه: قليله وكثيره، البيض: الدراهم. شمست: نفرت واشتد جماحها، الصفرة: الدنانير، السود: الليلي المهلكة ببردها وشدتها. الحمر: السنون المجدبة، زغب: جمع أزغب، والمراد الأطفال الصغار، شعث: غير، انظر: اللسان، مادة: ثم، رم، بيض، شمس، صفر، سود، حمر، زغب، شعث.

فهذا وعظ بين فيه أن الإنسان لا يبقى على حال؛ لأن دوام الحال من المحال؛ لذا فلتعمل لغدك، فقد كان قبل الآن قد وطأ له الفضل كنفه: كناية عن سعة العيش، ثم قال: «جعجع بي الدهر عن ثمة ورّمه»: أي أهانني وأذلني، وصب علي جام غضبه، وأنزل بي محنه وشدائده، والمعنى: إن الحال قد تغيرت وانقلبت اليسرة عسرة، وأضحى الغنى فقراً. ثم انتقل لذم أهل البصرة فلم يصرح بذلك، وإنما رمز إليه بقوله: وهذه البصرة ماؤها هضوم. أي يشرع في هضم الأكل، ورجل مهضوم: غير مرعي الجانب ولا منظور إليه، ومن نفسه في شغل: أي أنه قد ألهاه أمر نفسه وتحصيل قوته عن النظر إلى غيره، وأنه يتعب في ذلك، فكيف يكون حال من يسعى لنفسه وعياله؟

وقال في المقامة الشامية على لسان إحدى زوجتي الإسكندري: «أيّد الله القاضي هو أكذب من أمله وأسمج من عمدته، وأكثر في اللوم من حيله وأشد في الشؤم من دغله وأفسد عشرة من سفلة، والله لقد صادفت من فيه صقراً، ومن يده صخراً، ومن صدره سم خياط لا يرشح بقيراط. ولقد زففت إليه بدناً كالديباج، ووجهها كالسراج، وعينها كعين النعاج، وندياً كحق العاج، وبطناً كظهر الهملاج، وحصناً ضيق الرتاج، تحشن المنهاج، حار المزاج، صعب العلاج، ولكن كيف ألد وهو لا ينجز ما يعد، وكيف ينجز ما يعده وهو لا يجده، ويجهد لو لم يخنه الوتد»^(١).

فإلام كانت ترمز؟ ولماذا لم تصرح؟

التأدب في حضرة القاضي منعها من التصريح فكنت، والقاضي عرف ماتريد الوصول إليه، فقال للرجل: «رمتك بالعنة، ونسبتك إلى الأبنة»^(٢).

وفي قوله: «وانتابنا أبو مالك، فما يلقانا أبو جابر إلا عن عفر»^(٣).

فإنما كنى بأبي مالك عن الفقر، وبأبي جابر عن الخبز^(٤).

(١) المقامة (٢٥)، لبديع الزمان الهمداني، ت: فاروق سعد، ص ١٩٤، ط ١، بيروت.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٩٥.

(٣) المقامة (١٣): البصرية، ص ٧٦، عفر: أي لا يزورنا إلا في كل حين مرة، انظر: اللسان،

مادة: عفر.

(٤) شرح مقامات بديع الزمان، ت: محمد مجي الدين عبد الحميد، ص ٧٦.

وقوله :

« آوِي إِلَى نَيْتِ كَقِيدِ شَبْرِ * * خَامِلِ قَدْرٍ وَصَغِيرِ قَدْرٍ »^(١)

المعنى أنني أسكن داراً صغيرة لا تكفي، أضف إلى أنني غير مشهور، ولا صيت لي، وأنيتي التي أطبخ فيها طعامي صغيرة، كل هذه كنايات عن شدة الفقر واضمحلال حاله.

وكنى بقوله : * * أَطْلِقُ مِنَ الْيَدِ خَصْرًا *^(٢)

عن تطامنه له، وتواضعه، وعدم الاستعلاء، ويتبع ذلك اهتمامه بشأنه، وعنايته بقضاء ما يريد منه، وذلك أن أصل من يضع يديه على خاصرته يكون تياهاً، مستعلياً، ومثل هذا لا يبالي بالناس، ولا يلتفت إلى رغباتهم، ولا يأبه لشؤونهم.

وفي المقامة نفسها يقول : « فَتَبِعْتُهُ حَتَّى صَارَ إِلَى أُمَّ مَثَوَاهُ »^(٣).

فكنى عن امرأته بقوله : « أم مثواه »، لأنها موجودة حيث يقيم، أو لأنها تحمله على الإقامة.

وقال يصف نهيدة مكلفة بعجوة خبير: « كَأَنَّ نَوَاهَا أَلْسُنُ الطَّيْرِ »^(٤)، فألسن الطير صغيرة، وإذا كانت الثمرة كبيرة، ونواتها صغيرة كان أكثرها غداءً، فالعبارة كناية عن ذلك، وليس عظمها، ولا ضخامتها ناجماً عن كبر النواة، بل إن معظمها وأكبر ما فيها جسم يؤكل.

وقوله : « أَضَلَّلْتُ إِبْلًا لِي، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهَا، فَحَلَلْتُ بَوَادِي خَضِرٍ »^(٥)، فحين وصف الوادي بقوله: خضرٍ فكناية عن كثرة نباته، واعشيشاب أرضه.

(١) المقامة (١٦): المكفوفية، ص ٩٢، قدر: مكانه، قدر: آنية الطبخ، اللسان، مادة: قدر.

(٢) المقامة (١٩): الساسانية، ص ١٠٩.

(٣) المقامة والصفحة نفسها، المثوى: الإقامة، انظر: اللسان، مادة: ثوى.

(٤) المقامة (٣٤): النهيدية، ص ٢٤٥.

(٥) المقامة (٣٥): الإبلية، ص ٢٥٣.

وقوله : «حتى أردف الليل أذناهُ»^(١) هو كناية عن اشتداد الظلمة، واحتباك الغسق.

وقوله: «كُنْتُ وَأَنَا فَتَى السِّنِّ أَشَدُّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَائِيَّةٍ، وَأَرْكُضُ طِرْفِي إِلَى كُلِّ عَوَائِيَّةٍ»^(٢). أراد الملاذ المردية والشهوات المهلكة، وشد الرحل إليها كناية عن اقترافها والخوض في مضمارها، ومثل ذلك الفقرة بعدها.

وقوله : «وَبَدَتْ خَلْفَهُ الْحَصِيَّاتُ، وَكُنِسَتْ بَعْدَهُ الْعَرَصَاتُ»^(٣)، يريد أن من عادتهم أنه إذا نزل بهم من لا يجبون، يرمون الحصى خلفه متى ارتحل، وكأنهم يعنون عدم عودته، والاستخفاف به كما لا تعود الحصاة ولا يعبأ لها، وكذلك إذا مات الميت كنسوا بعده فناء الدار إياساً من رجعته وتنظيفاً للدار من بعده، وكنى بهما عن أنه لا يؤوب .

وقوله : «فَقَبَضْتُ مِنْ كَيْسِي قَبْضَةَ اللَّيْثِ، وَبَعَثْتُهَا إِلَيْهِ، وَقُلْتُ: زِدْنَا سُؤَالَ، نَزِدْكَ نَوَالًا»^(٤). فالليث يقبض على معظم أجزاء فريسته، وذلك كناية عن الكثرة.

وفي قوله : «وَمَلَكْتُهُ سَوْرَةَ الْأَسَدِ، فَخَانَتْهُ أَرْضُ قَدَمِهِ، حَتَّى سَقَطَ لِيَدِهِ وَقَمِيهِ»^(٥)، المعنى أن رعبه من الأسد وهيبته له تملكاً عليه قلبه، فتراخت مفاصله، واضطربت أعضاؤه حتى ليخيل للرائي أن الأرض لم تثبت به، ومثل هذا في التعبير قولهم عند اشتداد الخوف: «سَاخَتْ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمِيهِ»، وقوله: «سَقَطَ لِيَدِهِ»

(١) المقامة (٣٦): الأرمينية، ص ٢٧٩. أردف الليل أعجازه : استتبعها، وجعل بعضها يتلو بعضاً، انظر: اللسان، مادة : ردف .

(٢) المقامة (٥): الكوفية، للهمداني، ص ٣١، الفتاء : طراءة السن وحدائته، العماية: احتجاب القلب عن إدراك صاحبه، انظر: اللسان ، مادة: فتى ، عمى .

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٣.

(٤) المقامة والصفحة نفسها، نوالاً: النوال : العطاء ، انظر: اللسان، مادة : نول.

(٥) المقامة (٦): الأسدية، للهمداني، ص ٣٨، السورة: الحدة، ومثلها السوار، انظر: اللسان،

مادة: سور.

وَفَمِيهِ: كناية عن انكبايه على وجهه. وفي قوله: «وَسِرُّنَا حَتَّى إِذَا ضَمِرْتِ الْمَزَادُ، وَنَفِدَ الزَّادُ أَوْ كَادَ يَدْرِكُهُ النَّفَادُ»^(١).

ومعنى ضمور قرية الماء: لصوق الجلد ببعضه كما يكون في هزال الحيوان لعدم وجود مايباعد بين بعضه وبعض، فهو كناية عن فقدان الماء، والمراد أنهم صاروا في حالة شديدة، وبذا يكون الهمداني قد عمد للرمز في كل ماسبق ليعظ، لكن هدفه من وراء ذلك الوعظ: الوصول إلى المال.

أما ابن نباتة، فعمد كغيره من كتاب المقامة إلى الرمز عن طريق الكناية كما في قوله: «وَقَدْ أَمَهَلْتُكُمْ حَتَّى يَتَهَلَّلَ ثَوْبُ الْيَوْمِ، وَيُقَارِبُ مَحَلَّ النَّوْمِ»^(٢) كناية عن الانتظار مدة كافية.

وفي قوله: «فَلَمَّا أَنْقَضَى الْأَجَلَ، وَقَدْ تَسَاوَى فِي عَدَمِ الْجَوَابِ الْبُطْءُ وَالْعَجَلُ»^(٣)، فكناية عن الصمت المطبق نتيجة لعدم المعرفة، ولذا رمز لذلك بالعبارة السابقة.

وفي قوله: «شَمَّرَ لِرَحِيلِهِ الدَّيْلَ»^(٤)، فالكلمة العربية الزاخرة بالمعاني جعلته يعتمد لذلك الرمز ويكفي عن الاستعداد، والتأهب للانطلاق في رحلته، بتلك الجملة.

وابن نايقا لجأ مثله إلى الرمز بالكناية من مثل قوله: «أَقْتَحَمَ مَنَازِلَ أَهْلِ الْبِلَى، وَسُكَّانَ الثَّرَى»^(٥)، فكنى بذلك عن قبور الموتى، ورمز لها بتلك العبارة.

وفي قوله: «كَشَفْتُ الظَّهِيرَةَ عَنْ سَاقِهَا»^(٦)، فرمز بذلك إلى الظهور، اذن فمعرفته بعمق المعاني؛ جعلته يسعى لاستخدامها.

(١) المقامة نفسها، ص ٣٩، الضمور: الهزال، المزاد: جمع مزادة: وهي قرية الماء، نفذ: فني، انظر:

اللسان، مادة: ضمير، زاد، نفذ.

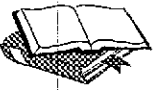
(٢) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٩ من المخطوط.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٠.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (٢): من المقامات العشر لابن نايقا، ص ٣.

(٦) المقامة (٣): من المقامات العشر لابن نايقا، ص ٦.



أما الرمز عند الحريري فنجده في المقامة الثالثة المسماة الدينارية^(١) قد وصف الدينار وصفاً دقيقاً رغبةً في الحصول عليه، وقد حصل بالفعل على الدينار الأول بعد مدحه إياه، وعلى الثاني بعد ذمه إياه، هذا المدح والذم للدينار والمفارقة بينهما أظهرت مزايا الدينار لمن ينعم بوجوده بين أصابعه، ومساوئه كذلك، فهل أراد الحريري بذلك وصف الدينار حقاً؟.

الدينار ما ذكر هنا إلا رمزاً، ليعظ به، فقد يمكن أن يكون نعمة على الإنسان، وعلى النقيض من ذلك فقد يكون نقمة أيضاً، وقد عقد الشريشي فصلاً في مدح الشيء وذمه، وقال: «و نريد أن نأتي بفصل في مدح الشيء وذمه على حكم مامدح الحريري الدينار وذمه، ونبين مذهب العرب وأهل الأدب في ذلك، فقد ألف ابن رشيق فيه كتاباً...»، وقال أبو عثمان الجاحظ: العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره، فإن ابتلي به فخر به، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به غيره، فافهم هذا؛ فإن الناس يغلطون على العرب، ويزعمون أنهم يمدحون بالشيء الذي يهجون به، وهذا باطل؛ ليس شيء إلا وله وجهان، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين.

قال ابن رشيق: وأكثر ما تجري هذه المادح والمذام على جهة المنافقة، لا على جهة المناصفة، ومن باب المسامحة لامن باب المشاححة، وإلا فالشيء لا يوافق ضده، فيكون الحسن قبيحاً في حالة واحدة، والمدح ذماً لمعنى واحد، لكن لكل شيء - كما ذكر الجاحظ - مساويء ومحاسن...»^(٢).

وقد رمز الحريري وكنى عن تغير الأحوال وذهاب المال قائلاً: «انظروا إلى مَنْ كَانَ ذَا نَدَىٍّ وَنَدَىٍّ، وَجِدَّةٍ وَجَدًّا، وَعَقَّارٌ وَقُرَى، وَمَقَارٌ وَقَيْرَى، فَمَا زَالَ بِهِ قَطُوبُ الْخَطُوبِ، وَحُرُوبُ الْكُرُوبِ، وَشَرُّرٌ شَرُّ الْحَسُودِ، وَأَنْتِيَابُ النَّوْبِ السُّودِ، حَتَّى صَفِيرَتِ الرَّاحَةُ، وَقَرَعَتِ السَّاحَةُ، وَغَارَ الْمُنْبَعُ، وَنَبَأَ الْمَرْبَعُ، وَأَقْوَى الْجَمْعُ، وَأَقْضَ الْمُضْجَعُ، وَاسْتَحَالَتِ الْحَالُ، وَأَعْوَلَ الْعِيَالُ، وَخَلَّتِ الْمَرَايِطُ، وَرَجِمَ الْغَابِطُ، وَأَوْدَى

(١) ص ١٣٢، ت: يوسف بقاعي.

(٢) شرح مقامات الحريري، للشريشي، ١٥٤/١.



النَّاطِقُ وَالصَّامِتُ، وَرَثَى لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ...»^(١) إلى آخر ذلك من الألفاظ التي كنى بها عن سوء حاله الذي بالغ في وصفه فقال: إنه ينعل بما لا ينتعل، ويغتذي بما ليس بغذاء، مما جعل الراوي بن همام يبرز ديناراً ليختبر مقره، وقال به: «إِنَّ مَدْحَتَهُ نَظْمًا، فَهَوَ لَكَ حُتْمًا»^(٢) فأنشد في الحال:

أَكْرِمَ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتِ صَفْرَتُهُ ** جَوَّابَ آفَاقٍ تَرَامَتِ سَفْرَتُهُ
مَأْثُورَةَ سَمِعَتَهُ وَسُهِرَتَهُ ** قَدْ أُوْدِعَتِ سِرَّ الْغِنَى أَسْرَتُهُ

فرمز إلى الدينار بالحال الذي يؤول إليه الإنسان متى كان هذا الدينار في قبضته فبه يسفر عن أخلاق الرجال، ومن ملكه ملك الغنى، وصال به على زمانه وينوب عن الإنسان في المضايق وينصره، وكم من غضبان شديد الغيظ، مثل حاكم يصول بصاحب جناية ويهدده، فإذا رشى بالدينار، وبعث إليه سرّاً أزال غضبه، وسكنت حدته، إذن هو بذلك رمز إلى المجتمع الذي كان يعيش فيه الحريري، وما يفعله الدينار في أفراده. هذا حين مدحه وكذا بين حالهم أيضاً حين ذمه قائلاً:

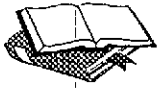
«تَبَّأَ لَهُ مِنْ حَادِعِ مُمَازِقِ ** أَصْفَرُ ذِي وَجْهَيْنِ كَالْمُنَافِقِ
يَبْدُو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الْوَامِقِ ** زِينَةَ مَعْشُوقٍ وَلَوْنِ عَاشِقِ
وَحُبَّهُ عِنْدَ ذَوِي الْحَقَائِقِ ** يَدْعُو إِلَى ارْتِكَابِ سُخْطِ الْخَالِقِ
لَوْلَاهُ لَمْ تَقْطَعْ يَمِينُ سَارِقِ ** وَلَا بَدَتْ مَظْلَمَةٌ مِنْ فَاسِقِ»^(٣)

والمسلم الحق من جعل الدينار يقربه إلى الله تعالى بما يعمل به من صدقة وعطف على الفقراء والمساكين، لا أن ينحرف وراء جمعه، فكلما ملك ديناراً حلم بجمع آخر حتى يتكدس لديه المال، وليرى من الدينار وجهه الحسن المتمثل في الإنفاق قربة إلى الله؛ لأن من يتقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه

(١) المقامة (٣): الدينارية، للحريري، ت: الشريشي، ١٣٢/١.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٣٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٤٩، المماذق: لا يصافي الود، الوامق: المحب، انظر: اللسان، مادة:



ذراعاً تقرب إليه باعاً... أو كما قال رسول الله ﷺ - عن ربه^(١)، ووصفه بوجهين؛ لأن النقوش تختلف على الوجهين، وقد وصف رسول الله ﷺ ذا الوجهين بأنه شر الناس، فقال: «شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»^(٢)، فالدينار له معنى في ظاهره غير مفسر به، وهذا هو مبعث الجمال في هذه المقامة لأن جمال الرمز قائم على عمقه، وعلى عظمة الفكر فيه غير أن الوضوح أيضاً أساسي ولكن «هذا الوضوح لا يتناقض مع ما في الرمز من إبهام منشؤه عمق الحالة النفسية المعبر عنها، وهو إبهام يعتمد المتلقي في كشفه على الحدس، ويزول تدريجياً مع التأنى والمعاودة»^(٣)، لذا فإن الرمز يحتاج في فهمه إلى التعمق والتأنى ومعاودة قراءته والتفكير فيه. «فالمرء لا يتذوق العمل الفني إلا إذا كان متأملاً ومشاركاً في الوقت نفسه»^(٤). وهذا ما يحققه الرمز ويوجده في قرائه فيصنع منهم شركاء للكاتب في خلق العمل الفني وإيجاده^(٥).

وقال الحريري في مقامة أخرى على لسان الراوي الحارث بن همام: «فَلَمَّا وَعَيْتَ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا، تَقَتُّ إِلَى أَنْ أَعْرَفَ عَيْنُهُمَا، فَلَمَّا لَاحَ ابْنُ ذُكَاءَ، وَالْحَفَّ الْجَوُّ الضِّيَاءَ...»^(٦). فيقال للصباح: ابن ذكاء؛ لأنه من ضوئها، وأراد أن الصباح غطى نواحي السماء بضوئه.

(١) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٧٤٠٥)، كتاب التوحيد، باب (١٥): قول الله تعالى (ويذكركم الله نفسه) وقوله جل ذكره (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) ٣٨٣/١٣. ومسلم تحت رقم (٢٦٧٥)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب (١)، الحث على ذكر الله تعالى، ٤/٢٦١، بنحوه. وابن ماجه عن أبي ذر - ﷺ -، كتاب الأدب، باب (٥٨)، ١٢٥٥/٢.

(٢) سبق تحريجه في ص، ٢٦٨.

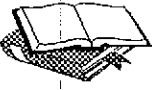
(٣) الرمز والرمزية، د. محمد فتوح أحمد، ص ٤٥، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٨ م.

(٤) الكناية في ضوء التفكير الرمزي، مخطوط رسالة ماجستير، بإشراف د. لطفي عبد البديع، ص ١٤٨ عن مشكلة الفن، د. زكريا إبراهيم، ص ٢٢٨، دار مصر للطباعة، القاهرة، وهو كذلك.

(٥) المرجع والصفحة نفسها.

(٦) المقامة (٤) من مقامات الحريري، شرح الشريشي، ١/١٧٢-١٧٣، ابن ذكاء: الصباح،

ذكاء: الشمس، انظر: اللسان، مادة: ذكاء.



ورمز إلى البلاغة بذكر سحبان في قوله: «سَمَرَتْ بِالْكُوفَةِ ... مَعَ رَفْقَةٍ غُدُوا بِلَبَّانِ الْبِيَّانِ، وَسَحَبُوا عَلَى سَحْبَانَ ذَيْلِ النَّسِيَّانِ»^(١).

ورمز إلى قصة موسى في قوله: «وَأَنَا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُوسَى، وَجِرَابِ كَفْؤَادِ أُمِّ مُوسَى»^(٢)، ليدلل على القلق الذي انتابه من جراء الجوع الذي ولد البؤس، وكذا كل رمز لجأ إليه الحريري وظفه؛ ليخدم بطل مقاماته، فما وعظه به إلا ليحصل على المال.

أما الرمز عند **الزمرخشي** فقد ظهر في مقامته الثالثة حين بين أن المشقة في الدنيا يعقبها نعيم دائم في الجنة، ولكن النفس توافقة إلى تنفيذ ماتشتهيه فإن فعل كان بذلك قد ترك الحق إلى الباطل، ولما أراد أن يعظنا بالأنا نسير في هذا الطريق لجأ إلى قوله: «أَيْنَ عِلَّتِكَ فِي أَنْ تَشْرُدَ شُرَادَ الظُّلِيمِ عَن رِضْوَانِ اللَّهِ وَدَارِ النِّعِيمِ، هَيْهَاتَ لَأَعْدَرَ وَلَا عِلَّةَ ... أَيُّهَا الْعَاقِلُ لَا يُعْجِبَنَّكَ هَذَا الْمَاءَ وَالرُّوْتَقِ فَإِنَّهُ صَفْوٌ مَخْبُؤٌ تَحْتَهُ الرَّنْقُ»^(٣).

فحين أراد أن يحثنا على التمسك بالرضوان وعدم الشرود منه، رمز لذلك بذكر شراد الظليم وهو ذكر النعام فيقال: «أشرد من ظليم» للدلالة على الجبن، ولما أراد وعظنا بعدم الاغترار بالدنيا والحياة فيها، رمز إلى ذلك بـ«الماء» فأراد بالماء البهاء ومنه ماء السيف لفرنده وهو مستعار من الماء المشروب، وهذا مثل لزهرة الدنيا وزخارفها.

وفي مقامته الخامسة حث على التزود بالعمل الصالح من الدنيا، وكنى عن الذي يخرج منها (الدنيا) بدون زاد للآخرة بعبارتين هما قوله: «وَلَيْسَ فِي مِرْوَدِكَ كَفٌّ سَوِيْقٍ يَفْتَأُ مِنْ سَوْرَةِ طَوَاكٍ، وَلَا فِي أَدْوَاتِكَ جُرْعَةٌ مَاءٍ تُطْفِي مِنْ وَقْدَةِ صَدَاكَ»^(٤).

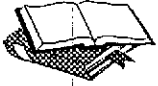
فلم يقصد بذلك حقيقة ما ذكر: فليس المقصود طعام السويق، ولا المقصود جرعة الماء إنما أراد أن يكني بهما عن الشيء القليل، وكعادة الزمرخشي في مقاماته معظمها إن لم تكن كلها يحذر من الدنيا ورمز لذلك بقوله: غدارة، غرارة، ختالة، ختارة، حتى تتعظ النفس ولا تنسى أنها كمسمياتها، ووصفها فهي غدارة غرارة.

(١) المقامة (٥) من مقامات الحريري، شرح الشريشي، ١/١٨٩.

(٢) المقامة نفسها، ١/٢٠٢.

(٣) مقامة الرضوان للزمرخشي، ص ٢٤.

(٤) مقامة الزاد، للزمرخشي، ص ٣٢.



أما مقامته السادسة ففيها وصف دقيق للدنيا قصد من وراء ذلك الوعظ ليزهد فيها، ثم بين كيفية الخلاص من مغرياتها، ولا يكون ذلك إلا المعتصم بالله، واستعمل ليصل إلى الغرض من وراء وعظه ذلك طرقاً عدة منها :

حين أراد التذكير بأن الدنيا لا تدوم أبداً وصفها بكلمة الفانية في قوله: «مَالِكٌ لا ترفضُ هذه الفانية رَفْضاً. ولا تَنْفُضُ يدِيكَ عَنْ طَلِبِهَا نَفْضاً»^(١)، ورمز لها بكلمة أم الغرور، فقال: «... تَرَجَّتْ لِمِ الدُّنْيَا وَتَزِينَتْ بِأَبْهَجِ زِينَتِهَا، وَتَحَلَّتْ بِأَبْهَى حَلِيَّتِهَا... لم يذهب عليهم أنها أم الغرور لا أم السرور، وأنها إذا تبخّرت حيرت...»^(٢). ويزيد في التنفير منها قال: «وَلَوْ لَا اسْتِجَابُهَا أَنْ تَكُونَ مَرْفُوضَةً، لَوَزَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»^(٣). مشيراً بذلك لقوله - ﷺ - : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضةٍ ماسقى كافراً منها شربة ماء»^(٤).

وإمعاناً منه في الحث على عدم الركون إليها قال عنها : «شَهْدُهَا مَشْفُوعٌ بِإِبْرِ النَّخْلِ ... اذْكَرُ المِرواني وَمَا مَنِي بِهِ مِنْ خُطْبَةٍ عَلَى رَأْسِهِ مَصْبُوبَةٌ. حِينَ غُصَّتْ بِحَبَّةِ الرِّمَانِ حَبَابَتَهُ المِجْبُوبَةَ»^(٥).

فحين ذكر المرواني وهو يزيد بن عبد الملك بن مروان وقصته مع جازيته حباية التي غصت بحبة رمان، فهو لم يذكرها اعتباراً إنما أراد أن يرمز لنا ما وراء القصة من دلالة تاريخية، ودلالاتها أن الدنيا لا تصفو لبشر يوماً حتى من يملك المال والجاه والسلطة عليه أن يتيقن أن مافيها زائل ... زائل .

ومن أقوال الزمخشري فيها : «أنتَ بينَ أمرينَ لذةٌ ساعةٌ بَعْدَهَا قَرْعُ السَّنِّ، والسَّقُوطُ فِي اليَدِ»^(٦).

(١) مقامة الزهد، للزمخشري، ص ٣٣.

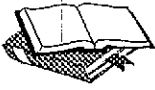
(٢) المقامة (٣٥): الأسوة للزمخشري، ص ١٧٢.

(٣) مقامة الزهد، للزمخشري، ص ٣٣.

(٤) سبق تخريجه، ص ٢٨ .

(٥) المقامة (٦) الزهد، للزمخشري، ص ٣٤-٣٥.

(٦) المقامة (٣): الرضوان، ص ٢٣.



فيقال للنادم، قرع سنه وسقط في يده، وأكل كفه، وعض أنامله وبنانه، من باب الكناية لأنه يرادف الندم.

وكذا في قوله: «وَلَهَزَ الْقَتِيرُ لِدَاتِكَ»^(١).

وهذا الكلام من باب الكناية؛ لأنه إذا شاب أقرانه في السن فهو من الشيب.

وفي قوله: «نُصِبَتْ لَكَ غَايَةٌ فَتَجَشَّمْ فِي ابْتِدَارِهَا النَّصْبَ، وَأَخْرِزْ قَبْلَ أَنْ يُحْرِزَ غَيْرُكَ الْقَصَبَ»^(٢).

فذكر الرمحشري القصب: وذلك حين كانوا يغرزون في رأس الغاية التي يجري نحوها قصبه فمن سبق أخذها، فلذلك قالوا للسابق: أحرز القصبه، واستولى على القصبه، وهو من باب الكناية.

وفي قوله: «وَتَضِبُّ لِكُلِّ مُتَمَيِّنٍ لِيَأْتَهُ»^(٣). ضب لثاته لكذا: كناية عن الشره إليه والحرص عليه، يقال: جاء تضب لثاته.

وقوله: «وَلَا يَهْمُكَ إِلَّا دَنَسٌ رَدْنِيكَ وَجَيْبُكَ»^(٤). أريد بدنس الثوب تلطخ النفس بالعيب، وخص الجيب والردن لأنهما أول ما يتدنس، وإنما كنى عن دنس النفس بدنس الثوب؛ لاشتماله عليها، والتباسه بها، وكما يقال: الكرم في برده والجدود تحت جلده.

وفي مقامة أخرى كنى الدنيا بعبارتي «أَمِ السُّرُورِ» و «أَمِ الْغُرُورِ»^(٥).

وكنى الموت بـ «أَمِ قَشْعَمٍ» لوقوع النسور على القتلى، والقشع المسمن من النسور في قوله: «وَشَكْلَانِ عِنْدَهُ قَشْعَمِ الطَّيْرِ وَفَرَحُهَا»^(٦).

(١) المقامة (٧): الإنابة، ص ٥٣، القتير: رؤوس المسامير، اللدة: من ولد كالعدة من وعد، ثم

قيل لدة الرجل طن وافق ميلاده ميلاده، تسمية بالمصدر. انظر: اللسان، مادة: قتل، لده.

(٢) المقامة (١٤): الاستقامة، ص ٨٢، النصب: التعب، انظر: اللسان، مادة: نصب.

(٣) المقامة (١٦): القناعة، ص ٩٣.

(٤) المقامة (١٩): العزلة، ص ١١٠.

(٥) المقامة (٣٥): الأسوة، ص ٢١١.

(٦) المقامة (٣٨): الموت، ص ٢٢٣.



وكذا في قوله : «وإن استطير صاحبك ، وثار ثائرُه ، فوَّله منك ساكناً طائرُه»^(١). فسكون الطير كناية عن الطمأنينة، لأن الطائر ينفر من أدنى حس، ولا يقرب إلا على ما لا يسترىب به.

استدعاء الشخصيات الذاتية من القرآن والتاريخ :

يلجأ الزمخشري للرمز ذي الدلالة التاريخية، ليرمز بها ويوظفها في وعظه ليس في هذه المقامة فحسب، حين استدعى شخصية المرواني بل نراه في مقامته المسماة القناعة، يعود إليه مرة أخرى، لكنه يرمز هاهنا عن طريق القصة، قصة قارون، فالإنسان كل مانال مالاً، أو جاهاً، أو سلطة طمع في النيل أكثر، وطلب أزود، ولا يقنع بما رزقه الله إياه، ويشكره على ما أولاه من النعم، يقول الزمخشري: « ثُمَّ إِنَّهُ مَعَ أَنْ يَسَارَهُ لَا يَفْضُلُهُ يَسَارَ، وَلَا يَضْبَطُ حَسْبَانَ مَا يَمْلِكُ يَمِينٌ وَلَا يَسَارٌ... مَفَاتِحُهُ لَا تَتَوَّءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ، عَلَى أَنَّهُ أَوْفَرَ مِنْ قَارُونَ سَعَةً وَثَرَوَةً»^(٢).

فما الذي يرمز إليه حين أشار إلى قصة قارون؟

ما ذلك إلا ليدلل على أن الإنسان مهما وصل إلى أعلى المراتب، وأصبح غنياً بل زاد في غناه بما يملكه على ثروة قارون، لا يقنع و«لَيْسَ لَهُ إِذْنٌ حَدُّ يَنْتَهِي إِلَى مَطْلَبِهِ، وَلَا أَمَدٌ يَتَوَقَّفُ وَرَاءَ مَرْغَبِهِ»^(٣).

فأين العظة هنا؟ تكمن وراء القناعة و«الْقَانِعُ قَدْ قَدَّرَ مَبْلَغَ حَاجَتِهِ وَبَيَّنَّهُ، وَمِثْلُ مِقْدَارِ إِرْبِهِ وَعَيْنَتُهُ»^(٤). فالقناعة .. القناعة .. لكن تيقن الزمخشري بأن الإنسان الجاهل يظن أن ماله من صنع نفسه، جعله يعود مرة أخرى، وفي مقامة أخرى ليرمز عن هذا الجاهل بقصة قارون فقال: «مَنْ يَعْمَلُ مَا يُوجِبُ عُقُوبَةَ قَارُونَ لَمْ يَأْمَلْ مَثُوبَةَ مُوسَى

(١) المقامة (٤١): التماسك، ص ٢٤٢.

(٢) مقامة (١٦): القناعة، للزمخشري، ص ٧٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ٧٦.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

وهارون))^(١)، عقوبة قارون متمثلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ....»^(٢).

ويستمر الزمخشري في وعظه عن طريق الرمز ذي الدلالة التاريخية، ولكنه هنا في مقامة «القناعة» حين ذكر الضعيف القانع بحاله إذا أطفأ حدة جوعه فكأنه «حَازَ النَّعِيمَ بِحَدَائِرِهِ وَأَصْبَحَ أَثْرَى مِنَ النَّعْمَانِ بَعْصَافِيرِهِ»^(٣).

فقوله : أثنى من النعمان : أي أغنى منه، وعصافير النعمان: إبل آدم كانت له وقد أجاز النابغة بمائة منها بريشها، وورعاتها، وكلبها، وطمعيتها، حين أنشده عينيته في اعتذاره إليه، وهي من نتائج فحل اسمه عصفور وكأنه سماه عصفوراً؛ تفاعلاً ليكثر نتاجه، فإن العصفور سفاد نشور، وكانت للنعمان أربعة فحول: عصفور وداعر وشاغر وذو الكليتين^(٤).

واستعمل الرمز نفسه في مقامة أخرى للدلالة أخرى فقال : «يَا أَبَا الْقَاسِمِ ضُرُوبُ السَّخَاءِ جَمَّةٌ ... وَلَيْسَ السَّخَاءُ ... أَنْ يَتَلَقَى الضَّيْفُ بِكُوسِ الْعَقِيرِ ... وَيَجَازِ زِيَادَ الْبَرِيَّاتِ مِنَ الصَّدْفِ النَّعْمَانِيَةِ»^(٥).

فهو هنا يحث على التصدق وأخرج مافعله النعمان مع النابغة باعطائه تلك النوق من دائرة السخاء. فالتصدق إنما يكون كما قال : «تُصِيبُ بِهَا عِبَادَهُ الَّذِينَ إِنَّمَا اسْتَقْرَضَكَ مِنْ أَجْلِهِمْ وَنَبَّهَكَ بِذَلِكَ عَلَى نِبَاهَةِ فَضْلِهِمْ وَتَعَمَّدَ بِهَا الْمُتَعَفِّينَ. وَلَا تَرُزَأُ

(١) المقامة (٣٦): النصح للزمخشري، ص ١٧٥.

(٢) سورة القصص، من آية ٧٦-٨١.

(٣) المقامة (١٦): ص ٧٧.

(٤) انظر الهامش ص، ٧٧.

(٥) المقامة (٣٣): التصدق للزمخشري، ص ١٦٠-١٦١، الكوس : أن يعرقب البعير فيمشى

على ثلاث، انظر: اللسان، مادة: كوس.

نَصِيبَ الْمُتَكَفِّينَ»^(١).

ويستمر الزمخشري على رمزه بالدلالات التاريخية، ويستدعي الشخصيات، حيث يرمز بقصة فرعون وتشبيده لذي الأوتاد؛ ليتعظ من يسير سيرته في أن العاقبة الوخيمة هي خاتمته، فيقول في مقامته (٢٠): «يَكْفِيكَ مِنَ الرَّوَاقِ الْمُرْخَرَفِ وَبَسَاطِهِ الْمَوْشَى. كُنْ كَأَنَّهُ كَنَاسُ الْوَحْشِيِّ يَسْعُ الْفَقِيرَ وَمَا يَضْلِحُهُ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ... لَعَمْرِكَ إِنَّ مَاتِرَمَةَ الْوَرَقَاءِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَعْوَادٍ. وَمَا شَيْدَهُ فِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ سَيَّانَ عِنْدَ مَنْ فَكَرَ فِي الْعَوَاقِبِ»^(٢).

وقصة فرعون ذكرت في القرآن الكريم باللفظ نفسه الذي استعمله الزمخشري هنا في قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾^(٤).

وذكر فرعون مصاحباً بقوله ذي الأوتاد لأنه كما قال الطبري: «عنى بذلك الأوتاد التي توتد من خشب كانت أو حديد ... ووصف بذلك لأنه إما أن يكون كان يعذب الناس بها ... وإما أن يكون يلعب بها، فأكثروا في البلاط المعاصي، وركوب ما حرم الله عليهم، فصب عليهم ربك سوط عذاب. قال العذاب الذي عذبهم به سماه سوط عذاب»^(٥).

فالزمخشري أراد أن هذه العاقبة هي عاقبة كل عاصٍ، مرتكب لما حرم الله فليتعظ من فكر أن يسير في هذا الطريق، فتلك هي العاقبة والخاتمة.

وها هو ذا يكمل في المقامة نفسها قوله: «وإن أردت التزيين من الثياب بأشنانها ومن الحلل بحسناتها، فأين أنت من الحلة التي لا يعبأ لا يسها بنسيج الذهب على عطفى

(١) المقامة نفسها، ص ١٦٣.

(٢) العفة، ص ١٠١.

(٣) سورة ص، آية ١٢-١٤.

(٤) سورة الفجر، آية ١٠-١٣.

(٥) جامع البيان، ٣٠/١١٤-١١٥، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

بعض الملوك. وكأنه في عينه سحق عباءة على كتفي صعلوك. وماهي إلا لباس التقوى الذي هو اللباس. لباس تلقى فيه الله وتلقى فيما سواه الناس... وتذكر ما بلغك من قول الحسن. وما جرى له من الحسنة في الثوب الحسن. وما سجد من العبرة. ووجم عليه من العبرة. وأما المقرط فخله لإخوان الفئة المشركة. هم أصحاب المؤتفكة^(١).

فما ذكر قصة الحسن مع الحسناء؛ إلا ليذكر ويعظ الناس بأن التزين بلباس التقوى هو الأجدى، والأبقى فهذا الحسن البصري - رحمه الله - يروي أنه مر على قبر جديد، وعنده امرأة حسنة في أحسن اللباس تبكي عليه، فوقف متعجباً من حالها، فسألها؟ فقالت: هذا زوجي، وما كان أحد أحب إليه مني ولا لباس يراني فيه أحب إليه من هذا اللباس، فقلت أزور حبيبي في أحب اللباس إليه، فانتزع الحسن العبرة من كلامها وغشى عليه، فعكفت عليه المارة حتى أفاق^(٢).

أما المطرطق فخله لإخوان الفئة المشركة وهم أصحاب المؤتفكة: من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾^(٣). (أي جاء من قبل فرعون من الأمم المكذبة بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط بالخطيئة، وقوله والمؤتفكات بالخطيئة يقول والقرى التي أتفتكت بأهلها فصار عاليها سافلها بالخطيئة يعني الخطيئة، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾^(٤) قال أهواها من السماء رمى بهم من السماء أوحى الله إلى جبريل عليه السلام فاقتلعها من الأرض ربضها ومدينتها ثم هوى بها إلى السماء ثم قلبهم إلى الأرض...^(٥).

ونسير مع الزمخشري في مقامة أخرى فنراه يعظ مبيناً كيفية موالاته الأصدقاء وذلك؛ بحجة من يحب، ومعاداة من يعاديه، وأما المقياس فهو حبه لله تعالى، أما البعيد عن رضى الله فالبعد عنه أولى، وذكر قصة حاطب ابن أبي بلتعة رمزاً لكل من يوالي

(١) المقامة نفسها، ص ١٠٣-١٠٤، سحق: خلق، سجمه: أساله، يصمك: يعيبك، انظر:

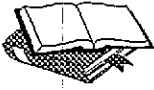
اللسان، مادة: سحق، سجم، صم.

(٢) انظر: هامش، ص ١٠٣.

(٣) سورة الحاقة، آية ٩.

(٤) سورة النجم، آية ٥٣.

(٥) جامع البيان، ١٩/٣٣-٣٤.



غير الله فقال : « ثُمَّ أَنْظِرْنِي أَيَّ مَنزِلَةٍ مِنَ اللَّهِ يَرَاكَ . وَبِأَيِّ صِفَةٍ يَصِفُكَ مَنْ ذَرَاكَ . إِنْ وَآلَيْتَ مَنْ لَيْسَ لِرَبِّكَ لَوْلِي . أَوْ صَافَيْتَ مَنْ لَيْسَ لِلْأَوْلِيَاءِ بِصِفِي ... وَلِيَكُنْ مِنْكَ عَلَيَّ بِأَلِّ مَا نَقَمَ اللَّهُ مِنْ حَاطِبٍ . وَمَا كَادَ يَقَعُ بِهِ مِنَ الْمَعَاطِبِ »^(١).

فالزخشي أراد أن يرمز من وراء تلك القصة إلى من يوالي الله ورسوله ثم يتوانى ويوليها لغيرهما، فلينتظر عاقبة كعاقبة حاطب.

ولما أراد الزخشي أن يحث على العمل لجأ لضروب شتى منها ضرب المثل؛ ليعظ عن طريقه فيحتاط الإنسان، ولا يقع فيما وقع فيه أصحاب تلك الأمثال كقوله: «فَلَيْسُمِرِ السَّمَارُ بِهِ وَبِدِقَّةِ تَصْرِيفِهِ، لَا يَسْنِمَارٌ وَغَرَايَةَ تَرْصِيفِهِ»^(٢).

فسنمار من الروم وكان بناءً مجيداً هو الذي بنى الخورنق للنعمان فلما أتمه رقى به معه ليريه صنعته، فتعجب من مهارته في عمله وتنقيته في بنائه فقال له: أيها الملك أعجب من هذا كله أني أعرف في هذا البناء حجراً إن نزع تززع كله، فخاف أن يطلع بعض أعدائه على مكان الحجر وقيل غار أن يتنى لغيره مثله. فأمر فرمي به من رأس الخورنق فهلك. فضرب جزاء سنمار مثلاً في عقوبة المحسن، وقيل السنمار في

(١) مقامة (٢٢) : الولاية ، للزخشي، ص ١١٢-١١٣، حاطب: حاطب بن أبي بلتعة، الذي

أراد عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه لنفاقه. فقال رسول الله ﷺ «يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

رواه البخاري في فتح الباري (٦٠٥٨)، كتاب المغازي، باب (٤٦): غزوة الفتح، وما بعث

به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ -، ١٥٩/٧، وأحمد في مسنده،

٨٠/١، ١٠٥، ١٠٩/٢، ٢٢٥، ٣٥٠/٣.

ونزلت سورة الممتحنة في شأنه. انظر: أسباب النزول، للنيسابوري، عالم الكتب، بيروت،

ص ٣١٤-٣١٦، واسم أبي بلتعة عمرو بن عمير بن سلمه وكنيته أبو عبد الله مات وعمره

٦٥، انظر ترجمته: أسد الغابة لابن الأثير، ٣٦٢/١، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

المعاطب: المهالك، انظر: اللسان، مادة: عطب.

(٢) المقامة (٢٥): العمل، للزخشي، ص ١٢٢-١٢٣.



كلام العرب الذي لاينام بالليل، والسنمار اللص وكأنه من السمر والنون مزيدة. والمقصود به هنا، الرجل الذي ضرب به المثل^(١).

وضرب مثلاً آخر في قوله : « أَوْ الْقَوَائِي فإِبْدَاعُهُ فِيهَا يَلْقَطُكَ ثَمَرَاتِ الْغُرَابِ. وَإِغْرَابُهُ فِيهَا يَخْتُو التُّرَابَ فِي وَجْهِهِ أَهْلُ الْإِغْرَابِ. أَوْ الشُّعْرُ فزِيَادُهُ وَحَسَانُهُ... وَلَوْ سَمِعَ قَوْلُ قَائِلٍ مِنْ صُحْبَانِيهِ سُحْبَانَ بْنِ وَائِلٍ لَا سَتَقْبَلُ مِنَ الدَّهْشِ... إِنْ عِلْمًا يَلَا عَمَلٍ كَقَوْسٍ يَلَا وَتَرٍ حَامِلِهَا حَيْرَانٌ مَرَّتِيكَ فِي الْعَمَايَةِ. لَا يَهْتَدِي وَإِنْ كَانَ ابْنٌ يَقْنُ إِلَى وَجْهِ الرَّمَايَةِ... أَغْدُ عَاقِدًا بَيْنَ عِلْمِكَ وَعَمَلِكَ صَهْرًا وَسُقَى إِلَى الْعَمَلِ مِنْ اجْتِهَادِكَ مَهْرًا»^(٢).

فقوله : ثمرات الغراب : فهو مثل في الطيب المنتقى؛ لأنه لا يأكل من الثمر إلا أعلاه وأينعه، أراد أن قوافيه منتقاه من إمامه بالشعر الذي أشار أنه فيه زياد وهو: النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت وفي البلاغة هو : سحبان بن وائل المعروف بها... كل تلك المعارف والعلوم لو كنت ملماً بها لن تنفعك ما لم تعمل بها لأن العلم بلا عمل كالقوس بلا وتر تورط حاملها بها رغم معرفته بالرماية التي رمز لها بقوله: وإن كان ابن تقن: وهذا هو عمرو بن تقن ضربت به العرب المثل في جودة الرمي. فقالوا: «أَرَمَى مِنْ ابْنِ يَقْنٍ»^(٣).

إذن كل تلك الأمثال استعملها رموزاً ليصل إلى مبتغاه من وراء وعظه، وهو الحث على العمل بما تملك من علم.

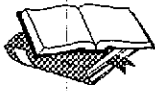
ويقول الزمخشري في مقامته (٣٨): «يَأْبَا الْقَاسِمَ لَقَدْ صَحِبْتَ طَوِيلًا رِجَالَاتِ قَوْمِكَ. وَكَأَنَّكَ رَأَيْتَ خَيَالَاتٍ فِي نَوْمِكَ تَلْقَطْتَهُمْ أَيْدِي الْمُنُونِ فُرَادَى وَمِثْلَى... أَيْنَ

(١) انظر كتاب الأمثال، ابن سلام، ص ٢٧٣، ت: د. عبدالمجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط(١)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م

(٢) المقامة نفسها، ص ١٢٣-١٢٦.

(٣) انظر: كتاب الأمثال، ابن سلام، ص ٣٦٩، ومجمع الأمثال، الميداني، ٣١٥/١، ت: محمد يحيى

الدين عبدالحميد، دار القلم، بيروت، لبنان.



جَدُّكَ بَعْدَمَا حَلَبَ أَشْطَرُ الزَّمَانِ . وَجَمَعَ هُنَيْدَةَ نَصْرُ بْنُ دَهْمَانَ . وَكُلُّ مَنْ نَفَسَ لَهُ
وَعَمَرَ أَدْرَكَهُ سَيِّئَانِ الْمَوْتِ فَدَمَّرَ. أراد أن يعظ بالموت هنا فلجأ إلى رموز منها : -

- حلب أشطر الزمان : فحلب الدهر أشطره: مثل في الرجل المنجد الذي
مارس الأمور وذاق أحوال الدهر وخبرها. مثل الدهر بالحلوب وجعل كأنه حلب
جميع أخلافها الأربعة القادمين والآخرين لم يترك منها، والمعنى حلب شطري أخلافه
وزاد حلب شطر ثالث وذلك ما لا يكون ولكن قصدت المبالغة في استقصاء الحلوب
ونحوه.

- وجمع هنيذة نصر بن دهمان : بمعنى وعاش مائة سنة وهو مقتبس من قول
الشاعر:

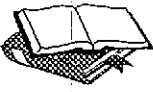
((وَنَصْرُ بْنُ دَهْمَانَ الْهَيْدَةَ عَاشَهَا ** وَخَمْسِينَ عَامًا ثُمَّ قَوْمَ فَانُصَاتَا
وَعَادَ سَوَادُ الرَّأْسِ بَعْدَ بَيَاضِهِ ** وَعَاوَدَهُ شَرِّخُ الشَّبَابِ الَّذِي فَاتَا
وَرَجَعَ عِلْمًا بَعْدَ جَهْلِ وَحِكْمَةٍ ** وَلَكِنَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَا كُلِّهِ مَاتَا))^(١)

وهنيذة اسم للمائة من الإبل، كما أن أمامة اسم للثمانين منها. فاستعارها
للمائة من السنين وهي الاستعارة اللفظية استعمل تلك الرموز؛ ليدل أن الإنسان
سواء المحنك الذي خبر الزمان، أو الرجل الذي عمر طويلاً فالنهاية هي الموت،
ولا واعظ كالموت الذي لا يترك الصغير، ولا الكبير، وقد كنى الموت بـ«أم قشعم»
وأشار إلى ذلك في قوله الزمخشري: «سَيِّئَانِ عِنْدَ الْمَوْتِ شَيْخُ الْقَوْمِ وَشَرِّخُهَا،
وَشَكْلَانِ عِنْدَهُ قَشْعَمُ الطَّيْرِ وَفَرِّخُهَا، وَلَا يَتَخَطَّى مُحَدَّثًا لِيَعْرِجَ عَلَى مَعْمَرٍ ... بَلْ
يَسُوقُهُمَا يَسَوِّطٍ وَاحِدٍ...»^(٢).

كنى الموت بـ«أم قشعم» لوقوع النسور على القتلى، والمحدث: الصادق
الحلس. كأنما يحدث بالكائن قبل كونه، وعن النبي - ﷺ -: «إِن فِي كُلِّ أُمَّةٍ مُحَدِّثِينَ

(١) انظر: هامش، ص ١٨٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ١٨٤، القشعم: المسن من النسور، انظر: اللسان، مادة: قشعم.



وإن عمر منهم^(١). كما قال: «إن السكينة تنطق عن لسان عمر»^(٢).

ويستمر الزمخشري في وعظه قائلاً: «أَيِّنَ مَنْ انْتَضَيْتَ مِنْ صُلْبِهِ، ثُمَّ أَعْمَدَكَ الْهَوَى فِي قَلْبِهِ، فَكُنْتَ أَحْصَى بِفَوَادِهِ مِنْ سَوَادِهِ ... أَبَاكَ وَأَبِي إِلَّا كُلُّ خَيْرٍ لَكَ وَفَيْكَ. وَرَبَّكَ وَحَبَاكَ مَا قَدِرَ عَلَيْهِ مِنْ مَبَاغِيكَ ... وَلَقَّحَ ذَهْنَكَ بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ تَلْقِيحاً. اخْتَلَسَهُ الْحَمَامُ قَبْلَ أَنْ يُخْلَسَ عَارِضُهُ، وَهَيَّجَ قَبْلُ أَنْ يَهَيَّجَ بَارِضُهُ ... تَقْدَمُوكَ فَرَاطاً إِلَى وَرْدٍ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ وَارِدُهُ ... مَا هُوَ إِلَّا الْعَطَشُ الْقَاتِلُ دُونَ الرَّيِّ. وَإِنْ تَطَايَرَ إِلَيْهِ الْوَرَادُ كَالْقَطَا الْكُدْرِيِّ. وَهَا أَنْتَ لِأَعْقَابِهِمْ وَاطٍ. وَعَلَى آثَارِهِمْ خَاطٍ»^(٣).

يريد : أن فكر أين والدك، وأعمامك وأخوالك من العشيرة لقد تقدموك أي سبقوك واختلسهم الموت، وأنت ستلقى المصير نفسه فأنت لأعقابهم واط، وأما في قوله : «وإن تطاير إليه الوراد كالقطا الكدري».

القطاة : لم ترد اسم نفسها، ولكن الناس سموها بالحروف التي تخرج من فيها^(٤)، صوتت وحدها قطا قطا، وقطا: ثقل مشيه، والماشي قارب في مشيه^(٥). تقول العرب : «أصدق من قطاة» وصدقها أن لها صوتا واحداً لاغيره، وصوتها حكاية لاسمها تقول : قطا قطا^(٦).

(١) رواه البخاري في فتح الباري رقم (٣٦٨٩)، كتاب فضائل الصحابة، باب (٦): مناقب عمرو بن الخطاب - رضي الله عنه، ٤٠/٧، ولفظ الحديث: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن في أمي أحد فإنه عمر». ومسلم (٢٣٨٩) في فضائل الصحابة، باب (٢): من فضائل عمر - رضي الله عنه، ١٨٦/٤، ولفظه: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم». والترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - تحت رقم (٣٦٩٣)، كتاب المناقب، باب ١٨، ٦٢٢/٥.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ١٠٦/١.

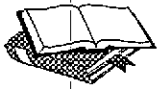
(٣) المقامة نفسها، ص ١٨٥-١٨٦.

(٤) الحيوان، للجاحظ، ٥٧٩/٥، ت: عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة: قطا.

(٦) الحيوان، للجاحظ، ٥٧٩/٥، عن: أمثال الميداني، ٣٨٦/١، وهو ليس كذلك بل في

٤١٢/١، طبعة دار القلم، بيروت، ت: محمد مجي الدين عبدالحميد.



و«أهدى من قطاة»: أهدى، من الهداية، وذلك أنها تهتدي في الجاهل وتعرف مواضع الماء، وتقول العرب أيضاً: «أنسب من قطاة» لأنها تنتسب حين تصوت باسم نفسها^(١).

والزخشري رمز بالقطا لأن الإنسان لا يزور الموت بل هو المزور وبعد موته ما في دنياه إلا عمله الصالح، فالإنسان يظل يعمل في حياته إلى أن يجين أجله كالقطا الذي يمشي بتثاقل.

ورمز بالحيوان في مقامة أخرى حين قال: «ياأبا القاسم العجب منك تعمل عمل الشرار، وتأمل آمال الأبرار.. ستعلم عند معايرة الأعمال ومثاقيلها... أن عمالك من الخافية في مهبّ الرّيح أخف، ومن لاشيء في العدي أطف. أطمع من أشعب، وأحقق من تيس أشعب، من يعمل ما يوجب عقوبة قارون. لم يامل مثوبة موسى وهارون»^(٢).

فقد رمز بتيس أشعب ليدل على غباوته، فالعرب تقول: «ماهو إلا تيس في سفينة» إذا أرادوا به الغباوة. و«ماهو إلا تيس» إذا أرادوا به نتن الريح^(٣).

وفي المقامة نفسها رمز بحيوان آخر: هو الفيل فقال: «لاتزال تتحامل عليها (النفس) وتحمّلها ثقال الخيطيات والأوزار إلا أنك إذ استحملت الطاعة قلت ضعيف لا يقوى على هذه الأوقار. فأنت عاصياً أقوى قوة من الفيل. ومحمولاً على الطاعة أضعف من رأي الفيل»^(٤).

ذكر الفيل هنا ليرمز إلى قوته^(٥)، أما كلمة فيل الثانية فهي من قوله: فأل رأيه يفيل فيولة وفيلة: أخطأ وضعف^(٦)، فالزخشري حين رمز بتلك الحيوانات، يعرف مدلولاتها المعنوية، لذا وعظ بها..

(١) الحيوان، للجاحظ، ٥/٥٧٩، عن: ثمار القلوب ٣٨١-٣٨٢.

(٢) مقامة (٣٦): النصح، للزخشري، ص ١٧٥.

(٣) الحيوان للجاحظ، ٢/١٥٠.

(٤) ص ١٧٦.

(٥) الحيوان، للجاحظ، ٧/٦٥، ١٠٥، ١٣٨، ١٧٨.

(٦) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة: فأل.

أما الأسواني فنجد الرمز عن طريق الكناية لديه قليلاً جداً، بل لا يكاد يذكر إلا في موضعين كقوله: «طالَتْ بِه مَدَّة الانتظارِ وَضَوْجَ بَيْتِ النَّهَارِ»^(١)، فكنى عن طول الانتظار، والتملل منه بذلك.

وكقوله: «فَأَلْفَيْتَاهُ قَدْ اتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا»^(٢)، كناية عن الركوب والانطلاق في جنح الظلام، وفي ذلك دلالة على درايته بمعاني العربية ورموزها.

أما ابن الجوزي فيدرك قيمة الرمز حتى جعل بطله أبا التقويم رمزاً للعقل الذي يكون له الحكم حين النظر في الكون والطبيعة، وقد قيل: «ولما كان ابن الجوزي يعظم شأن العقل تعظيماً كبيراً، ويوليه عناية خاصة، دفعه هذا الأمر إلى أن يجعل العقل بطلاً لمقاماته، ورمز له «بأبي التقويم» لأنه وحده قد أبى التقويم فهو معتدل بنفسه لا يحميد ولا يزل، ولا يميل لهوى ولا ينجح لحيف، فأحكامه صائبة دائماً، وآراؤه موفقة أبداً»^(٣).

ومن أمثلة لجوئه للرمزية في مقاماته واستدعاء الشخصيات الذاتية قوله: «أَيِّنَ مَنْ لَعِبَ وَهَلَا، وَكَسِبَ الْهَوَى وَهَلَا، وَجَدَّ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَهَلَا، مَضَى الْعَمْرَانِ، وَذَهَبَ الزَّهْدِمَانِ، وَتَلَفَ الْأَخْوَصَانَ، فَأَيِّنَ الْعَامِرِينَ، أَلْهَاهُمُ الْحِجْرَانِ، وَغَرَّهَمُ صَفْرَانِ، وَأَبْطَرَهُمُ الْأَحْمَرَانِ. وَسَرَّهَمُ الْأَهْيَعَانِ، فَأَبْلَاهُمُ الْمَلَوَانِ، وَصَرَّعَهُمُ الصَّرْعَانِ»^(٤).

وأراد بـ«العمرين»: عمرو بن جابر، وبدر بن عمرو، وأما الزهدمان فهما: زهدم وقيس، والأخوصان: الأخوص بن جعفر، وعمرو بن الأخوص، والعامران: عامر بن مالك، وعامر بن الطفيل، ورمز بقوله: الحجران إلى الذهب والفضة، وإلى الأصفران: بالذهب والزعفران، والأحمران: الشراب، واللحم، والأهيغان: الطعام والشراب، والملوان: الليل والنهار، والصرعان: الغداة والعشي^(٥).

(١) المقامة الحصية، للأسواني، ص ١١.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) انظر: ابن الجوزي ومقاماته المخطوطة، عرض وتحليل، للدكتور: علي جميل مهنا، ص ٢٦٧،

مجلة معهد المخطوطات العربية، ج ١، م ٢٨ (ربيع الآخر - رمضان) ١٤٠٤ هـ.

(٤) المقامة (١٣): في النهي عن النظرة، مقامات ابن الجوزي، ص ١٠٨-١٠٩.

(٥) انظر المقامة نفسها، ص ١١٠.

وفي قوله: «مَنْ يُفَاصِحِ الْخُنْسَاءَ إِذَا تَسَهَّدَتْ، وَمَنْ يُصَافِحُ رَابِعَةَ إِذَا تَزَهَّدَتْ»^(١)، رمز خودلالة تاريخية، فالخنساء وهي: تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، من أشهر شواعر العرب، وأجود شعرها في رثاء أخويها صخر ومعاوية، أدركت الإسلام فأسلمت^(٢)، ورمز إليها ليشير إلى فصاحتها، وأما رابعة وهي: رابعة العدوية بنت إسماعيل أم الخير، مولاة آل عتيك، ولدت بالبصرة، وتوفيت بالقدس سنة ١٣٥ هـ.^(٣) ورمز إليها ليشير إلى تنسكها وتزهدا الذي عرفت به. وفي هذا حث ووعظ للقاريء؛ ليتخذهما نبراساً وقدوة في الفصاحة، والأخرى في الزهد.

وفي مقامة ثانية رمز إلى النفس بالملك، وإلى العقل بوزير هذا الملك، فقال: «إِنَّ مَلِكَ الْبَدَنِ النَّفْسُ، وَوَزِيرُهُ الْعَقْلُ، وَالْمَلِكُ مَشْغُولٌ عَنْ وَزِيرِهِ بِزِيرِهِ، وَلَا يَسْكُنُ سَبِيلَهُ فِي تَدْبِيرِهِ»^(٤)، ليدل بذلك على أن هذا الملك «البدن» لا يسيّر أموره إلا بمشورة الوزير «العقل»، فيعظ بذلك من طرف خفي كل إنسان أن يتسم برجاحة العقل، حتى يستطيع أن يسيّر بالبدن في الطريق الصحيح، دون الوقوع به في المهالك.

وفي مقامة أخرى أجرى حواراً بين النرجس والورد قائلاً: «فالنرجسُ يقول: أفضلُ ما في الدنيا الذهبُ والفضةُ، وقدَ جمَعَهُمَا لَوْنِي، وَالْعَيُونُ الْمَلَاخُ بِي يَشْبَهُهَا قَوْمِي، قَالَ: وَالْوَرْدُ يَجِيبُ ذَكَرْتَ مَكَارِينَ، إِذَا سَرَّأَ غَرًّا، وَإِذَا خَتَلَا قَتَلًا، وَلَا خَيْرَ فِي التَّشْبِيهِ بِشَرِّكَ تَخْنُقُ حُبُّهُ، وَلَا مَحْبُوبٍ يُعْشَقُ يَهْلِكُ فِي عَشْقِهِ أَحَبُّهُ... فَالنَّجْسُ يَقُولُ: صُفِّرْتِي تَحْكِي لَوْنِ الْمُتَعَبِدِينَ، وَعَيْنِي سَاهِرَةٌ كَعَيُونِ الْمُتَهَجِدِينَ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الْوَرْدُ طُولَ اللَّيْلِ كَالنَّائِمِينَ، قَالَ الْوَرْدُ: ... الْعَنْكَبُوتُ تَنْسُجُ وَلَكِنْ لَا قَزَأَ، لَوْنُكَ بِاصْفَرَارِ الْمَوْتَى أَشْبَهُهُ مِنَ الْوَانِ الْعُبَادِ... أَنَا فِي خَدْرِ الْجَمْعِ إِلَى حِينَ الْإِنْتِفَاعِ، فَلَا أَبْرُرُ لِلخَطَابِ إِلَّا وَقْتَ الخِطَابِ... وَأَنْتَ كَبْعَى تَتَبَرَّجُ وَتَبْهَرُجُ طَلْبًا لِلنَّفَاقِ،... فَالنَّجْسُ يَقُولُ: أَنَا سَهْلُ المَأْخِذِ لِمَنْ جَنَاهُ، وَشَوْكُ الْوَرْدِ يَمْنَعُ جَنَاهُ... فَالنَّجْسُ يَقُولُ: أَنَا سَبَقْتُكَ إِلَى الْوُجُودِ، وَالسَّبِقُ أَحْمَدُ، قَالَ الْوَرْدُ: قَدْ سَبَقَ الْأَنْبِيَاءُ وَتَقَدَّمَ أَحْمَدُ،

(١) المقامة (١٤): في الشيب، مقامات ابن الجوزي، ص ١١٦.

(٢) انظر: أعلام النساء، رضا كحالة، ٣٠٥/١، مؤسسة الرسالة، بيروت، والأعلام، للزركلي، ٦٩/٢.

(٣) انظر: الأعلام، للزركلي، ٣١/٣، وفيات الأعيان، لابن خلكان، ١٨٢/١.

(٤) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.

أَنْتَ تَنْظُرُ نَظْرَ الدَّهْشِ المَبْهُوتِ، وَإِذَا فَارَقْتَ المَاءَ لَيْلَةَ تَمَوْتُ، وَمَتَى سُلِبَتْ رُوحَكَ
ذَهَبَتْ رِيحَكَ، فَرَحَلْتَ عَقِيمًا، لَا تَخْلَفُ نَسْلًا وَأَنَا إِذَا ذَهَبْتُ طَرَاوَتِي، بَقِيَتْ رَائِحَتِي،
وَعَسَلْتُ الوجوهَ طَوَّلَ السَّنَةِ بِدَمْعِي»^(١).

فرمز بالنرجس إلى الإنسان الذي يغتر بالشكل الخارجي دون النظر إلى
الداخل، إلى ما بين الحنايا، ورمز بالورد إلى ما يوافق شكله مضمونه، بل حتى بعد
مغادرته يترك أثراً حسناً لدى جلسائه، فيندمون على فراق خلقتة وخلقه.

أما في مقامه المسماة «(في ذم الدنيا ومدحها)» لم يرد ذم الدنيا أو مدحها
لذاتها، وإنما رمز إلى ذم لذاتها فيقول في ذمها: «بئس نصيبٌ مَنْ قَنَعَ مِنَ النِّصَبِ
بِهَذِهِ الدَّارِ، أَوْ لَيْسَ النِّصَبَ قَدْ انْتَصَبَ حَوْلَهَا وَدَارِ، إِنَّهَا لَظِلَالٌ سُرُورٌ، مُدَّتْ عَلَيَّ
ظِلَالِ غُرُورٍ، تَمَامُهَا نَاقِصٌ، وَدَوَامُهَا وَاقِصٌ، وَسَمَاوُهَا وَامِصٌ، وَبِلَاوُهَا غَامِصٌ، كَمْ قَدْ
دَرَسْتُ حَسَنًا، وَأَخْرَسْتُ لَسِينًا، وَنَكَّسْتُ ذَقِينًا وَبَلَدْتُ لَقِينًا، كَمْ عَقَدْتُ عَقْدًا وَأَحَلَّتْ
حَلَّهَا، وَكَمْ نَقَدْتُ نَقْدًا فَاسْتَلَبْتُ مِنْ حَلَّهَا، كَادَتْ تُعْنِي نُمُّ كَادَتْ، وَعَادَتْ تُصْبِي نُمُّ
مَاعَادَتْ، وَتَظْهَرُ المِحْبَةُ وَقَدْ عَادَتْ، إِنْ أَضْحَكْتُ فِي أَفْرَاحِهَا شَهْرًا، أَبْكْتُ فِي أَتْرَاحِهَا
دَهْرًا، تُعْطِي تَفَارِيقَ وَتَسْتَرْجِعُ مُجْمَلًا...»^(٢).

فكل هذا الذم؛ ليظهر للذي ينخدع بها، ويركن إليها، وإلى ملذاتها أن خاتمة
قيحة، وعاقبته وخيمة، فرمز إلى ذلك بوصف الدنيا بتلك الصفات، حتى يتوقى المسلم
من الركون إليها، وليجعلها دار مرور، لا دار قرار، وليعمل فيها بكل ما يجعله يعيش
سعيداً في تلك الدار الآخرة.

وفي مقامة أخرى يلجأ ابن الجوزي إلى الرمز عن طريق قصص الحيوان،
فيقول: «لَمَّا سُقِّ خِتَامُ نَافِجَةِ النُّبُوَّةِ فَمَلَأَتْ الأَرْضَ رِيحُهَا اسْتَشَقَّهَا أَهْلُ العَافِيَةِ،
فَوَصَلَتْ إِلَى خِيَاشِيمِ سَلْمَانَ فِي فَارَسٍ، وَصُهَيْبٍ فِي الرُّومِ، وَبِلَالٍ فِي الحَبِشَةِ، وَكَانَ
ابن أَبِي مَرْكُومًا فَمَا نَفَعَهُ قُرْبُ الدَّارِ، ثُمَّ قَالَ: الصَّفَاءُ وَالكَدْرُ فِي أَصْلِ الوَضْعِ، ضَعْفُ

(١) المقامة (٢٣): في الربيع، مقامات ابن الجوزي، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) المقامة (٢٦): مقامات ابن الجوزي، ص ٢١٣، اللقن: الذكي، انظر: اللسان، مادة: لقن،

حلها: الأولى: عهدا، والثانية: امتلكها، انظر: اللسان، مادة: محلل.

عَيْنِ الْخَفَّاشِ لَيْسَتْ بِرَمَدٍ، وَحِدَّةُ نَظَرِ الْهَدْهِدِ خِلْقَةٌ...»^(١).

فرمز لضعف أو حدة النظر عند الخفّاش والهدهد إلى أن ذلك أصل خلقهما الله عليه، وكذا الشريعة السمحاء ظاهرة للعيان لمن قد كتب الله له السلامة في الدنيا والآخرة فينضوي تحت لوائها، دون أن يكون لقربه من الرسول - ﷺ - أو بعده صلة بذلك، إلا من شرح الله صدره للإسلام.

ورمز بالحيوان في مقامة أخرى في قوله: «وَالنَّمْلَةُ إِذَا نَبَتَ جَنَاحُهَا، ثَبَتَ احتياجهَا»^(٢). فرمز بالنملة إلى النفس التي لا تستغنى عن العقل أبداً في اتخاذ قرار ما، في قوله: «تَا لِلّٰه لَوْلَا الثَّقِيفُ مَاهَرٌ مُّهْرٌ، وَلَوْلَا الصَّبْرُ عَلَيَّ التَّضْمِيرُ مَانُوهُ لِلْغَرَابِ ذِكْرٌ»^(٣).

فرمز بهما ليظهر للنفس أنها لولا التعليم لما قومت، وكذا المهر، والغراب، ورمز إلى حيوانات كثر في قوله: «العنكبوتُ مِنْ حِينَ يُوَلَّدُ يَنْسَجُ لِنَفْسِهِ بَيْتًا، وَلَا يَقْبَلُ مِنَّةَ الْأُمِّ، وَالْحَيَّةُ تَطْلُبُ مَا حَفَرَهُ غَيْرَهَا إِذَا طَبَعَهَا الظُّلْمُ، وَالْعُصْفُورُ إِذَا أُوْذِيَ صَاحٌ، فَاجْتَمَعَتِ الْعَصَافِيرُ تَضْرِبُ مَنْ آذَاهُ، وَإِذَا وَقَعَ فَرَحُهَا طَرَنَ حَوْلَهُ لِيَعْلَمَنَّهُ الطَّيْرَانُ، وَالنَّمْلَةُ إِذَا عَجَزَتْ عَمَّا تَحْمَلُهُ أَعَانَهَا النَّمْلُ، فَإِذَا وَصَلَنَ بِالْحَمُولِ إِلَى بَيْتِهَا رَفَعَنَّهُ عَلَيْهَا، وَالْغَرَابُ يَتَّبِعُ الْجَيْفَ، وَالْأَسَدُ لَا يَأْكُلُ الْغَابَّ، وَالْكَلْبُ يَيْبِضُ لِيَطْعَمَ، وَالْفَيْلُ لَا يَأْكُلُ حَتَّى يَتَمَلَّقَ...»^(٤).

كل هذه رموز لما تفعله بعض الحيوانات، أراد بها الإشارة إلى بعض ما يصير من الإنسان فمنهم من هو كالحية يجب أن يحصل على ما يريد دون كد وتعب، ومنهم كالعصفور يستغيث إذا تعرض للأذى فيجد من ينجده، وهكذا...

هذه بعض ما رمز إليه ابن الجوزي عن طريق الحيوانات وقد قال د. عبد الملك مرتاض في ذلك:

(١) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٥٧.

(٢) المقامة (٤٣): في مخاطبة العقل للنفس، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٤٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٥٠.

(٤) المقامة (٤٨): في ضرب الأمثال وحكم الحيوان، ص ٣٩٨-٣٩٩.



« مما يدل على عمق تفهمه لقيمة الرمز ساق - ابن الجوزي - في مقدمة مقاماته بعض قصص الحيوان التي تنطوي على مدلولات معنوية، نجد فيها إدراكاً يتجاوز حدود الفهم المسطوح ... وربما ساعدته النزعة الصوفية على فهم قيمة الرمز وأهميته كأساس لاغنى عنه في التعبير البلاغي»^(١).

ونخلص إلى أن البحث لا يدعي أنه أعطى الرمز حقه فما هي إلا رؤيا خرج بها من وراء الكناية، لأن ترجمة الرمز ونثر كل معطياته من المحال، ومن العسير القول عن رمز من الرموز أنه يعني كذا وكذا فحسب، وإلا لما كان موحياً، إذ للطاقة الإيجابية الموجودة فيه بقصد الرمز لذاته، وفي هذا تكمن قيمته وأهميته، فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء وهذا مركز التقاء الرمز بالكناية بمعناها اللغوي، فكلاهما لا يخللان الواقع، بل يكتفانه ويتيحان للوعي اشتقاق عالم لحدود له، ويعتدان باللفظ في تركيبه اللغوي الذي لا يخضع لمقاييس عقلية، بل إن التركيب اللفظي إنما هو رمز أدبي يستلزم مستويين: مستوى الصور الحسية التي يتخذها الرمز قالباً له، ومستوى الحالات المعنوية التي يرمز إليها بهذه الصور الحسية .

وكتاب المقامة حين عمدوا إلى الرمز عن طريق الكناية لم يكن ذلك الاستخدام جديداً، فقد كانت موجودة في الشعر الجاهلي، وهي كذلك موجودة في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فهناك الكثير من الآيات القرآنية بعد البحث في مضامينها واستشفاف ما في طياتها من أبعاد وآفاق معنوية تحملها الألفاظ والتراكيب، والتجاوز بها عن الإشارية والفرضية في الكلمة، والرقى بها عن مستوى العلامة إلى مستوى الرمزية الدفينة فيها، نجدها مثلاً على ذلك، كقوله تعالى في صفة المسيح عليه السلام: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(٢).

لو أننا ألقينا نظرة إلى القرآن الكريم واستطلعنا السياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن الله - عز وجل - عندما أراد أن يؤكد بشرية عيسى عليه السلام وأمه، ونفي فكرة الألوهية التي زعم النصارى انتساب عيسى - عليه

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٢٠٢.

(٢) سورة المائدة، آية ٧٥.

السلام- إليها، نعته وأمه بأكل الطعام مثلهما كمثل سائر البشر. فأكل الإنسان للطعام رمز للحاجة والعوز؛ لاستمداد الطاقة والقدرة، والافتقار إلى الله وقدرته.

وأما الأحاديث النبوية الشريفة فهي مليئة كذلك بالكنايات التي ترمز إلى ما خلفها من مثل قوله - ﷺ - : «(رويدك سوقك بالقوارير)»^(١). يريد بذلك النساء فكفى عنهن بالقوارير .

وهكذا لحظنا في كل ما تقدم أن الكلمة تزخر بمعان أوسع وأعمق، فهي رحم خصب بالمعاني، وكلما تعاطفنا معها أسرع في الكشف عن معالمها، وتوالد التضام بين أجزائها المبعثرة. وبالكلمة التي لاتعرف التجريد أو القيود أو الحدود يكون فتح هذا العالم وامتلاك كنوزه وثرواته. إنَّ لكلِّ كلمةٍ قيمةً ودورًا ينبئها أصحاب اللِّغة عليها، وتتجاذبها تجاربهم ورؤاهم وخبراتهم في هذا العالم المتماوج بين صعود وهبوط، فأصحاب المقامات حين استخدموا الرمز جعلوه يدور حول ألفاظ تخدم في الغالب هدف بطل مقاماتهم، فالدينار مثلاً - لدى الهمذاني والحريري له تفسيران، الظاهر منهما يمثله العطاء أو الوصول إلى المال، فمن يملكه - الدينار - يكون الغني والجاه لديه، ومن لا يملكه فالفقر والعوز يجعلانه يسعيان للحصول عليه، فهو كالمنافق له وجهان، إلا أن ابن الجوزي والزخشي يرمزان إليه، ليعظما به، فما هو إلا قنطرة توصل الإنسان للعمل الصالح؛ بانفاقه في وجوه البر والصلاح؛ لأنَّ الدنيا لا تلوم على حال، ومن هذا المنطلق يحنان على عدم الركون إليها، كما اتكأ الزخشي على استدعاء الشخصيات القرآنية والتاريخية؛ ليوظفها في وعظه فيكون أدهى للتأثير، وتبعه في ذلك ابن الجوزي الذي رمز عن طريق قصص الحيوانات هو وسابقه، لما تنطوي على مدلولات معنوية نجد فيها إدراكاً يتجاوز حدود الفهم المسطوح.

(١) رواه مسلم (٢٣٢٣) في كتاب الفضائل، باب (١٨): رحمة النبي - ﷺ - للنساء بدايته:

«(ياأجش! رويدك...)» ١٨١١/٤.



القص:

استخدم الكثير من الدعاة الأوائل من الصحابة والتابعين أسلوب القصة في دعوتهم، بل ان منهم من اقتصر عليها في دعوته ومنهم الصحابي : ((تميم الدارمي^(١)، والتابعي: محمد بن كعب القرظي^(٢)، والإمام سعيد بن جبير^(٣)، والإمام الحسن البصري^(٤)،^(٥).

وهذا ابن الجوزي يبدأ مقاماته بقصص الأنبياء فيأخذ منه المقامات الخمس الأولى لم يسبقها إلا مقامة واحدة ذكر فيها بعض القصص على لسان الحيوان.

(١) هو تميم بن أوس بن خارجة، الصحابي الجليل الذي أسلم سنة تسع، كان من حفظة القرآن ومن العباد، سكن بيت المقدس،

انظر: ترجمته في الاستيعاب، ابن عبد البر، ١٨٦/١. الإصابة، ابن حجر، ١٨٦/١، صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٧٣٧/١.

(٢) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، أبو حمزة التابعي المدني، كان ثقة عالماً كثير الحديث، كان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه السقف فمات هو وجماعة تحت الهدم سنة ١١٨هـ.

انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ٤٢٠/٩، ط ١، ١٣٢٦هـ. شذرات الذهب، ابن العماد، ١٣٦/١. صفة الصفوة، ابن الجوزي، ١٣٢/٢.

(٣) هو سعيد بن جبير الوالي، الكوفي المقرئ الفقيه، كان عابداً من أئمة العلم، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ. انظر ترجمته في: البداية والنهاية، ابن كثير، ٩٦/٩-٩٩. تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٧٦/١. صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٧٧/٣. طبقات المفسرين، للداودي، ت: علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ١٨١/١.

(٤) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد إمام أهل البصرة، وهو من سادات التابعين وفضلائهم جمع العلم والزهد والورع والعبادة، ت سنة ١١٠هـ.

انظر ترجمته في: صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٢٣٣/٣. طبقات المفسرين، للداودي، ١٤٧/١. وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٣٥٤/١.

(٥) كتاب القصص والمذكرين، ابن الجوزي، ص ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٤٨، ت: د. محمد بن لطفى الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.



ولما كان ابن الجوزي على علم بأهمية القصة في القرآن الكريم فقد سار على نفس خطاه فبدأ أول ما بدأ بها، ومن منطلق هذه الأهمية وفي ضوءها نقول:

إن أغراض القصة في القرآن الكريم تصب كلها مجتمعة في القلب، لتعمل فيه الإيمان وترسخ أصوله، لذا وجدنا القصة مقترنة الخطى بالعبارة الجليلة والعظة الغالية.

«فالقرآن كتاب دعوة أولاً وقبل كل شيء وفي تضاعيف القصص لأخبار الأولين يزداد غرض الدعوة وضوحاً ويتبين منهجها الذي تحدو البشرية إليه، لا يختلف وإن اختلفت العصور، ومن هنا كانت أهمية القصة للداعية.

فتثبيت العقيدة، وترسيخ قوائمها في أفئدة المؤمنين من خلال الأحداث القصصية الغابرة من أعظم أغراض القصة القرآنية، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)،^(٢).

لذا يقول ابن الجوزي في مقامته المسماة: «(في وصف قاص)»: «وقع اختيارُ الوسامِ عَلَى سماعِ القصص، فَقَالَ لهم أبوالتقويم: إِنَّهَا لَأَوْقَى الْأَقْسَامِ، وَأَوْفَرِ الحِصصِ، ... وَابْتَدَأَ بَعْدَ الْأَذْكَارِ بِقِصَّةِ أَبِي الْبَشِيرِ فَقَالَ: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ أَلْقَاهُ كَاللَّقَى فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ مَاتَ الْحَاسِدُ فَرَقَا، ثُمَّ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ، فَتَطَهَّرُوا مِنْ غَدِيرٍ لَا يَعْلَمُ لَنَا، وَغُودِرَ الْغَادِرُ بَحْسًا لِكَبِيرٍ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، فَلَمَّا جَرَى عَلَى آدَمَ الْقَدَرُ بِالزَّلَلِ نَزَلَ... فَقِيلَ لَهُ: لَا تَحْزَنْ لِقَوْلِي: أَهْبِطْ مِنْهَا فَلَمْ تَخْلُقْتَهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا إِلَى مَرْعَةٍ الْأَجْرَةَ...»^(٣).

فقد بدأ ابن الجوزي وعظه بذكر قصة خلق سيدنا آدم، وأمر الله للملائكة بالسجود، فقوله: «(فتطهروا من غدير لا علم لنا)» يشير ابن الجوزي فيه إلى قوله تعالى:

(١) سورة هود، آية ١٢٠.

(٢) روائع الاعجاز في القصص القرآني/ محمود السيد حسن، ٦١-٦٣، المكتب الجامعي الحديث، إسكندرية.

(٣) المقامة الثانية: في وصف قاص لابن الجوزي، ص ١٤-١٥، ت: د. محمد نغش.



﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

ثم ذكر قصة (آدم) مع إبليس الذي رفض السجود، فقوله: «وَعُودِرَ الْغَادِرُ بِحَسَاً لَكِبْرٍ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٢).

أما قوله: «لَا تَحْزَنْ لِقَوْلِي: اهْبِطْ مِنْهَا» فيشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾^(٣).

وبعد ذكر قصة آدم لم يترك ابن الجوزي السبب الذي دعاه إلى ذكرها، فانبرى يعظ قائلاً: «إِخْوَانِي أَيُّكُمْ وَالذَّنُوبَ فَإِنَّهَا أَذَلَّتْ عَزِيْزَ اسْجُدُوا»^(٤) يعني به إبليس الذي عصى أمر ربه فأذله، «وَأَخْرَجَتْ مُسْقَطِعَ اسْكَنْ اسْتِرَاحَ إِلَى بَعْضِ الْعِنَاقِيدِ فَإِذَا بِهِ فِي الْعِنَاقِيدِ» يقصد آدم في قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا...﴾^(٥). فلما عصى ربه أخرجه منها.

فالوعظ كان من وراء ذكر ابن الجوزي لقصة آدم وإبليس معه.

أما أبرز ماظهر في هذه القصة من عناصر فهي:

١- الشخصية:

والتي يقصد بها «كل شخصية حقيقية أو اعتبارية، وقعت منها أحداث، وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دوراً في القصة كالملائكة والجن، والطيور كالهدهد، والحشرات كالنملة، ثم الأناسي من نساء ورجال»^(٦).

(١) سورة البقرة، آية ٣٢.

(٢) سورة ص، آية ٧٦، الأعراف، آية ١٢.

(٣) سورة طه، آية ١٢٣.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٦.

(٥) سورة البقرة، آية ٣٥.

(٦) الفن القصصي في القرآن، د. محمد أحمد خلف الله، ص ٢٦٥، مكتبة الأنجلو المصرية،

القاهرة، ط ٤، ١٩٧٢م.



والرجال :

أ - منهم رسل وأنبياء كآدم ونوح وهود وصالح ... الخ.

ب - ومنهم أفراد عاديون كإخوة يوسف، أو ملوك ووزراء كفرعون وهامان.

والشخصية التي برزت هنا شخصية سيدنا آدم وزوجه فقال : «وابتدأ بعد الأذكار بقصة أبي البشر، فقال لما خلق الله آدم ألقاه كاللقى ...»^(١).

ومن ثم إبليس من دون بقية الملائكة، وقد استقى ابن الجوزي قصته من «قصص القرآن الذي يهدف إلى التأثير بالشخصية، فهي عنصره البارز فيقدم:

أ - نماذج للقدوة، كما فعلت الملائكة التي أطاعت أمر ربها حين أمرها بالسجود فيقول: «ثم أمر الملائكة بالسجود»^(٢).

ب - أو لعرض مبادئ الدعوة، وبيان خطوات حركتها وما يحدث في سبيلها من صراع... وإبراز يد القدرة وهي تضع الأحداث»^(٣).

ويعلق على ذلك أحدهم قائلاً: «لقد شاء الله بذلك أن يبقى القرآن في تقنيته للحياة من خلال البشر والأحداث أفقاً تطلع عليه، وتظهر شمس ونجوم هؤلاء الأنبياء، والذين تتمثل في حياتهم ومجاهداتهم سنن الله وقوانينه التي تحكم حياة المجتمعات، وتتدافع بآثارها حركة التاريخ، وهم من آدم حتى محمد ذرية بعضها من بعض»^(٤).

(١) انظر المقامة (١): نفسها، ص ١٤.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) منهج القصة في القرآن، محمد شديد، ص ٨٠-٨١، شركة مكاتب عكاظ، ط ١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

(٤) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، ص ٢١٨، دار الجيل، بيروت، ط ١٩٧٨ م.

٣ - الأحداث :

هي الوقائع التي تجري في القصة ، ويدور حولها عنصرا الحوار والأشخاص حيث الصلة بينهما «أقوى من أن يدلل عليها أو يلفت الذهن إليها؛ ذلك لأنهما العنصران الرئيسيان في كل قصة، فنحن لانستطيع أن نتصور شخصا من غير أحداث تلم به، أو تقع عليه إلا أن العنصر البارز في تكوينها هو عنصر الحوادث، حتى إن الأشخاص قد تبهم، وتجعل عامة غامضة، لكن ذلك لا يدفع إلى التسليم بخلو القصة من هذا العنصر، مهما يبرز غيره من العناصر»^(١).

ولما كانت القصة المذكورة في هذه المقامة هي إحدى قصص القرآن الكريم، فلن نجد غرابة إذا كان حديثنا هنا عن القصص القرآني الذي نرى بصماته واضحة ليس بالإشارة فقط بل باللفظ حين قال ابن الجوزي: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»^(٢) من قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٣).

والحدث هنا : خلق الله لآدم أولاً ثم تتوالى الأحداث.

وطبيعة الأحداث في القصص القرآني مختلفة يوضحها «السبب الذي من أجله اختيرت هذه الأحداث بعينها دون غيرها، والقرآن نفسه يدلنا على هذه الأسباب حين يقول: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾، وحين يقول: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وحين يقول ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(٤).

(١) الفن القصصي في القرآن، د. محمد أحمد خلف الله، ص ٢٩٠.

(٢) المقامة الثانية: في وصف قاص، لابن الجوزي، ص ١٤.

(٣) سورة طه، آية ٧٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢٥، والآية الأولى في النص من سورة هود آية ١٢٠، والثانية من

سورة الأعراف، آية ١٧٦، والثالثة من سورة يوسف، آية ٣.

٣ - الحوار :

إن الحوار في هذه القصة التي هي من قصص القرآن - في ضوء الشمول الإلهي، وسنن الله الهادية - هو «كلام أوحى الله به على ألسنة الأنبياء، ليكون في الإخبار عما وقع منهم في مراحل الدعوة السابقة وعصورها تقيناً شاملاً ودلالاتها في علم الإنسان وعلم التاريخ، حواراً لكل العصور، ولكل الأجيال والشعوب، وهو يعلو فوق حدود الزمان والمكان، ليبقى في سمع الدهر بشيراً ونذيراً لكل من ألقى السمع وهو شهيد، وهو بهذه الرؤيا العلمية ليس مجرد أحاديث أفراد عن الهدى والضلال في نطاق رؤية الفرد كما هو في القصص التاريخي، وليس هو الصناعة للمواقف وفن تخليق الكلمات كما هو في قصص الخيال»^(١).

وعلى هذا فالحوار عنصر مهم في القصص القرآني، تأتي أهميته من كون القرآن «جعل كل قضاياها سبيلها الحوار، وجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفه قائماً على الحوار. ولم يجعل من القوة سبيلاً قط إلى التعامل مع المخالفين، وإنما جعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق؛ لتكون أيضاً وسيلة إلى إعادتهم إلى الحق»^(٢).

لذا نجد كثيراً من قصص القرآن كان الحوار فيه العنصر المهم إن لم يكن العنصر البارز، وهو موجود على كل حال في كل قصة تعددت شخصياتها كقصة خلق آدم، وقصته مع إبليس التي بين أيدينا في المقامة نفسها .

«وطريقة القرآن في تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية، فيحكى القرآن أقوال الأشخاص ويصدرها بقوله : قال أو قالوا»^(٣).

«وهذا التصدير يلفت الذهان إلى أمر خاص بالحوار في القصص القرآني هو: أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين فقط فقد يكون بين كثرة»^(٤).

(١) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية، والمسرح، أحمد موسى سالم، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) أسلوب المحاور في القرآن الكريم، د. عبدالحليم حفنى، ص ٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط(٢)، ١٩٨٥م

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، د. أحمد محمد خلف الله، ص ٣٠٣.

(٤) من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، د. السيد تقي الدين، ص ١٩١-١٩٢.



وفي حوار قصة خلق آدم، استغرق في أشكال المجاهدة والإصرار عرض لذلك الموقف الذي يوجز في أقوال مقننة، تصادم موقف الطاعة لله بموقف الرفض الذي فيه الاستكبار والباطل بل والتمادي فيه إلى درجة طلبه - أي إبليس - من الله أن يمهله ليعمل على غواية أولاد آدم... إلا أن الطابع العام للحوار يظل كما هو في اختلاف العاطفة بين المتحاورين، فقد بقي المستكبرون على ما عرف عنهم من قسوة وجبروت ممثلاً في إبليس، ومضت بقية الملائكة بما تحمله في قلبها من المحبة والطاعة لله لتنفيذ ما أمرت به فامتثلت وسجدت حين طلب منها ذلك .

قال ابن الجوزي: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ كَاللَّقَى... ثُمَّ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بالسُّجُودِ، فَتَطَهَّرُوا مِنْ غَدِيرٍ لَأَعْلَمَ لَنَا، وَغُودِرَ الْغَادِرُ بَخْسًا لَكَبِيرٍ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ... فَقِيلَ لَهُ: لَا تَحْزَنْ لِقَوْلِي: أَهْبَطُ مِنْهَا... فَنَمَتْ هَيْمَةُ الْمَلَائِكَةِ بِعِبَارَةٍ نَظَرَ الْعَاقِبَةَ فَتَشَرُّوا مَطْوًى أَتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا»^(١).

٤- الزمان والمكان :

عنصر الزمن في القصة بشكل عام له مكانته، حيث «تقوم القصة الناجحة عليه، فتطلع بذلك العنصر في الوقت الذي تستدعيه الأحوال، كما تبعده عن مجال الرؤية في الوقت المناسب»^(٢).

ومن هنا كان العنصر الزمني في القصة القرآنية لا يجيء إلا بحسب مقتضيات الحال، فحينما يكون له أهمية في رسم الصورة المعطاة يجيء القصص به، وحينما لا يكون له أهمية من ذكره، أو أن ذكره وعدمه سواء، فلا يذكر.

وحين نقول إن الزمن لم يجعل محوراً دائماً ترتبط به أحداث القصة القرآنية «فليس معنى هذا أن الأحداث لا ترتبط برباط الزمن، وإنما معناه أن تسلسل الأحداث في القصة يخضع للغرض أو المقصد الذي من أجله نزلت القصة»^(٣).

(١) المقامة الثانية: «(في وصف قاص) لابن الجوزي، ص ١٤-١٧، ت: د. محمد نغش.

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، ص ٨٢-٨٣، دار الفكر العربي.

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، د. محمد أحمد خلف الله، ص ٢٩٤.



وكذلك المكان: فهو لا يقل أهمية عن غيره من العناصر، إلا أن الأمر - كما يقول الأستاذ الخطيب - «لا يلتفت إلى المكان ولا يجرى له ذكرا، إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثر في سير الأحداث أو يبرز ملاحظتها، أو يقيم شواهد العبرة والعظة منها»^(١).

وفي ضوء ذلك وجدنا الحدث في قصة خلق آدم قد عرض مقروناً بالمكان ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٢)؛ لأن له مجالاً في سير الحادثة، فتعلق الغرض بذكره كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣).

وفي المقامة نفسها انتقل لذكر قصة هاروت وماروت فقال: «نقَّبُوا عَنْ حِيَارِ نَقْبَائِكُمْ، فانتقوا مَلِكَ الْمَلَكُوتِ، وَمَارُوا فَمَا رَأَوْا لِمِثْلِهَا مِثْلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَأَبَاَ لِسَفْرِ الْبَلَاءِ بِالْبَلْه، فَمَا نَزَلَا حَتَّى نَزَلَا مِنْ مَقَامِ الْعِصْمَةِ؛ فَنَزَلَا مَنَزِلَ الدَّعْوَى، فَرَكِبَا مَرْكَبَ الْبَشْرِيَّةِ، فَمَرَّتْ عَلَى الْمُرَايِنِ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا الزُّهْرَةُ، بِيَدِهَا مِزْهَرُ زَهْرِ الشَّهْوَةِ، فَغَنَّتْ الْغَانِيَةَ بِغَنَّةِ أُغْنٍ، وَرَنَّتْ قِيَانُ الْهُوَى، فَهَوَى الصَّوْتُ فِي هَوَا قَلْبِ قَلْبِيهِمَا، فَقَلْبَتُهُمَا عَنْ تَقْوَى التَّقْوِيمِ، فَأَنْهَارَ بِنَاءِ عِزْمِ هَارُوتَ، وَمَا رَهْمُ حِزْمِ مَارُوتَ فَأَرَادَهَا عَلَى الرَّدَى، فَأَرَادَهَا وَمَا قَتَلَ الْهُوَى نَفْسًا فَوَدَّهَا فَبَسَطَتْ نِطْعَ التَّنَطُّعِ عَلَى تَحْتِ التَّخْيِيرِ: إِمَّا أَنْ تُشْرِكَ، وَإِمَّا أَنْ تُقْتَلَا، وَإِمَّا أَنْ تُشْرَبَا، فَظَنَّا سُهولةَ الْأَمْرِ فِي الْخَمْرِ، وَمَا ظَنْنَا أَنَّهُ أَمْرٌ الْأَمْرِ، فَلَمَّا امْتَدَّ سَاعِدُ الْخِلَافِ فَسَقَى فَسَقَا، فَدَخَلَا سَكَا السُّكْرِ فَزَلَا فِي مِزَلِ الزَّنَا، فَرَأَاهُمَا مَعَ الشَّخْصِيَّةِ شَخْصٌ فَقَتَلَاهُ، ثُمَّ اسْتَفَاقَا بَعْدَ أَنْ وَقَعَتِ الْمَشَابِكَةُ، فَفَشَّتْ فَتَنَتُهَا فِي فِتْنَةِ الْمَلَائِكَةِ؛ فَاتَّخَذُوا لِتِلْكَ الْوَارِدَةِ وَرْدًا مِنْ تَضَرُّعِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤). أشار بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٥).

(١) القصص القرآني، ص ٩٢.

(٢) سورة البقرة، آية ٣٥.

(٣) سورة البقرة، آية ٣٠.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٧، وفي مخطوط ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي جميل مهنا،

ص ١٨٥، قوله: (ففشست فتنتهما).

(٥) سورة الشورى، آية ٥.



وقصة هاروت وماروت كما ذكرت هنا في هذه المقامة من الإسرائيليات، فقد
 ((روى السيوطي في الدر المنثور، في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكِينَ مِنْ بَابِلَ
 هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾^(١) : روايات كثيرة وقصصاً عجيبة^(٢) .

والغريب أن يذكر ابن الجوزي قصة هاروت وماروت في هذه المقامة على هذا
 النحو من الإسرائيليات، والأغرب من ذلك قول د. محمد أبو شهبه: ((وقد حكم
 بوضع هذه القصة الإمام: أبو الفرج بن الجوزي^(٣)، ونص الشهاب العراقي على أن من
 اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما، فهو كافر بالله
 العظيم^(٤)، ... وكذلك: حكم بوضع المرفوع من هذه القصة: عماد الدين بن
 كثير^(٥)، وأما ماليس مرفوعاً: فبين أن منشأه روايات إسرائيلية - أخذت عن كعب
 وغيره وألصقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام ...

أقول - والكلام مازال للدكتور أبو شهبه - ((وهذا الذي قاله العلامة ابن
 كثير هو : الحق الذي لا ينبغي أن يقال غيره ...

والعجب : أن الإمام ابن جرير^(٦) : حوم حول ما ذكرناه في تفسير الآية ثم لم
 يلبث أن ذكر ما ذكر، ... وعلى القارئ أن يحذر من هذه الإسرائيليات سواءً وجدها
 في كتاب تفسير، أو حديث، أو تاريخ، أو مواظ، أو أدب ...^(٧) .

وقد أشار الذهبي^(٨)، وكذا الزرقاني^(٩)، إلى أن الطبري يكثر من ذكر الروايات
 الإسرائيلية في تفسيره.

أما ابن كثير^(١٠) ت سنة ٧٧٤هـ فقد كان ينه إلى ما في التفسير المأثور من

-
- (١) سورة البقرة، آية ١٠٢.
 - (٢) ١٠٣-٩٧/١، وانظر جامع البيان لابن جرير، ٣٦٧-٣٦٢/١.
 - (٣) اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، ٨٢/١، دار المعرفة، بيروت، ط(٣)، ١٤٠١هـ.
 - (٤) روح المعاني، ٣٤١/١، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
 - (٥) البداية والنهاية، ٣٧/١.
 - (٦) جامع البيان، لابن جرير، ٣٥٩/١-٣٦٠.
 - (٧) الإسرائيليات والموضوعات، د. محمد أبو شهبه، ص ١٦٤-١٦٥، مكتبة السنة، ط(٤)، ١٤٠٨هـ.
 - (٨) انظر: التفسير والمفسرون، ٢١٥/١.
 - (٩) انظر: مناهل العرفان، ٤٧٦/١، دار الفكر، بيروت.
 - (١٠) انظر: مناهل العرفان، ٢٤٥/١.



منكرات الإسرائيليات، كما أثبتنا في قصة هاروت وماروت، وبعد قصة هاروت وماروت أتى ابن الجوزي بقصة نوح التي تبدأ بالأمر بالإنذار الذي استغرق عمر أجيال «فقال أنذر الخلق ألف سنة إلا خمسين عاماً»^(١) مستقاة من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢)، ومن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٣)

إن نوحاً - عليه السلام - معه الحق، وقومه معهم الباطل، وتحمل كل التفاصيل حين يعلن موقف الرفض فتأتي النهاية، يقول ابن الجوزي: «فغربت شمس الأنظار، فاذهمت عقاب العقاب، فلما انسدت الظلمة، وفات النور، فار التور، فتخلف خلف نوح، خلف من ولده، فمد يد الحنو ليأخذه بيده: يا بني اركب معنا، فقل: إنه قد أهلك، إنه ليس من أهلك»^(٤). قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٥).

أما من تخلف عنه والذي مد إليه يد الحنو ليأخذه بيده، يا بني اركب معنا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦). ويطوى بقية الحوار إلى نهايته، «فقل إنه قد أهلك، إنه ليس من أهلك»، ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٧).

والقصة ينتقى منها مقطع العبرة والعظة، والتي تكاد تكون في جميع قصص القرآن؛ ذكر النهايات. إلا أنه هنا بعد ذكر القصة لا يفوته أن يستفيد من أعظم مافيها - وكلها عظيم - وهي حقيقة الولاء، والبراء، فنوح حينما تتحرك فيه جوانب الأبوة، وشفقة النبوة يعلمه الله كيف تقنن هذه المشاعر، وممن تتصل، ولمن تصرف

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) سورة نوح، آية ١ .

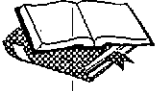
(٣) سورة العنكبوت، آية ١٤ .

(٤) المقامة والصفحة نفسها .

(٥) سورة هود، آية ٣٧-٤٠ .

(٦) سورة هود، آية ٤٢ .

(٧) سورة هود، آية ٤٦ .



﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فكل صلة بعيدة عن صلة العقيدة فهي ميتة (سلمان منا آل البيت) بإيمانه، وابن نوح ليس منه بكفره .

ثم ينتقل بنا إلى قصة عاد التي يغفل فيها المسميات والأشخاص ويبقى الحدث؛ تطوى فيه سجلات الحوار، والزمان والمكان إلى النهاية المحتومة للرفض العاجز بجهل حقيقة قدرة الله، يؤكد ذلك عدم إدراكهم لحقيقة الأمر حتى حين رؤيتهم للريح المرسله.

﴿أَقْلُّ مَا فَعَلَ بِعَادٍ يِعَادُ، عَادَ عَلَيْهِمُ الْهَوَى فَامْتَدَّ الْمَقْصُورُ سَحَبَ سَحَابِ الْعَذَابِ ذَيْلَ الْإِدْبَارِ، يَأْقِبَالَهُ إِلَى قِبَالَتِهِمْ فَظَنُّوهَ لَمَّا اعْتَرَضَ عَارِضٌ مَطِيرٌ، فَصَاحَ بُلْبُلُ الْبَلْبَالِ: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ فَرَاخَتْ رِيحُ الدَّبُورِ لَكِي تَسِمَ الْأَدْبَارَ، بَكِيَّ الْإِدْبَارِ﴾.

وهكذا يمضي إلى قوله: «وَلَا أَقْلَعْتُ حَتَّى قَلَعْتُ قَلُوعَ قِلَاعِهِمْ، فَدَامَتْ عَلَيْهِمْ آفَةٌ وَدَاءٌ، لَا يَقْبَلُ فِدَاءً، سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا»^(١).

وفي ذلك يقول تعالى واصفاً لهذه الريح: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٢).

نهاية تحمل في طياتها الترهيب والتخويف من واقع محتوم يرشد إلى الأخذ بالحيلة، مع ما يقرره من التفكير والعقل السليم الذي ينبغي أن يتخذ من أجل السلامة.

ويستمر ابن الجوزي في ذكر قصص الأنبياء فيأتي بقصة النبي صالح - عليه السلام - يستعرضها من بدايتها «فإن رأيت أن تجود بقصة ثمود، فقال لما أعرضوا عن كل فعل صالح، بعث إليهم للإصلاح صالح»^(٣).

وهذه أخذ من قوله تعالى: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٤).

(١) المقامة نفسها: الثانية في وصف قاص، ص ١٨.

(٢) سورة الحاقة، آية ٦-٨.

(٣) المقامة الثانية نفسها، ص ١٩.

(٤) سورة الأعراف، آية ٧٣.

وتطوى الأحداث إلى الإشارة للآية التي جاءهم بها : «فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ نَاقِهِ هَوَاهُمْ بَطْلِبِ نَاقَةٍ، فَخَرَجَتْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ تَقْبَقِبُ، وَفُصِّلَ عَنْهَا فُصِيلٌ يَرْغُؤُ، فَقَالَ: جَاءَكُمْ الْوَحْيَ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ»^(١).

وهذه يلخصها القرآن حين قال على لسان صالح - عليه السلام - : «قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ»^(٢).

وعلى الرغم من أن هذه الآية كانت تحذرهم من عدم تنفيذ أوامر الله فإنهم قابلوها بالتحدي والهزء «فَضْرَبَ أَشْقَاهُمْ بِعُطْنٍ، فَتَعَاطَى فَصَّبَ عَلَيْهِمْ صِيبٌ صَابٌ صَاعِقَةٌ»^(٣) وفي هذا إشارة سريعة لما نزل عليهم من عذاب : «فَأَخَذْتَهُمْ صَعْقَةً الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(٤).

ويأتي بعد ذلك بقصة لوط بعيداً عن بداياتها كما وردت في القرآن الكريم بإرسال لوط - عليه السلام -، والتفصيل ببشاعة جريمتهم الخلقية، والمحاورات الطويلة بينه وبينهم، واستنصاره بربه، ونزول الملائكة مروراً بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - وتبشيره بإسحاق - عليه السلام -، ثم الإخبار عن الأمر الثاني ممثلاً في نزول العذاب على قوم لوط - عليه السلام -؛ لتأكيد النهاية والتي تبدأ من زيارة الملائكة في صورة البشر الضيفان لسيدنا لوط - عليه السلام - : «جَاءَهُ ضَيْفٌ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يُهْرَعُونَ، فَدَافَعَ بِمَشُورَةٍ هَوَلَاءِ بَنَاتِي، وَبِتَقَاةٍ فَانْقُوا اللَّهَ، وَبِسُؤَالٍ فَلَا تُخْزُونَ فِي ضَيْفِي، وَبِتَوْبِيخٍ أَلَيْسَ مِنْكُمْ»^(٥).

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) سورة الشعراء، آية ١٥٥-١٥٦ .

(٣) المقامة والصفحة نفسها .

(٤) سورة فصلت، آية ١٧ .

(٥) المقامة الثانية نفسها، ص ١٩ .



كل ذلك يجمعه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَال لُوطِ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾^(١) . ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ، قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ، قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ، قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(٢) .

ويطوى بقية الحوار ليصل إلى النهاية ((فاحتمل جبريل قري من جنى على قرأ جناحيه فلم يكسر وقت رفعهم إناء، ولم يرق وقت صعودهم ماء. فلما سمع أهل السماء نباح كلابهم، اسرعت كف القلابهم في انقلا بهم، تا لله لقد ضكضك العذاب عليهم فضعضعهم فتضععوا، وأنقض يقضه وقضيه فقضقض عظام عظامهم وفصلها فتقطعوا، وسار بهم في طرفسان العقاب إلى عوطب العطب فاهومعوا))^(٣) .

هذه النهاية التي خلدتها آيات القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾^(٤) . ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَالِيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾^(٥) . ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٦) .

ويستمر ابن الجوزي في ذكر قصص الأنبياء في المقامة التالية ويذكر قصة إبراهيم - عليه السلام - منذ بدايتها البعيدة عن القرآن الكريم حين يقول: ((لما خاض المخاض في خضم أم إبراهيم، خرجت من خيف الخوف إلى حير التحير تهيم، فوضعت في نهر قد ييس، وغطته بالحلفا ليلتبس))^(٧) .

(١) سورة الحجر، آية ٦١-٦٢ .

(٢) سورة الحجر، آية ٦٧-٧١ .

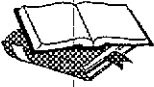
(٣) المقامة والصفحة نفسها .

(٤) سورة هود، آية ٨٢-٨٣ .

(٥) سورة الحجر، آية ٧٣-٧٤ .

(٦) سورة الأعراف، آية ٨٤ .

(٧) المقامة الثالثة: فيما سبق، لابن الجوزي، ص ٢٦، ت: محمد نغش.



هذه بداية المقامة عند ابن الجوزي، أما البداية الحقيقية فهي من المواجهة التي تمت بينه وبين النمرود: «فَلَمَّا تَرَعَرَغَ أَحْضَرُهُ نَمْرُودٌ، فَأَحْضَرَ فِي مِيدَانِ الدَّلِيلِ، فَأَرَاهُ قَمَرَ الْهَدَى فِي حَجِّهِ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَقَابَلَهُ بِسَهَا السَّهْوِ فِي ظِلَامٍ أَنَا أُخِي وَأُمِيتُ، فَسَوَّدَ وَجْهَهُ بِفَحْمَةِ الْإِفْحَامِ، فَأَلْقَاهُ كَاللَّقَاءِ عَلَى عَجْزِ الْعَجْزِ بِأَفَاتٍ فَأَتَ بِهَا فَبُهِتَ»^(١).

وهذا اقتباس من نص القرآن الكريم الواضح: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

ثم ما كان من أمر المواجهة بينه وبين قومه عندما كسر أصنامهم في يوم عيدهم تأكيداً على عجزها فقال: «ثُمَّ دَخَلَ عَلَى الْأَصْنَامِ وَقَتَّ الْفِرَاقِ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ»^(٣).

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَرَاغَ إِلَىٰ آلهِهِمْ فَقَالَ أَلَّا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾^(٤).

ثم المقطع المتعلق بعقوبته على مفاعل: «فَجَرَدُوهُ مِنْ بُرْدٍ بَرَدِ الْعَدَلِ إِلَى حَرِّ حَرِّقُوهُ فَسَبَقَ بَرِيدُ الْوَحْيِ إِلَى النَّارِ يَلْسَانَ التَّفْهِيمِ: يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمِ»^(٥).

إلا أن الآيات من أولها تقول: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾^(٦).

(١) المقامة نفسها، ص ٢٦-٢٧.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٧.

(٤) سورة الصافات، آية ٨٨-٩٣.

(٥) المقامة نفسها والصفحة.

(٦) سورة انبياء، آية ٦٨-٧٠.

وانطلق بعد ذلك ليذكر هجرة إبراهيم - عليه السلام - فقال: «ثُمَّ إِنَّهُ هَاجَرَ بِإِسْمَاعِيلَ وَهَاجَرَ فَأَلْقَاهُمَا بِمَكَّةَ، وَرَجَعَ لَمَّا رَجَعَ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فَعَطِشًا فَتَلَّوْى إِسْمَاعِيلُ عَلَى رَمَضٍ رَمَضَانَ الصَّوْمِ، فَسَعَتْ الْمَرْأَةُ بِأَقْدَامِ الصَّفَا، بَيْنَ الْمَرْوَةِ وَالصَّفَا، فَكَلَّمَا أَطَلَّتِ الطَّلَّةُ عَلَى طَلَّلٍ تَوَكَّفَ طَلُّ. رَوْحٌ يَنْقَعُ الْغُلَّةَ فَنَزَلَ جَرِيْلٌ لِيَزِيلَ النَّازِلَةَ، فَهَيَأُ نَزْلَ النَّزِيهِ، فَمَزْمَزَ مَاءً زَمَزَمَ، وَنَزَّ نَزًّا»^(١).

ثم ما كان من أمر ابتلائه واختباره فيكون صفي الله وخليله، وكان المقدم من مثله أن يذبح ابنه بما أوحى إليه فصدق ما كان، وصدق الإيمان، يقول صاحب المقامة: «فَلَمَّا كَابَدَ الْخَلِيلُ وَحَشَةَ فُرَاقِهِ، ابْتَلَى بِذَبْحِ إِسْحَاقِهِ، بَيْنَا هُمَا عَلَى تَلٍّ وَتَلَّهُ وَجَاءَ بِشِيرٍ قَدْ صَدَّقَتْ الرُّوْيَا قَارِتَدَّ أَعْمَى الْحَزْنَ بِصِيرًا»^(٢).

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّوْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾^(٣).

وهكذا يسير ابن الجوزي في وعظه معتمداً على القصص، يتكئ عليه؛ ليلغ ما يريد، ويصل به إلى أبعد الأثر، فبعد أن انتهى من قصص الأنبياء السابق ذكرهم، عرج على قصة شعيب^(٤)، ويوسف، وأيوب، وموسى^(٥)، وداود، وسليمان، وعيسى - عليهم السلام-، وقصة أصحاب الكهف^(٦)، ومحمد - ﷺ - وسيرته العطرة ابتداءً بولادته ورضاعته مروراً على حادثة شق الصدر وخروجه للتجارة، ومقابلة الراهب بحيرا، ثم تكليفه بالرسالة^(٧) مع عرض معجزته.

(١) المقامة نفسها، ص ٢٧-٢٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٨.

(٣) سورة الصافات، آية ١٠٢-١٠٦.

(٤) انظر: المقامة الثانية، ص ٢٠.

(٥) انظر: المقامة الثالثة، ص ٣٠-٣٧.

(٦) انظر: المقامة الرابعة، ص ٣٩-٤٥.

(٧) انظر: المقامة الخامسة والسادسة، ص ٤٦-٥٢.



ولعلك لحظت أن ابن الجوزي في مقاماته هنا واعظ يتعامل مع مكانن التأثير في النفس ليعمل فيها الإيمان، ويرسخ أصوله؛ ولذا وجد القصص مقترن الخطى بالعبرة الجليلة، وقد نجح - رحمه الله - من خلال تعريجه على الأحداث القصصية الغابرة مستفيداً من قصص القرآن الكريم، الذي كان له عظيم الأثر في تثبيت العقيدة، وترسيخ قوائمها في أفئدة المؤمنين، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

مستعيناً بـقصص الأنبياء، وغير الأنبياء، مركزاً على تصوير نهاياتهم نتيجة كبرهم وتكذيبهم، بعد أن أدرك أن الزمن يمضي، والناس يقطعون الطريق كأن لم يكن شيء مما كان.

الإعراض وقسوة القلوب تجمع الجميع في دائرة واسعة، تنتهي مثل هذه النهايات التي ألقى عليها كل انتباهه من بين كل الأحداث بمواقعها الحاسمة، وماورد فيها من انفعالات صارمة، وحركات عنيفة لا بد أن توظف الإحساس. فملامح التأثير بآيات القرآن الكريم واضحة قوية، معتمداً على ماورد فيه من أحداث متخلصاً من الاستطرادات الطويلة، فكل نقط الدائرة فيها مشدودة برباط وثيق إلى محورها الوعظي الأصيل الذي يثير القلق الغامض والخوف، بعد أن غمر جوانب الاسترخاء في النفوس حتى لاتطمئن إلا بالإيمان.

هكذا عرض ابن الجوزي قصصه، والتي هي قصص القرآن الكريم متكماً منذ البداية، - وهو يضع الخطوط الأولى لمقاماته - على ملامح الشخصيات التي يجمعها الكبر والعناد، وينتقي لهذه الشخصيات - غالباً - النهايات فقط من بين جميع الأحداث، فهو لا يلبث حين يقف عند خطوط القصة الأولى حتى يشير إلى خطوطها الأخيرة في حياة أقوام تستقبل الدعوات بانفعال وانفجار ثم فناء وزوال، وكانت جميع الأمم السابقة تضطرب بين هاتين الخطتين حتى الصراع بين الخير والشر .

(١) سورة هود، آية ١٢٠.



وها هو ذا الزمخشري قد اعتمد القصة في مقاماته؛ متتبعاً أحداثاً ماضية واقعة، سواء من القرآن الكريم، أم السنة المطهرة، أم مما ألفه العرب وشاع بينهم من القصص بعيداً عن القرآن، والسنة، يعرض منها ما يرى عرضه، سواء بالإشارة أم الرمز مكتفياً بما اشتهر عنها وعرف، أم بالتفصيل الذي يصل به إلى موطن العبرة والعظة مدركاً مدى تأثيرها في النفوس؛ وعليه فليس بغريب إذا وجدنا الإشارة إليها مقترنة الخطى بمقاماته المتعددة؛ لأن مقامات الزمخشري وعظية أولاً وقبل كل شيء، وفي تضاعيف قصصها وأخبارها يزداد غرض الوعظ وضوحاً إن كان وعظاً، أو الوصول إلى أهداف أخرى إن كانت هي غرضاً من وراء هذه المقامة. يتضح ذلك من خلال التعقيبات على ماورد سواء كان يحمل في طياته ملامح الترغيب أم التهيب .

ومن هنا كانت القصة إحدى وسائل أصحاب المقامات للوصول إلى غاياتهم، معتمدين على واقعية أحداثها، مع التأكيد على أن ماأورده ابن الجوزي كان بهدف التربية في المقام الأول .

ولعل سائلاً يسأل: كيف ثبت ذلك خاصة عند ابن الجوزي الذي ثبت عنه ذمه للقصص والقصاص حين قال : «إن القصص مذموم، والتذكير والوعظ محمودان»^(١).

لكن الجواب يأتي في استدراكه الذي أورده في نفس الكتاب حين قال: «إن القصص لا يذم لنفسه، والقصاص لا يذمون من حيث هذا الاسم، لأن الله - عز وجل - قال: ﴿فَأَقْصُصْ الْقِصَصَ﴾^(٢)، وقال ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ﴾^(٣)، وقال ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ﴾^(٤).

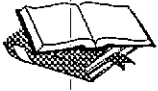
ولأن في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر، وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتبع، فإذا كان القصص صدقاً ويوجب وعظاً؛ فهو ممدوح، وإنما كره بعض السلف

(١) كتاب القصص والمذكرين، ص ٥٠.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٧٦.

(٣) سورة يوسف، آية ٣.

(٤) سورة آل عمران، آية ٦٢.



القصص؛ لأن في القرآن والسنة من القصص ما يكفي عن غيره. وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي: « وإنما كان تذكير السلف ووعظهم بالقرآن والفقهاء، والتشويق، وإنما أنكروا الميل إلى القصص عن القرآن والفقهاء، أو أن يقص من لا يعلم، ولهذا قال علي - عليه السلام - للقصص: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: نعم، قال: قص، ولما كان القصص يشغل في الأغلب عما هو أهم منه - من العلم -، وكره ما يشغل عن العلم خلق من السلف»^(١).

وعلى هذا فالقصص المذموم هو: الخارج عن قصص القرآن والسنة، وهو ليس بعامة، وإنما الذي يعتمد منه على الكذب والمبالغة، الشاغل عن قراءة القرآن، ورواية الحديث والتفقه في الدين، المفسد لقلوب العوام.

وإذا أردنا أن نقف بعد ذلك أمام القصص في المقامات لدراسته، وتطبيق عناصر القصة المتعددة، سواء كان ذلك في اعتمادها على الشخصية، أم الحدث، أم ما يدور فيها من حوادث مع تعلقها بالزمان والمكان المعين، وهو ما يطلق عليه عناصر القصة، فلن نجدها بصورها البارزة ومراحلها المتعددة، فقد يبرز في إحدى المقامات عنصر دون بقية العناصر، لما لهذا العنصر من صلة في تحقيق الهدف المقصود من إيراد القصة في ذلك الموضوع.

ومن هنا فلا وجود لكل العناصر في موضع واحد من المقامة. وإن كان الملاحظ أنها تعتمد كثيراً على إبراز عنصر الشخصية، مع اختفاء بقية العناصر، حتى بأحداثها، اعتماداً على أن مجرد ذكر الاسم؛ كإيراد اسم فرعون، وقارون يكفي لإدراك مغزى الكلام، مع التأثير بإيجاءات الاسم المرتبط بأحداث مشهورة، معروفة، دون الالتفات إلى المقومات التاريخية، فالأمر غني بنفسه، فذكر الاسم هو الإيماءة لمحل العظة والعبرة.

ولذا كان المذهب العام - عند الزمخشري - يكاد يكون في العرض غير المباشر، أو الاكتفاء بالجزء اليسير الذي هو موضع الشاهد، وإن كان الأمر - كما أسلفت - غني بنفسه فمجرد ذكر قارون، نجد أن قصته مرتبطة بكثرة المال، والغنى الفاحش الذي يطغى.

(١) كتاب القصص والمذكرين، ص ١٥٧-١٥٨.

هذا الغنى الذي يعنى في تصويره مأورده الزمخشري في مقامته السادسة عشرة من أن «مفاتيحه لاتنوء بالعصبة أولى القوة، على أنه أوفر من قارون سعة وثروة»^(١) متأثراً فيها بالقرآن الكريم^(٢) الذي اكتفى من أحداث قصته بهذا الجزء الذي يغني عن غيره، مؤكداً على وجوب القناعة. أو ذكر فرعون في مقامته العشرين «وماشيده فرعون ذو الأوتاد»^(٣) مكتفياً بذلك، دون إضافات، لكن العظة والعبرة تحققت من وراء ذكر الاسم فقط، حيث يرد على الذهن قصته، والنهاية التي سطرها القرآن الكريم، فلم ينفعه تشييده للبناء، وتكبره، وعناده وإصراره على الكفر، يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٤)، ويقول في ذكر نهايته: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَإِلهِ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ...﴾^(٥).

فالعبرة يجب أن تكون ماثلة أمام الناس، والآية يجب أن تكون قريبة من كل من تسول له نفسه أن يحذو حذو فرعون الأول، فيطغى ... ويفسد في الأرض - ويحكم بأمره .. ويتحكم في الرعية ...

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن المصير الذي سيلقونه بعد غرقهم جزاء عنادهم، كفرهم، وجحودهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٦).

كما استفاد الزمخشري من قصص السنة والسيرة في مقامته الثانية والعشرين، وهو يشير إلى قصة حاطب بن أبي بلتعة^(٧)، والتي تحمل تجربة تربوية تكفي وتغني وحدها عن خطبة في حقيقة الولاء والبراء معتمداً على شهرتها؛ فالقصة معروفة والإشارة إليها

(١) القناعة، ص ٩١-٩٢، ت: يوسف بقاعي.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إِنْ قُرُونٌ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ

لَتُنَوَّى بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ سورة القصص، آية ٧٦.

(٣) العفة، ص ١٢٤.

(٤) سورة غافر، آية ٣٦.

(٥) سورة يونس، آية ٩٠.

(٦) سورة غافر، آية ٤٦.

(٧) انظر ترجمته ص ٢٨٣ من البحث.

كافية لاستثارة النفس فتنتقل من استرخائها جرياً وراء أحداث القصة والتي احتوتها كتب السيرة.

أما الإشارة إليها في هذه المقامة فحين يقول: «وَلِيَكُنْ مِنْكَ عَلَيَّ بِأَلِ مَانَمَ اللَّهُ مِنْ حَاطِبٍ. وَمَا كَادَ يَقَعُ بِهِ مِنَ الْمَعَاطِبِ»^(١). والقصة وردت في السيرة كالتالي:

«إن النبي - ﷺ - لما أراد أن يغزو، مكة عام الفتح دعا الله تعالى أن يعمى الاخبار على قريش فكتب إليهم حاطب يعلمهم بما يريد رسول الله - ﷺ - من غزوهم، فأعلم الله رسوله بذلك فأرسل علياً، كما روى ذلك علي بن أبي طالب - ﷺ - حين قال: بعثنا رسول الله - ﷺ - أنا والزبير بن العوام والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها فأتوني به. فخرجنا تتعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجني الكتاب، فقالت: مامعي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتجردن الثياب. قال: فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي - ﷺ - فقال ما هذا يا حاطب؟ قال: لاتعجل علي يا رسول الله إني كنت امرأاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من نسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفوفاً وارتداداً عن ديني، ولا رضاء بالكفر، فقال رسول الله - ﷺ - صدق، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله - ﷺ -: إنه قد شهد بدرأً فما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

قال: وفيه نزلت هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾^(٢)^(٣).

كما أن الزمخشري اعتمد على نوع آخر من القصص بعيد عن القرآن والسنة،

(١) المقامة (٢٢): الولاية، للزمخشري، ص ١٣٩.

(٢) سورة الممتحنة، آية ١.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ١/٣٦١-٣٦٢.

كالرواني في المقامة السادسة حين يقول : «أذكُرُ المُرَوَّانِي وَمَا مَنِي بِهِ مِنْ لِحْطَةِ عَلِي رَأْسِهِ مَضْبُوبَةً. حِينَ غَضَّتْ بِحَبَّةِ الرِّمَانِ حَبَابَتَهُ الْمَحْبُوبَةَ»^(١).

وكسنمار في المقامة الخامسة والعشرين، حين ذكر شهرته في البناء، فقال:
«فَلْيَسْمُرِ السُّمَارُ بِهِ وَبِدَقَّةٍ تَصْرِيفُهُ. لَا بِسِنِّمَارٍ وَغَرَابَةِ تَرْصِيفِهِ»^(٢).

ومايعنينا هنا أن الزمخشري ذكر قصة علي حسن الاتقان في العمل، والمهارة في الصنع، كما ذكر ابن تقن الذي اشتهر بحسن الرماية فقال في المقامة نفسها: «إِنَّ عِلْمًا يَلَاعَمَلُ ، كَقَوْسٍ بِلَاوَتَرٍ. حَامِلُهَا حَيْرَانٌ مُرْتَبِكٌ فِي الْعَمَايَةِ. لَا يَهْتَدِي وَإِنْ كَانَ ابْنُ تَقْنٍ إِلَى وَجْهِ الرَّمَايَةِ»^(٣).

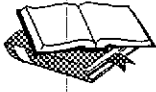
وقد قصر الزمخشري مقامته الخمسين على القصص المعروف بأيام العرب، معتمداً على الإشارة فقط إلى الأسماء كناية عن شهرة صاحبها، كحصين بن ضرار، وشثير بن خالد... الخ، وهي شخصيات حقيقية تبرز ويظهر من ورائها عنصر الحدث من غير ترتيب للحوادث، وإنما هو يستوطن عند موضع العظة والعبرة، كما في القصص التالية التي ذكرها هنا، وهي في قوله : «يَا أَبَا الْقَاسِمِ: اسْتَنْكِفْ أَنْ تَشْتَرِيَ الْمَتَاعَ الْقَلِيلَ الْفَانِي بِالْمَلِكِ الْكَبِيرِ، وَالنَّعِيمِ الْخَالِدِ. فَقَدْ اسْتَنْكَفَ أَنْ يَدْفَعَ ابْنُهُ عُتْبَةَ بِحَصِينِ بْنِ ضَرَّارِ شَثِيرِ بْنِ خَالِدٍ. وَقَدْ عَرِضَتْ عَلَيْهِ ثَلَاثٌ، وَقِيلَ لَهُ: اخْتَرْ. فَلَمْ يَرْضَ

(١) الزهد، للزمخشري، ص ٤٦-٤٧.

والرواني: هو يزيد بن عبد الملك بن مروان اشترى جارية اسمها حبابة بأربعة آلاف دينار. وبلغ من استهتاره أنه لم يلبسها عن تدبير الخلافة؛ فبناهم في لهوهم إذ أخذت حبابة حبة رمان فرمت بها في حلقها، فغصت بها، وكانت فيها نفسها، وكذب الله دعوة الفاسق حين كذب من قال: لاتصفو الدنيا لبشر يوماً. ومات بعدها بسبعة أيام، انظر: ص ٢٧٧ - ٢٧٩ من البحث.

(٢) العمل، ص ١٥٠.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٥٣-١٥٤.



إِلَّا أَنْ يُعْطَىٰ أَعْوَرَ يَاعْوَرُ»^(١).

والعظة من القصة: التحذير من الغبن في الاختيار، والمنطق يقول: لا يعطى أعور إلا بأعور.

كما ذكر قصة معاوية بن عمرو بن هاشم بن حرملة فيقول في المقامة نفسها: «وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا لَكَ مُوَيْسَةً. فَإِنَّهَا لَا - أُمَّ لَكَ - مُوَيْسَةً. تَجَرَّ عَلَيَّ طَالِبَهَا مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ مَا جَرَّتْهُ أَسْمَاءُ عَلَيَّ رَاكِبِ الشِّيمَاءِ. وَعَلَىٰ هَاشِمٍ وَدُرَيْدِ ابْنِي حَرْمَلَةَ. مِنْ وَقَعِ السِّنَانِ وَنُقُوزِ الْمَعْبَلَةِ»^(٢).

واستمر الزمخشري يذكر القصة تلو القصة، فذكر قصة علباء الجشمي^(٣)، وقصة ذبيالكف الأشل^(٤)، وحرمان بن ثعلبة^(٥)، ومالك بن الصمة^(٦)،

(١) ص ٣٠٢-٣٠٣.

وقصة ذلك: «أن عتبة بن شتير بن خالد بن نفيل بن عمرو بن كلاب، قتل حصين بن ضرار بن عمرو الضبي أبا زيد الفوارس، وزيد الفوارس حينئذ حدث لم يذكر في غزوة غزاها بنو ضبة، فأغار أبوه ضرار على ابن عمرو بن كلاب يطلب ثأره، فأسير شتيراً وأفلت عتبة، وشتير شيخ أعور، فقال له: اقتلك مكانه. قال: نعم، فأمر ابنه أدهم بن ضرار بقتله. فنادى شتير يا عامراً أصير بضبي؛ أي بسبب ضبي. يضرب في حلول البلاء بالشريف من الوضع، فسيرها مثلاً»^(١) انظر: شرح مقامات الزمخشري، يوسف بقاعي، ص ٣٠٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٠٣-٣٠٤.

فالمومسة: المرأة الفاجرة من الومس، وهو الكلام الخفي، واسم بغني كانت في بني مرة بن سعد بن ذبيان. والشيماء: فرس معاوية بن عمرو بن الشريد، وهو أخو الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد، وهاشم ودريد: رجلان من ساداتهم. انظر: شرح المقامات: ص ٣٠٤-٣٠٥. المعبلة: من النصال. انظر: اللسان، مادة: عبل.

(٣) انظر: المقامة نفسها، ص ٣٠٤-٣٠٦ وقصته فيها

(٤) انظر: المقامة نفسها، ص ٣٠٦-٣١٠.

(٥) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١٠.

(٦) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١١-٣١٢.



وربيعة بن مكرم^(١)، وهكذا ظل يذكر حوالي ثمانين عشر قصة^(٢).

واختار الزمخشري في مقامته الخمسين هذه أحداثاً بعينها من تاريخ أيام العرب وقصصهم، وقعت لأشخاص يذكرهم بصفاتهم الواضحة بما فيها من نقائص وضعف وقاتل، حرصاً على الحياة، مع الوصول إلى مصائرهم المحتومة التي انتهوا إليها؛ ولذا جاء السرد ليرسم الصورة المباشرة لشخصيات ثبت وجودها من خلال ما قامت به من أحداث. ورغم أنهم أفراد من الناس يعيشون تحت حكم القضاء والقدر فإنها تحمل الكثير من الآثار، وتستثير من الناس الانفعال، وكان الغرض هو التخويف، وتثبيت الخشية في النفوس، خاصة ماورد في نهايتها من تعقيبات مستعينة بضرب الأمثال. فكان الاختيار موفقاً من الناحية الفنية ومن الناحية التربوية.

أما بديع الزمان الهمداني فقد عول في قصصه على الواقع التاريخي كما في المقامة الصَّيْمَرِيَّة؛ فيقول: حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي الْعَنْبَسِ الصَّيْمَرِيِّ*: إِنَّ مِمَّا نَزَلَ بِي مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ اصْطَفَيْتُهُمْ وَانْتَجَبْتُهُمْ وَأَدَّخَرْتُهُمْ لِلشَّدَائِدِ مَا فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ وَأَدَبٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ وَاتَّعَظَ وَتَأَدَّبَ^(٣)، وعليه فقد ساق القصة للعظة والعبرة كما ذكر آنفاً. وفحوى القصة أن الصيمري هذا أقبل من الصيمرة التي ينتسب إليها، إلى مدينة السلام ومعه المال الوفير، واتخذ لنفسه صحبة من عليه القوم ينادمونهم ويأكلونه ويشاربونهم إلى أن نفذ ماله، وتفرقوا عنه فتألم فما وجد من هؤلاء الإخوان الذين لا يجتمعون إلا على الخوان، فخرج يلتمس المال الذي جمعه بكل حيلة، فعادوا يعتذرون مما بدر منهم، فأوهمهم أنه صفح عنهم، وأعد لهم في اليوم التالي طعاماً وشراباً إلى أن سكروا، وأبلغ غلمانهم أنهم بائون عنده، ثم أرسل إلى المزين الذي أطعمه وسقاه وأعطاه دينارين، فحلق في ساعة خمس عشرة لحية، فصاروا

(١) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١٢-٣١٤.

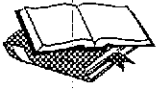
(٢) انظر: المقامة نفسها، ص ٣١٤-٣٢٩.

(٣) المقامة ٤٢، شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، محمد مجي الدين عبدالحמיד، ص ٣٣٣.

(*) أبو العنبس الصَّيْمَرِيُّ ت سنة ٢٧٥هـ: محمد بن إسحاق بن إبراهيم ابن أبي العنبس بن

المغيرة بن ماهان، كان شاعراً أديباً، مطبوعاً، ذا ترهات، وله تصانيف هزلية نحو الثلاثين،

وكان نديماً للمتوكل. انظر: معجم الأدباء، للحموي، ٤٠٦/٥ - ٤٠٧.



جرداً مرداً، وجعلت لحية كل واحد منهم مصرورة في ثوبه ومعها رقعة مكتوب فيه العظة والفائدة التي قصدت منها القصة وهي : «مَنْ أَضْمَرَ بِصَدِيقِهِ الْغَدْرَ وَتَرَكَ الْوَفَاءَ، كَانَ هَذَا مَكَافَأَتُهُ وَالْجَزَاءُ»^(١)، ثم جعل كل واحد منهم في صنان، وأرسل خلف الحمالين الذين استأجرهم غلامه فحملوهم إلى منازلهم، فلما أصبحوا رأوا في أنفسهم همماً عظيماً حبس كل واحد منهم في داره، خوف معرفة الناس لقصتهم، وكان من بينهم كاتب الوزير ابن عبيدا لله* الذي حين علم بتلك النادرة ضحك ضحكاً كاد يأتي عليه، وبعث إلى أبي العنيس بخمسين ألف درهم جزاء له على فعلته الظريفة.

وفي ختام المقامة أضاف الهمداني، ووضح العظة، فقال: «وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ؛ لِيُتَّخَذَ الْحَذَرُ مِنْ أَبْنَاءِ الزَّمَنِ، وَتُتْرَكَ الثِّقَّةُ بِالْإِخْوَانِ الْأَنْدَالِ السَّافِلِ، وَيُقْلَانِ الْوَرَّاقِ النَّقَامِ الزَّرَافِ الَّذِي يُنْكِرُ حَقَّ الْأَدْبَاءِ، وَيَسْتَحِفُّ بِهِمْ، وَيَسْتَعِيرُ كُتُبَهُمْ لَا يَرُدُّهَا عَلَيْهِمْ»^(٢).

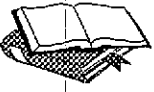
وإلى مثل ذلك عمد البديع حين ذكر قصة بشر بن عوانة العبدي، فقال: «كَانَ بَشْرُ بْنُ عَوَانَةَ الْعَبْدِيُّ صَعْلُوكًا، فَأَعَارَ عَلَى رَكْبٍ فِيهِمْ امْرَأَةً جَمِيلَةً، فَتَزَوَّجَ بِهَا، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ»^(٣)، ويستمر الحوار بينهما، لتظهر له أن ابنة عمه فاطمة أجمل منها، فيخطبها من عمه، فيرفض، فتستمر الشهور والسنون، وبشر يفتك بمن يلقى من قومه؛ ليستجيب عمه لطلبه، فأراد أن يردعه عن فعله، لذا طلب منه مهراً لها ألف ناقة من نوق خزاعة، وتلك الحيلة؛ لأن الطريق للوصول إلى تلك النوق فيه مخاطر تكمن في أسد وحية، فلما تغلب على الأسد أرسل بأبيات من الشعر لابنة عمه يفخر بشجاعته، فندم العم على منعه تزويجها، وخشي أن تناله الحية، فقام في أثره، ووجده مع الحية التي تغلب عليها فيعودان معاً، فيعترض سبيلهما فتى من الفرسان الشجعان،

(١) المقامة نفسها، ص ٣٧٠.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣٧٣.

(٣) المقامة (٥١): البشرية، شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، محمد محيي الدين عبدالحميد، ص ٤٤٩-٤٥٣.

(*) القاسم بن عبيدا لله (٢٥٨-٢٩١هـ) هو والد أبي جعفر محمد بن القاسم الذي استوزره الخليفة العباسي (القاهر)، واستوزر أبوه عبيدا لله للخليفة (المعتضد) كما استوزر هو له أيضاً سنة ٢٨٨هـ. انظر: الأعلام، الزركلي، ١٧٧/٥.



وتقع معركة يتغلب فيها الفتى الفارس المجهول على بشر بن عوانة، ويتضح في آخر الأمر أن هذا الفارس لم يكن إلا ابنه من تلك المرأة التي أرشدته لجمال ابنة عمه، فيتنازل عن الزواج بها ويزوجها لابنه^(١).

ولعلك لاحظت أن الحكمة القصصية كانت في كلتا القصتين متماسكة، لا تفكك فيها، رغم أن حوادثها كانت تسير سيراً بطيئاً، فهناك وقت من الزمن استغرقه الصيمري في التنقل بين البلدان لجمع المال، ومن ثم العودة، وتدبير تلك النادرة مع خلانه غير الأوفياء. وكذا الحال في قصة بشر بن عوانة التي كان التوقيت فيها يسير سيراً بطيئاً منذ بدء خطبته لابنة عمه، والموافقة التي لم يحصل عليها إلا بعد مرور سنوات، والوقت الذي استلزمه؛ ليفي بشروط عمه، ويحضر المهر، ومن ثم مقابله بابنه الذي تنازل له عن الزوجة التي حبس نفسه وأعماله، ليصل إليها. فهل نعتبر ذلك خللاً اجتاح حيكته القصصية في آخرها، أو هو عنصر المفاجأة أراد الهمداني أن يظهره لنا في آخر القصة؟ وإن يكن هذا، فكيف تحولت عاطفته نحو ابنة عمه في لحظات، أم أن حب الابن هو الذي يطغى على ماسواه من عواطف؟؟!

أما عن الشخصيات فنلاحظ أن البحث اختار شخصيتين متناقضتين؛ ليدل على أن البديع تعرض لمعظم الشخصيات التي كانت تقع عليها عينه في مجتمعه؛ فالأولى شخصية - الصيمري - وهو من علية القوم مليئة بالحب والعطاء، في بداية القصة؛ لأنه جمع من ظنهم مثله في الخلق، فأعطى، وأنفق بسخاء، لكن الأيام كشفت عن أنهم خلاف ذلك، فتفرقوا؛ حين قبض ماله، وفي هذه القصة تظهر لنا شخصية الخادم الذي يعين سيده في تنفيذ ما يريد، دون أن يراجع، وشخصية المزين أو الحلاق الذي أغراه بالطعام والمال، لتنفيذ أصل الخطة، فحلق لحمسة عشر رجلاً في ساعة واحدة دون تردد، وبدون أن يسأل نفسه هل أصحاب هذه اللحى موافقون أم لا؟ لكن الطمع في الحصول على المال هو الذي أعماه، إلا أن أهم شخصية في هذه القصة.. هو الصيمري نفسه - كما أسلفنا -؛ فهو لم يأبه بعد أن انتقم منهم لما يحدث له، فالشخصيات التي تعرض لها كان في إمكانها إيذاؤه، ككاتب الوزير، ولكن تفكيره في تنفيذ ما عزم عليه، لم يجعله ينظر للعواقب - وربما فكر - ولكن فكرة الانتقام كانت لها

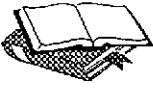
(١) انظر: المقامة نفسها، ص ٤٥٢-٤٨٤.

الغلبة والانتصار، ونسي أن العفو من شيم الكرام، والعفو عند المقدرة خاصة، وكان في مقدوره أن يعفو؛ لكن البديع جعل القصة كلها والطرفة في الانتقام منهم، والأطرف في الكيفية التي لجأ إليها.

والثانية شخصية بشر في القصة الثانية، كانت للص من اللصوص، ظهرت بالصورة التي كان عليها الفتاك و الصعاليك، شخصية جريئة، شجاعة، لاتهاب الموت في سبيل تحقيق ماتطمح إليه، حتى لو كان في سبيل ذلك أن تتعرض لأهلها وقبيلتها بالقتل والإيذاء، كما فعل بشر بن عوانة حين رفض عمه الموافقة على زواجه من ابنة عمه - فاطمة -، وكذا ظهرت الشجاعة مع الجرأة لهؤلاء الفتاك منذ بداية القصة؛ حين تعرض الأب لقافلة وبنى بأجمل بناتها، وأما قمة الشجاعة ففي قتاله للأسد، ومن ثم الحية. لكن أفضل ما أظهرها حين عمد البديع إلى ما يسمى بأسلوب المفارقة فجعل الشجاعة تظهر في صورتين، صورة الأب ومن ثم الإبن، الذي جعل شجاعة والده كالظل، بل قل لاشيء، فقد خرج بعد عراكه معه وقد امتلأ جسد الأب بالجراح والطحن، وكان في إمكانه أن ينهي ذلك بالقتل، لكنه اكتفى لنتهي القصة بتلك الخاتمة. إلا أن من أجمل الشخصيات هنا شخصية العم التي ظهرت منذ ذكرها بصورة الأب الذي يخاف أن يرمي بابنته في التهلكة، حتى وإن كان الطالب لها ابن عمها، الذي كان له السبق في الحصول عليها كعمتاد العرب آنذاك وقد كانت نعم الشخصية؛ لأنه لم يعط ابنته لابن أخيه رغم ماتعرضوا له من الإيذاء، تنفيذاً لأوامر رسول الله - ﷺ -: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»^(١).

وهذا خلقه ودينه سيء، فهو قاطع طريق، إلا أن شخصية الأب بما جبلت عليها من حذب وعطف تأبى إلا أن تظهر، وقد ظهرت هنا حين سمع أبيات الشعر من ابن أخيه بعد قتله للأسد، فخاف عليه من الحية، فلحق به، بعد أن عادت الرحمة تتغلل بين حنايا صدره، وهكذا حال الآباء. أما شخصية المرأة التي ظهرت هنا - في هذه القصة - فبدت أنها لاتنسى ثأراً لها، فقد حولت أنظاره لابنة عمه، والإبن الذي أنجبت منه ربه، وعلمته، وأطلقت في أثر أبيه.

(١) رواه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب ماجاء في فضل النكاح، ٥٩٢/١.



أما الحوار فقد كان جلياً بين شخصيات القصتين؛ ففي الأولى يأخذ حظه بين الصيمري وغلामه، كمستوى الحوار الذي يحصل بين سيد ومسود، وكذا يتسم بالرقى حين يظهر بين الوزير وأحد حاشيته ومن ثم قوله: ((والله لقد أصاب وما أخطأ فيما فعل، ذروه، فإنه من أعلم الناس بهم))^(١).

وفي الثانية أيضاً لا تخلو من الحوار، كالذي بين بشر بن عوانة والمرأة التي بنى بها، ويظهر فيه مكر ودهاء المرأة التي تستطيع بأسلوبها أن تصل إلى ماتريد، والذي غدت ابنها، وربته عليه، ويظهره الحوار الذي دار بينه وبين والده كقوله: ((ثَكَلْتُكَ أُمَّكَ يَابِشْرُ إِنَّ قَتَلْتَ دُودَةً وَبَهِيمَةً تَمَلَأُ مَاضِغَيْكَ فَخَيْرٌ؟ أَنْتَ فِي أَمَانٍ إِنْ سَلَمْتَ عَمَكَ. فَقَالَ بَشْرٌ: مَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟))^(٢).... وهذا الحوار يظهر عدم التأدب في الحديث من الابن مع أبيه، لكن من أين يأتي التأدب من ابن أبوه لص، وأمه حاقدة؟؟!

أما العقدة فتختلف في القصتين، فالأولى تقوم على حب التطلع لمعرفة ماسيؤول إليه حال الرجال بعد أن يستيقظوا من نومهم، فيجدوا أنفسهم وقد انتقلوا من دارالصيمري إلى دورهم، ومن ثم اكتشاف حلق لحاهم.

وفي الثانية تقوم العقدة على الصراع النفسي العنيف، لمعرفة المصير الذي سيسير إليه بشر بن عوانة، وقد ذهب لقتال الأسد، ومن ثم الحية، وأخيراً، ربما يهلث القاريء لمعرفة خاتمته، وقد ظهر هذا الفارس لقتاله ونال منه بينما بشر لم يصبه بأي أثر...

وهذا الحريري نجد معظم قصصه تقوم على الحيلة، إن لم تكن كلها، حتى مقامته الصورية التي يمكن أن نزع من استقاها من قصص آل ساسان، وحياتهم والتي كان لها نمط واضح، صورته هذه المقامة، فلهم رئيس، وملاك، وشروط في الزواج، تقوم على أن يتزوج المكدي، مكدية مثله، ويحق له أن يضع شروطه فيها كأن تكون ماهرة في التكدي، سليطة اللسان... الخ، يقول الحريري على لسان المملك: ((هَذَا أَبُو الدَّرَاجِ، وَوَلَّاجُ بْنُ خَرَّاجِ، ذُو الْوَجْهِ الْوَقَّاحِ، وَالْإِفْكِ الصُّرَّاحِ وَالْهَرِيرِ وَالصِّيَّاحِ،

(١) المقامة الصيمرية، ص ٣٧٣.

(٢) المقامة البشرية، ص ٤٨٠-٤٨١.

وَالْإِبْرَامِ وَالْإِلْحَاحِ، يَخْطُبُ سَلِيطَةَ أَهْلِهَا، وَشَرِيظَةَ بَعْلِهَا، قَنْبَسَ بِنْتِ أَبِي الْعَنْبَسِ، لَمَّا بَلَغَتْ مِنَ التَّحَافِ بِإِلْحَافِهَا، وَإِسْتِرَافِهَا فِي إِسْفَافِهَا، وَأَنْكِمَاشِهَا عَلَى مَعَاشِهَا وَأَنْتَعَاشِهَا عِنْدَ هِرَاشِهَا...»^(١).

فهذه أوصاف أهم شخصيتين في المقامة العروس والعريس، فهل هناك أغرب من هذه الأوصاف؟ المعروف أن تخطب المرأة لملها، أو لجمالها، أو لحسبها، أو لدينها، ويقول الرسول - ﷺ -: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٢).

أما المهر فلا أغرب منه، حيث يقول: «وَقَدْ بَدَلْ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ شَلَّاقًا وَعَعَكَازًا، وَصِقَاعًا وَكَرَازًا...»^(٣).

وبالنظر للشخصية الثالثة في هذه القصة فيمثلها الشيخ الذي عقد هذا العقد، والذي اشترط الصهر أن يكون: «(جال وجاب وشب في الكدية وشاب)»^(٤).

وبالنسبة للزمان والمكان فقد وضحهما الحريري فقال: «تُقْتُّ إِلَى مِصْرَ تَوْقَانَ السَّقِيمِ إِلَى الْأَسَاءِ»^(٥)، ثم حدد وخصص زيادة ليظهر أنه مكان سيعقد فيه عقد زواج؛ ووصف المكان بعد وصوله إليه فقال: «فَأَفْضَيْنَا بَعْدَ مُكَابِدَةِ الْعَنَاءِ، إِلَى دَارٍ رَفِيعَةِ الْبِنَاءِ، وَسَيِّعَةِ الْفِنَاءِ، تَشْهَدُ لِبَانِيهَا بِالثَّرَاءِ وَالنَّثَاءِ... رَأَيْتُ دَهْلِيْزَهَا مُجَلَّلًا بِأَطْمَارٍ مُخْرَقَةٍ، وَمَمَكَّلًا بِمُخَارِفٍ مُعَلَّقَةٍ، وَهُنَاكَ شَخْصٌ عَلَى قَطِيفَةٍ، فَوْقَ ذَكَّةٍ لَطِيفَةٍ...»

(١) المقامة (٣٠)، شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٣١. هراشها: مخاصمتها، انظر: اللسان، مادة: هرش.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الاكفاء في الدين، ٩/٧. ورواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - تحت رقم (٥٣)، كتاب الرضاع، باب (١٥)، ١٠٨٦. ورواه عن جابر - رضي الله عنه - تحت رقم (٤٥)، ١٠٨٧/٢. والترمذي في كتاب النكاح، باب (٤)، ٣٩٦/٣ وقال حديث حسن صحيح. وأبوداود تحت رقم (٢٠٤٦)، كتاب النكاح، ٢١٩/٢.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٣١، شلاق: هو شبه المخلاة، صقاع: رداء يوضع على رأس المرأة، انظر: اللسان، مادة: شلق، صقع.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٣٠.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢٢٨، الأساءة: جمع الآسي وهو الطبيب، انظر: اللسان مادة: آسي.

فولجت الدار... فإذا فيها أرائك منقوشة، وطنافس مفروشة، وتمازق مصفوفة،
وسجوف مرصوفة»^(١).

والحبكة القصصية تلمحها منذ بداية المقامة، حين ارتحل الراوي من مدينة المنصور إلى بلدة صور، ثم إلى مصر، ومن ثم توالى الأحداث، فإذا به يجد جماعة، ويسأل عن وجهتهم، وحين يعلم أنهم شهود في حفل زواج لحق بهم، ولكن الندم مالبث أن بدأ يتتابه، للذي شاهده من القوم، خاصة حين بدأوا يتناولون الطعام بعد إتمام خطبة النكاح، وهنا تبلغ العقدة أوجها، فكيف سينسل من بينهم؟ ولما وافته الشجاعة لمح شيخهم، وهنا لا تملك إلا أن تنتظر لترى ما حدث له، وما المصير الذي سيؤول إليه؟ ولكن لا ينفع الندم لات ساعة مندم، فلم يجد إلا البكاء وسيلة له، لعله يخرج من المأزق الذي وضع نفسه فيه، والطمع الذي جره إلى هذا الموقف، فما هو إلا طفيلي حضر بدون دعوة، ظناً منه كما قال: «سرت مع الفراط، لأفوز بجلاوة اللقاط، وأحوز حلواء السماط»^(٢)، لكن كربه قد فرج، بعد أن أرسل البكاء مدراراً، وعرف في شيخهم أبا زيد السروجي فأكله وجالسه طوال مدة إقامته في مصر.

ومع أن القصة كانت على لسان الراوي، فإن للحوار نصيباً فيها، كذلك الذي قام بين الراوي والشيخ حين أراد أن يفر الحارث بن همام من الزحف، وينسلت من الصف فقال له الشيخ: «إلى أين يابرم؟ هلاً عاشرت معاشرة من فيه كرم. فقال الحارث: والذي تخلقها طباقاً وطبقها إشراقاً، لاذقت لماًقا، ولالمت رفاقاً»^(٣).

ونخلص إلى أن القص عند ابن الجوزي والزنجشري اعتمد على قصص الأنبياء، لكن ابن الجوزي اتكأ من بداية عرضه للقصص على ملامح الشخصيات التي يجمعها الكبر والعناد، ويتتقى منها النهايات فقط، وكذا الزنجشري الذي كان يكتفي بذكر اسم الشخصية، فيصل إلى موطن العبرة والعظة، لأنه يدرك مدى تأثيرها في النفوس،

(١) المقامة نفسها، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٢٨.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٣٢، برم: بخيل، ولويم، لماقا: قليلاً، رفاقاً: خبزاً، انظر: اللسان، مادة:

برم، طقق، رقق.



إلا أن ابن الجوزي أضاف إلى قصص الأنبياء القصص على لسان الحيوان، وأضاف الزمخشري بعض قصص السنة النبوية، ومما ألفه العرب وشاع بينهم كأيام العرب، ينتقى منها مقطع العبرة والعظة، أما عن عناصر القصة فلن نجد بها الصورة البارزة ومراحلها المتعددة، فقد يبرز في إحدى المقامات عنصر دون بقية العناصر، لما لهذا العنصر من صلة في تحقيق الهدف المقصود من إيراد القصة في ذلك الموضوع. وأبرز عنصر ظهر هو: عنصر الشخصية، بينما عنصر الحوار، والزمان والمكان والحبكة القصصية قلما تظهر، وإن ظهرت فلن تكون الوعظ الذي كان نصب أعينهم .. أما الحريري والهمذاني، فقد عول الأخير منهما على الواقع التاريخي، وشخصيات تعكس المجتمع الذي يعيشه، ومعظم عناصر القصة موجودة لديه إن لم تكن كلها بينما الحريري تقوم قصصه على إبراز عنصر الحيلة من قبل شخصياته.



الواقعية :

إن مصطلح «الواقعية» من المصطلحات الفضفاضة التي تختلف مفاهيمها باختلاف ميادين النشاط الإنساني من جهة، وباختلاف اتجاهات النقاد والأدباء ومنظري الأدب من جهة أخرى.

إلا أن عباس محمود العقاد كان أقرب إلى الصواب في نظره للواقعية حين قال: «إن الواقعية لا تجرد البشرية من أحلامها، ولا تجرد الدنيا من محاسنها، فلا يعاب الأدب الذي يصور لنا الإنسان على حقيقته، والدنيا على حقيقتها، وما وراء ذلك فهو وراء الواقع في الحس وفي العقول»^(١).

«والفن الإسلامي فن منفتح على شتى المذاهب الفنية، مادامت منسجمة في اتجاهها وتفصيلها مع حركة الكون والإنسان الإيجابية في سبيل الحق والعدل الأزليين، وفي إطار الجمال المبدع، بعيداً عن التزييف والكذب والتناقض. إنه مرن بحيث يتسع لكل المذاهب، ويزيد عليها في سعة نظره الكونية وعمقها وشمولها ... إنه واقعي حين يعلن ثورته الانقلابية على كل القيم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وعلى كل الطواغيت لا تقرها وحدانية الله، والتي يأبأها التحرر الوجداني للإنسان المسلم، ذلك التحرر الذي يبدأ من أعماقه لينتهي بالكون ... واقعي حين يصرخ في وجوه القوى المتسلطة التي تعذب الإنسان بالظلم الاجتماعي، وبالتناقض الطبقي بشتى مستوياته، ويخفق حرите والاستهانة بكرامته .. واقعي حين يعبر عن لحظات الضعف البشري أمام شتى المغريات»^(٢)، «ولكنه لا يسلط عليها الأنوار باعتبارها لحظة الانتصار، ولكن باعتبارها لحظة الضعف»^(٣).

(١) دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، ص ٣١، مكتب غريب، الفجالة، مطبعة دار العالم العربي.

(٢) في النقد الإسلامي المعاصر، د. عماد الدين خليل، ص ٤٠-٤١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(٢)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٣) منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص ٦٦-٩٤، دار الشروق، بيروت، ط(١)،



ومن هذا المنطلق الإسلامي للواقعية، يبدأ البحث يرصد الواقعية في المقامات، وذكر بعض النماذج لها، وسيكون التركيز أكثر على الواقعية الإسلامية، ولتكن البداية مع الهمداني، مراعين في ذلك التسلسل التاريخي، رغم أن القاريء قد يعترض أساساً على وجود واقعية إسلامية في مقامات قامت أصلاً على الكدية التي نهى عنها الإسلام، فما بالك بكل تلك الخيل التي عمدوا إليها للحصول على ما يريدون!!، إلا أن عذرنا يكمن في أنهم عاشوا عصراً من عصور الإسلام، وفي مجتمع إسلامي، فلانعدم أن نجد واقعاً إسلامياً هنا أو هناك، وهذا ماستثبته الدراسة - إن شاء الله -.

وهذا راوي مقامات الهمداني ينتقل من بلد إلى آخر، وكذا البطل، وبين سبب هذا الانتقال أو السفر فمرة يطلب الحاجة كما في المقامة السجستانية حين قال: «حَدَا بِي إِلَى سِجِسْتَانَ أَرَبِّ»^(١)، وأخرى بسبب هوى في النفس، وحب للسفر ليس إلا، كما في مقامته التي قال فيها: «كُنْتُ وَأَنَا فَيْتِي السَّنُّ أَشَدُّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَايَةٍ، وَأَوْكُضُ طِرْفِي إِلَى كُلِّ عَوَايَةٍ»^(٢)، وفي أخرى يقول: «اتَّفَقْتُ لِي حَاجَةٌ بِحُمُصٍ فَشَحَذْتُ إِلَيْهَا الْحِرْصَ»^(٣)، وقد يشد الرحال هرباً كما في قوله: «لَمَّا نَطَّقَنِي الْغِنَى بِفَاضِلِ ذَيْلِهِ، أَتَهَمَّتْ بِعَمَالِ سَلْبَتِهِ. أَوْ كَنَزَ أَصْبَتَهُ، فَحَفَرَنِي اللَّيْلُ، وَسَرَّتْ بِي الْخَيْلُ، وَسَلَكْتُ فِي هَرَبِي مَسَالِكٌ لَمْ يَرُضْهَا السَّيْرُ ... وَبَلَغْتُ أَدْرِيجَانَ ...»^(٤).

وقد يكون سبب سفر راوي الهمداني القيام بأداء نسك الحج، كما قال في إحدى مقاماته: «بَيْنَا أَنَا بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، قَافِلاً مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ»^(٥)، وقوله: «لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الْحَجِّ فِيمَنْ قَفَلَ»^(٦)، وقوله: «لَمَّا أَرَدْتُ الْقُفُولَ مِنَ الْحَجِّ»^(٧)، وربما كان السفر

(١) المقامة (٤): شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، محمد مجي الدين عبد الحميد، ص ٢٥.

(٢) المقامة (٥): الكوفية، ص ٣١.

(٣) المقامة (٦): الأُسدية، ص ٣٥-٣٦.

(٤) المقامة (٨): الأذريجانية، ص ٥٣.

(٥) المقامة (٢٠): القرودية، ص ١١١.

(٦) المقامة (٢٣): الحلوانية، ص ٢٣٢.

(٧) المقامة (٤٦): الصفرية، ص ٤٠١.



للتجارة ويظهر ذلك في قوله : «لما قفلنا من تجارة إرمينية أهدتنا الفلاة إلى أطفالها»^(١)،
وفي قوله: «لما جهز أبو الفتح الإسكندري ولده للتجارة، أفعده يوضيه»^(٢).

وقد يكون السفر لطلب العلم كما في قوله : «طفت الآفاق حتى بلغت العراق، وتصفحت دواوين الشعراء»^(٣).

وكذا الحال بالنسبة لباقي كتاب المقامة؛ فيندر أن يكون زاويهم أو بطلهم من غير محبي الأسفار، أو حائناً عليها كما في مقامة ابن نباتة السعدي الذي حثهم على شد الرحال إلى طلب العلم عند العلماء، وذكر لهم واحداً منهم، فقال: «إنه كما علمتم، وخلاف ماظننتم، فهو العالم والعالم، والغيث الهامل، والحير العابد، والخير العايد... فإذا وصلتكم حماه، ووجدتم من نوره وهداه فبشراكم»^(٤).

لأن كل من سافر، وكان مطلبه العلم والدين أو الكفاية؛ للاستعانة على الدين، كان من سالكي سبيل الآخرة، إلا أن لسفره شروطاً وآداباً إن أهملها كان من عمال الدنيا، وأتباع الشيطان، وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بأعمال الآخرة، والسفر أقسام:

القسم الأول : السفر في طلب العلم .

القسم الثاني: أن يسافر لأجل العبادة من حج أو جهاد.

وفي الحديث : «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»^(٥).

القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش، وذلك أيضاً

(١) المقامة (٣٦): الأرمنية، ص ٢٧٩.

(٢) المقامة (٤١): الوصية، ص ٣١٦.

(٣) المقامة (٢٨): العراقية، ص ١٨٦.

(٤) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ١١ من المخطوط.

(٥) رواه البخاري برقم (٦٤٥)، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل

الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٥٦/٢، والإمام أحمد في المسند، ٢٣٤/٢-٢٧٨.

حسن، فالفرار مما لا يطاق، من سنن الأنبياء والمرسلين، وقد كان من عادة السلف -رضي الله عنهم- مفارقة الوطن خيفةً من الفتن.

القسم الرابع: السفر هرباً مما يقدر في البدن أو في المال؛ كغلاء السعر، أو مايجري مجراه^(١).

وكل هذه الأقسام وردت عند الهمداني، ماعدا الأخير منها.

أما ابن نايقا فراويه كثير التنقل غير أنه لم يحدد السبب، وفي ذلك يقول: «حَدَّثَنِي بَعْضُ الْبَادِيَةِ قَالَ: مَرَرْتُ بِعَيْنِ جَارِيَةٍ، فِي ظِلِّ دَوْحَةٍ ضَافِيَةٍ، بِأَرْضٍ مَوْحِشَةٍ الْأَثَرِ، وَأَنَا عَلَى جَنَاحِ السَّقْرِ»^(٢)، ويقول: «حَدَّثَنِي بَعْضُ الشَّامِيِّينَ، قَالَ: يَمُتُ الْعِرَاقُ فِي بَعْضِ السَّنِينَ، فَأَنْتَهَيْتُ إِلَى مَدِينَةِ السَّلْمِ وَالنَّفَقَةِ»^(٣).

على خلاف الحريري الذي وضع أنه يعلم فوائد السفر، ولذلك فهو يجب السفر والتنقل، يقول في ذلك: «كُنْتُ فِي عُنْفُوانِ الشَّبَابِ، وَرَيْعَانِ الْعَيْشِ اللَّبَّابِ، أَقْلِي الْاِكْتِنَانَ بِالْغَابِ، وَأَهْوَى الْاِنْدِلَاقَ مِنَ الْقِرَابِ؛ لِعَلْمِي أَنَّ السَّفَرَ يَنْفُجُ السُّفْرَ، وَيُنْتِجُ الظَّفَرَ، وَمُعَاقِرَةَ الْوَطَنِ تَعْرِقُ الْفِطْنَ، وَتَحْقِرُ مَنْ قَطَنَّ»^(٤). ففي قوله: «إِنَّ السَّفَرَ يَنْفُجُ السُّفْرَ...» إشارة إلى فوائد السفر. لأن السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مرغوب إليه.

ومن فوائده: علمه - أي الإنسان - بآيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر. قال عليه الصلاة والسلام: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»^(٥).

(١) انظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) المقامة (١)، المقامات العشر، لابن نايقا، ص ١.

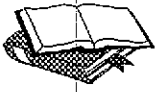
(٣) المقامة (٣)، المقامات العشرة، لابن نايقا، ص ٦.

(٤) المقامة (٣١): الرملية، للحريري، شرح الشريشي، ٣/٤. السفر: قطع المسافة، السفارة: طعام

المسافر، انظر: اللسان، مادة: سفر.

(٥) رواه الترمذي (٢٦٤٧) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - في كتاب العلم، باب (١):

فضل طلب العلم، ٢٩/٥، قال: هذا حديث حسن غريب.



وهذا الأسواني يبحث على السفر ويذكره، بل افتتح به مقامته، فقال: «كُنْتُ فِي عَنفوانِ عُمَيْرِي وَرَيْعَانِهِ، وَشَرَحَ شَبَابِي وَعَيْسَانِهِ، أَشْتاقُ إِلَى الاغْتِرابِ شَوْقَ الغَرِيبِ إِلَى الإِيَابِ، وَأَصْبُو إِلَى مَفارِقَةِ الجَنابِ، وَأَرى مُلازِمَةَ الوِطَنِ، جَلْبَةً لِلأَفْنِ، وَمَشَبَّهُةً لِأَذْرَاعِ الكَفَنِ، حَتَّى فَلَوْتُ الفِلواتِ تَشْرِيقاً وَتَغْرِيباً، وَأَبَدْتُ قُوَى البِيدِ آسِاداً وَتَأْوِيّاً، وَكُنْتُ لِأَحطِّ بَوادٍ وَلَا أَنْزِلُ بِحَضْرٍ وَلَا بَوادٍ إِلَّا صِرْتُ عَلاماً لِعَلمائِهِمْ وَفَضلائِهِمْ، وَمَعَلاماً لِأَدبائِهِمْ...»^(١).

ولعل السبب واضح في حبه للأسفار؛ ألا وهو حب العلم والاستزادة منه.

أما أجمل ما قيل عن السفر فهو ما ذكره ابن الجوزي؛ لأنه سفر إلى الله - عز وجل - حيث يقول فيه: «جَلِستُ مَعَ الفِكرِ بِنادٍ مِنَ الأَنْدِيةِ، فَلاحَ رَكبٌ بِوَادٍ مِنَ الأُردِيةِ، فَقمْنَا لِنَسْتَبِينَ الحَوالِ، فَإِذا رَكبَانُ عَلى الرِّحالِ، فَنَظرْنَا فَإِذا العَقلُ قَدَّ نَفَرَ فِي نَفَرٍ، فَقلْتُ: إِلَى أَيْنَ؟ قالَ: السَّفَرُ، فَقلْتُ: هَلْ تَصِحُّ لِي مَعَكَ صَحبَةٌ؟ فَقالَ: اغْرَبْ يا قَلِيلَ الصَّبْرِ عَلى الغَربِ»^(٢) فقد أراد أن تكون صحبته في السفر صحبة حسنة، وهذا ما يجب على المسلم أن يفعله، لو نوى على السفر؛ لأن الصديق لا يظهر على حقيقته إلا في السفر، فهذه أول العدة التي يعدها المسافر. لأن للمسافر آداباً من أول نهوضه إلى آخر رجوعه؛ ومنها: أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب، ولا يأخذ قدراً يوسع به على رفقاءه، ولا يبد في السفر من طيب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار مكارم الأخلاق. وأن يختار رفيقاً فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق، وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي، ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه، وقد نهى رسول الله - ﷺ - أن يسافر الرجل وحده، وقال: «إِذا كانَ ثَلاثَةً في سَفرٍ فليؤمروا أحدهم»^(٣).

(١) المقامة الحصيبة، للأسواني، ص ١ من المخطوط.

(٢) المقامة (٨): في السفر إلى الله - عز وجل - مقامات ابن الجوزي، ص ٦٤.

(٣) رواه أبو داود (٢٦٠٩) في كتاب الجهاد، باب القوم يسافرون يؤمر أحدهم عن حديث أبي

سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، ٣/٣٦، وأحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه -،

وإنما يحتاج إلى الأمير؛ لأن الآراء تختلف في مصالح السفر، ولانظام إلا في الوحدة^(١).

وكل هذه الآداب طبقت في مقامة ابن الجوزي، يقول في ذلك: «فنهضت نهضة غشمشم، وقمت قيام من شم عطر منشم، وجمعت متاع المشرى في أفريقي،... واستبدلت من فريقي رفريقي، فلما انتظمني سلك صحبته، أسرنى ملك محبته:

فصرت أفرش خدي في طريقكم * ذلاً وأسحب أجفاني على الإبر

فلما قطعنا في قطع من الليل... سألت صاحبي عن المقصد، فقال: بلد القلب... هو مسكن الرب فلما أرشدني أنشدني:

ياحبذا جبل الريان من جبل * وحبذا ساكن الريان من كانا^(٢)

فابن الجوزي بين واقع مجتمعه الذي يميل إلى السفر، بل ويلتزم بأدابه.

والحريري واقعي؛ لذا اختار بطله من الواقع، يقول في ذلك د. جابر قميحة: «واقعية شخصية أبي زيد ليست محل اتفاق المؤرخين؛ فابو الحسن القفطي مثلاً يذهب إلى أن اسم أبي زيد السروجي مخترع، أما اسمه الحقيقي فهو المطهر بن سار، وكان بصرياً نحوياً لغوياً صحب الحريري، واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به^(٣).

ويقطع الدكتور غنيمي هلال أن أبازيد السروجي شخص حقيقي باسمه ورسمه، وأنه هاجر من «سروج» حينما أغار عليها الصليبيون^(٤)، ولم يقدم الدكتور غنيمي دليلاً واحداً يؤيد به ماذهب إليه^(٥).

ويكمل الدكتور جابر رأيه مبيناً مدى واقعية شخصية البطل أبي زيد فيقول: «ونحن نستبعد أن تكون شخصية أبي زيد حقيقية، وحتى لو افترضنا أنها حقيقية فإن

(١) انظر: موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦٥-٦٦، الريان: جبل بالحجاز. انظر: اللسان، مادة: رين.

(٣) انظر: إنباه الرواة، القفطي، ٢٧٦/٣، وفيات الأعيان لابن خلكان، ٦٤/٤.

(٤) انظر: الأدب المقارن، ص ٢٢١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.

(٥) التقليدية والدرامية، ص ١٩، دار المعارف، القاهرة.

دروها لا يزيد على تنبيه الحس الفني عند الحريري، وأن الحريري مأخذ منها ومن واقع حياتها إلا خطأ أو خطوطاً عريضة، ويبقى مانفته على لسانها - على فرض واقعيتها الوجودية يجعلها أقرب إلى الشخصية الروائية المخترعة منها إلى الشخصية التاريخية الحقيقية^(١).

هذا بالنسبة لشخصية بطل مقامات الحريري، فإذا ما انتقلنا إلى مقاماته نفسها نجده في المقامة (١٢) يذكر واقعة إسلامية، وأخرى غير إسلامية؛ أما الأولى فتظهر في أن الراكب المسافر قبل أن ينطلق في سفره لجأ كما يلجأ المسلمون عادة إلى الاستخارة، فقال: «وانتدوا بباب جِئرون لِلاِسْتِخَارَةِ»^(٢).

والرسول - ﷺ - حث المسلم على ألا يخطو خطوة إلا بعد أن يستخير الله، وقد علمنا كيفية ذلك، قال - ﷺ -: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني، وأصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»^(٣).

ويسمى حاجته عند قول: إن هذا الأمر، ولا تكون الاستخارة إلا في الأمور المباحة، إذ الواجبات مأمور بها، والمحرمات منهي عنها، فلا يطلب أبداً الخير في أي أمر يفعله، ولا في آخر أمر بتزكته^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) دمشقية، شرح الشريشي ٣٧/٢، اتلدوا: اجتمعوا، باب جيرون: من أبواب دمشق، وجيرون هذا: هو جيرون بن سعد بن عاد، وهو الذي بنى دمشق، ونقل إليها الرخام، وسماها إرم، وعلى هذا نقلت الأخبار، وأن أرم ذات العماد هي: دمشق، انظر: معجم البلدان، الحموي ١٩٩/٢، والاستخارة: أي طلب الخير، واستخرت الله: سألته أن يهب لي الخير، اللسان، مادة: ندى، خير.

(٣) رواه البخاري عن جابر - ﷺ -، باب الدعاء عند الاستخارة، ١٠٨/٨.

(٤) منهاج المسلم، أبوبكر جابر الجزائري، ط ٧، دار الشروق جده، ط ٧ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).



ثم بين الحريري في المقامة نفسها واقعا إسلامياً يتجلى في لجوء المسلم إلى الدعاء، الذي استخف به مستعمو بطل المقامة غير أن أباالفتح الإسكندري، رد عليهم مبيناً فوائد الدعاء، فقال: « مَابَالَكُمْ اتَّخَذْتُمْ جِدِّي عَبْشًا، وَجَعَلْتُمْ تَبْرِي خُبْشًا! وَلَطَالَمَا وَاللَّهِ جُبْتُ مَخَافَ الْأَقْطَارِ، وَوَلَجْتُ مَقَاحِمَ الْأَخْطَارِ، فَغَنَيْتُ بِهَا عَنْ مُصَاحَبَةِ خَفِيرٍ، وَاسْتِصْحَابِ جَفِيرٍ^(١) .

يريد أنه استغنى عن كل ذلك بالدعاء في كل نواحي الأرض التي قطعها... ثم طلب منهم أن يبدأوا بأمر القرآن في الليل والنهار، ومن ثم يرددون خلفه بلسان خاضع وصوت خاشع :

« اللَّهُمَّ يَا مُجِيبَ الرَّفَاتِ، وَيَادَافِعَ الْآفَاتِ، وَيَاوَاقِيِ الْمَخَافَاتِ، وَيَا كَرِيمَ الْمَكَافَاتِ، وَيَا مَوِيلَ الْعَفَاةِ، وَيَاوَلِيَّ الْعَفْوِ الْمَعَاةِ، صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِكَ، وَمُبَلِّغِ أَنْبِيَائِكَ، وَعَلَى مَصَائِيحِ أَسْرَتِهِ، وَمَفَاتِيحِ نُصْرَتِهِ، وَأَعِزِّي مِّنْ تَزَوَّاتِ الشَّيَاطِينِ، وَنَزَوَاتِ السَّلَاطِينِ، وَإِغْنَاتِ الْبَاغِيَيْنِ، وَمَعَانَاةِ الطَّاغِيَيْنِ، وَعُدْوَانِ الْمُعَادِيْنَ، وَعَلْبِ الْغَالِيَيْنِ، وَسَلْبِ السَّالِيَيْنِ، وَحِيلِ الْمُحْتَالِيْنَ، وَغِيْلِ الْمُغْتَالِيْنَ، وَأَجْزِنِي اللَّهُمَّ مِنْ جَوْرِ الْجَوَّارِيْنَ، وَمَجَاوِرَةِ الْجَائِرِيْنَ، وَسَطْوَةِ الْجَبَّارِيْنَ، وَكُفِّ عَنِّي أَكْفَ الضَّائِمِيْنَ، وَأَخْرِجْنِي مِنْ ظُلْمَاتِ الظَّالِمِيْنَ، وَأَدْخِلْنِي فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ. اللَّهُمَّ حُطِّي فِي تَرْبِيَّتِي، وَعُزِّبْنِي وَعَيْبِي، وَأَوْبِي وَبَجْعِي، وَرَجْعِي، ... واحْفَظْنِي فِي نَفْسِي وَنَفَائْسِي، ... وَهَبْ لِي عَافِيَةً غَيْرَ عَافِيَةٍ، وَأَرْزُقْنِي رَفَاهِيَةً غَيْرَ وَاهِيَةٍ، ... وَلَا تَظْفِرْ بِي الْأَعْدَاءَ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدَّعَاءِ^(٢) .

والدعاء الذي ذكر أنه مستجاب صادق فيه لأن الأدعية المصاحبة بالإخلاص والتضرع ينتفع بها إن شاء الله، وهذا ما يجب أن يكون عليه واقع المسلم «الخضوع، والتضرع إلى الله، وحسن الرجاء فيه، وصدق الظن، وانتظار الخير على يقين من جهته وفضله؛ وهو بهذا المعنى خلق من أخلاق القرآن المجيد، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، ومما يدل على جلال

(١) المقامة نفسها (١٢): ٤٤/٢، مقاحم: مهالك، جفير: جعبة السهام، انظر: اللسان، مادة:

قحم، جفر.

(٢) المقامة نفسها، ٤٨/٢، ٥٠.



مكانة الدعاء أن الرسول - ﷺ - قال: «الدعاء مخ العبادة»^(١).

ولقد جاء الأمر الإلهي بالدعاء في مواطن كثيرة من القرآن الحكيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٢).

وفي تفسير هذه الآية دقيقة من الدقائق ينبغي ملاحظتها، وهي أن القرآن الكريم ذكر مادة «يسألونك» في عدة مواضع، وبعد إيراد هذه المادة يطلب من رسول الله - ﷺ - أن يتولى الرد على سؤالهم بما يوحيه الله، أما حين جاء السؤال في هذه الآية فإن الله لم يطلب إلى رسوله أن يتولى الإجابة على السؤال، بل تولى الله تعالى بذاته القدسية الإجابة على سؤال العباد، ولعل الحكمة في ذلك هي الإشعار بأن من يدعو الله لا يحتاج إلى وسيط بينه وبين الله، فالله سبحانه يجيب الداعي بلاوساطة أو شفيع»^(٣).

ولقد كان بطل مقامتنا على علم بذلك، وموقناً به؛ لذا أقسم قائلاً: «أُقْسِمُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْأَبْرَاجِ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْفُجَاجِ، وَالْمَاءِ الثَّجَاجِ، وَالسَّرَاجِ الْوَهَّاجِ، وَالْبَحْرِ الْعَجَّاجِ، وَالْهَوَاءِ الْعَجَّاجِ، إِنَّهَا لَمَنْ أَيْمَنَ الْعُودِ، وَأَغْنَى عَنْكُمْ مِنْ لَآيِسِي الْخُودِ، مَنْ دَرَسَهَا عِنْدَ ابْتِسَامِ الْفَلَقِ، لَمْ يُشْفَقْ مِنْ خُطْبِ إِلَى الشَّفَقِ، وَمَنْ نَاجَى بِهَا طَلِيعَةَ الْغَسَقِ، أَمِنَ لَيْلَتَهُ مِنَ السَّرَقِ»^(٤).

لقد علمهم هنا أن هذه الأدعية لمن أفضل الرقى، بل وتكفيهم عن لبس الدروع. فهم أحوج ما يكونون لها، وقد انقطع بهم الطريق، ولا ملجأ إلا التوجه إلى الله كما علمهم، ومضطرين إليه اضطراراً.

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك - ﷺ - في كتاب الدعوات، باب (١):

ماجاء في فضل الدعاء، ٤٥٤/٥ وقال: حديث غريب، والإمام أحمد في مسنده، ٢٧١/٤ من

حديث النعمان بن بشير - ﷺ - : «الدعاء هو العبادة».

(٢) سورة البقرة، آية ١٨٦.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن. د. الشرباصي، ٢٩/٦-٣٢.

(٤) المقامة نفسها (١٢): للحريري، شرح الشريشي ٥١/٢.



والدعاء قسمان اضطراري، واختياري؛ فالاضطراري كما في حالة أصحاب هذه المقامة: هو الالتجاء إلى القوة الغيبية عند تقطع الأسباب بالإنسان، وسد منافذ الرجاء بالسعي ...

أما القسم الثاني من الدعاء، وهو الاختياري، فيذكر رشيد رضا أنه من الأعمال التي تزيد في الإيمان، وتدعمه كسائر العبادات المطلوبة في الدين، وليس أثراً طبيعياً له، ولولا ذلك لما كان للتكليف به معنى، إذا قال العبد: اللهم وَسَّعْ عَلَيَّ فِي الرِّزْقِ، يتذكر أن سعيه في طلب الرزق من أسبابه التي هداه الله تعالى إليها بالحواس^(١).

ولذا نجد الحريري يقول على لسان الراوي: «فَتَلَقَّانَهَا حَتَّى اتَّقَّانَهَا، وَتَدَارَسْنَاهَا، لِكَيْلَا لَانْسَاَهَا»^(٢).

وقد طبق الحريري على بطل مقامته هذه بعض آداب الدعاء، والتي أجملها الغزالي في الإحياء، التي منها: خفض الصوت، والتضرع والخشوع^(٣) في قوله: «لِيَقْرَأَ كُلُّ مِنْكُمْ أُمَّ الْقُرْآنِ، كُلَّمَا أَظَلَّ الْمَلَوَانِ: (الليل والنهار)، ثُمَّ لِيَقْلَ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ، وَصَوْتٍ خَاشِعٍ...»^(٤).

وافتح الدعاء بذكر الله تعالى، فقال: «اللَّهُمَّ يَا مُجِيبَ الرَّفَاتِ، وَيَادْفِعِ الْآفَاتِ... وَيَا وَاوِي الْعَفْوِ وَالْمُعَاوَةِ...»^(٥).

ثم صلى على النبي - ﷺ - في قوله: «صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدَ خَاتَمِ أَنْبِيَائِكَ، وَمَبْلَغِ أَنْبِيَائِكَ، وَعَلَى مَصَابِيحِ أَسْرَتِهِ...»^(٦).

(١) انظر: موسوعة أخلاق القرآن، د. الشرباصي، ٣٨/٦.

(٢) المقامة نفسها، ٥١/٢.

(٣) انظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ١-٢، ١٣٨-

١٤٠. وموسوعة أخلاق القرآن، د: أحمد الشرباصي، ٤٠/٦-٤١.

(٤) (٦) المقامة (١٢) للحريري، ٤٧/٢-٤٨.

(٥) المقامة نفسها، ٤٨/٢.



كما ظهر إلحاحه في الدعاء كما مثلت أول المقامة، وكما ذكر ابن قيم الجوزية الذي سئل في رجل ابتلى ببليّة، فكان رده : «ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء... ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»... وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الله يحب الملحين في الدعاء»^(١).

أما الواقعية غير الإسلامية الموجودة في المقامة السالفة فهي : تصوير الحريري لبطل مقاماته وهو يشرب الخمر، ويستمتع إلى جانب ذلك للغناء المصاحب بالعود، لذا لم نخض فيه، وننتقل لنرى الحريري يظهر لنا واقعاً يمثل الواقع الإسلامي في مقامته الرابعة المسماة «الدمياطية»، فيقول على لسان الراوي الحارث بن همام الذي سمع رجلاً ذا صوت جهير يقول لرفيقه الذي يسامره: «كَيْفَ حُكْمِ سِيرَتِكَ مَعَ جِيلِكَ وَجِيرَتِكَ؟ فَقَالَ: أَرَعَى الْجَارَ، وَلَوْ جَارَ، وَأَبْذَلَ الْوِصَالَ، لِمَنْ صَالَ، وَأَحْتَمَلَ الْخَلِيطَ، وَلَوْ أَبْدَى التَّخْلِيطَ، وَأَوْدُ الْحَمِيمَ، وَلَوْ جَرَعَنِي الْحَمِيمَ، وَأَفْضَلَ الشَّقِيقَ، عَلَيَّ الشَّقِيقَ، وَأَوْفَى لِلْعَشِيرِ، وَإِنْ لَمْ يُكَايِءْ بِالْعَشِيرِ، وَأَسْتَقِلُّ الْجَزِيلَ، لِلنَّزِيلِ وَأَغْمُرُ الزَّمِيلَ، بِالْجَمِيلِ، وَأُنْزِلُ سَمِيرِي، مَنزِلَةَ أَمِيرِي، وَأُحِلُّ أُنَيْسِي، مَحَلَّ رَيْسِي، وَأُودِعُ مَعَارِفِي، عَوَارِفِي، وَأُولِي مَرَأَفَتِي، مَرَأَفَتِي، وَأَلِينُ مَقَالِي، لِلْقَالِي، وَأُدِيمُ تَسَالِي، عَيْنَ السَّالِي، وَأَرْضِي مِنَ الْوَفَاءِ، بِاللِّفَاءِ، وَأَقْتَعُ مِنَ الْجَزَاءِ، بِأَقْلِ الْأَجْزَاءِ، وَلَا أَتَظَلَمُ، حِينَ أُظْلَمُ، وَلَا أَنْقِمُ، وَلَوْ لَدَغَنِي الْأَرْقَمُ»^(٢).

أول مابدأ به الرفيق لسامره رداً على جوابه: قوله: «(أرعى الجار)»: وهذا هو واقع المسلم أن يرعى جاره، صحيح أنه «لا تربطنا بالجار قرابة أو صداقة، ومع ذلك

(١) كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، ص ٢-٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ١٦٢/١-١٦٤، الحميم الثانية: الماء الحار، العشير : العشر، عوارفي : أعطياتي، المرافق:

المنافع، القالي: المبعوض، اللفاء : الشيء القليل. الأرقم: الثعبان المنقط. انظر: اللسان، مادة: حم، عشر، عرف، رفق، قلى، لفى، رقم.



فهو من أقرب الناس إلينا؛ لأنه أول من يصل إلى سمعه بكاؤنا أو ضحكاتنا، وأول من يسرع لمشاركتنا أفراحنا، وأتراحنا لذلك فرض علينا الإسلام حسن معاملته والسهر على راحته ومعاونته^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ...﴾^(٢).

«الجار ذي القربى: هو الذي قرب جواره أو من له مع الجوار قرب أو اتصال بنسب، أو الذي قرب مكاناً أو ديناً أو نسباً.

والجار الجنب: هو الذي بعد جواره أو الجار الذي لاقرباه له، أو الجار البعيد مكاناً أو ديناً أو نسباً^(٣).

ولو لم يكن للجار اهتمام لما استحق عناية الله سبحانه وتعالى به لدرجة أنه يرسل سفيره جبريل - عليه السلام - إلى النبي - ﷺ - ليوصيه بالجار، حتى ظن من كثرة تكرار الوصية به أنه سيورثه، قال عليه الصلاة والسلام: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(٤). وروى أن النبي - ﷺ - قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: من يارسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(٥).

أكد - عليه السلام - ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره، فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضاه وحض العباد عليه.

(١) آداب المجتمع في الإسلام، محمد جمال الدين رفعت، ص ٧٠، عني بطبعه ونشره: عبد الله إبراهيم الأنصاري، مطابع الخليج، الدوحة، قطر.

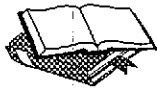
(٢) سورة النساء، آية ٣٦.

(٣) حق الجار، طه عبد الله العفيفي، ص ١٠، سلسلة الحقوق (٦)، دار الاعتصام، القاهرة.

(٤) رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار عن الرسول - ﷺ - ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، ١٢/٨ ورواه الإمام أحمد، ٨٥/٢.

(٥) رواه البخاري عن أبي شريح - ﷺ -، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ١٢/٨. ورواه مسلم (٧٣) من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة - ﷺ - بلفظ:

«لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»، كتاب الإيمان، باب (١٨): بيان تحريم إيذاء الجار،



إلى جانب أحاديث نبوية شريفة كثيرة كلها تحض على حسن الجوار، وقد وعى الحريري ذلك، وطبقه أفراد مجتمعه، فنقل لنا بدوره ذلك.

ومن واقع الحريري الذي أبانه لنا في مقاماته إقامة الدروس في المساجد بعد الصلاة، كما في مقامته المسماة «المغربية»: «(حكى الحارث بن همام، قال: شَهِدْتُ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ، فِي بَعْضِ مَسَاجِدِ الْمَغْرِبِ، فَلَمَّا أَدَيْتُهَا بِفَضْلِهَا، وَشَفَعْتُهَا بِنَفْلِهَا، أَخَذَ طَرْفِي رُفْقَةً قَدْ انْتَبَدُوا نَاحِيَةَ، وَأَمْتَارُوا صَفْوَةً صَافِيَةً، وَهُمْ يَتَعَاطُونَ كَأْسَ الْمَنَافَةِ، وَيَقْتَدِحُونَ زِنَادَ الْمُبَاحَثَةِ، فَارْتَبْتُ فِي مُحَادَثَتِهِمْ، لِكَلِمَةٍ تُسْتَفَادُ، أَوْ أَدَبٍ يَسْتَرَادُ»^(١).

وهذا الواقع الذي صوره الحريري هنا ليس بجديد؛ فمنذ عهد الرسول الكريم ﷺ - والدروس تقام في المساجد ما بين أداء الصلوات جماعة، وكذلك أداء تحية المسجد بإقامة ركعتين، وقبلها السلام على من يجلس في المسجد، كما فعل أبو يزيد في هذه المقامة: «فَلَمْ أَجْلِسْ إِلَّا لِمُحَّةٍ بَارِقٍ خَاطِفٍ ... حَتَّى غَشِينَا جَوَابَ، عَلَى عَاتِقِهِ جِرَابٍ، فَحَيَّانَا بِالْكَلِمَتَيْنِ، وَحَيَّا الْمَسْجِدَ بِالتَّسْلِيمَتَيْنِ»^(٢).

فقوله: حيانا بالكلمتين: السلام عليكم، فهذا الواقع هو ما كان عليه المسلمون من إفشاء السلام، «وتعاليم الإسلام تدعو إلى نشر السلام، والتودد بين الناس، فتفرض على المسلم حينما يلتقى بآخر أن يجيبه قائلاً: السلام عليكم، وتلزم الآخر بأن يجيبه قائلاً: وعليكم السلام»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾^(٤). وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على عمل إذا عملتم تحاببتم؟» قالوا بلى يارسول الله، قال: «أفشوا السلام بينكم»^(٥).

(١) المقامة (١٦): للحريري، شرح الشريشي، ١٩٣/٢.

(٢) المقامة نفسها، ٢٠٣/٢.

(٣) آداب المجتمع في الإسلام، محمد جمال الدين رفعت، ص ٩٧.

(٤) سورة النساء، آية ٨٦.

(٥) رواه مسلم (٩٣) من حديث أبي هريرة - ﷺ - كتاب الإيمان، باب (٢٢): بيان أنه

لا يدخل الجنة إلا المؤمنون... ٧٤/١ بلفظ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا...». وقد رواه

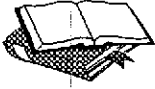
الترمذي (٢٦٨٨) كتاب الاستئذان، باب (١): ما جاء في إفشاء السلام، ٥٢/٥، وابن

ماجه (٣٦٩٢)، كتاب الأدب، باب (١١): إفشاء السلام، ١٢١٧/٢-١٢١٨. وأبوداود

(٥١٩٣) في كتاب الأدب، باب في إفشاء السلام، ٣٥٠/٤. وروى الإمام أحمد نحوه من

حديث الزبير بن العوام - ﷺ - ١٦٥/١، ١٦٧. وأخرجه من حديث أبي هريرة - ﷺ -

بلفظ «... لا تدخلون .. ولا تؤمنون...» ٤٤٢/٢.



وعنه - ﷺ -: «يسلم الراكب على الماشي، وإذا سلم عن القوم واحد أجزأ عنهم»^(١).

وأما عن تحية المسجد، فعن أبي قتادة، ﷺ، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يصلي ركعتين»^(٢).

وحين قال: «فَلَمَّا أَدَّتْهَا يَفْضِلُهَا - صَلَاةَ الْمَغْرِبِ - وَشَفَعَتْهَا بِنَفْلِهَا»^(٣) فهو قد امتثل لأوامر الإسلام، وفيه حث ووعظ على التمسك بالصلاة جماعة، وعدم ترك النافلة؛ لقوله - ﷺ -: «صلاة الجمعة في فضيلة الجماعة: «صلاة الجمعة أفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»^(٤).

ولما كان أبو زيد - بطل مقامات الحريري - أراد الحصول على مبتغاه عمد إلى السؤال، وليحقق ماأراده من السؤال لجأ إلى أسلوب استعطاف نفوسهم الرحيمة في تفريح الكرب، كعادة المسلمين الذين يحبون الله ورسوله - ﷺ - فيمثلون للأوامر، فهذا الرسول الكريم - ﷺ - يحث على إدخال السرور على قلب المسلم من أخيه المسلم، فيقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢١٦٠) من حديث أبي هريرة - ﷺ -، كتاب السلام، باب (١): يسلم الراكب على الماشي بلفظ: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثيرين» ١٧٠٣/٤. وزاد الترمذي: «ويسلم الصغير على الكبير» في حديث (٢٧٠٣)، كتاب الاستئذان، باب (٤): ماجاء في تسليم الراكب على الماشي، ٦١/٥. وروى الإمام أحمد بعضه من حديث فضالة بن عبيد (١٩/٦).

(٢) رواه مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب استحباب تحية المسجد بركعتين وكرهية الجلوس قبل صلاتهما، وأنهما مشروعة في جميع الأوقات، ١٥٥/٢.

(٣) المقامة نفسها، ٢٠٣/٢.

(٤) رواه مسلم (٦٥٠) عن عبد الله بن عمر - ﷺ - في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٤٥٠/١. كما رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٦٦/٢. وابن مالك في الموطأ في فضل صلاة الجماعة، ص ٢٨٥، ٢٨٦.

(٥) رواه مسلم (٧١) من حديث أنس بن مالك - ﷺ - بزيادة: لأخيه أو قال لجاره، كتاب الإيمان، باب (١٧): الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، ٦٧/١. ورواه الإمام أحمد، ١٧٦/٣، ٢٠٦، ٢٥١ بنحو ذلك.



وقد استغل أبوزيد ذلك، فقال للحضور في المسجد : «يا أولي الألباب، والفضل اللباب، أما تعلمون أن أنفس القربات، تنفيس الكربات، وأمتن أسباب النجاة، مؤاساة ذوي الحاجات، وإنني ومن أحلني ساحتكم، وأتاح لي استماحتكم، لشريد محل قاص، وبريد صبية خماص، فهل في الجماعة، من يفثأ عنا حمياً الجماعة؟»^(١).

وأما عن موقف الإسلام من السؤال فقد سبق وأن تناولناه في الفصل الثاني، فيكفي أن نشير إلى قول الرسول - ﷺ - : «من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم، ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع، وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر: «كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه»^(٢).

وفي المقامة «المغربية» وإن كان الشكل العام لها مباراة في تنظيم الدرر الأدبية فإن مضمونها حث ووعظ على فضائل حض عليها الإسلام، كقوله: «لم أحملاً مل»، و«كبر رجاء أجر ربك» أي عظم الكبير وقدمه على نفسك، و«من يرب إذا بر ينم» أي: إذا كان البر من الناس يمشي بالنميمة فمن يرب فعلاً جميلاً ويصلحه، و«سكت كل من تم لك تكس» أي سكت النمام تكن عاقلاً، و«لذ يكل مؤمل، إذا لم وملك بدل»، وقوله:

أَسْ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا * * * وَارِعَ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا^(٣)

أي : إن قصدك فقير فصله، وإن أخطأ عليك صاحب فلا تقطعه، وارع حق الصحبة. وفي حق الصحبة، واختيار الصديق أحاديث لرسول الله - ﷺ - وضعها الحريري في اعتباره فخرجت على النحو السابق، ومن ذلك قوله عليه السلام: «المؤمن آلف مألوف، ولاخير فيمن لا يالف ولا يؤلف»^(٤).

(١) المقامة نفسها (١٦): المغربية، ٢٠٣/٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٣٨٨/١، ٤٤١، ٤٤٦، ٤٤٦/٤، ١٨١.

(٣) انظر: المقامة (١٦)، للحريري، ٢٠٨/٢، ٢١١.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٤٠٠/٢، ٣٢٥/٥.



وقوله - عليه السلام -: «من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً؛ إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه»^(١).

كما «أنه لا يصلح للصحة كل إنسان، قال - عليه السلام -: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال»^(٢).

ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته، وجملتها أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا حريص على الدنيا. أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصل... وللأخوة الصحيحة حقوق، فلاخيك عليك حق في المال، وفي الإعانة بالنفس، وفي اللسان، والقلب، وفي العفو، وفي الدعاء، وفي الوفاء والإخلاص، وفي التخفيف، وفي ترك التكلف والتكليف، وذلك يجعلها ثماني جمل»^(٣).

ولعلك تلحظ أن بطل مقامات الحريري بعد أن يجتال ليحصل على ما يريد يذهب تاركاً وراءه ما يدل على أنه أبوزيد، وفي هذه المقامة أرسل مع الغلام قوله: «وقل لهم عني: إن السهر في الخرافات، لمن أعظم الآفات، ولست ألغي احتراسي، ولا أجلب الهوس إلى رأسي»^(٤).

فقد قرر واقع بعض الأدباء في عصره، وهو سهرهم على نظم الدرر، والمباراة في إظهار مقدرتهم كما في بداية هذه المقامة، إلا أنه بين أن واقع المسلمين يجب ألا

(١) رواه الإمام أحمد من حديث عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «من ولاه الله من أمر المسلمين شيئاً فأراد به خيراً جعل له وزير صدق فإن نسي ذكره وإن ذكر أعانه» ٧٠/٦.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ: «الرجل على دين خليله...» الحديث، كتاب الزهد، باب (٤٥)، ٥٨٩/٤.

(٣) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ١٩٩-٢٠١.

(٤) المقامة المغربية، نفسها، ٢/٢٣٢. الخرافات: أحاديث اللهو والأباطيل. وقيل: الخرافة الحديث المستملح في الكذب. وقيل: كان خرافة رجلاً صالحاً سبته الجن، فرأى منهم عجائب فحدث بها، فيقال في كل حديث يستغرب: كأنه حديث خرافة. انظر: شرح الشريشي للمقامة، ٢/٢٣٢.



يكون في السهر على الخرافات، كما أطلق عليها؛ لأنها من أعظم الآفات، نعم والمسلم عليه السهر في طاعة الله: من قراءة للقرآن، ومن صلاة تهجد وقيام، وذكر لله - جل علاه- قال عليه الصلاة والسلام:- «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله - عز وجل - إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»^(١).

وفي هذه المقامة نرى الحريري يذكر من واقع مجتمعه الذي يطبق على الواقع الإسلامي، حب العلم والعلماء، وتشجيعهم وإن لم يكن ذلك ينطبق على الجميع ففي المقامة السادسة والعشرين، كان على أبي زيد دين، وأصر صحبه على الحصول على الدين، ولجأ إلى والي الجرائم؛ لما بلغه من أفضال الوالي وفضله، وحضر مع غريمه إلى باب أمير طوس وأنشأ رسالة رقطاء، قائلاً فيها: «أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحِبُّ، وَبِعَقُوتِهِ يُلَبُّ، وَقُرْبُهُ تُحَفُّ، وَنَأْيُهُ تَلَفُّ، وَخُلَّتُهُ نَسَبُ، وَقَطِيعَتُهُ نَصَبٌ ... هَذَا نُمُّ شَرِّبُهُ بَرَضُ؛ وَقُوَّتُهُ قَرَضٌ ... وَقَدْ قَلِقُ لِتَوَعُّرِ غَرِيمِ غَاشِمِ، يَسْتَجِئُهُ بِحَقِّ لِأَزْمٍ؛ فَإِنْ مَنْ سَيِّدِنَا بِكَفِّهِ، يَهْبَاتُ كَفِّهِ، تَوَشَّحَ بِمَجْدِ فَاقٍ، وَبَاءَ بِأَجْرٍ فَكِّي مِنْ وَثَاقٍ...»^(٢).

فأعجب بها الأمير، وأمر بقضاء دينه، قال أبو زيد: «فَلَمَّا اسْتَشَفَّ الْأَمِيرُ لِأَلِيهَا، وَلَمَحَ السَّرَّ الْمُوَدَّعَ فِيهَا، أَوْعَزَ فِي الْحَالِ بِقَضَاءِ دَيْئِي، وَفَصَلَ بَيْنَ خَصْمِي وَبَيْنِي، ثُمَّ اسْتَخْلَصَنِي لِمَكَاتِرَتِهِ، وَاخْتَصَّنِي بِأَثَرَتِهِ، فَلَيْثُ بَضَعَ سِنِينَ أَنْعَمَ فِي ضِيَاغَتِهِ، وَأُرْتَعَ فِي رَيْفِ رَأْفَتِهِ...»^(٣).

فلو لم يكن الأمير يقدر العلم وله دراية بالأدب، لما أعجب برسائله الرقطاء، ولما قضى دينه، وجعله يلازمه، وينزل في ضيافته.

وفي مقامة أخرى رحل الحارث مع أبي زيد، فوجد أن راحلته تجرد في سيرها،

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث طويل لأبي هريرة - رضي الله عنه - كتاب الذكر والدعاء والتوبة

والاستغفار، باب (١١): فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، ٢٠٧٤/٤. كما رواه

ابن ماجه بطوله في المقدمة برقم (٢٢٥)، باب (١٧): فضل العلماء والحث على طلب العلم،

٨٠/١. ورواه الإمام أحمد بطوله في مسنده، ٢٥٢/٢.

(٢) المقامة، الرقطاء، للحريري، شرح الشريشي، ٢٧٤/٣ - ٢٩١.

(٣) المقامة نفسها، ٢٩٥/٣.



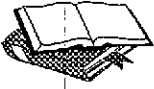
فسأله عنها فأخبره أنه استعرضها من حضرموت، وكابد في الحصول عليها الموت، وبعد فترة ضاعت منه، وبحث عنها طويلاً إلى أن سمع ذات يوم صوتاً يسأل عن صاحب مطية ضاعت منه، فوصفها أبوزيد، وطالب بها إلا أنه أعرض عنه، وقال له: لست بصاحب لقطتي، وطلب أن يذهب إلى حكم هذا الحي البريء من الفتي، وذهباً وعاد لوصفها مرة ثانية، فأخرج الرجل نعلًا، وقال إنه يوافق ما وصفه أبوزيد إلا أن الحكم الذي لجأ إليه، لديه معرفة تامة بالألفاظ ودراية بالمعاني والأدب، فحكم له بها... عندها مدح الحارث الأدب، فقال: «فَأَخَذْتُ أُسْهَبُ فِي مَدْحِ الْأَدَبِ، وَأَفْضَلَ رَبِّهِ عَلَيَّ ذِي النَّشَبِ، ... فَلَمَّا أَفْرَطْتُ فِي الْعَصَبِيَّةِ، لِلْعَصْبَةِ الْأَدْبِيَّةِ، قَالَ لِي: صَهْ، وَاسْتَمِعْ مِنِّي، وَافِقَهُ :

يقولون : إنَّ جمالَ الفتى * * * وزيتته أدبٌ رأسِخُ
فأما الفقير فخيرٌ له * * * من الأدب القُصُّ والكَاْمِخُ^(١)

بين حال الأدب والأدباء في عصره، حيث إنه لا ينفع أهله إذا كانوا فقراء، وأعطى أمثلة حين وصلوا إلى قرية، فسأل أبوزيد غلاماً لم يبلغ الحنث بعد أن حياه تحية المسلم :

«أبياع هاهنا الرُّطْبُ بالخطب؟ قال: لا والله. قال: ولا البلح بالملح؟ قال: كلاً والله، قال: ولا الثمر بالسمر؟، قال: هيئات والله. قال: ولا العصائد بالقصائد؟ قال: اسكت عافاك الله. قال: ولا الثرائد بالفرائد؟ قال: أين يذهب بك أرشدك الله! قال: ولا الدقيق بالمعنى الدقيق؟ قال: عُدَّ عَنْ هَذَا أَصْلَحَكَ اللهُ! ... ولمح الغلام أن الشوط بطين، والشَّيْخُ شُوَيْطِين، فقال له: ... أما بهذا المكان فلا يشتري الشعر بشعيرة، ولا النثر بنثاره، ولا القصص بقصاصة، ولا الرسالة بغسالة، ولا الحكم لقمان بلقمة، ولا أخبار الملاحم بلحمة. وأما جيل هذا الزمان، فما منهم من يبيع، إذا صيغ له المديح، ولأمن يجيز، إذا أنشد له الأراجيز، ولأمن يغيث، إذا أطربته الحديث، ولأمن يمير، ولو أنه أمير. وعندهم أن مثل الأديب، كالربيع الجديب، إن لم تجد الربيع ديمية، لم تكن له قيمة، ولا دانت بهيمة. وكذا الأدب، إن لم يعضده نشب، فدرسه نصب،

(١) المقامة (٤٣): البكرية، للحريري، شرح الشريشي، ١٢٣/٥.



وَحَزَنُهُ حَصَبٌ ... فَقَالَ لِي أَبُو زَيْدٍ: أَعْلِمْتِ أَنَّ الْأَدَبَ قَدْ بَارَ، وَوَلَّتْ أَنْصَارَهُ الْأَدْبَارُ؛ فَبَوَّتْ لَهُ يَحْسُنُ الْبَصِيرَةَ، وَسَلَّمَتْ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ. فَقَالَ: ... وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْجَاعَ لَا تُشْبِعُ مَنْ جَاعَ»^(١).

فلنحظ أن الحريري بين في المقامة نفسها ضدين، مدح للأدب ومن ثم ذمه، أو قل ليس ذمًا، إنما محترفها لا يجد ما يسد جوعه؛ لنفق بضاعته وكسادها، ربما لأن هذا العلم أراد به عرض الدنيا، لقوله - ﷺ -: «(من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرق الجنة يوم القيامة)»^(٢).

وفي المقامة (٤٥) رمت زوجة أبي زيد السروجي زوجها بالعنة، أمام القاضي تلميحاً لاتصريحاً، فرد عليها قائلاً:

«وَمِلْتُ عَنْ حَرْتِي لِأَرْغَبَةٍ * * * عَنْهُ وَلَكِنْ أَتَّقِي بَذْرَهُ

فَلَا تَلُمَنَّ مِنْ هَذِهِ حَالَهُ * * * وَأَعْطِفْ عَلَيْهِ وَاحْتَمِلْ هَذْرَهُ»^(٣)

وعجب القاضي من فصاحتها فأمر لهما بألفين من الورق، وبعد خروجهما سألهما عنهما فعرف أنه خدع بهما، فما هما إلا أبو زيد وزوجه، فأرسل ليرجعهما، ولكن أبا زيد أرسل مع الرسول يطلب منه ألا يعقب جميله بالأذى، فقال القاضي: «(قاتله الله، فما أحسن شجونه، وأملح فنونه، ثم إنه أصحب رائده بُردَيْن، وُصْرَةٌ مِّنَ الْعَيْنِ وَقَالَ لَهُ: سِرَّ سَيْرٌ مِّنَ الْإِلْتِفَاتِ، إِلَى أَنْ تَرَى الشَّيْخَ وَالْفَتَاةَ، فَبَلِّ يَدَيْهِمَا بِهَذَا الْحَبَاءِ، وَبَيْنَ لَهْمَا انْخِداَعِي لِلْأَدْبَاءِ)»^(٤).

(١) المقامة نفسها، ١٢٧/٥-١٣٥، يمير، يميج: يعطى، ديمة: المطر الدائم، انظر: اللسان، مادة:

مار، ماح، ديم.

(٢) رواه أبوداود بإسناد صحيح عن أبي هريرة - ﷺ - في كتاب العلم، باب (١٢): في طلب

العلم لغير الله تعالى، ٣/٣٢٣، وابن ماجه في المقدمة، باب (٢٣): الانتفاع بالعلم والعمل

به، ١/٩٢، ومسنند أحمد، ٢/٣٣٨.

(٣) الرملية، للحريري، شرح الشريشي، ١٩٥/٥.

(٤) المقامة نفسها، ٢٠١/٥-٢٠٢، الشجون: الفنون والطرق، العين: الذهب والفضة، انظر:

اللسان، مادة: شجن، عين.



فرغم أن خدع، فإنه قد أعجب بفصاحتها، ومعرفتها بالألفاظ والكنايات والاستعارات؛ مما جعله يفيض لهما في العطاء، بدل أن يصر على استرجاع الألفين اللذين وهبهما إياها؛ لأنهما حصلا عليها بالخدعة. إن هذا يدل على تقدير هذا القاضي للعلم وأهله.

وفي مقامة أخرى للحريري يورد لنا أبو زيد معلماً للصبيان، وظهر أثر تأديبهم، ثم قال يمدح العلم والتعلم: «أَمَّا إِنَّ التَّعْلِيمَ أَشْرَفَ صِنَاعَةٍ، وَأَرْبَحَ بِيضَاعَةٍ، وَأَنْجَحَ شَفَاعَةٍ وَأَفْضَلَ بَرَاعَةٍ، وَرَبَهُ ذُو إِمْرَةٍ مُطَاعَةٍ، وَهَيْبَةَ مُشَاعَةٍ، وَرِعِيَّةَ مِطْوَاعَةٍ، يَتَسَيَّرُ تَسَيَّرَ أَمِيرٍ، وَيَرْتَبُّ تَرْتِيبَ وَزِيرٍ، وَيَتَحَكَّمُ تَحَكُّمَ قَدِيرٍ، وَيَتَشَبَّهُ بِذِي مُلْكٍ كَبِيرٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَخْرَفُ فِي أَمْدٍ يَسِيرٍ، وَيَتَّسِمُ بِحَمَقٍ شَهِيرٍ، وَيَتَقَلَّبُ بِعَقْلِ صَغِيرٍ، وَلَا يُنْبَعِكُ مِثْلَ خَبِيرٍ»^(١).

لم لا يكون رأيه في التعليم هكذا؟ والله سبحانه وتعالى، يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِي لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ويقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣).

ويقول - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى النُّحْلَةُ فِي جَحْرِهَا، وَحَتَّى الْحَوْتُ لِيَصْلُونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ»^(٤).
ومن فضائل التعليم ما روي عن رسول الله - ﷺ - قوله لعلي - ﷺ -: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(٥).
وفي الأثر أحاديث كثيرة تحت على طلب العلم، كقوله - ﷺ -: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٦).

(١) المقامة (٤٦): الخلية، للحريري، شرح الشريشي، ٢٥٦/٥.

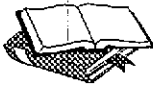
(٢) سورة الزمر، آية ٩.

(٣) سورة المجادلة، آية ١١.

(٤) رواه أحمد في مسنده، ١٩٦/٥.

(٥) رواه مسلم (٣٤) عن سهل بن سعد - ﷺ -، كتاب فضائل الصحابة، باب (٤): من فضائل علي بن أبي طالب - ﷺ -، ١٨٧٢/٤.

(٦) رواه البخاري كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ٢٦/١-٢٧، ومسنده أحمد، ٢٥٢/٢-٣٢٥، ٤٠٧.



يقول الحريري في مقامته (٢٩) على لسان البطل أبوزيد السروجي، موجهاً الخطاب للراوي الحارث بن همام: «قَدْ عَلِقَ بِقَلْبِي أَنَّ تَصَاهُرَ مَنْ يَأْسُو جِرَاحَكَ، وَيَرِيشُ جَنَاحَكَ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ أَجْمَعُ غُلِّيَّ وَقُلِّيَّ، وَمَنْ الَّذِي يَرْغَبُ فِي ضَلِّ بَنِي ضَلِّ! فَقَالَ: أَنَا الْمُشِيرُ بِكَ وَإِلَيْكَ، وَالْوَكِيلُ لَكَ وَعَلَيْكَ، مَعَ أَنَّ دِينَ الْقَوْمِ حَبْرُ الْكَيْسِيرِ، وَفَكَ الْأَسِيرِ، وَاحْتِرَامُ الْعَشِيرِ، وَاسْتِنصَاحُ الْمُشِيرِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَوْ خَطَبَ إِلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ بَنُ أَدْهُمَ أَوْ جَبَلَةُ بَنِ الْأَيْهَمِ؛ لَمَا زَوَّجُوهُ إِلَّا عَلَى خَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ، اقْتِدَاءً بِمَا مَهَرَ الرَّسُولُ - ﷺ - زَوْجَاتِهِ، وَعَقَدَ بِهِ أَنْكِحَةَ بَنَاتِهِ، عَلَى أَنَّكَ لَنْ تَطَالَبَ بِصَدَاقٍ، وَلَا تَلْجَأَ إِلَى طَلَاقٍ. ثُمَّ إِنِّي سَأَخْطُبُ فِي مَوْقِفِ عَقْدِكَ، وَتَجْمَعُ حَشْدِكَ...»^(١).

فهنا حثه على الزواج، والإسلام في واقعه كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾^(٢). ولقوله - ﷺ -: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني»^(٣).

ولأن صداق بنات رسول الله - ﷺ - كان أربعمئة درهم أو خمسمئة^(٤)، وكذا كان صداق أزواجه - ﷺ -^(٥).

فإلى هذا الحكم أشار بطل مقامتنا أبوزيد السروجي في أن أهل واسط يلتزمون السير على هدي الرسول الكريم - ﷺ -، فلا يزوجون بناتهم إلا على هذا المهر، وقد

(١) المقامة الواسطية، للحريري، شرح الشريشي، ٣/٣٧٧.

(٢) سورة النور، آية ٣٢.

(٣) رواه مسلم (١٤٠١) من حديث أنس - ﷺ - أن نفرًا من أصحاب الرسول - ﷺ - قال

بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لأنام على فراش،

فحمد الرسول وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ ولكني أصلي وأنام وأصوم

وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ١٠٢٠/٢. وروى الإمام أحمد من

حديث عبد الله بن عمرو - ﷺ - بهذا المعنى، ١٥٨/٢.

(٤) رواه مسلم (١٤٢٦)، كتاب النكاح، باب (١٣): الصداق وجواز كونه تعليم القرآن،

١٠٤٢/٢. وابن ماجه (١٨٨٦) في كتاب النكاح، باب (١٧): صداق النساء، ٦٠٧/١.

(٥) انظر: منهاج المسلم، أبوبكر جابر الجزائري، ص ٥٤٧-٥٥٠.



صرح هو بذلك بقوله: «اقتداءً بما مَهَرَ الرَّسُولُ...» وفي هذا وعظ ونهي عن المغالاة في المهور، وليكن رسول الله - ﷺ - قدوتنا، وكذا «صحبه الكرام الذين تزوج بعضهم على نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم، وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة - ﷺ - على درهمين ثم حملها هو إليه ليلاً، فأدخلها من الباب ثم انصرف، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها»^(١).

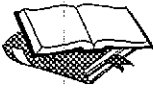
أما ما طبق من آداب النكاح وسننه في هذه المقامة :

١- «الخطبة، وهي أن يقول: إن الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له...»^(٢). لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا أراد أحدكم أن يخطب لحاجة من نكاح أو غيره فليقل الحمد لله...»^(٣).

أما أبو يزيد فقال: «الحمد لله الملك الحمود، المالك الودود، مصور كل مؤود، ومال كل مطرود... اعملوا رعاكم الله أصلح الأعمال، واسلكوا مسالك الحلال،... وصاهروا حتم الصلاح والورع، وصارموا رهط اللهو والطمع، ومصاهروكم أظهر الأحرار مؤلداً،... وما هو أمكم، وحل حرمكم، مملِكاً عروسكم المكرمة، وماهراً لهما كما مهر الرسول أم سلمة، وهو أكرم صهر أودع الأولاد، وملك ما أراد... ولها الحمد السرمد، والمدح لرسوله محمد»^(٤).

٢- الوليمة: لقوله - ﷺ - لعبدالرحمن بن عوف لما تزوج: «أولم ولو بشاة»^(٥)، والوليمة: طعام العرس، ويجب حضور من دعي إليه، لقوله - ﷺ -:

- (١) موعظة المؤمنين...، محمد جمال الدين القاسمي، ص ١٦٦.
 (٢) منهاج المسلم، أبو بكر الجزائري، ص ٥٥١.
 (٣) رواه ابن ماجه (١٨٩٢) عن عبد الله بن مسعود - ﷺ -، كتاب النكاح، باب (١٩): خطبة النكاح، ٦٠٩/١ بنحوه.
 (٤) المقامة (٢٩): الواسطية، للحريري، بشرح الشريشي، ٣/٣٩٢، ٣٩٦.
 (٥) رواه مسلم (١٤٢٧) من حديث أنس بن مالك - ﷺ -، في قصة زواج عبدالرحمن بن عوف كتاب النكاح، باب (١٣): الصادق...، ١٠٤٢/٢. ورواه الترمذي (١٠٩٤) في =



«من دعى إلى عرس أو نحوه فليجب»^(١).

ويرخص في عدم حضورها إن كان بها لهو أو باطل، قال علي - عليه السلام - :
صنعت طعاماً فدعوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء فرأى في البيت تصاوير فرجع^(٢).
ويدعى لها الفقراء كالأغنياء، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : «شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من
يأتيها، ويدعى إليها من يأبأها»^{(٣)(٤)}.

كما في هذه المقامة التي قال فيها: «ثُمَّ أَخَذَنِي مَوَاعِدَةَ أَهْلِ الْخَانِ، وَإِعْدَادِ
حَلْوَاءِ الْخُوَانِ... أذن في الجماعة: أَلَا أَحْضُرُوا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا إِلَّا مَنْ
لَبَّى صَوْتَهُ، وَحَضَرَ بَيْتَهُ. فَلَمَّا اضْطَفَرُوا لَدَيْهِ، وَاجْتَمَعَ الشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ عَلَيْهِ»^(٥).

٣- إعلان النكاح بدف، وغناء مباح، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : «فصل ما بين الحلال
والحرام، الدف والصوت»^(٦).

٤- الدعاء للزوجين، وقد دعا لهما أبو زيد قائلاً: «فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ خُطْبَتِهِ
الْبَدِيعَةِ النَّظَامِ، الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِعْجَامِ، عَقَدَ الْعَقْدَ عَلَى الْخَمْسِ الْمِئِينَ، وَقَالَ لِي: بِالرَّفَاءِ
وَالْبَيْنِ، ثُمَّ أَحْضَرَ الْحَلْوَاءَ الَّتِي كَانَتْ أَعْدَهَا،...»^(٧).

= كتاب النكاح، باب (١٠): ماجاء في الوليمة، ٤٠٢/٣، والموطأ (١١٤٦) كما روى الإمام
أحمد نحوه في مؤاخاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع - رضي الله
عنهما -، ١٠٩/٣، ٢٠٥، ٢٧١.

(١) رواه مسلم (١٠١) (٩٨) عن ابن عمر - رضي الله عنهما -، كتاب النكاح، باب (١٦): الأمر بإجابة
الداعي إلى دعوة، ١٠٥٢/٢-١٠٥٣. ورواه أحمد في مسنده، ٢٢/٢، ٦٥.

(٢) رواه ابن ماجه بسند صحيح في كتاب الأَطْعَمَةِ، باب (٥٦) ١١١٤/٢.

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح ٢٥، ومسنده أحمد، ٢٤٠/٢، ٢٦٧، ٤٠٥، ٤٩٤.

(٤) انظر: منهاج المسلم، أبو بكر الجزائري، ص ٥٥١.

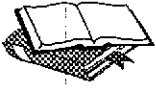
(٥) المقامة نفسها (٢٩)، ص ٣٩٠.

(٦) رواه الترمذي (١٠٨٨)، كتاب النكاح، باب ماجاء في إعلان النكاح من حديث محمد بن

حاطب الجمحي - رضي الله عنه - ٣٩٨/٣، ورواه الإمام أحمد في مسنده، ٤١٨/٣.

(٧) المقامة نفسها، ٤٠٠/٣، الرفاء: السكون والالتحام، وهو من رفأت الثوب؛ إذا ضممت

بعضه إلى بعض، ومن رفوت الرجل إذا سكتته، انظر: اللسان، مادة: رفاً.



فقليل له: بالرفاء والبنين: أي بالاتفاق مع الزوجة، ووجود البنين مما يكون منها.
وتزوج عقيل بن أبي طالب فقليل له: بالرفاء والبنين، فقال: قال رسول الله
- ﷺ -: «إذا رفاً أحدكم أخاه فليقل: على الخير والبركة، بارك الله لك وبارك
عليك» وفي رواية أخرى عن أبي هريرة - ﷺ -: إن النبي - ﷺ - كان إذا رفاً الإنسان
- إذا تزوج - قال: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في الخير»^(١).

وتعرض الحريري أيضاً للخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة؛
ليدوم عقد النكاح، وتتوفر مقاصده في مقامته البكرية، فقال على لسان الراوي
الحارث بن همام: «كُنْتُ عَزَمْتُ حِينَ أَتَهَّمْتُ، عَلَيَّ أَنْ أَتَّخِذَ طَعِينَةً لَتَكُونَ لِي مُعِينَةً،
... وَبِتُّ لَيْلِي أَنَا جِي الْقَلْبِ الْمَعْدَبِ ... إِلَى أَنْ أَجْمَعْتَ عَلَيَّ أَنْ أَسْجِرَ، وَأَشَاوِرَ أَوْلَ
مَنْ أَبْصُرَ ... فَانْبَرَى لِي يَأْفَعُ، فِي وَجْهِهِ شَافِعُ، فَتَيْمَنْتُ بِمَنْظَرِهِ الْبَهِيحِ، وَاسْتَقْدَحْتُ
رَأْيَهُ فِي التَّزْوِيجِ. فَقَالَ: أَوْتَبِّعِيهَا عَوَانًا، أَمْ بِكْرًا تَعَانِي؟ فَقُلْتُ: اخْتَرِ مَا تَرَى، ... فَقَالَ:
إِلَى التَّيِّبِينَ، وَعَلَيْكَ التَّعَيِّنُ، فَاسْمَعِ أَنَا أَفِيدُكَ، ... أَمَّا الْبِكْرُ فَالْدَّرَةُ الْمَخْزُونَةُ، وَالْبَيْضَةُ
الْمَكْنُونَةُ، ... لَمْ يَدَنْسْهَا لَأَمِيسُ، وَلَا اسْتَعْشَاهَا لَأَبِيسُ، وَلَا مَارَسَهَا عَابِثُ، وَلَا وَكَسَهَا
طَامِثٌ ... ثُمَّ هِيَ الدُّمِيَّةُ الْمَلَاعِبَةُ، وَاللُّعْبَةُ الْمُدَاعِبَةُ، وَالْغَزَالَةُ الْمَغْزَلَةُ، وَالْمَلْحَةُ
الْكَامِلَةُ...»^(٢).

فقد تحدث هنا عن خصلة واحدة هي (البكارة) من خصال ثمان هي: الدين،
والخلق، والحسن، وصفة المهر، والولادة والبكارة، والنسب، وألا تكون قرابة قريبة^(٣).
قال عليه السلام ((لجابر)) وقد نكح ثيباً: «هَلَّا بَكْرًا تَلَاعِبَهَا وَتَلَاعَبَكَ»^(٤).

(١) رواه الترمذي (١٠٩١) عن أبي هريرة - ﷺ -، كتاب النكاح، باب ماجاء فيما يقال

للمتزوج وقال حديث حسن صحيح، ٤٠٠/٣.

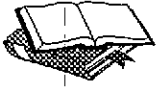
(٢) المقامة (٤٣): شرح الشريشي، ١٠٠/٥-١٠٣.

(٣) انظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ١٦٤.

(٤) رواه مسلم (١٤٦٦)، كتاب الرضاع، باب (١٥): استحباب نكاح ذات الدين،

١٠٨٦/٢. ورواه الترمذي (١١٠٠)، كتاب النكاح، باب (١٣): ماجاء في تزويج البكر،

٤٠٦/٣، المسند، ٢٩٤/٣. وفي رواية: «فأين أنت من العذارى ولعابها».



ولما تخير بين البكر والثيب قال الحارث لأبي زيد: «فَهَلْ تَرَى أَنْ أترَهَّبَ،
وَأَسْأَلُكَ هَذَا الْمَذْهَبَ؟ فَانْتَهَرَنِي أَنْتَهَارَ الْمُؤَدَّبِ، عِنْدَ زَلَّةِ الْمُتَادَّبِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْلَكَ!
أَتَقْتَدِي بِالرُّهْبَانِ، وَالْحَقُّ قَدْ اسْتَبَانَ! أَفِي لَكَ وَلَوْ هُنَّ رَأْيُكَ، وَتَبَا لَكَ وَالْأَوْلِيكَ، أَتُرَاكَ
مَا سَمِعْتَ بِأَنَّ لَارْهَبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ، أَوْ مَا حَدَّثْتَ بِمَنَاكِحِ نَيْكَ عَلَيْهِ أَرْكَى السَّلَامِ، ثُمَّ
أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَرِينَةَ الصَّالِحَةَ تَرْبُّ نَيْتِكَ، وَتَلِي صَوْتِكَ، وَتَغْضُ طَرْفَكَ، وَتُطِيبُ
عَرْفَكَ، وَبِهَا تَرَى قُرَّةَ عَيْنِكَ، وَرِيحَانَةَ أَنْفِكَ،... فَكَيْفَ رَغِبْتَ عَنْ سُنَّةِ الْمُرْسَلِينَ،
وَمُتَعَةِ الْمُتَاهِلِينَ وَشِرْعَةِ الْمُحْصِنِينَ وَمَجْلَبَةِ الْمَالِ وَالْبَيْنِ...»^(١).

فيبحث بمأخذ عليه الإسلام وهو الزواج فهذا رسول الله ﷺ - يقول لعطاف
ابن وداعة الماللي: «ياعطاف ألك امرأة؟ قال: لا، قال: فأنت إذا من أخوان الشياطين،
إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منا فسننتنا النكاح»^(٢).

وذكر الحريري واقعا إسلامياً، بل هو ركن من أركان الإسلام في مقاماته؛
ليدلل على مجتمع مسلم حريص على تطبيق شرائع الله؛ ألا وهو الركن الخامس في
الإسلام: الحج، ذكره مرة عرضاً وأخرى تفصيلاً، ففي مقامته المسماة الرملية قال:
«لَمَّا خَيَّمْتُ بِالرَّمْلَةِ، وَأَلْقَيْتُ بِهَا عَصَا الرَّحْلَةِ، صَادَفَتْ بِهَا رِكَاباً تُعَدُّ لِلسُّرَى، وَرِحَالاً
تُشَدُّ إِلَى أُمَّ الْقُرَى، فَعَصَفَتْ بِي رِيحُ الْعَرَامِ، وَاهْتَأَجَّ لِي شَوْقٌ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ... فَلَمْ
نَزَلْ بَيْنَ إِذْ لَاحِجٍ وَتَسَاوَيْبِ، وَإِنْجَافٍ وَتَقْرِيْبِ، إِلَى أَنْ حَبَسْنَا أَيْدِي الْمَطَايَا بِالتُّحْفَةِ، فِي
إِيصَالِنَا إِلَى الْجُحْفَةِ، فَحَلَلْنَاهَا مُتَاهِبِينَ لِلْإِحْرَامِ، مُتَبَاشِرِينَ بِإِدْرَاكِ الْمَرَامِ...»^(٣).

قال الله عز وجل: «وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»^(٤). وقال عليه الصلاة والسلام: «من حج البيت فلم يرفث
ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٥).

(١) المقامة نفسها (٤٣)، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ١٦٣/٥، ٥٥.

(٣) المقامة (٣١): شرح الشريشي، ١٥-٣/٤.

(٤) سورة الحج، آية ٢٧.

(٥) رواه البخاري في كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ١٤١/٢. ورواه مسلم (١٣٥٠) من

حديث أبي هريرة - ﷺ - بلفظ: «من أتى هذا البيت...». وفي رواية: «من حج فلم

يرفث...» الحديث، كتاب الحج، باب (٧٩): فضل الحج والعمرة...، ٩٨٣/٢. وأخرجه =



وينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وأن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، وإن ضاق صدره صبره.

والحريري هنا، جعل الراوي الحارث بن همام يطبق بعض أركان الحج الأربعة من إحرام، وطواف، وسعي، ووقوف بعرفة، وإن ركز على بعضها، وأشار إلى البعض الآخر، كما أنه ذكر القيام بواجباته التي أولاهها: الإحرام من الميقات: وحدد الحريري الميقات الذي أحرموا منه في قوله: «إِلَى أَنْ حَبَسْنَا أَيْدِيَ الْمَطَايَا بِالتَّحْفَةِ، فِي إِيصَالِنَا إِلَى الْجُحْفَةِ، فَحَلَلْنَاهَا مُتَأَهِّبِينَ لِلْإِحْرَامِ...»^(١) ووعظه به قائلاً: «فَوَالَّذِي شَرَعَ الْمَنَاسِكَ لِلنَّاسِكِ ... لَا تَغْنِي لِفَسَةِ الْإِحْرَامِ، عَنِ الْمَتَلَبِّسِ بِالْحَرَامِ»^(٢) كما وعظ بثاني الواجبات وهو: التجرد من المخيط: حيث لا يلبس المحرم ثوباً ولا قميصاً ولا برنساً، ولا يعتم بعمامة ولا يغطي رأسه بشيء أبداً، كما لا يلبس خفاً ولا حذاء لقوله - ﷺ -: «لَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ الثُّوبَ وَلَا الْعِمَامَةَ وَلَا السَّرَاوِيلَ وَلَا الْبِرَانِسَ وَلَا الْخِفَافَ، إِلَّا مَنْ لَمْ يَجِدْ نَعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسْ خَفَيْنِ وَلْيَقْطَعْهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الْكَعْبَيْنِ»^(٣).

فذكر ذلك واعظاً: «وَلَا يَنْفَعُ الْأَضْطِجَاعَ بِالْإِزَارِ، مَعَ الْأَضْطِجَاعِ بِالْأَوْزَانِ»^(٤). كما استعمل بعض الألفاظ الخاصة بسنن الحج ومحظوراته؛ ليؤثر وعظه في مستمعيه.

فقال: «فَوَالَّذِي شَرَعَ الْمَنَاسِكَ لِلنَّاسِكِ ... لَا يُجْدِي التَّقَرُّبَ بِالْحَلْقِ، مَعَ التَّقَلُّبِ فِي ظُلْمِ الْخَلْقِ، وَلَا يَرْحَضُ التَّنَسُّكُ فِي التَّقْصِيرِ، دُونَ التَّمَسُّكِ بِالتَّقْصِيرِ، وَلَا يَسْعُدُ بِعَرَفَةٍ عَيْرُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَلَا يَزُكُو بِالْحَيْفِ، مَنْ يَرْغَبُ فِي الْحَيْفِ، وَلَا يَشْهَدُ

= الترمذي (٨١١)، كتاب الحج، باب (٢): ماجاء في ثواب الحج والعمرة، ١٧٥/٣، وابن ماجه (٢٨٨٩) في كتاب المناسك، باب (٣): فضل الحج والعمرة، ٩٦٥/١، والإمام أحمد في المسند، ٢٢٩/٢، ٤١٠.

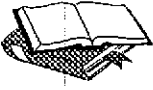
(١) المقامة (٣١) نفسها، ١٥/٤.

(٢) المقامة نفسها، ١٧/٤.

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس ٧٧، باب السراويل ١٤، ٣٨/٧. والترمذي برقم (٨٣٤)،

كتاب النكاح، باب (١٩): ماجاء في لبس السراويل والخفين للمحرم، ١٩٥/٣.

(٤) المقامة نفسها، ١٧/٤.



المَقَامَ إِلَّا مَنْ اسْتَقَامَ ، وَلَا يَحْطَى بِقَبُولِ الْحُجَّةِ ، مَنْ زَاغَ عَنِ الْمَحْجَّةِ ، فَرَجِمَ اللَّهُ امْرَأً صَفَا ، قَبْلَ مَسْعَاهِ إِلَى الصَّفَا ... وَفَاضَ بِمَعْرُوفِهِ ، قَبْلَ الْإِفَاضَةِ مِنْ تَعْرِيفِهِ ... وَأَنْشُدُ :

- ما الْحَجِّ سَيْرِكَ تَأْوِيًّا وَإِدْلَاجًا ** وَلَا اعْتِيَامَكَ أَجْمَالًا وَأَحْدَاجًا
 الْحَجُّ أَنْ تَقْصِدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ عَلَيَّ ** تَجْرِيدَكَ الْحَجَّ لِاتَّقْضِي بِهِ حَاجَا
 وَتَمْتَطِي كَاهِلَ الْإِنْصَافِ مُتَّخِذًا ** رَدَّ عَ الْهُوَى عَمَادِيًّا وَالْحَقَّ مِنْهَا جَا
 وَأَنْ تُوَاسِي مَأُوتِيَّتَ مَقْدِرَةً ** مَنْ مَدَّ كَفًّا إِلَى جَدْوَاكَ مُحْتَاجَا
 فَهَيْهَذَا إِنْ حَوْتَهَا حِجَّةٌ كَمَلَّتْ ** وَإِنْ خَلَا الْحَجُّ مِنْهَا كَانَ إِخْدَاجًا^(١)

وبعد : فقد أورد الحريري ذكر الحج في المقامة (٤٥) على لسان زوجة تحتكم إلى القاضي من زوجها قائلة :

- «يَا قَاضِي الرَّمْلِيَّةِ يَا ذَا الَّذِي ** فِي يَدِهِ التَّمْرَةَ وَالْجَمْرَةَ
 إِلَيْكَ أَشْكُو جَوْرَ بَعْلِي الَّذِي ** لَمْ يَحْجُجِ الْبَيْتَ سِوَى مَرَّةٍ
 وَلَيْتَهُ لَمَّا قَضَى نُسُكَهُ ** وَخَفَّ ظَهْرًا إِذْ رَمَى الْجَمْرَةَ
 كَانَ عَلَى رَأْيِ أَبِي يُوسُفٍ ** فِي صَلَاةِ الْحِجَّةِ بِالْعُمْرَةِ
 هَذَا عَلَى أَنِّي مُذْضَمِّنِي ** إِلَيْهِ لَمْ أَعْصِ لَهُ أَمْرًا»^(٢)

ولم تقصد بكل ما ذكرته عن الحج من كونه أداء مرة واحدة، ورميه للجمرات إلا ظاهر الكلام، حتى حين ذكرت أحد وجوه أداء الحج والعمرة الثلاث، وهو (القران)، فإن أبا زيد زوجها كان على رأي أبي يوسف في صلة الحج بالعمرة،

(١) المقامة نفسها (٣١)، ٢٠-١٩/٤، يرحض: يغسل، اعتيامك: اختيارك، احداجا: جمع

حدج، وهو مركب من مراكب النساء. انظر: اللسان، مادة: رحض، غنم، حدج.

(٢) المقامة (٤٥): الرملية، للحريري، شرح الشريشي، ١٨٦/٥.



وأبويوسف* في ذلك مخالف لمالك - رضي الله عنهما - في أن القرآن في الحج أفضل من الأفراد، وهو مذهب علي بن أبي طالب - عليه السلام - ووجوه أداء الحج والعمرة ثلاث: الأفراد، والقران، والتمتع^(١).

وفي آخر مقامة ترى الحريري يصور لنا واقعا إسلامياً يمثله ندم أبي زيد على ما فرط في جنب الله، فتاب وأقلع عما كان يرتكبه من معاصي، والتوبة (فيها معنى الرجوع والعودة: وفيها معنى طلب الوقاية، والبعد عن شر ما يخافه الإنسان في المستقبل من سيئات أعماله، وعرفها العلماء بأنها الرجوع إلى الله تعالى: بالتزام فعل ما يجب، وترك ما يكره)^(٢). قال تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾^(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٤).

والحريري حين جعل بطل مقاماته يندم، ويستغفر ويتوب في آخر مقامة له، سار على خطى المسلمين الذين يذنبون، ومن ثم يتوبون، والتوبة واجبة على الدوام فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، وإن خلا عن معصية بالجوارح، لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى

(١) انظر: موعظة المؤمنين، محمد القاسمي، ص ١١٥.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ٥٣/٢.

(٣) سورة النور، آية ٣١.

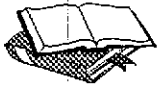
(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد: باب ذكر التوبة، ٢٩١/٢.

(* هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصاري، ولد سنة ١١٣هـ، كوفي صاحب أباحنيفة فغلب عليه، حتى قالوا أبويوسف أبوحنيفة، أول من دُعي بقاضي القضاة في الإسلام.

انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ٢٤٢/١٤. مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده،

١٠٠/٢-١٠٧. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، النجوم

الزاهرة، تغرى بردى، ١٠٧/٢.



وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، ولهذا قال النبي - ﷺ -: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»^(١).

قال الحريري على لسان بطله يطلب من أهل البصرة أن يعينوه على التوبة بالدعاء.

«سَلُّوا عَنِّي الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ ... لَتَعْلَمُوا كَمْ فَجَّ سَلَكَتُ ... وَلَكِنْ فَرَطَ مَا فَرَطَ، وَالغُضْنَ رَطِيبٌ ... فَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ اسْتَشَنَّ الْأَدِيمَ ... فَلَيْسَ إِلَّا النَّدْمُ إِنْ نَفَعَ، وَتَرْقِيعَ الْحَرْقِ الَّذِي قَدْ اتَّسَعَ ... سِيْلَاحَ النَّاسِ كُلَّهُمْ الْحَدِيدَ، وَسِيْلَاحُكُمْ الْأَدْعِيَةَ وَالتَّوْحِيدَ ... وَلَسْتُ أَبْغِي أُعْطِيْتِكُمْ، بَلْ أَسْتَدْعِي أَدْعِيَتِكُمْ ... فَادْعُوا اللَّهَ يَتَوَفَّقِي لِلْمَتَابِ، وَالْإِعْدَادِ لِلْمَأَبِ، فَإِنَّهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ، مُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَهُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَن السَّيِّئَاتِ ثُمَّ أَنْشَدَ :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبٍ * * أَفْرَطْتُ فِيهِنَّ وَاعْتَدَيْتُ

كَمْ خَضْتُ بَحْرَ الضَّلَالِ جَهْلًا * * وَرَحْتُ فِي الْغَيِّ وَاعْتَدَيْتُ

..... ..

فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا نَسِيًّا وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ

..... ..

يَا رَبِّ عَفِّوْا فَأَنْتَ أَهْلٌ * * لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ

قال الراوي : فطَفِقَتِ الْجَمَاعَةُ تَمْدُّهُ بِالْدُّعَاءِ، وَهُوَ يَقْلِبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ إِلَى أَنْ دَمَعَتْ أَجْفَانُهُ، وَبَدَأَ رَجْفَانَهُ، فَصَاحَ : اللَّهُ أَكْبَرُ بَانَتْ أَمَارَةُ الْاسْتِجَابَةِ، وَانْجَابَتْ

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني بلفظ: «إني ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله

في اليوم مئة مرة»، كتاب الذكر والدعاء ..، باب (١٢): استحباب الاستغفار والاستكثار

منه، ٢٠٧٥/٤.



غَشَاوَةَ الْاِسْتِرَابَةِ فَجَزَيْتُمْ يَا اَهْلَ الْبَصِيْرَةِ، جَزَاءَ مَنْ هَدَى مِنَ الْحَيْرَةِ»^(١).

فكيف تمت الاستجابة التي قالها؟

متى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾^(٢).

((وقد أوجزت الشروط التي يلزم توافرها في صحة التوبة، فذكر أنها: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط فيه، والعزيمة على ترك المعادة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شروط التوبة في الشرع، ويبدو أن هذا هو المراد من ((التوبة النصوح)) التي ذكرها القرآن الكريم في سورة التحريم^(٣)، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾^(٤).

وقال عليه السلام: ((إن الله عز وجل ييسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار، ولمسيء النهار إلى الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها))^(٥).

ولعلم الحريري أن التوبة تبدأ بالاستغفار، ولعلمه أن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم، وأحنُّ على عبده من الوالدة على ولدها، وأنه سبحانه: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٦). جعل بطله أبازيد يبدأ به فقال:

* أستغفر الله من ذنوبٍ *

(١) المقامة (٥٠): البصرية، للحريري، شرح الشريشي، ٣٥٣/٥-٣٥٩.

(٢) سورة الشورى، آية ٢٥.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرياصي، ٥٨/٢.

(٤) سورة التحريم، آية ٨.

(٥) رواه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - بلفظ: إن الله عز وجل

بسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار... الحديث، كتاب التوبة، باب (٥): قبول التوبة من

الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة، ٢١١٣/٤. ورواه الإمام أحمد، ٣٩٥/٤، ٤٠٤.

(٦) سورة الزمر، آية ٥٣.



ولذا نراه يسير ببطله في هذه المقامة على نفس الخطى التي كان يسير فيها في باقي المقامات، ففي البداية حين طلب منهم أن يدعوا الله معه؛ ليغفر له ويتوب عليه كان ذلك ليحتال ويحصل على المال، ولكن الله استجاب دعوته، ودعوتهم فتاب كما ذكر على لسان الراوي الحارث بن همام :

((لَقَدْ أَغْرَبْتُ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ، فَمَا رَأَيْكَ فِي التَّوْبَةِ، فَقَالَ: أُقْسِمُ بِعَلَامِ الْخَفِيَّاتِ، وَغَفَارِ الْخَطِيئَاتِ، إِنَّ شَأْنِي لَعَجَابٌ، وَإِنَّ دُعَاءَ قَوْمِكَ لِمُحَابٍ، فَقُلْتُ: زِدْنِي إِفْصَاحاً ... فَقَالَ: وَأَيُّكَ لَقَدْ قَمْتُ فِيهِمْ مَقَامَ الْمُرِيبِ الْخَادِعِ، ثُمَّ انْقَلَبْتُ مِنْهُمْ بِقَلْبِ الْمُنِيبِ الْخَاشِعِ، فَطُوبَى لِمَنْ صَغَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ بَاتُوا يَدْعُونَ عَلَيْهِ ثُمَّ وَدَعَنِي وَأَنْطَلَقَ ... فَلَمْ أَزَلْ أَعَانِي لِأَجَلِهِ الْفِكْرَ، وَأَتَشَوَّفُ إِلَى خَيْرَةٍ مَآذَكَرَ، وَكُلَّمَا اسْتَنْشَيْتُ خَيْرَهُ مِنَ الرُّكْبَانِ ... فَحَكُوا أَنَّهُمْ الْمَوَاسِرُوجُ ... فَرَأَوْا أَبَا زَيْدَهَا الْمَعْرُوفَ، قَدْ لَيْسَ الصُّوفَ، وَأَمَّ الصُّفُوفَ وَصَارَ بِهَا الزَّاهِدَ الْمُؤْصِفَ، فَقُلْتُ: أَتَعْنُونَ ذَا الْمَقَامَاتِ، فَقَالُوا: إِنَّهُ الْآنَ ذُو الْكِرَامَاتِ ... فَارْتَحَلْتُ رِحْلَةَ الْمَعْدِ، وَسِرْتُ نَحْوَهُ سَيْرَ الْجُحْدِ، حَتَّى حَلَلْتُ بِمَسْجِدِهِ، وَقَرَارَةَ مَتَعَبَدِهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ نَبَذَ صُحْبَةَ أَصْحَابِهِ، وَانْتَصَبَ فِي مِحْرَابِهِ، ... وَالْفَيْتَهُ مِمَّنْ سَيَّمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ سُبْحَتِهِ، حَيَّانِي بِمَسْتَبَحْتِهِ...))^(١).

والحريري في مقامته الأخيرة جعل بطل مقاماته يتوب ويطلب المغفرة من الله كحال أي مسلم يذنب، فاستجاب الله الدعوة، حتى إننا نرى أبازيد من الزهاد في آخر المقامة، لا يترك الصيام والقيام فيقول الراوي عنه :

((وَ لَمْ يُزَلْ فِي قَنُوتٍ وَخُشُوعٍ، وَسُجُودٍ وَرُكُوعٍ، وَإِخْبَاتٍ وَخُضُوعٍ، إِلَى أَنْ أَكْمَلَ إِقَامَةَ الْخَمْسِ، وَصَارَ الْيَوْمَ أَمْسٌ ... ثُمَّ نَهَضَ إِلَى مُصَلَّاهُ وَتَخَلَّى بِمِنَاجِيَةِ مَوْلَاهُ، حَتَّى إِذَا التَّمَعَ الْفَجْرَ، وَحَقَّ لِلْمُجْتَهِدِ الْأَجْرُ، عَقَّبَ تَهَجُّدَهُ بِالتَّسْبِيحِ...))^(٢).

وننتقل إلى المقامة (٤٧) فنرى الحريري يذكر لنا واقعا إسلاميا فيقول :

(١) المقامة نفسها (٥٠): البصرية، للحريري، ٣٥٩/٥-٣٦٤.

(٢) المقامة (٥٠): للحريري شرح الشريشي، ٣٦٥/٥.



«حكى الحارث بن همام؛ قال: احتججتُ إلى الحِجامة، وأنا -بمجرِّ اليمامة، فأرشدتُ إلى شيخٍ يحجِّمُ بلطافة، ويسفر عن نِظافة»^(١).

والرسول ﷺ حث على الحجامة فقال: «خير ما تداويتم به الحجامة والفسط»^(٢). وقال -ﷺ-: «إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شربة عسل، أو شرطة محجم، أو لذعة من نار، وما أحب أن أكتوي»^(٣).

وعن ابن عباس قال: «احتجم النبي -ﷺ- وهو محرم»^(٤).

وبين الحريري سبب التداوي بالحجامة وأصحابها، فقال على لسان الفتى: «إن يكن سبب تعنتك، نفاق صنعك، فرماها الله بالكساد، وإفساد الحساد، حتى ترى أفرغ من حجّام سبابط، وأضيق رزقاً من سم الخياط، فقال له الشيخ: بل سلط الله عليك بثر الفم، وتبيغ الدم؛ حتى تلجأ إلى حجّام عظيم الاشتطاط، ثقبيل الاشتراط، كليل المشراط، كثير المخاط والضراط»^(٥).

فأما قوله: «(بثر الفم، وتبيغ الدم)» فهذا سبب ذهابه للحجّام للتداوي.

وأما قوله: «(أفرغ من حجّام سبابط)»، فسبابط حجّام كان تمر به الجيوش

(١) الحجرية، شرح الشريشي، ٢٥٨/٥.

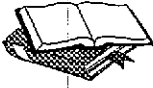
الحجامة: من الحجّم: أى المص، يقال: حجّم الصبي ثدى أمه إذا مصه، والحجّام: المصاص، ويقال للحجّام حجّام؛ لامتنصاصه فم الحجمة، والمحجمة: قارورته، والمحجم: مشرط الحجّام. انظر: اللسان، مادة حجّم.

(٢) رواه البخاري (٥٦٩٧) عن أنس -ﷺ-، كتاب الطب، باب الحجامة من الداء، ١٥/٧، بلفظ «(إن أمثل ما تداويتم به الحجامة...)»، الفسط: عودٌ يجاء به من الهند، يجعل في الدواء والبخور، انظر: اللسان، مادة: فسط.

(٣) رواه البخاري (٥٧٠٢) عن جابر بن عبد الله -ﷺ-، كتاب الطب، باب الحجامة من الشقيقة والصداع، ١٥/٧.

(٤) رواه البخاري (٥٦٩٥) كتاب الطب، باب الحجّم في السفر والإحرام، ١٥/٧، ومسند الإمام أحمد، ١٨٥/٥ بلفظ «(احتجم في المسجد)».

(٥) المقامة نفسها (٤٧)، ٢٧٦/٥.



فيحجمهم نسيئةً من الكساد حتى يرجعوا، فضربوا به المثل^(١).

وأصحابها وهم الحجامون فقد ذكر نوع منهم وهو: «عَظِيمُ الاِشْتِطَاطِ، ثَقِيلُ الاِشْتِطَاطِ، كَيْلِيلُ المِشْرَاطِ، ...» وذكر هنا الأداة: وهي المشرط، ووصفه بقوله: «كليل».

ونخلص إلى أن الحجامة مما عرف به العرب قديماً، وحث النبي - ﷺ - على التداوي بها. وذكرها الحريري كواقع يلجأ إليه المسلمون في مجتمعه آنذاك.

وفي مقامة الحريري "السَّأْوِيَّة" يقول على لسان الراوي الحارث بن همام: «أَنْسَتُ مَنْ قَلْبِي القَسَاوَةَ، حِينَ حَلَّتْ سَاوَةٌ، فَأَخَذْتُ بِالخَبَرِ المَأْتُورِ، فِي مَدَاوِئِهَا بِزِيَارَةِ القُبُورِ»^(٢).

فالواقع الإسلامي يحث على زيارة القبور حين يشعر الإنسان بالقساوة رانت على قلبه كما فعل الحارث هنا؛ لأنه لا واعظ كالموت لقوله - ﷺ -: «كفى بالموت واعظاً»^(٣)، وروي عنه أنه قال: «أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات»^(٤).

وأما قوله: الخبر المأثور، أي المحدث به، فهو قوله - ﷺ -: «عودوا المرضى، واحضروا المقابر، فإنها ترهد في الدنيا، وتذكر الآخرة»^(٥).

ثم ذكر الحارث قوله: «فلما صيرتُ إلى محلّة الأموات، وكيفات الرُفَاتِ، رأيتُ جمعاً على قبرٍ يُحْفَرُ، ومجنوز يُقْبَرُ،... فلما أَلْخَدُوا المِيتَ، وَفَاتَ قَوْلُ لَيْتَ...»^(٦).

(١) انظر: اللسان، مادة: حجم.

(٢) المقامة (١١)، شرح الشريشي، ٣/٢.

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الزهد، باب ذكر الموت، ٣٠٨/١٠.

(٤) رواه الترمذي (٢٣٠٧) من حديث أبي هريرة - ﷺ - في كتاب الزهد، باب (٤): ماجاء

في ذكر الموت، ٥٥٣/٤، وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٢٥٨)، كتاب الزهد، باب (٣١): ذكر الموت والاستعداد له، ١٤٢٢/٢.

(٥) رواه البخاري في كتاب النكاح ٧١، باب حق إجابة الوليمة والدعوة، ١٤٣/٦. ورواه

أحمد في مسنده، ٢٣/٣، ٣١، ٤٨، ٣٩٤، ٤٠٦.

(٦) المقامة نفسها، ٣/٢.



ففي قوله: «ألحدوا الميت» إشارة إلى اقتدائهم بفعله عليه الصلاة والسلام في قوله: «اللحد لنا والشق لغيرنا»^(١)، واللحد أفضل، وإن كان الشق جائزاً.

وهذا ابن الجوزي يشير إلى زيارة القبور، ولمسها ولثمها، فقال: «كنت قليل الصبر عن زيارة المشاهد، كأنني عند القبر لصاحبه مُشاهد، فقوى شوقى إلى إبراهيم ابن أدهم... فأحببت أن ألمس وألثم قبرة...»^(٢).

فزيارة القبور مستحبة لأنها تذكر بالآخرة، وتنفع الميت بالدعاء والاستغفار له، لقوله - ﷺ -: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها ترقق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة»^(٣).

أما زيارة النساء فلم يختلف أهل العلم في حرمة كثرة تردد المرأة على المقابر لزيارتها، لقوله - ﷺ -: «لعن الله زوارات القبور»^(٤).

وبعضهم أجاز ذلك لما ثبت أن عائشة - رضي الله عنها - زارت قبر أخيها عبدالرحمن، فسئلت عن ذلك، فقالت: «نعم كان قد نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها»^(٥)^(٦).

أما لمس القبر ولثمه فلا يجوز، وقد أورد ابن الجوزي في أكثر من مقامة نزوله بالمقابر، وإقامته عندها كما في المقامة (٣٣)، حين قال: «بالمقابر الليلة أنزل، رأيت كل من مات له عزيز يضرب عند القبر خيمة فأنا أندب مع القوم قلبي، ثم أشار إلى أهل القبور وقال: كم لهم ديون في ذمة الكرام، كلما طالت أيامها ربت، فأقام وقال

(١) رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب (٥٣) ٣/٣٦٢، وقال حديث حسن، اللحد: هو الحفر

في جانب القبر الأيمن، والشق هو الحفر في وسط القبر، انظر: اللسان، مادة: لحد، شق.

(٢) المقامة (٣٢): في ذم البخل، لابن الجوزي، ص ٢٥٢، ٢٥٥.

(٣) سبق تخريجه، ص ٢١٨.

(٤) رواه الترمذي في كتاب الجنائز، باب (٦١): ماجاء في كراهية زيارة القبور للنساء،

٣٧١/٣. وأحمد في مسنده، ٣٣٧/٢، ٣٥٦.

(٥) رواه الحاكم في كتاب الجنائز، ٣٧٦/١.

(٦) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ص ٣٩٥.



لَأَبْرَاحَ، وَجَعَلَ يَبْكِي إِلَى الصَّبَاحِ...»^(١).

أما قولي لا يجوز؛ لأنه «لا يحل القعود على القبر ولا الاستناد إليه، ولا المشي عليه، لما رواه عمرو بن حزم قال: رأني رسول الله - ﷺ - متكئاً على قبر فقال: «لئن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده، خير له من أن يجلس على قبر»^(٢).

والقول بالحرمة مذهب ابن حزم، لما ورد فيه من الوعيد قال: وهو قول جماعة من السلف، منهم أبو هريرة، ومذهب الجمهور أن ذلك مكروه»^(٣).

وأبرز ما أظهره ابن الجوزي في الواقعية الإسلامية؛ كيفية التعامل مع الحزن، والوعظ بالموت الذي يلج إليه كثيراً. ففي مقامته (٣١) بين واقعاً يصدر من أفراد مجتمعه آنذاك، ويحدث في واقعنا اليوم وهو التفجع، والتوجع حين يموت لنا ميت، فلانصبر، ولا نتحسب عند الله، فهذا مات له طفل صغير، ولم يلتفت للمعزين، بل يردد ويعدد: «ذَهَبَ جَاهِي وَعِزِّي»^(٤).

وحين أحضروا أبا التقويم حثه بما يجب أن يكون عليه المسلم حين يُرزأ بمصيبة فيتحلى بخلق الصبر، قال: «إِذَا قِيسَ الْجَزَعُ بِالصَّبْرِ، فَالصَّبْرُ أَوْلَى، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَكُونُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٥). وهذا ما حث عليه رسول الله - ﷺ - في قوله: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٦)، وإشارة إلى حديث رسول الله - ﷺ - في أن الطفل الميت يشفع لأبويه، فقال أبو التقويم موجهاً خطابه إلى صاحب المصيبة:

(١) مقامة: التصديق لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٢٤.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة - ﷺ - في كتاب الجنائز، باب (٣٣)؛ إنه ينهاه عن الجلوس على القبر والصلاة عليه، ٦٦٧/٢.

(٣) فقه السنة، السيد سابق، ٥٥٣/١، ط (٨)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٤) في التعازي، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٠٢.

(٥) المقامة نفسها، ص ٤٠٤.

(٦) رواه مسلم (٩٢٦) عن أنس بن مالك - ﷺ -، كتاب الجنائز، باب (٨): في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، ٦٣٧/٢.



« فَإِنْ كُنْتَ تَبْكِيهِ طَلَبًا لِنَفْعِهِ ** فقد نالَ جَنَاتِ الخلودِ مُسَارِعَا
وإنْ كُنْتَ تَبْكِي أَنَّهُ فَاتَ عَوْدُهُ ** عَلَيْكَ بِنَفْعٍ فَهُوَ قَدْ صَارَ شَافِعًا»^(١)

ثم لجأ إلى أسلوب التضاد، ليمعن في وعظه، فينفر من الجزع، ويحث على الصبر فقال: «الجزع لا يرد الغائب، ولكن يسر الشامت، ثم إنه زيادة في العذاب، لأنه مصاب يضاف إلى مصاب»^(٢). وقال:

« مَنْ يَتَمَنَّى العَمَرَ فَلْيَتَّخِذْ ** صَبْرًا عَلَيَّ فَقَدْ أُجِبَائِهِ
وَمَنْ يَعَاجِلُ يَرَى فِي نَفْسِهِ ** مَا يَتَمَنَّاهُ لِأَعْدَائِهِ»^(٣)

فقال له صاحب المصيبة: لقد نفعني بما أسمعني، ولقد كنت في حضيض الجزع فرفعتني فزدني ... فقال:

« اعلم أَنَّ الهَبَاتِ ذَاهِيَاتٍ ... أَيْنَ الَّذِينَ كَانَتْ الألسنُ تَهْذِي بِهِمْ لِتَهْذِيهِمْ،
... فَبَاتُوا فِي القُبُورِ وَجَدَانَا، لِأَنيسَ لغيرتهم، أين أهلُ الودادِ الصَّابِي فِي التَّصَابِي ... كَقَدْ
نَادَى الموتُ أَهْلَ الغَوَالِي والقصورِ العَوَالِي السَّوَالِي، تَأَهَّبُوا لِقُدومي ... رَحَلَ ذُو المَالِ
وَمَا أَوْصَى فِي تَفْرِيقِ كَدْرِ أَوْ صَابِي، وَلَقِي فِي مَرَّةٍ أَمْرًا مَرًّا لَا تَبْلُغُهُ أَوْصَابِي ... انْقَطَعَتْ
آمَالُهُم ... آلتْ قُبُورُهُم إِلَى الخرابِ ... أَيُّهَا العَاقِلُ التفتِ عَمَّا لَدَيْكَ شُغْلًا بما بَيْنَ
يَدَيْكَ، وانظُرْ لِنَفْسِكَ وَمَا عَلَيْكَ ... فَقَالَ المصَابُ سَلَيْتَنِي أَجْزَلَ اللهُ جِزَاكَ ... أَيُّهَا
الشَّيْخُ عُدْ إِلَيَّ غَدًا وَهُوَ الثَّالِثُ ...»^(٤) فحضر وصار مجلس تذكير نهاهم فيه عن
التسوية، والتأخر في إعلان التوبة.

وأبو التقويم حين طلب منه المصاب الحضور بقوله: «عُدْ إِلَيَّ غَدًا وَهُوَ الثَّالِثُ»
لبي وحضر لكونه يعرف الشرع، فالحداد ثلاثة أيام، أما ما عدا ذلك فيخرج عن نطاق
مأمر به الإسلام متمثلاً في قوله - ﷺ - «لا تحمد المرأة على ميت فوق ثلاث إلا على

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) المقامة والصفحة نفسها .

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٠٦ .

(٤) المقامة نفسها، ص ٤٠٦-٤٠٧ .



زوج، فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشراً^(١) بقي أن نعرض لموقف الإسلام من بكاء المصاب، الذي كان يصاحبه تعداد على فقد ابنه، وهذا يحرم لقوله - ﷺ - يحرم النواح، والصراخ على الميت: «إن الميت ليعذب ببكاء الحي»^(٢). وقوله: «من نوح عليه فإنه يعذب بما نوح عليه يوم القيامة»^(٣).

وكان - ﷺ - يأخذ البيعة على النساء ألا ينحن، قالت أم عطية - رضي الله عنها - عن رسول الله - ﷺ - قال: «إني بريء من الصالقة والحالقة والشاققة»^(٤).

أما البكاء فلا بأس به، لقوله - ﷺ - لما توفي ولده إبراهيم: «إن العين لتدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(٥).

وبكى - ﷺ - لموت أمامة بنت ابنته زينب. فقيل له يارسول الله، أتبكي، أو لم تنه عن البكاء؟ فقال: «إنما هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٦).

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل من مات له أولاد صغار، وفي مقامتنا هذه كانت مصيبة الرجل في فقد طفل، وكأنه لم يسمع قول الرسول - ﷺ -:

(١) رواه البخاري في فتح الباري (١٢٨٢)، كتاب الجنائز، باب (٣٠): إحداد المرأة على غير زوجها، بنحوه، ١٤٦/٣، والإحداد: ترك الزينة من لباس وكحل، وحناء وطيب. انظر: اللسان، مادة حدد.

(٢) رواه البخاري عن أسامة بن زيد - ﷺ - كتاب الجمعة، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، ١٠٠/٢.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٩.

(٤) رواه البخاري عن أبي موسى - ﷺ -، كتاب الجمعة، باب قول النبي - ﷺ - بريء من الصالقة والحالقة والشاققة، ١٠٣/٢.

(٥) رواه البخاري عن أنس بن مالك - ﷺ -، كتاب الجمعة، باب قول النبي ﷺ: إنا بك لمحزونون، ١٠٥/٢.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (١٨) عن ابن عمر - ﷺ - كتاب الجنائز، باب (٩): قول الرسول - ﷺ - الميت يعذب ببكاء أهله عليه، ٦٣٩/٢.



«أولاد المؤمنين في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة»^(١). وقال عليه السلام: «مامن مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الخنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»^(٢).

أما الزمخشري فقد بين في مقامته الثانية الواقعية الإسلامية؛ لأنها تبين الطريق الذي يجب أن يسلكه المسلم في حياته من طرق شتى ألا وهو طريق التقوى فقال: «أَلَا إِنَّ الْأَحْجَى بِكَ أَنْ تَلُوذَ بِالرُّكْنِ الْأَقْوَى وَلَا رُكْنَ أَقْوَى مِنْ رُكْنِ التَّقْوَى. الطُّرُقُ شَتَّى... الْجَادَّةُ بَيْنَهُ، وَالْحُجَّةُ مُتَّضِحَةٌ... وَالْحَيْنِيفَةُ نَقِيَّةٌ بِيضَاءٍ، وَالْحَقُّ قَدْ رُفِعَتْ سُتُورُهُ، وَتَبَلَّجَ، فَسَطَّحَ نُورُهُ فَلِمَ تُغَالِطُ نَفْسَكَ، وَلِمَ تُكَابِرُ حِسْكَ، لَيْتَ شِعْرِي مَا هَذَا التَّوَانِي وَالْمَوَاعِظُ سَيْرِ السَّوَانِي»^(٣).

إذن فطريق المسلم واضح، ألا وهو طريق الملة الحنيفة، وهي ملة الإسلام نسبت إلى الحنيفة، وهو الذي مال عن جميع الأديان الباطلة إلى دين الحق، وقد وصفها بأنها بيضاء من قول النبي - ﷺ -: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»، من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ...»^(٤).

أما في مقامته المسماة «الارعواء»^(٥) فيطلب من واعظٍ ألا ينصاع إلى الشهوة، وخاصة في مرحلة الشباب؛ لأن الشيطان يسول للمرء أن يركن إلى الطاعة عند كبر السن، وهذا تصوير لواقع كثير من الناس، ومنهم المسلمون أيضاً، يمد لهم الشيطان الأمل في أن الغد ما يزال أمامهم يستطيعون أن يعبدوا الله، ويطيعوه، ويمثلوا لأوامره، أما الآن وهم صغيرو السن، فعليهم أن يغرفوا من ملذات الدنيا، ولكن ما هكذا يكون

(١) رواه الحاكم في المستدرک عن أبي هريرة - ﷺ - كتاب الجنائز، ١/٣٨٤.

(٢) رواه البخاري عن أنس - ﷺ - في كتاب الجمعة - باب فضل من مات له ولد فاحتسب،

٩٢/٢.

(٣) مقامة التقوى، للزمخشري، ص ٣١-٣٣.

(٤) رواه ابن ماجه تحت رقم (٤٣)، في المقدمة، باب (٦)، ١/١٦.

(٥) المقامة (٤) للزمخشري، ص ٢٦.



حالٌ وواقعُ المسلم بل على النقيض من ذلك، وهذا ما فعله الزمخشري حين قال: «يأبأ بالقاسم شهوتك يقظي فأتمها، وشبابك فرصة فاعتيمها قبل أن تقول قد شاب القذال. وسكت العذال»^(١).

ثم أخذ يصف الشباب وهم في عز قوتهم، فقال: «وعيون الغواني، إليك رواني، وعودك ريان... وفي عمرو قوتك بسالة»^(٢).

فعمرو أراد به عمرو بن معد يكرب، وكان يعد بألف فارس، وجعل لقوته عمراً من بديع الحجاز وبارعه.

ومما جعل لوعظه أثراً بالغاً؛ لجوؤه لأسلوب المفارقة؛ فبعد أن وصف حاله في الشباب، بين كيف يكون حين يرتحل عنه، فقال: «على رسلك حتى ينحني غصن القامة، ويبرق ضلع الهامة، وترى التئومة نغامة»^(٣).

وفي الحديث: «تكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ - حتى آضت كأنها تنومة»^(٤). وفي الحديث: «أتي بأبي قحافة، وكان رأسه نغامة»^(٥). شبه الشعر الفاحم بالتنومة، والأبيض بالثغامة.

فحين يعظ ويدكر بحال الإنسان في كبر سنه، يرعوي ويتيقظ من الوقوع في حبال الشيطان.

وبيّن ابن الجوزي في مقامته (٣٣) واقع مجتمعه آنذاك في تنفيذ الركن الرابع من أركان الإسلام، وهو الصوم فقال: «أهل رمضان فقمّت عجلاً أحضر إلى عبدي... فإذا به أبو التقويم... وقلت: أفطر عندي هذه الأيام، أحيأك الله ألف عام،

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٦-٢٧.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٨.

(٤) رواه أحمد في مسنده، ١٦/٥، ١٧، التنومة: نبات أسود، انظر: اللسان، مادة: تم.

(٥) رواه مسلم (٧٨، ٧٩)، كتاب اللباس، باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة...

١٦٦٣/٣. وأحمد في مسنده، ١٦٠/٣، ٣١٦. الثغامة: نبت أبيض، انظر: اللسان، مادة: نغم.



فقال: مِثْلُكَ مِنْ حَازَ ثَوَابَ صَوْمِي ... فَكَانَ طُولَ النَّهَارِ يَبِثْنِي ذِكْرَ الْعُلُومِ، وَفِي اللَّيْلِ يَحْتَنِي أَنْ أَقُومَ»^(١).

فحين قال: أهل رمضان، أراد ثبت دخول رمضان لأن؛ «دخول رمضان يكون بأحد أمرين: أولهما: كمال الشهر السابق. وثانيهما: رؤية هلاله. لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٢). وقول الرسول - ﷺ -: «إِذَا رَأَيْتُمْ الْهَلَالَ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَافْطَرُوا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمَلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا»^(٣).
وحين قال: «مِثْلُكَ مَنْ حَازَ ثَوَابَ صَوْمِي».

فهل حاز ثواب صومه؟ كيف والرسول - ﷺ - يقول: «قال الله - عز وجل - كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»^(٤).

أما المراد من قوله: «حاز ثواب صومي» فهو الذي قاله - عليه السلام -: «من فطر صائماً، كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء»^(٥).

أما قول ابن الجوزي: «كَانَ طُولَ النَّهَارِ يَبِثْنِي ذِكْرَ الْعُلُومِ، وَفِي اللَّيْلِ يَحْتَنِي أَنْ أَقُومَ»، فهو امتثال لقوله - ﷺ -: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من

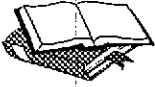
(١) في وداع رمضان، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤١٩.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨٥.

(٣) رواه مسلم (١٠٨٠)، عن عبد الله بن عمر - ﷺ -، كتاب الصيام، باب (٢): وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، ٧٦٠/٢.

(٤) رواه مسلم (١٦٣) عن أبي هريرة - ﷺ - في كتاب الصيام، باب (٣٠): فضل الصوم، ٨٠٧/٢.

(٥) رواه الترمذي عن زيد بن خالد الجهني - ﷺ - في كتاب الصوم، باب (٨٢)، ١٧١/٣ وقال حديث حسن صحيح.



ذنبه»^(١). وقوله - عليه الصلاة والسلام-: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصوم: رب منعته الطعام والشراب بالنهار، ويقول القرآن، منعته النوم بالليل فشفعنا به»^(٢).

ويستمر ابن الجوزي في مقامته هذه للرد على من سأله: «ما الحكمة في تشريع الصوم، والله غني عن تجويع القوم؟ فقال: أذاق الغني في هذا الشهر، ما يدوقه الفقير طوال الدهر، ليحس بمساواته على مواساته، وكذلك أمر بالتعزي عند الإحرام، ليذكر عري الفقراء الكرام»^(٣).

وها هو ذا قد وعى حديث رسول الله - ﷺ -: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(٤). فقال: «ليس الصوم صوم جماعة الطعام، عن الجماع والطعام، إنما الصوم صوم الجوارح عن الآثام، وصمت اللسان عن فضول الكلام، وغض العين عن النظر الحرام، وكف الكف عن أخذ الحطام، ومنع الأقدام عن قبيح الإقدام، ويحك إن المطلوب من الصوم التقليل ليسبق المصن»^(٥).

«عن عمر بن الخطاب: ليس الصيام من الشراب والطعام وحده، ولكنه من الكذب، والباطل، واللغو.

وعن جابر بن عبد الله: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب، والمأثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك، ولا تجعل

(١) رواه مسلم برقم (١٧٣)، عن أبي هريرة - ﷺ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب (٢٥): التغريب في قيام رمضان وهو التراويح، ٥٢٣/١.

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمر - ﷺ -، بسند صحيح، ١٧٤/٢.

(٣) المقامة نفسها (٣٣)، ص ٤١٩.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (١٩٠٣)، كتاب الصوم، باب (٨): من لم يدع

قول الزور والعمل به في الصوم، بلفظه، ١١٦/٤، عن أبي هريرة - ﷺ -، والترمذي في

كتاب الصوم، باب (١٦)، ٨٧/٣.

(٥) المقامة نفسها (٣٣)، ص ٤١٩.



يوم فطرك ويوم صومك سواء»^(١).

لكن ابن الجوزي بين واقع مجتمعه حيال الصوم فإذا «هُم يستوفون وقت الإفطار الحِمْلَ، ويجعلون السَّحُورَ عِلَاوَةً، فيقفُ جملَ التَّعبُدِ، المرادُ من التَّجْوِيعِ خُلُوفُ الفمِ، والذي عِنْدَهُمْ جُشَاءُ التُّخَمِ، يصبَحون وَبِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ بِشَمِّمْ، وَمِنْ المَاءِ بَعْرٌ، جَاعُوا بالنَّهَارِ وما يفهمون كيفَ صَامُوا، وَشَبِعُوا بِاللَّيْلِ فَنَامُوا وَمَأْقَامُوا»^(٢).

ونقيض صوم هؤلاء صوم السلف فقد كانوا «ربما تناولوا وقت الإفطار رَغِيْفًا وَتَمْرَةً، فيردفون بمثل ما حَجَّوا به عُمْرَةً»^(٣).

إلا أن بطل مقامات ابن الجوزي أبا التقويم كان يطبق ما أمر به الشارع في صيامه وقيامه، فإذا هو يقول لرفيقه: «قَلَّلْ وَاتَّحَصَّرْ، فَبِهِ عَلى النَّوْمِ تَنْتَصِرْ، فَلَمَّا صَلَّيْنَا التَّرَاوِيحَ نَامَ، وَقَالَ خُذْ مِنْ سَاعَةِ الْقِيَامِ، فَلَمَّا ذَهَبَ نِصْفُ اللَّيْلِ أَيْقِظْنِي وَقَالَ: أَحْفَظْ هَذَا الْوَقْتَ وَلَا تَقُلْ أَحْفَظْنِي، وَيَحْكُ هَذَا الشَّهْرُ رَبِيعَ التُّقَى ... فِقَمْنَا، فَصَلَّيْنَا مَا قَضَى اللهُ لَنَا، ثُمَّ اسْتَغْفَرْنَا ...»^(٣) فهؤلاء الذين قال ابن الجوزي عنهم: «يصبَحون وَبِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ بِشَمِّمْ» لم يستفيدوا من فوائد الصوم الروحية، والاجتماعية، والصحية، «فمن فوائده الروحية: أنه يعود الصبر ويقوي عليه، ويعلم ضبط النفس، ويساعد عليه، ويوجد في النفس ملكة التقوى ويربيها التي هي العلة البارزة من الصوم، في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤).

ومن فوائده الاجتماعية: أنه يعود الأمة النظام والاتحاد، وحب العمل والمساواة، ويكون في المؤمنين عاطفة الرحمة وخلق الإحسان، كما يصون المجتمع من الشرور والمفاسد.

ومن فوائده الصحية: أنه يطهر الأمعاء، ويصلح المعدة، وينظف البدن من

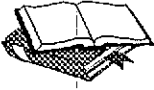
(١) معجم فقه السلف، محمد المنتصر الكتاني، ٣/٧٧-٧٨، جامعة أم القرى، المركز العالمي

للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) سورة البقرة، آية ١٨٣.



الفضلات والرواسب، ويخفف من وطأة السمن وثقل البطن بالشحم»^(١).

وأما قول ابن الجوزي: «لَوْ كَانَ الشَّيْبُ قَدْ مَنَعَ، مَا كَانَ السَّحُورُ قَدْ شَرَحَ»، فهو للدلالة على أهمية السحور «التي أجمعت الأمة على استحبابه، ولا إثم على من تركه؛ لأن الرسول - ﷺ - قال: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»^(٢)، وقوله - عليه السلام -: «عليكم بهذا السحور، فإنه هو الغذاء المبارك»^(٣). ونسب البركة: «أنه يقوي الصائم، وينشطه ويهون عليه الصيام»^(٤).

وقال ابن الجوزي في المقامة نفسها: «وَكُنْتُ إِذَا تَنَبَّهْتُ يَعْظُمُ عَلَيَّ، وَإِذَا رَقَدْتُ يَوْقُظُنِي، فَتَرَوَّحْتُ بِهِ رُوحِي طُولَ شَهْرِ الصَّوْمِ، وَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ أَلْفَ يَوْمٍ فَلَمَّا جَاءَ الْعَشْرُ الْأَخِيرُ شَمَّرَ عَنِ الذَّلِيلِ، وَجَدَّ فِي التَّعْبُدِ طَوْلَ اللَّيْلِ بِأَنْيُنٍ يُعَلِّقُ، وَحَنِينٍ يُحْرِقُ، وَصُعْدَاءَ تُحْرِقُ، وَكَانَ يَخْفِي أَكْثَرَ أَمْرِهِ وَيَسْرِقُ، فَزَا حَمَّ بَعَادَتِهِ الْأَوْلِيَاءَ الْأَفْرَادَ، وَتَحَرَّى بِكَثْرَةِ تَعْبُدِهِ اللَّيَالِي الْأَفْرَادَ، وَكَانَ يَقُولُ: رَمَضَانَ كَالْحَاتِمِ، وَلَيْلَةَ الْقَدْرِ فَصَّهُ الْمَضِيءَ...»^(٥).

فقد ورد في باب الجود، وفعل المعروف، والإكثار من الخير في شهر رمضان والزيادة من ذلك في العشر الأواخر منه - قول السيدة عائشة - رضي الله عنها: كان رسول الله - ﷺ -: «إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَشَدَّ الْمُتَزَرَّ»^(٦).

(١) منهاج المسلم، أبو بكر الجزائري، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) رواه البخاري عن أنس بن مالك - ﷺ -، في كتاب الجمعة باب بركة السحور، قول

الرسول - ﷺ - «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»، ٣/٣٨.

(٣) رواه النسائي، عن المقداد بن معد يكرب - ﷺ - في كتاب الصيام، باب (٢٦): تسمية

السحور غذاء، ٢/١٤٦.

(٤) فقه السنة، السيد سابق، ١/٤٥٥-٤٥٦.

(٥) المقامة (٣٣)، ص ٤٢١.

(٦) رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها -، كتاب العمرة، باب قول النبي - ﷺ -: «إِذَا

دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مُتَزَرَّهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ» ٣/٦١.



وفي رواية لمسلم: «كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره»^(١).

وقيل: كان - ﷺ - : «يجي ليالي رمضان، وإذا كان العشر الأواخر أيقظ أهله، وكل صغير وكبير يطيق الصلاة»^(٢).

أما قوله: «رمضان كالحاتم وليلة القدر فضه المضي»، فلأن ليلة القدر أفضل ليالي السنة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٣).

أي العمل فيها: من الصلاة، والتلاوة، والذكر، خير من العمل في ألف شهر، ولأن فيها ليلة القدر التي يستحب طلبها في الوتر من العشر الأواخر من رمضان، فقد كان النبي - ﷺ - يجتهد في طلبها في العشر الأواخر من رمضان. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»^(٤).

أما قول ابن الجوزي: «فَأَيُّ شَيْءٍ فِي الْإِعْتِكَافِ مِنَ الْمُصَلِّحَةِ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا الْإِعْتِكَافُ سَمْحَةٌ»^(٥).

فهو مما يعيشه المسلم في واقعه أيام رمضان؛ حيث إن الكثير منهم يسير على نهج الرسول الكريم - ﷺ - الذي كان يعتكف وخاصة في شهر رمضان، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله - ﷺ - يعتكف العشر الأواخر من رمضان^(٦).

(١) رواه مسلم برقم (١١٧٥) عن عائشة - رضي الله عنها -، كتاب الاعتكاف باب قول

الرسول - ﷺ - «يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره»، ٣٨٢/٢.

(٢) رواه مسلم برقم (١١٧٤) عن عائشة - رضي الله عنها -، كتاب الاعتكاف، باب

الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان عن الرسول - ﷺ -، ٣٨٢/٢.

(٣) سورة القدر، آية ١-٣.

(٤) رواه البخاري (٢٠١٧) عن عائشة - رضي الله عنها - في كتاب العمرة، باب قول النبي

- ﷺ - «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» ٦٠/٣.

(٥) المقامة نفسها (٣٣): في وداع رمضان، ص ٤١٩، علي مهنا، سمحه: مكرمة، انظر:

اللسان، مادة: سمح.

(٦) رواه البخاري (٢٠٥٢)، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، ٦٢/٣.



ثم ذكر ابن الجوزي أنه لم يفرح بقدوم العيد؛ لحزنه على فراق رمضان فقال:

«النَّاسُ بِالْعِيدِ قَدْ سُرُّوا وَقَدْ فَرِحُوا * * * وَمَافَرِحَتْ بِهِ وَالوَاحِدِ الصَّمِدِ

.....

وَقُلِّ : انْقَضَى شَهْرُ الصَّيَامِ وَوَدُّنَا * * * بَاقٍ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي مَا انْقَضَى»^(١)

ثم قال : «رَأَى النَّاسُ يَتَبَخَّرُونَ فِي ثِيَابِهِمْ، فَقَالَ مَا عِنْدَهُمْ خَيْرٌ مِنْ ثَوْبِهِمْ، إِنْ كَانُوا قَبِلُوا قَائِنَ الشُّكْرِ، وَإِنْ كَانُوا طُرِدُوا قَائِنَ الْحَزَنِ؟...»^(٢).

وما حزنه على شهر رمضان إلا لما فيه من مزايا وفضائل، منها، قوله - ﷺ - لما حضر رمضان: «قد جاءكم شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل في الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»^(٣).

وعنه - عليه السلام - يقول عن رمضان: «تغلق أبواب النار، وتفتح أبواب الجنة، وتصفد فيه الشياطين، وينادي فيه ملك: يا باغي الخير أقبر، ويا باغي الشر أقصر، حتى ينقضي رمضان»^(٤).

يقول ابن الجوزي في مقامته (٣٩) يرد على من قال له: «أرأك خلياً من المال، فضحكك لذلك حتى مأل، فقلت: لو تعرضت لنوال الأغنياء، فقال هذه أقوال الأغنياء، وأنشد:

لَا مُوَا عَلَيَّ تَجْنِي * * * أَمْوَالِ أَهْلِ الرَّيْبِ
وَحَاوَلُوا مِنِّي أَنْ * * * أَجْعَلَ فَضْلِي مَكْسِي

(١) المقامة نفسها، ص ٤٢٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٢٢.

(٣) رواه النسائي في كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، عن أبي هريرة - ﷺ -، ١٢٩/٤. ورواه أحمد في مسنده، ٣١٢/٤، ٤١١/٥.

(٤) رواه النسائي في كتاب الصيام، باب: فضل شهر رمضان، وسنده جيد عن عتبة بن فرقد، ١٣٠/٤. ورواه أحمد، ٢٣٠/٢، ٢٨٥، ٤٢٥.



أَفَّ لِعِلْمِي وَلَمَّا ** حَصَلْتَهُ مِنْ أَدَبِ
 إِنَّ زَانَتِي وَشِرِينَتَهُ ** إِنِّي إِذَا عَيْنَ الْغَيْبِ
 أَبْعَدَ مَا أَعَزَّنِي ** أَذَلُّهُ بِالطَّلِبِ
 يَرْزُقُنِي مَنْ كَانَ لِي ** مِنْ قَبْلِ أُمِّي وَأَبِي
 ثُمَّ قَالَ:
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ** أَلْهَمَنِي قَنَاعَتِي
 لَوْ لَمْ أَكُنْ مُقْتَنِعًا ** لَانْتَشَرْتُ شَنَاعَتِي
 وَمَا سَأَلَ النَّاسُ مِنْ ** شَأْنِي وَلَا صِنَاعَتِي
 وَقَدْ تَزِينَتْ بِنَمَائِي ** تَبْلُغُهُ اسْتِطَاعَتِي
 وَكَيْسَ عِنْدِي حِيلَةٌ ** إِنْ كَسَدْتُ بَضَاعَتِي

ثم قال : وهل المقصود إلا دفع الوقت، فقلت له: صدقت، فأنشد:
 إِذَا رَضِيْتُ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْتِ ** بَقِيْتُ فِي النَّاسِ حُرًّا غَيْرَ مَمْقُوتِ
 يَاقُوتَ يَوْمِي إِذَا مَادَرَ خِلْفُكَ لِي ** فَلَسْتُ أَسَى عَلَى دُرِّ وَيَاقُوتِ^(١)

فابن الجوزي بحث في كل ماسبق على القناعة، وكذا في مقامة أخرى، حيث قال: «ويحك تعز عن الدنيا تعز أنت، تحزن إذا فقدتها، ومايساوي الميت البكاء، إذا بقي لك مايقوت، فلأتيأس على مايقوت...»^(٢).

فهو رغم عدم وجود المال لديه لفقره، فإنه يرفض أن يسأل نوال الأغنياء، وبين هو سبب ذلك قائلاً: «هذه أقوال الأغنياء» وقال:

(١) في الوعظ، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٧٩، ٤٨٠.
 (٢) المقامة (٢١): في ذم البخل والطعام، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٣٣٤، وذكر البيتين الأخيرين المذكورين في المقامة (٣٩) نفسيهما في ص (٤٨٠).



الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ** أَلْهَمَنِي قَنَاعَتِي

.....

وَمَا سَأَلَ النَّاسَ مِنْ ** شَأْنِي وَلَا صِنَاعَتِي

فهو لا يفتقر إلا إلى الله، والفقير ضد الغنى ... والمسلم الحقيقي لا يذل نفسه لاحتياجه إلى شيء مما في أيدي الناس، ولكنه يجد لذة كبرى في الاحتياج إلى الله، والشعور بافتقاره دائماً إلى مولاه. والإحساس المستمر بعدم الاستغناء عن الله. حتى مع الاستغناء المادي بين الناس. فالفقر المراد في هذا المجال هو عين الغنى بالله؛ لأن العبد إن ذل لبارئه ومولاه، فهو غني عزيز على من سواه .

وهذا الفقر إلى الله - عز وجل - هو ما أورده ابن الجوزي في مقامته هذه حين

قال:

يُرْزُقُنِي مَنْ كَانَ لِي ** مِنْ قَبْلِ أُمِّي وَأَبِي

لأنه يعلم أن النفس الإنسانية ليست له، وإنما هي ملك لله، ((وفضيلة الافتقار إلى الله لاتنافي السعي والعمل والكسب الطيب الحلال، فمهما ملك المرء من رزقه الصافي فإنه يظل شاعراً بم حاجته إلى ربه، ومولاه ومفتقراً إلى عونه وهداه. وقد يقال: كيف يمدح الفقر والنبى - عليه السلام - يقول في دعائه: ((أعوذ بك من الفقر))، ويقول الإمام علي - كرم الله وجهه -: ((كاد الفقر أن يكون كفراً))؟

ويجيب الغزالي: بأن الفقر الذي استعاذ منه الرسول هو فقر المضطر^(١).

وينقل ابن الجوزي لبيّن الواقعية المتمثلة في العزلة التي كان الكثير من أفراد مجتمعه يعمد لها فقال: ((عُزْلَةُ الْمَرْءِ عَزٌّ لَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: أَجِلْ عَلَيَّ سَمْعِي إِحْدَى فَوَائِدِهَا، وَأَجِلْ عَلَيَّ بَصَرِي إِحْدَى فِرَائِدِهَا فَقَالَ: ... الْخَلْوَةُ سِكْرٌ فِي وَجْهِ مَاءِ التَّقْرِيطِ يَمْنَعُ الْمُسْتَقْبَل ... وَلَقَدْ جَنَيْتُ مِنْ ثَمْرِ غَرْسِ الْخَلْوَةِ، كُلُّ ثَمْرَةٍ حَلْوَةٌ ... فَلَمَّا خَرَجْتُ عَنْهُ إِلَى مَخَالِطَةِ الْخَلْقِ وَمُعَانَاةِ الْمَكْتَسَبِ مَثَلُ لِي آدَمَ قَدْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَنَصَبَ لِلنَّصَبِ ... فَلَقَيْتُ أَبَا التَّقْوِيمِ ... فَقَالَ كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ،

(١) موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، ١٥٧/٤ - ١٥٨.



فبكيتُ لما قال... فقلتُ: فكيفَ لا أُندبُ تَضِييعَ مَا إِلَيْهِ أُندَبُ، وتَضِييعَ العُمُرِ فيما يُرَكَلُ ويشرب، فقال: لَقَدْ أَبْطَنْتُ لَكَ النَفْسَ مَكِيدَةً شَرًّا دَفَنْتَهَا فِي الخَيْرِ، وَكَمْ مِنْ كَلِمَةٍ حَقٌّ أُرِيدُ بِهَا بَاطِلٌ، وَسَوْءٌ يَلْحَقُ المرءَ وَهُوَ عَنْهُ غَافِلٌ، إِنَّمَا المراد: اعتزالُ المعتدين لامفارقةِ أَهْلِ الدِّينِ المتعبدِينِ، فَأَمَّا طَلَبُ العِزَّةِ عَنِ الكُلِّ. فَإِنَّهُ رَأَى صُلْبُ ضَلٍّ، فَإِنَّ الكَسْبَ للعيالِ أَشدَّ العبادتين، والرَّفَقُ بالأطفالِ أَقْوَى المجاهدتين... أَتَظُنُّ الزَّاهِدَ مَنْ بَنَى رِبَاطًا، وَتَأَخَّرَ عَنِ كَسْبِ الدُّنْيَا وَتَبَاطَا، يَنْتَظِرُ فُتُوحًا مَاتَعَبَ فِي تَحْصِيلِهَا... وَكَانَ ابنُ أَدِمْ يَنْظُرُ المَحَاقِلَ، وَهَلْ يَوْضِي بِأَوْسَاخِ النَّاسِ عَاقِلٌ...»^(١).

إلا أن موقف ابن الجوزي من العزلة ظهر واضحاً، حين قال: «فَأَمَّا طَلَبُ العِزَّةِ عَنِ الكُلِّ فَإِنَّهُ رَأَى صُلْبُ ضَلٍّ»، لاختلاف الناس في العزلة والمخالطة، أيتهما أفضل، مع أن كل واحدة منهما لاتنفع عن فوائد، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة، كما أن من السلف من آثر العزلة لفوائدها؛ كالمواظبة على العبادة والفكر، وتربية العلم، والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة؛ كالرياء، والغيبة، والسكوت عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع للأخلاق الرديئة، والأعمال الخبيثة من جلساء السوء، وغير ذلك.

وأما أكثر السلف فذهبوا إلى استحباب المخالطة، واستكثار المعارف، والإخوان، والتآلف، والتحبب إلى المؤمنين، والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى. وإن فوائد العزلة يمكن نيلها من المخالطة بالمجاهدة، ومغالبة النفس^(٢).

وحجة من اختار المخالطة، قول النبي -ﷺ-: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط ولا يصبر على أذاهم»^(٣).

(١) المقامة (١٩): في الخلوة، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٣١٧-٣٢٠، المحافل: جمع محفلة: مزرعة، انظر: اللسان، مادة: حقل.

(٢) انظر: موعظة المؤمنين، محمد جمال الدين القاسمي، ص ٢٣٣.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٣٢) عن ابن عمر -رضي الله عنهما- كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ١٣٣٨/٢، والترمذي (٢٥٠٧) كتاب صفة القيامة، باب (٥٥)، ٦٦٢/٤-٦٦٣ بنحوه، وأحمد في مسنده، ٤٢/٣، ٢٦٥/٥.

واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾^(١).

وحجة من اختار العزلة، قولهم: قيل يارسول الله، أي الناس خير؟ قال: «رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»^(٢). وفي حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قلت: يارسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، ويسعك بيتك، وابك على خطيئتك»^(٣).

وبعد، فإن الحكم على العزلة مطلقاً بالتفصيل نفيًا وإثباتًا، خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الغائب بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفئات بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

وفي مقارنة أخرى بين ابن الجوزي الهيئة التي يكون عليها من اختار العزلة، فقال: «عندنا فقيه البلد، وسيد السند، اجتاز للعزلة في حلتنا وأنفرد، فَمَا يُخَالِطُهُ مِنْ مَحَلَّتْنَا أَحَدٌ، يَقْنَعُ مِنَ التَّمْرِ بِالحَشْفِ، وَمِنْ المَاءِ بِالنَّشْفِ، وَيُؤْثِرُ الزُّهْدَ وَالْقَشْفَ... فوصلنا إلى نجباء على ماءٍ سيع، فإذا شيخٌ عليه سيع، صبيحُ الوجهِ مليحُ الشبيبة، عليه نورُ النورِ، وهيئةُ الهيبة...، فقلتُ له: أما في هذا العالم من بيني لك بيتًا فتأويه، إنَّ العالم بيني لنفسه بيتًا هو جوابُ فتأويه...»^(٤).

فربما أراد أن العالم بيني له بيت في الجنة بأعماله الصالحة، وبعده عما حرم الله، وفي المقامة السابقة بين ابن الجوزي موقفه من العزلة، إلا أنه هنا جعلها واقعاً مثله أبوالتقويم؛ فهو ذو إمام بكل العلوم، فيقول: «سردتُ عليه عويصَ المشكلات،

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٥.

(٢) رواه البخاري فتح الباري تحت رقم (٢٧٨٦)، كتاب الجهاد، باب (٢): أفضل الناس مؤمن

مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله بنحوه، ٦/٦. ومسلم برقم (١٢٢، ١٢٣، ١٢٧) من

حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، كتاب الإمارة، باب (٣٤): فضل الجهاد والرباط،

١٥٠٣/٣-١٥٠٤. وأحمد في مسنده، ٥٦/٣.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٠٦) كتاب الزهد، باب (٦٠)، ٦٠٥/٤، وقال حديث حسن.

(٤) المقامة (٣٧): في العزلة، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٥٨-٤٥٩.



واعتمدتُ صعبَ التخليصِ مِنْ المهماتِ، فَمَا وَقَفَ فِي مُشْكِلَةٍ، وَلَا صَدَفَ عَنِّ مَعْضِلَةٍ،
بِلِسَانِ كَيْعُوبِ النَّهْرِ، فِي بِلَاغَةٍ أَحْسَنَ مِنْ جِيُوبِ الزَّهْرِ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ مَنَ عُلُومُهُ
هَذِهِ الْبَوَادِي، فِي هَذِهِ الْبَوَادِي، أَمَا سَمِعْتَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمِصْطَفَى أَنَّهُ قَالَ «مَنْ بَدَأَ
جَفَاءً»^(١)، فَقَالَ: مَا تَعَرَّبْتُ وَلَا تَغَرَّبْتُ، وَإِنَّمَا هَرَبْتُ مِنْ جَرَّبْتُ...»^(٢).

إذن سبب عزلته هروبه ممن خالط من الناس، فهم على خلاف ما يظهرون من
بداية القراء والمحدثين ومروراً بالفقهاء، والحكام، والقضاة، والمذكرين، منتهين بالتجار،
والمترهدين، فأراد بعزلته التخلص من المعاصي التي يتعرض لها الإنسان بالمخالطة،
والتخلص من الفتن والخصومات، والتخلص من شر الناس، فيقول:

«أَلَا إِنَّ إِخْوَانِي الَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ * * أَفَاعِي رِمَالٍ لَا تَقْصِرُ فِي لَسْعِي

ظَنَنْتُ بِهِمْ خَيْرًا قَلَّمَا بَلَوْتُهُمْ * * حَلَلْتُ بَوَادٍ مِنْهُمْ غَيْرَ ذِي زُرْعٍ

... كُنْتُ أَمْرَهُمْ بِاخْتِلَاصِ الْأَسْرَارِ، فِي الْإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ، فَتَطَايَرُ إِلَى الشَّرَارِ
مِنْ أَوْلَيْكَ الْأَشْرَارِ، فَأَنَا أَدْعُوهُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَيَدْعُونَني إِلَى النَّارِ، ... قُلْتُ: فَكَيْفَ
التَّخْلُصُ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ الظُّلْمِ جَهْلُهُ، الظُّلْمِ أَهْلُهُ؟ قَالَ: انظُرْ، فَإِنْ وَجَدْتَ الْعَالِمَ دَيْنًا
عَاقِلًا، وَإِلَّا فَاجْعَلْ نَصِيبَ الْعَالِمِ وَالْعَالِمِ مَعًا قَلِي ... إِنْ أَرَدْتَ الْعُلُوَّ فَارْتَقِ دَرَجَ
التَّقْوَى، وَإِنْ شِئْتَ الْعِزَّ فَضَعْ جِهَةَ التَّوَاضِعِ ...، فَقُلْتُ لَهُ: تَصَدَّقْ بِصَحْبَتِكَ عَلَيَّ،
فَقَالَ: الْوَحْدَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ...»^(٣).

إلا أنه مع عزلته لم يمنع عن الناس خيره وعلمه، «فَقَالُوا لَهُ: هَذَا غَرِيبٌ قَدْ
جَاءَ وَلَهُ مَسَائِلٌ، فَقَالَ: لَيْسَ أَلْ مَا شَاءَ كُلِّ سَائِلٍ»^(٤).

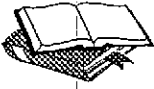
وبعدُ فهناك واقعيةٌ أظهرها ابن الجوزي في مقاماته، ألا وهي صوفيةُ زمانه
وشطحاتهم، من خلال تجربته معهم، فقد عمل خادماً لهم، كما قال:

(١) رواه أحمد في مسنده عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - حديث حسن، ١٦٧/٢.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٥٩.

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٦٠-٤٦٣.

(٤) المقامة نفسها، ص ٤٥٩.



« فَلَمْ أزلْ خَادِمًا لَهُمْ زَمَنًا * * حَتَّى تيقنْتُ أَنَّهُمْ بَطَلَهُ »^(١)

... قلتُ : الخَيْرُ عَنْهُمْ بِخَيْرٍ أَوْ تَخَيْرٍ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ بَلْ بِخَيْرٍ خَيْرٍ...^(٢)

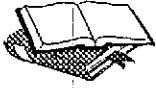
«والتصوف: حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي عقب اتساع الفتوحات، وازدياد الرخاء الاقتصادي، كردة فعل مضادة للانغماس في الترف الحضاري، مما حمل بعضهم على الزهد الذي تطور بهم حتى صار لهم طريقة مميزة معروفة باسم «الصوفية»؛ إذ كانوا يتوخون تربية النفس، والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله بالكشف، والمشاهدة لاعن طريق التقليد، أو الاستدلال لكنهم جنحوا في المسار بعد ذلك، حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة»^(٣).

ثم أخذ يبين ابن الجوزي كيف ينخدع الشخص بظواهرهم التي هي عكس أفعالهم كما حدث معه، فقال: «غَالَطُونِي بِأَعْمَالِ الصَّلَاحِ، ثُمَّ خَالَطُونِي بِأَعْمَالِ قَبَاحٍ، يسمونَ مَنَاخَ البَطَالَةِ الرِّبَاطُ، وَيَخوضونَ في الجَهَالَةِ إِلَى الآبَاطِ، قَرَبَاتُهُمْ نَصَبٌ أَوْ كَانَ النِّصَبُ، وَأَفْعَالُهُمْ خَفَضٌ لَأَرْفَعُ وَلَا نَصَبُ، انقَطَعُوا عَنِ الجَمَاعَاتِ فِي المَسَاجِدِ، وَجَرُوا عَلَى سَنَنِ مُخَالَفِ اللُّسُنِ مُعَانِدٍ، طَهَارَاتُهُمْ إِذَا تَأَمَّلْتَ وَسَوَاسٍ، وَالطَّهَارَاتُ عِنْدَهُمْ كَالأَنْجَاسِ، يُغْلِفُونَ الأَقْدَامَ لِلْمَشْيِ عَلَى القَطِيفَةِ، وَلَوْ قَطَعَ بِطَهَارَتِهَا الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ، بَعُدُوا عَنِ كَلْفِ الكَسْبِ وَقَعَدُوا عَنِ الفُتُوحِ، ... يَخْتَالُونَ فِي لِبَاسِ الزَّهَادِ، وَيَحْتَالُونَ عَلَى النَّاسِ فِي المَرَادِ، قَدُ جَمَعُوا التَّدْلِيسَ بِأَلْوَانِ الحُرْقِ، وَرَفَعُوا الجَدِيدَ لِأَلدَّرِيسِ الخَلِيقِ فَقَدُ لَبَسُوا لِلنِّفَاقِ جِلْدَ حَيَّةٍ، وَلَبَسُوا بِجِلْدِ كُلِّهَا فِي النِّفَاقِ حَيَّةً، يَتَقَرَّبُونَ بِالتَّعَرِّيِ الكَثِيفِ إِلَى المَلُوكِ ... يَتَسَاوَلُونَ مِنْ أَفَانِينَ الطَّعَامِ، وَيَأْكُلُونَ أَكْلَ المَجَانِينَ الطَّعَامِ ... المَغْنَى وَالزَّيْرَ زَائِرَانِ، فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ اجْتَمَعَتْ مِنْهُمُ الجُمُوعُ فِي السَّمُوعِ، وَحَادِيهِمُ الأَمْرَدُ أَحْسَنُ مِنَ السَّمُوعِ، يَنْقَرُ بِأَطْرَافِ الأَنَامِلِ دُفَّ الجَلَّاجِلِ ... وَتَسْمَعُ مِنَ تَلْفِيقِ التَّصْفِيقِ، مَا يَعْمَلُ عَمَلُ حَرِيقِ الرَّحِيقِ، وَأَشْعَارِ المَجْنُونِ

(١) المقامة (٤٠) في صوفية الزمان، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٨٣.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٨١.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص ٣٤١،



وأضرابه تُقال...»^(١).

هذا الذي وصفه ابن الجوزي عن الصوفية لم يكن هو حالهم حين ظهرُوا، بل كان لهم أصول وقواعد ((وأصول طريقهم سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتران بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق))^(٢).

وقد ذكر ابن الجوزي ذلك في مقامته هذه فقال: «فقلتُ: أو على هذه النكري عفا أوائلهم؟ قال: لا والله.. لقد تعبدت في الجاهلية عند الكعبة بنو صوفه وكانت جماعتهم بالطرائق الصعبة موصوفة، فاستعمل من قدامه هؤلاء خلائق من تلك الخلائق المعروفة. ثم حملوا بالرأي المشاق على الجسوم لا بالعلوم المألوفة... وكانوا يشيرون إلى الحق بالعشقي والمحبة، ويتكلمون في العلوم بما لا يساوي حبة، فجاء المتأخرون يقنعون من اللباس بالصورة، ويرفعون لأعن ضرورة، ويستبدلون بجوع أولئك الشبع، وقصدوا بأفعالهم الرياء والشنع... كان الزهد في بواطن القلوب قصار في ظواهر الثياب، كان مشايخهم في القديم أرباب قدم، والمريد منهم حينئذ صاحب ألم. فذهب القدم والألم، كانوا يتشبهون بأصحاب الصفة، ويقنعون من القوت بمقدار اللقفة، كان التصوف عند أولئك حرقة، فصار اليوم عند هؤلاء خرقة...»^(٣).

ونلاحظ أن ابن الجوزي أشار هنا إلى بداية تأسيس الصوفية، فذهب إلى أن الصوفية نسبة إلى رجل يقال له صوفة ظهر في العصر الجاهلي.

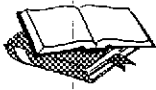
ثم يقول في المقامة نفسها ذاكراً بعض مدارس الصوفية:

((فناديت يا قوم من تعبدون * فكل أشار بقدر الوجود
فبعض أشار إلى نفسه * وأقسم ما فوقها من مزيد
وبعض إلى خرقة رقت * وبعض إلى ركوة من جلود
وآخر يعبد أهواءه * ومعايب للهوى بالرشيد

(١) المقامة نفسها، ص ٤٨١-٤٨٢.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ٣٤٤.

(٣) المقامة نفسها، ص ٤٨٤-٤٨٥.



وَمَجْتَهِدْ وَقْتَهُ رَبُّهُ ** فَإِنَّ فَاتَ بَاتَ بَلِيلَ عَنِيدِ
وَذَوْكَ لَفَ بِاسْتِمَاعِ السَّمَاءِ ** عَ بَيْنَ البَسِيطِ وَبَيْنَ النَشِيدِ
يَعْنُ إِذَا مَامَضَتْ رَنَّةٌ ** وَيَزَارُ مِنْهَا زَيْرَ الأَسْوَدِ

.....

فَيَا لِلرِّجَالِ أَلَا تَعْجَبُونَ ** لِشَيْطَانِ إِخْوَانِنَا ذَا المُرِيدِ

.....

وَأَقْسَمَ مَا عَرَفُوا ذَا الجَلَالِ ** وَلَا أَثْبَتُوهُ بِغَيْرِ الجُحُودِ
تَمَّ قَالٌ: وَلَقَدْ أَرَشَدَنِي مِنْ أَنشَدَنِي:
أَرَى جَيْلَ التَّصَوُّفِ شَرَّ جَيْلٍ ** فَقُلْ لَهُمْ: وَأَهْوَنُ بِالْحُلُولِ^(١)

ومدارس الصوفية :

مدرسة الزهد، ومدرسة الكشف والمعرفة، وزعيم هذه المدرسة الإمام أبو حامد الغزالي، ومدرسة وحدة الوجود؛ ومدرسة الاتحاد والحلول .
وقد وجدنا لهذه المدارس ذكراً في مقامته السابقة.

وها هو ذا ابن الجوزي يذكر في مقامته نفسها بعضاً من شطحات الصوفية، فيقول: ((ينكسُ أحدُهم رأسه ويغمض عينيه، ويتزمل أحلاسَهُ، كأنه يُوحِي إليه، فإذا ألقى في روعه وسواسٌ عَوَّلَ عليه، فيصبح لِإِسْنَادِ واقِعِهِ يُرَبِّي، ويصبحُ حَدَّثِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي، يَمْنَعُونَ مِنْ قِرَاءَةِ القرآنِ وَسَمَاعِ الحديثِ، وَهَذَا يُنْبِئُ عَنْ باطنِ حَيْثُ، كُلُّ العلومِ الشَّرْعِيَّةِ عِنْدَهُمْ حِجَابٌ، وَالهذيانِ فِي عِلْمِ الصُّوفِيَّةِ لُبَابٌ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ السَّمَاعِ مِحْجَابٌ، فَهَمَّ عَلَى الحَقِيقَةِ ذِئَابٌ فِي ثِيَابِ، سَتَرُوا ظَوَاهِرَهُمْ بِالرَّقَاعِ وَعُيُوبُ البِوَاطِنِ أَكْثَرُ))^(٢).

(١) المقامة نفسها (٤٠)، ص ٤٨٦.

(٢) المقامة نفسها (٤٠)، ص ٤٨٣.



يقول ابن تيمية: ((وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، أو لقبورهم، أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى ... وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء والمشائخ والملوك وغيرهم فإنه منهي عنه))^(١).

ومن شطحات الصوفية بأن سلك بعضهم طريق تحضير الأرواح معتقداً بأن ذلك من التصوف، كما سلك آخرون طريق الشعوذة والدجل، وقد اهتموا ببناء الأضرحة، وقبور الأولياء، وإنارتها، وزيارتها، والتمسح بها، وكل ذلك من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، ويأتي بعض المنتسبين إلى التصوف بأعمال عجيبة وخوارق^(٢). يقول ابن تيمية: ((وأما كشف الرؤوس، وتفطيل الشعر، وحمل الحيات، فليس هذا من شعائر أحد من الصالحين، ولا من الصحابة، ولا من التابعين، ولا شيوخ المسلمين، ولا من المتقدمين، ولا من المتأخرين))^(٣).

إذن فما ذكره ابن الجوزي من شطحاتهم بعيد عن الإسلام كما بينه ابن تيمية.

وفي مقامته (٣٩) نرى ابن الجوزي يظهر لنا واقعاً إسلامياً من خلال تلبية أفراد مجتمعه لأداء فرض الصلاة فيقول: ((دخلنا المدينة، وإذا مُنادي الجمعة فأجبتنا، وَتَاهِبْنَا، وَقَرَّبْنَا، فَلَمَّا جَزَمْنَا مَا التَزَمْنَا مِنْ الغرض...))^(٤).

والغرض الذي لبي مناديه هو صلاة الجمعة لأنها واجبة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾^(٥).

ولقوله - ﷺ -: ((الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض))^(٦).

(١) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف، ص ٥٠٤، ٥٠٦.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٣) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف، ص ٤٩٤.

(٤) في الوعظ، لابن الجوزي، علي مهنا، ص ٤٧٣.

(٥) سورة الجمعة، آية ٩.

(٦) رواه أبو داود برقم (١٠٦٧) عن طارق بن شهاب - ﷺ -، في كتاب الصلاة، باب

(٢٠٩): الجمعة للمملوك والمرأة، ١/٢٨٠.



وحين قال ابن الجوزي ((وإذا منادي الجمعة فأجبن، فتأهنا وقربنا...)) فهو امتثال لقوله -ﷺ- الذي حث على التأهب بعد الإجابة لنداء الصلاة، وبين كيفية هذا التأهب فقال: ((لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى))^(١).

وحين قال: (قربنا) لعله أراد قوله -ﷺ-: ((من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام، حضرت الملائكة يستمعون الذكر))^(٢).

وفي مقامة أخرى بين ابن الجوزي واقعاً إسلامياً يعيشه أفراد مجتمعه ألا وهو أداء صلاة العيد والاستعداد له بلبس الثياب الجديدة فقال: ((فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ رُحْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، فَرَأَى النَّاسَ قَدْ تَزِينُوا، فَقَالَ: الدُّنْيَا مَلْحَ الْعِيدِ وَإِنَّمَا تَصُلُّحُ لِلْأَطْفَالِ، لَا تَقْفَنَ فِي الطَّرِيقِ عَلَيَّ كَهَوِّ فَمَا تَأْمَنُ قُوَّةَ الصَّلَاةِ...))^(٣).

أما هو فمن حزنه على فراق رمضان لم يلبس إلا الثياب البالية فقال: ((فَلَمَّا خَرَجَ الْخَلْقُ إِلَى مَنْ خَلَقَ يَوْمَ الْعِيدِ، لَبَسَ الْخَلْقَ...))^(٤).

وهذا مخالف للسنة التي يستحب لها في صلاة العيدين الغسل والتطيب، ولبس أجمل الثياب تمشياً معها، لقول الحسن السبط، ((أمرنا رسول الله -ﷺ- في العيدين

(١) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٨٨١)، كتاب الجمعة، باب (٤): فضل الجمعة، بلفظه، ٣٦٦/٢.

(٢) رواه مسلم تحت رقم (٨٥٠) عن أبي هريرة -رضي الله عنه- كتاب الجمعة، باب (٢)، ٥٨٢/٢. ورواه الترمذي، كتاب الصلاة، باب ماجاء في التكبير إلى الجمعة، ٣٧٢/٢، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) المقامة (٣٣): في وداع رمضان، على مهنا، ص ٤٢٤.

(٤) المقامة نفسها، ص ٤٢١.



أن نلبس أجود ما نجد، وأن نتطيب بأجود ما نجد، وأن نضحى بأثمن ما نجد^(١).

ثم إن صلاة العيدين سنة مؤكدة واظب النبي - ﷺ - عليها وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا لها^(٢).

كما بين ابن الجوزي أن صلاة العيد بلا آذان فقال: ((بَادِرٌ آجَلًا مَانْدِرِي مَتَى يَفْجَأُ، فَصَلَاةُ الْعِيدِ بِلَا أَذَانٍ))^(٣)، ((لأن النبي - ﷺ - صلى العيد بغير آذان ولا إقامة، وكان يخطب خطبتين يفصل بينهما بجلسة))^(٤).

وأشار ابن الجوزي أيضاً إلى أن أفراد مجتمعه يذبحون الذبائح في العيد؛ تمثلاً لسنة رسول الله - ﷺ - الذي خطب فقال: ((إِنْ أَوْلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نَصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحِرَ، فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا))^(٥).

قال ابن الجوزي: ((أَنَسَ الذَّبَاحُ بِالدَّمِ، لَوْ عَلِمْتَ النَّحَايَةَ أَيْنَ الْمَذْهَبِ مَا تَبَخَّرْتُمْ فِي الطَّرِيقِ، ... فَلَمَّا رَأَى الذَّبَّاحُ قَالَ وَاعْجَبًا مِنْ تَفَاوُتِ الرَّجَالِ...))^(٦).

ويستمر ابن الجوزي في تصوير واقع مجتمعه المسلم الذي يسير على سنن الرسول الكريم - ﷺ - في أداء صلاة الاستسقاء فما هو ذا في مقامته (٤٧) يقول:

((أَقْلَعَ الْغَيْثُ فَاَنْقَلَعَ الزَّرْعُ، وَعَبَسَ الثَّرَى وَيَسَّنَ الضَّرْعُ، ... فَمَا زِلْنَا نَعَجُّ لِلْبَلَاءِ، وَنَضْجُ بِالِدَعَاءِ، وَالسَّمَاءُ لَا تَزْدَادُ إِلَّا صَحْوًا وَانْقِشَاعًا، فَكَانَ الْجَسْبُ دَحْوًا فِي الْبُؤَادِي مَشَاعًا، فَانْتَدَبَ شَيْخٌ يُنَادِي فِي الْبَلَدِ لَيْلًا وَنَهَارًا، اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، ثُمَّ عَلَا يَوْمًا عَلَى مِنْبَرٍ وَذَكَرَ، وَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ،

(١) رواه الحاكم، في كتاب الأضاحي، ٢٣٠/٤.

(٢) فقه السنة، السيد سابق، ٣١٧/١.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) رواه البيهقي في سننه الكبرى، عن جابر بن عبد الله - ﷺ -، كتاب صلاة العيدين، باب: لأذان للعيدين، ٢٨٤/٣.

(٥) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٩٥١)، كتاب العيدين، باب (٣): سنة العيدين لأهل الإسلام بلفظه، ٤٤٥/٢.

(٦) المقامة نفسها (٣٣)، ص ٤٢٤.



ونهى عَنِ المنكرِ، وَقَالَ: يَاقوم اخرجوا مِنَ المظالمِ، ولينزعَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ الظالم، ثُمَّ ليخرجَ الدَّانِي، وَالقَاصِي، لعلنا نُجَاب ... فَإذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ إِلَى المصَلِّي بِحِلْيَةٍ خَاشِعَةٍ، وَقَالَ لِلنَّاسِ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ ...، ثُمَّ صَلَّى مِثْلَ صَلَاةِ العِيدِ، وَقَرَأَ فِيهَا آيَاتِ الوَعِيدِ، ثُمَّ أُسْرِعَ إِلَى المنبرِ فَجَلَسَ، ثُمَّ قَامَ أُسْرِعَ مِنْ نَفْسِ، فَكَبَّرَ، وَقَرَأَ، وَصَلَّى عَلَى الرَّسُولِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ يَسْأَلُ المَسْئُولَ السُّيُولَ، فَحَفِظْتُ مِنْ جُمْلَةِ مَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ جَدْبَنَا، فَجَدِّبْنَا، أَغَثْنَا فَقَدْ أَحْلَلْنَا، ... اللَّهُمَّ اسْقِنَا سَحَابًا مُكْفَهَرًا... ثُمَّ اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، وَحَوَّلَ الرِّدَاءَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ حَوِّلِ الدَّاءَ... فَجَرَّتْ مِنَ العِيونِ عِيونٌ ... وَهُوَ مِنْ قَلْقِهِ وَبِكَائِهِ فِي عَجَابٍ، يَخَافُ عَلَى دَعَائِهِ أَنْ لَا يُجَابَ ... فَهَبَّتْ رِيْدَانَةُ جَنُوبٌ ... فَانْبَعَثَتْ بِهَا العَمَائِمُ ...))^(١).

فحين قال ((استقبل القبلة وحول الرداء)) متمثلاً بفعل الرسول - ﷺ - فعن عبد الله بن زيد ((أن النبي - ﷺ - استسقى، فقلب رداءه))^(٢).

وحين قال ابن الجوزي: ((فكان الجدب، ثم عللاً يوماً على منبرٍ وذاكر...))، فهو يجذو بفعله الرسول الكريم - ﷺ -، فعن أنس - ﷺ - قال: ((بينما رسول الله - ﷺ - يخطب يوم الجمعة إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله قحط المطر، فادع الله أن يسقينا. فدعا، فمطرنا، فما كدنا أن نصل إلى منازلنا، فما زلنا نمطر إلى يوم الجمعة المقبلة. قال: فقام ذلك الرجل - أو غيره - فقال: يا رسول الله ادع الله أن يصرفه عنا، فقال رسول الله - ﷺ -: حوالينا ولاعلينا. قال: فلقد رأيت السحاب يتقطع يميناً وشمالاً، يمتطرون ولايمطر أهل المدينة))^(٣).

وكذا في قول ابن الجوزي: ((ورفع يديه يسأل المسئول السؤل))، ((كان الرسول - ﷺ - لا يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء، وإنه يرفع حتى يرى بياض إبطيه))^(٤).

(١) في الاستسقاء، ص ٥٤٥-٥٤٧، علي مهنا .

(٢) رواه البخاري (١٠١١)، كتاب الاستسقاء، باب تحويل الرداء في الاستسقاء، ٣٤/٢ .

(٣) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (١٠١٥)، كتاب الاستسقاء، باب (٨): الاستسقاء على المنبر، بلفظه، ٥٠٨/٢ .

(٤) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (١٠٣١) عن أنس بن مالك - ﷺ -، كتاب الاستسقاء، باب (٢٢): رفع الإمام يده في الاستسقاء، بلفظه، ٥١٧/٢ .

الفصل الثاني

الأسلوب

ويشمل :

- المعجم اللغوي.
- الصياغة.
- الصورة.



المعجم اللغوي :

يعتمد أسلوب المقامة في صياغته بوجه عام، على اصطناع الغريب، والتأنيق في اختيار الألفاظ، وبالرغم من أن مقامات البديع كانت في معظمها ذات أسلوب سلس، فإننا نجد المقامات الأخرى التي كتبت بعده على طريقته، تصطنع مفردات تعد في الوقت الراهن - على الأقل - مهملة.

إلا أن مقامات البديع لم تخل أيضاً من بعض الغريب . أما الغريب الذي نقصد إليه هنا، فهو نوعان اثنان :

أولهما: غرابة المعاني نفسها. وهذه الغرابة لاتأتي إليها من كونها عميقة المغزى، بعيدة الغور، كما نجد في بعض الكتابات التي تقرر مسائل فلسفية عليا، وإنما تأتي إليها من كون الألفاظ التي صبت فيها هذه المعاني، غريبة في حد ذاتها، فغربت المعاني، واضطربت اضطراباً شديداً نتيجة لغرابة الألفاظ.

ثانيهما: غرابة اللفظ، ونقصد بغرابة اللفظ هنا، تلك المعاني المألوفة التي عبر عنها كاتب المقامة بألفاظ غريبة كان في غنى عنها بما هو معروف متداول بين الكتبة والأدباء^(١).

وأكثر المقامات غريباً عند البديع المقامة النهيدية، والحمدانية، فها هو ذا يقول في المقامة النهيدية :

« حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ، قَالَ : مِلْتُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي إِلَى فِتَاءِ خَيْمَةٍ أَلْتَمِسُ الْقَرِيءَ مِنْ أَهْلِهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا رَجُلٌ حَزَقَةٌ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقُلْنَا: أَضْيَافٌ لَمْ يَذُوقُوا مِنْذُ ثَلَاثِ عَدُوفٍ، قَالَ: فَتَنَحَّحْ...، ثُمَّ قَالَ: فَمَا رَأَيْكُمْ يَأْفِتِيَانُ فِي دَرْمَكٍ كَأَنَّهَا قَطْعُ السَّبَائِكِ بُحْرِيْمٍ عَلَى سُفْرَةٍ حَرْتِيَّةٍ بِهَا رِيحُ الْقَرَطِ، فَيَثِبُ إِلَيْهَا مِنْكُمْ فَتَنِي رَفِيْفٌ، لَبِيْقٌ خَفِيْفٌ، فَيَعَجِّنُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرُجِّفَهُ أَوْ يَخْشِفَهُ فَيَزِيلُهُ دُونَ مَلِكٍ نَاعِمٍ، ثُمَّ يَلْتَهُ بِالسَّمَارِ أَوْ الْمَذْقِ لَتًا غَزِيْرًا، ثُمَّ يَعْمَدُ إِلَيْهِ فِيلُويهِ وَيَدَعُهُ فِي نَاحِيَةِ الصَّيْدَاءِ، حَتَّى إِذَا تَخَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَرَزُّ، عَمَدَ إِلَى قَصْدِ الْغَضَاءِ، فَأَشْعَلَ فِيهِ النَّارَ فَلَمَّا حَبَّتْ نَارُهُ، مَهَّدَ

(١) انظر: فن المقامة في الأدب العربي، د. عبد الملك مرتاض، ص ٣٦٧-٣٦٨.

لِقُرْمُوصِيهِ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى عَجِينِهِ فَفَرَطَحَهُ بَعْدَ مَا أَنْعَمَ تَلْوِيئَهُ، ثُمَّ دَحَا بِهِ عَلَيْهَا، ثُمَّ حَمَرَهُ، فَلَمَّا قَفَّ وَقَبَّ أَحَالَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّضْفِ مَا يَتَلَقَّى بِهِ الْأَوَارَانِ، حَتَّى إِذَا غَطَّاهُمَا عَلَى الْمَلَّةِ الْمَشَاكِهِهَ بِطَبِقٍ وَتَفَلَّجَ شِقَاقًا، وَحَكَى قَشْرَهَا رُقَاقًا، وَاحْمَرَّارُهَا احْمَرَّارُ بُسْرِ الْحِجَازِ الْمَشْهُورِ بِأَمِّ الْجُرْدَانِ، أَوْ عَذْقَرِ بْنِ طَابِ شُنَّ عَلَيْهَا ضَرْبٌ بِيَضَاءِ كَالثَلْجِ إِلَى أَوْانٍ رُسُوحَهَا فِي خِلَالِ الدَّهَانِ، وَيَشْرَبُ لُبَّ الدَّرْمَكِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الضَّرْبِ، قُدِّمَتْ إِلَيْكُمْ فَتَلَقَّمُونَهَا لَقَمَ جَوَيْنٍ أَوْ زَنْكَلٍ، أَفْتَشْتَهُونَهَا يَأْفِتْيَانُ؟»^(١).

لعلك لاحظت أن كثيراً من ألفاظ هذا النص يضطرب بها المعنى ويتعسف، لأن البديع حاول أن يستخدم ألفاظاً غريبة جداً لمعان معروفة ألفاظها، وقد كان بوسعه أن يستغني عن هذا الغريب، ولكنه نزع إليه ومال.

ويبدو أنه اصطنع الألفاظ الغريبة في هذه المقامة بالذات، لعامل فني بحت، فقد زعم عيسى بن هشام أنه مال مع نفر من أصحابه إلى فناء خيمة بالبادية، والحال أن الأعراب البادين لا يتحدثون إلا بمثل هذه اللغة.

فقد كان البديع يستخدم الألفاظ في مقاماته تبعاً لمقتضى الحال، فإذا كان الموضوع بدوياً فيه أعراب، فهو الغريب من اللفظ، وإذا كان الموضوع حضرياً تدور حوادثه بين أهل الحاضرة، فهو السهل المعروف منه.

وما كان البديع سيستخدم مثل هذه الألفاظ الغريبة لو تناول هذا الموضوع نفسه على نحو آخر، وكان مكانه المدينة لا البادية، وأبطاله حضريين لا بدوياً.

فالبديع إذن كان مضطراً من الناحية الفنية إلى مسaire حال موضوعاته في استخدام ألفاظ المقامات، وإلا فقد كان في سعة من أن يعتاض عن «حزقة» بالقصير، و«عدوف» بشيء من الطعام، وعن «تجرثم» بتجتمع، و«حرتية» بها ريح القرظ» بسفرة معتنى بها وجديدة؛ لأن الحرتية: نسبة إلى الحرت، وأصله قطع الشيء مستديراً وذلكه، وأراد الذي بولغ في العناية به، والقرظ: ثمر يدبغ به، والمعنى أن رائحة الدباغ لاتزال عالقة به، كناية عن جدتها. وعن «يشب» يظفر أو يقوم، و«ريف» حسن

(١) المقامة النهيدية، ص ٢٤٤-٢٤٩، شرح مقامات بديع الزمان الهمداني: محمد محي الدين عبد الحميد.



الخلق، و«لبق» حاذق، و«يرجفه» يجره بعنف، و«يخشفه» يسيء صنعه بوضع ماء كثير، يجعله قطعاً كمخشوف الرأس أي مفضوخها، و«يلته» يخلطه، و«السمار» اللبن الحليب إذا خلط بالماء، و«المذق» اللبن الحامض، و«الصيداء» الأرض الغليظة، و«تخ» ظهرت فيه الحموضة، و«يترز» ييبس ويشتد، و«قصد الغضا» أغصانه، و«مهده» هياً، و«قرموصه»، فالقرمص، والقرماص: موضع خبز الملة، وهي الرماد الحار والجمر، و«فرطحه» عرضه، و«تلويثه»، فأصل اللوات: الدقيق يذر على الخوان تحت العجين، ولوث: فعل منه، أي وضع اللوات، و«أنعم» صيره ناعماً، و«دحا» بسط، و«خمره» غطاه، و«قف» ييس وجف، و«قب» ارتفع، و«الرضف» الحجارة المحماة، و«الأوار» النار، والتقاء الأوارين: تقابلهما، و«الملة» الجمر، و«المشاكهة» المشابهة، و«تفلج» تشقق، و«بسر» التمر قبل أن يصير رطباً، و«أم الجرذان» نوع مشهور من التمر، و«عذق بن طاب» نخل بالمدينة، و«الضرب» العسل، و«جوين وزنكل» رجلان شديدا النهم كثيرا الأكل^(١) ... وهكذا إلى الآخر.

ولكن ألفاظ أهل البادية ذات طابع خاص، فأراد البديع أن تكون ألفاظه معبرة عن مقتضى الحال.

ولسنا ندري أجا ذلك من حيث كان يشعر، أم من حيث لم يكن يشعر؟؟، ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر أن البديع لم يأخذ قط في تدييح هذه المقامة، بعين الاعتبار بعض النواحي الفنية؛ فهذا أمر طبيعي يدركه كل كاتب، ولو كان من كتاب العهود القديمة، وإلا فلم وجدنا البديع يستخدم في المسجد من الألفاظ ما يلائم هذا المكان المقدس؟، ويصطنع في الحمام ما يوافق أصحاب الحمامات من الألفاظ، وما يدور على ألسنتهم منها؟، وهلم جرا؟

يبد أن ألفاظ مقامات البديع لم تكن غريبة في معظمها . إذا استثنينا مقامات

(١) انظر: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد مجيب الدين عبدالحميد، ص ٢٤٦-٢٤٩.

واللسان، مادة: حرق، عدف، جرثم، حرت، قرظ، وثب، رفا، لبق، رجف، خشف، لتت، سمر، مذق، صيد، تخخ، تزر، مهده، لوث، حح، خمر، قفف، قبب، رضف، أور، ملل، شكه، فلج، بسر، ضرب.



قليلة منها النهيدية، والحمدانية^(١).

وفي مقامته البغدادية التي أنشأها على لسان راويه ((عيسى بن هشام))، انظر إلى مافي المقامة من غريب الألفاظ: ((الأزاد، السّوادي، القرم، الجودبات، السّماق، اللوزينج، الصّارة، يفتاً))^(٢)، ومع غرابتها فقد اتضحت معانيها من السياق، ومرت على الأذان - في جو القصة - مر النسيم .

وفي بعض المواقف كان بديع الزمان يورد الألفاظ الغامضة، وي طرح الأسئلة المحيرة، ثم يعود إلى الإجابة عنها، دلالة على أنه كان يعرف غموضها، ويقصد إليه، ثم يعود إلى تفسيرها بعد أن يذهل الناس، ويملك إعجابهم وينتزع اعتراضهم بتفرده، ومن ذلك ماجاء في المقامة الحمدانية، حين طلب سيف الدولة الحمداني من أبي الفتح أن يصف الفرس فوصفه في ألفاظ غامضة وصفات محيرة، ومن وصفه :

((هُوَ طَوِيلُ الْأُذُنَيْنِ، قَلِيلُ الْأَثْنَيْنِ، وَاسِعُ الْمَرَاثِ، لَيِّنُ الثَّلَاثِ، غَلِيظُ الْأَكْرَعِ، غَامِضُ الْأَرْبَعِ، شَدِيدُ النَّفْسِ، لَطِيفُ الْخَمْسِ، ضَيِّقُ الْقَلْتِ، رَقِيقُ السَّتِّ، حَدِيدُ السَّمْعِ، غَلِيظُ السَّبْعِ، ذَقِيقُ اللَّسَانِ، عَرِيضُ الثَّمَانِ، مَدِيدُ الضَّلْعِ، قَصِيرُ التَّسْعِ، وَاسِعُ الشَّجْرِ، بَعِيدُ الْعَشْرِ))^(٣).

وواضح أن بديع الزمان لديه خبرة بالخيل، وواسع الثقافة اللغوية، فقد استطاع أن يتدرج في أوصافه من الاثني إلى العشرة، وأتى لكل عدد بما يناسبه في الوصف، وعندما توسل إليه عيسى بن هشام أن يفسر مقال، لبي طلبه، ومما جاء في ذلك: ((فقلت: ... فما معنى قولك: قصير التسع؟ قال: قصير الشعرة؛ قصير الأطرة؛ قصير

(١) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، د. عبدالمملك مرتاض، ص ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) المقامة (١٢)، ص ٧٠-٧٣. الأزاد: نوع من التمر الجيد، السوادي: رجل من ريف العراق،

القرم: الشهوة البالغة، الجودبات: رغيف يجبز وفوقه طائرًا وقطعة لحم، السّماق: حب صغير أحمر حامض يعتبر من المشهيات، اللوزينج: نوع من الحلوى يتخذ من الخبز، ويسقى بدهن اللوز ويحشى بالنقل، الصّارة: شدة الحر، يفتاً يكسر ويخفف.

انظر: اللسان، مادة: زاد، سود، قرم، جود، سمق، صرو فتاً.

(٣) المقامة (٢٩)، ص ٢٠٨-٢٠٩.



العسيب، قصير القضيبي، قصير العضدين، قصير الرُسْعَيْن، قصير النَّسَا، قصير الظهر، قصير الوظيف^(١).

وهكذا يفسر سائر الأوصاف، غير أن هذا التفسير يحتاج إلى تفسير آخر، فقصير الشعرة: رقيقه فهو أجرد، والأطرة: مأحاط بالظفر من اللحم، والعسيب: عظم الذنب، والعضدين عند الإنسان مابين المرفق والكتف، وعند الفرس مابين الكتف والركبة، والرُسْعَيْن: المستدق بين الحافر والوظيف من يد أو رجل، والنسا: عرق يخرج من الورك ويصل إلى الحافر، والوظيف: مستدق الذراع والساق^(٢).

وبديع الزمان متأثر باللغة الفارسية، وكان يجيدها ويترجم منها وإليها منذ كان صغيراً، ونراه يورد ألفاظاً فارسية، ويتأثر بالصياغة الفارسية أحياناً، وفي المقامة الصيمرية يقول: «نتغذى بالجدايا الرُّضْع، والطَّباهِجَاتِ الفارسيَّةِ... وَنَقْلُنَا اللوزُ المقشَّرُ، والسُّكَّرُ والطَّيْرُزْدُ»^(٣)، والطَّباهِجَاتِ: فارسي معرب ضرب من اللحم المقلبي، والطَّيْرُزْدُ، السكر معرب.

ومن التآثر بالصياغة الفارسية قوله: «وَهَبْ أَنَّ هَذَا الرَّأْسَ لَيْسَ، وَأَنَا لَمْ نَرَ هَذَا التَّيْسَ»^(٤).

فقوله: هذا الرأس ليس: أي غير موجود، ويقول د. مصطفى الشكعة: إن هذا التعبير مأخوذ من الفارسية^(٥).

«وكان بديع الزمان بذيء اللسان، غائر الخصومة، يتضح ذلك من مقاماته، وقد أكد لنا أنه قاموس شتائم يعي منها ما لا يعيه غيره، وذلك في المقامة الدينارية، حيث يعلن عيسى بن هشام أنه سيتصدق بدينار على أشحد رجل في بغداد، فيدعي أبو الفتح الإسكندري ذلك لنفسه، وينازعه فيه رجل آخر، فيطلب عيسى بن هشام أن

(١) المقامة نفسها، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) انظر: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٢١١-٢١٢.

(٣) المقامة الصيمرية، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٤) المقامة (٣٣): الحلوانية، ص ٢٣٦.

(٥) بديع الزمان، ص ٧٤.

يشتم كل منهما صاحبه، وَمَنْ غَلَبَ فله الدينار، فيقول أبو الفتح « يَا بَرْدَ الْعُجُوزِ...
يَا وَسَخَ الْكُوزِ، يَادِرْهُمَا لَا يَجُوزُ... يَا سِنَّةَ الْبُوسِ، يَا كُوكَبَ النَّحُوسِ، يَا وَطْأَ الْكَابُوسِ،
يَا تُخْمَةَ الرَّعُوسِ... »^(١).

ويعضي على هذا المنوال في سباب طويل قبيح، ثم يرد الآخر فيقول: « يَا كَلْبًا
فِي الْهَرَّاشِ، يَا قَرْدًا فِي الْفِرَّاشِ... يَا دُخَانَ النَّفْطِ، يَا صُنَانَ الْإِبْطِ، يَا زَوَالَ الْمَلِكِ، يَا هِلَالَ
الْهَلْكِ... »^(٢).

والغريب أن عيسى بن هشام أو بديع الزمان يعلق، فيقول: « فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ
أَيُّ الرَّجُلِينَ أَوْثَرُ؟ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا بَدِيعُ الْكَلَامِ »^(٣) «^(٤).

ويعمد البديع إلى الألغاز، واللغز لغة: حفرة اليربوع، واليربوع يلغز حجرته:
أي يحفرها ملتوية مشكلة^(٥)، ثم نقل هذا إلى معنى ذي شبه به، فقيل للذي يعمي
كلامه: ألغز في كلامه ولغز.

وفي الألغاز التي أوردها بديع الزمان في مقاماته نرى استعارات رائعة مبتكرة،
تدل على خصب الخيال، والقدرة على التصرف في المعاني وفي الصور، ومن ذلك قوله
في المقامة البلخية يلغز عن الدينار: « فَاَسْتَصْحَبَ لِي عَدُوًّا فِي بَرْدَةِ صَدِيقٍ، مِنْ رِنْحَارِ
الصُّفْرِ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، وَيَرْقِصُ عَلَى الظُّفْرِ، كدَارَةِ الْعَيْنِ، يَحُطُّ ثِقَلُ الدِّينِ، وَيُنَافِقُ
يَوْجِهَيْنِ »^(٦).

وقد يأتي الحوار الأدبي في صورة ملغزة يتحير لها السامعون، ثم يجيب عنها
فيكشف الأسرار ويحل الرموز، ويزيل الحيرة ويتملك الإعجاب كما في المقامة
«العراقية والشعرية فنرجح أن يكون مرماهما تعليمياً، فقد أثار البديع أسئلة كثيرة في

(١) المقامة، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) المقامة نفسها، ٣٨٥.

(٣) المقامة نفسها، ٣٨٨.

(٤) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص ١٠٨-١٠٩.

(٥) أساس البلاغة، للزمخشري: مادة لغز.

(٦) المقامة (٣)، شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، محمد يحيى الدين عبد الحميد، ص ٢٢.



المقامة العراقية على طريقة تعليمية مكشوفة^(١)، حيث يورد أسئلة متتابعة محيرة يقف أمامها السامعون مدهوشين، ويسألونه تفسيراً لها، فيجيبهم حول أنواع من الأبيات الشعرية:

« أمّا البيت الذي سُمِّجَ وَضِعَهُ، وَحَسَنَ قَطْعُهُ فَقَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

فَبِتْنَا يَرَانَا اللَّهُ شَرَّ عِصَابَةٍ * * * تُجْرِرُ أَذْيَالَ الْفُسُوقِ وَلَا فَخْرُ

وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يَرْقَأُ دَمْعُهُ فَقَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ :

مَا بَالَ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسِكِبُ * * * كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرِبُ؟

فَإِنَّ جَوَامِعَهُ: إِمَّا مَاءٌ، أَوْ عَيْنٌ أَوْ انْسِكَابٌ، أَوْ بَوْلٌ، أَوْ نَشِيئَةٌ، أَوْ اسْفَلُ مَزَادَةٍ، أَوْ شِقٌّ، أَوْ سَيْلَانٌ.

وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَثْقُلُ وَقَعُهُ فَمِثْلُ قَوْلِ ابْنِ الرَّؤْمِيِّ :

إِذَا مَنْ لَمْ يَمْنَنْ بِمَنْ يَمْنَهُ * * * وَقَالَ لِنَفْسِي: أَيُّهَا النَّفْسُ أَمْهَلِي

وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي تَشْجُّ عَرْوُضُهُ، وَيَأْسُو ضَرْبُهُ فَمِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

دَلَقْتُ لَهُ بِأَبْيَضٍ مَشْرَفِي * * * كَمَا يَدْنُو الْمُصَافِحُ لِلسَّلَامِ

وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَعْظُمُ وَعِيدُهُ، وَيَصْغُرُ خَطْبُهُ فَمِثَالُهُ قَوْلُ عَمْرُو بْنِ كَلْثُومٍ:

كَأَنَّ سَيْوفَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ * * * مَخَارِقُ بِأَيْدِي لَاعِيِينَا^(٢)،

وفي هذا النقد دقة وتوضيح، حيث تظهر الاتجاهات المتنوعة للنقد الأدبي في نقد بديع الزمان، فنرى الاتجاه النفسي في حديثه عن النابغة، ونرى الاتجاه الخلقى في نقده لأبي نواس، ونرى الاتجاه اللغوي في نقده لابن الرومي، ونرى الاتجاه المعنوي في

(١) فن المقامات في الأدب العربي، عبدالملك مرتاض، ص ١٨٣.

(٢) مقامات بديع الزمان الهمداني ص ١٩١-١٩٦، الكلى: جلد٤ تحت المزايدة، جوامعه: أي

مايحتمل أن يجمعه البيت من المعاني، النشيئة: السحابة، المن: ذكر النعمة، دلفت له: أي

سرت إليه، المخاريق: جمع مخراق وهو المنديل يلف ليضرب به. انظر: اللسان، مادة: جمع،

نشأ، من، دلف، خرق.



نقده لعمر بن كلثوم^(١).

واستخدم الألغاز في غياته التعليمية أيضاً في المقامة الشعرية، وموضوعها أن عيسى بن هشام كان في رفقة من أصدقائه في بلاد الشام يتذاكرون الشعر، فإذا بفتى يتسمع إليهم، وقد أثار ضجرهم، فأبعده عنهم، ثم عاد إليهم، وطلب منهم أن يسألوه في المعميات، فانهاالت عليه الأسئلة وهو يجيب، وحين أفرغوا ما في جعبتهم شرع هو في سؤالهم بقوله: «عَرَفُونِي أَيُّ بَيْتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ يَدْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ يَصْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نَصْفُهُ يَغْضَبُ؟ وَنَصْفُهُ يَلْعَبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ أَحْرَبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ عَرُوضُهُ يُحَارِبُ، وَضَرْبُهُ يُقَارِبُ؟...»^(٢).

فظن القوم أن كل هذه المعاني جود نحتها ولامعاني تحتها، غير أنه عطف وأجاب على خمس قضايا منها، وترك لهم إعمال النظر في غيرها .

ونراه يستخدم طريقة مشابهة في مقامته المغزلية وفيها نرى فتيين يدخلان على عيسى بن هشام يتشكيان له، قالوا الأول: «دَخَلَ هَذَا الْفَتَى دَارَنَا، فَأَخَذَ فَنَجَّ سَنَارَ بَرَأْسِهِ دُورًا، بِوَسْطِهِ زُنَارًا، وَفَلَكَ دُورًا، رَحِيمَ الصَّوْتِ إِنْ صَرَ، سَرِيعَ الْكُرِّ إِنْ فَرَّ، طَوِيلَ الدَّلِيلِ إِنْ حَرَّ، نَحِيفَ الْمَنْطِقِ، ضَعِيفَ الْمَقْرَطِيِّ... الخ فَقَالَ الْفَتَى: نَعَمْ - أَيْدَى اللَّهِ الشَّيْخَ - لِأَنَّهُ غَضَبَنِي عَلَيَّ:

مُرَهَّفٍ سِينَانُهُ * * مُذَلِّقٍ أَسْنَانُهُ
أَوْلَادُهُ أَعْوَانُهُ * * تَفْرِيقُ شَمَلِ شَانُهُ
مَوَائِبٌ لِصَاحِبِهِ * * مَعْلَقٌ بِشَارِبِهِ
مُشْتَبِكُ الْأَيْتَابِ * * فِي الشَّيْبِ وَالشَّبَابِ
حُلُوٌّ مَلِيحُ الشَّكْلِ * * ضَاوٍ زَهِيدُ الْأَكْلِ
رَامٍ كَثِيرِ النَّبْلِ * * حَوْفَ اللَّحَى وَالسَّبْلِ

(١) انظر: فن المقامة بين البديع والحريري .. والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص ٧١-٧٢.

(٢) المقامة (٤٤): ص ٣٨٩-٣٩٠.



فقلتُ للأوَّل: رُدَّ عليه المشطُ ليردَّ عليك المغزلُ»^(١).

وهكذا نرى الأوصاف الأدبية في صورة ألغاز بصورة مشرقة تعكس مظاهر الطبيعة والحياة كوصف المشط والمغزل .

أما ابن نباتة فقد سار على خطى البديع في كتابة مقامته، في اللجوء إلى الغريب، فأنت لا تستطيع أن تقرأها دون أن تعود إلى القواميس؛ لمعرفة لفظة هنا وأخرى هناك، وإن كان الغالب عليها هو السلاسة، وقد ذكر ابن نباتة سبب ذلك؛ وهو أن بطله وضع من أول المقامة إلى آخرها؛ ليظهر بصورة من له معرفة ودراية بالألفاظ، وتمكن من العبارات، لذا كان هو الحكم، وهو الفيصل في إصدار الأحكام على مايقوله المنشدون حسناً كان أو قبيحاً، يقول ابن نباتة في مقامته: «فاسْتَحْسَنَ القومُ رِوَايَتَهُ، وَأَعْجَبَتْهُمْ دِرَايَتُهُ، فَقَالَ السَّائِلُ السَّابِقُ: لَهِ دَرٌّ مَوْلَانَا لَقَدْ أَتَى بِعِبَارَةٍ لَفْظُهُ الفَائِقُ، بِمَا أدهَشَ العقولَ، وَحَيَّرَ ألبَابَ الفُحُولِ»^(٢).

أما مايدلل على ذكره للغريب فقوله :

« قَالُوا فَالْوَرْدُ أَحْمَرُهُ عَلَيْهِ مَزُودٌ * * وَمَفْتَحاً بِالطَّيْبِ ثَوْبٌ مُدَهَّبٌ

وَكَذَلِكَ أَيْضُهُ كَانَ قَمِيصَهُ * * وَهُوَ المَطْيَبُ لِلنَّسِيمِ مُطْيَبٌ»^(٣)

ومع هذا نجد ابن نباتة نفسه يعيب على من يلجأ إلى ذلك، وينقده على لسان بطل مقامته، بعد أن رأى استحسان الحاضرين للبيتين السابقين، فيقول: «إِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى رِكُوبِ الوعرِ السَّهْلِ، وَأَخْوِ الحلمِ يَظُنُّ بِهِ الجَهْلُ، وَإِلَّا فَمَا مَوجِبُ هَذَا التَّحَرِّيِّ، وَالْأوَّلَى التَّنْصُلُ مِنْهُ وَالتَّيْرِيُّ»^(٤).

(١) المقامة (٣١)، ص ٢٢٥-٢٢٦، الفنج: ذابة يتخذ من جلدها فراء، السنار: السنور وهو الهر،

المنطق: مكان النطاق، المقرطق: مكان القرطق وهو ثوب ذو طاق واحد، خوف: يأتي من

حوافيهما، السبل: السبلة وهي ماعلى الشارب من الشعر. انظر: اللسان، مادة: فنج، سنر،

نطق، خوف، سبل.

(٢) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ١ من المخطوط.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣ .

(٤) المقامة نفسها، ص ٤ .

ومن بعض ما ذكر من الغريب، قوله: «فتحقق الشيخُ وجودَ إجماعي، معَ عدمِ إسرائي وإجماعي، فقال: ما هذا التَّخَلُّفُ عَنِ التَّحَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الْقَوْمِ»^(١).

وواضح من خلال المقامة أن ابن نباته له معرفة واسعة بالشعر، بل قل بالعلوم كلها، ولأدل على ذلك من طرحه الاثنتي عشرة مسألة لكل متخصص فيها بسؤال، إلا أنهم لم يعرفوا الإجابة عليها، يقول في ذلك: «فلما انقضى الأجل، وقد تساوى في عدم الجوابِ البطءُ وَالْعَجَلُ... سَمَّزَ لِرَحِيلِهِ الدَّيْلَ، وَقَالَ: قَدْ زِدْتُمْ عَلَيَّ الأَجْلَ اللَّيْلَ»^(٢).

والأسئلة التي أوردتها محيرة؛ لذا لم يجب عليها؛ دلالة على أنه يعرف غموضها، ويقصد إليه، ولم يفسرها - كما كان يفعل البديع - ليذهل الناس، ويملك إعجابهم، وينتزع اعترافهم بتفرده.

ومن أسئلته: ما كلماتٌ متفقٌ عَلَيْهَا معَ خَلْوَهَا مِنْ حُرُوفِ الإِعْرَابِ، وَهِيَ موجودَةٌ فِي كَلَامِ فَصْحَاءِ الأَعْرَابِ؟ ما قافيتان اتفقتا في بيتٍ معَ اختلافهما في الردفِ والتجريدِ، والروي والإطلاقِ والتقييدِ؟ ما الأسماءُ التي اتفقَ فيها المذكرُ والمؤنثُ، والأبُ واحدٌ في التعريفِ؟ ما الحقيقة؟ وما شتملُ عليه مِنَ الطَّرَائِقِ؟ وما الجازُ، وما تحتَهُ مِنَ الحَقَائِقِ؟ ما المعنى الذي لَهُ وَجْهَانِ يحسُنُ أحدهما إلى الاختيارِ، ويقبَحُ الآخرُ في الاضطرارِ؟ ما مثلُ قولِكَ اطلُبْ مَحَجَّةً؟^(٣)

وكذا ابن نايقا عمد إلى الغريب كسابقه - الهمداني، وابن نباته - تحدياً كما أشار إلى ذلك في مقدمة مقاماته فقال: «هذه حكاياتٌ أَحْسَنَّا العِبَارَةَ فِيهَا، وَهَدَّبْنَا أَلْفَاطَهَا، وَمَعَانِيهَا، وَجَلَّوْنَهَا فِي حُلَى البَلَاغَةِ عَلَيَّ سَامِعِيهَا، وَرَاوِيهَا، وَقَدْ سَلَّكَ بَعْضُ المَتَقَدِّمِينَ هَذَا المَذْهَبَ فِي مِثْلِهَا؛ رِيَاضَةً لِلخَاطِرِ، وَتَحْدِيًّا لِلقَرِيحَةِ غَيْرِ نَائِلٍ».

وقد قصد ابن نايقا أن يورد الغريب في مقاماته، بدليل أنه يعود فيذكر تفسيراً لتلك الألفاظ الغريبة في نهاية بعض مقاماته، فيقول: «تفسير أَلْفَاطٍ مِنْ هَذِهِ المَقَامَةِ»، ذكر ذلك في نهاية المقامة الثانية، وفي نهاية المقامة الثالثة قال: «تفسير مواضع من هذه المقامة».

(١) المقامة نفسها، ص ٦ .

(٢) المقامة نفسها، ص ١٠ .

(٣) انظر: المقامة نفسها، ص ٨ .



وهذا بعض مما جاء من الغريب، فهذا هو ذا يقول: «فَنَاوَلْنَاهُ ذُنُوبًا مِنَ الطَّعَامِ،
فَنَضَحَ عَلَيَّ سِوَامِحَ لِحْصِهِ، وَجَوَارِحَ قَنْصِهِ، ثُمَّ حَنَا عَلَيَّ رَكْبَتَيْهِ، وَجَرَدَبَ بِيَدَيْهِ»^(١)،
فيقال: جردب بيديه: إذا ستر بها الأخرى فأكل، قال الشاعر:

إذا ما كنت في قوم تنهاوى * فلاتجعل يمينك جردبانا

ويقول في مقامة أخرى: «أعينوا السائل المبتلى، والزمن الأعمى، ولو بثعروق
التمر»^(٢)، فثعروق التمرة: قمعها.

وكذا الحريري استخدم - كسابقه - في صياغة أسلوب مقاماته لغة متينة
أنيقة أحياناً، وغريبة ثقيلة أحياناً أخرى؛ إلا أن الغريب من أبرز خصائص أسلوبه،
حتى غدا هذا الكاتب مضرب الأمثال في هذا المجال.

والحق أن أسلوب الحريري ليس عسير الفهم ولاغامض المعنى حين كان
يكتب طبيعياً. وإنما الغرابة كل الغرابة، والغموض كل الغموض، حين كان يطلب من
الأمر مستحيله، فيتعلق بفنون من القول غريبة في حد ذاتها، كأن يأتي بكلام يقرأ من
أوله كما يقرأ من آخره، كما نجد ذلك في المقامة المغربية وهذا ما يسميه البلاغيون
بالقلب^(٣)، أو كأن يبالغ في التجنيس، وهذا كثير لا يأتي عليه الحصر، وإنما تمثل
بالمقامة الفراتية، أو كأن يغرق في طلب التورية ونحوها.

ومن قوله في المقامة المغربية: «كَبَّرَ رَجَاءَ أَجْرٍ رَبِّكَ»، «مَنْ يَرَبُّ إِذَا بَرَّ يَنْمُ»،
«سَكَّتَ كُلٌّ مَنْ تَمَّ لَكَ تَكْمُسُ»^(٤)، فهذا شيء يكتب ولا يقرأ، أو أنه يكتب ويقرأ
لبدخ عقلي بحت، ولكنه لا يستطيع أن يتبوأ من أي قلب، مهما بلغ من حرمان الذوق
الأدبي الأصيل، ومهما وصل في الفهم والذكاء والقدرة على هضم المعاني والأمكار،
فهي ألفاظ أغرب من متن «مختصر الخليل» و«ألفية بن مالك»، يقول د: عبد الملك
مرتاض: «فمثل هذه العبارات التي كان يضمنها الحريري مقاماته، على أنها سمو

(١) المقامة (٣): المقامات العشر لابن نايقا، ص ٧ من المخطوط.

(٢) المقامة (٤)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٩ من المخطوط.

(٣) انظر: علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ٤٢، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

(٤) المقامة (١٦٨)، ص ١٢٣، تحقيق: يوسف بقاعي.



العبقرية، لاتصلح للصبيان، ولالنساء، ولا للرجال، ولا للعلماء باللغة أنفسهم، لأنهم لا يجدون فيها معنى ذا بال. فإذا كان الحريري إنما جاء ببعض هذا ليدل على طول باعه في الغريب ويدي براعته في فتق أسرار المهمل والممات، وفي استغلال العناصر اللغوية على اختلاف طرقها وتشعب دروبها، فقد كان غنياً عن هذا، بما كتب في بعض مقاماته الأخرى، من أدب رفيع أصيل.

وإذا كان إنما جاء به ليرينا أنه قادر على أن يأتي بما لم يكده يأتي به الأوائل من الكتاب العرب، فقد أخطأ وحرّم التوفيق؛ لأن عبقرية الأدباء لاتتفاوت في الإغراب والتعمية على الأفهام، والتضليل على العقول، ولكن عبقريتهم تتفاوت في القدرة على الإفهام، وحسن التبيين، وجودة التصوير، وسهولة التعبير^(١)، وأرى أن رأي الدكتور مرتاض فيه نوع من المبالغة.

وها هو ذا الحريري يقول في المقامة السنجارية: «وكلما رأى مني أزدِيَادَ الاعتِيَاص، وأرتِيَادَ المنَاص، تجرّم وتضرمّ، وحرّق على الأرم»^(٢)، فكل من الاعتياص، وتجرّم، والأرم، ألفاظ غريبة، لأنها تضطر المرء إلى التفكير في أصول مشتقاتها؛ إذ كان «الاعتياص» آتياً من عاص الشيء عياصاً وعوصاً إذا اشتد، وتأبى.

وأما «تجرّم» فإنها تقف أمامك عقبة كأداء في سبيل الفهم؛ لأن التجرّم يكون لمعنيين مختلفين، أحدهما: اكتساب الذنب بمحض الإرادة الشخصية. وثانيهما: الاحتياط من الوقوع في الأثم. وأقربهما وجهاً في هذا المقام المعنى الأول. يفسر ذلك وجود «تضرم» الذي يدل على استعار الغضب، واشتداد الغيظ.

أما «المناص» فيستعمل غالباً مع «لا» النافية للجنس، ولايكاد يتجاوز به غير ذلك، على حين أن الحريري اصطنعه في نحو آخر من القول فنبأ بعض النبوء، فغرب على الأفهام، وثقل بعض الثقل. إلا أن ذلك كله لا يقاس بلفظ «الأرم» الذي لا يماثله غرابة أي لفظ في العربية.

فقد شق على الشراح فغدوا يضطربون في تفسيره كل مضطرب، ومرد ذلك

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) المقامة (١٨): ص ١٣٩، تحقيق: يوسف بقاعي.



أن أصل وضعه اللغوي يدل على عدة معان أهمها: الأنياب، والأضراس، والحجارة، والأصابع. والمراد به هنا الأضراس، أو الأنياب، لأن الرجل إذا اشتد غيظه، صك أسنانه صكاً حاداً.

ولكن من العسير جداً على القاريء العادي أن يدرك معنى الأرم في عبارة الحريري لأول وهلة، وبدون أن يستشير أمهات المعاجم العربية^(١).

ونقول: إن لجوء الحريري، وسواه من كتاب المقامة، إلى الغريب، سمة بارزة لديهم جميعاً من وجهة نظر أي قاريء في عصرنا الحاضر، للبون الشاسع بين عصرنا وعصرهم، ودخول كثير من المفردات غير العربية على لغتنا، فلايكاد قاريء الآن يقرأ قصيدة من قصائد العصور الأولى؛ إلا ويعود إلى المعاجم العربية لمعرفة بعض المعاني، فما بالك بمن تعنّ وبمحت عن الغريب ليضعه بين ثنايا مقاماته كالحريري، ولاينطبق هذا القول على كل مقاماته، بل البعض منها، والبعض الآخر على مستوى كتاب عصره آنذاك.

ولما كان الحريري ذا علم وفير، وسعة اطلاع لامثيل لها، ودراية بالغة ودروها تجده يكتب مقامة تقرأ من آخرها، كما تقرأ من أولها، كما في المقامة المغربية، والقهقرية، ومما يدل على سعة معرفته باللغة، وألفاظها، ذكره للكثير من أسماء الخمر، فمرة قال: «(مطا الكميت)»: سميت كميتاً لأنها حمراء إلى الكمته، و«(الخندريس)»: الخمر القديمة، و«(الصهباء)»: الخمر التي عصرت من عنب أبيض^(٢)، و«العقار»^(٣)، والمدام^(٤)، والسلاف: الخمر العتيقة، ماسال منها من غير أن تعصر، وهي أفضل الخمر، وبنات الخايية، والطلاء^(٥)، والعجوز^(٦) من أسماء الخمر، والغيداء^(٧)، وهو المسكر المتخذ من الذرة.

(١) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، د.عبدالمك مرتاض، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) المقامة (٤٨): الحرامية، ٣٠٧/٥، شرح الشريشي.

(٣) المقامة نفسها، ٣٠٦/٥، شرح الشريشي.

(٤) المقامة نفسها، ٣٠٨/٥، شرح الشريشي.

(٥) المقامة (٤٤): الشتوية، ١٥٧/٥، شرح الشريشي.

(٦) المقامة نفسها، ١٦١/٥، شرح الشريشي.

(٧) المقامة نفسها، ١٦٣/٥، شرح الشريشي.



كما اشتملت مقامات الحريري على طائفة ضخمة من الألغاز، التي تناولت في معظمها ألغازاً لفظية، وقد يأتي هذا الإلغاز في النثر، أو في الشعر، ومن ذلك قوله يصف الدينار مادحاً ثم ذاماً، وفي ذمه يقول في مطالع أبياته:

«تَبَأَ لَهُ مِنْ خَادِعِ مُمَازِقٍ ** أَصْفَرَ ذِي وَجْهَيْنِ كَالْمَنَافِقِ

يَبْدُو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الْوَامِقِ ** زِينَةَ مَعْشُوقٍ وَلَوْنِ عَاشِقٍ»^(١)

ومن ألغازه قوله في المقامة القطيعية: «فَمَا كَلِمَةٌ هِيَ إِنْ شِئْتُمْ حَرْفٌ مَحْبُوبٌ، أَوْ اسْمٌ لِمَا فِيهِ حَرْفٌ حَلُوبٌ»^(٢) المقصود بها كلمة (نعم)، إن أردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهي حرف، وإن عنيت بها الإبل فهي اسم والنعم تذكر وتؤنث، ويطلق على الإبل، وعلى كل ماشية فيها إبل، وفي الإبل الحرف، وهي الناقة الضامرة، سميت حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف، وقيل: إنها الضخمة تشبيهاً لها بحرف الجبل^(٣).

وقوله: «(وَأَيُّ اسْمٍ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ قَرْدٍ حَازِمٍ، وَجَمْعٍ مُلَازِمٍ)»^(٤). أما الاسم فهو: سراويل، قال بعضهم هو واحد، وجمعه سراويلات. فعلى هذا القول هو فرد، وكنى عن ضمه الخصر بأنه حازم، وقال آخرون: بل هو جمع واحده سراويل، مثل شمالال وشماليل، وسربال وسراويل، فهو على هذا القول جمع. ومعنى قوله ملازم: أي لا ينصرف، وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع ثالثه ألف، وبعدها حرف مشدد أو حرف أو حرفان أو ثلاثة أو سطها ساكن لنقله وتفرده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له في الأسماء الآحاد^(٥). ونكتفي من الأحاجي والألغاز النحوية بهذا.

ومن الألغاز قوله في مقامة أخرى أورد فيها عشرين لغزاً، كل لغزٍ منها يتناول مضموناً لغوياً في بيتين اثنين:

(١) المقامة (٣): الدينارية، ص ٣٢، مماذق: لا يصابي الود. انظر: اللساف، مادة: مذق.

(٢) المقامة (٢٤)، ص ١٨٢.

(٣) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ١٨٦.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٨٢.

(٥) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ١٨٦.

« يَأْمَنُ سَمَا بِذَكَاءٍ ** فِي الْفَضْلِ وَارِي الزَّنَادِ

مَاذَا يَمَائِلُ قَوْلِي ** جُوعٌ أَمَدٌ بِبِزَادٍ»^(١)

فمثل : جوع أمد بزاد : طوامير^(٢).

واللغز الثاني ، قوله :

« يَا ذَا الَّذِي فَاقَ فَضْلاً ** وَلَمْ يَدْنُسْهُ شَيْنٌ

مَا مِثْلُ قَوْلِ الْمُحَاجِجِي ** ظَهَرَ أَصَابَتَهُ عَيْنٌ»^(٣)

فمثل : ظهر أصابته عين : مطاعين^(٤).

واللغز الثالث ، قوله :

« يَأْمَنُ نَتَائِجَ فِكْرِهِ ** مِثْلُ النُّفُودِ الْجَائِزِزِهِ

مَا مِثْلُ قَوْلِكَ لِلَّذِي ** حَاجَيْتَ صَادِفَ جَائِزِهِ»^(٥)

فمثلته : الفاصلة^(٦)، يقول د. عبد الملك مرتاض : «فإن المراد بهذا أن يجد

القاريء عبارة تؤدي معنى «صادف جائزه» بلفظ واحد فقط، وقد مثل الحريري لذلك نفسه، بهذه العبارة «الفاصلة».

ووجه الحريري في ذلك، فيما يبدو، أن «ألفاء» بمعنى وجد، و «صلة» بمعنى

جائزه أو عطيه، فـ«الفاصلة» إذن تماثل كل المماثلة، في رأي الحريري، «صادف جائزة».

والحق أن هذا الوجه لا يعدم تعسفاً وتكلفاً، بل ضلالاً؛ لأن أصل معنى

(١) المقامة (٣٦): المالطية، ص ٢٧٨.

(٢) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.

(٥) المقامة والصفحة نفسها.

(٦) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.



«الفاصلة» إنما هو الحائلة التي تحول بين شيئين، ومنه الإشارة المعروفة في الكتابة لأنها تفصل بين جملتين. أما إذا أردنا إلى «الفاصلة» بقطع همزة الألف، فإن ذلك يعني كلمتين اثنتين ومعناهما ظاهر، وهو الفاصلة، أي ألفا عطية. أما أن يريد الحريري إلى «الفاصلة» في صورتها هذه الاسمية، ثم يزعم أنها تؤدي معنى: «صادف جائزة» فإن ذلك لا يخلو من تعسف ظاهر.

لأن الفعل الذي يؤدي معنى صادف أداءً تقريبياً، إنما هو «ألفى» بالألف المقصورة، فإن الألف إذا مدت، ينتج عنها مثني ألفٍ مرفوع مضاف، فالمعنى إذن: «الفاصلة»، وهو غير «صادف جائزة» واحدة.

فحل اللغز من هذه الناحية فاسد لا يستقيم.

وكيف يمكن أن نحمل فعلاً ما لا يحتمل، فنغير صورة كتابته المعروفة لنُدلل به على شيء لا يؤديه؟ فإن الأفعال الرباعية المعتلة إنما تكتب بالألف المقصورة. وقد عدل عن كل ذلك في صورة هذا اللغز الذي وجدناه متعسفاً. إن لفظ «ألفا» الذي اقترحه الحريري كحلٍ للغز المراد من قوله: «صادف جائزة» لا يعني شيئاً، ولألحاح، لأن «ألفا» إذا كتبت بالألف، فمعناها مثني ألف، وهو العدد المعروف الذي يعني عشر مائة، وما بعد «ألفا» نتيجة لذلك مضاف إليه، والمضاف إليه يكون مجروراً، وليس مفعولاً لـ«ألفى» الذي يريده الحريري بقوله: «ألفا».

فحل اللغز يجب أن تكون الألفاظ فيه مؤدية لوظائفها الطبيعية دون أن يطراً عليها طارئ يشوش نظامها^(١).

ومن أغاز هذه المقامة قوله:

« أيا مُسْتَنْبِطَ الغَا * مِضَ مِنْ لَغْزٍ وإِضْمَارِ

أَلَا اكْشِفْ لي مَا مِثْلُ * تَنَاوَلَ أَلْفَ دِينَارٍ»^(٢)

فمثل: تناول ألف دينار: هادية^(٣)، «وجهه في ذلك أن «ها» تكون اسم

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) انظر: شرح مقامات الحريري، يوسف بقاعي، ص ٢٨٣.



فاعل أمر بمعنى خذ، والدية ما يقدم لأهل القتيل. وقد كان معروفاً لديهم أنها ألف دينار. فعبارة ((هادية)) تؤدي معنى ((تناول ألف دينار)) في لغز الحريري.

ومع ذلك فإن الذي يتناول ألف دينار ويعطوها، ليس كالذي ينال الدية ويأخذها. فقيمة الدية تختلف باختلاف القتيل، وتتغير بتغير الزمان، فهي ليست ألف دينار منذ كان الناس إلى أيام الحريري، على حين أن ألف دينار تظل هي هي، وإن تغيرت قوتها الشرائية من زمان لزمان.

ولكن حل اللغز هنا مقبول إلى حد ما^(١).

ولعلك لحظت أن حكم د. مرتاض على حلول الألغاز بفساد الرأي أو عكسه قائم على الشروح، والشروح التي تناولت مقامات الحريري كثيرة، بل كثيرة جداً، وقد تتفق وتختلف، وإلا ما استظهر للقراء على اختلافها واتفاقها؛ ليجدوا جديداً فيها.

وفي مقامة أخرى قال علي لسان الراوي الحارث بن همام: ((كَمَا تَنَاضَلُ بِالْأَلْغَازِ، كَمَا تَنَاضَلُ يَوْمَ الْبِرَّانِ))^(٢)، فدخل عليهم أبو زيد السروجي، وعدوه فضولياً، إلا أنه قال: ((هَلُمَّ إِلَى أَنْ نُلْغِزَ، وَنُحَكِّمَ الْمُبْرَنَ))^(٣)، وأنشدهم ملغزاً في مروحة الخيش، وفي حابول النخل، وفي القلم، وفي الميل، وفي الدولاب، وفي المزملة، وفي الظفر، وفي طاقة الكبريت، وفي حلب الكرم، وفي الطيار، وهذا ما أنشده ملغزاً في القلم:

((وَمَأْمُومٌ بِهِ عُرِفَ الْإِمَامُ * * كَمَا بَاهَتَ بَصْحَبَتَهُ الْكِـرَامُ
لَهُ إِذْ يَرْتَوِي طَيْشَانَ صَادٍ * * وَيَسْكُنُ حِينَ يَعْرُوهُ الْأَوَامُ
وَيَذْرِي حِينَ يَسْتَسْعَى دُمًّا * * وَعَا يَرْقَنُ كَمَا يَرُوقُ الْإِبْتِسَامُ))^(٤)

(١) فن المقامات في الأدب العربي، د. عبد الملك مرتاض، ص ٤٢٩.

(٢) المقامة (٤٢): النجرانية، ص ٣٢٠.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٣٢٢. الصادي: العطشان، الأوام: العطش، يذري: يسكب، يستسعى:

يطلب منه السعي. انظر: اللسان، مادة: صدى، أوم، ذرى، سعي.

وفي المقامة البكرية يصف نعلاً وكأنها ناقة، ويقول: «مَنْ ضَلَّتْ لَهُ مَطِيَّةٌ
خَضْرَمِيَّةٌ وَطِيَّةٌ، جِلْدُهَا قَدْ وَسِمَ، وَعَرُّهَا قَدْ حُسِمَ، وَزِمَامُهَا قَدْ ضَفِرَ، وَظَهْرُهَا كَانَ
قَدْ كَسِرُ ثُمَّ جَبِرَ، تَزِينُ الْمَاشِيَةِ، وَتُعِينُ النَّاشِيَةَ، وَتَقْطَعُ الْمَسَافَةَ النَّاشِيَةَ، وَتَطَّلُ أَبَدًا لَكَ
مُدَانِيَةَ، لَا يَعْتَوِرُهَا الْوَنَى، وَلَا يَعْتَرِضُهَا الْوَجَى، وَلَا تَخْرُجُ إِلَى الْعَصَا، وَلَا تَعْصِي فَيَمَنُ
عَصَى»^(١).

ومن الألغاز الشعرية قوله في المقامة الشتوية:

«عِنْدِي أَعَاجِيبُ أَرْوِيهَا بِلَاكَذِبِ * عَنِ الْعِيَانِ فَكُنُونِي أَبَا الْعَجَبِ
رَأَيْتُ يَأْقُومُ أَقْوَامًا غِذَاؤُهُمْ * بُولُ الْعَجُوزِ وَمَا عَنَى ابْنَةُ الْعَنْبِ
وَمُسْتَنِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ قُوَّتُهُمْ * أَنْ يَشْتَوُوا خِرْقَةً تَغْنِي مِنَ السَّغْبِ
وَقَادِرِينَ مَتَى مَا سَاءَ صُنْعُهُمْ * أَوْ قَصَّرُوا فِيهِ قَالُوا الذَّنْبُ لِلْحَطَبِ»^(٢)

وأراد ببول العجوز: لبن البقرة، وابنة العنب: الخمرة^(٣).

وهذا النعماني يلحظ لجوؤه إلى الغريب من بداية مقامته حيث يقول: «حَدَّثَنِي
بَعْضُ الْإِخْوَانِ، قَالَ: نَشْتُ بِي قَرَارَاتُ الْكُرْمِ بِبَغْدَانَ، لِتَوَاتُرِ نَوْبِ الزَّمَانِ، وَاجْتِنَابِ
أَرْبَابِ السُّلْطَانِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ ذُو غَلِّ قَمَلٍ ... فَشَحَذْتُ غَرَارَ الْعَزْمَةِ فِي رُكُوبِ غَارِبِ
الْعَرَبَةِ...»^(٤).

(١) المقامة (٤٣)، ص ٣٣٢. وطية: ذلول لراكبها، العرّ: العيب، الناشية: الجارية الحديثة السن،

يعتورها: يصيبها فترة بعد أخرى، الونى: الفتور والضعف، الوجى: ألم في الرجل. انظر:
اللسان، مادة: وطأ، عر، نشى، عور، ونى، وجى.

(٢) المقامة (٤٤)، ص ٣٤٧. المستنون: من أصابتهم السنة المجذبة، الخرقه: القطعة من الجراد،

السغب: الجوع، القادرون: فالقادر: الطابخ في القدر هنا. انظر: اللسان، مادة: سنت،
خرق، سغب، قدر.

(٣) انظر: اللسان، مادة: بول، عنب.

(٤) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ٤-٥.



فأما قوله: نشت: أي أخذ ماؤها في النضوب، وأما الغل: فهو جامعة توضع في العنق أو اليد، ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق: غل قمل، وأصله أن الغل عليه شعر فيقمل^(١).

وانظر إلى قوله في المقامة نفسها: «أنا إليك مُرتكّن، وأنتَ ببدلِ المجهودِ في النصحِ زكن، فقال: ماعراً؟ فقلتُ: كَلَّ العبيدِ في جوفِ الفِراءِ، فقال: هات، ودعّ الترهات... ارتد بقعةً تتخذها نجعةً...»^(٢).

لعلك لحظت أن بعض الألفاظ تحتاج إلى توضيح، مثل قوله زكن: أي عالم، والفراء: أي الحمار الوحشي، والترهات: الأباطيل، وبنجعة: طلب الكلاً في موضعه^(٣). كما أنه يعتمد إلى الألفاظ في مقامته، فيقول: «وبدت لنا الأعلام الشيرازية، وتلفت آمالنا العوارف العمادية فأنشدته مرتجزاً، وقلت له ملغزاً:

أتلک قیبات عن الحی تمّاز؟ * * أم الطّعنُ في أعلى الشیة تجّاز؟
 أجلُ ناظراً، یأسعدُ، بالغور، واتّمد * * لئلاً یقول الغید: سفر ونشاز
 وكن ناشداً بالدو قلباً فنصنه * * ظباء جواز قد حوتهنّ أجواز
 خیرائد أمثال الدمی تصطبى الفتی * * لهنّ صدور عالیات وأعجان^(٤)

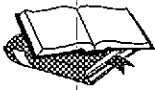
لحظنا أن البديع ومن سار على خطاه بعد دراسة معجمهم اللغوي وجدناه تميز بهذه الميزة، فإما غريب، وإما أنيق من اللفظ، أما الغريب فقد استعرضنا طائفة من الأمثلة عنه، وأما الأناقة اللفظية والتي هي إحدى الخصائص اللازمة لأسلوب هذا الفن -المقامة- فهي ألفاظ في معظمها مغربة منقحة مختارة، وموضوعة وضعاً دقيقاً في سنن الكلام.

(١) انظر: اللسان، مادة: نش، غل.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ٦.

(٣) انظر: اللسان، مادة: زكن، فراء، تره، نجع.

(٤) خريدة القصر وجريدة العصر، للأصبهاني، ص ١١.



ومقامات الزمخشري ومن كتب على طريقته، نجد صياغة أسلوبها تمتاز بهذه الميزة التي هي الأناقة في الألفاظ.

كما أن كثيراً من ألفاظ المقامات التي كتبت على خطى الزمخشري، ألفاظ شعرية لا ينقصها إلا الوزن، ويقصد بالألفاظ الشعرية هنا، تلك الألفاظ التي تشبه في رقتها برد السحر، وانسياب الماء في الجداول الصافية. وها هو ذا الزمخشري يقول في مقامة المرشد: «إِنَّ خِصَالَ الْخَيْرِ كَتَفَاحِ لُبْنَانٍ، كَيْفَمَا قَلْبَتْهَا دَعَتَكَ إِلَى نَفْسِهَا، وَإِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ، أَنْتَى وَجْهَتَهَا نَهَتْكَ عَنِ مَسِّهَا، فَعَلَيْكَ بِالْخَيْرِ إِنْ أَرَدْتَ الرَّفُولَ فِي مَطَارِفِ الْعَزِّ الْأَقْعَسِ، وَإِيَّاكَ وَالشَّرَّ، فَإِنَّ صَاحِبَهُ مَلْتَفٌّ فِي أَطْمَارِ الْأَذْلِ الْأَتْعَسِ. أَقْبِلْ عَلَى نَفْسِكَ فَسَمِّهَا النَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ، وَبَصِّرْهَا عَاقِبَةَ الْحَذْرِ الْمُرَاقِبِ. وَنَاغِهَا بِالتَّذْكَرَةِ الْهَادِيَةِ إِلَى الْمُرَاشِدِ، وَنَادِهَا إِلَى الْعَمَلِ الرَّافِعِ وَالْكَلِمِ الصَّاعِدِ»^(١).

إن ألفاظ هذا النص من مقامات الزمخشري، تبين لنا أن الكاتب قد انتقى ألفاظه انتقاءً دقيقاً، بحيث إن هذه الألفاظ في معظمها أصلح ما تكون لأن يقرض بها أجمل الشعر وأرقه، يقول الدكتور/ عبدالمملك مرتاض: «وتأمل هذا التعبير بوجه خاص: «وعليكَ بِالْخَيْرِ إِنْ أَرَدْتَ الرَّفُولَ فِي مَطَارِفِ الْعَزِّ الْأَقْعَسِ، وَإِيَّاكَ وَالشَّرَّ، فَإِنَّ صَاحِبَهُ مَلْتَفٌّ فِي أَطْمَارِ الْأَذْلِ الْأَتْعَسِ» تجد أن «الرفول» و«المطارف»، و«العز الأقمس»، و«ملتف في أطمار الأذل الأقمس» من الألفاظ الشعرية التي لا تستقيم إلا لأكبر الشعراء حظاً من الطبع الصافي، والذوق العالي، إلى جانب ما في هذه الصورة من مقابلة بين الجملتين. فإنها من حيث ألفاظها صورة شعرية جميلة لا يعدها إلا الوزن.

وتأمل «ناغها» تجده لفظاً شعرياً من ألفاظ الغزل الرقيق، وقد قال جابر بن ثعلب الطائي :

كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى * ولم يكُ صُعلوكاً إذا ماتعَ وولاً
ولم يكُ ذا بوسٍ إذا باتَ ليلَةً * يُناغي غزالاً ساجي الطرفِ أكحلاً»^(٢)

(١) المقامة (١)، للزمخشري، ت: يوسف بقاعي، ص ٢٥-٢٨.

(٢) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٣٧٨.



أما الأسواني فيلجأ إلى الغريب، مما يوقع القارئ في الغموض، ومن ذلك قوله: «أَزَى مَلَازِمَةَ الْوَطْنِ؛ بِجَلْبَةِ الْأَفْنِ، وَمَشْبَهَةً لِأَدْرَاعِ الْكَفَنِ، حَتَّى فَلَوْتُ الْفَلَوَاتِ تَشْرِيقًا وَتَغْرِيبًا وَأَبَدْتُ قُوَى الْبَيْدِ آسَادًا وَتَأْوِيًا... فَلَمَّا نَزَلْتُ بِالْخَصِيبِ أَلْفَيْتُ بِهَا مِنْ وَجْهِهِ الْأَدَبِ وَعَيْونِهِ، وَيَنَابِيعِ الْعِلْمِ وَعَيْونِهِ مَا أَظْفَرَنِي قُصُوى الطَّلَبِ...»^(١).

أما قوله: «مجلبة للأفن» فأفن الرجل أفنا نقص عقله^(٢). وكذلك في قوله: «لقد طاشت عن الغرض سهاكم، وكثرت في الهذر كلامكم، وشغلتم أنفسكم بالترهات»^(٣).

وكذا ابن الجوزي الذي عمد إلى ما عمد إليه كتاب المقامة في صياغة أسلوبهم، فهي لغة متينة أنيقة أحياناً، وغريبة ثقيلة أحياناً أخرى، تأمل معي غرابة قوله: «أحذر إبليس هذه الطائفة... إن أحدهم يكون أملق من سملق، فيحتال على الدنيا حيلة العمروط، فيصير بعد مصائب النصائب في بلهنية من العيش ورهنية. فإذا بالعرصم علوك قفاخر، وإن طلب الدنيا بالقنا والدبوس»^(٤).

لعلك لحظت أن كثيراً من ألفاظ هذا النص تقف أمامها لغرابتها، وهي لمعان معروفة، كان في إمكانه استعمالها، إلا أنه عمد إليها عمداً، واصطنعها اصطناعاً، وكان في سعة من أن يعتاض عن «سملق» بالأرض القفر، وعن «العمروط» باللص، وعن قوله «بلهنية» بالنعمة، وعن «رهنية» بالرفاهية، وعن «العرصم» بالثيم، وعن «علوك» بقوله سمين، وعن «قفاخر» بالعظيم الجثة.

وها هو ذا يستعرض مقدرته اللغوية في مقامته الأولى، فيقول: «تعالى -الله- عن بعضية من، وتقدس عن ظرفية في، وتنزه عن شبه كأن، وتقدس وتعظم عن نقص لو أن، وعز عن عيب إلا أن، وسما كماله عن تدارك لكن»^(٥).

(١) المقامة الحصيبية، ص ١ من المخطوط.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة أفن.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣. وانظر: معنى الترهات، ص ٤٠٠ من البحث.

(٤) المقامة (٤٠): في صوفية الزمان، ص ٣٢٦. وانظر: اللسان، مادة: سلق، عرط، بله، رفه،

عرص، علك، قفا.

(٥) في حكم الأشياء، ص ١٣، ت: د. محمد نغش.



فابن الجوزي أراد هنا تنزيه الخالق عن التشبيه والتعطيل، والتمثيل مستعملاً معاني النحو.

ويقول ((علي جميل مهنا)) مشيراً إلى أن ابن الجوزي قد يعتمد ((إلى إتيانه بالألفاظ الغريبة التي أدت إلى تعمية المعنى في بعض الأحيان))^(١)، كقوله في مقامته المسماة ((في الاستسقاء)): ((اللهم إنك تعلم جدبنا، فجد بنا ... اللهم اسقنا سحاباً مكفهاً، قرداً، دالحاً، مرتعناً، بعاقاً، دلوقاً، هنيئاً مريئاً، مريعاً، غدقاً، محلالاً، سجاجاً، عاماً، طبقاً، يمطرنا منه وإبلاً، هطلاً، دراكاً، جلاخاً...))^(٢).

فما أغناه عن تلك الألفاظ بألفاظ سهلة، بسيطة، لاغموض فيها، ولكنه يعلم ويقصد اللجوء إليه بدليل أنه عاد وشرح تلك الألفاظ، فقال: المكفهر: الذي يغلظ من السحاب ويركب بعضه بعضاً، والقرد: المتلبد بعضه على بعض، والدالح: المنقل بالماء، والمرتعن: السائل، والبعاق الذي ينبعق بالماء، والدلوق: المندلق، والغدق: الكثير، والمحلال: الذي يحل ويقيم، والطبق: الذي يطبق الأرض، والهطل: فوق الرث، والدراك: المتدارك، والجلاخ: الكثير...^(٣).

ونخلص إلى أن الغرابة ظاهرة أو خاصة عامة في معظم المقامات التي كتبت على خطة البديع، كمقامة ابن نباته ومقامات ابن نايقا، والحريري، والأسواني، والنعماني، وابن الجوزي.

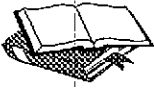
وتستطيع أن تقرأ من مثل هذه المقامات التي ذكرت ماشعت دون أن تعدم فيها غريباً من اللفظ يحول بينك وبين إدراك المعنى هنا وهناك، حتى ولو كنت ممن لهم باع

(١) أدب ابن الجوزي، أول خير عمر عيسى سراج، ص ٣١٢، بإشراف أ.د. محمود زيني، مخطوط رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية (الأدب) ١٤٠٩هـ، عن مقامات ابن الجوزي، مقدمة المحقق ص

(أ). ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي جميل مهنا، ص ١٦٠. وابن الجوزي ومقاماته، المخطوطة ص ٢٧٩.

(٢) المقامة (٤٧)، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٨٤.

(٣) انظر: المقامة نفسها، ص ٣٩١.



في اللغة المذكور، فلا بد من وقفات عند كلمات هنا وهناك أيضاً.

كما نخلص إلى أن فن المقامة كان يعول في صياغاته المختلفة على اصطناع الغريب، أما الداعي الرئيسي لذلك، فقد كان أحياناً تعليمياً، وأحياناً أخرى بقصد التحدي، وربما جيء بالغريب بقصد إحياء ألفاظ العربية - ولكن هذا لا يدخل تحت التعليم - وبعث موماتها.

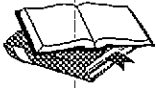
إلا أن أسلوب المقامات من حيث صياغته العامة، لم يكن يعول على الغريب في جانب، والسوقي من الألفاظ في جانب آخر، بحيث تتناقض ألفاظ الصياغة المقامية تناقضاً شنيعاً بين علو وسمو، وإسفاف وإقصار، وإنما كان استخدام هذه الألفاظ في صياغة أسلوب المقامة، يتم بطريقة فنية محكمة، بحيث يُراعى في ألفاظ الصياغة التلاؤم والانسجام، فكاتب المقامة إذا أعوزه الغريب، أو عزفت عنه نفسه لسبب من الأسباب، وهذا قليل جداً، فإنه يعتاض عنه بالألفاظ الأنيقة المختارة على الأقل.

وهذه المبالغة في انتقاء الألفاظ الحسان، ذات الظلال الشعرية، والأجراس الموسيقية الغنية، تعتبر خاصية بارزة من خصائص صياغة الأسلوب في المقامة، وليس هذا غريباً في أسلوب يعول على السجع الملتزم الذي يشكل هو نفسه في حد ذاته، عنصراً من عناصر الشعر، ونعني به الموسيقى اللفظية ذات الرواء العجيب^(١).

بقي أن نعرف المقصود بالغريب؟، وهل يعيب وجوده في المقامات؟ وهل ورد الغريب في السنة؟.

أما الغريب من الكلام فإما هو الغامض البعيد من الفهم كالغريب من الناس، وإنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل، ومنه قولك للرجل إذا نحيت وأقصيته عنك اغرب عني: أي أبعد، ومن هذا قولهم: نوى غربة: أي بعيدة... وكل هذا مأخوذ بعضه من بعض، وإنما يختلف في المصادر، فيقال: غرب الرجل يغرب غرباً إذا تنحى وذهب، وغرب غربة إذا انقطع عن أهله... ثم إن الغريب من الكلام يقال به على وجهين: أحدهما: أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناول الفهم إلا عن بعد، ومعاناة فكر. والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من

(١) انظر: عبد الملك مرتاض، ص ٣٦٨-٣٧٥، ٣٧٩.



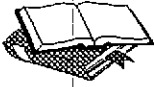
شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها، وإنما هي كلام القوم وبيانهم، وعلى هذا ماجاء عن بعضهم، وقال له قائل: أسألك عن طرف من الحرف، فقال: هو كلام القوم، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه^(١).

وقد ورد الغريب في السنة، ولقائل أن يقول: «أنى يكون في حديث رسول الله ﷺ - وهو يقول: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»، أم كيف يكون في حديث صحبه وحشي، وهم كانوا أفصح الناس، سمعوا القرآن من في رسول الله ﷺ -، وقبسوا من بيانه، وسألوا رسول الله ﷺ - عما أشكل عليهم منه؟»^(٢).

فنقول: مرد تلك الغرابة، وسبب تلك الوحشة، مأوتيه رسول الله ﷺ - من بيان، فالله عز وجل لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها؛ لياشر في لباسه مشاهد التبليغ، وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف، ثم أمدّه بجوامع الكلم التي جعلها رداءً لنبوته، وعلماً لرسالته، لينتظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه ولا يثرودهم حمله، ومن تتبع الجوامع من كلامه لم يعدم بيانها، ومنها قوله ﷺ -: «سلوا الله اليقين والعافية»^(٣)، فتأمل هذه الوصية الجامعة تجدها محيطاً بخير الدنيا والآخرة، وذلك أن ملاك أمر الآخرة اليقين، وملاك أمر الدنيا العافية.

ومن فصاحته وحسن بيانه أنه قد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، كقوله: «هي الوطيس»^(٤).

- (١) انظر: غريب الحديث، للإمام الخطابي البستي، ص ٧٠-٧١، ت: د. عبدالكريم العزباوي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- (٢) غريب الحديث، للإمام أبي إسحاق إبراهيم الحربي، ص ٩، تحقيق: د. سليمان العايد، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة، ط(١)، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- (٣) رواه أحمد في مسنده، عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، ٣/١. والترمذي برقم (٣٥٥٨)، كتاب الدعوات، باب (١٠٦)، ٥٥٧/٥ باختلاف في العبارة.
- (٤) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (٢٨): في غزوة حنين، ٣/١٣٩٨. وأحمد في مسنده، ٢٠٧/١. والحاكم في المستدرک، ٣/٣٢٨ (في حديث غزوة حنين عن عباس عم النبي ﷺ -).



ومن فصاحته وسعة بيانه أنه قد يوجد في كلامه الغريب الوحشي الذي يعيا به قومه وأصحابه وعامتهم عرب صرحاء، لسانهم لسانه، ودارهم داره، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «ألا أنبئكم بأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: كل جظ جعظ، قلت: ما الجظ؟ قال: الضخم، قلت: فالجعظ؟ قال: العظيم في نفسه»^(١).

إن الذي تقدم من ذكر جوامع كلامه، وضروب بيانه، يكفي سبباً لكثرة ما يوجد من الغريب في حديثه، ثم إنه -ﷺ- بعث مبلغاً ومعلماً، فهو لا يزال في كل مقام يقومه وموطن يشهده يأمر بمعروف وينهى عن منكر، والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية، وقد تختلف عنها عباراته، ويتكرر فيها بيانه، ليكون أوقع للسامعين، وأقرب إلى فهم من كان منهم أقل فهماً، وأقرب بالإسلام عهداً، وأولو الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يرعونها سمعاً، ويستوفونها حفظاً، ويؤدونها على اختلاف جهاتها، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدة ألفاظ، تحتها معنى واحد، وذلك كقوله: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»^(٢)، وفي رواية أخرى: «وللعاهر الإلتب»^(٣).

وقد يتكلم -ﷺ- في بعض النوازل وبحضرتة أخلاط من الناس، قبائلهم شتى، ولغاتهم مختلفة، ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر لضبط اللفظ وحصره، أو يتعمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه بالمعنى، ثم يؤديه بلغته، ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد، وهذا كما يروى: «أن رجلاً كان يهدي إلى رسول الله كل عام راوية خمر، فأهداها عام حرمت، فقال: إنها

(١) رواه أبو داود (٤٨٠١) عن حارثة بن وهب -رضي الله عنه-، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، ٢٤٣/٤، بلفظ: «لا يدخل الجنة الجواظ، ولا الجعظري». رواه أحمد في مسنده، ٢١٤/٢، ٢٦٩، ٥٠٨، ٣/١٤٥، ٤/١٧٥، ٢٢٧، ٢٠٦، ٥/٣٦٩.

(٢) رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - كتاب الوصايا، باب قول الموصي لوصية معاهد ولدي، ٤/٤. ورواه مالك في الموطأ، ١٠٨٠/٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ١٧٩/٢، ٢٠٧ من حديث ابن عمرو.



حرمت، فاستأذنه في بيعها، فقال له : إن الذي حرم شربها حرم بيعها، قال: فما أصنع بها؟ قال: سنّها في البطحاء، قال: فسئها^(١)، وجاء في رواية أخرى: «فهبها» وفي رواية أخرى: «فبعها» والمعنى واحد.

ولكثر ما يرد من هذا أو من نظائره يقول أبو عبيدة: معمر بن المثنى: أعيانا أن نعرف ونحصى غريب حديث رسول الله - ﷺ -^(٢).

وكذا الألفاظ فقد ورد استخدامها من الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، ومن ذلك: أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، احملني، وقال النبي - ﷺ - «إنا حاملوك على ولد ناقية» قال: وما أصنع بولد الناقية؟ فقال النبي - ﷺ -: «وهل تلد الإبل إلا النوق»^(٣).

فالرسول - ﷺ - كان يعلم أن السائل لا يقصد بقوله: «احملني» أن يحمله على ولد الناقية، والرسول حين ألغز بذلك، إنما أراد أن يمازح الرجل فقط دون الوقوع في الكذب.

(١) الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، ٢/٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي

محمد البحايوي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، لبنان، ط٢، وجاء فيه: الثلاثة، يعني السن، والهت والبع في معنى الصب، إلا أن السن في سهولة، والهت في تتابع، والبع في سعة وكثرة.

(٢) انظر: غريب الحديث، للخطابي، ص ٦٤-٦٩. وغريب الحديث، للحري، ص ٩.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ماجاء في المزاح، ٤/٣٠٠. والترمذي في كتاب البر،

باب (٥٧)، ٤/٣٥٧.



الصياغة :

إن معظم المقامات - إن لم يكن كلها - صيغت بأسلوب السرد، فهذا البديع يبدأ مقاماته بقوله: «حدثنا عيسى بن هشام، قال...» ويورد المقامة على لسان الراوية، ويتخلل ذلك حوار بين الراوية والبطل، وبعض مقامات البديع صيغت بأسلوب قصصي مثل: المقامة المضيرية، والمقامة الصيمرية، كما قال ذلك د. جابر قميحة، وأضاف: «أما مقامته البشرية فقد صاغها بأسلوب ملحمي، وكثير من مقاماته لا يعدو أن يكون لقطة تصويرية لمشهد عابر، لا يزيد عن عشرة أسطر، كالمقامة القردية والمقامة الصفيرية.

وأما المقامة الحلوانية فمن أجمل المقامات بناءً وأرشقها حواراً، وتصلح أن تكون مسرحية فنية ذات مستوى واحد»^(١).

كما أن مقاماته - البديع - نثرية، وحظ الشعر فيها قليل، بل إن من المقامات لا مكان للشعر فيها نهائياً، مثل المقامة المضيرية، والشيرازية، والصيمرية، والدينارية.

ويأتي ابن نباتة بعده، ويكتب مقامته اليتيمة بالأسلوب نفسه، فيبدؤها بقوله: «حدث ابن إسحاق ومن معه من الرفاق»، وتقوم على الحوار بين بطل مقامته ومن حضر في مجلسه، وهي وإن كانت نثرية، فإنها تدور حول أجمل ما قيل من شعر في فصل الربيع، وهذا هو نصيب الشعر فيها.

ويسير على الخطى ابن ناقياً، فيصوغ مقاماته العشر بأسلوب السرد، يلي ذلك الحوار بين بطل المقامات وهو اليشكري، والراوية الذي يختلف في كل مقامة، فهو في الأولى بعض البادية، وفي الثانية بعض الفتاك، وفي الثالثة بعض الشاميين، وفي الرابعة بعض الأصدقاء، وفي التي تليها بعض الجوار، ومن ثم بعض المتكلمين، وتليها بعض أهل الأدب، وفي التاسعة بعض الكتاب، وفي الأخيرة بعض المجانين.

ومع أنها نثرية فإن إحداها لا تكاد تخلو من الشعر، وإن كان غالباً ليس له، وإنما يتمثل به.

(١) التقليدية والدرامية، ص ١٣١-١٣٢.



ويأتي الحريري فيصوغ مقاماته - أيضاً - كالبديع بطريقة السرد والحوار، إلا أن السرد هو الغالب والسائد سيادة كاملة، فهو يبدأ كل مقامة بقوله: «حدث الحارث بن همام»، ثم يدور الحوار بين البطل والراوية، وهي نثرية إلا أن للشعر فيها نصيباً.

أما أبوطلحة النعماني، فيبدأ مقامته بقوله: «حدثني بعض الإخوان»، ويدور الحوار بين الراوية والبطل، وهي للشعر أقرب منها للنثر، حتى إن صاحب الخريدة لطول القصيدة، لم يوردها كلها، إنما يذكر أبياتاً ويقول: «ومنها»، ثم يذكر بيتاً أو بيتين وهكذا؛ وفي ذلك يقول: «وقد أوردت منها الأكثر، وأدريت المعروف، وأبعدت المنكر»^(١).

أما الزمخشري فهو يبدأ مقاماته كلها بقوله: «ياأبا القاسم»؛ مخاطباً نفسه، واعظاً غيره، ومقاماته كلها نثرية، يتضمن ذلك بعض الشعر، إلا أنه قليل جداً، حتى إنه من قلته لم يذكر من المقامات الخمسين إلا في إحدى عشرة مقامة فقط هي المقامة: ٦، ١٠، ١١، ١٣، ١٥، ١٩، ٢٢ التي بدأها بأبيات من الشعر، ٣٠، ٣٧، ٤٠، ٤٢ كما أن مقامته الأخيرة «أيام العرب»، صيغت بأسلوب قصصي، بلغ السبع عشرة قصة، تصلح أن تكون كل واحدة منها مشهداً تمثيلاً وآخر مسرحياً.

ويأتي الأسواني، فيصوغ مقامته على لسان الراوي الذي لم يذكر اسمه بل بدأها بقوله: «كنت في عنفوان عمري وربعانه، وشرخ شبابي وعيسانه...»^(٢).

ويسرد الراوي المقامة التي كان الحوار فيها بين مجموعة من أهل الاختصاص، كل يشيد ويفخر بالعلم الذي أختص فيه، أما البطل فقد كان يسمع ولم يتدخل إلا بعد مضي فترة من الزمن.

والمقامة نثرية كلها، اللهم ستة أبيات تخللتها، وكانت في مكانها.

ثم يليهم ابن الجوزي الذي جعل لبطل مقاماته العقل، ورمز إليه، «بأبي التقويم»، دون وجود راوٍ مخصص كالهمداني والحريري، أو راوٍ مختلف كابن نباته،

(١) خريدة القصر وجريدة العصر، الإصهاني، ص ١٢.

(٢) المقامة الحصيية، للأسواني، ص ١ من المخطوط.



وابن ناقياء، وأبي طلحة النعماني، والأسواني، ومقاماته نثرية يتخللها الشعر الذي كان له نصيب كبير، حتى إن الأبيات التي ذكرت في مقاماته بلغت قرابة الألف ومائة بيت، كما قيل: «وقد اعتنى بالشعر في مقاماته، سواء ما كان من نظمه أو نظم غيره وقد بلغ به قرابة الألف ومائة بيت، فجاء معظمه رائعاً لطيفاً، واكب الأسلوب القصصي للمقامات»^(١).

وبعد هذا نخرج للنظر في أسلوب صياغة المقامات، والوقوف عند التراكيب المقامية، أو الجمل، في حد ذاتها.

وقد وجدنا فحول كتاب المقامة يصطنعون الجمل القصار المسجوعة، -ولن نركز على السجع الآن، ولكن نريد أن نلقي أضواء كاشفة على أسلوب المقامة- وكانت هذه الجمل القصيرة المسجوعة تنتهي بهما الصيغتان اللتان تشكلان طرفي السجعة فيها على مثال واحد في معظم الأحوال، بحيث تجمع بين السجع والمماثلة، وما يمكن أن يطلق عليه «الموازنة السجعية»، إلى جانب التزام ما لا يلزم في كثير من المواطن.

كقول البديع في المقامات المضيرية: «فأتى الغلام بالخوان، وقلبه التاجر على المكان، ونقره بالبنان، وعجمه بالأسنان»^(٢). فإن الخوان، والمكان، والبنان، والأسنان، ذات ميزان واحد من حيث عدد الحروف وتمائل الصيغ، ولم يجتريء البديع فيها بهذا التوازن وحده؛ لأنه لا يشبع نهمه من الموسيقى اللفظية، لذلك صاحب الموازنة اللفظية بالموسيقى المتمثلة في السجع.

وينبغي أن نمر حتى نلاحظ صورة صيغ الجمل التي كانت تشبهه، أو تكاد تشبهه، المصاريح الشعرية من حيث أعداد الكلمات، ومن حيث الموازين العامة، التي تأتلف منها، أرأيت أن الجمل الأربع تشكلت كلها من فعل وفاعل ومفعول به وختمت بالجار والمجرور: «بالخوان، على المكان، بالبنان، بالأسنان» تشكلاً متساوياً أو متقارباً في التساوي على الأقل، إلا الأولى منها فقد حذف المفعول به.

(١) أدب ابن الجوزي، أول خير عمر عيسى سراج، ص ٣١٣، عن ابن الجوزي ومقاماته

الأدبية، علي مهنا، ص ١٦٠. وابن الجوزي ومقاماته المخطوطة ٢٧٩، وهو كذلك.

(٢) ص ١٣٨، شرح محمد محي الدين عبد الحميد.



السجع^(١):

ولما كانت الصياغة تعتمد على الموازنة السجعية، كان لابد من البدء بالسجع الذي بدأ سلطانه يطغى على كتابات الكتاب منذ القرن الثالث، فلما جاء القرن الرابع، كان السجع لدى الكتاب هو المثل الأعلى الذي يحتذى^(٢). ولم يكن مرد ذلك تطور الحضارة العربية وأخذها بكل رقيق لطيف فحسب، بل إن فن الكتابة في حد ذاته، كان التطور الذي عراه يغري بتحديد الأشكال الكتابية، ومنها السجع الذي ران على جميع الأساليب الفنية، بعد أن كان يرد في الكلام، من قبل ذلك، عفواً.

فكان **البديع الهمداني** مضطراً بحكم ظروف عصره ومؤثراته العامة، إلى الانصهار في بوتقة هذا التيار الشكلي الجارف الذي كان قد أخذ يستبد بالنثر الفني استبداداً تاماً.

وقد ظل السجع مهيمناً على النثر الفني العربي نحو عشرة قرون. وقد ظلت المقامات هي مجاله الفسيح، ومرتعه الخصب؛ فقد استقبل كتاب المقامة فن السجع استقبالاً حسناً، فكان من أجل ذلك هو أخص خصائص أساليبهم في صياغة مقاماتهم. فهذا البديع الهمداني ترى سجعه مليحاً خفيفاً، رشيقاً، مقبولاً؛ لأن أثر التكلف عليه لا يكاد يبين، ولأن الهمداني لا يجعل السجع يحول بينه وبين تصوير ما كان يتغني تصويره من معان وأفكار، يقول د. عبد الملك مرتاض: «ولعل مرد توفيق البديع في ذلك إلى أسباب أهمها، في رأينا:

- ١- قرب البديع من عهد الطبع الأدبي.
- ٢- جودة محفوظه من الآثار الأدبية؟
- ٣- خفة روحه، وظرافة طبعه.
- ٤- قوة ذاكرته، وسرعة حفظه، وشدة تأثيره بما كان يحفظ.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع، د. زكي مبارك، ١/٦٤-١٠١.

(١) السجع، هو: تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد. انظر: الإيضاح، للقرظيني،

٥ - تعبيره عن تجاربه الشخصية، في مقاماته، ووصفه لما خبر من أشياء وأحياء، فكانت مقاماته مرآة لنفسه، قبل أن تكون مرآة لمجتمعه.

فإن الكاتب إذا تناول تجاربه بالكتابة، تيسر له التعبير عنها، فيكون أسلوبه أخف، وأحلى؛ لأنه صادر فيه عن صدق الشعور، وحرارة العاطفة^(١).

ولما كان السجع أحد مقاييس البراعة الفنية لدى كتاب القرن الخامس الهجري، فإننا لانكاد نجد - عند البديع في مقاماته - جملتين غير مسجوعتين، بل إنه يلتزم السجع بين أكثر من جملتين، فهذا هو ذا يقول: «هل تَرَوْنَ المَالَ إِلَّا عِنْدَ البُخْلَاءِ، دُونَ الكَرْمَاءِ، والجُهَالِ دُونَ العُلَمَاءِ»^(٢).

وتصل السجعات إلى ثلاث، في قوله: «وأقام النَّاجِمُ أياماً مُقْتَصِراً من لِسَانِهِ، على شُكْرِ إِحْسَانِهِ، ولا يَتَصَرَّفُ من كَلَامِهِ، إِلَّا في مَدْحِ أيامِهِ، والتحدُّثِ بِإِنْعَامِهِ»^(٣).

وقد يراعي هذه الموسيقى داخل الجملتين، كما نرى في المقامة التي يقول فيها: «وعلى كل حال، نُنْظَرُ من عالٍ، على الكريمِ نظرِ إِذْلالٍ، وعلى اللئيمِ نَظْرًا إِذْلالًا»^(٤) فهذا اتفاق موسيقي بين الكريم واللئيم، واتفاق موسيقي بين إِذْلالٍ وإذلال، وبين حالٍ وعالٍ.

وها هو ذا في مقامة أخرى، يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لم تَتْرَكُوا سُدَى، وَإِنَّ مَعَ اليَوْمِ غَدًا، وَإِنَّكُمْ وارِدو: هوةً، فأَعِدُّوا لها ما استطعتم من قُوَّةٍ، وَإِنَّ بَعْدَ المعاشِ مَعَادًا، فأَعِدُّوا له زادًا، أَلَا لَأَعْدَرَ، فقد بَيَّنَّتْ لكم المحجَّةُ، وأَخَذَتْ عليكم الحجَّةُ، مِنْ السَّمَاءِ بالخَبَرِ، ومن الأَرْضِ بالعَبْرِ، أَلَا وَإِنَّ الذي بَدَأَ الخَلْقَ عَلِيمًا، يُحْيِي العِظَامَ رَمِيمًا، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ جِهَازٍ، وَقَنْطَرَةٌ جَوَازٍ، من عَبَرَهَا سَلِمَ، ومن عَمَرَهَا يَدِمَ»^(٥).

حين نقرأ هذه المقامة، لانكاد ننكر من أسلوبها المسجوع شيئاً، فقد كانت

(١) فن المقامات في الأدب العربي، ص ٤٣٦-٤٣٧.

(٢) المقامة المطيلية، ص ٤٤١.

(٣) المقامة الناجمية، ص ٢٩٧.

(٤) المقامة الخلفية، ص ٣٠١.

(٥) المقامة الوعظية، ص ١٦٨-١٦٩.

كل سجعة تؤدي معنى خاصاً بها، ولم تكن السجعة الثانية خاضعة للأولى في معناها. والسجع هنا لم يسبب عناء، ولم يعقد معنى، ولم يحل بينك وبين تتبع الفكرة العامة للمقامة بدون دوران ولاضياح بين أسجاع هائمة حيرى، بل إن المعاني كانت تنساب هادئة مطمئنة، لاقلق فيها ولااضطراب؛ لأن التكلف في اصطناع السجع -عند البديع- ضئيل قليل، فكأنه كان يصدر في تلك الأسجاع الرشيقة عن طبع لا عن تطبع وتكلف.

ولذلك لم يحل هذا السجع عنده بين التصوير البياني الرائع، والوصف النفسي الدقيق. فقد كان البديع أحياناً يتسامى بسجعه إلى ذروة الكمال السامقة.

كما أن أسجاعه لم تكن باردة، ولاثقيلة، ولاركيكة، بحيث تتعثر بها المعاني، وتدور دوراناً عميقاً، وتضطرب اضطراباً مزرياً، بل إنها كانت حارة معيرة قوية تخدم المعاني، وتنسجم مع انسيابها في الكلام، كما أن الألفاظ التي تأتلف منها هذه الأسجاع كانت موضوعة على قدر المعاني لاتزيد ولاتنقص^(١).

تأمل معنى قوله: «اشتھيتُ الأزاد، وأنا ببغداد، وليس معي عقْدٌ، على نقْدٍ، فخرجتُ أنتهزُ محالهُ حتى أخلّي الكرخ، فإذا أنا بسوادِي يسوقُ بالجهْدِ جماره، ويَطْرَفُ بالعقدِ إزاره، فقلتُ: ظفِرْنَا واللهِ بصيْدٍ، وحيَاكَ اللهُ أبا زيدٍ، من أين أقبَلتُ؟ وأين نزلتُ؟ ومتى وافيتُ؟ وهلمَّ إلى البيتِ»^(٢).

هل استمعت إلى موسيقى السجع، والازدواج، تنبعث هادئة، عذبة من خلال المقاطع القصيرة، وال فقرات المتعادلة المتوازنة.

(١) انظر: فن المقامات، عبد الملك مرتاض، ص ٤٣٨-٤٤٠.

(٢) المقامة البغدادية، ص ٧٠. الأزاد: نوع من التمر الجيد، المحال: جمع محلة، والمراد بها الأماكن التي يوجد بها الأزاد، انتهز: أتمس وأقصد. انظر: اللسان، مادة أز، حل، نهز. الكرخ: محل ببغداد، معجم البلدان، الحموي ٤/٤٤٧. السوادى: المراد رجل من أهل السواد، والسواد: ريف العراق وقراه. انظر: معجم البلدان، الحموي ٣/٢٧٢.



وفي مقامة أخرى يقول: «فها نحن نرتضع من الدهر ثدي عقيم، ونركب من الفقر ظهر بهيم، فلانرنو إلا بعين اليتيم، ولانمد إلا يد العديم، فهل من كريم؟...»^(١).

وابن نباتة يخطو خطى كتاب قرنه، فيعمد إلى ما يعمدون، ويطرز مقامته بالسجع منذ بدايتها، فيقول: «حدث ابن إسحاق، ومن معه من الرفاق، قال: إن مما سارت به الركبان، وتحدثت به الأقران، شيخ من ذوي الأدب، تنسل إليه الطلاب من كل حدب»^(٢)، فالسجع واضح بين إسحاق والرفاق، والركبان والأقران، والأدب وحدب، والأذن لاتنفر منها بل تجدها قد وضعت في مكانها دون تكلف ولا تصنع، فأدى إلى توازن موسيقي، وصاحب ذلك تماثل، فكلمة إسحاق، ورفاق، وكذا ركبان وأقران تماثل إحداهما الأخرى في عدد الحروف، وهي ذات ميزان واحد، وهذا التماثل في الصيغ زاد في النعمة الموسيقية التي أداها السجع.

ولا يلتزم ابن نباتة السجع بين جملتين فقط، بل قد يلجأ إليه بين أكثر من الجملتين، والثلاث، فها هو ذا يقول: «أيكم يخرق الحجاب، ويفهم الخطأ من الصواب، ليستمع الجواب، بعجيب الخطاب»^(٣)، فالسجع بين الحجاب، والصواب، والخطاب، والجواب، فهي متماثلة في عدد الحروف، وقد وقعت الكلمة المسجوعة في اثنتين منها مفعولاً به: «الحجاب، الجواب»، واثنتين مجرورة، إحداها بحرف جر «بالصواب»، والأخرى بالإضافة «الخطاب».

والسجع لم يعقد المعنى، ولم يُخل به، بل القاريء ينساب خلف المعاني، فيقرؤها دونما تعب.

وابن ناقياً كسابقه، لجأ إلى السجع؛ لأنه الحلية التي لاغنى له عنها، فمقاماته كلها تنكيء عليه، بل إن مقامة من مقاماته العشر لا تخلو منه، ولم لا وهو يمثل كتاب

(١) المقامة البخارية، ص ٩٦.

(٢) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ١ من المخطوط.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

عصره؟ فيها هو ذا يقول من بدء مقاماته: «وَالزَّمانُ صَافِيٌّ، وَالنَّهارُ رَاسِفٌ»^(١)، وقوله: «أَخْرَجَ حَنِيداً يَنْضَحُ أَوْ دَاكاً، وَيَتَهافتُ نَضْحاً وَإِدْرَاكاً»^(٢)، فلعلك تلاحظ السجع بين كل جملتين في قوله: صايف وراسف، وفي قوله: أوداكاً وإدراكاً.

وفي مقامة أخرى يقول: «فَأضْرِبَ عَنِ المِراجِعَةِ، وَوَدَّى عَنِ المِدادِفَةِ»^(٣)، ويقول: «فَرَأَيْتُ بَعْضَ سَنَكِهِ، يَقومُ بِبَعْضِ إِفْكِهِ»^(٤)، فهو لم يتكف بالتمائل في صيغ السجعات «المراجعة، والمدافعة»، بل عمد إلى التماثل في الجمل، فكلتاها جملتان فعليتان، صدرتا بفعل حذف فاعله، وانتهتا بالسجع المجرور بحرف الجر (عن)، مما زاد في إظهار الموسيقى الناتجة عن السجع.

وقد يلجأ إلى أكثر من تسجيعة كقوله: «وَإِذا شَخِصَ قَدْ ظَهَرَ، لَمْ يَنْتَظِمُ مِثْلَهُ بِسَلْكِ النَّظَرِ، وَلا وَقَعَ لِي أَنَّهُ مِنَ البَشَرِ، مِشْتَمِلاً ضَافِي الوَبَرِ، يَتَطايرُ مِنْ فَمِهِ شِواظُ الشَّرِّ»^(٥). فلعلك لاحظت أنه اعتمد على خمس تسجيعات، لاثشعر وأنت تقرأ المقامة باختلال في المعنى مرده افتعال وتصنع وجري وراء السجعات.

ويعمد ابن نايقا في سجعه إلى أن تكون -غالباً- متماثلة في الإعراب: الرفع، أو النصب، أو الجر، ومن ذلك قوله: «فانخرطتُ معه في سلكِ الطريقِ، وقارنتُهُ كَالرَّفِيقِ»^(٦)، وقوله: «فَدَعَوْنَاهُ إِلى الطَّعامِ، فَتَناقَلَ عَنِ المَقامِ»^(٧) فالسجع بين الطريق والرفيق، وبين الطعام والمقام، وكلها مجرورة، وعلامة جرهما الكسرة.

ونجد أيضاً عند الحريري النهج نفسه الذي سار فيه البديع في تركيب الجملة؛ فهي متوازنة ومسجوعة، وقد يعمد للزوم ما لا يلزم، فيها هو ذا يقول في مقامته الأولى

(١) المقامة الأولى، من مقامات ابن نايقا العشر، ص ١.

(٢) المقامة والصفحة نفسها.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٣.

(٦) المقامة نفسها، ص ٤.

(٧) المقامة (٣): المقامات العشر، لابن نايقا، ص ٧.



(الصنعانية): «يَوَاقِيْتُ الصَّلَاتِ، أَعْلَقُ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيْتِ الصَّلَاةِ، وَمُغَالَاةُ الصَّدَقَاتِ، آثَرُ عِنْدَكَ مِنْ مَوْالَاةِ الصَّدَقَاتِ، وَصِحَافِ الْأَلْوَانِ، أَشْهَى إِلَيْكَ مِنْ صَحَائِفِ الْأَدْيَانِ، وَدَعَابَةِ الْأَقْرَانِ، آنَسُ لَكَ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ»^(١).

فبإلقاء نظرة عامة على نص الحريري نجد أن معظم الكلمات التي اختتمت بها الجمل فيه متوازنة، أي متحدة في الميزان، ومسجوعة، أي متحدة في التقفية.

بالإضافة إلى الصيغ الداخلية المتوازنة التي كثيراً ما تشبه مصاريع الشعر، وذلك نحو ما نجد في قوله: يواقيت الصلوات، أعلق بقلبك من مواقيت الصلاة، ومغالاة الصدقات، آثر عندك من موالاة الصدقات.

فماذا تلاحظ على هذه الصيغ التي تنتهي بها الجمل؟

إنها في كثير منها جاءت على مثال واحد من حيث وزنها، «(فيواقيت)» تماثل «(مواقيت)»، و«(الصلوات)» تماثل «(الصلاة)»، و«(مغالاة)» تماثل «(موالاة)»، و«(أعلق)» تماثل «(آثر)»، و«(الصدقات)» تماثل «(الألوان)» تماثل «(الأديان)»، و... هلم جرا.

ونحن لا نريد إلى الموازنة البديعية التي يجب أن تماثل الصيغ من حيث الميزان دون التقفية، فإن ذلك شيء آخر، وإنما نريد إلى هذه الألفاظ التي تنتهي بها جمل المقامة من حيث إنها تعول على السجع أولاً، ثم على لزوم ما لا يلزم في كثير من الأحوال ثانياً، ثم على تماثل اللفظين الأخيرين من الجملتين المتجاورتين ثالثاً.

ولما كان السجع هو المعتمد والمتكأ الذي يتكئ عليه كتاب المقامة - كما أسلفنا - وجدنا الحريري ومع وفرة الثروة اللغوية عنده، ومع تمكنه من ناصية اللغة فإن أسلوبه لا يخلو من الثقل؛ لتعمده الإتيان بالغريب، وتوالي الجمل المعيرة عن المعنى الواحد، وتقيدتها بالسجع والجناس، ومن ذلك قوله في المقامة المرامية:

«يُنْبِيءُ تَحَازُرُ طَرْفِهِ، وَتَشَامُخُ أَنْفِهِ أَنَّهُ مُخَرَّبُ لَيْنَبَاعٍ، وَجُرْمُزُ سَيْمُدِ الْبَاعِ، وَنَابِضُ بَيْرِي النَّبَالِ، وَرَابِضُ بَيْغِي النَّضَالِ، فَلَمَّا ثَلَّتْ الْكِنَائِنُ، وَفَاءَتْ السَّكَلَانُ، وَرَكَدَتْ الزَّعَاذِعُ، وَكَفَّ الْمَنَارِعُ، وَسَكَنَتِ الزَّمَاجِرُ، وَسَكَتَ الْمَرْجُورُ وَالزَّاجِرُ، أَقْبَلَ

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي، ٦٢/١.

عَلَى الْجَمَاعَةِ، ...»^(١).

لعلك لحظت أن السجع عند الحريري لم يكن خادماً للمعنى، بل إنه كان لايبالي أن تضرب المعاني، فهو لا يعدل عن السجع أبداً في مقاماته؛ لذا خرجت أسجاعه في جملتها مثقلة بألوان من التكلف الشديد، فإذا هذه الأسجاع الحريرية لا تخدم المعاني، بل انها تتخذها لها سخرياً.

وانظر إلى هذه السجعات في مقامة أخرى له: «فإنه وإن كان أسلف الجريمة، وتمنم النيممة، فمن غيمه انهلت هذه الديمة، وبسيفه انحازت لي هذه الغنيممة، وقد خطر بيالي أن أرجع إلى أشبالي، واقنع بما تسنى لي، وأن لا أتعب نفسي ولا أجمالي...»^(٢).

فهو لم يكتب بسجعتين أو ثلاث، بل يلزم نفسه - غالباً - بأكثر من ذلك كما لحظنا، فقد ألزم نفسه بخمس سجعات: الجريمة • النيممة - غيمه - الديمة، الغنيممة.

وكذا في الجمل التي تلتها تأمل كيف ختم كل جملة بسجعة، التزمها في الجملة التي تليها: أشبالي - تسنى لي - أجمالي .

وتأمل قوله في مقامة أخرى: «هلاً انتهجت محجة أهتدائك، وعجلت معالجة دائك، وقللت شباة اعتدائك، وقدعت نفسك فهي أكبر أعدائك»^(٣).

وقوله: «وصحاف الألوان، اشهى إليك من صحائف الأديان، ودعابة

(١) المقامة المراهية، ٢٢٥/١ شرح الشريشي .

تخازر طرفه: كسر عينيه بالنظر، وتخازر: نظر بمؤخر عينيه، مخربق: متهيء، وقيل: المخربق الساكت على السوء، لينباع: ليظهر الذي في ظنه من الشر، مجرمز: منقبض، نابض: رام، رابض: مضطجع، ثلث: نفضت وصب مافيهما، الكنائن: الجعاب وهي، أوعية السهام، فاءت: رجعت، السكائن: جمع سكنية، وهي الوقار، ركدت: سكنت، زعازع: الرياح الشديدة المزلزلة، كف المنازع: أمسك المخالف. انظر: اللسان، مادة: خرز، نبع، حرق، نبض، ربض، نثل، كن، ماء، سكن، ركد، كفف.

(٢) المقامة السنجارية، ٣٥١/٢ شرح الشريشي.

(٣) المقامة الصنعانية، ٥٩/١، شرح الشريشي.



الأقْران، أَنَسُ لَكَ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ»^(١).

وقوله : «فَوَجَدْتَهُ مُثَافِنًا لَتِلْمِذٍ، عَلَى حُبْرٍ سَمِيدٍ، وَجِدِّي حَنِيدٍ، وَقَبَّالْتَهُمَا خَايِيَةَ نَبِيذٍ»^(٢)، وتصل السجعات إلى ست في قوله: «أَقْسَمَ بِالسَّجَمَاءِ ذَاتِ الْأَبْرَاجِ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْفِجَاجِ، وَالْمَاءِ الثَّجَاجِ، وَالسَّرَاجِ الْوَهَّاجِ، وَالْبَحْرِ الْعُجَّاجِ، وَالْهَوَاءِ وَالْعُجَّاجِ»^(٣)، وقد يراعي هذه الموسيقى داخل الجملتين كما نرى في المقامة التي يقول فيها: «الكَرْمُ - ثَبَّتَ اللَّهُ جَيْشَ سَعُودِكَ - يَزِينُ، وَاللُّؤْمُ - غَضَّ اللَّهُ جِحْنَ حَسُودِكَ - يَشِينُ»^(٤)، فهنا اتفاق موسيقي بين الكرم واللؤم، واتفاق موسيقي بين سعودك وحسودك، وبين يزين ويشين.

والنعماني اتكأ كثيراً على السجع، فلا تقرأ مقامته حتى تجده قد لجأ إليه بين أكثر من جملتين، بل من بدايتها اعتمد على أربع سجعات؛ ليدل على طول بابه في ذلك، فيقول : «حَدَّثَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ، قَالَ: نَشْتُ بِي قَرَارَاتُ الْكَرْمِ بِيغْدَانِ، لِتَوَاتُرِ نُوبِ الزَّمَانِ، وَاخْتِلَافِ أَرْبَابِ السُّلْطَانِ»^(٥)، وتلاها بخمس سجعات في قوله: «وَأَنَا يَوْمَئِذٍ ذُو غَلٍ قَمَلٍ، وَوَرْدٍ وَشَلٍ، وَقَلْبٍ وَجَلٍ، وَهَمٍّ مُتَّصِلٍ، وَجَذَلٍ مُنْفَصِلٍ»^(٦)، وأكمل بأربع سجعات في قوله «فَشَحَذَتْ غَرَارَ الْعَزْمَةِ، فِي رَكُوبِ غَارِبِ الْغَرِيبَةِ، وَالْأَخْذِ فِي تَنْفِيسِ الْكَرْبَةِ، وَتَحْقِيقِ الْوَثْبَةِ»^(٧).

فالسجعات الأربع الأولى: الإخوان، بيغدان، الزمان، السلطان، كلها جاءت مجرورة. وكذا السجعات الخمس: قمل، وشل، وجل، متصل، منفصل، كلها مجرورة

- (١) المقامة نفسها، ٦٢/١.
- (٢) المقامة نفسها، ٦٩/١، مثافناً: مجالساً، سميد: أبيض، حينئذ: سمين مشوي، انظر: اللسان، مادة: ثفن، سمذ، حنذ.
- (٣) المقامة الدمشقية، ص ٩٥، ت: يوسف بقاعي، الشجاج: المتدفق، انظر: اللسان، مادة: ثجع.
- (٤) المقامة المراغية، ص ٥٢، ت: يوسف بقاعي.
- (٥) حريدة القصر وحريدة العصر، للأصبهاني، ص ٤، ٥.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٥، الغل: جامعة توضع في العنق أو اليد، وأصله أن الغل يكون عليه شعر فيقمل، انظر: اللسان، مادة: غل.
- (٧) المصدر والصفحة نفسها، الغرار: حد السيف، انظر: اللسان، مادة: غرر.

أيضاً، ومثل ذلك في : العزمة ، والغربة، والكربة، والوثبة، فقد أدت هذه السجعات المتواليات إلى هذا اللون الموسيقي الذي تطرب له الأذن.

ونجد الزمخشري يسير كما سار كتاب المقامات على نفس نهج البديع في تركيب الجملة المقامية؛ فمعظم الكلمات التي يختتم به الجمل متوازنة، ومسجوعة، بالإضافة إلى التزامه الصيغ اللفظية التي تجعله يعمد إلى لزوم مالايلزم، كما في مقامته التي يقول فيها : « ياأبا القاسم تَبْتَلَّ إِلَى اللَّهِ، وَخَلَّ ذَكَرَ الْخَصْرَ الْمَبْتَلَّ، وَرَتَلَ الْقُرْآنَ، وَعَدَّ عَنْ صَفَةِ الشَّعْرِ الْمَرْتَلَّ. أَدِرْ عَيْنَكَ فِي وَجْهِ الصَّلَاحِ لِتَعْلَقَ أَصْلَحَهَا. لِأَيِّ وَجْهِ الْمِلَاحِ، لِتَعَشَّقَ أَصْبَحَهَا»^(١).

أو ليست لفظة «تبتل» تماثل «رتل»، و«خل» تماثل «وعد»، و«الخصر» تماثل «الشعر»، و«المبتل» تماثل «المرتل»، و«الصلاح» تماثل «الملاح»، و«أصلحها» تماثل «أصبحها».

ولعلك لحظت أن الصياغة في أسلوب هذه المقامة، ومعظم مقامات الزمخشري لاتقنع بالموازنة التي تتم بدون تقفية، أضف إلى ذلك لزومها مالايلزم كما رأيت في المقامة السالفة.

والزمخشري كغيره من كتاب القرن الخامس الهجري المولعين بالمحسنات البديعية، والتي على رأسها السجع الذي عول عليه كثيراً كقوله : «كَذَلِكَ الدَّوَاءُ الإِلَهِيُّ النَّافِعُ، وَالشِّفَاءُ السَّمَاوِيُّ النَّاجِعُ»^(٢)، فلعلك لحظت الاتفاق الموسيقي بين الدواء والشفاء، بين النافع والفاجع.

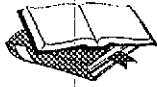
والقاريء لمقامات الزمخشري، يجد سجعه لم يسبب عناء، ولم يعقد معنى، ولم يحل بينه وبين تتبع القاريء للفكرة العامة التي تدور حولها المقامة.

وتلحظ هذه الموسيقى في معظم السجعات التي يعول عليها الزمخشري، انظر قوله : «وإِيَّاكَ أَنْ تَتَنَاطَرَ دَارًا كَمَا، أَوْ تَتَرَاءَى نَارًا كَمَا»^(٣).

(١) المقامة (١٢) : الطاعة للزمخشري، ت: يوسف بقاعي، ص ٧٣.

(٢) المقامة (١٣) / المنذرة، ص ٨١.

(٣) المقامة (٢٢) : الولاية، ص ١٣٨.



فهناك اتفاق موسيقي بين تتناظر ، وتتراعى، وآخر بين دارا كما ونارا كما.
وكذا قوله: «أَرْضٌ مُدَلَّلَةٌ لِرَاكِبِهَا، مُقْتَلَةٌ لِلْمَشِيِّ فِي مَنَاكِبِهَا»^(١)، فالإتفاق بين
كلمتي مدللة ومقتلة، وقوله: راكبها ومناكبها.

وفي قوله: «اِخْتَلَسَهُ الْحُمَامُ قَبْلَ أَنْ يَخْلِسَ عَارِضُهُ، وَهَيَّجُ قَبْلَ أَنْ يَهَيِّجَ
بَارِضَهُ»^(٢)، أُلست تلحظ أن هناك اتفاقاً موسيقياً مرده تلك السجعات، فبين قوله:
أن يختلس وأن يهيج، اتفاق موسيقي، وكذا في قوله عارضه وبارضه ظهر هذا الاتفاق
الموسيقي.

وهذا الأسواني قد عمد إلى التسجيع بين كلمة الاغتراب، والإياب، والجناب
في قوله: «أَشْتَقُّ إِلَى الْاِغْتِرَابِ، شَوْقَ الْغَرِيبِ إِلَى الْإِيَابِ، وَأَصْبُو إِلَى مُفَارَقَةِ
الْجَنَابِ»^(٣). وبين كلمة: الوطن والأفن والكفن في قوله: «وَأَرَى مَلَاذِمَةَ الْوَطَنِ، بَحْلَبَةً
لِلْأَفْنِ، وَمَشْبَهَةَ لِأَدْرَاعِ الْكَفْنِ»^(٤). وبين كلمة: تغريب وتأديب في قوله: «حتى
فلوت الفلوات تشريقاً وتغريباً، وأبدت قوى البيد إسآداً وتأويلاً»^(٥). وبين كلمة
تشديد وبعيد في قوله: «فحيانا تحية تشديد، وجلس منا غير بعيد»^(٥).

وبين كلمة: فتاويه، ويرويه، في قوله: «كَمْ يَأْمَنُ أَنْ يَأْتَمَّ فِي فِتَاوِيهِ، وَيَلْحَنَ
فِيمَا يَرُويهِ»^(٥). وبين كلمة: الناضح والفاضح، في قوله: «مَا هَذَا الْجُمُودُ النَّاضِحِ،
وَالْفَجْرُ الْفَاضِحِ»^(٦). وبين كلمة: هواه واخترناه، في قوله: «فَنَزَلْنَا عَلَى حُكْمِ هَوَاهُ،
وَأَنْزَلْنَاهُ مَسْجِداً اخْتَرْنَاهُ»^(٦).

كل هذه السجعات دللت على اعتماده كلياً على السجع في صياغة مقامته،

(١) المقامة (١٦): التوحيد، ص ١٥٨.

(٢) المقامة (٣٨): الموت، ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) ص ١ من مخطوط المقامة الحصيية، للأسواني، الأفن: نقصان العقل، انظر: اللسان،
مادة: أفن.

(٤) المقامة والصفحة نفسها .

(٥) ص ٢ من المخطوط.

(٦) ص ١١ من المخطوط .

ولا نجد بسببه إخلالاً بالمعنى.

أما عن تركيب الجملة في مقامات ابن الجوزي، فنجده كسائر كتاب المقامات من حيث إن معظم الكلمات التي يختتم بها الجمل متوازنة، ومسجوعة، ربما يعمد أيضاً إلى لزوم ما لا يلزم. فها هو ذا في إحدى مقاماته يقول: «فَدَخَلْتُ مَدِينَةَ حَصِينَةَ، وَرَأَيْتُ أُنْبِيَةَ رَضِينَةَ»^(١)، ألا ترى أن لفظة «مدينة» تماثل «أبينة»، ولفظة «حصينة» تماثل «رضينة»، أضف إلى ذلك أن كلا الجملتين تصدرها الفعل الماضي متصل به فاعله الضمير البارز (التاء) فالأولى تصدرها الفعل والفاعل «دخلت»، والثانية بقوله «رأيت».

وهذا مثال آخر في مقامة أخرى، يقول فيها: «تَكَاسَلُوا عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنْ صَلَّوْهَا نَقَّصُوا، وَأَهْمَلُوا جَانِبَ الزَّكَاةِ، فَإِنْ أَخْرَجُوهَا أَنْتَقَصُوا»^(٢).

فلعلك لحظت أن لفظة «تكاسلوا» تماثل «أهملوا» فكلاهما فعل اتصلت به واو الجماعة، والجملة الطليبية «فإن صلوا نقصوا» تماثلها جملة «فإن أخرجوها انتقصوا». وقس على ذلك الكثير الكثير، كقوله في المقامة نفسها يصف النار: «عقابها عميم، وشرابها حميم، وعذابها أليم»^(٣).

وقوله: «فِيهَا السَّلَاسِلُ، وَالْأَغْلَالُ، وَالْمَقَامِعُ، وَالْأَنْكَالُ»^(٤).

فالتسجيع بين عميم، وحميم، وأليم في المثال الأول. وبين السلاسل، والأغلال، والأنكال في المثال الأخير. وكذا بين أويس وقيس، في قوله: «تَدَخَّلُ فِي دِنَارِ أُوَيْسٍ، وَتَخْرُجُ فِي شِعَارِ قَيْسٍ»^(٥).

وبين أشعب وتعب، في قوله: «وَلَا تَكُنْ كَأَشْعَبٍ تَتَعَبُ»^(٦).

(١) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، ص ٢٥٣.

(٢) المقامة (٤٤): في الوعظ ص ٣٥٩.

(٣) ص ٣٦٠.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، مقامات ابن الجوزي، ص ٧٩.

(٦) المقامة (٣٧): في العزلة، مقامات ابن الجوزي، ص ٣٠٢.

وبين الجلوة والخلوة، في قوله: «هَذِهِ حَالُكَنِّ مَعَهُ فِي الْجُلُوتِ، فَكَيْفَ أَكُونُ أَنَا فِي الْخُلُوتِ؟»^(١).

وعليه فإننا نلاحظ أن المقامين آثروا استخدام السجع لأسباب ذكرها أحدهم حين سئل: «لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن فقال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولاضاع من الموزون عشره»^(٢).

ونخلص إلى أن السجع فيه المذموم، وفيه المقبول، فالسجع المذموم هو المتكلف، وقد قيل: «عاب - ﷺ - سجع الكهان، لما فيه من تكلف في اللفظ، وتشادق في النطق»^(٣)، والرسول - ﷺ - دعا إلى التزام السهولة في الكلام، وعدم التكلف في النطق، ونهى عن التشادق والثرثرة، فقال: «أبغضكم إلى الثرثارون المتشددون المتفيهقون»^(٤).

وكتاب المقامة التزموا بذلك إلا البديع والحريري؛ فالتكلف في السجع ظاهر لديهم فخرجوا عما حث عليه الرسول - ﷺ - والتزمته السنة، وأوصى به رسول الله - ﷺ -.

(١) المقامة (١٥): في الخائفين، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٥.

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ، ١/١٥٨-١٥٩.

(٣) مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د. الشحات محمد أبوستيت، ص ٩، ط ١، ١٤١١هـ -

١٩٩١م، مطبعة الأمانة، مصر.

(٤) رواه أحمد في مسنده، ٤/١٩٣، ١٩٤ز



الجناس :

بين اللفظين هو: «تشابههما في اللفظ، والتام منه: أن يتفقا في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها ... فإن اختلفا في أعداد الحروف فقط، سمي ناقصاً»^(١).
فإذا ما انتقلنا إلى هذا الفن عند البديع لمسنا منه الصميم، بل كان غالباً على أسلوبه، فإن عمد إلى مداعبة الألفاظ، وتلاعب بها رغبة في إظهار المقدرة، بدا تكلفه وسقطت رتبته.

يقول د. محمد نبيه حجاب: «ليست هذه صفة البديع في إبداعه، وإنما هي نزوة قلب، ورياضة عقل، وخطرة نفس، وشطحة قلم، تمسك عنها القلم إنصافاً لمن أطراه الحريري والثعالبي، والحصري: «هذا اسم - أي البديع - وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، كلامه غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً»^(٢)»^(٣).

إذن فالبديع لم يكن يطلب الجناس بالحناف، وإنما كان يقع له عفواً كما يقع لأي كاتب غني التعبير، ومن ذلك قوله: «بلغتُ الوَطَنَ، وقضيتُ الوَطَرَ»، فإنه لو قال: وقضيت الحاجة، أو الأرب، أو اللبانة، أو المأرب، مثلاً، لجاءت موسيقى الجملة الثانية نائية قلقة، بإزاء الأولى. فهدف هذه التجنيسة أولى له أن يكون لإقامة «الموازنة».

هذا إلا أن هذه التجنيسة ليست تامة، وإنما غير تامة كما هو واضح، إذ اتفق اللفظان في الواو، والطاء، واختلفا في النون، والراء، فهما من الجناس المضارع «وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وهما متقاربان في المخرج»^(٤).

(١) الإيضاح ، للقزويني، ص ٥٣٥-٥٣٨.

(٢) زهر الآداب، للحصري، ص ٣٠٧، ط ١.

(٣) بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص ٣٤٧، المطبعة الفنية الحديثة. ط ١، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م. المطبعة الفنية الحديثة.

(٤) علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٥٣.

وكذا قوله في المقامة المضيرية: «لكنّها أوسع مِنِّي خلقاً، وَأَحْسَنُ خلقاً»^(١)، وبالرغم من أن هذه التجنيس غير تامة ونوعها محرفة؛ «لأن اللفظين اختلفا في هيآت الحروف أي في الحركات والسكنات»^(٢)، فإنها لاتدل على أن البديع أعيته نفسه ليأتي بها، فهي قد تقع للناس جميعاً بدون تكلف ما.

ثم كقوله، وهو يتحدث عن مجنون: «مَاهَذَا، وَاللّٰهُ إِلَّا شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ»^(٣). وكذا في قوله وهو يتحدث عن بشر بن عوانة: «وَحَلَفَ لَأَرْكَبَ حِصَانًا، وَلَا تَزُوجَ حِصَانًا»^(٤)، فبين حصان، وحصان جناس غير تام، وهو محرف، وارد بالأولى (بكسر الحاء): الفحل من الخيل والثانية (بفتح الحاء)؛ فيقال امرأة حصان: أي عفيفة بينة الحصانة^(٥).

وقوله: «كَمْ تُقَدَّرُ يَا مَوْلَايَ أَنْفَقْتُ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّاقَةِ؟ أَنْفَقْتُ وَاللّٰهُ عَلَيْهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ»^(٦)، فالجناس تام بين الطاقة الأولى والمراد بها النافذة، والثانية: أي فوق القدرة والإمكان، من قوله أطاق الشيء إطاقاً وهو في طوقه: أي في وسعه^(٧). ونوعه جناس مماثل «وهو ما اتفقت فيه الكلمتان المتجانستان في نوع الأحرف وعددها وهيأتها وترتيبها وكانتا من نوع واحد من أنواع الكلمة اسمية أو فعلية أو حرفية»^(٨)، وهما هنا اسمان.

وهذا ابن نباتة الذي سيطر التجنيس على أسلوبه كباقي كتاب المقامة، فما هو ذا يقول في مقامته: «وَكُلٌّ مِّنْ نَّظَرِهِ انْغَلَبَ، وَعَادَتٌ فِضْتُهُ مَنْفُضَةٌ وَذَهَبُهُ ذَهَبٌ»^(٩).

-
- (١) ص ١٢٥.
 (٢) علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٥٦.
 (٣) المقامة المارستانية، ص ١٦٠.
 (٤) المقامة البشرية، ص ٤٨٤.
 (٥) انظر: اللسان، مادة: حصن.
 (٦) المقامة المضيرية، ص ١٢٧.
 (٧) انظر: اللسان، مادة: طوق.
 (٨) علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٤٨.
 (٩) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ١ من المخطوط، والشطر الثاني:
 * وكم مثلها فارقتها وهي تصفر * تضمين لبيت «تأبط شرا».



وكما في بيت من الشعر ينشئه في هذه المقامة نفسها :

ذَهَبٌ حَيْثَمَا ذَهَبْنَا ، وَدُرٌّ * * حَيْثُ دَرْنَا ، وَفِضَةٌ فِي الْفِضَاءِ^(١)

فقد جنس الذهب مع الذهب، والدر مع الدوران، والفضة مع الفضاء في بيت واحد. وكما في قوله:

وَفَارِقَتُهُ وَالطَّيْرُ صَافِرَةٌ بِهِ * * وَكَمْ مِثْلَهَا فَارِقَتْهَا وَهِيَ تَصْفُرُ^(٢)

فالتجنيس ظاهر في قوله : صافرة، وتصفر جناساً غير تام، ونوعه ناقص ((لاختلاف اللفظين في عدد الأحرف))^(٢).

وبين التوسم والتبسم، في قوله: ((تَمَّ أَطَالَ فِي الْجَمْعِ التَّوْسَمِ، وَأَبْدَى بَعْدَ الْعَبُوسِ التَّبْسَمِ))^(٣).

وفي قوله: ((وَقَدْ أَدْعَيْتُمْ مَادَعَيْتُمْ إِلَيْهِ مِنْ الْإِجَابَةِ، فَهَلُمُّوا إِلَى مَادَعَيْتُمْ، وَيَبْنُوا الْمَطْلُوبَ مِمَّا دَعَيْتُمْ))^(٤)، فقد جنس جناساً غير تام في قوله ((دعيتم))، فالأولى بمعنى ادعيت الشيء: زعمته لي حقاً كان أو باطلاً، والثانية من قول العرب: لو دعينا إلى أمر لاندعينا: أي لأجبننا^(٥).

وفي قوله: ((فَصَدَعَ بِأَشْهَرِ لَوْنِهِ، وَلَمْ يَغْيِرْهُ الْبَيْتُ عَنْ لَوْنِهِ))^(٦). فالجناس التام في قوله: لونه، فالأولى بمعنى هيئته التي كالسواد والحمرة. فلم تتغير، والثانية: بمعنى أنه لم يتلون فثبت على خلق واحد^(٧).

وهناك جناس غير تام، مضارع في قوله: ((فَوَجَدْتُهُ كَمَنْ يَشِيْعُ الظُّعْنَ،

(١) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ١ من المخطوط، والشطر الثاني :

(٢) علم البديع ، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٥٤ .

(٣) المقامة نفسها، ص ٨ .

(٤) المقامة نفسها، ص ٩ .

(٥) انظر: اللسان: مادة: دعا.

(٦) المقامة نفسها، ص ٥ .

(٧) انظر: اللسان: مادة: لون.



فَدَكَّرَنِي الطَّعْنَ»^(١) فالتجنيس بين الطعن والطعن، وكذلك بين: تتعسر وتيسر في قوله: «فجعلت أتوسم وجوه الأنكار وهي تيسر، وأتوهم حصول الأخطار وهي تتعسر»^(٢)، ويظهر الجناس غير التام اللاحق وهو «ماختلفت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وكانتا متباعدتين في المخرج»^(٣). في قوله أيضاً: «ماهذا التخلّف عن التخلّق بأخلاق القوم»^(٤) بين قوله: تخلف، وتخلّق. وبين معترك ومشترك، في قوله: «مأعرقت في المعترك، بغير النظر إلى خاص الأمور والمشترك»^(٥). وفي قوله: «عرفان الحق مريح للنفس، ومزيج اللبس»^(٦) فبين مريح ومزيج جناس غير تام مضارع.

وابن نايقا يلجأ أيضاً إلى الجناس في مقاماته العشر إلا أن الجناس غير التام هو الغالب والمسيطر، أما التام فلا نجد؛ إلا فيما ندر، ففي قوله: «فتناولت منها هناية هنية»^(٧) جناس غير تام بين هناية وهنية، ولاصه. وهناك جناس غير تام مضارع بين يمينا وكميناً في قوله: «توجست حساً يمينا، فتواريت منه كميناً»^(٨)، وقوله: «وهو ينشى زاده، وكلّ مزاده»^(٩)، وقوله: «مأشبه الجار بالدار»^(١٠)، وقوله: «أبشره بقرب الدار، والرقيق السار»^(١١)، فالجناس غير التام بين كل من: زاده ومزاده، والجار والدار، والدار والسار.

- (١) المقامة نفسها، ص ٥، ٦. إشارة إلى شطر البيت المشهور * ذكرني الطعن وكنت ناسيا*.
- (٢) المقامة نفسها، ص ٦.
- (٣) علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ص ١٥٣.
- (٤) المقامة والصفحة نفسها.
- (٥) المقامة والصفحة نفسها.
- (٦) المقامة نفسها، ص ٧.
- (٧) المقامة (١)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٢.
- (٨) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٣.
- (٩) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٦.
- (١٠) المقامة والصفحة نفسها.
- (١١) المقامة والصفحة نفسها.



أما إذا كان الحريري يلتزم السجع التزاماً كاملاً، حتى لانكاد نجد جملتين ملتزمتين بالسجع فإنه يهتم اهتماماً كبيراً بالجناس، حتى نراه أكثر المحسنات البديعية شيوعاً في مقاماته، وإنه ليرصف الجمل، وينشيء القصائد، ويحرص على أن يجيء في كل جملة أو جملتين، أو في كل بيت أو بيتين جناس ومن ذلك قوله يعظ ويؤنب المتعلق بالدنيا: «يَوَاقِينَتِ الصَّلَاتِ، أَعَلَّقَ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ»^(١). ويقول: «أَرَعَى الْجَارَ وَلَوْ جَارَ، وَأَبْذَلَ الْوَصَالَ لِمَنْ صَالَ»^(٢).

ولما كان الحريري كلفاً بالجناس، لم يكن يبالي أن تتعثر معاني الألفاظ، أو تثقل أسجاعه، وتسمح من أجل ذلك، إذ كان يؤمن بأن التجنيس من ألوان البديع الجميلة العالية معاً، ويدل على ذلك قوله في المقامة الشعرية: «إِنِّي مَوْلَعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ بِالتَّجْنِيسِ، وَأَرَاهُ لَهَا كَالرَّئِيسِ»^(٣).

فالتجنيس عند الحريري سيد المحسنات، بل رئيس أنواع البلاغة كلها، وهو رأي شخصي له، من أجل ذلك لم يرعو أن يذكر في هذه المقامة نفسها، زهاء عشرين بيتاً، كل بيت منها مشتمل على ألوان شتى من التجنيسات، التي لم تكن خفيفة مقبولة؛ لأنها لم تكن صادرة عن طبع ولكن عن تكلف وعنت. ومن ذلك قوله: «نَشَدْتُكَ اللَّهُ، أَلَسْتَ الَّذِي أَعَارَهُ الدَّسْتُ؟ فَقُلْتُ: لَا وَالَّذِي أَحَلَّكَ فِي هَذَا الدَّسْتِ، وَمَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ الدَّسْتِ، بَلْ أَنْتَ الَّذِي تَمَّ عَلَيْهِ الدَّسْتُ»^(٤).

فقد قالها الحاكم بعد أن خدعه أبوزيد وهرب، مخاطباً الحارث بن همام، مكرراً من أجل التجنيس لفظ «الدست» أربع مرات في مكان واحد، وهي كلمات متفقة في الحروف، مختلفة في المعنى؛ فالأول: معرب بمعنى اللباس، والثاني: للوسادة، والثالث: كرره بلا غناء لأنه بمعنى الأول، على حين اصطنع الدست، الرابع: للقمار،

(١) المقامة (١): الصنعانية، ص ٢١. ت: يوسف بقاعي.

(٢) المقامة (٤): الدمياطية، ص ٣٥. ت: يوسف بقاعي.

(٣) المقامة (٢٣)، ص ١٧٣. ت: يوسف بقاعي.

(٤) المقامة نفسها، ص ١٧٨.



فقد كان أحدهم إذا أخفق في اللعب ولم يفز قيل: «تَمَّ عَلَيْهِ الدَّسْتُ»^(١).

وقد حمل الحريري فن الجناس في هذه الفقرة ما لا يحتمل، وجشمه ما لا يطبق عليه، ولكن الحريري لم يأبه لركاكة الأسلوب، إذا استقامت له مثل هذه التجنيسات المتتالية، لأنه لم يكن يرى، ولا معاصروه من النقاد، أن مثل هذه الألوان البديعية مما يذم ويعاب. وهذا دأبه، فالحريري قد ألزم نفسه باقتفاء هذا المذهب، فلم تكذب تخلو مقامة من مقاماته الخمسين من فن الجناس الذي قد يأتي متكلفاً، وقد يأتي مقبولاً، كقوله: «يَطْلُبُ جَنَى الْأَسْمَارِ، لِأَجْنَى الثَّمَارِ، وَيَبْغِي مَلْحَ الْحَوَارِ، لِأَمْلَحَاءِ الْحَوَارِ»^(٢).

فقد جنس بين جنى، وجنى، والملح بمعنى الطرائف ونحوها، والملحاء وهي «لَحْمَةٌ وَسَطُ الظَّهْرِ بَيْنَ الكَاهِلِ والعَجْزِ، وَهِيَ أَطْيَبُ اللَّحْمِ»، ثم بين الحوار-، بكسر الحاء، والحوار بضمها وهو ولد الناقة قبل أن يستكمل عاما^(٣).

وفي قوله: «فَقَصَدْتُهَا وَأَنَا لِأَعْرِفَ بِهَا سَكْنَ، وَلَا أَمْلِكُ فِيهَا مَسْكناً... قَادِنِي الحِظُّ النَّاقِصُ، والجِدُّ النَّاكِصُ، إِلَى خَانَ يَنْزِلُهُ شَدَاذُ الآفَاقِ، وَأَخْلَاطُ الرُّفَاقِ، وَهُوَ لِنِظَافَةِ مَكَانِهِ، وَظَرَافَةِ سَكَّانِهِ، يُرَغَّبُ الغَرِيبُ فِي إِيْطَانِهِ، وَيُنْسِيهِ هَوَى أَوْطَانِهِ»^(٤) فقد جنس بين سكنا ومسكناً، والناقص والناكص، والآفاق والرفاق، ومكانه وسكانه، وإيْطَانِهِ وأوطانه جناساً غير تام.

وفي قوله: «فَأَقْسَمْتُ لَهُ بِالَّذِي جَعَلَهُ مُبَارَكاً أَيْنَمَا كَانَ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِمَّنْ خَانَ فِي خَانَ»^(٥). يظهر الجناس التام المماثل في كلمة «خان»: فالأولى: من الخيانة، والثانية: الخانوت أو صاحب الخانوت، فارسي معرب، قيل الخان الذي للتجار^(٦).

(١) انظر: اللسان، مادة: دست.

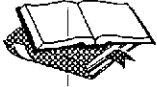
(٢) المقامة (١٦): المغربية، ص ١٢١، ت: يوسف بقاعي.

(٣) انظر: اللسان، مادة: جنى، ملح، حور.

(٤) المقامة (٢٩): الواسطية، ص ٢١٨، ت: يوسف بقاعي.

(٥) المقامة نفسها، ص ٢٢٥.

(٦) انظر: اللسان، مادة: خون.



وفي قوله : «واعروريت ظهر ابن النعامة، واجفلت نحوها إجحفال النعامة»^(١)،
جانس بين النعامة والنعامة جناساً تاماً، فالأولى: هي فرس الحارث بن عاد، والثانية: طائر،
تكون للذكر والأنثى، والنعام أيضاً بغير هاء الذكر منها الظليم، والنعامة الأنثى^(٢).

وفي قوله: «فَهَلْ لَكَ فِي رَفِيقٍ يَرْفِقُ بِكَ وَيَرْفِقُ، وَيَنْفِقُ عَلَيْكَ وَيَنْفِقُ»^(٣).
فالجناس غير تام محرف بين يرفق ويرفق فالأولى: من الرفقة، والثانية: من الرفق
العطف^(٤)، وبين ينفق وينفق، فالأولى: بمعنى يتخذ لعيوبك نفقاً، والثانية: من
الإنفاق^(٥).

وفي قوله :

((فَمَشْغُوفٍ بِآيَاتِ الْمَثَانِيِّ * * وَمَقْتُونٍ بَرْنَاتِ الْمَثَانِيِّ))^(٦)

فآيات المثاني : آيات سورة الفاتحة، قيل لها مثنان؛ لأنها يثنى بها في كل ركعة
من ركعات الصلاة، وتعاد في كل ركعة، وقيل: سميت آيات الحمد مثاني، واحدها
مثناة، وهي سبع آيات، قيل: لأنها تثنى مع كل سورة، وقيل غير ذلك. وأما المثاني
الثانية في قوله: «رئات المثاني»، فالمثناة: هي التي تسمى بالفارسية دوبيني، وهو الفناء،
والمثاني من أوتار العود: الذي بعد الأول، واحدها مثنى^(٧).

والنعماني أيضاً سلك إلى الجناس طريقه في مقامته، ما بين تام وغير تام، فمن
أمثلة الثاني قوله: «لَا حَ بِأَفْقِي الْمَرَادِ، وَوَقْفَ الْمَرَادِ»^(٨)، فالمراد: بفتح الميم المكان الذي
يذهب فيه، ويجاء، والمراد: ما يتمنى ويوافق الهوى^(٩).

- (١) المقامة (٣٩): الصورية، ص ٢٢٨.
- (٢) انظر: اللسان، مادة: نعم.
- (٣) المقامة (٣٣): التفليسية، ص ٢٦٠.
- (٤) انظر: اللسان، مادة: رفق.
- (٥) انظر: اللسان، مادة: نفق.
- (٦) المقامة (٤٨): الحرامية، ص ٣٩٨.
- (٧) انظر: اللسان: مادة: ثني.
- (٨) حريدة القصر وحريدة العصر، للأصبهاني، ص ٥.
- (٩) انظر: الحريدة، ص ٧، اللسان، مادة: درر.



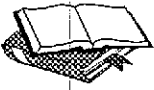
وقوله: «ذَهَابُ عَمَّارِهَا، وَأَخْرَجَ عَمَّارِهَا»، فالأولى يريد بها عمار المتغلبين على طرابلس الشام، وكان أول من ولي منهم طرابلس الشام، أمين الدولة الحسن بن عمار، وكان قاضي طرابلس فاستبد بالأمر فيها سنين، وملك مدينة جبيل، وعجز بدر الجمالي أمير الجيوش عن مقاومته، ولما توفي سنة ٤٦٤ هـ، قام مكانه ابن أخيه...^(١)، وعمارها الثانية: من قولهم: عُمراً: بالضم أي عاش زماناً^(٢).

وقوله: «فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَلِكٌ دَلَّ عَلَيَّ مَلِكٌ»^(٣)، فالأولى: من الملك والعز، والثانية: من الملائكة^(٤). وقوله: «نَبَأَ الْحَدَّ، وَعَثَرَ الْجَدَّ»^(٥). وقوله: «واعتصر أعصره، وَحَادَثَ أَحْدَاثَهُ»^(٦). وقوله: «مايُجِبُ عَلَيَّ سَعَادَ إِلَّا الْإِسْعَادُ»^(٧)، و«فَمَا أَعْرَفُ أَيْنَ سَلَكَ، وَلَا فِي أَيِّ نِصَاحٍ انْسَلَكَ»^(٨).

فلعلك لحظت أن بين الحد والجد جناساً غير تام لاحق، وكذا بين كل من: اعتصر وأعصره، وحادث وأحداثه، وبين سعاد وإسعاد، وسلك وانسلك، فقد جنس بينهم جناساً غير تام.

ولقد ضمن الزمخشري مقاماته أيضاً الكثير من الجناس بنوعيه التام وغير التام، يقول في إحدى مقاماته: «وَالَّذِي بَيْنَ دَفْيِهِ قَلْبٌ هَوَاءٌ، قَدْ تَيَاسَّرَتْهُ الشَّهَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ»^(٩).

-
- (١) انظر: الخريدة، ص ٧.
 (٢) انظر: اللسان، مادة: عمر.
 (٣) الخريدة، ص ١٦.
 (٤) انظر: اللسان، مادة: ملك.
 (٥) الخريدة، ص ٥.
 (٦) المصدر والصفحة نفسها.
 (٧) المصدر نفسه، ص ١٦.
 (٨) المصدر والصفحة نفسها.
 (٩) المقامة (١٠): التسليم، ص ٦٦.



فهواء، وأهواء بينهما جناس غير تام، وفي المقامة نفسها يقول: «قَدَّ رَانَ عَلَيَّ
قَلْبُهُ حُبَّ الدُّنْيَا رَيْنًا، وَزَانَهُ الشَّيْطَانُ فِي عَيْنِهِ زَيْنًا»^(١). فالتجنيس واضح بين ران ريناً،
وبين زان زيناً، إلا أنه جناس غير تام مضارع.

وفي مقامة أخرى يقول: «تَنْقِضِي عَنْكَ شُهُورَ سَنَتِكَ، وَأَنْتَ غَارِزُ رَأْسِكَ فِي
سِنَتِكَ»^(٢)، فبين سنتك الأولى وهي من السنين، وسنتك الثانية وهي من النوم جناس
غير تام محرف. وفي المقامة نفسها يقول: «رَأَكِضًا فِي تَيْهِ الْغَيِّ رَوَاحِلِكَ وَأَفْرَاسِكَ،
بَطَّالًا مُبْطِلًا قَدَّ اضْرَرْتَ إِضْرَارًا، وَإِنْ أَعْلَنَ لَكَ النَّاصِحُ أَوْ أَسْرَ إِسْرَارًا»^(٣)، لعلك
لحظت أن الجمل السابقة يظهر التجنيس فيها واضحاً، في قوله: أصررت إصراراً،
وأسر إسراراً، إلا أنه جناس غير تام مضارع.

وسار الأسواني على سنن أصحاب المقامات في اللجوء إلى الجناس، فها هو ذا
قد جنس بين كلمة «وادي» في قوله: «وَوَكُنْتُ لَا أَحَطُّ بِوَادٍ، وَلَا أَنْزِلُ بِحَضْرٍ، وَلَا بِوَادٍ إِلَّا
صِرْتُ عِلْمًا»^(٤) على سبيل الجناس التام فالمقصود بوادٍ الأولى: نزل به المكروه وضاق
به الأمر، والثانية: الوادي: كل منفرج بين الجبال والتلال^(٥).

وكذا في قوله: «قَدَّ جَمَعَ فِتْيَانًا مَامِنُهُمْ إِلَّا مَنْ يَفْضَحُ بِالذِّكَاءِ ابْنَ ذَكَا، وَيَتَوَقَّدُ
لَوْذَعِيهِ وَذَكَا»^(٦) ففي كلمة «ذكا» جناس تام، فالأولى لابن ذكا وهو لولد رجل اسمه
ذكا، والثانية: من الذكاء والفتنة^(٧).

وفي قوله: «فَرَدُّنَا عَلَيْهِ السَّلَامَ وَ لَمْ نَكَدْ، وَخِلْنَا أَنَّ مَجْلِسَنَا قَدْ نَكِد»^(٨) فقوله:

(١) ص ٦٧-٦٨ .

(٢) المقامة (١٣): المنذرة، ص ٨٠.

(٣) ص ٨٠.

(٤) المقامة الحصبية، للأسواني، ص ١ من المخطوط.

(٥) انظر: اللسان، مادة: ودى.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.

(٧) انظر: اللسان، مادة: ذكا.

(٨) المقامة والصفحة نفسها.



«نكد» من الفعل كاد: بمعنى قرب من أفعال المقاربة، و«نكد» الثانية من نكد عيشه اشتد^(١)، على سبيل الجناس التام.

ولجأ إلى التجنيس في قوله: «أَيُّهَا الْمُنْتَحِل لِلْإِعْرَابِ، الْمُفْتَرِي عَلَى الْأَعْرَابِ»^(٢) فبين الإعراب، والأعراب جناس غير تام محرف. وفي كلمة «قدحك» تجنيس تام مماثل في قوله: «نَحَابَ وَاللَّهِ قَدْحُكَ، وَكَبَى زَنْدُكَ وَقَدْحُكَ»^(٣) فالأولى من معنى اقتدح الأمر: دبره، ونظر فيه. والثانية: من قولهم: قدح بالزند: يقدح قدحاً واقتدح: رام الإيراء به^(٤).

ولما كان ابن الجوزي مولعاً بالجناس نراه يعول عليه كثيراً في مقاماته، كما في قوله: «فَوَصَلْنَا بَعْدَ الْإِذْنِ إِلَى الْحِجَابِ، وَإِذَا عَلَيْهِ قَهَّارِمَةٌ وَجُجَابٌ»^(٥) فبين قوله الحجاب وحجاب جناس غير تام محرف.

وكذا في قوله: «أَقْرَحَتْ بِمَا وَصَفْتَهُ لِي الْمَاقِي، فَقَالَ لِي: فَاسْتَمِعْ الْبَاقِي»^(٦) فبين الماقي والباقي جناس غير تام لاحق.

وفي قوله: «وَلَقَدْ جَنَيْتُ مِنْ ثَمْرِ غَرْسِ الْخَلْوَةِ، كُلَّ ثَمْرَةٍ حَلْوَةٍ»^(٧) فبين الخلوة، وحلوة جناس غير تام مضارع.

وفي قوله: «أَمَّا مَذْهَبُ أَحْمَدَ أَحْمَدُ مَذْهَبٌ»^(٨) فبين أحمد، وأحمد جناس تام فالأولى: اسم أحمد وهو هنا أحمد بن حنبل، والثانية من الحمد والثناء^(٩).

(١) انظر: اللسان، مادة: نكد.

(٢) المقامة نفسها، ص ٧ من المخطوط.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٠.

(٤) انظر: اللسان، مادة: قدح.

(٥) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، ص ٧٧. القهرم: جمع قهرمان وهو

الوكيل، وأمين الدخل والخرج، انظر: اللسان، مادة: قهرم.

(٦) المقامة (١٢): في الغزاة، ص ١٠٠.

(٧) المقامة (١٩): في الخلوة، ص ١٦٠.

(٨) المقامة نفسها، ص ١٦٣.

(٩) انظر: اللسان، مادة: حمد.



وقوله: «كَمْ عُدْنَا مَرِيضًا وَمَاعِدُنَا، وَكَمْ رَأَيْنَا اللَّحُودَ تُبْنَى وَمَاتُبْنَا»^(١) فقوله: عدنا وعدنا بينهما جناس تام، فالأولى من عيادة المريض، والثانية: من العودة والرجوع^(٢)، وكذلك بين تبني وتبنا جناس تام؛ فالأولى: من البناء، والثانية: من التوبة^(٣).

وكذا في قوله: «وَلَا أُرِيدُ إِلَّا الْبِرَّ، إِلَىٰ أَنْ وَصَلْتُ إِلَىٰ السَّبْرِ»^(٤) فبين البر، والبر جناس غير تام محرف، فالأولى: ضد العقوق، والثانية: خلاف البحر^(٥).

وفي قوله: «فَلَا حَ لَنَا خِيبَاءَ عَلَىٰ شَعْفٍ، فَاسْرَعْنَا إِسْرَاعَ ذِي شَعْفٍ»^(٦) فبين شعف وشغف جناس غير تام مضارع.

وفي قوله: «فَفَخَلْتُ بَدَلْتُنَا مَعَ كَثْرَةِ الْعَالَمِ، مِنْ وَاعِظٍ، وَمِنْ عَالِمٍ»^(٧) جناس غير تام محرف فكلمة العالم الأولى بمعنى الناس، والثانية عالم: أي كثير العلم^(٨).

وفي قوله: «إِنَّ هَذِهِ لَشَجَرَةٌ وَرَيْقُهُ، كَأَنَّا اغْتَنَّمُ لَفْظَ هَذَا وَرَيْقُهُ»^(٩)، فالجناس التام في كلمة ورقيقه، فالأولى بمعنى: كثيرة الورق، والثانية: من الرقيق^(١٠).

وفي قوله: «فَنَزَلَ بِنَا فَلَمْ نَزَلْ، فِي رُوحٍ مُنذُ نَزَلْ»^(١١) جناس تام، فكلمة نزل الأولى: من الاستمرار بمعنى مستمرين، والثانية: نزل بمعنى حل وأقام^(١٢).

-
- (١) المقامة (٣٠): في المحبين، ص ٢٣٧.
- (٢) انظر: اللسان مادة: عود.
- (٣) انظر: اللسان، مادة: تاب.
- (٤) المقامة (٢٩): في ذم إبليس، ص ٢٣١.
- (٥) انظر: اللسان، مادة: بر.
- (٦) المقامة نفسها، ص ٣١١، والشعف: رأس الجبل انظر: اللسان، مادة شعف.
- (٧) المقامة (٤٤): في الوعظ، لابن الجوزي، ص ٣٥٥.
- (٨) انظر: اللسان، مادة: علم.
- (٩) المقامة والصفحة نفسها.
- (١٠) انظر: اللسان، مادة: ورق.
- (١١) المقامة (٤٥): في الأحاجي والمكاتبة والمواعظ، ص ٣٦٨، والروح: الطيب. انظر: اللسان، مادة: روح.
- (١٢) انظر: اللسان، مادة: نزل.

وفي قوله: «إِنَّ بِي عَيْبًا أَشْنُوهُ مِنِّي وَلَا أَرْضَاهُ، أَعَايُنُ بِالْإِيمَانِ غَيْبًا ثُمَّ لَا أَعْمَلُ بِمَقْتِضَاهُ»^(١)، جناس غير تام مضارع بين كلمة عيب وغيب.

ونخلص إلى أن ولع المقاميين بالجناس مرده ما كان يحدث من أثر صوتي لدى المتلقى، وإثارة لفكره وسمعه فضلاً عما تطويه من مقدرة لغوية لدى المقامى من حيث التلاعب بالألفاظ، ولعل هذا الولع امتداداً طبيعياً لما برر في ذلك العصر من كثرة استخدام المحسنات البديعية عند الكتاب.

(١) المقامة (٤٥): في الأحاجي والمكاتبة والمواظ، ص ٣٦٩.

الطباق والمقابلة :

«المطابقة وتسمى الطباق، والتضاد أيضاً وهي: الجمع بين المتضادين»^(١).
«المقابلة وهو: أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب» والمراد بالتوافق خلاف التقابل^(٢).

يبدو أنهما كانا في مقامات البديع بقدر، فهو لم يتجه إليهما إلا قليلاً. ومن ذلك قوله: «وإذا المزاح عين الجد»^(٣)، فقد جمع هنا بين المزاح والجد، وهذا شأن الطباق.

وقوله: «فاستعنْ عليهما نهارك بالصوم، وليلك بالنوم»^(٤)، فقد جمع بين النهار والليل. وقوله في المقامة نفسها: «ولكن تكرم الله يزيدنا، ولا ينقصه وينفعنا ولا يضره»^(٥)، فالتضاد ظاهر بين الزيادة والنقصان، والنفع والضرر. وقوله: «أظهر بالليل، وأخفى بالنهار»^(٦). قابل في قوله هذا بين: أظهر وأخفى، وبين الليل والنهار، فقد جمع بين معنيين، ثم أتى يقابل ذلك على نحو مضاد مرتب في نفس الوقت^(٧)، وهذا معنى قولنا: قابل أو المقابلة كما في قوله: «ما يجرم السكوت إلا عليك، ولا يحلُّ النطق إلا لك»^(٨)، فقد قابل البديع بين معنيين، هما: ما يجرم السكوت إلا عليك، ولا يحلُّ النطق إلا لك. وقد تقابل يجرم مع يحل، والسكوت مع النطق، وعليك مع لك، وكلها متضادة.

وفي قوله: «ثم ترافقنا حتى اجتذبتني بجد، ولقمة وهدي، وصعدت وصوب»

-
- (١) الإيضاح، للقرظيني، ص ٤٧٧.
 - (٢) المصدر السابق، ص ٤٨٥.
 - (٣) المقامة (٢٢): المضيرية، ص ١٢٢.
 - (٤) المقامة (٤١): الوصية، ص ٣١٦.
 - (٥) ص ٣٢٣.
 - (٦) المقامة (٤٢) الصيميرية، ص ٣٥٨.
 - (٧) الإيضاح، للقرظيني، ص ٤٨٥.
 - (٨) المقامة (٣٧): الناحية، ص ٢٨٨.

وَشَرَّقَتْ وَغَرَّبَتْ^(١)، فالطباق بين نجد: وهو ما ارتفع من الأرض وبين وهد: وهو ما انخفض من الأرض، وبين صعد وصب، فالأولى: بمعنى سار مرتفعاً، والثانية سار منخفضاً، وبين شرق وغرب

وفي قوله: «فَنظَرَ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَذَاتَ الْيَسَارِ»^(٢)، فقد طابق بين اليمين واليسار. وقوله أيضاً: «وَقَصَرَ سِبَالَهُ، وَأَطَالَ جِبَالَهُ، وَأَبْدَى شَقَاشِقَهُ، وَغَطَّى مَخَارِقَهُ وَبَيَّضَ لِحْيَتَهُ، وَسَوَّدَ صَحِيفَتَهُ، وَأَظْهَرَ وَرْعَهُ، وَسَتَرَ طَمَعَهُ»^(٣)، فقد طابق البديع بين قصر وأطال، وأبدى وغطى، وبيض وسود، وأظهر وستر.

وقوله أيضاً: «وَأَنْتَ لَمْ تَغْرِسْنِي لِيُقْلَعَنِي غُلَامُكَ، وَلَا اشْتَرَيْتَنِي لِتَبِيعَنِي مُخْدَمُكَ»^(٤)، فقد جمع البديع بين الغرس والقلع، وفي الثانية بين الشراء والبيع. وقوله: «فَاعْتَضْتُ بِالنَّوْمِ السَّهْرِ، وَبِالإِقَامَةِ السَّفَرِ»^(٥)، فقد جمع بين النوم والسهر، والإقامة والسفر.

وهذا ابن نباتة يعمد إلى الطباق والمقابلة في مقامته، ففي قوله: «ذَكَرَ الشَّيْخُ عِبَارَتَهُ بِمُجْتَبِئِهِ وَمَنْفِيهِ»^(٦) تضاد بين كلمة مثبت، ومنفي، وكذا في قوله: «أَيُّكُمْ يَخْرُقُ الْحِجَابَ، وَيَفْهَمُ الْخَطَأَ مِنَ الصَّوَابِ»^(٦)، فبين كلمة خطأ وصواب طابق يقوم على التضاد. وفي قوله: *يَضْحَكُ الأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ*^(٦).

فالضحك، والبكاء ضدان، وكذا في قوله: «أَتُحْفِنَا بِأَكْسِيرِ أَلْحَاظِكَ لِتَتَحَوَّلَ... لَيْلِنَا بِالنَّهَارِ... وَقَالَ فِي لَفْظَةِ الْبَدِيعِ مَا جَرَّ الرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ»^(٧)، فالليل، والنهار بينهما طابق، وكذلك الرفيع والوضيع بينهما طابق: وفي قوله:

(١) المقامة (٤٧): السارية، ص ٤٠٥.

(٢) المقامة (٤٨): التميمية، ص ٤١٣.

(٣) المقامة (٣٩): النيسابورية، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٤) المقامة (٣٨): الخلفية، ص ٣٠٢.

(٥) المقامة (٩): الجرجانية، ص ٥٧.

(٦) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ١.

(٧) المقامة والصفحة نفسها.



« تخليلي كم روض نزلت فناءه ** وفيه ربيع للتزليل وجعفر
 وفارقتهُ والطير صافرة به ** وكم مثلها فارقتها وهي تصفر^(١) »
 فبين قوله: نزلت، وفارقت طباق.

وفي قوله: «أما كان فيكم غير هذا ممن يصيب الحرص، ويزيل المرض،
 فانبسطنا بعد القبض^(١)»، فالطباق بين يصيب، ويزيل، وبين البسط، والقبض.
 وكما في قوله: «والشك يححوه اليقين^(٢)»، فالطباق بين الشك واليقين، كما
 في قوله: «هذا الشيخ ليرجح فيما يوجه التحسين والتقيح^(٢)»، فالتضاد بين التحسين
 والتقيح. وفي قوله: «إني أقسم بمحي الميت لقد أحسن^(٣)»، فالحي والميت بينهما
 طباق. وفي قوله:

منظوم ذا النهار ومنثوره * في ظلّه الممدود مقصور^(٤)

فبين النظم والنثر تضاد. وفي قوله:

نسيم به يشقى السقيم من الصنا * ويضحى صحيح الجسم وهو عليل^(٤)
 فصحيح ضدها سقيم أو عليل.

وفي قوله: «إنه أقرب من ركوب الوعر السهل، وأخو الحلم يظن به
 الجهل^(٤)»، فالطباق بين الوعر والسهل وبين الحلم والجهل.

وكذا ابن نايقا فإن مقاماته لا تخلو من هذا الفن البديعي، ويظهر في قوله:
 «وقرنت أحرأه بأولاه^(٥)»، فالطباق بين أحرأه وأولاه، وبين الجنة والنار في قوله:
 «وصف الدنيا وزوالها، والقيامة وأهوالها، والنار وعذابها والجنة وأكوابها^(٦)».

(١) المقامة نفسها، ص ٢.

(٢) المقامة نفسها، ص ٣.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة نفسها، ص ٤.

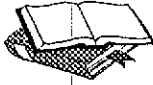
(٥) المقامة (١)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٢.

(٦) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٤.

وفي قوله: «خَلَعَ أَطْمَارَهُ، وَبَسَطَ إِزَارَهُ، وَأَطْلَقَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ»^(١) فبين اليمين واليسار تضاد، وفي قوله: «وَدَعَوْنَاهُ إِلَى الطَّعَامِ فَتَنَاقَلَ عَنِ المَقَامِ، حَتَّى أَقْسَمْنَا عَلَيْهِ بِجُرْمَةِ البَلَدِيَّةِ، فَاسْرِعْ فِي الجِيهِ»^(٢)، فبين تناقل وأسرع طباق، وكذا بين أحطط ورفع في قوله: «وَأَحْطَطَ عَيْنِيهِ، وَجَعَلَ يَرْفَعُهُنَّ كَالْقَطْيِ»^(٣). وفي قوله: «تَزَعُمُ أَنَّكَ أَعْمَى مَبْتَلَى، وَأَنْتَ صَحِيحُ البَدَنِ، سَلِيمُ البَصْرِ مِنَ الصَّرِّ»^(٤)، فبين البدن الصحيح والمبتلى طباق، وبين سلامة البصر والعمى طباق. وفي قوله: «تَارَةً يَنْهَضُ كَالْمَتَأَمِّلِ، وَتَارَةً يَقَعُدُ كَالْمَتَمَلِّمِ»^(٥) فبين ينهض ويقعد تضاد. وفي قوله: «وَقَدْ نَشَرْتَ السَّمَاءَ مَطَارِفَهَا... وَأَخَذْتَ الأَرْضَ زَخَارِفَهَا»^(٦)، فبين السماء والأرض طباق. وكذا بين الفصيح والعبي، وبين الأفول والقفول، وبين الغروب والشروق في قوله: «الفصيحُ الألسنُ مِنَ العِيبِ الأَلَكْنِ... حَتَّى أَذِنَ النَّهَارُ بِالأَفْوَلِ وَأَعْلَنَ الظَّلَامُ بِالقَفْوَلِ... وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ»^(٧). وفي قوله: «وَقَلْنَا أَتَرَى يَصِيرُ هَزْلُهُ جِدًّا، وَبَاطِلُهُ حَقًّا»^(٨)، فبين الهزل والجد طباق، وكذا بين الباطل والحق.

أما الطباق والمقابلة عند الحريري، فقد كانتا في مقاماته أقل من سواهما من المحسنات ومع هذا فلهما مكان عنده؛ لحرصه على إظهار براعته اللغوية، وإن كان يتعسف النص من وراء ذلك وليس هذا بغريب عليه، فما هو إلا أحد كتاب قرن جعل الحلية اللفظية في المقدمة، انظر إليه وهو يقول في إحدى مقاماته: «لَسْتُ أَدْرِي أَشْكُو ذَلِكَ النَّمَامُ أَمْ أَشْكُرُ؟ وَأَتَنَاسَى فِعْلَتُهُ الَّتِي فَعَلَهَا أَمْ أَذْكَرُ؟»^(٩). فبين قوله

- (١) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٦.
- (٢) المقامة نفسها، ص ٧.
- (٣) المقامة والصفحة نفسها.
- (٤) المقامة (٤)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ١٠.
- (٥) المقامة (٥)، المقامات الشعر لابن نايقا، ص ١١.
- (٦) المقامة (٧)، المقامات الشعر لابن نايقا، ص ١٦.
- (٧) المقامة (٩)، المقامات الشعر لابن نايقا، ص ٢٠.
- (٨) المقامة نفسها، ص ٢٣.
- (٩) المقامة (١٨): السنجارية، ٣٥٠/٢. شرح الشريشي.



أشكو وأشكر تضاد، وكذلك بين قوله: أتناسى وأذكر. وانظر إلى قوله في مقامة أخرى: «تَأْمُرُ بِالْعُرْفِ وَتَنْتَهِكُ حِمَاهُ، وَتَحْمِي عَنِ النُّكْرِ وَلَا تَتَحَامَاهُ»^(١). فقد قابل بين معنيين، هما: تأمر بالعرف وتنتهك حماه. تحمي عن النكر ولا تتحاماه.

فقابل تأمر مع تحمي، والعرف مع النكر، والباء مع عن، وتنتهك مع لا تتحامي، وكلها متضادة. وفي قوله: «وَلَمَّا حَلَلْتَهَا حُلُولَ الْحَوْتِ بِالْيَدَاءِ، وَالشَّعْرَةَ الْبَيْضَاءِ فِي اللَّمَّةِ السَّوْدَاءِ»^(٢).

وهذا **النعماني** الذي لجأ إلى التضاد كثيراً، مقارنة بغيره، وعلى أنها مقامة واحدة، فقد كان الطباق مشبوتاً بين ثناياها.

ففي قوله: «وَهَمَّ مُتَّصِلٌ، وَجَدَلٌ مُنْفَصِلٌ»^(٣)، تضاد بين هم وجدل، وبين متصل ومنفصل، ومن ثم فالجملتان بينهما مقابلة. وفي قوله: «أَسْتَشِيرُ الصَّادِقَ الصَّدُوقَ، وَأَتَجَنَّبُ فِي الْإِسْتِشَارَةِ الْعَقُوقَ»^(٤)، فبين أستشير وأتجنب طباق، وبين الصدوق والعقوق كذلك، وبين الجملتين مقابلة.

وفي قوله: «بَدَّ كُهُولَهُ، وَأَحْدَأَتْهُ»^(٥)، فبين الكهل والحدث طباق. وفي قوله: «أَخْرَجَ عِمَارَهَا، وَبَقِيَ أَعْمَارُهَا»^(٦)، فبين خرج وبقي طباق، وبين عمار وأعمار طباق أيضاً، لأنه قصد بعمار: المعمر طويلاً، وقصد بالأعمار التي هي جمع عمر بالضم فالسكون: الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور، والجملتان بعد بينهما مقابلة. وفي قوله: «وَيَشُوبُ لِي مَحْضٌ نَصِيحَتِهِ، بِصَرِيحٍ قَرِيحَتِهِ»^(٧)، فبين يشوب، وبين محض طباق وفي قوله:

(١) المقامة (١): الصناعية، ٦٥/١. شرح الشريشي.

(٢) المقامة (٢٩): الواسطية، ص ٢١٨، ت: يوسف بقاعي.

(٣) خريدة العصر، وجريدة العصر، للأصفهاني، ص ٥.

(٤) المصدر والصفحة نفسها.

(٥) المصدر والصفحة نفسها.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧-٨، وانظر: اللسان، مادة: عمر، عمر.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٠، يشوب: يخلط، محض: خالص، انظر: اللسان، مادة: شوب، محض.



« اركب على البحر إلى البحر ** ومَلِّمَع المدِّ إلى الجَزْرِ

واقصد إلى البصرة، ثمَّ اعتمد ** لِقَصْدِ خوزستان في البرِّ»^(١)

فبين البحر والبر طباق . وفي قوله :

أرَى النَّاسَ طَيْرًا قَدْ أَسَفَّ وَمَجَّدَهُ ** تحلَّق في أفقِ العُلَى فَهوَ البَازُ»^(٢)

فبين أسف: دنا من الأرض في طيرانه^(٣)، وقوله: تحلق ، طباق . وفي قوله:

أَقْرَبَ لَهُ بِالْفَضْلِ سَامٍ وَيَافِثُ ** وَعَجْمٌ وَأَعْرَابٌ وَرُومٌ وَأَنْحَازُ»^(٤)

فبين عجم وأعراب طباق، وكذا بين قوله: روم وأنحاز وهي جمع النحاز

الضم والكسر، وهو الأصل^(٥).

أما الطباق والمقابلة عند الزمخشري فهو كباقي المحسنات له نصيب في

مقاماته، كما في قوله: «وَلَا تَفْطَنَ لِكِرَّاتِهَا وَدَوْلِهَا أَسَاءَتْ أُمُّ سَرَّتْ، وَلَا لِأَيَّامِهَا

وَلِيَالِيهَا أَعَقَّتْ أُمُّ بَرَّتْ»^(٦). ولما كان الطباق يقوم على التضاد، فإن العقوق، والبر

بينهما تضاد(طباق).

وكذا كقوله: «وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا ضَنْكٌ وَرَغَدٌ»^(٧)، وقوله في المقامة نفسها: «فَإِذَا

اعْتَوَرَهُ النَّعِيمَ وَالْبُؤْسَ ... لَا يَعْرِفُ الْغَثَاةَ وَالسَّمْنَ إِلَّا فِي بَدْنِهِ وَمَاشِيَتِهِ، وَلَا يَفْطَنُ لِلْقِلَّةِ

وَالكَثْرَةِ إِلَّا فِي ضَبْنَتِهِ وَحَاشِيَتِهِ»^(٨). بين لفظ: النعيم والبؤس طباق، وكذلك بين:

الغثاة والسمن، والقلة والكثرة.

(١) المصدر نفسه، ص ٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤ .

(٣) انظر: اللسان، مادة: سف. .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥ .

(٥) انظر: اللسان، مادة: نحز. .

(٦) المقامة (٨): الحذر، ص ٦٠ .

(٧) المقامة (١٠): التسليم، ص ٦٤-٦٥ .

(٨) ص ٦٥-٦٧، ضبنته : عياله، انظر: اللسان، مادة : ضبن .

وفي قوله: «لم تطر في هامتك، ولادبت في مفاصلك»^(١)، فالطيران في الهامة، والديب في المفاصل من الطباق الحسن.

وقوله: «ثم لاتطلق عنه إلا ماترى النطق من الصمت أفضل»^(٢)، فقد طابق بين النطق والصمت.

وكذا الأسواني فلا تمر صفحة من صفحات مقامته إلا والطباق يتصدر إحدى جملها، ففي قوله: «إِنْ مَدَحُوا الْكَلْبَ أَلْبَسُوهُ فَخْرًا، وَهَجَّوْا الْمَسْكَ صَيْرُوهُ شَرًّا»^(٣)، فبين كلمة مدح، وهجاء طباق، ولعلك تلحظ أن بين الجملتين وجه تقارب، ففي الأولى: مدحوا، وفي الثانية: هجوا، والأولى الفعل الماضي ألبس: بفاعله ومفعوله «ألبسوه»، وفي الثانية الفعل الماضي صار اسمه وخبره صيروه، وفي الأولى فخراً وفي الثانية شراً.

وفي قوله: «مَنْ كَمْ يَتَعَلَّقُ فِيهَا بِجِبْلِ الرَّهَانِ تَسَاوَى فِي حَقِّهِ الطَّاعَةُ وَالْعِصْيَانُ، وَأَشْتَبَهُ عِنْدَهُ الْكُفْرُ بِالْإِيمَانِ»^(٤) فالطباق بين كلمة الطاعة والعصيان، وبين الكفر والإيمان تضاد. وفي قوله: «أَجْمَعُوا عَلَيَّ أَنَّهُ عِلْمٌ ... لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ نَظَرَ بَعِينَ فِكْرِهِ، وَأَعْمَى عَيْنَ هَوَاهُ»^(٥)، فنظر، وأعمى بينهما تضاد. وفي قوله: «وَذَلِكَ الْكَهْلُ يَحْمَلُ إِلَيْهِمْ بَصْرَهُ وَيَغْمِضُ، وَيَقْبَلُ عَلَيْهِمْ بَوَاجِهِ وَيَعْرِضُ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَبْتَسِمُ تَبَسُّمَ الْجَاهِلِ الْمُتَغَافِلِ أَوْ الْعَاقِلِ الْمُتَجَاهِلِ»^(٥)، فبين يحمل ويغمض تضاد، وبين يقبل ويعرض، وبين الجاهل المتغافل أو العاقل المتجاهل تضاد أيضاً. وفي قوله: «وَيَمِيتُ هَوَى النَّفْسِ، وَيُحْيِي لَيْلَتَهُ بِالدَّرْسِ»^(٦). فبين يميت ويحيي طباق. وكذا في قوله: «مَنْ اشْتَغَلَ بِحَبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ، وَأَهْمَلَ الْإِسْتِعْدَادَ لِلْمَالِ»^(٧)، فبين اشتغل وأهمل طباق.

(١) المقامة (١١): الصمت، ص ٧٠.

(٢) المقامة نفسها، ص ٧٢.

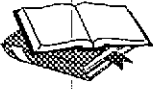
(٣) ص ١، من مخطوط المقامة الحصيبيية، للأسواني،

(٤) ص ٥، من المخطوط نفسه.

(٥) ص ٦، من المخطوط نفسه.

(٦) ص ٧ من المخطوط نفسه.

(٧) المقامة (٩): في إيقاظ الغافلين، لابن الجوزي، ص ٧٢.



وهذا آخر كتاب مقاماتنا ابن الجوزي يتكيء كثيراً على الطباق في إقامة مقاماته، كما في قوله: «نَاهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأْمُرْ بِالصَّوَابِ»^(١)، فبين كلمة أمر وناه طباق، وكذا: منكر وصواب .

وفي قوله: «يَا جَاعِلِينَ نَهَارَ الْهَدَى كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ»^(٢)، فنهار وليل بينهما طباق. وفي قوله: «وَلَوْلَا إِعْزَازُهُ إِيَّايَ هُنْتُ»^(٣)، فبين عز وهان طباق. وفي قوله: «اشْكُرُوا مِنَ الْعِلْمِ مَا أَفَدْتَكُمْ، وَأَذْكُرُوا مَا مَنَعْتَكُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَافْتَكُم»^(٤)، فبين العلم والجهل تضاد. وفي قوله عن النفس: «إِنْ أَيْقَظْتَهَا تَنَاعَسَتْ، وَإِنْ قَدَّمْتُهَا تَقَاعَسَتْ، وَإِنْ عَاهَدْتُهَا غَدَرَتْ، وَإِنْ أَصْعَدْتُ بِهَا انْحَدَرَتْ، وَإِنْ قَمْتُ قَعَدَتْ، وَإِنْ قُرْبْتُ بَعَدَتْ، وَإِنْ أَقْدَمْتُ أَحْجَمْتُ، وَإِنْ أَعْرَبْتُ أَعْجَمْتُ، وَإِنْ أَوْقَدْتُ أَحْمَدْتُ، وَإِنْ شَوَيْتُ رَمَدْتُ، وَإِنْ فَسَّرْتُ أَبْهَمْتُ، وَإِنْ أَنْجَدْتُ أَتَهَمْتُ، وَإِنْ أَيْمَنْتُ أَعْرَقْتُ، وَإِنْ غَرَبْتُ شَرَقْتُ»^(٥)، فالعبارة مليئة بالتضاد، فبين اليقظة والنعاس طباق. وكذا بين الإقدام والتقاعس، وبين العهد والغدر، وبين الإقدام والإحجام، وهكذا إلى آخر العبارة.

وفي قوله: «فَبَقِيْتُ حَيَاءً لَا أُمِرُّ وَلَا أُحَلَّى»^(٦)، فالمر والحلو بينهما طباق. وفي قوله: «اللذة تفتنى، واللذة تبقى»^(٧)، فالفناء والبقاء بينهما تضاد. وفي قوله: «وإِنَّمَا يَسْأَلُ فِي الْبَعِيدِ لِيَقْرَبَ»^(٨)، فالبعيد والقريب بينهما طباق. وفي قوله: «كُلَّمَا بَنَيْتُ قَاعِدَةَ تَوْبَةٍ هُدِمَتْ»^(٩)، فبين البناء والهدم طباق، وفي قوله: «فَهَزَلْتُ فَجَدَدٌ»^(١٠)،

- (١) المقامة (٩): في إيقاظ الغافلين، لابن الجوزي، ص ٧٢.
- (٢) المقامة نفسها، ص ٧٢.
- (٣) المقامة نفسها، ص ٧٥.
- (٤) المقامة نفسها، ص ٧٦.
- (٥) المقامة (١٠): في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل، لابن الجوزي، ص ٧٨-٧٩.
- (٦) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، لابن الجوزي، ص ٨٧.
- (٧) المقامة نفسها، ص ٩٢.
- (٨) المقامة نفسها، ص ١٠٢.
- (٩) المقامة والصفحة نفسها.
- (١٠) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.

فالتطابق بين الهزل والجد. وفي قوله: «فمجلسه عند الفطناء ألدُّ من الغنى بعد الفقر»^(١)، فالتطابق بين الغنى والفقير، أما قوله: «من امتحن بقرب من يكره، كان كمن بلى بعد من يحب»^(٢)، فالتطابق بين قرب وبعد، وبين يكره ويحب، ثم بين الجملة الأولى والثانية مقابلة.

وعليه فقد حسن أصحاب المقامات كلامهم بالمحسنات اللفظية المذكورة هنا وهي التطابق والمقابلة لأن؛ «المتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقاً لظهور بعضها ببعض. وإن الصيغة المتقابلة تجعل الشيء كالمحسوس المشاهد»^(٣).

(١) المقامة (٣٥: في وصف واعظ، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٧٦.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٧٨.

(٣) كتاب سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، دراسة وتحليل: د. عبدالرزاق أبوزايد، ص ١٢٨-

١٢٩، مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢م.



الافتباس والتضمين من القرآن الكريم :

فالافتباس هو : «أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لإعلى أنه منه»^(١).

والبديع من خصائص أسلوبه كثرة الاقتباس من القرآن والشعر والأمثال وتضمينها المقامات، تلمذ بذلك ذاكرة قوية واعية، تختزن ما يقرأ، فإذا دعا الداعي إليه انشق في الذهن، وانثال على القلم من غير جهد، أو معاناة.

وأكثر مقامات البديع حظاً من الاقتباس، المارستانية، فقد ورد فيها اقتباس كثير من القرآن بوجه خاص، باعتبار أن موضوعها الرئيسي يعالج مسألة كلامية، وهي مسألة الجبر والاختيار، وما يكتنفها من خلاف وغموض وتعقيد. فقد اقتبس فيها من قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾^(٢)، فقد اقتبسها كاملة كما وردت هكذا في القرآن، ومثلها الآية التي يقول الله تعالى فيها: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَبِاللَّهِ وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٤).

وقول بديع الزمان في المقامة نفسها: «وَأَنْتَ يَا بَنَ هِشَامِ تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ، وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ»^(٥) متضمن لقول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^(٦)، ثم من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾^(٧)، فهي متضمنة في قول البديع: «أَلَمْ يَنْهَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْهُمْ

(١) الإيضاح، للقرظيني، ص ٥٧٥.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٤، وانظر المقامة (٢٤)، ص ١٥٤-١٥٥.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٨٦، وانظر المقامة (٢٤)، ص ١٥٦.

(٤) سورة التوبة، آية ٦٥، وانظر المقامة المارستانية، ص ١٥٨.

(٥) المقامة (٢٤): المارستانية، ص ١٥٩.

(٦) سورة البقرة، آية ٨٥.

(٧) سورة آل عمران، آية ١١٨.

رِبَطَانَةً»^(١). وفي قوله: «اذبحوا في بحري هذا الماء بقرّة صفراء»^(٢)، تضمين من قول الله تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ﴾^(٣)، وفي قوله: «واضمم يديك لأجلي ** إلى جناحك عمدا»^(٤)

تضمين من قوله تعالى: ﴿واضمم يديك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء﴾^(٥)، وفي قوله: «ولزمني ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرقيم»^(٦) من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٧)، فالرقيم: أصحاب الكهف الذين جرى ذكرهم في الآية من الكتاب العزيز المذكورة سابقاً، وكان لهم كلب لا يفارقهم.

وهذا ابن نباته نجد الاقتباس والتضمين في مقاماته كغيره من كتاب المقامات، ففي قوله: «جاء الحق وزهق الباطل...»^(٨)، مقتبس لألفاظ القرآن من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(٩). و قوله: «وبينكم كما كما بين هذا النجم والطارق»^(١٠)، مقتبس من قوله - عز وجل -: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾^(١١). و قوله: «إن الكلام يظهر من مدلوله الجليل والحقير، ولا يستوي الأعمى والبصير»^(١٢) مقتبس من قوله تعالى:

(١) المقامة نفسها، ص ١٥٩.

(٢) المقامة الموصلية، ص ١١٨.

(٣) سورة البقرة، آية ٦٩.

(٤) المقامة (١٩): الساسانية، ص ١٠٩.

(٥) سورة طه، آية ٢٢.

(٦) المقامة (٢٢): المضيرية، ص ١٢٣.

(٧) سورة الكهف، آية ٩.

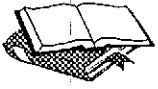
(٨) مقامة ابن نباته السعدي، ص ٢.

(٩) سورة الإسراء، آية ٨١.

(١٠) المقامة نفسها، ص ٤.

(١١) سورة الطارق، آية ١-٣.

(١٢) المقامة نفسها، ص ٥.



﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾^(١). و قوله: ﴿وَسَأُنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَخَلَّ بِيَعْضِ جَمَلِهِ فِي تَفْصِيلِهِ﴾^(٢) مقتبس من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾^(٣)، و قوله: فَحَصَّحَصَّ حِينَئِذٍ الْحَقُّ، وَبَانَ بَيْنَهُمَا الْفَرْقُ^(٤)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٥). و قوله: ﴿فَتَكَرَّرَ الْجَمْعُ فِي أَنْ أَحَدًا مِنْ يَدِهِ الْخِلَاصَ، وَنَادَا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾^(٦)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾^(٧). و قوله: ﴿قَالَ الْمَخِر: فَكَأَنَّمَا جَعَلَ عَلَى الْقُلُوبِ الْأَكِنَّةَ، وَرَمَى الْأَلْسِنَ بِالْخَرَسِ، وَإِنْ كَانَتْ مُطْلَقَةً الْأَعْنَةَ﴾^(٨)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾^(٩). و قوله: ﴿فَلَمَّا انقَضَى الْأَجَلُ، وَقَدْ تَسَاوَى فِي عَدَمِ الْجَوَابِ الْبَطْءُ وَالْعَجَلُ﴾^(١٠)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾، ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾^(١١). و قوله: ﴿الآنَ قَدْ طَلَبْتُمْ الْحِكْمَةَ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَأَتَيْتُمُ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(١٢)، متضمن لمعنى قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٣).

(١) سورة فاطر، آية ١٩، وسورة غافر، آية ٥٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦.

(٣) سورة يوسف، آية ٤٥.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) سورة يوسف، آية ٥١.

(٦) المقامة والصفحة نفسها.

(٧) سورة ص، آية ٣.

(٨) المقامة نفسها، ص ٩.

(٩) سورة الأنعام، آية ٢٥، وسورة الإسراء، آية ٤٦.

(١٠) المقامة والصفحة نفسها.

(١١) سورة الأنعام، آية ٤، والآية الثانية: سورة القصص، آية ٢٩.

(١٢) المقامة والصفحة نفسها.

(١٣) سورة البقرة، آية ١٨٩.



وكذا ابن نايقا الذي نجد في مقاماته الكثير من اقتباس القرن، وتضمينه في ثنايا المقامات. كما في قوله: «كُلُّ ذَلِكَ وَأَنَا مَعَهُ، لِأَعْلَمَ مُسْتَقَرَّهُ وَمُسْتَوْدَعَهُ»^(١)، تضمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢). وفي قوله: «وقد برح الطوى خفاناً، وطوى طي السجل إمعاناً، فقلت لصاحبي: آتانا غداً نا»^(٣)، من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ءَاتَانَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(٥). وفي قوله: «يا أهل الدار أما تعون، إننا لله، وإننا إليه راجعون»^(٦)، اقتباس من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٧). وفي قوله: «ولم يلبث إلا وهو رابعنا بالوصيد»^(٨)، من قوله تعالى: ﴿وَنَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾^(٩). وفي قوله: «هَذَا صَاحِبُنَا الَّذِي لَانْرِيدُ بِهِ بَدَلًا، وَلَا نَتَّبَعِي بِهِ حَوْلًا»^(١٠)، تضمين لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾^(١١).

أما الاقتباس والتضمين عند الحريري فنجده بكثرة، حتى إن المقامة من مقاماته ربما كانت تشتمل على خمس آيات، كما في المقامة الراجزية، وتأمل قوله في المقامة

- (١) المقامة (٢): من المقامات العشر لابن نايقا، ص ٤.
- (٢) سورة هود، آية ٦.
- (٣) المقامة والصفحة نفسها.
- (٤) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٤.
- (٥) سورة الكهف، من الآية ٦٢.
- (٦) المقامة (٤)، من المقامات العشر، لابن نايقا، ص ٩.
- (٧) سورة البقرة، آية ١٥٦، في المقامة والصفحة نفسها.
- (٨) المقامة (٧) من المقامات العشر لابن نايقا، ص ١٧.
- (٩) سورة الكهف، من الآية ١٨.
- (١٠) المقامة (١٠) من المقامات العشر لابن نايقا، ص ٢٢.
- (١١) سورة الكهف، آية ١٠٨.

الصنعانية: «وَتَسْتَخْفِي مِن مِّمْلُوكِكَ، وَمَا تُخْفِي خَافِيَةً عَلَيَّ مَلِيكَكَ»^(١)، يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾^(٢)، وقوله: «وَتَزْحِرُ عَنِ الظُّلْمِ ثُمَّ تَغْشَاهُ، وَتَخْشَى النَّاسَ، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَاهُ»^(٣) تضمين من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾^(٤). وقوله: «فَزَفَرَ زَفْرَةَ الغَيْظِ، وَكَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ»^(٥)، تضمين لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٦).

وفي مقامة أخرى قال: «ثم أخذ بيدي مافي وطابه، ويعجب الحاضرين بفصل خطابه»^(٧)، تضمين قوله تعالى: ﴿وَفَصَّلَ الخِطَابَ﴾^(٨)، وفيها اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(٩). وفي قوله: «واصبراً على كيد الزمان وكده، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده»^(١٠)، فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللّٰهُ أَن يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾^(١١). وفي المقامة نفسها يقول: «ثم لأوليته ماهو به أولى، ولأرئيته أن الآخرة خير من الأولى»^(١٢)، فهو تضمين لقوله تعالى: ﴿وَلِلآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾^(١٣). وقوله: «كلاً ساء ما اتوهمون، ثم كلاً سوف

(١) المقامة (١)، شرح مقامات الحريري، للشريشي، ٥٧/١.

(٢) سورة النساء، آية ١٠٨.

(٣) المقامة نفسها، ٦٥/١. "وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه" اقتباس من سورة الأحزاب، ٣٧.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٨٥.

(٥) المقامة نفسها، ٧١/١.

(٦) سورة الملك، آية ٨.

(٧) المقامة (٢): الحلوانية، ٨٩/١.

(٨) سورة ص، آية ٢٠.

(٩) سورة الحجرات، آية ١٢.

(١٠) المقامة (٩): الإسكندرية، ص ٧٤، ت: يوسف بقاعي.

(١١) سورة المائدة، آية ٥٢.

(١٢) ص ٧٦.

(١٣) سورة الضحى، آية ٤.

تَعْلَمُونَ»^(١)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»^(٢). وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ، وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ»^(٣) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ»^(٤). وفي قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ، وَأُمِيرٌ صَاحِحَ الْقَوْلِ مِنِّي عَلَيْهِ»^(٥) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ»^(٦). وفي مقامة أخرى، قال الحريري: «وارتاد أن تصحبه تحفة ثلاثم هَواه، ليقدمها بين يدي نجواه»^(٧)، تضمين من قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدْتُمَا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدْقَةً»^(٨). وقوله: ﴿فَغَشِيَنِي مِنَ الْهَمِّ، مَا غَشِيَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْيَمِّ»^(٩)، تضمين من قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ»^(١٠). وفي قوله: ﴿فَاقْرَأْ عَبَسَ وَتَوَلَّى، وَاعْرَبْ عَنِّي وَإِلَّا»^(١١)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى»^(١٢). وفي قوله: ﴿وَسَبَّ الْبِذْلُ بِالضُّبِّطِ، وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ»^(١٣)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا»^(١٤). وفي قوله: ﴿وَلَا تَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ

- (١) المقامة (١١): السادية، ٨٤.
- (٢) سورة التكاثر، آية ٤/٣.
- (٣) المقامة (٢٣): الشعرية، ص ١٧٣.
- (٤) سورة الأنفال، آية ٤٢.
- (٥) المقامة (٢٤): القطيعية، ص ١٨١.
- (٦) سورة يوسف، آية ٤٥.
- (٧) المقامة (١٨): السنجارية، ٣١٥/٢.
- (٨) سورة المجادلة، آية ١٢.
- (٩) المقامة نفسها، ٣١٦/٢.
- (١٠) سورة طه، آية ٧٨.
- (١١) المقامة (٤٧): الحجرية، ٣٨٦.
- (١٢) سورة عبس، آية ١.
- (١٣) المقامة (٤٩): الساسانية، ص ٤١١.
- (١٤) سورة الإسراء، آية ٢٩.

إلا القوم الكافرون»^(١)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

وهذا النعماني يلجأ إلى الاقتباس والتضمين في مقامته من القرآن الكريم، فيقول: «وجاس خلالها العسكر»^(٣)، تضمين لبعض ألفاظ القرآن من قوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾^(٤). وفي قوله: «وافترضنا عذر الكلام سبع ليالٍ وثمانية أيام»^(٥)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾^(٦). وفي قوله: *أعيد عطاياها من المس...^(٧) إشارة إلى المعوذتين في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...﴾^(٨)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٩).

أما الاقتباس والتضمين عند الزمخشري فنجده قد اقتبس بعض الآيات القرآنية، وضمنها مقاماته، كغيرة من كتاب المقامات، ففي قوله: «إِنَّ الْمُعْتَابَ فَضَّلَ اللَّهُ فَمَهْ يَأْكُلُ لَحْمَ الْمُعْتَابِ وَيَشْرَبُ دَمَهُ»^(١٠)، اقتباس لمعنى الآية في قوله تعالى: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(١١). والاقتباس نفسه في مقامة أخرى، قال فيها: «فإذا أنشأ يأكل لحم أخيه بالنقيصة والثلب، ويبلغ في دمه الحرام ولوغ الكلب»^(١٢). وأما الاقتباس لفظاً ففي قوله: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) سورة يوسف، آية ٨٧ .

(٣) خريدة القصر وخريدة العصر، للأصبهاني، ص ٧ .

(٤) سورة الإسراء، آية ٥ .

(٥) الخريدة، ص ١٠ .

(٦) سورة الحاقة، آية ٧ .

(٧) الخريدة، ص ١٤ .

(٨) سورة الناس، آية ١ .

(٩) سورة الفلق، آية ١ .

(١٠) المقامة (١١): الصمت: ص ٧١ .

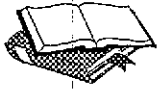
(١١) سورة الحجرات، آية ١٢ .

(١٢) المقامة (١٩): العزلة، ص ٩٣ .

أُولَى الْقُوَّةِ»^(١). وفي قوله: «وَمَتَى يَأْمَنْتَ بِبَصْرِكَ إِلَى جَانِبِ تَوْبَتِكَ وَهِيَ آنَسُ جِهَةٍ وَأَنْقَهَا... جِهَةٌ كَأَنَّ الْفَجْرَ الْمُسْتَطِيرَ تَنْفَسَ فِي أَعْرَاضِهَا»^(٢)، فيه تضمين من قوله تعالى: «وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ»^(٣). وفي قوله: «وَأَخْفَ دَعَاةَ فَقَدَ أَمْرَكَ بِالْأَخْفَى، وَضَرَبَ السَّبَاتَ عَلَى الْأَذَانِ»^(٤)، الضرب على الأذان من قوله تعالى: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾^(٥). وفي قوله في مقامة المراقبة: «مَاأَنْتَ وَإِنْ خَلَوْتَ وَحَدَّكَ بِفَرِيدٍ، مَعَكَ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»^(٦)، متضمن لقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٧). وفي المقامة نفسها يقول: «وَجَنَابَتِكَ حَفِيزَانِ يَتَلَقَّيَانِ»^(٨)، من قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾^(٩).

وهذا الأسواني يعمد في مقامته إلى الاقتباس والتضمين، ويظهر اقتباسه من القرآن، في قوله: «وَحَسِبَ الْحِسَابَ مِنَ الْفَضْلِ الْمَبِينِ، قَوْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ»^(١٠)، مقتبس من قول الله تعالى: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١١). وفي قوله: «وَأَيْمَ اللَّهُ لَأُرِيَنَّكُمْ جَهْلَكُمْ بِأَنْكُمْ بَجْهَلُونَ، وَلِيَأْتِيَنَّكُمْ أَنْبَاءُ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَهْزِئُونَ»^(١٢)، متضمن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١٣).

- (١) سورة القصص، آية ٧٦، انظر مقامة (١٦): الفناعة للزمخشري، ص ٩١.
- (٢) المقامة (٢١): الندم، ص ١٠٦-١٠٧.
- (٣) سورة التكوير، آية ١٨.
- (٤) المقامة (٣١): التهجد، ص ١٨٨، ت: يوسف بقاعي.
- (٥) سورة الكهف، آية ١١.
- (٦) المقامة (٣٧)، ص ٢١٦.
- (٧) سورة ق، آية ١٦.
- (٨) المقامة نفسها، ص ٢١٧.
- (٩) سورة ق، آية ١٧.
- (١٠) مخطوط المقامة الحصيبيية، للأسواني، ص ٣.
- (١١) سورة الأنبياء، آية ٤٧.
- (١٢) ص ٦، ٧ من المخطوط نفسه.
- (١٣) سورة الأنعام، آية ٥.



﴿فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١). وفي قوله: «فإنه منه كقاب قَوْسَيْنِ لَا بَلَّ كَطَرْفَةِ عَيْنٍ»^(٢)، متضمن للآية في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٣). وفي قوله: «وأخذ النعاسُ باللضمِ وضربَ الله على الآذانِ، فلم يرعنا إلاَّ صوتَ الآذانِ»^(٤)، تضمين من قوله تعالى: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾^(٥).

أما ابن الجوزي فلا يضاويه أحد من كتاب المقامة في اقتباسه من القرآن، فمنذ بداية مقاماته إلى نهايتها لا تخلو من اقتباس للقرآن وتضمينه مقاماته، ففي قوله: «أفي الله شك، فقلتُ لِنَفْسِي: كَيْفَ شَكَّ مَنْ شَكَّ»^(٦)، مقتبس من قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٧). وفي قوله: «أنا أنبئكم بتأويله»^(٨)، من قوله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾^(٩). «بيننا مُتْرَفِهِمْ قَدْ اطمأنَّ ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾»^(١٠) من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ، بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾^(١١). «وكأنك بالأمرِ قد فصلَ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾»^(١٢) من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾^(١٣). «فمن نجا جازَ قنطرةَ الهوى ﴿بتجارة لن

- (١) سورة الشعراء، آية ٦ .
- (٢) ص ٧ من المخطوط نفسه.
- (٣) سورة النجم، آية ٩ .
- (٤) ص ١١ من المخطوط.
- (٥) سورة الكهف، آية ١١ .
- (٦) المقامة (١): في حكم الأشياء ص ٧.
- (٧) سورة إبراهيم، آية ١٠ .
- (٨) المقامة والصفحة نفسها.
- (٩) سورة يوسف، آية ٤٥ .
- (١٠) المقامة (٣٤) : في وعظ السلطان، ص ٢٧٣ .
- (١١) سورة الانشقاق، آية ١٤ .
- (١٢) المقامة والصفحة نفسها.
- (١٣) سورة العاديات، آية ١٠ .

تَبُورٌ^(١)، من قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرُجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾^(٢). «أتلو عليهم (هل أتى)»^(٣)، من قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾^(٤). «ووجوههم تقرأ ﴿عَبَسَ﴾»^(٥)، من قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾^(٦). «وذهبت بالبكاء عين يعقوب وتحير برد (لَنْ) موسى»^(٧)، من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾^(٨). «مِنْ أَوْلَئِكَ الْأَشْرَارِ. فَأَنَا أَدْعُوهُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَيَدْعُونِي إِلَى النَّارِ»^(٩)، من قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى الْإِنْفَاةِ﴾^(١٠). «ثم قال: يا بني اعلم أن القرآن يحتوي على جميع الوجوه التي تصرف فيها العرب، فمن التجوز ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾»^(١١)، من قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾^(١٢). «فأخذ الشيخ يذم الإخوان على عادته. ثم قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد)»^(١٣)، من قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾^(١٤). «قلت ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾»^(١٥).

«وقد اتفق الأطباء على أن النفس الباردة في الأمراض الحارة علامة التلف، فقرأ

- (١) المقامة والصفحة نفسها.
- (٢) سورة فاطر، آية ٢٩.
- (٣) المقامة (٣٥): في وصف واعظ، ص ٢٧٩.
- (٤) سورة الإنسان، آية ١.
- (٥) المقامة والصفحة نفسها.
- (٦) سورة عبس، آية ١.
- (٧) المقامة نفسها، ص ٢٨٣.
- (٨) سورة الأعراف، آية ١٤٣.
- (٩) المقامة (٣٧): في العزلة، ص ٢٩٩.
- (١٠) سورة غافر، آية ٤١.
- (١١) المقامة (٤١): في علم القرآن، ص ٣٣٠.
- (١٢) سورة الكهف، آية ٧٧.
- (١٣) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، ص ٤٠٤.
- (١٤) سورة الأعراف، آية ١٠٢.
- (١٥) المقامة والصفحة نفسها، سورة فاطر، آية ٨.

قاريء ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾^(١)، «وقد فنتعت من الخراج بالدعاء، فقلت: أنا منذ تصعد المنبر إلى أن تنزل أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^(٢)، «فقال: ذم على هذا فإن في المجلس أقواماً تقرأ وجوههم (عبس)»^(٣)، من قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾^(٤). «ومراتبهم: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾»^(٥). «قلت: عيبك أنك بغدادتي. قال: فخرّي ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾»^(٦)، من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ﴾»^(٧). «قلت: كيف الجمع بين قوله (تتوفاهم الملائكة طيبين)»^(٨)، من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾»^(٩).

نخلص إلى أن المقامين لجأوا إلى الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، ولعل السبب في ذلك يعزى إلى المأمم بكتاب الله الكريم وفهمهم لمعانيه، وتدبرهم لآياته، إلا أن لابن الجوزي، والزمخشري النصيب الأكبر من تلك الاقتباسات، ويرجع ذلك ربما لنشأتها الدينية، وحفظهما لكتاب الله، وخاصة الزمخشري الذي تشرب معاني القرآن وألفاظه، فحين كتب مقاماته فإنه لم يكن في غيبة عن حفظ آيات الله وبالتالي تضمينها، ولا أدل على ذلك من تفسيره لكتاب الله العزيز وعكوفه عليه عكوف المتأمل المدقق وكذا ابن الجوزي الذي كان الوعظ نصب عينيه، وليس هناك أفضل من القرآن ليعظ به، فكان لذلك الاقتباس أثره في تحقيق الوعظ وأحد العوامل المؤثرة منه.

(١) المقامة نفسها، ص ٤٠٧-٤٠٨، سورة الواقعة، آية ٢١.

(٢) المقامة نفسها، ص ٤٠٨، سورة الإخلاص، آية ١.

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) سورة عبس، آية ١.

(٥) المقامة (٤٩): في ذم أبناء الدنيا، ص ٤٠٨، سورة الانفطار، آية ١.

(٦) المقامة (٥٠): في الأخ الصادق، ص ٤١١.

(٧) سورة التوبة، آية ١٢٨.

(٨) المقامة نفسها، ص ٤١٢.

(٩) سورة النحل، آية ٣٢.

الاقتباس من الحديث الشريف :

فهذا البديع يعمد إليه، ففي قوله : «(أَمَا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللَّهُ أَمَالَكَ، وَجَعَلَ الْيَدَ الْعُلْيَا لَكَ)»^(١).

فاليد العليا: هي يد المعطي، والعبارة كناية عن الدعاء له بأن يكون معطياً لا آخذاً، وأصل الجملة قوله - ﷺ - : «(اليد العليا خير من اليد السفلى)»^(٢).

وفي قوله: «(وَأَنْ تَسَهَّلَ لِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ فَطَرْتَهُ الْفِطْرَةَ، وَأَطْلَعْتَهُ الطُّهْرَةَ، وَسَعِدَ بِالدِّينِ الْمَتِينِ)»^(٣). ففي قوله: فطرته: أنشأته، والفطرة هنا الدين من قوله - ﷺ - : «(كُلْ إِنْسَانٌ تَلِدُهُ أُمُّهُ عَلَى الْفِطْرَةِ)»^(٤). وفي قوله :

«(رَغِبَ الْكِرَامُ إِلَى اللَّهِ * * م، وَتَلَّكَ أَشْرَاطُ الْقِيَامَةِ)»^(٥)

إشارة إلى قوله - عليه الصلاة والسلام - في حديثه مع جبريل حين سأله عن علامات الساعة فقال: «(وَأَنْ تَجِدَ الْحَفَاةَ الْعِرَاةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنِيَانِ)»^(٦).

(١) المقامة (٥): الكوفية، للهمداني، ص ٣٤.

(٢) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٤٤١)، كتاب الرقاق، باب (١١): قول النبي

- ﷺ - «(هذا المال خضرة حلوة)». ورواه مسلم تحت رقم (١٠٣٥)، وبدايته: «(إن هذا المال خضرة حلوة...»، وتحت رقم (١٠٣٦)، وبدايته: «(يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك...»، كتاب الزكاة، باب (٣١): بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، ٧١٧/٢-٧١٨.

(٣) المقامة (٨): الأذربيجانية، للهمداني ٥٤.

(٤) رواه مسلم تحت رقم (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب (٦): معنى كل مولود يولد على الفطرة، بزيادة، ٢٠٤٨/٤.

(٥) المقامة (١٣): البصرية، للهمداني، ص ٧٧.

(٦) رواه مسلم تحت رقم (٨)، كتاب الايمان، باب (١): بيان الايمان والاسلام والاحسان

ووجوب الايمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى .. وبدايته «(بينما نحن جلوس عند رسول الله...» ٣٦/١-٣٨. ورواه الترمذي عن ابن عمر - ﷺ -، في كتاب الإيمان، باب (٤):

ما جاء في وصف جبريل للنبي - ﷺ - الايمان والاسلام، وقال: حديث حسن صحيح، ٨/٥.



وفي قوله: «رَأَيْتَهُ - ﷺ - فِي الْمَنَامِ، كَالشَّمْسِ تَحْتَ الْعَمَامِ، وَالبَدْرِ لَيْلَ النَّمَامِ، يَسِيرُ وَالنَّجُومُ تَتَّبِعُهُ»^(١)، ولعله أراد بالنجوم جماعة أصحابه - ﷺ - أخذاً من قوله - عليه الصلاة والسلام -: «أَصْحَابِي كَالنَّجُومِ، بِأَيْهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ»^(٢). وفي قوله:

«وَلَمْ أَرَهُ إِلَّا أَغْرَرَ مُحَجَّلًا * * وَمَاتَحْتَهُ إِلَّا أَغْرَرَ مُحَجَّلًا»^(٣)

فأصل الأغر: الذي في جبهته بياض، والمحجل: الذي في قوائمه ذلك، وينعت بهما الفاضل البالغ الغاية، كما في حديث رسول الله - ﷺ -: «أَنَا قَائِدُ الْغُرِّ الْمُحْجَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

وفي قوله: «أَنَارْتَنِي وَرُفْقَةً وَوَلِيمَةً فَأَجَبْتُ إِلَيْهَا لِلْحَدِيثِ الْمَأْتُورِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -»^(٥) «لَوْ دَعَيْتُ إِلَى كِرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبِلْتُ»^(٦).

أما عن الاقتباس من الحديث عند ابن نايقا فيظهر في قوله عن الضب: «إِنَّهُ مِنْهُ طَعَامَ الْأَعْرَابِ، وَفَدَّ عَلَيَّ خِوَانِ النَّبِيِّ - ﷺ - بَعْضُ الْأَصْحَابِ»^(٧)، فعن ابن عباس أنه قال: «أَكَلِ الضَّبَّ عَلَى مَائِدَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَإِنَّمَا تَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - تَقْدَرًا»^(٨). وعن ابن عمر - ﷺ - أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - سُئِلَ عَنْ أَكْلِ الضَّبِّ،

(١) المقامة (١٠): الأصفهانية، للهمداني، ص ٦٣.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ٩١/٢، وابن حزم في الأحكام، ٨٢/٦ من طريق سلام بن سليم.

(٣) المقامة (١٤): الفزارية، للهمداني، ص ٨١.

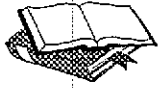
(٤) رواه أحمد في مسنده، ٤٣١/٣، ٢٠٧/٤.

(٥) المقامة (١٥): الجاحظية، للهمداني، ص ٨٤.

(٦) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥١٧٨)، كتاب النكاح، باب (٧٣): من أجاب إلى كراع... بلفظه، ٢٤٥/٩. ورواه مسلم تحت رقم (١٤٢٩)، كتاب النكاح، باب (١٦): الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة، بنحوه، ١٠٥٤/٢. ورواه أحمد في مسنده، ٤٢٤/٢، ٤٧٩، ٥١٢، ٤٨١.

(٧) المقامة (١)، المقامات العشر، لابن نايقا، ص ٢.

(٨) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥٥٣٧)، كتاب الذبائح والصيد، باب (٣٣): الضب، بنحوه، ٦٦٣/٩. والترمذي في كتاب الأطعمة، باب (٣)، ٢٥٢/٤.



فقال: « لا آكله ولا أحرمه »^(١).

وفي قوله: « وقد قال صاحب الشريعة: اطلبوا في حبايا الأرض، فقال له: في استخراج النبات لآفي نبش الأموات »^(٢)، فالرسول حث على زرع الأرض، والاستفادة مما في حناياها فقال: « من أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق »^(٣).

وفي قوله: « ولجأت إلى التَّعوذِ بِآيِ الْقُرْآنِ »^(٤). وقد كان رسول الله - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين ويقول: « أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة »^(٥) « فقال لها: إليك عني لست من ددي ولا ددي مني »^{(٦)(٧)}.

وفي قوله: « لست بأول نبي خذله يومه وصيغه قومه ». وقد ورد عنه - ﷺ - قوله: « إني رسول الله ولن يضيعني أبدأ »^(٨). وفي قوله: « فما تقول في قول محمد - ﷺ - : « لاني بعدي »^(٩) »^(١٠).

(١) رواه مسلم، تحت رقم (١٩٤٣)، كتاب الصيد والذبائح، باب (٧): إباحة الضب، بلفظه،

١٥٤٢/٣، والترمذي في كتاب الأطعمة، باب (٣)، ٢٥٢/٤، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٤.

(٣) رواه أبو داود، تحت رقم (٣٠٧٣)، عن سعيد بن زيد - ﷺ -، كتاب الخراج والامارة،

باب في إحياء الموت، ١٧٨/٣.

(٤) المقامة (٥)، المقامات العشر، لابن نايقا، ص ١١.

(٥) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٣٣٧١) كتاب الأنبياء، باب (١٠)، بنحوه،

٤٠٨/٦. والترمذي في كتاب الطب، باب (١٨)، عن ابن عباس - ﷺ - بلفظه، وقال:

حديث حسن صحيح، ٣٩٦/٤.

(٦) المقامة (٩)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٢١.

(٧) ورد عن رسول الله - ﷺ - في كتاب: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ت:

طاهر أحمد الزواوي، ومحمود الطناحي، ١٠٩/٢.

(٨) المقامة (١٠)، المقامات العشر، لابن نايقا، ص ٢٢.

رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٤٨٤٤)، كتاب التفسير سورة ٤٨، باب (٥)، (إذ

يباعونك تحت الشجرة)، بنحوه، ٥٨٧/٨. وأحمد، ٤٨٦/٣.

(٩) المقامة نفسها، ص ٢٣.

(١٠) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٤٤١٦) كتاب المغازي، باب (٧٨): غزوة تبوك

وفي غزوة العسرة، بنحوه، ١١٢/٨. وأحمد، ٣٣٣٨/٣، ٣٦٩/٦، ٤٣٨ بلفظ «إلا أنه ليس

بعدي نبي».

أما الحريري فيظهر اقتباسه من أحاديث رسول الله - ﷺ - وتضمنه مقاماته، من مثل قوله: «وَمَغَالَاةُ الصَّدَقَاتِ، أُنْتَرِ عِنْدَكَ مِنْ مَّوَالَاةِ الصَّدَقَاتِ»^(١)، مغالاة الصدقات: الزيادة في المهورة، والصدقات واحدها صدقة وهي الصداق، وهذا متضمن لقول رسول الله - ﷺ -: «مَنْ يَمِنُ الْمَرْأَةَ تَيْسِيرَ خَطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرَ صِدَاقِهَا»^(٢). وفي قوله: «فَازْدِرَاهِ الْقَوْمَ لِطِمْرِيهِ، وَنَسُوا أَنَّ الْمَرْءَ بِأَصْغَرِيهِ»^(٣) تضمنين لحديث رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ»^(٤).

وفي قوله: «أَتَرَاكَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّ لَاهِبَانِيَةَ فِي الْإِسْلَامِ، أَوْ مَا حَدَّثْتَ بِنَمَائِكَ نَيْبِكَ عَلَيْهِ أَرْكَى السَّلَامِ»^(٥) تضمنين لقوله - عليه السلام - : «إِنَّ الرَّهْبَانِيَةَ لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْنَا»^(٦).

وقال سعد بن أبي وقاص: «رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى عَثْمَانَ بْنِ مِظْعُونَ التَّبْتَلِ، وَلَوْ أذُنٌ لَأَخْتَصَيْنَا»^(٧). وفي قوله:

(فَمَشْغُوفٌ بِآيَاتِ الْمَثَانِي * * وَمَفْتُونٌ بِرِنَاتِ الْمَثَانِي)^(٨)

إشارة بذلك إلى حديث رسول الله - ﷺ - حين سُمِّيَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ فَقَالَ: «هِيَ هَذِهِ السُّورَةُ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الَّذِي أُعْطِيَ»^(٩).

- (١) المقامة (١): الصنعانية، ٦٢/١.
- (٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٧٧/٧، ٩١.
- (٣) المقامة (٣٥): الشيرازية، ص ٢٧٢، ت: يوسف بقاعي.
- (٤) رواه مسلم برقم (٣٣)، كتاب البر، باب (١٠): تحريم ظلم المسلم وخذله...، ١٩٨٧/٤، وابن ماجه برقم (٤١٤٣) عن أبي هريرة - ﷺ -، كتاب الزهد، باب (٩)، ١٣٨٨/٢.
- (٥) المقامة (٤٣): البكرية، ص ٣٣٩.
- (٦) رواه أحمد في مسنده، ٢٢٦/٦.
- (٧) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل، ٥/٧.
- (٨) المقامة (٤٨): الحرامية، ص ٣٩٨.
- (٩) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٤٤٧٤) في قصة عن أبي سعيد الخدري، كتاب التفسير (٦٥)، باب (١): ماجاء في فاتحة الكتاب، بنحوه، ١٥٦/٨.



وفي قوله: «الضِيَّافَةُ ثَلَاثٌ»^(١)، مقتبس من حديث رسول الله - ﷺ -:
«الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة، وما أنفق عليه بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل
له أن يثوي عنده حتى يخرج»^(٢).

وفي قوله: على لسان الراوي: «لألْحَقَّ بِمَنْ يَقْرُبُ مِنَ الْإِمَامِ وَيُقَرَّبُ أَفْضَلَ
الْأَنْعَامِ»^(٣)، تضمنين لحديث رسول الله - ﷺ - عن أبي هريرة - ﷺ -: «أن رسول الله
- ﷺ - قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى،
فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرة، ومن راح في
الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب
دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام،
حضرت الملائكة، يستمعون الذكر»^(٤).

وفي قوله: «فَصَلُّوا حَبْلَهُ بِالْقَيْلُولَةِ، وَأَقْتَدُوا فِيهِ بِالْأَثَارِ الْمُنْقُولَةِ»^(٥). فقد ورد في
الأثر أن رسول الله - ﷺ - يقيل، وكذا الصحابة - رضوان الله عليهم - حتى يوم
الجمعة، فعن سهل بن سعد - ﷺ - قال: «ما كنا نقيل ولا نتغذى إلا بعد الجمعة»^(٦).
فنقيل: من القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم^(٧).

(١) المقامة (١٥): الفرضية، ص ١٢٠.

(٢) رواه البخاري عن أبي شريح الكعبي - ﷺ -، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف، ٣٩/٨.
ورواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الضيافة كم هو؟، ٣٤٥/٤. ورواه
أبوداود كتاب الأطعمة، باب ماجاء في الضيافة، ٣٤٢/٣.

(٣) المقامة (٢٨): السمرقندية، ص ٢١٣.

(٤) سبق تخرجه، ص ٣٧٨.

(٥) المقامة (١٩): النصيبية، ص ١٤٧.

(٦) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٩٣٩)، كتاب الجمعة، باب (٤٠): قول الله
تعالى: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله»، بلفظه، ٤٢٧/٢.

ورواه الترمذي برقم (٥٢٥) عن سهل بن سعد - ﷺ - بلفظ «ما كنا نتغذى في عهد
رسول الله ولا نقبل إلا بعد الجمعة»، كتاب الصلاة، باب (٣٧٨)، ٤٠٤/٢.

(٧) سنن ابن ماجه، ٣٥٠/١، شرح حديث (١٠٩٩).

وفي قوله: «مَارَوْجُوهُ إِلَّا عَلَىٰ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ، اقْتِدَاءً بِمَا مَهَّرَ الرَّسُولُ - ﷺ - زَوْجَاتِهِ، وَعَقَدَ بِهِ أَنْكِحَةَ بَنَاتِهِ»^(١). وقد قال عمر بن الخطاب - ﷺ -: «أَلَا تَفَالُوا صَدَقَةَ النِّسَاءِ، فَإِنهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرَمَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَقْوَىٰ عِنْدَ اللَّهِ، لَكَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ - ﷺ - مَا عَلِمْتَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَكَحَ شَيْئاً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَنْكَحَ شَيْئاً مِنْ بَنَاتِهِ، عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ ثِنْتِي عَشْرٍ أَوْقِيَّةً، وَالْأَوْقِيَّةُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا، وَثِنْتَا عَشْرَ أَوْقِيَّةً أَرْبَعُمِائَةٍ وَثَمَانُونَ دِرْهَمًا»^(٢).

وهذا الزمخشري يعمد إلى الاقتباس في مقاماته من أحاديث رسول الله فيها هو ذا يقول: «وَلَوْلَا اسْتِيحَابُهَا أَنْ تَكُونَ مَرْفُوضَةً، لَوَزَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»^(٣)، من قوله - ﷺ -: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَاسِقِي كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»^(٤).

ويقول: «وَأَنْ يُقْرَى الطَّارِقُ فِي الجَفْنَةِ الغَرَاءِ»^(٥)، فالجفنة الغراء: البيضاء من كثرة الدسم والشحم، وقيل لرسول الله - ﷺ -: أنت سيدنا وأنت الجفنة الغراء، فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِينَكُمُ الشَّيْطَانُ»^(٦).
ويقول: «وَلَا تَرَزَّأُ نَصِيبَ المُتَكَفِّفِينَ»^(٧)، فالمتكفف: الذي ييسط كفه

(١) المقامة (٢٩): الواسطية، مقامات الحريري، ص ٢٢١، ت: يوسف بقاعي.

(٢) رواه الترمذي برقم (١١١٤)، عن عمر بن الخطاب - ﷺ - كتاب النكاح، باب (٢٣)، ٤٢٣/٣، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) المقامة (٦): الزهد، للزمخشري، ص ٤٥، ت: يوسف بقاعي.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري، تحت رقم (٤٧٢٩)، كتاب التفسير، سورة ١٨، باب (٦): «أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم»، بنحوه، ٤٢٦/٢. والترمذي

برقم (٢٣٢٠) عن سهل بن سعد - ﷺ - كتاب الزهد، باب (٢): ماجاء في هوان الدنيا على الله عز وجل - بلفظ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله...»، ٥٦٠/٤، وقال حديث صحيح.

(٥) المقامة (٣٣): التصديق، للزمخشري، ص ١٩٦، ت: يوسف بقاعي.

(٦) رواه أحمد في مسنده، ٢٥/٤.

(٧) المقامة نفسها، ص ١٩٩.



للسؤال، أو الذي يطلب ما يكف به حاجته، ومنه قول رسول الله ﷺ - لسعد بن أبي وقاص: «لئن تدع أولادك أغنياء خير من أن تدعهم عائلة يتكفون الناس»^(١).
ويقول: «وإياك أن تتناظر دارك كما أو تتراءى نارك كما»^(٢)، من قوله - ﷺ -:
«لا تترآى نارهما»^(٣). ويقول: «وأعتقد أن الخطب ليس من الدد إنما هو من الإدد»^(٤). والدد: اللعب من قوله - ﷺ -: «مأنا من دد ولا الدد مني»^(٥). أي ولا شيء من اللعب مني .

وفي قوله: «إِنَّ نَعْدَبَ عَن آخِرِنَا، وَنُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَىٰ مَنَاحِرِنَا»^(٦). وفي الحديث الشريف: «وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(٧). وفي قوله: «وَيَلْعُ فِي دَمِهِ الْحَرَامَ وَلَوْغَ الْكَلْبِ»^(٨)، اقتباس من حديث رسول الله

(١) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٣٩٣٦)، كتاب مناقب الأنصار، باب (٤٩): قول

النبي - ﷺ -: «اللهم أمض لصحابي هجرتهم»، وبدايته: «الثلث ياسعد...» بنحوه، ٢٦٩/٧. ورواه الترمذي برقم (٢١١٦)، كتاب الوصايا، باب (١): ماجاء في الوصية بالثلث، بلفظ: «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عائلة...»، ٤٣٠/٤.

(٢) المقامة (٢٢): الولاية للزخشي، ص ١٣٨.

(٣) رواه الترمذي برقم (١٦٥٤)، عن جرير بن عبد الله - ﷺ - ابواب السير عن رسول الله

- ﷺ -: باب (٤١): ماجاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، ٨٠/٣، وبداية الحديث: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين...».

(٤) المقامة (٢٨): التصير، ص ١٦٨.

(٥) سبق تخريجه، ص ٤٥٧.

(٦) المقامة (٢٩): الخشية، للزخشي، ص ١٧٨.

(٧) رواه أحمد في مسنده، ٢٢٧/٥، ٢٣١. والترمذي برقم (٢٦١٦) عن معاذ بن جبل - ﷺ -

كتاب الإيمان، باب (٨): ماجاء في حرمة الصلاة، ١٢/٥. وابن ماجه برقم (٣٩٧٣)، كتاب الفتن، باب (١٢): كف اللسان في الفتنة بلفظ: «هل يكب الناس على وجوههم في النار...»، ١٣١٤/٢.

(٨) المقامة (١٩): الغزلة، للزخشي، ص ١١٤.

ﷺ - حين قال: «لا يبلغ أحدكم كما يبلغ الكلب...»^(١).

وهذا الأسواني قد ضمن مقامته بعض الإشارات إلى أحاديث رسول الله ﷺ - مثل قوله: «فحيانًا تحيةً تشديد، وجلسَ مِنَّا غيرَ بعيد، فرَدَدْنَا عَلَيْهِ السَّلَامَ وَلم نَكُدْ»^(٢)، ففيه تضمين لمعنى حديث الرسول ﷺ - حين حث على رد السلام فقال: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولادكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام»^(٣)، وعنه - عليه السلام - قال: «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير»، وفي رواية للبخاري: «والصغير على الكبير»^(٤). وقد استشهد بحديث رسول الله ﷺ -: «إِنَّ مِنْ الشَّعْرِ لِحِكْمًا»^(٥). ليوضح فضل علم الشعر على سائر العلوم^(٦).

وفي قوله: «المدح في المحضِر كَالهَجَاءِ»^(٧)، أشار بذلك إلى قوله ﷺ - مرة للمادح: «ويحك قصمت ظهره»، وفي رواية: «ويحك قطعت عنق صاحبك»^(٨).

(١) رواه ابن ماجه برقم (٣٤٣١) عن ابن عمر - ﷺ - كتاب الأشرية، باب (٥): الشرب بالأكف والكرع، ١١٣٤/٢.

(٢) المقامة الحصيبة، للأسواني، ص ١ من المخطوط.

(٣) رواه مسلم، عن أبي هريرة - ﷺ -، كتاب السلام، باب فضل السلام والأمر بإفشائه، ١٧٠٤/٤.

(٤) رواه البخاري في فتح الباري برقم (٦٢٣٢)، عن أبي هريرة - ﷺ - كتاب الاستئذان، باب (٥): يسلم الراكب على الماشي بلفظه، ١٥/١١.

(٥) رواه الترمذي تحت رقم (٢٨٤٥)، عن ابن عباس - ﷺ - كتاب الأدب، باب ماجاء أن من الشعر حكمة، ١٣٨/٥.

(٦) المقامة نفسها، ص ٢.

(٧) المقامة نفسها، ص ١١.

(٨) رواه البخاري في فتح الباري برقم (٢٦٦٣)، كتاب الشهادات، باب (١٧): ما يكره من

الإطناب في المدح وليقل ما يعلم، ينحوه، ٢٧٦/٥. وأحمد في مسنده من حديث أبي بكر

الثقفي - ﷺ -، ٤٦/٥، ٤٧.



وابن الجوزي يقتبس من أحاديث رسول الله ﷺ - الكثيرة، ويضمنها مقاماته، كقوله: «ولا يتناجا اثنان دون الثالث»^(١) ففيه تضمين لقوله ﷺ - : «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث»^(٢).

وفي قوله: «ثَلَّثَ لِلطَّعَامِ، وَثَلَّثَ لِلشَّرَابِ، وَثَلَّثَ لِلنَّفْسِ»^(٣)، إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ - : «ماملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٤).

وفي قوله: «فاحذروا إعادة النظر»^(٥)، فقد حذر منه رسول الله ﷺ - حين قال لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»^(٦).

وفي قوله: «لا يفلح قوم تملكهم امرأة»^(٧)، اقتباس من «لا، لن يفلح قوم تملكهم امرأة»^(٨).

وفي قوله: «اعلم أن ترك النكاح رهبانية»^(٩)، ولارهبانية في الإسلام

- (١) المقامة (٧): في الحب وإيثار محبة الحق، مقامات ابن الجوزي، ص ٥٦.
- (٢) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٦٢٨٨)، كتاب الاستئذان، باب (٤٥): لا يتناجى اثنان دون الثالث، ٨١/١١. ورواه الترمذي عن ابن عمر - ﷺ - كتاب الأدب، باب (٥٩)، ١٢٨/٥، بلفظ آخر، وقال حديث حسن صحيح. ورواه مالك، في الموطأ، كتاب الكلام باب ماجاء في مناجاة اثنين دون واحد، ٩٨٩/٢.
- (٣) المقامة (١١): في ذم الأكل في قوة العز، مقامات ابن الجوزي، ص ٩١.
- (٤) سبق تخريجه، ص ١٥.
- (٥) المقامة (١٣): في النهي عن النظر، مقامات ابن الجوزي، ص ١٠٦.
- (٦) رواه أبو داود تحت رقم (٢١٤٩) عن شريك - ﷺ -، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، ٢٤٦/٢. ورواه الترمذي تحت رقم (٢٧٧٧)، كتاب الأدب، باب (٢٨)، وقال حديث حسن غريب، ١٠١/٥.
- (٧) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.
- (٨) رواه أحمد في مسنده، ٤٣/٥، ٤٧، ٥١، ٦٥.
- (٩) المقامة (١٩): في الخلوة، ص ١٦٣.



لقوله - عليه السلام - : « إن الرهبانية لم تكتب علينا »^(١).

وفي قوله : « ربما علقت بالحسن المبين فأرداك، فعليك بذات الدين تربت يداك »^(٢)، فهو مقتبس من قوله - عليه السلام - : « تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك »^(٣).

وفي قوله : « أما سمعت ماجاء في الحديث عن المصطفى أنه قال: « من بدأ جفأ »^(٤)، فقد ورد عنه - عليه السلام - أنه قال: « من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن »^(٥).

وفي قوله : « إذا تزوج الرجل ولم يؤلمه يوم »^(٦)، فقد حث بما حض عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال لعبدالرحمن بن عوف بعد أن تزوج: « بارك الله لك، أو لم ولو بشاة »^(٧).

ونخلص إلى أن الاقتباس والتضمين من الحديث الشريف وجد لدى كتاب المقامات، لأنهم يعلمون أهميته، التي عرفت منذ عهد مبكر، إلا أنه يظهر عند ابن الجوزي، والزمخشري أكثر من بقية المقاميين يليهم ابن نايقا والحريري.

(١) رواه أحمد في مسنده، ٢٢٦/٦ .

(٢) المقامة (٣٦): في دواء العشق، ص ٢٩٥ .

(٣) سبق تخرجه، ص ٣٢١ .

(٤) المقامة (٣٧): في العزلة، ص ٢٩٨ .

(٥) رواه الترمذي برقم (٢٢٥٦)، عن ابن عباس - رضي الله عنه -، كتاب الفتن، باب ٦٩، ٥٢٢/٤ .

(٦) المقامة (٥٠): في الأخ الصادق، ص ٤١٥ .

(٧) رواه البخاري في فتح الباري تحت رقم (٥١٦٧) كتاب النكاح باب (٦٨): الوليمة ولو

بشاة. بنحوه، ٢٣١/٩. والترمذي برقم (١٠٩٤) عن أنس - رضي الله عنه - في كتاب النكاح،

باب (١٠) ماجاء في الوليمة، ٤٠٢/٣ .

الاقتباس من الشعر :

نلاحظ اقتباس البديع لشعر غيره وتضمينه مقاماته، كما في قوله: «فاسْتَصْحَبَ لي عَدُوًّا في بُرْدَةِ صَدِيقٍ»^(١)، أخذ هذه العبارة من قول أبي نواس :

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لِيَبَّ تَكَشَّفَتْ * * لَهُ عَنِّ عَدُوِّي فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ^(٢)

ويقول: «فَنِضُوهُ طَلِيحٌ، وَعَيْشُهُ تَبْرِيحٌ، وَمِنْ دُونِ فَرَحِيهِ مَهَامِهِ فِيحٌ»^(٣)، فالجملة الأخيرة أخذها من قول عوف بن محلم :

تَنُوحٌ وَفَرَحًاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا * * وَمِنْ دُونِ أَفْرَاحِي مَهَامِهِ فِيحٌ

وفي قوله: «وَمَنْ مَلَكَ الْفَضْلَ فليُوَاسِ، فَلَنْ يَذْهَبَ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ»^(٤)، مأخوذ من قول الخطيئة في قصيدة من بحر البسيط يمدح بغیضا ويهجو الزبرقان:

من يصنع الخير لا يعلم جوازيه * * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ^(٥)

وفي قوله: * * وَقَوَامِ مَتَى مَاتَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسْهَلُ^(٦)

مأخوذ من معلقة امرئ القيس في وصف الفرس:

وَرُحْنَا وَرَاحَ الطَّرْفُ يَنْغُضُ رَأْسَهُ * * مَتَى مَاتَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسْهَلُ^(٧)

- (١) المقامة (٣): البلخية، للهمداني، ص ٢٢.
- (٢) انظر: ديوان أبي نواس، ت: أحمد عبدالمجيد الغزالي، ص ٦٢١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- (٣) المقامة (٥): الكوفية، للهمداني، ص ٣٣. أما النضو فجمعه الأنضاء، وهو البعير المهزول، والطليح: التعب الذي لا يقوى على السير، والتبريح: الشدة، والمهامه: جمع مهمه وهو الصحراء، وفيح: أي متسعة، انظر: اللسان، مادة: نضو، طلح، برح، مهمه، فيح.
- (٤) المقامة نفسها، ص ٣٤.
- (٥) انظر: ديوان الخطيئة، ص ١٠٩، برواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، شرح: أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- (٦) المقامة نفسها، ص ٤٠، والمقامة (١١): الأهوازية، ص ٦، الشطر الثاني من البيت .
- (٧) ديوان امرئ القيس، حسن السندوبي، ص ١٠٣، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م.

وفي قوله :

« وَأَمَّا بِجُاشِعِ الْأَرْدُلُونَ ** فلم يَسْقِ مَنِيَّتَهُمْ رَاحِسُ
سَيَعْفِلُهُمْ عَنِ مَسَاعِي الْكِرَامِ ** عِقَالٌ، وَيَحْسِبُهُمْ حَابِسٌ^(١)»

فالييت الأخير أصله من قول جرير:

وَمَا زَالَ مَعْقُولًا عِقَالٌ عَنِ النَّدَى ** وَمَا زَالَ مَحْبُوسًا عَنِ الْمَجْدِ حَابِسٌ^(٢)

ويقول:

«وَفِينَا مَقَامَاتٌ حَسَانٌ وَجَوْهَهُمْ ** وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
عَلَى مَكْثَرِيهِمْ رِزْقٌ مِنْ يَعْتَرِيهِمْ ** وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاخَةُ وَالْبَذْلُ^(٣)»

والبيتان لزهير بن أبي سلمى من قصيدة مطلعها:

صَحَا الْقَلْبُ عَنِ سَلْمَى، وَقَدْ كَادَ لَا يَسْلُو

وَأَقْفَرٌ مِنْ سَلْمَى التَّعَانِيقُ فَالثَّقْلُ^(٤)

وفي قوله :

« يُطَوِّفُ مَا يُطَوِّفُ ثُمَّ يَا وَي ** إِلَى زُعْبِ مُحَدَّدةِ الْعِيُونِ
كَسَاهُنَّ الْبِلَى شُعْنًا فُتْمَسِي ** جِيَاعَ النَّابِ ضَامِرَةَ الْبُطُونِ^(٥)»

(١) المقامة (٧): الغيلانية، للهمداني، ص ٥١.

(٢) انظر: ديوان جرير، لكرم البستاني، ص ٢٥٤ من قصيدة بعنوان «إياكم والقين» يهجو فيها الفرزدق، مجموعة ديوان العرب .

(٣) المقامة (٩): الجرجانية، للهمداني، ص ٥٧.

(٤) المقامة والصفحة نفسها، وهي في الديوان :

وفيهم مقامات حسان وجوهها ** وأندية، ينتابها القول والفعل

على مكثريهم حق من يعتريهم ** وعند المقلين السماخة والبذل

انظر: شرح شعر زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب، ت: د. فخر الدين قباد، دار الآفاق الجديدة، ط ١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٥) المقامة (١٣): البصرية، للهمداني، ص ٧٦.



ويلحظ أن هذين البيتين هما في قول الخطيئة:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَّخٍ * * زُغِبُ الحَوَاصِلِ لَأَمَاءٍ وَلَا شَجَرٍ (١)

وكذا ابن ناقياً نلحظ فيمقاماته أنه يتمثل بشعر غيره، كما في قوله:

لَقَدْ كَانَ لِي فِي أَهْلِ الْغَضَا، لَوْ دَنَا الْغَضَا

مزارك، وَلَكِنَّ الْغَضَا لَيْسَ دَانِيَا (٢)

تمثل بشعر غيره، وهو لمالك بن الريب من مرثيته لنفسه، وهي المرثية السابعة

من بحر الطويل، كما قسمها صاحب الجمهرة، ومطلعها:

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي، هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً

بجنب الغضا، أُرْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا؟ (٣)

وفي قوله:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ،

وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهْجُ (٤)

فإن البيت من منظوم بشار بن برد (٥).

= فزغب : جمع أزغب، والمراد الأطفال الصغار، ومحددة العيون: كثيرة الشخوص والنظر

لعودته، ينتظرون ما في يده، وشعث: أي غير متغيرون؛ لعدم من يرعاهم ويحافظ عليهم.

انظر: اللسان، مادة: زغب، حدد، شعث.

(١) انظر: ديوان الخطيئة، ص ١٦٤، برواية الشيباني شرح أبي سعيد السكري، وهي قصيدة من

بحر البسيط.

(٢) المقامة (٣): المقامات العشر لابن ناقياً، ص ٦.

(٣) انظر: جمهرة أشعار العرب، للقرشي، ص ٧٥٩-٧٦٠، ت: د. محمد علي الهاشمي، ج ٢،

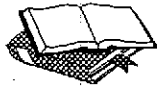
١٤٠١هـ، ١٩٨١م، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر (٦) جامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية.

(٤) المقامة (٥) من مقامات ابن ناقياً، ص ١٢.

(٥) انظر: ديوان شعر بشار بن برد، جمع السيد: محمد بدرالدين العلوي، ص ٦٠ وهي من بحر

البسيط، من قصيدة قالها في خشابه. دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٣م.



وفي قوله : * فاحببَ بِهَا مَقْتُولَةً حِينَ تَقْتُلُ *^(١)

وهذا من شعر الأخطل ، وقد ورد في ديوانه برواية :

فَقَلْتُ اقْتُلُوهَا عَنْكُمْ بِمَزَاجِهَا ** فَأَطِيبُ بِهَا مَقْتُولَةً حِينَ تَقْتُلُ

من قصيدة قالها في مدح خالد بن عبد الله بن أسيد بن أبي العيص بن أمية^(٢) ،

وهي من بحر الطويل.

وتمثل بقول الجعدي:

خَيْطَ عَلَى زَفْرَةٍ فَتَمَّ وَلَمْ ه ** يَرْجِعُ إِلَى دَقَّةٍ وَلا هَضْمٍ^(٣)

وتمثل بقول عبيد:

أَفْلَحَ بِمَا شِيتَ فَهَقْدَ يَرْدِيكَ الـ ** ضَعْفٌ وَقَدْ يَجْدَعُ الْأَرِيبَ^(٤)

وبقول العباس الأحنف:

أَتَأْذِنُونَ لِصَبِّ فِي زِيَارَتِكُمْ ** فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ^(٥)

أما الحريري فيمزج بين الشعر والنثر في مقاماته، وجميع الأبيات الواردة في

(١) المقامة (٦) من مقامات ابن ناقيا، ١٢.

(٢) انظر: شرح ديوان الأخطل، إيليا سليم الحاوي، ص ٢٦٣، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩ م.

(٣) المقامة (١): المقامات العشر لابن ناقيا، ص ١. وانظر: شعر النابغة الجعدي، ص ١٥٦، وهو من بحر الطويل، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط ١، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

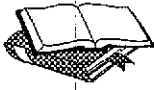
(٤) المقامة (٨)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ١٩، وقد ورد البيت في الديوان برواية:

أَفْلَحَ بِمَا شِيتَ فَقَدْ يَبْلُغُ بِالـ ** ضَعْفٌ وَقَدْ يَجْدَعُ الْأَرِيبَ

انظر: ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٢٦، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٥) المقامة (٩)، المقامات العشر لابن ناقيا، ص ٢٠، وانظر: ديوان العباس بن الأحنف، ص ١٧٢، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، من بيتين بعنوان:

عَفَ الضَّمِيرُ فَاسْعَدَ النَّظْرُ.



المقامات من إنشائه ما عدا أربعة أبيات؛ منها: حين أبدى أحد الحضور إعجابه بقول
البحرّي:

كَأَنَّمَا يَبْسُمُ عَنْ لَوْلُوٍ * * مُنْضِدٍ أَوْ بَرْدٍ أَوْ أَقَاحٍ (١)

امتعض وقال: بالضيعة الأدب، وأنشد بيتين ضمنهما معنى بيت البحرّي
السابق قائلاً:

« نَفْسِي الْفِدَاءُ لِثَغْرِ رَاقٍ مَبْسَمُهُ

وَرَانَهُ شَنْبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنْبِ

يَفْتَرُّ عَنْ لَوْلُوٍ رَطْبٍ وَعَنْ بَرْدٍ

وَعَنْ أَقَاحٍ، وَعَنْ طَلْعٍ، وَعَنْ خَبَبٍ» (٢)

وأما قوله:

سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضَوَ بُرْقُعِهَا الـ

قَانِي وَإِيدَاعَ سَمْعِي أَطِيبَ الْخَبْرِ

فَزَحْزَحَتْ شَفَقًا عَشَى سَنَا قَمَرٍ

وَسَاقَطَتْ لَوْلُوًا مِنْ خَاتَمِ عَطْرِ (٣)

فهو تضمين لقول أبي الفرج الغساني الدمشقي ((الوأواء الدمشقي)) في قوله:

فَأَمْطَرَتْ لَوْلُوًا مِنْ نَرَجِسٍ، وَسَقَّتْ

وَرَدًا، وَعَصَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ (٤)

(١) المقامة (٢): الحلوانية، ٩٨/١، شرح الشريشي.

(٢) المقامة نفسها، ٩٩/١، شرح الشريشي، ومنه: الثغر: الأسنان، ميسمه: موضع ابتسامه، يعني

الفم، الشنب: الماء القليل الجاري على الأسنان، وقيل الشنب: برد الأسنان والفم، رطب: أي

طري، الطلع: أول حمل النخلة، وهو الفرخ فإذا انشق فهو الضحك، وبه تشبه الأسنان في

بياضه، الحيب: تنضد الأسنان، انظر: اللسان، مادة: ثغر، بسم، شنب، رطب، طلع، حيب.

(٣) المقامة نفسها، ١١٤/١، نضو: كشف، انظر: اللسان، مادة: نضو.

(٤) المقامة نفسها، ١٠٢/١.

وهذان بيتان، الأول: للبحرزي، والثاني: للوأواء الدمشقي، أما البيتان الآخران فهما لابن سكرة الهاشمي، وأولهما :

«جَاءَ الشَّتَاءُ وَعِنْدِي مِنْ حَوَائِجِهِ

سَبْعٌ إِذَا القَطْرُ عَنْ حَاجَاتِنَا حِسًا»^(١)

ويدور الشعر الوارد في مقاماته حول الغزل والوصف، والشكوى والاستجداء والفخر، والمدح، والوعظ، والتوبيخ، والخداع، والمجون، ويرد أيضاً في الحكمة والإخوانيات.

ويضمن الحريري مقاماته شطرين من أبيات الشعر، وقد يأخذ شطرة ويبقيها كما هي، كما في المقامة الزبيدية حين باع أبو زيد ابنه إلى الحارث على أنه عبد، وأنشد الغلام أبياتاً منها:

عَلَى أَنِّي سَأُنْشِدُ عِنْدَ بَيْعِي * * أَضَاعُونِي، وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا^(٢)

والشطرة الثانية من بيت لعبدالله بن عمر الشهير بالعرجي، والبيت :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا * * لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادٍ تُغْرُ^(٣)

وقد يأخذ شطرة ويوردها ضمن النثر، وقد يغير فيها قليلاً وقد يبقيها كما هي، وفي المقامة الساسانية في حديث بين أبي زيد وابنه يقول الولد لأبيه: «وَلَأَقْتَدِينَ يَأْتَارَكَ الْوَاضِحَةَ، حَتَّى يُقَالَ: مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ... فَاهْتَزَّ أَبُو زَيْدٍ لْجَوَابِهِ، وَابْتَسَمَ، وَقَالَ: مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ»^(٤)، فقوله ما أشبه الليلة بالبارحة من قول طرفة، من قصيدة لعمر بن هند يلوم أصحابه في خذلانهم إياه:

«كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَتَهُ * * لَأَتَرَكَ اللَّهَ لَهُ وَأَضِحَهُ

(١) المقامة (٢٥): الكرجية، ص ١٩٣.

(٢) المقامة (٣٤): ص ٢٦٦.

(٣) الأغاني، ٣٨٨/١، الدار التونسية للنشر.

(٤) المقامة (٤٩): الساسانية، ص ٤١٣.

كُلُّهُمْ أَرْوَغٌ مِنْ تَعَلَّبٍ ** مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ»^(١)

وقول أبي زيد: «من أشبه أباه فما ظلم» مأخوذة من قول رؤبة بن العجاج ضمن أبيات منسوبة له:

بأبه أقتدى عدي في الكرم ** وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمَ^(٢)

وقيل: بل هو مثل أخذه الناس من قول كعب بن زهير:

أنا ابن الذي لم يُخزني في حياته

قديماً، وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ^(٣)

وقد غير فيه أبو زيد تغييراً طفيفاً. وقد يأخذ الحريري جملة من بيت ويورها في نثره، كما نرى في المقامة البكرية، حيث يقول: «فأنبى لي يافع، في وجهه شافع»^(٤)، فالجملة الثانية مأخوذة من قول ابن قنبر المازني:

في وجهه شافع يمحو إساءته ** مِنْ الْقُلُوبِ وَجِيهٌ حَيْثَمَا شَفَعَا^(٥)

وقد لا يورد النص كما هو، وإنما نرى في أبياته آثار التضمين، ففي المقامة الساوية يقول أبو زيد، وهو يعظ:

«أما نادى بك الموت؟ ** أما أسمعك الصوت؟»

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ١١٨، شرح الأعلام الشتمري، ت: درية خطيب، لطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٢) شرح ابن عقيل، ٥/١، دار الاتحاد العربي، وانظر مجموع اشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج، ص ١٨٢، تصحيح: وليم بن الورد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(٢)، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٣) انظر: شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله - ﷺ، جمال الدين محمد ابن هشام الأنصاري، ص ٨٣، ت: د. محمود حسن أبوناجي، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط(١)، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٤) المقامة (٤٣)، ص ٣٣٦.

(٥) المقامات الأدبية، للحريري، ص ٣٥٤.

أَمَا تَخْشَى مِنَ الْفَوْتِ؟ ** فَتَحْتَاطُ، وَتَهْتَمُ^(١)

ولعلك تلمح في البيتين قول أبي العتاهية :

«كَمْ غَافِلٍ أَوْدَى بِهِ الْمَوْتَ ** كَمْ يَأْخُذُ الْأَهْبَةَ لِلْفَوْتِ

مَنْ كَمْ تَزَلُ نِعْمَتَهُ قَبْلَهُ ** زَالَ عَنِ النِّعْمَةِ بِالْمَوْتِ»^(٢)

وهذا أبوطلحة النعماني يقتبس من شعر غيره، ويضمنه مقامته كما في قوله:

أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ مِنْ نَسْلِ الْعَرَبِ ** يَمَلَأُ الدَّلُوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(٣)

فالشطر الأول مأخوذ من قول الله في الخضر في ألوان

الناس، السمرة:

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفَنِي ** أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ مِنْ بَيْتِ الْعَرَبِ

والشطر الثاني ورد في الصحاح في (س ج ل)، وقال: والمساجلة: المفاخرة،

بأن تصنع مثل صنعه في جري أو سقي، واصله من الدلو، وقال الفضل بن عباس بن

عتبة بن أبي لهب:

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جِدًّا ** يَمَلَأُ الدَّلُوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(٤)

وهذا البيت موجود في مقامة لبديع الزمان الهمذاني وفيها يقول :

أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ ** يَمَلَأُ الدَّلُوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(٥)

وابن الجوزي رغم أنه في مقاماته يلجأ إلى الشعر من منظومه، فإنه يعتمد إلى

الاقْتِبَاسِ مِنْ أَشْعَارِ غَيْرِهِ، وَيُضْمِنُهَا بَعْضَ مَقَامَاتِهِ، فَقَوْلُهُ:

«هَلَّا سَأَلْتَ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ ** إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تُعَلِّمِي

(١) المقامة (١١)، ص ٨٥.

(٢) ديوان أبي العتاهية، ص ٥٤.

(٣) خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصبهاني، القسم العراقي، ٥/٢.

(٤) انظر: الصحاح، الجوهري، مادة: خضر، سجل.

(٥) المقامة (٦): الأسدية، للهمذاني، ص ٣٨.

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي ** أَغَشَى الْوَعَا، وَأَعَفَّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ^(١)

فالبیتان من منظوم عنتره بن شداد^(٢).

وحین عاب علی العشاق تصرفاتهم تمثل بعض أشعارهم، فی قوله :

«إِنِّي لِأَجْلَسُ فِي النَّادِي أَحَدْتُهُمْ ** فَاسْتَفِيقُ وَقَدْ غَالَتْنِي الْغُيُورُ

يَهْوِي بِقَلْبِي حَدِيثَ النَّفْسِ نَحْوَكُمْ ** حَتَّى يَقُولُ جَلِيسِي: أَنْتَ مَخْبُولُ»

وقوله :

«وَشَغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَى ** مَا كَانَ مِنْكَ فَإِنَّهُ شُغِلِي

وَأَدَمْتُ نَحْوَ مُحَدَّثِي نَظْرِي ** أَيُّ، قَدْ فَهَمْتُ، وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي»

وقوله:

«بِرَبِّكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلِي ** قُبَيْلَ الصُّبْحِ أَوْ قَبْلَتْ فَاهَا؟

وَهَلْ رَفَّتْ عَلَيْكَ قُرُونٌ لَيْلِي ** رَفِيفَ الْأَقْحَوَانَةِ فِي نَدَاهَا؟»^(٣)

والأبيات كلها لمجنون ليلي^(٤).

أما الأبيات التالية فقد تمثل فيها بقول عروة بن حزام فقال:

جَعَلْتَ لِعِرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ ** وَعِرَافِ بَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي

فَقَالَ: نَعَمْ تَشْفَى مِنَ الدَّاءِ كُلِّهِ، ** وَرَاحَا مَعَ الْعَوَادِ يَتْتَدِرَانِي

فَمَا تَرَكََا مِنْ سَلْوَةٍ يَعْلَمَانِيهَا ** وَلَا شَرْبَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي

(١) المقامة (١٢): في الغزاة، مقامات ابن الجوزي، ص ١٠٢.

(٢) ديوان عنتره، ص ٢٥، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٣) انظر: المقامة (٣٦): في دواء العشق، ص ٢٨٩.

(٤) ديوان مجنون ليلي، فالبیتان الأوليان، ص ١٤٥، والتي تليهما ص ١٤٤، والأخيرين ص ٣٥،

وقد ورد البيت الرابع برواية :

واديهم فيه محقق نظري ** أن قد فهمت وعندكم عقلي

انظر: شرح ديوان مجنون ليلي، محمود كامل فريد، مطبعة حجازي بالقاهرة.

فقالا شَفَاكَ اللهُ، واللهِ مالنا ** بما صُمِنَتْ مِنْكَ الضَّلُوعُ يَدَانِ» (١)

وهذه أبيات لأبي فراس الحمداني تمثل بها في إحدى مقاماته؛ فقال:

لقد ضَلَّ من نحوي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ ** وقد زَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابُ
ولكنني والحمد لله حَازِمٌ ** أعز إذا ذَلَّتْ لَهْنٌ رِقَابُ
ولا تملك الحسنة نَاءَ قَلْبِي كُلِّهِ ** ولو شِلْتَهَا رِقَّةٌ وشبابُ
وأجرى ولا أعطي الهوى فَضْلَ مِقْوَدِي ** وأهفو ولا يخفى عليَّ صوابُ
صَبُورٍ، ولو لم تبق مِنِّي بَقِيَّةٌ ** فتول، ولو أن السيوفَ جَوَابُ (٢)

وللمتنبي بيتان تمثل بهما ابن الجوزي في إحدى مقاماته، وهما:

وما للدهر إلا من رِوَاةٍ قَصَائِدِي ** إذا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا
فدع كلَّ قولٍ غيرِ قولِي فإنني ** أنا الصَّائِحُ المحْكِي وَالْآخِرُ الصَّدَى (٣)

وعليه نلاحظ أن كتاب المقامة، عمدوا إلى الاقتباس من الشعر، وتضمينه مقاماتهم، ولعل هذا يدل على حافظة قوية واعية، ورغبة في حفظ التراث الشعري، وكون المزوجة بين النثر الذي أقيمت عليه المقامة وتضمينه بالأبيات الشعرية يحدث اثاراً لانتباه السامعين، فضلاً عن الأثر الذي تحدثه القافية من جرس صوتي مرده بحور الشعر وتفعيلاته، هذا ما حدا بالمقاميين تضمين مقاماتهم لكثير من الأبيات الشعرية.

(١) المقامة والصفحة نفسها، وانظر ديوان: عروة بن حزام، ص ١٢.

(٢) المقامة نفسها، ص ٢٩١، وانظر: ديوان أبي فراس الحمداني، من قصيدة بعنوان: «أما لجميل»، ص ١٣؛ وهي من بحر الطويل، شرح وتقديم عباس عبدالسلام، ط (١) ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م، دار الكتب العلمية.

(٣) المقامة (٥٠): - في الأخ الصادق - ص ٤١١، انظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ناصيف اليازجي، دار القلم، بيروت، لبنان، والبيتان من قصيدة قالها أبو الطيب في مدح سيف الدولة الحمداني يهنئه بعيد الضحى سنة ٣٤٢، ولكن ورد البيت الثاني برواية: ودع كل صوت غير صوتي، فإنني ** أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

الاقتباس من الأمثال :

لقد عمد كتاب المقامات معظمهم إن لم يكن كلهم إلى اقتباس الأمثال، وتضمينها مقاماتهم وأولهم ابن نباتة فهاهو ذا يقول: « وَرَبِّ إِصَابَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامِي »^(١)، ومن قولهم: «(ورب رمية من غير رام)»، أي رب رمية مصيبة حصلت من رام مخطيء، لا أن تكون رمية من غير رام؛ فإن هذا لا يكون قط، وقالها الحكم بن عبد يغوث المنقري، وكان أرمى أهل زمانه، وآلى يميناً ليدجن مهاة، فحمل قوسه وكنانته، ولم يصنع يومه ذلك شيئاً، وبات ليلته على ذلك، وأقسم ليقتل نفسه إن لم يذبحها في تلك الليلة، وخرج مع ابنه المطعم، فإذا هما بمهاة فرماها فأخطاها فقال ابنه: يا أبتى اعطني القوس، فأعطاه فرماها فلم يخطئها، فقال أبوه: رب رمية من غير رام^(٢).

ومثلها ابن نايقا الذي أخذ من الأمثال وضمنها مقاماته كما في قوله: «(وأنى لك مقروع)»^(٣)، مثل وأصله: «(حنت ولاتهنت، وأنى لك مقروع)»، ومعنى حنت ولاتهنت: أن غرضها: إنما كان ليجري اسمه على لسانها حيناً إليه، لانصحاء لأبيها وتحذيراً، و«(لاتهنت)» على الدعاء، أي لاهنأها الله ذلك^(٤)، وفي رواية: «(حنت ولات هنت وأنى لك مقروع)»، هنت: من الهتين وهو الحنين، ولات: مفصولة من هنت، أي لات حين هنت، فحذفت «(حين)» لكثرة ما يستعمل لات معه، وقصة المثل: أن الهجمانة بنت العنبر بن عمرو بن تميم تعشق عبشمس بن سعد، وكان يلقب بمقروع، فأراد أن يغير على قبيلة الهيجمانية، فعلمت بذلك الهيجمانية فأخبرت أباه، فقال مازن بن مالك بن عمرو: حنت ولات هنت، أي اشتاقت، وليس وقت اشتياقها، ثم رجع من الغيبة إلى الخطاب؛ فقال: وأنى لك مقروع، أي من أين تظفرين به؟

(١) مقامة ابن نباتة السعدي، ٥.

(٢) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٥١، ٣١٢، مجمع الأمثال، للميداني، ص ٢٩٩/١.

(٣) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٦.

(٤) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٤٨.

ويضرب لمن يحن إلى مطلوبه قبل أوانه^(١).

وفي قوله: «مأشبه الجار بالدار»^(٢)، من المثل القائل: «الجار قبل الدار»^(٣)،

وفي رواية: «الجار ثم الدار»، ومعناه إذا أردت شراء دار فسل عن جوارها قبل شرائها^(٤).

وفي قوله: «كأنه من العي لما أن تكلم باقل»^(٥)، فباقل رجل ضرب به المثل في

عيه، فقيل: «إنه لأعيا من باقل»، وهو رجل من ربيعة، وكان غيباً^(٦)، وقيل هو من إياد، بلغ من عيه أنه اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً، فمر بقوم، فقالوا له: بكم اشترت الظبي؟ فمد يديه، ودلع لسانه، يريد أحد عشر، فشرد الظبي، وكان تحت إبطه^(٧).

أما الاقتباس والتضمين من الأمثال عند الحريري فيلحظ في قوله:

«فراودناه على أن يعود، وأن لا يكون كقذار في ثمود»^(٨)، تضمين لمثل؛ لأن

قذار هو: عاقر ناقة صالح، وهو مثل يضرب في الشؤم فيقال: أشأم من قذار^(٩).

وفي قوله: «ينزو ويلين»^(١٠)، ضمن هذا المثل مقامته، وهو يضرب لمن يتعزز

ثم يذل، ويقال: إن أصله أن الجدي ينزو وهو صغير، فإذا كبر لان^(١١).

(١) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ١/١٩٢-١٩٣، عبء الشمس، ضوءها، فحذف

الهمة، وسمى ذلك لأنه كان وسيم الوجه حسن الحلقة.

(٢) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٦.

(٣) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٢٧٧.

(٤) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ١/١٧٢.

(٥) المقامة (٣)، المقامات العشر، لابن نايقا، ص ٧.

(٦) كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٣٦٨.

(٧) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ٢/٤٣.

(٨) المقامة (١٨): السنجارية، ص ١٣٥.

(٩) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٣٣٢.

(١٠) المقامة والصفحة نفسها.

(١١) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٥٣، مجمع الأمثال للميداني، ١/١٢٥.

وفي قوله: «لابساً جلد النمر»^(١)، ضمن هذا المثل مقامته، ويضرب للمتقح الجريء، لأن النمر أجراً سبع وأقله احتمالاً للضيم^(٢).

وفي قوله: «أفلت وله حصاص»^(٣)، أيضاً ضمن هذا المثل مقامته وهو يضرب لمن نجا من هلكة أشفى عليها بعد أن كاد يهوي فيها، والحصاص: العدو، وقيل إنه الضراط^(٤).

وفي قوله: «لقد تحككت العقرب بالأفعى، واستنتت الفصال حتى القرعى»^(٥)، مثلاً، الأول: «لقد تحككت العقرب بالأفعى»، ويضرب لمن ينازع من هو أقوى منه، والثاني: «استنتت الفصال حتى القرعى»، ويضرب لمن يتكلم مع من لا ينبغي له أن يتكلم معه^(٦).

وفي قوله: «تزوجت هذه لتؤنسي في الغربية، ... فلقيت منها عرق القربة»^(٧)، لقيت منها عرق القربة، مثل يضرب لمن يلقي شدة من الأمر الذي يزاوله، كما أن حامل القربة يلقي جهداً حتى يعرق^(٨).

وفي قوله: «فقال عند الصباح يحمد القوم السرى، فهل ترى كما أرى»^(٩)، فـ«عند الصباح يحمد القوم السرى»، مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة^(١٠).

(١) المقامة والصفحة نفسها .

(٢) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٥٣، مجمع الأمثال للميداني، ١٨٠/٢ .

(٣) المقامة والصفحة نفسها .

(٤) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٢٠، مجمع الأمثال للميداني، ٧٠/٢ .

(٥) المقامة (٣٧): الصعيدية، ص ٢٨٨ .

(٦) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٢٨٦، مجمع الأمثال، ٣٣٣/١ .

(٧) المقامة (٤٠): التبريزية، ص ٣٠٤ .

(٨) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٥٣، مجمع الأمثال، ١٦٧/١ .

(٩) المقامة (٤٣): البكرية، ص ٣٢٩ .

(١٠) انظر: مجمع الأمثال، ٣/٢ .

وفي قوله: « ثم نادى ياغشمشم، يعطر منشم، فلباه غلام كدرة غواص، أو
جؤذر قناص»^(١)، منشم: امرأة كانت تبيع العطر، ويضرب المثل للشر العظيم.

والجؤذر: ولد البقرة الوحشية، يضرب به المثل في الجمال^(٢).

وفي قوله: «فزعم أن الشيخ أشغل من ذات النحيين، وفي حرب كحرب
حنين»^(٣)، فذات النحيين: مثل يضرب للمشغول دائماً^(٤).

وفي قوله: «وأنا فيها أصرد من عين الحرباء، والعنز الجرباء»^(٥)، هذان مثلان
يضربان لمن يبلغ منه البرد وذلك لأن الحرباء تدور أبداً مع الشمس وتستقبلها بعينها،
والعنز الجرباء لاتدفع في الشتاء لقلة شعرها^(٦)، وذكر بعضهم أن العنز الجرباء
تصحيف المثل الأول^(٧).

وهذا أبوطلحة النعماني يقتبس من الأمثال ويضمنها مقامته كما في قوله:
«استنهضته فوجدته السليك في عدوته ، وتأبط في حيلته وجرأته»^(٨).

والسليك بن السلكة أحد العدائين العرب الذين كانوا لايلحقون، ولاتدركهم
الخيال إذا عدوا فيما زعم الرواة، ويضرب المثل به في ذلك، ويقال «أعدى من
السليك»^(٩)، ولأمه السلكة أبيات مشهورة في رثائه رواها أبوتمام في ديوان الحماسة،
وهي من مشطور المديد، وأولها :

- (١) المقامة (٤٦): الخلية، ص ٣٧٢.
- (٢) انظر: أمثال ابن سلام، ص ٣٥٥. مجمع الأمثال، ١/٩٣.
- (٣) المقامة (٤٧): الحجرية، ص ٣٨٥.
- (٤) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٧٤. مجمع الأمثال، ١/٣٧٦.
- (٥) المقامة (٤٤): الشتوية، ص ٣٤٤.
- (٦) انظر: الأمثال لابن سلام، ص ٣٦٧. مجمع الأمثال، ١/١٨٠.
- (٧) شرح مقامات الحريري، ت: يوسف بقاعي، ص ٣٥٨-٣٥٩.
- (٨) خريدة القصر وخريدة العصر، للأصبهاني، ص ٩.
- (٩) انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٤٧/٢.

طاف يبغي نجوة ** من هلاك، فهلك^(١)

وتأبط : يريد تأبط شراً الفهمي، واسمه ثابت، وكنيته أبوزهير، وكان من العدائين المشهورين أيضاً، ويضرب به المثل في ذلك^(٢)، ولتلقبه تأبط شراً قصة مذكورة في شرح ديوان الحماسة، وهو معدود في الشعراء^(٣).

وفي قوله :

((فرائد أمثال الدمى تصطي الفتى ** لهن صدور عاليات وأعجاز))^(٤)

الدمى : جمع دمية، وهي الصورة الممثلة من العاج وغيره، ويضرب بها المثل في الحسن^(٥).

وكذا ابن الجوزي مثل باقي كتاب المقامة نجد الأمثال متضمنة مقاماته؛ ففي قوله: ((لايسلك سبيله في تدبيره، ولايعرف قبيله من دبيره، ولايفلح قوم تملكهم امرأة... فقالوا: شب عمرو عن الطوق))^(٦)، فالمثل ((شب عمرو عن الطوق))، وقيل: ((كبر عمرو عن الطوق))، وصاحب المثل جذيمة الأبرش بن مالك، قاله لابن أخته عمرو بن عدي اللخمي، وكان له طوق يلبسه في الصغر، فاستهوته الجن دهرًا إلى أن وجده مالك وعقيل ابنا فارح من بلقين، وهما ندمانا جذيمة، وحين أرادت أمه أن تعيد الطوق عليه، قال له جذيمة: ((كبر عمرو عن الطوق)) فذهبت مثلاً^(٧).

وفي قوله : ((ثم يقلب لي ظهر المجن، ويلبس جلد النمر إذا أمر، فقد جزوني

(١) انظر: شرح ديوان الحماسة، للخطيب التبريزي، ١٩١/٢، عالم الكتب، بيروت.

(٢) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ٤٧/٢.

(٣) انظر: الخريدة، ص ٩ عن ديوان الحماسة، لأبي تمام، ٢٦/٢ بشرح الخطيب التبريزي، وهو كذلك.

(٤) الخريدة، ص ١١، الفرائد: جمع فريدة، وهي البكر لم تمس، انظر: اللسان، مادة: فرد.

(٥) الخريدة، ص ١٢.

(٦) المقامة (١٦): في النفس، مقامات ابن الجوزي، ص ١٢٨.

(٧) انظر: كتاب الأمثال لابن سلام، ص ٢٩٧، ومجمع الأمثال، للميداني، ١٣٧/٢-١٣٩.

جزاء سنمار، وأنا بنيت لهم الدار»^(١)، ففي قوله: «جزاء سنمار»، أي جزائي جزاء سنمار وقد كان بناءً مجيداً، وهو من الروم، فبنى الخورنق الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلما نظر إليه النعمان كره أن يعمل مثله لغيره، فألقاه من أعلى الخورنق فخر ميتاً^(٢). فضربت العرب به المثل لمن يجزى بالإحسان الإساءة، ويقال: هو الذي بنى أطم أحيحة بن الجلاح، فلما فرغ منه قال له أحيحة: لقد أحكمته، قال: إني لأعرف فيه حجراً لو نزع لتقوض من عند آخره، فسأله عن الحجر، فأراه موضعه، فدفعه أحيحة من الأطم فخر ميتاً^(٣).

وفي قوله: «أسمع جمععة ولاأرى طحنا»^(٤)، فهذا مثل، ومعناه: أسمع صوت رحي ولاأرى ثمرة ماتطحنه^(٥).

وفي قوله: «ندماني جذيمة»^(٦)، وجذيمة: هو الأبرش الملك، وكان ابن اخته عمرو بن عدي قد فقدته جذيمة الأبرش دهرأ، ثم إن رجلين من بلقين يقال لأحدهما: مالك، والآخر: عقيل وجداه فقدا به على جذيمة، فعظم موقعه منه، وقال: سلاني ماشئتما، فسألاه أن يكونا نديمييه ماعاش وعاشا، فأجابهما إلى ذلك، فهذا ندمانا جذيمة^(٧).

وفي قوله: «شنشنة أعرفها من أخزم»^(٨)، وقيل: إن الشعر لأبي أخزم الطائي، وهو جد أبي حاتم أو جد جده، وكان له ابن يقال له أخزم، وكان عاقاً، فمات وترك بنين فوثبوا يوماً على جدتهم أبي أخزم فأدموه فقال:

(١) المقامة نفسها، ص ١٣٠.

(٢) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٢٧٣.

(٣) انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ١/١٥٩-١٦٠.

(٤) المقامة (١٨): في ذكر الحج، مقامات ابن الجوزي، ص ١٤٥.

(٥) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ٣٢١.

(٦) المقامة (٣١): في التعازي، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٥٦.

(٧) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ١٧٢.

(٨) المقامة (٣٦): في دواء العشق، مقامات ابن الجوزي، ص ٢٨٧.

إن بني ضرجوني بالدم ** شنشنة أعرفها من أخزم

ويروى ((زملوني)) وهو مثل ضرجوني في المعنى: أي لطحوني، يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق، والشنشنة: الطبيعة والعادة، ويروى المثل عن عمرو ابن الخطاب، قاله في ابن عباس لشبهه في رأيه بأبيه، ويقال: إنه لم يكن لقريش مثل رأي العباس، يضرب في قرب الشبه^(١).

ونخلص إلى أن الأمثال وهي جمع مثل، والمثل مأخوذ من المثال، وهو: ((قول سائر يشبه في حال الثاني الأول، والأصل فيه التشبيه))^(٢) أو هو ((قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، لبيان أحدهما الآخر ويصوره))^(٣)، قد وردت في البحث، لما لها من أهمية ترجع إلى اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بها، وهذا الاهتمام هو ما حدا بمؤلفي كتب الأمثال لتأليفها كما قال ابن سلام ذلك: ((وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب، وحثنا عليه ماروينا من الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ - أنه قد خبر بها، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف))^(٤).

وكذا فإن السبب في ضرب الأمثال ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٥).

(١) انظر: كتاب الأمثال، لابن سلام، ص ١٤٤. ومجمع الأمثال، للميداني، ٣٦١/١.

(٢) مجمع الأمثال، للميداني، ٥/١.

(٣) الأمثال في القرآن، محمود بن الشريف، ص ١٢٢، ط ٢، دار عكاظ للنشر.

(٤) كتاب الأمثال، ص ٣٤.

(٥) سورة إبراهيم، الآية ٢٥.



الصورة :

إن مصطلح الصورة من أدق المصطلحات البلاغية، ولعل أيسر تعريف مذكوره د/الطاهر أحمد مكي، فتعنى الصورة التجسيم فيقول: «كلمة صورة تعني أصلاً التجسيم، وفي القرآن الكريم: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(١). وفيه أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٢).

ثم اتسع معناها في النقد الأدبي الحديث، وتحدد في الوقت نفسه، اتسع؛ لأن استخدامها لا يقتصر على ماتراه العين، بل امتد إلى كل ما يؤثر في أي حواسنا أو في مجموعة منها، لأن كل إحساس ينجم عنه تصور معين، وتحدد؛ لأنه على الأقل فيما يتصل بشكل الصورة يشمل الانطباعات الحسية، تجيء وليدة التشبيه أو الاستعارة، وبقية الصور البلاغية مهما كانت الحاسة التي تتجه إليها، ويستبعد الوصف المباشر حتى ولو كان حسيًا^(٣).

وكلام «الطاهر» هذا يبين لنا انحصار الصورة في التشبيه والاستعارة، أو كما قال: «بقية الصورة البلاغية»، كالمجاز، والكناية والأخيرة كان لها الدور في قيام الرمزية في هذا البحث؛ لذا اكتفينا بها هناك، لعدم التكرار ...

التشبيه :

معلوم أن التشبيه هو: «الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»^(٤).

لذا كان الفن الأول الذي اكتظت به جميع المقامات على اختلاف أنواعها، وأزمانها، وأصحابها، هذا الاكتظاظ يختلف كثرة وقلة، تبعاً لأذواق الكتاب الذين دمجوها، وتبعاً لمعطياتهم الأدبية، ومواهبهم، وأخيلتهم التي يعظم حظها ويضؤل من كاتب لآخر. وقد لحظ أن التشبيهات فيها مادية محسوسة في معظمها، وتشبيه المحسوس بالمحسوس أشيع، وعليها أغلب.

(١) سورة الانفطار، آية ٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ٦.

(٣) الشعر العربي المعاصر - روائعه ومداخل لقراءته، ص ٨٢، دار المعارف، ط ١، ١٩٨٠ م.

(٤) الإيضاح، للقزويني، ص ٣٢٨.



أما التشبيهات الناشئة عن التشابه المعنوية المجردة فهي قليلة جداً. كما أن هذه التشابه تميل إلى الاعتراف من البيئة البدوية، ومن الظواهر الطبيعية، والكونية، ثم من المرافق الحضارية الضرورية التي لها صلة وثيقة بحياة الإنسان كالشمعة، والعصى، والبلور، والجفنة، ثم بالحيوانات كالفرس، والحية، والأسد.

وقد نوه بنوع التشبيه د. أحمد أمين حين قال: «لقد اهتم البديع كثيراً بالصورة البيانية في مقاماته، وبعض هذه الصور قديم مطروق، وبعضها جديد مبتكر»^(١).

ومن التشبيهات المطروقة قوله في الجياد «وَلَمْ تَزَلْ نَفْرِي أَسْنِمَةَ النَّجَادِ، يَتَلَكَّ الْجِيَادِ، حَتَّى صِرْنَ كَالْعِصِيِّ، وَرَجَعْنَ كَالْقِسِيِّ»^(٢) فتشبيه الجواد الذي أضناه السفر بالعصي في الدقة والضمور، وبالقسي في تقوسها وانحنائها، قديم مطروق، وهذا تشبيه محسوس. محسوس.

ومن التشبيهات الجديدة الممزوجة بالعاطفة قوله: «وَتَاخَ لَنَا وَادٍ فِي سَفْحِ جَبَلٍ ذِي أَلَاءٍ وَأَثَلٍ، كَالْعَدَارِي يُسْرِّحَنَّ الضَّفَائِرَ، وَيَنْشُرَنَّ الْغَدَائِرَ»^(٣).

فكل الصور التشبيهية هنا مادية محسوسة، فهو يشبه الشجر في اعتدال قوامها، وتهدل أغصانها بفتيات يسرحن شعورهن، وهو تشبيه ممزوج بعاطفة الشاعر يكشف عن عشق بديع الزمان للطبيعة.

وفي المقامة المضيرية يشبه عين الماء في صفاتها بلسان الشمعة، وهو تشبيه مادي يظهر في قوله: «بِاللَّهِ تَرَى هَذَا الْمَاءَ مَا أَصْفَاهُ! أَزْرُقُ كَعَيْنِ السَّنُورِ، وَصَافٍ كَقَضِيبِ الْبَلُورِ، اسْتَقِي مِنَ الْفُرَاتِ، وَاسْتَعْمَلْ بَعْدَ الْبِيَاتِ، فَجَاءَ كِلْسَانَ الشَّمْعَةِ، فِي صَفَاءِ الدَّمْعَةِ»^(٤).

(١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، ص ١٠٠.

(٢) المقامة (٦): الأسدية، ص ٣٦.

(٣) المقامة نفسها، ص ٣٦، ألاء وأثل: شجر.

(٤) المقامة (٢٢)، ص ١٣٦-١٣٧، السنور: القط، والبلور: نوع من الزجاج، يضرب به المثل

في النقاء والصفاء، استقي: أخذ، البيات: أي لم نستعمله إلا بعد أن ظل ليلته في إناء ليبرد ويتم صفاؤه. انظر: اللسان، مادة: سنر، بلر، سقى، بيت.



ومن التشبيهات التي لانظن أنه سبق إليها تشبيه الحريص على المال بلاعب الشطرنج يأخذ كل مامع الناس ويحفظ كل ما عنده.

ومن التشبيهات المادية قوله: «وَسَرَّحَنَ الطَّرْفَ فِي حَيِّ كَمَيْتٍ، وَبَيْتٍ كَلَا بَيْتٍ»^(١)، وفي قوله: «كَابِنِ حُرَّةٍ طَلَعَ عَلَيَّ بِالْأَمْسِ، طُلُوعَ الشَّمْسِ»^(٢)، كما تراه في المقامة البغدادية يشبه الزبدة في رقتها وذوبانها على التنور بالكحل في سحوقته، وبالطحن في دقته، وذلك حين يصف الشواء: «فَأَخْتَنِي الشَّوَاءُ بِسَاطُورِهِ، عَلَيَّ زُبْدَةً تَنْوَرُهُ، فَجَعَلَهَا كَالْكُحْلِ سَحَقًا، وَكَالطَّحْنِ دَقًّا»^(٣).

ولبداع الزمان تشبيهات ضمنية^(٤) يقتبسها من الشعراء السابقين أحياناً، كقوله في الأمير خلف بن أحمد:

«يَاسَارِيَا بِنَجُومِ اللَّيْلِ يَمْدَحُهَا * وَلَوْ رَأَى الشَّمْسَ لَمْ يَعْرِفْهَا خَطَرًا
وَوَاصِفًا لِلسَّوَاقِي هَبَّكَ لَمْ تَزُرِ الْـ * بَحْرُ المَهِيطِ أَلَمْ تَعْرِفْ لَهُ خَبْرًا»^(٥)

وهو يشبه خلفاً بالشمس، وبالبحر تشبيهاً ضمنيّاً، والبيت الأول مأخوذ من قول النابغة الذبياني:

* كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالنَّجُومُ كَوَاكِبُ *
والبيت الثاني مأخوذ من قول المتنبي:

* وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَاقِيَا *^(٦)

وهذا ابن نباتة يعمد كما عمد غيره من كتاب المقامات إلى التشبيه فيقول:

(١) المقامة (١٣): البصرية، ص ٧٦.

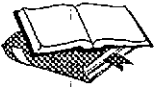
(٢) المقامة (١٤): الفزارية، ص ٧٩.

(٣) المقامة (١٢): ص ٧١-٧٢.

(٤) التشبيه الضمني هو: تشبيه لا يوضع فيه المشبه به في صورة التشبيه المعروفة بل يلمحان في التركيب، انظر: البيان فن الصورة، د. مصطفى الصاوي، ص ٣٠، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية ١٩٩٣ م.

(٥) المقامة (٤): اللوكية، ص ٣٩٧، السواقي: جمع ساقية وهي فوق الجدول ودون النهر، انظر: اللسان، مادة: سقى .

(٦) انظر: فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، ص ١٠٠-١٠١.



«ثُمَّ أَقْبَلَ إِقْبَالَ الْمَوَانِسِ عَلَى الْمَحَابِسِ وَالْمَجَالِسِ»^(١)، حيث شبه إقبال الشيخ - بطل المقامة - عليهم بإقبال من تأنس بالجلوس معه حتى يجبسك من أنسه عن القيام عن مجلسه، والجامع بينهما الأثر الحاصل في كل، ولعلك لاحظت أن الطرفين حسيان، وهو من قبيل تشبيه مفرد بمفرد مقيد، وبلغ لأن الأداة والوجه محذوفان.

أما قوله :

«تَأْمَلِ الرُّوضِ وَمَاقِدَ حَوَى * * مِنْ نَهْرٍ كَالْجِزْعِ أَوْ كَالْعَقِيقِ
مُدَّ فَتَحَ الخَشْخَاشُ أَجْفَانَهُ * * مِنْ حَسَدٍ خَدَا لِشَقِيقِ»^(٢)

فقد اتسم بتداخل الصور البلاغية، فهو أولاً قد شبه الروض وماحواه من نهر بالجزع وهو: قطعك وادياً و موضعاً عرضاً^(٣)، وهكذا فالنهر يقطع هذا الروضة الغناء التي تغص بالورود الحمراء كما يقطع الطريق عرضاً بجامع قطع وسط اتساع.

وثانياً شبه الروض وقد امتلأ بالورود الحمراء بالعقيق وهو: الخرز الأحمر^(٤)، وأعقب التشبيه بصورة بلاغية أخرى تمازجت فيها العناصر المستخدمة في إنشاء الصورة فهذه الاستعارة المكنية التي شبه فيها تفتح الخشخاش^(٥) بفتح جفني فتاة جميلة تعلوها حمرة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو فتح الجفن على سبيل الاستعارة المكنية، وأعقبها باستعارة مكنية أخرى حيث شبه الشقيق الأحمر بفتاة جميلة خدها أحمر ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الخد على سبيل الاستعارة المكنية.

وتأمل كلمة يرمق^(٦) وماتضفيه وسط هذا الجمال الطبيعي الباهر من إيجاء،

(١) مقامة ابن نباتة السعدي، ص ٢.

(٢) المقامة نفسها، ص ٦.

(٣) اللسان، مادة : جزع، كما يقال: جزعة الوادي: مكان يستدير ويتسع ويكون فيه شجر يراح فيه الماء.

(٤) اللسان، مادة عقق، ويتخذ من الخرز الفصوص.

(٥) نبت ثمرته حمراء، مادة خشش في اللسان.

(٦) يرمق : ينظر إليه، اللسان، مادة رمق .



وما تحمله النظرة من عداوة وحسد.

وفي قوله : «وَأَنَّ كَانَ الرَّبِيعُ وَجَهَ الزَّمَانِ، فَالْشِّتَاءُ مَمْنَزَلَةً رَأْسِهِ، وَسَائِرُ الْفُصُولِ بَيْنَ رَجَاءِ بَرِّهِ، وَخَوْفِ بَأْسِهِ، وَهُوَ كَالْمُعْتَرِفِ مِنْ حَاصِلِ غَيْرِهِ، وَالْمُعْتَرِفِ بِبِرِّهِ وَخَيْرِهِ»^(١).

فإن الصورة التي يلتقطها القارئ من الربيع هو مكانته بين سائر الفصول، فإذا جاز لنا أن نشبه الزمان (الفصول الأربعة) بإنسان، فإن الربيع يحتل أجمل ما في الإنسان، وأول ما يلفت النظر إليه وهو وجهه: وجه مشرق ضحوك، أما الشتاء فهو رأس هذا الإنسان. هذه استعارة مكنية لأنه حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو الوجه، وأعقبها بصورة تشبيهية تمثل الربيع وهو المشبه، شبهه بالإنسان الذي يغترف من غيره، بجامع الأخذ من الغير المقترن بالاعتراف بالفضل.

وتأمل قوله: «إِنَّ الْمُتَظَاهِرَ بِهِ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَاطِعِهِ، وَفُصُولِهِ، وَتَسْيِيرِ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ، كَالسَّاعِي إِلَى تَحَلُّ نَدْمِهِ بِقُدُومِهِ، وَالِدَّاعِي الْيَارَ فِي حَالِ عَدَمِهِ»^(٢).

فقد شبه المفتخر بالربيع وجماله قبل أن يسير أغواره، ويصل إلى معرفة أصوله من فروعها، شبهه بالرجل الذي يجد ويسعى بعمل يوصله إلى الندم، بجامع الإقدام بدون ترو، والوقوف في مواطن الزلل، وهو من قبيل تشبيه محسوس بمحسوس.

وأعقبه بتشبيه آخر، حيث شبهه بطالب اليار^(٣) مع عدم وجودها؛ بجامع السعي في طلب شيء من دون أثر له.

ومن تشبيهات ابن ناقياً قوله: «تَارَةً يَثْبُ بِأَجْمَعِهِ كَالشَّيْطَانِ»^(٤)، فقد شبه هيئة وثبه كوثبة الشيطان بجامع غرابة وكراهة الهيئة الحاصلة في كل.

(١) المقامة نفسها، ص ٧ .

(٢) المقامة نفسها، ص ٨ .

(٣) اليار: النار، اللسان، مادة يرر

(٤) المقامة (٢)، المقامات العشر، لابن ناقياً، ص ٣ .

وفي قوله : «فسمعتُ بُكَاءَ الْقَوْمِ وَكَأَنِّي أَرَى ذَلِكَ فِي النَّوْمِ»^(١)، فقد شبه عدم تصديقه لما يسمع بالحلم الذي يرى في النوم بجامع عدم اتضاح الرؤية في كلِّ، والطرفان حسيان.

وفي قوله : «وَقَدْ بَرَّحَ الطَّوَى خُفَانًا، وَطَوَى طَيِّ السَّجْلِ إِمْعَانًا»^(٢)، شبه مألحقه الجوع بالأمعاء، بطي السجل، بجامع الالتواء الحاصل في كلِّ.

وفي قوله : «فَامْتَرَقَ مَرُوقَ السَّهْمِ، وَطَلَعَ طُلُوعَ النَّجْمِ»^(٣)، شبه مروقَه بمروق السهم بجامع السرعة الحاصلة في كلِّ، وشبه طلوعه بطلوع النجم بجامع الظهور والبروز الحاصل في كلِّ.

وفي قوله : «ثُمَّ ارزَمَ ارزَامَ أُمَّ حَائِلٍ»^(٤)، حيث شبه مصيبته بمصيبة أم ارزمت بفقد ابنها بجامع الحزن الشديد الناشيء في كلِّ.

وفي قوله : «وَأَحْطَطَ عَيْنِيهِ، وَجَعَلَ يَرْفَعُهُنَّ كَالْقَطَا، وَيَلْفُهِنَّ فِي لَظَى»^(٥)، شبه رفعه لعينه برفع القطا بجامع السرعة.

وفي قوله : «وَلَوْ مِنْ نَثَارَةِ الْخَوَانِ، كَفَيْتِلِ النَّوَاةِ»^(٦)، فقد أظهر شدة حاجته إلى الطعام، وإن كان نزرًا يسيرًا بنثارة الخوان التي تشبه فتيل النواة أو ابهام القطاة بجامع القلة.

وفي قوله : «تَارَةً يَنْهَضُ كَالْمَتَأَمِّلِ، وَتَارَةً يَقَعُدُ كَالْمَتَمَلِّمِ»^(٧)، شبه نهوضه بالمتأمل بجامع الترقب والقلق في كلِّ، وشبه قعوده بالمتمللم بجامع عدم الثبات في كلِّ، ومثل هذا التشبيه ينبىء عن فرط قلقه، وتوجسه، وشدة ترقبه وانتظاره.

(١) المقامة نفسها، ص ٤ .

(٢) المقامة (٣): المقامات العشر، لابن ناقياء، ص ٦ .

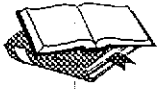
(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة نفسها.

(٦) المقامة (٤)، المقامات العشر، لابن ناقياء، ص ٩ .

(٧) المقامة (٥)، المقامات العشر، لابن ناقياء، ص ١١ .



وفي قوله : «فإِذَا سَوَادٌ مَقْبَلٌ كَالسَّحَابِ الْمَسْبِيلِ أَوْ الشَّيْطَانِ الْمَمَثَلِ»^(١)، فقد شبه قدوم الرجل وسط الظلام، ولاتبدو له هيئة ولاشكل، شبهه بسحاب متكاثف قد اشتد سواده، أو بشيطان تمثل له بجامع السواد الكائن في كلِّ.

أما الحريري فالتشاييه في مقاماته أقل مما هي عند البديع، كما أنها ضعيفة الصور شاحبتها بحيث لم تكن حية حياتها عند البديع، وناصعة نصاعتها عنده، ربما مرد ذلك اهتمامه باللفظ. وقد أولع الحريري بلون من التشبيه معروف بالتشبيه البليغ، لأنه يعول على انتزاع الصورة البيانية بواسطة مصدر الفعل الذي تتركب منه الجملة التشبيهية.

وكان يعدل أحياناً عن هذا التشبيه البليغ الخالي من الأداة، إلى اصطناع أدوات التشبيه كالكاف وغيرها. في مواطن أخرى متفرقة، فإن تشبيهاته مع ذلك لا تعطى صورة جمالية ولابيانية واضحة كل الوضوح. فإن كانت واضحة فإن الجمال يعدمها من بعض الجوانب أو من كثير منها.

وقد كان الحريري أحياناً يعمد إلى تشبيه الصور المحسوسة بالمعقولة، بيد أن ذلك لم يكن بيناً ولا موفقاً. ثم كانت تشبيهاته في معظمها تحاول أن تستمد من البيئة، وقد أفاد بذلك د. عبد الملك مرتاض فقال: «فهو كباقي اصحاب المقامات صورته التشبيهية محسوسة مادية في معظمها»^(٢)، أما د. أحمد أمين فقد أشار إلى نوعه من جهة أخرى فقال: «وهذه الصور بعضها مطروق كقوله في المقامة الصنعانية: «أَجُوبُ طَرَقَاتِهَا مِثْلَ الْهَائِمِ»^(٣)، وقوله في المقامة الدمياطية: «ارْتَضَعُوا أَفَاوِيقَ الْوِفَاقِ»^(٤) وهو تشبيه بليغ، شبه الوفاق بالأفويق وهي اللبن»^(٥).

ومن تشبيهاته قوله : «حَتَّى لَاحُوا كَأَسْنَانِ الْمَشْطَرِ فِي الْإِسْتَوَاءِ، وَكَالنَّفْسِ

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) في المقامة في الأدب العربي، ص ٣٩٠-٣٩١.

(٣) المقامة (١): ٥٢/١.

(٤) المقامة (٤): ١٥٨/١.

(٥) فن المقامة بين البديع والحريري، والسيوطي، ص ١٩٤.



الوَاحِدَةَ فِي التَّيَامِ الْأَهْوَاءِ»^(١)، فالتشبيهان هنا حسيان، إلا إذا اعتبرنا النفس هنا بمعنى الروح لا الشخص، فإن التشبيه الثاني معقول، وهو ما أشرنا إليه منذ قليل من أن الحريري كان يحاول أن يصطنع بعض التشابيه المعقولة.

والذي يلحظ في هذا التشبيه قياساً على تشابيه البديع، أن الحريري ذكر وجه الشبه ففصل ولم يجمع، ولم يترك الخيار للقارئ أن يتصور وجه الصورة التشبيهية على النحو الذي يريد. ينما كانت التشبيهات المفصلة عند البديع قليلة جداً.

فقد صور الحريري الأصحاب حين يبدو كأنهم أسنان المشط في الاستواء الذي يدل على التلاؤم والاتلاف، أو كأنهم النفس الواحدة في اجتماع أهوائهم، واتفاق ميولهم وأفكارهم.

ثم قوله في المقامة نفسها: «لَا وَاللَّهِ، بَلْ نَتَوَازَنُ فِي الْمَقَالِ، وَزَنَ الْمُثْقَالِ، وَتَتَحَاذَى فِي الْفِعَالِ، حَذُو النَّعَالِ»^(٢).

وقوله في المقامة نفسها: «ثُمَّ اسْتَنَّ اسْتِنَانَ الْجَوَادِ»^(٣).

وقوله: «فَكَانَ كَمَنْ قَمَسَ فِي الْمَاءِ، أَوْ عَرَجَ بِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ»^(٤).

وقوله: «وَأَمْتَرَجَتْ بِحَاكِمِهَا أَمْتَرَجَ الْمَاءِ بِالرَّاحِ، وَتَقَوَيْتُ بِعِنَايَتِهِ تَقَوَى الْأَجْسَادِ بِالرَّاحِ»^(٥).

فمعظم هذه التشبيهات تمت بواسطة المصدر لا بواسطة الأداة، ثم إن الصور التشبيهية لم تكن من الحياة والجمال بحيث تقارن بتشابيه البديع؛ ولعل ذلك يعود إلى أن البديع لم يكن يتهالك على الصور الغريبة، ليعرضها في ألفاظ غريبة، وإنما كان يعبر عما يدور بخاطره في كثير من البساطة والحرية.

(١) المقامة (٤): الدِّمِياطِيَّة، ١٥٨/١.

(٢) ١٦٧/١.

(٣) ١٨٠/١.

(٤) المقامة (٧): البرقعيدية، ٣٠٧/١.

(٥) المقامة (٩): الاسكندرية، ٣٣٣/١.



فإن مثل قول الحريري: «تَوَازَنَ فِي الْمَقَالِ، وَزَنَ الْمِثْقَالَ، وَتَحَادَى فِي الْفِعَالِ، حَذَوَ النِّعَالَ»، لا يخلو من تعسف في التشبيه، وهو غامض لم يعطنا صورة بريقة حية عن الصورة التعبيرية المرادة من التشبيه الذي هو إلحاق صورة بصورة على سبيل التلاؤم الذي يجمع بينهما، على أن تكون الصورة التعبيرية في المشبه به أقوى وأوضح منها في المشبه .

ولم تتضح الصورة التعبيرية؛ لأن القاريء لا بد أن يتأمل المراد منها ويعمل فكره، فهل المراد بالتوازن هنا في الميزان؟ أي إلى هذه الآلة التي يزن بها الناس أشياءهم، أو إلى ما يعينه المثلقال، عند أصحاب المصارف قديماً، وهو درهم ونصف؟

ثم إن في تشبيه التكافؤ في الأعمال بين شخصين، بحالة النعال في تلازمهما واحتكاكهما، مما لا يحسن ولا يجمل في هذا المقام، فهو من التشبيه الرديء؛ لأن النعال ليست مشرفة في العادة، ولا الأرجل التي تنقلها. ففعل النعل أن يكون أقدر ما في لباس الإنسان، لما تتعرض له من قاذورات وغبار وأوحال. فكيف يشبه التلاؤم بين شخصين بحالة نعلين متلازمين؟ صحيح أن عناصر التشبيه واضحة، ولكن هل أدت المعنى المراد بوضوح تام أيضاً، ثم هل كان هذا التشبيه من الناحية النفسية مقبولاً؟ وهل إذا شبهنا زوجين سعيدين مثلاً بحالة النعلين مما يقبله الذوق الجميل؟ مع أنهم قالوا في أمثالهم: «أَذَلَّ مِنَ النَّعْلِ».

وها هو ذا في مقامة أخرى قد شبه الأصحاب حين ينظمون كلاماً كالعقد، واستعمل كل ما ينظم له كالسمط، فيقول: «فَتَدَاعَيْنَا ... عَلَى أَنْ يَنْظُمَ الْبَادِيءُ ثَلَاثَ جُمَانَاتٍ فِي عَقْدِهِ، ثُمَّ تَنْدَرِّجُ الزِّيَادَاتِ مِنْ بَعْدِهِ، فِيرْبَعُ ذُو مَيْمَنَتِهِ فِي نَظْمِهِ، وَيَسْبَعُ صَاحِبَ مَيْسَرَتِهِ عَلَى رُغْمِهِ، قَالَ الرَّاوِي: وَكُنَّا قَدِ انْتَضَمْنَا عِدَّةَ كَأَصَابِعِ الْكَفِّ ... وَأَفْضَتِ النَّوْبَةَ إِلَيَّ، وَقَدْ تَعَيَّنَ نَظْمُ السَّمْطِ السَّبَاعِيِّ عَلَيَّ»^(١).

وفي مقامة أخرى: «فَزَعَمَ أَنَّهُ يُخَزِّنُ الْأَسْرَارَ، كَمَا يُخَزِّنُ اللَّيِّمُ الدِّينَانَ»^(٢).

(١) المقامة (١٦): المغربية، ٢/٢٠٥-٢٠٨، شرح الشريشي، السمط السباعي: الخيط الذي فيه

الخرز وأراد به من سبع كلمات، انظر: اللسان، مادة: سمط.

(٢) المقامة (١٨): السنجرية، ٢/٣١٣.

وفي قوله: «وَقَلَمِهِ لِسَانُ الدَّوْلَةِ، وَفَارِسُ الجَوْلَةِ»^(١)، شبه قلم المنشيء بفارس الجولة؛ لأن كلا منهما يكون سبباً في الهزيمة.

وفي قوله: «أَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّكُمْ فَرَقَدَا سَمَاءً، وَكَرَنْدَيْنِ فِي وَعَاءٍ»^(٢).

وفي قوله: «فَوَلَجْتُ الدَّارَ مَتَجَرَّعاً الغُصَصِ، كَمَا يَلِجُ العُصْفُورُ القَفَصَ»^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن التشاييه عند الحريري في معظمها من لون التشبيه البليغ الذي لا يستخدم فيه الأداة، ثم إنها لم تبلغ من حيث الوضوح والحياة والقوة والجمال جميعاً، ما بلغته عند البديع. كما نوه بذلك د. عبد الملك مرتاض^(٤)، والرأي أن سبب ذلك التفاته الشديد واعتناؤه باللفظ دون التركيز على المعنى غالباً.

أما الزمخشري فالتشبيهات عنده قليلة جداً، أي أقل بكثير من مقامات الحريري، وهي في معظمها مادية محسوسة، وقد يشبه أحياناً صورة معقولة بصورة محسوسة، كما في قوله: «إِنَّ حِصَالَ الخَيْرِ كُتْفَاحُ لُبْنَانٍ، كَيْفَمَا قَلْبَتَهَا دَعَتْكَ إِلَى نَفْسِهَا، وَإِنَّ حِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ أَنَّى وَجْهَتَهَا نَهَتْكَ عَن مَسْهَا»^(٥).

وقد يستخدم التشاييه المعنوية المعقولة؛ لأنه كان مضطراً إلى تقرير مسائل نحوية وصرفية، فمقامة النحو مثلاً اكتظت بالتشاييه اكتظاظاً، حتى إنها بلغت أحد عشر تشبيهاً، على قصر المقامة ومن ذلك قوله: «(وَمَادَّةُ الخَيْرِ أَنْ تُؤْثِرَ العُزْلَةَ وَلَا تُبْرِزَ عَنِ الكُنِّ، وَتُخْفِي شَخْصَكَ إِخْفَاءَ الضَّمِيرِ المُسْتَكِنِ، فَإِنَّ الخَفَاءَ يَجْمَعُ يَدَيْكَ عَلَى النَّجَاةِ وَالاسْتِعْصَامِ، كَمَا اسْتَعْصَمَتِ الوَاوُ مِنَ القَلْبِ بالإدْغَامِ، وَلَا يَكُونَنَّ ضَمِيرُكَ عَنِ الهَمِّ الدِّينِيِّ سَالِيَاً، كَمَا لَا يَكُونُ «افْعَلُ» مِنَ الضَّمِيرِ خَالِيَاً... وَقِفْ لِربِّكَ عَلَى العَمَلِ الصَّعْبِ الشَّدِيدِ، كَمَا يَقِفُ بَنُو تَيْمِيمٍ عَلَى التَّشْدِيدِ، وَابْتُ عَلَى دِينِ الحَقِّ الَّذِي لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَحْوُلُ، ثَبَاتَ الحَرَكَةِ البِنَائِيَّةِ الَّتِي لَا تَزُولُ وَلَا تَكُنُ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَ مَذْهَبَيْنِ،

(١) المقامة (٢٢): الفراتية ص ١٦٤-١٦٥، ت: يوسف بقاعي.

(٢) المقامة (٢٣): الشعرية، ص ١٧٥.

(٣) المقامة (٣٠): الصورية، ص ٢٢٩.

(٤) فن المقامة في الأدب العربي، ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٥) المقامة (١): المرشد، ص ٢٥-٢٧، ت: يوسف بقاعي.



كالمَمْزَرَةِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ بَيْنٍ»^(١).

فكل جملة تشتمل تقريباً على تشبيه، وهذه التشابيه تختلف باختلاف صورها التعبيرية، فهي أحياناً محسوسة، وأحياناً معقولة، وأحياناً مختلفة الطرفين؛ بحيث يكون أحدهما محسوساً والآخر معقولاً، أو يكونان نقيض ذلك.

أما الصورة عند ابن الجوزي، فنجدها عنده كما عند كتاب المقامات تقوم على التشابيه، إما تشبيه محسوس بمحسوس، أو محسوس بمعقول، ومن ذلك قوله :

« ثُمَّ انْظُرْ إِلَى آلَةِ النَّطْقِ، تَرِ مَخْرَجَ الصَّوْتِ كَالْمِزْمَارِ الْكَبِيرِ، وَالْحَنَجْرَةَ كَقَصْبَةِ الْمِزْمَارِ، وَالرِّئَةَ كَالزَّقِ، وَالْعَضَلَاتِ الَّتِي تَقْبِضُ عَلَى الرِّئَةِ، لِيَخْرُجَ الصَّوْتُ مِنَ الْحَنَجْرَةِ كَالْأَنْفِ الَّتِي تَقْبِضُ عَلَى الزَّقِ، حَتَّى تَخْرُجَ الرِّيحُ مِنَ الْمِزْمَارِ، وَالشَّفَتَانِ وَاللِّسَانِ وَالْأَسْنَانَ الَّتِي تَصَوِّغُ الصَّوْتَ حُرُوفاً وَنَغْمًا، كَالْأَصَابِعِ الَّتِي تَخْتَلِفُ عَلَى فَمِ الْمِزْمَارِ، فَيَصَوِّغُ صَفِيرَهُ الْحَانَأُ»^(٢).

فيلحظ فيما سبق الكثير من التشابيه؛ فقد شبه الصوت كالزممار، والحنجرة كالزممار، والرئة كالزق، والشفتين واللسان والسنان كأصابع الموضوع على فم كقصبة الزمار، وهي صورة متكاملة لعملية النطق لدى الانسان يقابلها صورة متكاملة لاستعمال الزمار وهي من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس.

ثم نراه في المقامة نفسها يقول : «ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ مَدَّ الْأَرْضَ ... أَوْدَعَ فِيهَا الْمَعَادِنَ كَمَا تُودَعُ الْحَاجَاتُ فِي الْخِزَائِنِ»^(٣)، ويقول: «تَأْمَلْ قِيَامَ الشَّجَرِ كُلَّمَا طَالَ فِي السَّمَاءِ الْفَرْعُ امْتَدَّتْ الْعُرُوقُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ كَقِيَامِ الْعَمَدِ بِالْأَطْنَابِ ... ثُمَّ إِنَّهَا تَمُوتُ وَتَحْيَا، فَيَجْتَمِعُ فِيهَا مِنَ الْعَبْرَةِ وَأَمْرِ الْمَلِكِ مَا يَجْتَمِعُ فِي الْآدَمِيِّ، فَهِيَ فِي حَالَةٍ يَبْسُهَا مُتَشَبِّهَةٌ بِالْغَائِبِ، فَإِذَا هَمَّتْ بِالْقُدُومِ بَشَّرَ نَوْرُ النُّوْرِ»^(٤).

فشبه إيداع المعادن في الأرض بإيداع الحاجات في الخزائن، وشبه طول فرع

(١) المقامة (٤٦): النحو، ص ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) المقامة (١): في حكم الأشياء، لابن الجوزي، ص ٩، ت: د. محمد نغش.

(٣) المقامة نفسها، ص ١٠.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.



الشجرة وامتداد عروقه في بطن الأرض كقيام العمد بالأطناب، ويسها بالغائب، وقدومها بالنوار، وشبه الشمس بالسراج، في قوله: «(خَلَقَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)»^(١)، وشبه الطير بالسفينة في قوله: «(تأمل خلق الطير فإنه لما قَدَّرَ له الطيران خَفَّفَ جسمه، وأدمج خلقه، واقتصر على قائمتين، وجعل له جُؤْجُؤًا محدوداً يخرقُ به الهواء، كما تخرق السفينة بجؤجؤها الماء)»^(٢).

وشبه السائل المنقض على الباب يسأل بالصقر، في قوله: «(انقضَّ على بابي كالصقر سائل)»^(٣).

وفي قوله: «(الكلام في القدر بحرٌ من خاضه غرق، عرضه لا يقطعُ بالسباحة، وماؤه لا يروى من عطش، فجَزَّ على شاطئه، واترك البحر رهواً)»^(٤). أراد الحث على عدم الخوض في القدر، لأنه كالبحر.

وفي المقامة نفسها يقول: «(وَيَحْكُ إِنَّهُ مِنْ طَلَّقَ الدُّنْيَا بِصَدَقِ عَزْمٍ كَرِهَتْ الأَحْرَةَ أَنْ يَبِيْتَ عَزْبًا فَعَجَّلَتْ الخِطْبَةَ، فَقَالَ: كَمْ أَطْلَقَهَا وَأَطْلَقَهَا وَتَعُوذُ إِلَى البَيْتِ)»^(٥)، فشبه الدنيا وتركه لها، بالمرأة التي تركها زوجها بالطلاق.

وها هو ذا في مقامة أخرى أراد أن يبين منزلة الأصحاب فشبههم بالشعر، فقال: «(الأصحابُ بمنزلة الشعر. فَإِنَّ مِنْهُ مَا يَكْرُمُ وَيَخْدُمُ وَلَا يَنْحَى كَشَعْرِ الرَّأْسِ، وَمِنْهُ مَا يَقْصُ إِذَا طَالَ كَالشَّارِبِ، وَالباقِي يَسْتَأْصِلُ، الصَّدِيقُ الصَّدُوقُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُدَارَاةٍ، كَحَلْوَى السُّكَّرِ تُحْرِكُهَا فِي فَيْكٍ وَقَدْ عَعَرَتْ، وَمِنْ المَعَاشِرِينَ كَلَحْمِ البُقْرِ يُتَعَبُ الإنسانُ فِي مَضْغِهِ، وَالمِعْدَةُ فِي هَضْمِهِ، وَمِنْهُمْ كَالْفَجْلِ لَا يَنْهَضُ مِنْ أَصْلًا... الصَّاحِبُ كَالرَّقْعَةِ فِي الثُّوبِ إِذَا لَمْ تُشَاكِلْهُ شَانَتُهُ)»^(٦).

(١) المقامة والصفحة نفسها.

(٢) المقامة نفسها، ص ١١.

(٣) المقامة (٢٠): في الصدقة، ص ١٦٤.

(٤) المقامة (٢١): في ذم البخل، ص ١٧٤.

(٥) المقامة نفسها، ص ١٧٨.

(٦) المقامة (٢٢): في حسن الصحبة والمداراة، ص ١٨٦.



ومن التشبيهات الجديدة قوله: «الموت كالموسيقى ثقيلة القبر، وخفيفة الفراق»^(١)، فالثقل والخفيف من مصطلحات الموسيقى.

ويلجأ ابن الجوزي إلى تشبيهات من قصص القرآن فيقول: «رمضان يوسف الزمان في عين يعقوب الإيمان. كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، فما رجع بصره إلا بقميص يوسف»^(٢)، فشبّه رمضان ومكانه بين الشهور بمكانة يوسف واخوته عند أبيه يعقوب.

ومن أجمل تشبيهاته قوله: «رمضان كالحاتم، وليلة القدر فضة المضي»^(٣).

وقوله: «وَأَعَجَبَا أَحْوَالَكُ تُشَبِّهُ شَهْرَ السَّنَةِ، مَا لَكَ فِي بَابِ الْإِيْثَارِ الْحَرَمِ، وَقَلْبِكَ مِنَ الذِّكْرِ صَفْرٌ، وَهَوَاكَ وَشَهْوَاتُكَ رَيْبَعَانٌ، وَكَفَّاكَ فِي الْبَدْلِ جَمَادِيَانٌ، وَسَمْعُكَ عَنِ الْمَوَاعِظِ رَجَبٌ، وَهَمُّكَ فِي شَبَابِهِ شَعْبَانٌ، فَابْنِ فِي هَذَا الشَّهْرِ بِالنَّدَمِ مَاقَدٌ وَهَىٰ وَانْهَدَمَ...»^(٤).

ومن أجمل تشبيهاته قوله: «فالسَّمَاءُ تَبْكِي بُكَاءَ الْمَشُوقِ، وَالْأَرْضُ تَضْحَكُ ضِحْكَ الْمَعْشُوقِ»^(٥)، فشبه نزول المطر بيبكاء المشوق، والأرض بضحك المعشوق.

فنخلص إلى أن المقامين لجأوا جميعاً للتشبيهات إلا أنه عند الحريري من لون التشبيه البليغ الذي لا يستخدم فيه الأداة، لكنها لم تبلغ من حيث الوضوح والحياة والقوة والجمال، ما بلغته عند البديع، ولعل السبب في ذلك التلفاته الشديد، واعتناؤه باللفظ دون التركيز على المعنى غالباً.. أما الزمخشري فتشبيهاته قليلة قياساً بالحريري، ويتكىء فيها على التشابه المعنوية المعقولة؛ لأنه كان مضطراً إلى تقرير مسائل نحوية وصرفية.. لكن أجمل التشبيهات هي تشبيهات ابن الجوزي لأنها من قصص القرآن.

(١) المقامة (٣٢): في ذم البخل ومدح الكرم، ص ٢٥٩.

(٢) المقامة (٣٣): في وداع رمضان، ص ٢٦٢.

(٣) المقامة نفسها، ص ٢٦٣.

(٤) المقامة نفسها، ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٥) المقامة (٤٧): في الاستسقاء، ص ٣٨٧.



المجاز :

قبل الولوج فيه، لابد من التنويه كتعريف مبسط له؛ لهذا «فالمجاز ضربان: مرسل، واستعارة؛ لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلا فهو مرسل»^(١).

والبديع في معظم الاستعمالات التركيبية والتعبيرية يميل نحو الاستعارة والكناية، والاستعارات في المقامة قد تكون أكثر من التشبيهات التي كانت قليلة بالقياس إليها، ومن أمثلة التراكيب الاستعارية قوله في المقامة البصرية حين ينبري الاسكندري متكلماً شاكياً ضره وبؤسه للناس، قائلاً: «وَنَشَرَّتْ عَلَيْنَا الْبَيْضُ، وَشَمَسَتْ مِنَّا الصُّفْرُ، وَأَكَلَتْنَا السُّودَّ، وَحَطَمَتْنَا الْحُمْرُ»^(٢).

فالنشاز يكون للمرأة التي تتعذر على زوجها وتستعصي عليه، ولكن البديع استخدمه لاستعصاء الدراهم عليهم، ونفورها منهم، صنيع المرأة التي تفعل ذلك لزوجها حين تزهد فيه.

فقد شبه الدراهم في نشوزها وازورارها عنهم، بالمرأة التي تعصي بعلمها وتتعذر عليه، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو «نشزت»، على سبيل الاستعارة المكنية.

وقل نحو ذلك في الجملة الثانية، فهي جارية مجرى الاستعارة المكنية؛ لأن الشموس وضع أصلاً للدابة التي تمتنع عن حمل الرجل، فقد شبه البديع الدنانير الصفراء في عدم اقبالها عليهم، بالدابة الراححة الشموس، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية أيضاً.

أما بقية الكلام فجارٍ مجرى المجاز العقلي، لأن الفعل أسند إلى غير ماوضع له

(١) الإيضاح ، للقرظيني، ص ٣٩٦.

(٢) المقامة (١٣): البصرية، ص ٧٦.



في الأصل، لأن السود بمعنى الليالي، للسواد الذي يحدث في فرها وكرها، والليالي، في حقيقة الأمر، لاتأكل، فالأكل استعمل لغير ماوضع له على سبيل المجاز العقلي.

كما أن التحطيم يجب أن يكون بمعنى التكسير، والحر - وهي السنون المجدبة - لاتكسر ولاتحطم وماينبغي لها، ففي إسناد التحطيم إلى السنين المجدبة مجاز عقلي محض، علاقته السببية، إذ بسبب مرور هذه السنين المحلطة، وقع لهم كسر معنوي، وهو هذا البؤس الناتج عن ذلك بما يحدثه من جوع، ومرض، ويأس، وشقاء...

وهناك استعارات أخرى كثيرة منها ماذكر في المقامة الملوكية، فقد زعم عيسى ابن هشام أن سيف الدولة ممن يجب أن يجلو فيهم المدح، فأنكر عليه ذلك الاسكندري، وأنشأ يقول: وإنما المدح هنا لخلف صاحب سجستان يومئذٍ مقارناً بين سيف الدولة وخلف:

« ياسارياً بنجوم الليل يمدحها

ولو رأى الشمس لم يعرف لها خطراً

وواصفاً للسواقى هبك لم تزر الـ

بحر المحيط، ألم تعرف له خبـراً؟

من أبصر الدر لم يعدل به حجراً

ومن رأى خلقاً لم يذكر البشر (١)

ففي هذه الأبيات الثلاثة استعارات تصريرية ظاهرة؛ لأن البديع كان يريد بنجوم الليل سيف الدولة، وبالشمس خلفاً، والشمس في نورها الوهاج لاتذكر معها أضواء النجوم الخافتة. وقل مثل ذلك في البيت الثاني، لأنه لايريد بالسواقى هنا حقيقة، وإنما يشبه سيف الدولة بها، من حيث شبه خلفاً بالبحر المحيط في كرمه وجوده وسعة حلمه، وعرض ثرائه.

(١) المقامة (٤٥): الملوكية، ص ٣٩٧.



أما في البيت الثالث، فنجد البديع يشبه خلفا بالدر، ثم حذف المشبه واستعار له المشبه به ليقوم مقامه بادعاء أن المشبه هو عين المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

ولعلك لاحظت أن هذه الاستعارات لا تخرج عن طبيعة سنن الاستعمال العربي المؤلف، من تشبيه الملك بالبحر، والشمس والدر.

ونخلص إلى أن الاستعارات سواء كانت قديمة، أم فيها نوع من الجدة فإنها في مجموعها تدل بوجه عام على البيعة وطبيعة عيش أولئك القوم.

والذي ينبغي ذكره، أن الاستعارة بمعناها الاصطلاحي في علم البلاغة، كانت قليلة في مقامات البديع.

ففي قوله: «قَدْ كَوَى الْجَزَعُ قُلُوبَهُمْ»^(١)، شبه الجزع بالنار في شدة تأثيره وقوة فعله فيهم، وأسند الفعل «كوى» إليه على سبيل الاستعارة التخيلية.

وفي قوله: «فَهَلْ مِنْ كَرِيمٍ يَجْلُو غِيَاهِبَ هَذِهِ الْبُؤُوسِ، وَيَغْلُ شَبَابَ هَذِهِ النَّحُوسِ»^(٢)، شبه الفقر والإملاق بليل اشتدت ظلمته، استعارة مكنية، وأسند الظلمات للبؤوس تخيلاً.

وقوله: «وَأَهْلُهَا مُعْتَمُونَ لَا يَمْلِكُهُمْ غَمَضُ اللَّيْلِ»^(٣)، فقد شبه النوم بانسان له سطوة، ونفوذ يمتلك بهما، وأسند إليه الفعل تخيلاً.

أما المجازات بأنواعها الاصطلاحية، فقد كانت كثيرة نسبياً، وذلك بالقياس

(١) المقامة (٢١): الموصلية، ص ١١٣، شرح محمد مجي الدين عبد الحميد.

(٢) المقامة (١٧): البخارية، ص ٩٦-٩٧، يجلو: ينير، غياهب: ظلمات، مفردها غيب، يغل:

بمعنى يكسر، الشبا: جمع شباه، وهي سن الرمح أو حد كل شيء. انظر: اللسان، مادة: جلى، غل، شبا.

(٣) المقامة (٢١): الموصلية، ص ١١٨.



إلى الاستعارات، وهذه بعض الأمثلة على ذلك، كقوله: «أَشْرَقَنِي الخَجَلُ بِرَيْقِهِ، وَأَرْهَقَنِي المَكَانُ بِضَيْقِهِ»^(١).

فالخجل لا يسبب الغصة، كما أن الخجل اسم مجرد لمعنى معين يدرك ولا يحس، ويفهم ولا يرى، لا ريق له، وإنما الريق للانسان، ومن في حكمه، فالكلام كله جارٍ مجرى المجاز.

ثم إن المكان أيضاً، في حد ذاته، شيء جامد لا حياة فيه، وهو ليس قادراً على الفعل، وإسناد الفعل إليه من باب المجاز العقلي المحض، لعلاقة السببية، لأن أولئك الذين كانوا يكتظون في ذلك المكان هم الذين أرهقوه بذلك الضيق الذي سببوه في ذلك المكان فصار ضيقاً لا يسع من فيه .

وقد أسند الفعلان كلاهما لغير ما وضعاه في الأصل .

وكذا في قوله: «فَطَلَلْتُ أَخْبِطُ وَرَقَ النَّهَارِ، بِعَصَا التَّشْيَارِ، وَأَخْوَضُ بَطْنِ اللَّيْلِ، بِجَوَافِرِ الخَيْلِ»^(٢) مجاز كثير، لأن النهار لا ورق له، وإنما الأوراق للشجر. فقد شخص النهار، وكأنه شجرة محسوسة ذات أوراق، فهو يضربها بعصاه.

هذه بعض الأمثلة على سبيل الاستشهاد، لأن المجاز مجال واسع ولطالما وجد فيه الكتاب والشعراء متنفسهم، وهم يفزعون إليه في كتاباتهم من أجل توضيح معنى غامض، أو تشخيص شيء مجرد، أو من أجل أغراض كثيرة قد لا تحصر^(٣).

ومنها قوله: « وَحَلَّ العِمَائِمَ عَن جَسَدِهِ»^(٤)، كانت العمائم فوق رأسه فقط، فعبّر عنها بالجسد تعبيراً باسم الكل عن بعض .

(١) المقامة (٢٠): القردية، ص ١١٢.

(٢) المقامة (١٤): الفزارية، ص ٧٨.

(٣) انظر: فن المقامات في الأدب العربي، عبد الملك مرتاض، ص ٤٠٧-٤٠٩.

(٤) المقامة (٢١): الموصلية، ص ١١٧.



أما المجاز عند ابن نايقا فيظهر في قوله: «فمرت بعين جارية»^(١) مجاز عقلي لعلاقة الفاعلية، فقد أسند الفعل أو مافي معناه إلى غير فاعله؛ لأن العين لا تجري، بل مجرى بها.

وفي قوله: «وأنا على جناح السفر»^(٢)، شبه السفر بطائر، بجامع عدم الاستقرار في كل، ثم حذف المشبه به، وأتى بلازم من لوازمه، وهو الجناح، على سبيل الاستعارة المكنية .

وفي قوله: «وقد استعرت الرمضاء»^(٣)، شبه الرمضاء بالنار بجامع الحرارة الحاصلة في كل، ثم حذف المشبه به، وأتى بلازم من لوازمه وهو الاستعارة على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله: «كأنا خلعت عليه الشمس سربالها»^(٤)، حيث شبه الشمس بفتاة مرتدية حلة جميلة، ثم حذف المشبه به وهو الفتاة ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو خلع السربال على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله: «قضى النهار نخبه»^(٥)، فشبه ذهاب ضوء النهار بإنسان يموت بجامع ذهاب الأثر في كل، ثم حذف المشبه به وهو الانسان، وأتى بلازم من لوازمه، وهو قضاء النخب على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله: «حتى كشفت الظهيرة عن ساقها»^(٦)، شبه الظهيرة بإنسان يكشف عن ساقه بجامع الظهور في كل، ثم حذف المشبه به، وأتى بلازم من لوازمه وهو

(١) المقامة (١) فن المقامات العشر لابن نايقا، ص ١ .

(٢) المقامة والصفحة نفسها .

(٣) المقامة والصفحة نفسها.

(٤) المقامة والصفحة نفسها.

(٥) المقامة (٢)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٣ .

(٦) المقامة (٣)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٦ .



الكشف عن الساق على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله : «ضَمَّ جَمْعَنَا الظَّلَامُ، وَأَيَقِظَ مِصْبَاحَنَا الظَّلَامُ»^(١)، فقد شبه ذهاب الظلام عن طريق المصباح، بانسان نائم يستيقظ، بجامع الأثر الحاصل في كل، ثم حذف المشبه به وهو الإنسان، وأتى بلازم من لوازمه وهو الاستيقاظ على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله : «وَأَمَاطَتِ النُّجُومُ خِمَارَهَا»^(٢)، شبه النجوم وقد كشفت عن ضوئها بفتاة تضع خمارها بجامع الظهور في كل، ثم حذف المشبه به وهو الفتاة، وأتى بلازم من لوازمه وهو: اماطة الخمار على سبيل الاستعارة المكنية.

ولعلك لحظت أن معظم استعارات ابن نايقا قامت على الاستعارة المكنية دون سواها.

أما الحريري فقد كان مولعاً بالاستعارة، والمجاز، ومن ذلك قوله : «فَلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِنَاسِي، وَرَحَّلَنِي عَنْ أَنَاسِي، وَنَقَلَنِي إِلَى كَسْرِهِ وَحَصَّلَنِي تَحْتَ أُسْرِهِ، وَجَدْتُهُ قَعْدَةً جُحْمَةً، وَأَلْفَيْتُهُ ضَجْعَهُ نُومَهُ، وَكُنْتُ صَحْبَتَهُ بِرِيَاشٍ وَزِيٍّ، وَأَثَاثٍ وَرِيٍّ، فَمَا بَرَحَ يَبِيعُهُ فِي سُوقِ الْهَضْمِ، وَيَتَلَفُ ثَمَنَهُ فِي الْخَضْمِ وَالْقَضْمِ، إِلَى أَنْ مَزَّقَ حَالِي بِأُسْرِهِ، وَأَنْفَقَ مَالِي فِي عُسْرِهِ، فَلَمَّا أَنَسَانِي طَعْمَ الرَّاحَةِ، وَغَادَرَ بَيْتِي أَنْقَسَى مِنَ الرَّاحَةِ.»^(٣)

الحديث هنا معقود على لسان سيدة تجادل زوجها أمام القاضي وإذا تأملنا الكلام وجدنا كثيراً منه يجري مجرى المجاز.

أرأيت أن كلاً من «استخرجني من كناسي»، و«حصلني تحت أسره» و«يبيعه

(١) المقامة (٤)، المقامات العشر لابن نايقا، ص ٨.

(٢) المقامة نفسها، ص ٩.

(٣) المقامة الإسكندرية، ١/٣٥٠، ٣٥٢.



في سَوْقِ الْهَضْمِ)) و«أَنْسَانِي طَعْمَ الرَّاحَةِ»، استعمالات مشتملة على مجاز، لأن الكناس للظبي، وإنما قال ذلك لأن المرأة كانت تشبه عندهم بهذا الظبي، فالعلاقة المشابهة. وقل نحو ذلك في الأسر، فإنه لا يكون حقيقة إلا للجندي الذي يؤخذ من معركة قسراً، فيوضع تحت الحراسة لأجل معلوم، وإنما استعمله هنا لما بين الأسير والمرأة المحبوسة في منزلها من شبه. هذا إلى جانب أن الرجل يقوم عليها ويجرسها على نحو أو على آخر. وغاية العلاقة الشبيهة هنا بين المرأة والأسير، التشنيع على زوجها، وإظهار شقائها مع هذا البعل، فهي أشبه ماتكون بالأسير المحبوس. وهذا تصوير نفسي رائع لحالة المرأة الشقية مع زوجها.

وقل نحو ذلك في قوله: «سَوْقَ الْهَضْمِ»، بإضافة الهضم إلى السوق مجاز محض. وفي قوله أيضاً: «أَنْسَانِي طَعْمَ الرَّاحَةِ»، لأن الراحة لا تؤكل أكلاً مادياً كما يؤكل الطعام، وإنما استعمل الطعم وأضيف إلى الراحة، لما في كليهما من تذوق وتلذذ، بالرغم من أن تذوق الطعام مادي محض، والتمتع بالراحة وتذوقها أمر معنوي صرف. وكذا في قوله: «سَلَّتِ الصُّبْحُ خِضَابَهُ»^(١)، وفي هذا الكلام استعارة ظاهرة، لأنه شبه ظلام الليل الكثيف الذي يجلوه الصباح الأبلج، بالمرأة حين تسلت خضابها وتزيله من كفها، بجامع السواد في كل منهما، وبالرغم من أن الخضاب يتخذ أحياناً لوناً أحمر قانياً لا أسود.

والعلاقة بين الصورتين المشابهة. ولكن هل كانت هذه المشابهة واضحة قوية التصوير؟ إننا لانذهب إلى ذلك، فإن الخضاب مهما بلغ من السواد والحلْكة، فإنه لا يبلغ شيئاً بالقياس إلى ظلام الليل الدامس، والمعروف أن يكون المشبه به أقوى صورة من المشبه ليلحقه في الصورة المعنوية أو الحسية المراد تصويرها في ذهن القاريء.

(١) المقامة (٤) الدميّاطية، ١٥٨/١.



فهل أدت الاستعارة الحريرية هنا وظيفتها على الوجه المطلوب؟ ومهما يكن من أمر، فإن تقدير عبارة الحريري هو: أن الصباح سلت الظلام بنوره الفياض، كما تسلت المرأة الخضاب عن كفيها وتزيله.

والاستعارات، والمجازات كثيرة في مقامات الحريري وماهذه إلا بعض الأمثلة على ذلك.

وفي مقامة أخرى يقول:

«أَغْوَصُ فِي لَجَّةِ الْبِيَانِ، فَأَخَذَ * تَارَ اللَّالِي مِنْهَا وَأَنْتَحِبُ»^(١)

فذكر التبحر، واللالى، والغوص مجازاً.

وفي مقامة ثانية يقول: «وَبَرَزْتُ مِنَ الْحَمَّامِ بَعْدَ سَبْتِ رَاسِي، رَأَيْتُ غُلَاماً أَفْرَغَ فِي قَالِبِ الْجَمَالِ»^(٢)، أي خرج من الحمام بعد أن حلق رأسه كعادة أهل المشرق متى دخلوا الحمام، أفرغ: وضع ليصنع، والقالب: الذي اطبع فيه الدراهم، ودرهم مفرغ: إذا أذيت فضته وصبت في قلبه، فيريد أن هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ في قالب الجمال.

وكذا في قوله: «هَتَفَ بِي دَاعِي الشَّقْوِ إِلَى رَحْبَةِ مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ»^(٣)، يريد أن شوقه إلى الرحبة يهيج عليه حتى سار إليها، وجعل له داعياً مجازاً.

وفي قوله: «وَلَا تَمَخَّضَتْ لَيْلِي عَنْ يَوْمِهَا»^(٤)، تمخضت المرأة: أضر بها وجع الولادة، وتقول تمخضت المرأة عن زوجها: إذا حملت بالولد عنه، وتمخضت بولدها: إذا تحركت به ودنت ولادتها، وإذا استعير هذا المعنى لليلة صار تمخضها عن اليوم

(١) المقامة (٩): الإسكندرانية، ٣٥٥/١.

(٢) المقامة (١٠): الرحبية، ٣٧٤/١.

(٣) المقامة نفسها، ٣٧٤/١.

(٤) المقامة (١٩): النصيبية، ٣٦٠/٢.



السابق لها، وأصله المخض بالتحريك، ومنه: مخضت اللبن مخضاً، حركته لإخراج زبده، ومخضت المرأة وتمخضت: تحرك ولدها ليخرج، ثم يستعار ذلك للأيام وغيرها^(١)، كما حدث هنا في المقامة .

وفي قوله : «لَكِنَّ حَدَانِي الْقَرْمَ وَسَوَّرْتَهُ»^(٢)، فالقرم: شهوة اللحم، ولكن استعير لشهوة اللبن.

وفي قوله : «وَالْحَاسِبُ مَنَاقِشَ، وَالْمُنْشَىءُ أَبُو بَرَاقِشَ وَلِكِلَيْهِمَا حُمَةٌ حِينَ يَرْقَى، إِلَى أَنْ يُلْقَى وَيَرْقَى»^(٣)، حمة هو سم العقرب، فاستعير لما ينشأ عن القلمين من الأذى.

وفي قوله : «حَرَّوْرِي بِسُمُومِي»^(٤)، الحرور: الريح الحارة ليلاً، والسموم الريح الحارة نهاراً، وقد يقام أحدهما مقام الآخر مجازاً.

وفي قوله : «وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَكْرِمُ الْمَغَارِسَ، وَيَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَفَارِشِ النَّفَائِسِ»^(٥)، فالمغارس : محال الغرس من الأراضي فاستعير للمرأة.

أما الزمخشري فقد عمد للاستعارات، والمجاز، ولكن ليست بتلك الكثرة إذا ما قورنت بسواها من الصور البيانية.

ومن ذلك قوله في إحدى مقاماته: «وَشَيْطَانُ الشَّهْوَةِ قَدْ اسْتَزَلَّكَ»^(٦)، لما كانت الشهوة حاملة للإنسان على الزلة، جعل لها شيطاناً يستزل على سبيل الاستعارة.

وقوله أيضاً : «وَأَنْتِ عَن بَعْضِ شَرَّارَتِكَ، حِينَ عِيدَانُ نَشَاطِكَ تَخْفِقُ»^(٧)،

(١) انظر: شرح مقامات الحريري، للشريشي، ٣٦٢/٢.

(٢) المقامة (١٥): الفرضية، ص ١١٤، ت: يوسف بقاعي.

(٣) المقامة (٢٢): الفراتية، ص ١٦٦.

(٤) المقامة (٢٧): الوبرية، ص ٢٠٦.

(٥) المقامة (٣٩): العمانية، ص ٣٠٠.

(٦) المقامة (٢): التقوى، ص ٣٠-٣١.

(٧) المقامة (٤): الارعواء، ص ٣٧-٣٨، وانظر: اللسان، مادة: عود، خفق .



فالعيدان: جمع العود الذي يضرب به، وخفقتها: اصطفاقتها، واضطراب أوتارها، فيقال: خفقت العيدان، وجعل للنشاط عيداناً تخفق عن طريق المجاز، وهو من لطيف الاستعارة، وأوقعها.

وفي نفس المقامة حين أراد وصف شبابه، فجعل نفسه كالغصن الأخضر، واستعار له أوصافه فلذلك قال: «وَعُودَكَ رِيَّانَ، وَظَلِّكَ فَيِّنَانَ»^(١)، فكأنه يخاطب الغصن، والفينان: الظليل.

وتظهر في مقامة أخرى حين قال: «وَأَيَّكَ وَالْكَلْفُ بِيضَاتِ الْخُدُورِ وَقَسَمَاتِهِنَّ الْمُشَبَّهَةَ بِالْبُدُورِ»^(٢). فشبّه الحسان البيض من النساء ببيض النعام، ويقال ببيضات الخدور، على طريق الاستعارة وأضافهن إلى الخدور، للدلالة على أن المراد النساء.

وفي قوله: «وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ دِيمَةً»^(٣)، استعار له اسم الديمة؛ لدوامه واتصاله، وأصل الديمة: المطر يدوم أياماً.

وكقوله: «أَهَبَّ الْمَلِكُ لِفُلَانٍ قَبُولَ قَبُولِهِ رُخَاءً، وَأَرْخَى لَهُ عَزَائِي سَحَابِهِ أَرْخَاءً»^(٤)، جعل للقلوب ریحاً قبولاً، ثم جعلها رخاءً لينة الهبوب طيبة.

واستعارات هذه المقامة لمن تأملها بعين البصيرة ممن تلمظ بذوق من علم البيان، غريبة، نادرة.

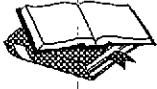
فالعزلاء: فم المزايدة وهي مسكبتها التي في أسفلها كأنها في الأصل صفة للمسكبة، تأنيث الأعزل، والجمع عزالي، كعذارى، وبها تشبه مخارج الودق وتستعار لها فتزاها واردة على طريق التشبيه تارة، وعلى طريق الاستعارة أخرى.

(١) المقامة نفسها، ص ٣٨، وانظر: اللسان، مادة: فن .

(٢) المقامة (٩): الاعتبار، ص ٦٢ .

(٣) المقامة (١٤): الاستقامة، ص ٨٤، وانظر: اللسان، مادة: دوم .

(٤) المقامة (١٨): الظلف، ص ١٠٢، وانظر: اللسان، مادة: عزل .



وكذا قوله : «وَرَأْسٍ بِالتَّاجِ مُعْتَصِبٍ ... وَيَخْضَعُ بِخَدِّهِ لِتَعَالَى جَدِّهِ»^(١)
 فالمعتصب: المتوج ويقال للملك المعتصب لتعالي جده من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾^(٢): أي عظمته، وهو مستعار من الجد الذي هو الدولة، والبخت الذي يعظم به
 المجدود، ويقحم في العيون والقلوب.

وفي قوله: «وعزة نفسٍ لا تستخذي للحملِ على الدنيا، وإن افترشت ذراعَيْها
 على صدرِها المنية»^(٣)، فاستعار للمنية صفة السبع، فجعل لها ذراعين، وجعلها مفترشة
 لها.

وتظهر الاستعارة في قوله: «جَمَعَ هُنَيْدَةَ نَصْرَ بِنِ دِهْمَانَ»^(٤)، بمعنى عاش مائة
 سنة، وهنيدة: اسم للمائة من الابل، كما أن أمامة اسم للثمانين منها، فاستعارها
 للمائة من السنين، وهي الاستعارة اللفظية.

وفي مثل قوله: «وَيَرَأْبُ ثَأْيِكَ وَيَصْلِحُكَ»^(٥)، فالرأب: الإصلاح، يقال: رأب
 الصدع، ثأيك: الثأى أن يتفق الخرز فتصير الخرزتان واحدة، وقد ثأى الخرز وأثاه
 الخارز، فاستعير للفساد.

ومن ذلك قوله: «فَعَلَيْكَ بِالْخَيْرِ إِنْ أَرَدْتَ الرَّفُولَ فِي مَطَارِفِ الْعَزِّ
 الْأَقْعَسِ»^(٦)، فالعز ليس له مطارف، فيرفل فيها صانع الخير، وإنما يجري الكلام مجرى
 المجاز، ولكن لما كانت المطارف من الأثواب المعلمة الفاخرة، التي يلبسها الرجل الغني
 الغرير، فإنه أضاف هذه الأثواب إلى العز.

(١) المقامة (٢٤): الاخلاص، ص ١٤٦، وانظر: اللسان، مادة: عصب .

(٢) سورة الجن، آية ٣ .

(٣) المقامة (٣٧): المراقبة، ص ٢١٧ .

(٤) المقامة (٣٨): الموت، ص ٢٢١-٢٢٢، وانظر: اللسان، مادة: هند .

(٥) المقامة (٢٤): الخمول، ص ٢٥٠، وانظر: اللسان، مادة: رأب، ثأى .

(٦) المقامة (١): المرشد، ص ٢٧ .

ولم يسبق الزمخشري إلى هذا التعبير، فالحريري قد سبق وقال: «اسحَبْ مَطَارِفَ الثَّرَاءِ»^(١)، فقد أضاف هنا المطارف إلى الثراء، بدل العز صنيع الزمخشري. والعز والثراء متلازمان في الحقيقة؛ لأن المرء قلما يكون ثرياً ولا يكون عزيزاً، أو يكون عزيزاً ولا يكون له حظ من الثراء، ولو كان هذا الثراء يتمثل في حصيلة من العلم والعقل.

والعلاقة بين العز والثراء من جهة، والمطارف من جهة أخرى، واضحة.

أما الجواز فيظهر في قوله: «وَدَعَاكَ دَاعِي الشَّهْوَةِ إِلَى اخْتِيَارِهِ»^(٢)، جعل للشهوة داعياً مجازاً، كما جعل لها شيطاناً.

وكذا في قوله: «رَأَيْنَ مَا يَقْتُلُ بِهِ الطَّوَى وَالظَّمَامَ»^(٣)، فالطوى الجوع، وقتله مجاز عن تسكينه.

ومن أحسن ما قيل في الجواز قوله: «حَسْبُكَ مَا أَوْضَعْتَ مِنْ مَطَايَا الْجَهْلِ فِي سَبِيلِ الْهَوَى، وَمَاسَرَّتْ مِنْ رِكَابِ الضَّلَالِ فِي نِيَّاتِ الصَّبَا، مَالِكٌ لَا تُحُلُّ عَنْهَا أَحْمَالُكَ...»^(٤).

لما جعل للضلال ركاباً أتبعها ذكر الثنيات وحل الأحمال وحط الأثقال، وإلقاء الحبال على الغوارب، والضرب على وجوهها والطيوان في مساربها، وهذا هو الجواز المرشح الذي لاتعثر عليه إلا في كلام الفحول .

ومن ذلك قوله: «وإِيَّاكَ أَنْ تَتَنَاظَرَ دَارُكُمْ أَوْ تَتَرَايَ نَارُكُمْ»^(٥)، فتناظر الدارين أن يتقابلان كأن إحداهما تنظر إلى الأخرى على سبيل الجواز.

(١) شرح مقامات الحريري، ١٢/١.

(٢) المقامة (٣): الرضوانية، ص ٣٥.

(٣) المقامة (٥): الزاد ص ٤٣، وانظر: اللسان، مادة: طوى .

(٤) المقامة (١٢): الطاعة، ص ٧٧.

(٥) المقامة (٢٢): الولاية، ص ١٣٨.



وكذا قوله: «حَلَّقَ عَلَيَّ هَيَامَ أَمَانِيكَ»^(١)، فهذا نوع من المجاز لاتراه إلا في كلام من هو من البلاغة بالمكان الأعلى.

وفي قوله: «اِخْتَلَسَهُ الْحِمَامُ قَبْلَ أَنْ يُخْلِسَ عَارِضُهُ، وَهَيَّجَ قَبْلَ أَنْ يَهَيِّجَ بَارِضُهُ»^(٢)، فالبارض أول ما يطلع من نبات الأرض قبل أن يطول. وهاج إذا يبس، وهو مجاز عن شبيهه وأنه لم يبلغ أوان الشيب.

ونخلص إلى أن كتاب المقامة حين عمدوا إلى علم البيان وأولاه التشبيه، ومن ثم المجاز، يعلمون تأثير ذلك على قراء مقاماتهم، فهم كالقدماء «ينظرون إلى التشبيه على أنه نوع من الإقناع، فالمتكلم عنده فكرة أو قضية عامة غير ظاهرة، أو غير مألوفة فهو يسوقها مجردة ثم يعقب بتشبيه يوضحها، بحيث تقبل النفس، والتشبيه في هذه الحالة يقوم بغرض خطابي أو تعليمي أو خطابي تعليمي في وقت واحد، وهذا وإن كان مما لا ينكر أن البلاغيين التفتوا إلى التأثير الوجداني للتشبيه»^(٣).

وعلى كلِّ فإن «علم البيان يتمثل دوره في الكشف عن الخصائص الكامنة في صور البيان، وطرق التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة كما يكشف عن أسرار التصوير البياني، وتأثيره النفسي، وعناصره التي تأتي في إطار التشبيه والمجاز والكناية»^(٤).

(١) المقامة (٣٤): الشكر، ص ٢٠٤.

(٢) المقامة (٣٨): الموت، ص ١٢٤-١٢٥، وانظر: اللسان، مادة: برض.

(٣) كتاب سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي - دراسة وتحليل، د. عبدالرزاق أبو زيد زايد، ص ٩٨، مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢ م.

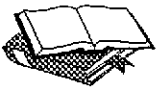
(٤) البلاغة العربية وسائلها وغايتها في التصوير البياني، د. ربيعي محمد علي عبدالخالق، ص ٥، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٨٩ م.



ولكن د. مصطفى الصاوي الجويني يخرج الكناية من علم البيان فيقول:
 «و غاية علم البيان التعبير بصورة تعبيرية مختلفة أما البديع فغاياته تحسين المعاني وزخرفة
 الألفاظ، ... وموضوعات علم البيان كما استقر عليها الرأي عند السكاكي وإلى
 اليوم هي : التشبيه والاستعارة»^(١).

ولعلك لاحظت أن كتاب المقامة امتلأت بالمجاز، وقد يتداخل المجاز بالاستعارة
 كابن نباتة مثلاً، وهذا يدل على امتزاج الصور البلاغية لديهم، في حين كانت أدوات
 الطبيعة هي المادة التي يستقون منها صورهم .

(١) البيان فن الصورة، ص ٢٠.



الكتابة

الخاتمة

بعد الإنتهاء من البحث الذي أقيم على باين مسبقاً بتمهيد، وملحقاً بخاتمة التي سنحمل فيها أهم ماتوصلت إليه الدراسة من نتائج .

- ذكرت في تمهيد الرسالة تطور دلالة فن المقامة في الأدب العربي، وركزت على نشأة فن المقامة وذلك بمعرفة الأسباب التي أطلقت من أجلها لفظة مقامة، وتطور مدلولها، والبحث يؤيد ابن قتيبة الذي كان من أوائل من أطلق على الأحاديث الوعظية لفظ مقامات فنخرج بأن الوعظ قد سلم إلى المقامة، ومن ثم التأكيد على أن البديع ت٣٩٨هـ هو حامل لواء هذا الفن، ومن حاول إثبات سابقين له في هذا المضمار، فما هم إلا مشاعل أنارت له الطريق فحسب كابن دريد، وابن فارس أستاذة.

أما الباب الأول الذي كان يحمل عنوان: قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة، فيتكون من ستة فصول؛ كان الأول منها عن الأخلاق الإسلامية في المقامة حيث وجدت ضرورة التعريف بالخلق لغة واصطلاحاً، ولما كانت الأخلاق الإسلامية متداخلة حيناً، متناسقة ومفصلة في بعض جزئياتها حيناً آخر، تناولنا أبرزها، فكان البدء بالزهد في الحياة والذي لم يكن عند المقاميين على وتيرة واحدة، فما نراه يحث على تركه هذا، نجد الآخر يزهد في شيء مخالف له، وابن الجوزي هو الذي وضع الكثير من طرق الزهد - أكثر من بقية المقاميين - فبين أنه ليس من الزهد ترك السعي في طلب الرزق للأهل والأولاد، وليس منه من اهتم ببناء رباط، وليس منه ترك النكاح، كما حث على الزهد في المال، وفي المطعم، والملبس، والمسكن.

أما الزمخشري، والبديع فقد حثا على الزهد في الدنيا. بينما ذكر الحريري مفتاح الزهد؛ وهو التوبة، وأشار مجرد إشارة إلى أن هذا الزهد مما امتاز به أهل البصرة.



وثاني خلق تعرض له البحث، هو: خلق الصبر الذي وجدناه قد ورد في المقامات من أول الصبر على فقد عزيز بالموت، وثانياً يجعله صفة من صفات الرجل الحر، والاستعانة به في المصائب والملمات، وأخيراً الصبر على معاناة الوحدة، ثم إن بعض المقامين ذكروا عاقبته، ومن ثم كيفية التحلي به وتعويد النفس عليه؛ حتى يصبح الإنسان مؤمناً صابراً وفي معية الله؛ لأن الله مع الصابرين.

ويلى الصبر خلق الشكر الذي حث عليه المقاميون ممثلاً في شكر الله، إلا أن ابن الجوزي والزمخشري ركزا على أن العبد لا بد أن ينظر إلى النعم التي أنعم الله بها؛ ليزداد شكره لمنعمها عليه وزاد الزمخشري على ذلك بذكر الكيفية التي يشكر بها العبد مولاه؛ وذلك باستعمال نعمته في محبته؛ لأن من فهم حكمة الله في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر لله، أما ابن نباتة فقد أشار إلى شكر الله، ثم شكر الناس، وعلى عكسه ابن نايقا الذي أعطى صورتين، إحداهما: لرجل يحسن إليه فلا يشكر، والثانية: صورة أناسٍ توجهوا بالشكر لله؛ لأنه خلصهم من هذا الكافر لصنيع المعروف.

أما الحريري فأضاف إلى ذكر شكر الله، ثم الناس شكر الوالدين، قال تعالى:

﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي الكرم أبانت الدراسة أن هذا الخلق حث عليه معظم المقامين، إلا أن ابن الجوزي يذكره - غالباً - مع ضده؛ ليكون أدهى للتأثير، وأول صورته إكرام الضيف، وإطعام الطعام لمن يعرف ومن لا يعرف، وإكرام السائل، كما أظهرت - المقامات - معظم مراتب الجود: كالجود بالنفس وبالرياسة، وبالراحة، وبالعلم، وبالنفع بالجاه، وبنتفح البدن، وبالعرض، وبالصبر، وبالبشر والبسطة، وبترك مافي أيدي الناس، وبينت آداب الضيف مع مضيفه، وإكرام الخادم، كما أعطت صوراً للكرم ممثلة في أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وطلحة، ورغم أن ابن الجوزي عاب على بعض أهل زمانه بخلهم فإنه أشاد ببعضهم الآخر الذين كانوا يقتزعون إذا نزل غريب؛ لإكرامه،

وهذا الايثار أعلى مرتبة من الجود والسخاء الذين حث عليهما كثيراً الزمخشري وبين
الكيفية التي يكون بها الانسان كريماً؛ وذلك بالصدقة على الفقراء؛ لأنها صدق المال.
أما البديع الذي كان يحث على الكرم ويستغله نجده يحذر ابنه أن يتحلى بتلك
الصفة ويتخلق بذلك الخلق، وعلى نقيضه الحريري الذي جعل بطله مضيفاً في إحدى
مقاماته وكان نعم المضيف فأدى للضيافة حقها، كما أشارت الذراسة إلى تلبية الدعوة
والحث عليها، بعيداً عن البطنة التي نفرت منها.

وفي حسن الصحبة خرج البحث بأن أصحاب المقامات حثوا عليها إما
بمدحها، أو التنفير من ضدها، وفي كلٍ دلالة على العمل بمقتضاها على الوجه
الصحيح، وهو التمسك بهذا الخلق الحسن وأن تجمع ما بين المسلمين الصحبة الحسنة
أو الأخوة، إلا أن الأخوة أعم من الصحبة، لأنه - الخلق - ينطوي في معنى الأخوة
الصدقة والصحبة إلا أن لكل منها درجات، وابن الجوزي رغم أنه يعني عدم وجود
أخوة، وأصدقاء أوفياء، إلا أنه أشاد ببعض الحقوق التي التزم بها صاحب تجاه
صاحبه ومنها حق اللسان، فيسدي النصح له، ويذكره بالموت، وإلى هذا الحق أشار
الزمخشري أيضاً والبديع والحريري، إلا أن البديع زاد فذكر كيفية اختيار صديق
السفر، وأن لديه نوعي صحبة، صحبة دينية وأخرى دنيوية، وأما ابن نباته فقد أشار
إلى اجتماع الأصحاب على كلمة واحدة ونادراً ماختلف، وابن نايقا يشيد بالصحبة
الحسنة، وينفر من قرين السوء، بينما يحث الحريري بطريق غير مباشر على أن حق
الصديق على صديقه بأن يحتمل منه ثلاثاً : ظلم الغضب، ظلم الدالة، ظلم الهفوة، وألا
ينقب عن عيوبه، ويراعي حسن الصحبة، لأن من لم يرعها فقد كفرها.

أما عن خلق الوفاء فالبحث خرج بأن المقامين أشاروا إلى نوعين من الوفاء،
الوفاء بالوعد، وبالعهد وحثوا عليهما، إلا أن ابن الجوزي، نفر من ضده وهو الغدر
والخيانة، وشدد على عدم الوفاء بما عاهد العبد به ربه من طاعة وشكر، وكذا عدم



الوفاء بالنذر، بينما زاد الزمخشري على ذلك بالحث على السرعة في إنجازهِ، أما البديع فقد ذكر الوفاء بالوعد والوفاء بالنذر وحث عليهما، وكذا الحريري.

وآخر خلق تناولته الدراسة خلق الشجاعة الذي يقوم أساساً على ضبط النفس عند مواجهة الخطر في الظروف الأليمة فقد وضحه ابن الجوزي، وحث عليه في غمار الحروب، وفي بعض المواقف التي تحتاج شجاعة غير تلك التي يحتاجها من يدخل لساحات الوغى، إلا أن الزمخشري نوه بالشجاعة من طريق آخر، وهي الاستفادة منها في مرحلة الشباب وتوجيهها الوجهة الصحيحة في كل ما يقرب العبد من ربه وحث على ما يمكن أن نطلق عليه الشجاعة الأدبية، أما البديع فلم يشر إلا للشجاعة التي تعتمد على القوة البدنية في مواجهة العدو، وكذلك الحريري.

أما الفصل الثاني فقد كان عن النقد الاجتماعي ومن أبرز الصور التي ظهرت في المجتمع الذي عاش فيه أصحاب المقامات: النزعة إلى الزهد والوعظ الذي انتشر كثيراً؛ حتى نزل إلى ميدانه المتكسبون وتنافس فيه المخادعون إلى جانب الزهاد والوعاظ الحقيقيون، كما أبان ذلك بديع الزمان الهمداني والحريري، وابن نايقا، وعلى عكس هؤلاء: الزمخشري وابن الجوزي اللذان جعلتا مقاماتهما ترتكزان على الوعظ الذي ليس من ورائه مآرب آخر غير الوعظ، واتكأ ومعهم الأسواني على التنفير من الدنيا، والسعي لنيل ثواب الآخرة، ويكونون بذلك قد صوروا الجانب الديني الممثل في المجالس الوعظية في المجتمع الذي عاشوا فيه وأثرتك المجالس على مستمعيها من الناس، والتي كانت من الكثرة بمكان، بل إن طلابها أكثر حتى إن الأماكن تزدهم بهم.

أما ابن نباتة والنعماني فلم يشارا إلى ذلك ربما لكونهما لم يكتبتا إلا مقامة، فلم تسعفهما ليذكرا صورة عن تلك المجالس الوعظية.

وعلى النقيض من تلك المجالس صورت لنا المقامات مجالس اللهو والمجون الممثلة في شرب المسكر المقرون بالعزف والغناء بدءاً من بديع الزمان الهمداني، وابن نباتة، وابن نايقا ومروراً بالحريري والزمخشري والأسواني، وانتهاءً بابن الجوزي، إلا أن



الثلاثة المقامين الآخرين لم يكن وصفهم لمجالس اللهو والمجون، إلا ليحذروا الناس من الوقوع فيها، ويتوجهوا إلى نقيضها من مجالس الذكر والوعظ.

وانطلق البحث بعد ذلك ليظهر عقلية ذلك المجتمع من خلال المقامات فإذا هي عقلية تؤمن بالحرز كما بين لنا الهمداني والحريري، وتؤمن بالعين كما وضع لنا ابن الجوزي وتؤمن بالشعوذة كما أظهر لنا ابن نايقا، وتؤمن بشياطين الشعر كما ذكر الهمداني، وتؤمن بالتطير كما بين الحريري .

أما الكدية التي كانت أبرز ماميز أفراد مجتمع الهمداني والحريري، وابن نباته، وابن نايقا، فقد كانت ظاهرة للعيان، وكذا الأساليب التي اتخذها المكدون، ومنها: التعامي أو ادعاء عاهة عند كل من الهمداني وابن نايقا والحريري أو الاستعانة بقرد يرقصه والناس يضحكون من حوله كما عند الهمداني، وثالثة بادعاء تبدل الحال مع وجود العيال.

ومن الصور التي ظهرت نقداً للمجتمع بيع العبيد الذي كان يتم بالمناداة عليهم في الأسواق كما ذكره الحريري، وكذا الجواري الذي دلت مجتمع الحريري على استخدام أفرادهن مقابل مال يدفعونه أو بلامقابل.

أما المرأة فقد ذكر ابن الجوزي بعض صفاتها فمثلت صورة للمرأة في عصره فهي مترجة ، نواحه، خائنة، لاتعرف قبلة في الغروب ولا في الشروق.

ومن الأمور التي أبرزتها لنا المقامات ولم تغفلها المساجد التي أوردتها معظم المقامين، وأبانت الدراسة أن المساجد قد تكون لغير الصلاة، فقد تعقد فيها المنتديات، وقد تكون مأوى لمن لايجد له مسكناً من المسافرين وملاذاً آمناً لمن يريد أن يبعد الشك عن نفسه، كما أنها مفتوحة ليلاً ونهاراً، وربما أنتهز المكدون المصلين فيها ليحصلوا على العطايا كما ظهر في مقامات الهمداني والحريري خاصة، ومن فضول القول أن نركز على أن المسجد هو المكان الملائم لوعظ الناس كما كان يفعل ابن



الجوزي دوماً في مقاماته قبل الصلاة أو بعدها؛ لما يجده الواعظ من استعداد نفسي لدى المصلين في تقبل وعظه.

ولم ينسوا الطعام والمطاعم، فوصفوا بعض أنواعه كما بين ابن الجوزي.

أما الفصل الثالث فكان عن الحاكم في المقامة حيث أورد له الهمداني صوراً متعددة غير أنها تدور في فلك واحد من المعنى، وهو: السخاء والعطاء وأعطانا صورة مخالفة للأولي يمثلها قاض خبيث، وتقع مسؤولية تولى هذا القاضي للقضاء على عاتق الحاكم الذي كان عليه أن يتوخى الحيطة والحذر قبل اختياره، وكذا حاكم آخر صورته لنا الهمداني متمثلاً في شخص حاكم لا يعلم ما يحدث من أمور في دائرة حكمه، بينما هناك آخر يقدر الأدب ويحترم الأدباء، وثالث يعد ولا يفي بوعدته، فهي صورة سيئة، والأسوأ منها البطانة التي تجلس معه فلا ترشده للصواب وتعينه عليه، إذن فهي صور لقاضٍ وحاكم بعيدة عن المسلم الحق صورها لنا الهمداني والحريري إلا حاكم سجستان فقد كان قريباً من صورة الحاكم المسلم، وكذلك ابن نباته الذي أعطى صورة للحاكم القدوة، وكذا الحريري فقد ذكر الصورة الصحيحة لحاكم يحرص على البحث عن العلماء والوعاظ لكي يستنبط منهم لأنهم خير عون له في إدارة الأمانة التي وضعها الله في عنقه، ومعهما النعماني، والزمخشري، والأسواني، وابن الجوزي الذي جعل حاكمه يختلف عن بقية الحكام يكمن في الدافع الذي جعل الحاكم يذهب بنفسه إلى مجلس الوعظ، وهذا هو وجه الاختلاف في صورته الجزئية عن الحاكم في المقامات الأخرى.

أما الفصل الرابع فقد كان عن الجهاد وقد ظهر في المقامات بأنواعه، جهاد ضد الأعداء بالسيف، وجهاد بالنفس وجهاد المجتمع، وكيفية الوصول إليه، إلا أن الجهاد في ساحات الوغى لا يقارن إذا ما قيس مع جهاد النفس، فكل أصحاب المقامات أخذ منهم جهاد النفس نصيب الأسد، أما جهاد السيف فقد كان بالإشارة إليه إشارة عابرة ليس إلا كما فعل الحريري في مقامته الحرامية، والزمخشري في مقامته (أيام



العرب»، وابن الجوزي هو الذي افرد مقامته المسماة «(في الغزاة)» في جهاد الأعداء من بين سائر كتاب المقامات الذين تناولهم البحث، ونضيف إليه البديع إن أردنا ألا نهضمه حقه في مقامته «(القزوينية)» إلا أن البديع لم يذكر أنه لقي أعداءه الروم وحاربهم، وإنما أشار لاحتياجه للعدة والعتاد ليلقاهم.

إلا أنه لا بد من التنويه بأن المقامين -هنا- لم يعطوا الجهاد حقه من الذكر، فقد كانت البلاد تموج وتضطرب، وكانت الحروب وعلى رأسها الحروب الصليبية مما عاصروه، ولكن لا نجد شيئاً يذكر عنها، وكأنها لم تكن تعكس بظلالها السوداء على المجتمع الذي يمثله هؤلاء المقاميون فيسطروه لنا ضمن ماسطروا في هذه المقامات؟!!

الفصل الخامس كان عن الحياة والموت، ووجدت الدراسة أن المقامين أشاروا في الحياة إلى الوجوه الخمسة الموجودة في القرآن من نفخ الروح في الحيوان بالخلق، وإحياء الموتى بعد خروج الأرواح، والهدى، والبقاء، وحياة الأرض بالنبات، وذكروا الموت من أول وضع الميت في قبره إلى ذكر الصراط، وأخيراً دار القرار جنة كانت أم ناراً. والفصل السادس عن علوم اللغة العربية، حيث تطرق المقاميون إلى بعض علومها وخاضوا فيها من نحو، وعروض وقافية باستعمال مصطلحاتها، لكن الزمخشري انطلق منها لوعظ نفسه قبل غيره.

والباب الثاني كان عن ملامح الفن الإسلامي في المقامة وهو فصلان: الفصل الأول ويشمل: فن الوعظ، وفيه: الرمز الذي اعتمد على الكناية عند البديع، وابن نباته، والحريري، والزمخشري وابن الجوزي. ليعظ به، فكل المقامين يعلمون أن الكلمة تزخر بمعان أوسع وأعمق، فاختروا ألفاظاً ورموزاً؛ لتخدم بكل مقاماتهم، فالهمذاني والحريري حين يرمزان بالكناية، فيعظان الناس، ليس الهدف إلا الحصول على المال، بينما الزمخشري وابن الجوزي يهدفان من وراء الرمز: الوعظ، ولا شيء سواه، كما أن الزمخشري اتكأ على استدعاء الشخصيات القرآنية والتاريخية ليوظفها في وعظه فيكون أدعى للتأثير، وتبعه في ذلك ابن الجوزي الذي رمز عن طريق قصص

الحيوانات هو وسابقه، لما تنطوى على مدلولات معنوية نجد فيها ادراكاً تجاوز حدود الفهم المسطوح.

أما القص فبعد أن عرجنا على تعريف القصة، انطلق البحث إلى بيان أبرز عناصرها: من شخصية، وحدث، وحوار، وزمان، ومكان، عند ابن الجوزي خاصة، وعند الزمخشري، والهمذاني، والحريري بصفة عامة، فخرجنا إلى أن القص عند ابن الجوزي والزمخشري اعتمد على قصص الأنبياء، لكن ابن الجوزي ينتقى منها النهايات فقط، والزمخشري يكتفي بذكر اسم الشخصية؛ ليصل إلى موطن العبرة والعظة؛ لأنه يدرك مدى تأثيرها في النفوس، إلا أن ابن الجوزي أضاف فذكر بعض القصص على لسان الحيوانات، وأضاف الزمخشري بعض قصص السنة النبوية، وبعض ما ألفه العرب وشاع بينهم كأيام العرب، ينتقى منها العظة والعبرة. أما الهمذاني فقد عول على الواقع التاريخي، وشخصيات تعكس مجتمعه، بينما الحريري قصصه تقوم على الخيلة، وبقية العناصر وموجودة معظمها إن لم تكن كلها، بينما كان العنصر البارز لدى ابن الجوزي والزمخشري هو: الشخصية بينما عنصر الحوار، والزمان والمكان والحبكة، والعقدة قلما تظهر، وإن ظهرت فلكى تخدم الوعظ الذي كان الهدف من وراء سوقهم لتلك القصص .

وأما الواقعية فبعد تعريف الواقعية الإسلامية خرج البحث بأمثلة تدل على وجودها لدى المقامين كلهم مثلها السفر، بينما اختير الحريري من أصحاب المقامات التي أقيمت على الكدية كمثال لهم وبتقصي الواقعية وجدناها تمثلت لديه في الاستخارة، والدعاء، وحسن الجوار، وإقامة الدروس في المساجد وإفشاء السلام والصحبة، وحب العلم والعلماء والحث على النكاح، والحج والتوبة والحجامة، وزيارة القبور ومن ثم عرجنا بمثال على أصحاب المقامات التي تقوم على الوعظ، واختير ابن الجوزي، الذي ظهرت الواقعية الإسلامية لديه من خلال الوعظ بالموت، وحياء الليل والاعتكاف، والقناعة والعزلة، والصوفية وأخيراً الحرص على الصلاة والصوم كل

ذلك؛ ليحث على التمسك بما أمر به الإسلام ويتعظ من لم يجعل واقعه كواقع المسلم الحق.

والفصل الثاني عن الأسلوب فكان عن المعجم اللغوي الذي خرج البحث فيه بأن لغتهم كانت متينة أنيقة تارة وغريبة ثقيلة تارة أخرى، وخير من يمثل الأولى، الزمخشري، والثانية؛ الحريري. إلا أن الغرابة ظاهرة أو خاصية عامة في معظم المقامات التي كتبت على خطبة البديع كقمامة ابن نباته، وابن نايقا، والحريري، والأسواني، والنعماني، وابن الجوزي، ولعل الداعي لذلك يكون أحياناً تعليمياً، وأحياناً أخرى بقصد التحدي، وربما بقصد إحياء ألفاظ العربية.. وقد يترك المقامي الغريب - وهذا نادر - ويعتاض عنه بالألفاظ الأنيقة المختارة التي تضيء ظلالاً شعرية فتعتبر خاصية بارزة من خصائص صياغة الأسلوب في القمامة.

أما الصياغة فبعد معرفتها لدى كتاب القمامة ممثلة في السجع، والجناس، والطباق والمقابلة التي كانت من الكثرة؛ لتجعل القارئ يلجأ للمعاجم لمعرفة معاني الكلمات التي أحضرها قسراً لتوافق السجعة، أو التجنيس، أو ليطابق به لفظة أخرى، مما يشكل على القارئ لأول وهلة فيحتاج للمعاودة والمراجعة ليفهم ما يقرأ كل ذلك يعكس حال العصر الذي ينتمون إليه، والاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم من الشعر والأمثال، وجد البحث أن الاقتباس الذي عمد إليه المقاميون من النوع المقبول والمباح، إلا أن ابن الجوزي، تجاوز أثر القرآن في مقاماته التضمين، والاقتباس، إلى الإفادة من منهج القرآن في الدعوة إلى الله تعالى، وحاول أن يستفيد من أساليب القرآن الكريم وصوره البلاغية، حيث استخدم أساليب الرمز، والنهي، والخطاب، والاستفهام، والتكرار، ويمكن أن نطبق هذا القول على الزمخشري أيضاً.

أما الصورة ممثلة في التشبيه، والاستعارة، والمجاز، فقد خرج البحث بأن مقامات كتاب القمامة امتلأت به إلا أنه عند الحريري من لون التشبيه البليغ الذي

لايستخدم فيه الاداة، لكنها لم تبلغ من حيث الوضوح والحياة والقوة والجمال، مابلغته عند البديع الهمذاني، ولعل السبب في ذلك التفاته الشديد واعتناؤه باللفظ دون التركيز على المعنى غالباً، أما الزمخشري فتشبيحاته قليلة قياساً بالحريري، ويتكىء فيها على التشابه المعنوية المعقولة، لأنه كان مضطراً إلى تقرير مسائل نحوية وصرفية غير أنه لأجمل من تشبيحات ابن الجوزي؛ لأنها من قصص القرآن، وقد نجد تشبيهاً يعقبه تشبيه آخر، وقد يتداخل المجاز بالاستعارة كابن نباته مثلاً، وهذا يدل على امتزاج الصور البلاغية لديهم، في حين كانت الطبيعة هي المادة التي يستقون منها صورهم.

وبعد :

فلا أدعي أنني قد بلغت الغاية التي ينبغي أن يصل إليها البحث، ولكنني أقول : لقد بذلت ما في وسعي، بعد أن حرصت على ألا أكون كحاطب ليل أسير على غير هدى.

فإذا كان بعد ذلك زلة من قصور، أو غفلة، فأنا عائدة إلى الحق عندما يتبدى لي - بحول الله وقوته - مع الشكر والاعتراف بالجميل، والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهارس

- ١- فهرس الآيات القرآنية.
- ٢- فهرس الأحاديث.
- ٣- فهرس المصادر والمراجع.
- ٤- فهرس الموضوعات.



١ - فهرس الآيات القرآنية

رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة	السورة ورقم الآية
٢٤٢	١٠٣		سورة البقرة
١٩	١٠٤	٢٩٦	٣٢
٣٧٢	١٠٥	٣٠١	٣٠
٢٤٢	١١٢	٣٠١ ، ٢٩٦	٣٥
٤٤٤	١١٨	٩٩	٤٠
٤٧	١٤٥	٤٤٥	٦٩
٤٤٤	١٥٤	٤٤٤	٨٥
٦٥	١٨٠	٣٠٢	١٠٢
٤٤٨	١٨٥	٢٤٧	١٣٢
٢٤٦	٢٠٠	٤٧	١٥٢
	سورة النساء (٤)	٤٥	١٥٣
٦٧	١	٤٤٧	١٥٦
٣٣٥ ، ١٤٢	٣٦	١٣٣ ، ٩٩ ، ٩٤	١٧٧
٦٥	٣٧	٣٦٦	١٨٣
٢٨	٧٧	٣٦٣	١٨٥
٣٣٦	٨٦	٣٣٢	١٨٦
٩٦	١٠٥	٤٤٦	١٨٩
٩٦	١٠٧	٢٤٥	٢٢٢
٤٤٨	١٠٨	٣٠٧	٢٥٨
	سورة المائدة: (٥)	٢٤٥	٢٧١
٤٤٨	٥٢		سورة آل عمران (٣)
٢٩٢	٧٢	٤٨٣	٦
	سورة الأنعام: (٦)	٢٠٥	١٤
٤٤٦	٤	٣١٠	٦٢
٤٥١	٥	٩٣	٧٦



رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة	السورة ورقم الآية
	سورة يونس: (١٠)	٤٦٦	٢٥
٣١٢	٩٠	٢٤٠	٣٨
	سورة هود: (١١)	١٢٧	٩١
٤٤٧	٦		سورة الأعراف: (٧)
٣٠٣	٤٠-٣٧	١٩٦	١٢
١٢٧	٤١	٦٠	٣١
٣٠٣	٤٢	٣١٠	٦٢
٢٤٢	٤٣	٣٠٤	٧٣
٣٠٣	٤٦	٣٠٦	٨٤
٦٠	٦٩	٤٥٣	١٤٣
٣٠٦	٨٣-٨٢	٣٢	١٥٦
٣٠٩، ٢٩٨، ٢٩٥	١٢٠	٩٤	١٧٣-١٧٢
	سورة يوسف: (١٢)	٢٩٨	١٧٦
٣١٠، ٢٩٨	٣	٤٤٤	١٨٦
٢٢	٢٠		سورة الأنفال: (٨)
٩٥	٢٣	٢٠٠	١٦
٤٥٢، ٤٤٩، ٤٤٦	٤٥	٤٧	٢٦
٤٤٦	٥١	٩٦	٢٧
٩٦	٥٢	٤٤٩	٤٢
٤٥٠	٨٧	٤٥	٤٦
٣٩	٩٠	٩٦	٥٨
	سورة الرعد: (١٣)		سورة التوبة: (٩)
٩٣	٢٠، ١٩	٤٤٤	٦٥
٣٨	٢٢	٦٤	٧٥
	سورة إبراهيم: (١٤)	٩٦	٧٨-٧٥
٤٧	٥	٤٥٤	١٢٨
٤٦	٧		

رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة	السورة ورقم الآية
	سورة مريم: (١٩)	٤٥٢	١٠
٩٧، ٩٥، ٩٣	٥٤	٤٨٢	٢٥
	سورة طه: (٢٠)		سورة الحجر: (١٥)
٤٤٥	٢٢	٣٠٦	٦٢-٦١
٢٩٨	٧٦	٣٠٦	٧١-٦٧
٤٤٩	٧٨	٣٠٦	٧٤-٧٣
٢٩٦	١٢٣		سورة النحل: (١٦)
	سورة الأنبياء: (٢١)	٤٥٤	٣٢
٤٥١	٤٧	٣٩، ٢٨	٩٦
٣٠٧	٧٠-٦٨	٩٠	١٢٦
٤٤٧	١٠٤		سورة الإسراء: (١٧)
	سورة الحج: (٢٢)	٤٥٠	٥
٢٤٧	١١	٤٤٩	٢٩
٣٤٨	٢٧	٩٩	٣٤
٩٣	٢٩	٤٤٦	٤٦
٩٦	٣٨	٤٤٥	٨١
	سورة المؤمنون: (٢٣)		سورة الكهف: (١٨)
٣٩	١١١	٤٤٥	٩
	سورة النور: (٢٤)	٤٥٢، ٤٥١	١١
٣٥١، ١٤٤	٣١	٤٤٧	١٨
٣٤٤	٣٢	٨٤	٢٨
١١٠	٦٣	١٢٩	٣٩
		٤٤٧	٦٢
	سورة الشعراء: (٢٥)	٤٥٣	٧٧
٤٥٢	٦	٤٧	٧٨
٣٠٥	١٥٦-١٥٥	٤٤٧	١٠٨



رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة	السورة ورقم الآية
	سورة الزمر: (٣٣)		سورة القصص: (٢٦)
٣٤٣	٩	٤٤٦	٢٩
٤٥، ٣٩	١٠	٤٧	٧٣
٣٥٣	٥٣	٤٥١، ٣١٢	٧٦
	سورة غافر: (٣٤)	٢٨٠	٨١-٧٦
٤٤٦	٣		سورة لقمان: (٢٧)
٣١٢	٣٦	٥١	١٤
٤٥٣	٤١		سورة الأحزاب: (٢٨)
٣١٢	٤٦	٦٠، ٥٩	٥٣
	سورة فصلت: (٣٥)	١٠٩	٥٨
٣٠٥	١٧		سورة فاطر: (٢٩)
٢٠١	٤٦	١٩٤	١٠
	سورة الشوري: (٣٦)	٤٤٦	١٩
٣٠١	٥	٤٥٣	٢٩
٣٥٣	٢٥		سورة يس: (٣٠)
٩٠	٤١	٩٤	٦١-٦٠
٢٤٧	٤٣		سورة الصافات: (٣١)
	سورة محمد: (٣٧)	١٤٣	٤٩
٦٥	٣٨	٣٠٧	٩٣-٨٨
	سورة الحجرات: (٣٨)	٣٠٨، ٩٥	١٠٦-١٠٢
٤٥٠، ٤٤٨	١٢		صورة ص: (٣٢)
	سورة ق: (٣٩)	٤٤٦	٣
٤٥١	١٧	٢٨١	١٤-١٢
-	سورة النجم: (٤٠)	٤٤٨	٢٠
٤٥٢	٩	٢٩٦	٧٦
٩٧	٣٧		
٢٨٢	٥٣		



رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة	السورة ورقم الآية
٦٧	سورة الحشر: (٥١) ١٨	٥٢	سورة الرحمن: (٤١) ٦٠
٣١٣	سورة الممتحنة: (٥٢) ١	٣٥٣	سورة التحريم: (٤٢) ٨
٣٧٧	سورة الجمعة: (٥٣) ٩	٤٤٨	سورة الملك: (٤٣) ٨
٤٥٣	سورة الإنسان: (٥٤) ١	١٨	سورة القلم: (٤٤) ٤
٩٣	سورة عبس: (٥٥) ٧	٤٥٠	سورة الحاقة: (٤٥) ٧
٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٤٩	سورة التكويد: (٥٦) ١	٣٠٤	٨-٦
٤٥١	سورة الانفطار: (٥٧) ١٨	٢٨٢	٩
٤٨٤	سورة الانشاقاق: (٥٨) ٨	٢٣٣	١٨
٤٥٢	سورة الطارق: (٥٩) ١٤	١٤٢	سورة المعارج: (٤٦) ٥
٤٤٥	سورة الفجر: (٦٠) ٣-١	٣٠٣	٣٠-٢٩
٢٨١	سورة الشمس: (٦١) ٩	٥٠٦	سورة نوح: (٤٧) ١
٢٤٨	سورة الضحى: (٦٢) ٩	٣٠٣	سورة الجن: (٤٨) ١
٤٤٨ ، ٣٧	٤	٣٤٣	سورة المدثر: (٤٩) ١١
		٤٤٩	سورة المجادلة: (٥٠) ١٢



رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة	السورة ورقم الآية
		٣٦٧	سورة القدر: (٦٣) ٣-١
		١٨٧	سورة البينة: (٦٤) ٨-٧
		٤٥٢	سورة العاديات (٦٥) ١٠
		٤٤٩	سورة التكاثر: (٦٦) ٤-٣
		٤٥٠	سورة الفلق: (٦٩) ١
		٤٥٠	سورة الناس: (٧٠) ١



٢- فهرس الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	مطلع الحديث
١٨	اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها
١١٩	اتقوا الدنيا واتقوا النساء
٥٥	اتقوا النار ولو بشق تمرة
٣٦٢	أتي بأبي قحافة
٣٥٥	احتجم النبي ﷺ وهو محرم
٣١٩	إذا أتاكم من ترضون دينه
٣٤٥	إذا أراد أحدكم أن يخطب لحاجة من نكاح أو غيره
١٧٨	إذا أراد الله بالأمير خيراً
٨١	إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه
٣٣٧	إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين
٣٦٦	إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المنزر
٧٩	إذا دعا أحدكم أخاه فليجب
٧٥	إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب
٣٦٣	إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فافطروا
٣٤٧	إذا رفا أحدكم أخاه فليقل: على الخير والبركة، بارك الله
٢٢١	إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه
٣٣٠	إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين
٩٧	إذا وعد الرجل أخاه، ومن نيته أن يفني
٩٠	الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف
٤٥٦	أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم
٦٢	اعفوا عنه كل يوم سبعين مرة
١٤٣	اعتقها ولدها
٤٥٧	أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة
١٣١	أقروا الطير على مكنتها



رقم الصفحة	مطالع الحديث
٣٥٦	أكثرنا من ذكر هادم اللذات.....
٤٥٦	أكل الضب على مائدة رسول الله.....
١٧	ألا من أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً.....
٢٢٣	ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى.....
٤٦٠	ألا تغالوا صدقة النساء.....
٢٢١	ألبسوا من ثيابكم البياض، فإنها.....
١٢٧	أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في القلك.....
٣٧٩	أمرنا رسول الله في العيدين.....
٣٧٢	أمسك عليك لسانك ويسعك بيتك وابك على خطيئتك.....
٤٥٦	أنا قائد الغر المحجلين يوم القيامة.....
	إن أول ما نبدأ به من يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن عمل فقد.....
٣٧٩	أصاب سنتنا.....
١٤٤	إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته.....
٤٥٥	أن تجد الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.....
٢٣٢ ، ٢٩	إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها.....
٤٦٤ ، ٤٥٨	إن الرهبانية لم تكتب علينا.....
٦٦	إن السخي قريب من الله، قريب من الناس.....
٢١٦	إن السكينة تنطق على لسان عمر.....
٨٨	إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة.....
٩٤٤	إن صداق بنات رسول الله.....
١٣٣	إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر.....
٣٦٠	إن العين لتدمع والقلب يحزن.....
٢٨٦	إن في كل أمة محدثين وإن عمر منهم.....
٣٥٥	إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شربة عسل.....
٢٢	إن لكل أمة فتنه، وفتنة أمتي المال.....



رقم الصفحة	مطالع الحديث
١٢٤	إن الله تعالى حرم على أمتي الخمر والميسر.....
١١٠	إن الله تعالى يغار، وغيره الله أن يأتي.....
٨٢	إن الله تعالى يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي.....
٤٥٨	إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم.....
٣٥٣	إن الله - عز وجل - ييسط يده بالتوبة لمسيء الليل.....
٣٤٣	إن الله وملائكته وأهل السموات.....
٢٢٠	إنما القبر روضة من رياض الجنة أو.....
٣٦٠	إنما هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده.....
٢٤	إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء.....
٢٧٥	إن من يتقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً.....
٣٦٠	إن الميت ليعذب ببكاء الحي.....
٣٨٠	إن النبي ﷺ استسقى.....
٣٧٩	إن النبي ﷺ صلى العيد.....
٣٥٢	إنه ليغان على قلبي، فاستغفر الله في اليوم.....
٣٦٠	إنني بريء من الصالقة والحالقة والشاقة.....
٤٥٧	إنني رسول الله ولن يضيعني أبداً.....
١٣٤	أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أفيكون بخيلاً؟.....
٣٤٣	لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك.....
٣٦١	أولاد المؤمنين في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة.....
٣٤٥	أولم ولو بشاة.....
٦٥	إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم.....
١٠٠	آية المنافق ثلاث.....
٤٦٤	بارك الله لك أو لم ولو بشاة.....
٥٧، ١٥	بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه.....
٢٢٧	البذاذة من ايمان.....
١٣٢	برد أمرنا.....



رقم الصفحة	مقالته الحديث
٨٨	بشروا ولا تنفروا ، ويسروا.....
٣٥١	التائب من الذنب كمن لا ذنب له.....
٣٦٧	تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان.....
٣٦٦	تسحروا فإن في السحور بركة.....
٣٦٨	تغلق أبواب النار وتفتح أبواب الجنة وتصعد الشياطين.....
٣٦٢	تكسف الشمس على عهد رسول الله.....
٤٦٤	تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها.....
٣٧٧	الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك.....
٣٥٧	اللحد لنا والشق لغيرنا.....
٣٨٠	حوالينا ولاعلينا.....
٦٥	حصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق.....
٣٥٥	خير ما تداويتم به الحجامة والقسط.....
٢٤٣	خيركم من تعلم القرآن وعلمه.....
١٣٤	دع ما يريك إلى ما لا يريك.....
٣٣٢	الدعاء مخ العبادة.....
٢٣١ ، ١١٤	الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.....
٨٠ ، ١٧٧	الدين النصيحة.....
٨٤	الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال.....
٣٧٢	رجل يجاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه.....
٤٥٨	رد رسول الله ﷺ على عثمان.....
٢٧٥ ، ٢٦٨	شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه.....
٣٤٦	شر الطعام طعام الوليمة.....
٣٥٨	الصبر عند الصدمة الأولى.....
٣٤٦	صنعت طعاماً فدعوت رسول الله.....
٣٣٧	صلاة الجمع تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة.....
٣٦٤	الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة.....

رقم الصفحة

مطالع الحديث

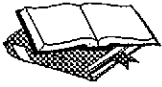
- ٤٥٩ الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة ومأنفق عليه بعد ذلك -
- ٤٦ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر -
- ١٨٤ عدلت شهادة الزور -
- ٣٦٦ عليكم بهذا السحور فإنه هو الغذاء المبارك -
- ٣٥٦ عودوا المرضى، واحضروا المقابر -
- ١٢٩ العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين -
- ٣٢١ فاظفر بذات الدين تربت يداك -
- ٣٤٦ فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت -
- ١٤٢ قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل -
- ٣٦٣ قال تعالى عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم -
- ١٤٠ قال الله : يسب بنو آدم الدهر -
- ٣٦١ قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها -
- ٣٦٨ قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه -
- ١٨٤ القضاة ثلاثة واحد في الجنة -
- ٤٦٠ قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان -
- ٣٨٠ كان الرسول ﷺ لا يرفع -
- ٣٦٧ كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر -
- ٣٦٧ كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره -
- ٣٥٦ كفى بالموت واعظاً -
- ٤٥٥ كل إنسان تلده أمه على الفطرة -
- ٢٠٢ كل ميت يختم عمله إلا المرابط في سبيل الله -
- ٣٥٧ كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها -
- ٢٤٢ كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم -
- ٢١٦ كيف أنت إذا أصاب الناس موت -
- ٤٦١ لئن تدع أولادك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس -
- ٣٥٨ لئن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه -



رقم الصفحة	مطالع الحديث
٣٦٠	لا تحمد المرأة على ميت فوق ثلاث
٦٩	لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك
٧٤	لا خير فيمن لا يضيف
٤٦٢	لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا
٤٦١	لا ترى نارهما
٣٢٦	لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد
٢٢١	لا تغالوا في الكفن فإنه يسلبه
٣٥٧	لعن الله زوارات القبور
٢١٦	لعن رسول الله ﷺ الختفي والختفية
٣٧٨	لا يغتسل رجل يوم الجمعة ولا يتطهر ما استطاع من طهر ويدهن
٢١٨	اللحد لنا والشق لغيرنا
٨٩	اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون
٣٧	اللهم بارك لهما في ليلتهما
٤٦٣	لا لن يفلح قوماً تملكهم امرأة
٤٥٧	لأنبي بعدي
١٣٥	لا يتمنى أحدكم الموت إما محسناً
٦٥	لا يدخل الجنة بخيل
٣٤٩	لا يلبس المحرم الثوب ولا العمائم
٤٦٢	لا يبلغ أحدكم كما يبلغ الكلب
٣٣٧	لا يؤمن أحدكم حتى
٤٥٦ ، ٧٦	لو دعيت إلى كراع لأجبت
٣١	لو كان لي مثل أحد ذهباً لم يسرنني
٤٦٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨	لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة
٤٦١	ما أنا من دد ولا الدد مني
٢٤٥	ما أنا والدنيا إلا كراكب
١٦٨	ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة



مطالع الحديث	رقم الصفحة
مابعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة ...	١٦٨
ماجلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم	٣٤٠
مالدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم	٢٩
ماذئبان جائعان أرسلنا في غنم بأفسد لها	٢٣، ٢٢
مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه	٣٣٥
ماكنا نقيلاً ولا تتغذى	٤٥٩
ماملاً آدم وعاء شراً من بطنه	٤٦٣
مامن مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث	٣٦١
مامن عبد يسترعيه الله رعية	١٨٣
مامن مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم	٢٠٢
المؤمن الذي يخالط الناس ويصير على أذاهم	٣٧١
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً	٨٧
مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جنتان	٥٦
مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم	٨٩
المجاهد في سبيل الله هو على ضامن	١٩٠
المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله	١٩٠
المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال	٣٣٩
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده	١٠٩
من أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق	٤٥٧
من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً	٣٣٩، ٨١
من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره	٢٥
من أعطى عطاءً فوجد فليجز به ، فإن لم يجد	٥٢
من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما ...	٣٧٨، ٤٥٩
من بدا جفاً	٣٧٣
من تعلم علماً مما يتغى به وجه الله عز وجل	٣٤٢
من حج البيت فلم يرفق ولم يفسق	٣٤٨



رقم الصفحة

مقالته

- ٣٢٧ من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله -
- ٣٤٦ من دعي إلى عرس أو نحوه فليجب -
- ٧٥ من دعي فلم يجب فقد عصى الله ورسوله -
- ٥٠ من دل على خير فله مثل أجر فاعله -
- ١٨٥ من رأى من أميره شيئاً فكرهه -
- ١٩٨ من رد عن عرض أخيه رد الله -
- ٣٣٨ من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جهر جهنم -
- ٢٥٣ من سئل عن علم فكتمه لجم يوم القيامة -
- ٤٦٤ من سكن البادية حفاً ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان افتتن -
- ٣٤٣-٢٥٤ من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهلاً -
- ٥٣ من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً -
- ٨٧ من ضار ضار الله به، ومن شاق -
- ١١٤ من طال عمره وحسن عمله -
- ٣٦٣ من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه -
- ١٤٨ من قال صه، فقد لغى -
- ٣٦٤ من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له -
- ٢٣٦ من كانت الدنيا همه جعل الله فقره في قلبه -
- ٧٤ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه -
- ٧٤ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً -
- ٢٥٠ من كذب علي متعمداً -
- ٥١ من لا يشكر الناس لا يشكر الله -
- ١٤٢ من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه -
- ٣٦٤ من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة -
- ٢١٩ من نيج عليه فإنه بعذاب بما نيج عليه -
- ١٧٢ من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب -
- ٤٥٨ من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها -



رقم الصفحة	مقالته
٣٥٧	نعم كان قد نهى عن زيارة القبور
٣٤٤	النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني
٢١٨	نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها
٢٢٧	هذا خير من الدنيا وما فيها
٣٧	هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء
٣٤٧	هلا بكمراً تلاعبها وتلاعبك، هلا جارية
٤٥٨	هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت
٣٣٦	والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا
٣٣٥	والله لا يؤمن والله لا يؤمن ... الذي لا يؤمن ...
١٣٢	ولا عدوى ولا طيرة، وأصدقها الفأل
٢١٩-٢١٨	ولكن نهيت عن صوتين أحققين فاجرين
٤٦١	وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم
٤٦٢	ويحك قصمت ظهره وفي رواية: ويحك قطعت عنق صاحبك
٧٢	يا ابن آدم إن تبذل الفضل خير لك
٣٦٧	يحي ليالي رمضان وإذا كان الشعر الأواخر أيقظ أهله
٤٥٥ ، ٢٤٤	اليد العليا خير من اليد السفلى
٣٣٧	يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم عن القوم
٤٦٢	يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير
٣٤٨	يا عطف ألك امرأة؟ قال لا قال فأنت إذاً من اخوان الشياطين
٤٦٣	يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة
٢٢	يقول العبد : مالي مالي إنما له من ماله ثلاث



٣- فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- المخطوطات :

- المقامة الحصيية، أبوالحسين أحمد بن علي بن الزبير الغساني الأسواني، ت سنة ٥٦٣هـ، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- مقامات عبدالعزيز أبي نصر، مكتبة برلين الوطنية بألمانيا تحت رقم (٨٥٣٦).
- المقامات العشر، لأبي القاسم بن نايقا، فاتح، اسطنبول رقم (٤٠٩٧).
- مقامات العلماء بين الخلفاء والأمراء، أبوحامد الغزالي، مكتبة برلين الوطنية بألمانيا تحت رقم (٨٥٣٧).

٢- رسائل جامعية مخطوطة :

- أدب ابن الجوزي، أول خير عمر عيسى سراج، رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة ١٤٠٩هـ.
- ابن الجوزي ومقاماته الأدبية، علي جميل علي مهنا، رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.
- تطور فن المقامة، د. محمد رشدي، رسالة دكتوراه - بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٠م.
- جهاد النفس وثمراته في ضوء الكتاب والسنة، فائزة أحمد سالم بافراج، رسالة ماجستير، كلية الدعوة جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- الكناية في ضوء التفكير الرمزي، نائلة قاسم لمفون، رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية جامعة أم القرى بمكة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٣- المطبوعات :

- آداب المجتمع في الإسلام، محمد جمال الدين رفعت، عبد الله إبراهيم الأنصاري، مطابع الخليج.
- الأدب في ظل بني بويه، محمود غناوى الزهيري، مطبعة الأمانة بمصر، ١٩٤٩.
- الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.
- إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.

- الإحكام في أصول الأحكام، الحافظ أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري، مطبعة العاصمة.
- أساس البلاغة، جارا لله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- أسباب النزول، وبهامشه الناسخ والمنسوخ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: أبو القاسم هبة الله بن سلامة أبي النصر، عالم الكتب، بيروت.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي المعروف بابن عبد البر، مطبعة السعادة، القاهرة، ط (١) ١٣٢٨هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .
- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد بن محمد أبوشهبة، مكتبة السنة، ط (٤)، ١٤٠٨هـ . طبعة منقحة ومصححة).
- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، ت سنة ٤٧١هـ، تحقيق: هـ. ريتز، وزارة المعارف، استانبول ١٩٥٤م، تصحيح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الإسلامية والمذاهب الأدبية، د. نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٢)، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط (٢) ١٩٨٥م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة السعادة، ط (١) ١٣٢٨هـ.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط (٥)، ١٩٨٠م.
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، الدار التونسية للنشر.
- الأمالي، أبو اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
- الأمثال في القرآن، محمد بن الشريف، دار عكاظ للنشر، ط (٢).

- إنباه الرواة على أبناء النحاة، جمال الدين علي بن يوسف القفطي، ت ٦٤٦هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٥٧-١٩٥٨م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للإمام الخطيب القزويني، ت ٧٣٩هـ، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط (٥)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- البداية والنهاية، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط (٢)، ١٩٧٧م + مطبعة السعادة.
- بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، د. مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، ط (١)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- بشرى الكتيب بلقاء الحبيب، للإمام جلال الدين السيوطي، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ت ٩١١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط (١)، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.
- البلاغة العربية وسائلها وغايتها في التصوير البياني، د. ربيعي محمد علي عبد الخالق، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، ١٩٨٩م.
- بلاغة الكتاب، د. محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة، ط (١)، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- البيان فن الصورة، د. مصطفى الصاوي، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، ١٩٩٣م.
- البيان والتبيين، أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية بيروت.
- بين الخلفاء والخلفاء، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط (٣)، ١٩٨٠م.
- تاج التراجم في طبقات الحنفية، زين الدين قاسم ابن قطلوبغا، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٢م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة ١٩٧٨م، تحقيق: شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧م.
- تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط (٢)، ١٣٧٦هـ-١٩٥٨م.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، ط (٢)، ١٩٦٨م-١٩٦٩م.

- تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن، د. محمد بن لطفي الصياغ، المكتب الإسلامي، ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، ت سنة ٧٤٨هـ، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط (٦)، ١٩٧٩م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار إحياء التراث.
- التقليدية والدارمية في مقامات الحريري، د. جابر قميحة، دار المعارف، القاهرة.
- تلبس إبليس، ابن الجوزي، دارالكتبا لعلمية، بيروت - لبنان.
- تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، حيدر آباد الدكن، ط (١)، ١٣٢٥هـ.
- تهذيب مدارج السالكين، للإمام ابن قيم الجوزية، ت ٧٥١هـ، هذبه: عبد المنعم صالح العلي العربي، مؤسسة الرسالة، دار المنطلق، الإمارات العربية المتحدة، دبي.
- تيارات ثقافية بين العرب والفرس، أحمد محمد الحوفي، مطبعة مصر، القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط (٤)، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٠٩ - ٢٧٩هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي.
- الجمان في تشبيهات القرآن، ابن نايقا البغدادي، ت: مصطفى الصاوي الجويني، منشأة المعارف بالاسكندرية.
- جمهرة أشعار العرب، القرشي، ت: د. محمد علي الهاشمي، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر (٦)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- الجهاد والفدائية في الإسلام، حسن أيوب، دارالندوة الجديدة، بيروت - لبنان ط (٢) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متز، نقله إلى العربية: محمد عبدالمهدي أبوريدة، مكتبة الخانجي القاهرة - دار الكتاب العربي بيروت، ط(٤)، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- حق الجار، طه عبد الله العفيفي، سلسلة الحقوق (٦)، دار الاعتصام، القاهرة.
- حق المسلم على المسلم، طه عبد الله العفيفي، سلسلة الحقوق (٣)، دار الاعتصام، القاهرة.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ت ٤٣٠هـ، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، ت ٢٥٥هـ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الاسلامي، بيروت ليبيا، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- خريدة القصر، وجريدة العصر، عماد الدين الصفهاني الكاتب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، القسم العراقي-الجزء الثاني، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، المطبعة الخيرية، القاهرة، ط(١) ١٣٠٤هـ.
- دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، عباس محمود العقاد، مكتب غريب، الفجالة، مطبعة دار العالم العربي.
- ديوان ابن نباتة السعدي، أبي نصر عبدالعزيز بن عمر بن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق: عبدالأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٧م.
- ديوان أبي العتاهية .
- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتقديم عباس عبدالسلام، دار الكتب العلمية، ط(١)، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
- ديوان أبي نواس، الحسن بن هانيء، ت: أحمد عبدالمجيد الغزالي، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ديوان امرئ القيس، حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م.
- ديوان جرير، كرم البستاني، مجموعة ديوان العرب (١٦).
- ديوان حسان بن ثابت، دار بيروت، للطباعة والنشر.
- ديوان الخطيئة من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

- ديوان شعر بشار بن برد أبي المحدثين، جمعه السيد: محمد بدرالدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٣م.
- ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلام الشنتمري ٤١٠هـ-٤٧٦هـ، وتليه طائفة من الشعراء المنسوب إلى طرفة، ت: دريه الخطيب، لطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- ديوان العباس بن الأحنف، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- ديوان عروة بن حزام، دار بيروت للطباعة والنشر.
- ديوان عنزة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٨٧م.
- ذم الدنيا، للحافظ بن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة.
- رأي في المقامات، د. عبدالرحمن ياغي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط(١)، ١٩٦٩م.
- الرمز والرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط(٢) ١٩٧٨م.
- روائع الإعجاز في القصص القرآني، محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث، اسكندرية.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، وطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.
- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ت ٤٥٣هـ، تحقيق: زكي مبارك، دار الجليل، بيروت، ط(٤) ١٩٧٢م.
- السفينة الماخرة إلى البرزخ والدار الآخرة، حامد بن محمد العبادي، مطابع الصفا، ط(٣).
- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، ت ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر.

- سنن أبي داود، أبو داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي، ت ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الباز للنشر والتوزيع، المروة، مكة المكرمة.
- السنن الكبرى، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ٤٥٨هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، ت ٣٠٣هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحلي بن العماد الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ، طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- شرح ابن عقيل: قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني على ألفية الإمام: أبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الاتحاد العربي.
- شرح ديوان الأخطل، ايليا سليم الحاوي، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م.
- شرح ديوان الحماسة، الخطيب التبريزي، عالم الكتب، بيروت.
- شرح ديوان مجنون ليلى، تاريخه، علاقته بليلى، أشعاره، محمود كامل فريد، مطبعة حجازي بالقاهرة.
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، ت: د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط (١)، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس، مراجعة: عبدالرزاق عفيفي، المكتبة السلفية (المدينة المنورة)، ط (٣).
- شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، ت: د. محمود حسن أبوناجي، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط (١)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، أبو الفضل أحمد بن الحسين، بديع الزمان الهمداني، ت: ٣٨٩هـ، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط (٢).

- شرح مقامات الحريري، لأبي العباس أحمد بن عبدالمؤمن القيسي الشريشي، تحقيق: محمد أبوالفضل ابراهيم، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزي، القاهرة.
- شعر النابغة الجعدي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط(١)، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته، د. الطاهر أحمد مكّي، دار المعارف، القاهرة، ط(١)، ١٩٨٠م.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، شهاب الدين أحمد الخفاجي، مطبعة السعادة بمصر، ط(١)، ١٣٢٥هـ.
- صبح الأعشى، ابوالعباس احمد بن علي القلقشندي، ت ٨٢١هـ، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م.
- صحيح البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردبذبه البخاري الجعفي رضي الله عنه، دار إحياء التراث العربي.
- صحيح مسلم، الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ٢٠٦هـ-٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط(٣)، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- صفة الصفوة، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي ٥١٠-٥٩٧هـ، تحقيق: محمود فاخوري خرج أحاديثه د. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط(٣) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- طبقات الشافعية، أبوبكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين ابن محمد قاضي شهبة الدمشقي، تحقيق: د. عبدالعليم خان، دار الندوة الجديدة، ط(١) ١٤٠٨هـ.
- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، دار المعارف بمصر.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع بن سعد، ت: ٢٣٠هـ، دار صادر، بيروت.
- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبه، القاهرة، ط(١)، ١٣٩٦هـ.
- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ناصف اليازجي، دار العلم، بيروت، لبنان.

- عروض الورقة، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: د. صالح جمال بدوي، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- عصر الدول والإمارات: (الجزيرة العربية - العراق - إيران)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، سلسلة تاريخ الأدب العربي (٥).
- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، تحقيق: د. عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
- علم البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، ط (١)، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م
- عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت: سنة ٢٧٦هـ، دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، سلسلة: تراثنا .
- غريب الحديث، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، ت ٣٨٨هـ، تحقيق: عبدالكريم العزباوي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة، ط ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- غريب الحديث ، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي ١٩٨-٢٨٥هـ، تحقيق ودراسة: د. سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة ط (١)، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- الفائق في غريب الحديث، للعلامة جارا لله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط (٢).
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ، ترقيم واستقصاء: محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح: محي الدين الخطيب، المكتبة السلفية.
- فقه السنة، السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط (٨)، ١٤٥٠هـ-١٩٨٧م.
- فن القصة والمقامة د. جميل سلطان، مطبعة الترقى، دمشق ١٣٦٢هـ-١٩٤٣ + دار الأنوار، بيروت، ط (١)، ١٩٦٧م.
- الفن القصصي في القرآن، د. محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط (٤)، ١٩٧٢م.

- فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي، د. أحمد أمين مصطفى، الطبعة (١) ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- فن المقامات بين المشرق والمغرب، د. يوسف نور عوض، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، العزيزية، ط (٢) ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- فن المقامات في الأدب العربي، د. عبدالمملك مرتاض، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سلسلة الدراسات الكبرى، ١٩٨٠م.
- فن المقامة في القرن السادس، د. حسان عباس، دارالمعارف (ط) ١٩٨٦م.
- فن المقامة والرسالة الأدبية في الأندلس، عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجي.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط (٥)، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (١٩).
- الفوائد البهية في تراجم الحنفية، أبو الحسنات محمد عبدالحفي الهندي اللكنوي، دار المعرفة، بيروت.
- فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتيبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٤م.
- في النقد الإسلامي المعاصر، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت/ (ط)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، دار الفكر، بيروت.
- قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، دارالجيل، بيروت/ ط ١٩٧٨م.
- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
- كتاب الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، ت: سنة ٢٢٤هـ، تحقيق: د. عبدالمجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط (١) ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- كتاب جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط (١)، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- كتاب سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دراسة وتحليل: د. عبدالرزاق أبو زيد زايد، مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢م.

- كتاب القصاص والمذكرين، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: سنة ٥٩٧هـ، تحقيق: د. محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت، ط (١) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- الكشف، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت: سنة ٥٣٨هـ، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- اللاليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ط (٣)، ١٤٠١هـ.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المصري، ت: سنة ٧١١هـ، دار صارة، بيروت.
- مجتمع الهمداني من خلال مقاماته، د. مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط (٢) ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري الميداني، ت: سنة ٥١٨هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار القلم، بيروت، لبنان.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت ٨٠٧هـ، دار الكتاب، بيروت، ط (٢)، ١٩٦٧م + ط (٣)، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- مجموع أشعار العرب، وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج وعلى أبيات مفردات منسوبة إليه، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط (٢)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمعها: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي التجدي الحنبلي وابنه محمد، طبع بإشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ت ٦٦٦هـ، دار الكتب العربية، بيروت.
- مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، تعليق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، نشر مكتبة دار البيان، دمشق ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، ط ١٢٨٣هـ - مصر .

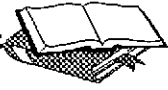
- المستدرك على الصحيحين في الحديث، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، مكتبة النصر الحديثة، الرياض + دار المعرفة بيروت، لبنان.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد ت سنة ٢٤١هـ، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.
- معاهد التنصيص، عبدالرحيم العباس، عالم الكتب، بيروت.
- معجم الأدباء، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، ت: سنة ٦٢٦هـ، نشره أحمد فريد رفاعي، مطبعة دار المأمون، القاهرة ١٣٣٦هـ-١٩٣٨م.
- معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- معجم فقه السلف، محمد المنتصر الكتاني، جامعة أم القرى، المركز العالمي للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة، أحمد بن مصطفى، طاش كبرى زاده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(١)، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: سنة ٥٠٣هـ، تحقيق: د. محمد سيد كيلاني، دار المعارف، بيروت، لبنان.
- المقامة، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط(٢).
- المقامات الأدبية، الشيخ الإمام أبي محمد القاسم ابن علي ابن محمد ابن عثمان الحريري البصري، دار الكتب العربية الكبرى مصر، ط(١).
- مقامات بديع الزمان الهمداني، أبي الفضل أحمد بن حسين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.
- مقامات بديع الزمان الهمداني، تقديم: فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(١)، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- مقامات الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(٢) ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، طبعة جديدة مشروحة ومنقحة.
- المقامات، شرح مقامات الحريري، تحقيق: يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط(١) ١٩٨١م.

- المقامات شرح مقامات الزمخشري، تحقيق: يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان، ط(٢).
- المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمذاني، د. هادي حسن جمودي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(١) ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د. الشحات محمد أبوستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط(١) ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- مقدمة في علم الأخلاق، محمود حمدي زقزوق، دار القلم، الكويت، ط ١٤٠١هـ-١٩٨٠م.
- منهج المسلم، أبوبكر جابرا جزائري، دار الشروق جده - السعودية.
- منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط(١)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- منهج القصة في القرآن، محمد شديد، شركة مكنتات عكاظ، ط(١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- من الوجوه الأدبية في دراسة القرآن الكريم، د. السيد تقي الدين، دار إحياء الكتب العربية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط(١)، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض، ط(٢) ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- الموطأ، للإمام مالك بن أنس - رضي الله عنه -، صححه وحققه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: عاصم بهجة البيطار، دار النفائس، بيروت، ط(٣) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط(١)، ١٣٨٢هـ.
- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت + دار الكتاب العربي، القاهرة.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، دار الكتب المصرية، ط(١)، ١٣٤٨هـ.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، ت: سنة ٥٩٧هـ، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، دار المعارف.
- نظرية النحو القرآني، د. أحمد مكّي الأنصاري، مطابع أبو الفتوح، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط(١)، ١٤٠٥هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ت: طاهر محمد الزواوي، محمود الطناحي.
- وفيات الأعيان، أبوعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ت: سنة ٦٨١هـ، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط ١٣٩٨هـ + ط(١) ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.
- يتيمة الدهر، أبو منصور عبد الله الثعالبي النيسابوري، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(١) ١٤٠٣هـ.

٤ - الدوريات :

- الآداب ، عدد يناير بيروت ١٩٧١م.
- بحوث كلية اللغة العربية، السنة الرابعة، العدد الرابع ١٤٠٧هـ، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية .
- دراسات ، م ١١، العدد الرابع صفر ١٤٠٥هـ، تشرين الثاني ١٩٨٤م.
- الموقف الأدبي، عدد أول أيار، دمشق ١٩٧٨م.
- مجلة معهد المخطوطات العربية، إصدار الكويت، ج١، المجلد ٢٨ ربيع الآخر - رمضان ١٤٠٤هـ، يناير - يونيو ١٩٨٤م .

**٤ - فهرس الموضوعات**

الموضوع.....المقدمة

المقدمة ١

التمهيد : لمحة دالة عن فن المقامة في الأدب العربي ١٤-١

نشأة فن المقامة..... ١٤-٢

الباب الأول: قضايا موضوعية في الإنسان والحياة عند كتاب المقامة ١٥

الفصل الأول : الأخلاق الإسلامية في المقامة ١٦-١٠٤

تعريف الخلق لغة ١٧

أبزر الأخلاق الإسلامية التي تضمنتها المقامات:

- الزهد : ٢٠

تعريفه : ٢٠

عند ابن الجوزي..... ٢١

عند الزمخشري..... ٢٨

عند بديع الزمان الهمذاني..... ٢٩

عند الحريري..... ٣٢

- الصبر: ٣٥

تعريفه ٣٥

عند ابن الجوزي..... ٣٥

عند الزمخشري..... ٣٩

عند بديع الزمان الهمذاني..... ٤١

عند ابن نايقا..... ٤٣

عند الحريري..... ٤٤

- الشكر:

تعريفه ٤٥

عند ابن الجوزي..... ٤٥

عند الزمخشري..... ٤٨

عند ابن نايقا..... ٥٠

الموضوع الصفحات

٥١ عند الحريري

٥٣ - **الكرم** :

٥٣ عند ابن الجوزي

٦٨ عند الزمخشري

٧٠ عند بديع الزمان الهمداني

٧٢ عند ابن نباته

٧٣ عند ابن ناقيا

٧٣ عند الحريري

٧٧ **حسن الصحبة أو المصاحبة** :

٧٧ التعريف بها

٧٨ عند ابن الجوزي

٨٢ عند الزمخشري

٨٥ عند بديع الزمان الهمداني

٨٦ عند ابن نباته

٨٧ عند ابن ناقيا

٨٨ عند الحريري

٩٢ - **الوفاء** :

٩٢ عند ابن الجوزي

٩٧ عند الزمخشري

٩٨ عند بديع الزمان الهمداني

٩٩ عند الحريري

١٠٠ - **الشجاعة** :

١٠٠ عند ابن الجوزي

١٠٢ عند الزمخشري

١٠٢ عند بديع الزمان الهمداني

١٠٣ عند الحريري

الموضوع الصفحة

الفصل الثاني : النقد الاجتماعي : ١٠٥-١٥٥

ومن أبرز الصور الاجتماعية:

استغلال الوعظ في مآرب شخصية: ١٠٧

عند بديع الزمان ١٠٧

عند ابن نباته ١٠٨

عند ابن نايقا ١٠٩

عند الحريري ١١١

النزعة إلى الزهد والوعظ: ١١١

عند الزمخشري ١١١

عند الأسواني ١١٣

عند ابن الجوزي ١١٤

اللهو والمجون :

عند الزمخشري ١١٨

عند الأسواني ١٢٢

عند ابن الجوزي ١٢٤

عقلية العامة ١٢٥

أ) إيمانهم بالحرز: ١٢٦

عند بديع الزمان ١٢٦

عند الحريري ١٢٧

ب) إيمانهم بالعين ١٢٩

عند ابن الجوزي ١٢٩

ج) إيمانهم بالشعوذة: ١٢٩

عند ابن نايقا ١٢٩

د) إيمانهم بشياطين الشعر ١٣٠

عند بديع الزمان الهمداني ١٣٠

هـ) إيمانهم بالتطير ١٣١

عند الحريري ١٣٢

الموضوع..... الصور

١٣٢ ومن الصور؛ الكدية، بطرق منها:

١٣٢ أم التعامى أو ادعاء عاهة

١٣٢ عند بديع الزمان الهمداني

١٣٤ عند ابن ناقياً

١٣٤ عند الحريري

١٣٦ (ب) القراد

١٣٦ عند بديع الزمان الهمداني

١٣٨ (ج) الادعاء بتبدل الحال مع وجود العيال

١٤١ ومن الصور :

١٤١ بيع العبيد

١٤٣ المرأة

١٤٣ عند الزمخشري

١٤٤ عند ابن الجوزي

١٤٥ استغلال المساجد لغير العبادة

١٤٥ عند بديع الزمان الهمداني

١٤٦ عند ابن ناقياً

١٤٧ عند الحريري

١٤٨ عند الأسواني

١٤٩ الطعام والمطاعم

١٤٩ عند ابن الجوزي

١٥٠ نقد بني زمانهم

١٥٠ عند الزمخشري

١٥٢ عند ابن الجوزي

الفصل الثالث : ١٥٦-١٨٥

١٥٦ الحاكم في المقامة

١٥٧ عند بديع الزمان الهمداني

١٦٥ عند ابن نباته

١٦٧ عند الحريري



المؤلفون الصفحة

عند النعماني ١٧٥

عند الزمخشري ١٧٧

عند الأسواني ١٨٠

عند ابن الجوزي ١٨١

الفصل الرابع : الجهاد في المقامة: ١٨٦-٢٠٩

عند بديع الزمان الهمداني ١٨٧

عند ابن ناقيًا ١٩١

عند الحريري ١٩١

عند الزمخشري ١٩٣

عند ابن الجوزي ١٩٩

الفصل الخامس : الحياة والموت في المقامة: ٢١٠-٢٣٧

الحياة: ٢١١

الموت: ٢١١

عند بديع الزمان الهمداني ٢١١

عند ابن ناقيًا ٢١٥

عند الحريري ٢١٦

عند الزمخشري ٢٢٤

عند ابن الجوزي ٢٢٤

الفصل السادس : علوم اللغة العربية في المقامة: ٢٣٨-٢٨٧

علوم النحو: ٢٤٠

عند الحريري ٢٤٠

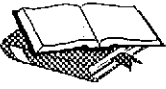
عند الزمخشري ٢٤١

عند الأسواني ٢٤٨

عند ابن الجوزي ٢٤٩

العروض: ٢٥٤

عند الزمخشري ٢٥٤



الموضوع الصفحة

القافية : ٢٥٦

عند الزمخشري ٢٥٦

النقد : ٢٥٧

عند بديع الزمان الهمداني ٢٥٧

عند ابن الجوزي ٢٦٢

الباب الثاني : ملامح الفن الإسلامي في المقامة ٢٦٣-٥٠٩

ويتكون من فصلين :

الفصل الأول : فن الوعظ ٢٦٥

- الرمزية ٢٦٦-٢٩٣

عند البديع ٢٦٧

عند ابن نباته ٢٧٢

عند ابن ناقيًا ٢٧٢

عند الحريري ٢٧٣

عند الزمخشري ٢٧٦

استدعاء لشخصيات الذاتية من القرآن ٢٧٩

عند الزمخشري ٢٧٩

عند ابن الجوزي ٢٨٨

القص : ٢٩٤-٣٢٣

القصص عند ابن الجوزي، من أبرز عناصره: ٢٩٤

١- الشخصية ٢٩٦

٢- الأحداث ٢٩٨

٣- الحوار ٢٩٩

٤- الزمان والمكان ٣٠٠

القص عند الزمخشري ٣١٠

القص عند بديع الزمان ٣١٦

القص عند الحريري ٣٢٠

الموضوع

الموضوع

الواقعية ٣٧٥-٣٢٤

السفر ٣٢٥

عند البديع ٣٢٥

عند ابن نايقا ٣٢٧

عند الأسواني ٣٢٧

عند ابن الجوزي ٣٢٨

عند الحريري ٣٢٩

أ) الاستخارة ٣٣٠

ب) الدعاء ٣٣١

ج) الجار ٣٣٤

د) إقامة الدروس في المساجد ٣٣٦

هـ) افشاء السلام ٣٣٦

و) السؤال ٣٣٧

ز) الصحبة ٣٣٨

ح) حب العلم والعلماء ٣٤٠

ط) الحث على الزواج ٣٤٤

ي) الحج ٣٤٨

ك) التوبة ٣٥١

ل) الحجامة ٣٥٥

م) زيارة القبور ٣٥٦

ابن الجوزي ٣٥٧

الوعظ بالموت ٣٥٨

الصوم ٣٦٢

القناعة ٣٦٩

العزلة ٣٧٠

الصوفية ٣٧٣

الموهبة الموهبة

٣٧٧ الصلاة

٣٧٩ صلاة الاستسقاء

٥٠٨-٣٨١ **الفصل الثاني : الأسلوب**

٤٠٧-٣٨٢ **المعجم اللغوي:**

٣٨٢ عند البديع

٣٩٠ عند ابن نباته

٣٩١ عند ابن ناقياً

٣٩٢ عند الحريري

٣٩٩ عند النعماني

٤٠١ عند الزمخشري

٤٠٢ عند الأسواني

٤٠٢ عند ابن الجوزي

٤١٠-٤٠٨ **الصياغة :**

٤٠٨ عند البديع

٤٠٨ عند ابن نباته

٤٠٨ عند ابن ناقياً

٤٠٩ عند الحريري

٤٠٩ عند النعماني

٤٠٩ عند الزمخشري

٤٠٩ عند الأسواني

٤٠٩ عند ابن الجوزي

٤٢٢-٤١١ **السمع :**

٤١١ عند البديع

٤١٤ عند ابن نباته

٤١٤ عند ابن ناقياً

٤١٥ عند الحريري

الموضوع الصفحات

٤١٨ عند النعماني

٤١٩ عند الزمخشري

٤٢٠ عند الأسواني

٤٢١ عند ابن الجوزي

الجناس : ٤٢٣-٤٣٤

٤٢٣ عند البديع

٤٢٤ عند ابن نباته

٤٢٦ عند ابن ناقيا

٤٢٧ عند الحريري

٤٢٩ عند النعماني

٤٣٠ عند الزمخشري

٤٣١ عند الأسواني

٤٣٢ عند ابن الجوزي

الطباق والمقابلة : ٤٣٥-٤٤٣

٤٣٥ عند البديع

٤٣٦ عند ابن نباته

٤٣٧ عند ابن ناقيا

٤٣٨ عند الحريري

٤٣٩ عند النعماني

٤٤٠ عند الزمخشري

٤٤١ عند الأسواني

٤٤٢ عند ابن الجوزي

الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم ٤٤٤-٤٥٤

٤٤٤ عند البديع

٤٤٥ عند ابن نباته

٤٤٧ عند ابن ناقيا

الموضوع المصنوع

٤٤٧ عند الحريري

٤٥٠ عند النعماني

٤٥٠ عند الزمخشري

٤٥١ عند الأسواني

٤٥٢ عند ابن الجوزي

٤٦٤-٤٥٥ الاقتباس من الحديث الشريف

٤٥٥ عند البديع

٤٥٦ عند ابن ناقيا

٤٥٨ عند الحريري

٤٥٠ عند الزمخشري

٤٦٢ عند الأسواني

٤٦٣ عند ابن الجوزي

٤٧٤-٤٦٥ الاقتباس من الشعر :

٤٦٥ عند البديع

٤٦٧ عند ابن ناقيا

٤٦٨ عند الحريري

٤٧٢ عند النعماني

٤٧٢ عند ابن الجوزي

٤٨٢-٤٧٥ الاقتباس من الأمثال :

٤٧٥ عند البديع

٤٧٥ عند ابن نباته

٤٧٦ عند ابن ناقيا

٤٧٧ عند الحريري

٤٧٩ عند النعماني

٤٨٠ عند ابن الجوزي

الموضوع الصورة

الصورة ٤٨٣-٥٠٩

التشبيه ٤٨٣-٤٩٥

عند البديع ٤٨٤

عند ابن نباته ٤٨٥

عند ابن ناقيًا ٤٨٧

عند الحريري ٤٨٩

عند الزمخشري ٤٩٢

عند ابن الجوزي ٤٩٣

المجاز والاستعارة ٤٩٦-٥٠٨

عند البديع ٤٩٦

عند ابن ناقيًا ٥٠٠

عند الحريري ٥٠١

عند الزمخشري ٥٠٤

الخاتمة: ٥١٠-٥٢٠

الفهارس: ٥٢١-٥٦٠

فهرس الآيات ٥٢١-٥٢٦

فهرس الأحاديث ٥٢٧-٥٣٥

فهرس المصادر والمراجع ٥٣٦-٥٤٩

فهرس الموضوعات ٥٥٠-٥٦٠